تصوير ابو عبد الرحمن الكردي

H A F Z A H

POLITICS

د. علي محافظة

حروب الخليج

في مذكّرات الساسة والعسكريّين الغربيّين

منتدى إقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
منتدى إقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
للكتب (كوردى ,عربي ,فارسي)

بۆدابەزاندنی جۆرەها کتێب:سەردانی: (مُنتَدى إقرَأ الثَقافِي)

لتحميل أنواع الكتب راجع: (مُنتَدى إقرَأ الثَقافِي)

براي دانلود كتابهاى مختلف مراجعه: (منتدى اقرا الثقافي)

www. iqra.ahlamontada.com

منتدى إقراء الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

للكتب (كوردى ,عربي ,فارسي)

حروب الخليج في مذكّرات الساسة والعسكريّين الغربيّين / سياسة
د. علي محافظة / مؤلف من الأردنّ
الطبعة الأولى ، 2012
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب 11-5460 ، هاتفاكس : 751438 / 752308 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب: 9157، عمّان 11191 ـ الأردنّ،
هاتف 5605431 6 00962 / 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الإلكترونيّ: www.airpbooks.com
الإشراف الفنّي والخطوط وتصميم الغلاف :
[illegible] ®
خطوط الغلاف : زهير أبو شايب
الصفّ الضوئيّ : المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشرّ
التنفيذ الطباعيّ : ديمو برس / بيروت ، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in any retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر .

ISBN 978-614-419-153-8

د. علي محافظة

حروب الخليج
في مذكّرات الساسة والعسكريّين الغربيّين

إهــداء

إلى الشباب العربي الذين تمردوا على واقعهم المتسم بالجمود والتخلف والمذلة ، وثاروا على الظلم والاستبداد والفساد ، وضحوا بدمائهم ، دفاعاً عن حريتهم وكرامتهم ، أقدم هذا الكتاب ، لعله يساهم في كشف النوايا العدوانية والخطط الاستعمارية الغربية ، الرامية إلى استعباد أمتهم والحيلولة دون نهوضها وتقدمها ، واستغلال ثرواتها وخيراتها .

المحتويات

مقدمـة 9

الباب الأول: الحرب العراقية-الإيرانية 11

الفصل الأول : الحرب العراقية-الإيرانية في مذكرات الساسة الأمريكيين والبريطانيين والفرنسيين . 13

الباب الثاني: غزو العراق للكويت 63

الفصل الأول : غزو العراق للكويت في مذكرات جيمس بيكر 65

الفصل الثاني : غزو العراق للكويت في مذكرات ديك تشيني 111

الفصل الثالث : غزو العراق للكويت في مذكرات الجنرال كولن باول 137

الفصل الرابع : غزو العراق للكويت في مذكرات الجنرال نورمان شوارتزكوبف 169

الفصل الخامس : حرب تحرير الكويت في مذكرات ريتشارد هاس 245

الفصل السادس : غزو العراق للكويت في مذكرات الساسة والعسكريين البريطانيين : مارغريت تاتشر ، وجون ميجور ، ودوغلاس هيرد ، وإدوارد هيث والجنرال بيتر دولا بيليير 263

الفصل السابع : غزو العراق للكويت في مذكرات جاك أوكونيل وجان بيير شفنمان 303

الباب الثالث: الاحتلال الأمريكي-البريطاني للعراق 349

الفصل الأول : الغزو الأمريكي-البريطاني للعراق في مذكرات جورج بوش (الابن) 359

الفصل الثاني : الغزو الأمريكي-البريطاني للعراق في مذكرات بول بريمر 421

الفصل الثالث : الغزو الأمريكي-البريطاني للعراق في مذكرات مادلين البرايت وريتشارد هاس 461

الفصل الرابع : الغزو الأمريكي-البريطاني للعراق في مذكرات جورج 481
تينيت
الفصل الخامس : الغزو الأمريكي-البريطاني للعراق في مذكرات جاك 501
أوكونيل
الفصل السادس : الغزو الأمريكي-البريطاني للعراق في مذكرات 517
توني بلير

مقدمة

إذا استثنينا الانتفاضات الثورية العربية والحراك السياسي الذي رافقها ، مطالباً بالتغيير والإصلاح الشاملين منذ نهاية سنة ٢٠١٠ حتى اليوم ، فإن حروب الخليج الثلاث : الحرب العراقية-الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨) ، وغزو العراق للكويت (١٩٩٠-١٩٩١) ، والاحتلال الأمريكي-البريطاني للعراق (٢٠٠٣-٢٠١١) تعد من أهم الأحداث التي شهدها الوطن العربي في العقود الزمنية الثلاثة الأخيرة . وقد شدت هذه الحروب انتباه الساسة والعسكريين ورجال الفكر والصحافة في البلاد العربية والغرب . واختلف هؤلاء ، مثلما اختلف الناس جميعاً في مواقفهم من هذه الحروب ، وفي تحليلهم لأسبابها وبيان النتائج التي أسفرت عنها .

صدرت أبحاث ومؤلفات كثيرة عن هذه الحروب ، أثناءها أو في أعقابها . وصدرت في أوقات لاحقة مذكرات الساسة والعسكريين الغربيين الذين شاركوا في هذه الحروب ، وجمعت منها تسعة عشر كتاباً لشخصيات أمريكية وبريطانية وفرنسية ، رأيت ، بعد قراءاتها ، أن ألخص ما فيها من مواقف وأفكار وآراء للقارئ العربي . وحرصت على عرض ما فيها بأمانة ودقة ، واقتباس بعض نصوصها لتقديم صورة واضحة وصادقة عنها .

قسمت الكتاب إلى أبواب ثلاثة ، تضمن كل منها مذكرات الساسة والعسكريين الغربيين الذين ساهموا فيها . وختمت كل باب بملاحظات مني أبديتها حول ما جاء في هذه المذكرات من أحداث وآراء ومواقف . ولما كانت حصة كل حرب من هذه الحروب من المذكرات تختلف في حجمها ، فقد تباينت الأبواب في عدد فصولها وعدد صفحاتها ، مثلما تباينت الفصول في كل باب في عدد صفحاتها .

إن قصدي من هذا الكتاب إطلاع القارئ العربي على النوايا الحقيقية للقوى المعادية لأمته ، وعلى الخطط الاستعمارية التي تستهدف الحيلولة دون نهوضها وتقدمها ، والأحقاد العنصرية لدى القادة الغربيين نحوها ، ومدى احتقارهم لها ،

والكشف عن مشاعر التفوق العنصري لديهم ، وعما أحاق بأمتنا ، على أيديهم ، من دمار لبناها الأساسية ، وقتل لزهرة شبابها ، وموت لأطفالها ونسائها وشيوخها ، تحت شعارات براقة كالدفاع عن حقوق الإنسان ، ومناهضة الاستبداد والدكتاتورية ، وحماية القانون الدولي ، والإشفاق على الشعوب المضطهدة .

وأتمنى أن يقرأ هذا الكتاب القادة والحكام العرب وكبار المسؤولين في الدول العربية ، لعلهم يأخذون عبرة ودرساً مما كتب الساسة والعسكريون الغربيون عن تجربتهم معهم أو مع أسلافهم ، ونظرتهم إليهم .

ولا يسعني ، في هذا المقام ، إلا أن أشكر السيدة إيناس حمد ، التي قامت بطباعة مسودة هذا الكتاب على الكمبيوتر .

عمان ٥/ ٨/ ٢٠١٢

الباب الأول

الحرب العراقية-الإيرانية

١٩٨٠-١٩٨٨

الفصل الأول

الحرب العراقية-الإيرانية
في مذكرات الساسة الأمريكيين والبريطانيين والفرنسيين

الرئيس الأمريكي نيكسون والإسلام

أثارت حروب الخليج الثلاث: الحرب العراقية - الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨)، وغزو العراق للكويت (١٩٩٠-١٩٩١)، واحتلال العراق ٢٠٠٣، اهتمام الساسة والقادة العسكريين الغربيين، وكان لهم دور فاعل في أحداثها وتطوراتها، وما أسفرت عنه من نتائج خطيرة على منطقة الخليج العربية، وعلى الوطن العربي كله، وعلى جيرانه، وعلى العالم بأسره. وأتيح للعديد من هؤلاء الساسة والقادة العسكريين كتابة مذكراتهم التي تضمنت معلومات غزيرة، بعضها معروف من خلال البيانات والتصريحات التي أدلوا بها خلال مجريات هذه الحروب، وبعضها الآخر ينشر لأول مرة. وتحتوي هذه المذكرات على آراء ووجهات نظر لتسويغ مواقف بعضهم، أو للدفاع عن الأخطاء التي ارتكبوها، والتي كانت لها ردود فعل سلبية لدى شعوبهم، تمثلت في المظاهرات الاستنكارية والاحتجاجات الشعبية الواسعة على هذه المواقف. وتتضمن هذه المذكرات أيضاً رؤية هؤلاء الساسة للإسلام ولطموحات الشعوب العربية والإسلامية، وتصورهم لطبيعة العلاقة بين هذه الشعوب والغرب. ونظراً لأهمية ما جاء في هذه المذكرات من معلومات وآراء ورؤى مستقبلية انعكست آثارها على منطقتنا العربية وعلى مستقبلها، رأيت أن من المفيد للقارئ العربي بعامة، والقارئ الأردني والخليجي بخاصة، الاطلاع على ما جاء في هذه المذكرات. فالدروس والعبر التاريخية قلما يعنى بها حكام منطقتنا أو يفيدون منها. والأمل معقود أن تتعظ بها شعوبنا التي استيقظت من سباتها العميق، ونهضت من كبوتها الثقيلة، وأن يفيد منها شباب الأمة اليقظ الذي قرر، كما يبدو، أن يأخذ زمام الأمور بيديه.

وسوف أبدأ بمذكرات ريتشارد نيكسون Richard Nixon، الذي يعد من أوسع

الرؤساء الأمريكيين ثقافة وأعمقهم معرفة بأحوال بلاده الولايات المتحدة الأمريكية وبشؤون العالم . وسأتناول كتابه «أغتنم اللحظة : تحدي أمريكا في عالم تسوده قوة عظمى واحـــدة» Seize The Moment: America's Challenge in A one-Super-Power World . الصادر عن دار النشر Simon and Schuster في نيويورك ولندن سنة ١٩٩٢ . يعرض الرئيس الأمريكي السابع والثلاثون (١٩٦٩-١٩٧٤) للصورة السلبية للإسلام والمسلمين لدى الشعب الأمريكي ، والتي لا يعادلها سوءاً وتشويها حتى صورة الصين الشعبية لديه . فهم في نظر معظم الأمريكيين غير متحضرين ، متوحشون ، قذرون وغير عقلانيين ، ولكنهم محظوظون لأن أرضهم تحتوي على ثلثي أحتياطي العالم من النفط . يتذكر الأمريكيون أن الدول العربية شنت ثلاث حروب من أجل القضاء على إسرائيل ، مثلما يتذكرون احتجاز آية الله الخميني للرهائن الأمريكيين في طهران ، واختطاف الفدائيين الفلسطينيين من منظمة أيلول الأسود للفريق الرياضي الإسرائيلي في أولمبياد ميونخ ، والمذابح الحمقاء على يد الميليشيات المتحاربة في لبنان (١٩٧٥-١٩٩٠) ، وتفجير الطائرات المدنية من قبل السوريين والليبيين ، واجتياح صدام حسين للكويت .

ويرى نيكسون أن بعض المراقبين الأمريكيين يحذرون من الإسلام الذي قد يصبح قوة سياسية عالمية وجدانية ومتعصبة ، وأن أعداد المسلمين المتزايدة ، وقدرتهم المالية الفائقة ، ستفرض تحدياً رئيسياً للغرب ، سيضطره إلى تكوين تحالف جديد مع روسيا لمجابهة عالم إسلامي عدواني ومعاد .

ويذهب أيضاً إلى أن هذه النظرة ترى في الإسلام والغرب نقيضين ، وتستمد هذه النظرة أساسها الفكري من مؤلفات بعض المستشرقين في الغرب أمثال برنارد لويس Bernard Lewis الذي كرر في مؤلفاته نظرة المسلمين للعالم بقيام دار الإسلام ودار الحرب . ويتخيل أصحاب هذه النظرة أن قوى الأصولية الإسلامية الناشئة تعد لثورة واسعة النطاق تمتد من إيران إلى بقية أقطار العالم الإسلامي . ويدعو هؤلاء إلى سياسة احتواء غربية ـ سوفيتية لهذه القوى النامية .

يرد نيكسون على أصحاب هذه الرؤية للعالم الإسلامي بالقول : «صحيح أن العالم الإسلامي واسع جداً ومتنوع ومتباين ، بحيث يتعذر عليه تجميع قواه وتنسيقها» . وصحيح أيضاً أن المسلمين يؤلفون سدس سكان العالم (٨٥٠ مليون نسمة سنة ١٩٩٠) يعيشون في (٣٧) دولة ، ويتوزعون على (١٩٠) أمة ومجموعة

عرقية تتكلم مئات اللغات واللهجات المختلفة ، وينتمون إلى ثلاث طوائف دينية هي : السنة والشيعة والصوفية ، وعشرة مذاهب أو أكثر . ويبلغ طول العالم الإسلامي عشرة آلاف ميل ، يمتد من مراكش إلى يوغوسلافيا ، ومن تركيا إلى باكستان ، ومن جمهوريات آسيا الوسطى إلى إندونيسيا . ويعيش في الصين من المسلمين أكثر مما يعيش منهم في شبه جزيرة العرب . ويتجاوز عدد المسلمين في إندونيسيا سكان الشرق الأوسط كله . وقد يتجاوز عدد المسلمين في الاتحاد السوفياتي عدد الروس في القرن الحادي والعشرين .

يجمع المسلمين ، في نظر نيكسون ، عاملان فقط هما : العقيدة الإسلامية والاضطراب السياسي ، فالإسلام ليس مجرد دين وإنما هو أساس لحضارة كبرى . ويأخذ على الغربيين نظرتهم إلى العالم الإسلامي ككيان منفرد . ويؤكد أن لا وجود لمكتب سياسي إسلامي يوجه سياسات هذه العالم ، وإنما هناك أمم تشترك في اتجاهات سياسية وثقافية لها صلة بالحضارة الإسلامية . وكما يوجد في جميع الدول الغربية أحزاب سياسية تنادي بحرية السوق ، ودولة الرفاه الاجتماعي ، والاشتراكية ، توجد في الدول الإسلامية جماعات تدعو إلى الأصولية والراديكالية والحداثة . الاشتراك في العقيدة وفي التوجهات السياسية يفضي إلى تضامن حقيقي بين المسلمين ولكنه تضامن ضعيف . ويبرز هذا بوضوح حينما يحدث حادث كبير في العالم الإسلامي يتردد صداه في أجزائه الأخرى .

يتسم العالم الإسلامي ، في رأي نيكسون ، بالخصومات التي حولته إلى مرجل يغلي بالنزاعات . فالمغرب ضد الجزائر ، وليبيا ضد الجزائر ، وليبيا ضد تشاد ، وسوريا ضد الأردن ، وسوريا ضد لبنان ، والأردن خصم للعربية السعودية ، والعربية السعودية ضد دول الخليج الصغيرة ، والعربية السعودية خصم لليمن ، والعراق خصم لسوريا ، والعراق خصم للكويت وللعربية السعودية ، والعراق خصم لإيران ، ودول الخليج العربية ضد إيران ، وباكستان ضد أفغانستان ، والهند خصم لباكستان ، وبنغلادش وإندونيسيا ضد ماليزيا وغينيا الجديدة ، ولما كان العديد من هذه الدول كيانات مصطنعة مؤلفة من أمم وجماعات عرقية عدة ، فالنزاعات الداخلية تسود هذه المنطقة من العالم . وتساهم الخلافات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في تغذية هذه النزاعات . ومن المعروف أن مراكز التفجر السكاني في العالم مستقرة في العالم الإسلامي ، واقتصادياته لن تنمو بما يكفي للحيلولة دون تدني مستوى المعيشة ، وهذا

يضعف من قدرة حكوماته على تجنب أخطار على الاستقرار والسلام في المنطقة . وبسبب فقر المنطقة بالمياه ستندلع خلافات ونزاعات وحروب فيها . ولما كانت الحدود بين هذه الدول قد اصطنعتها الدول الأوروبية الاستعمارية فهي مهددة بالتحدي من قبل الدول والأقليات الأثينية داخلها . أما أنظمة الحكم في العالم الإسلامي فمعظمها مستبد ومتسلط ودكتاتوري أو ملكي تقليدي تعتمد على احتكار السلطة أكثر من اعتمادها على رضى شعوبها وتأييدها . أما التحرر السياسي فقد أفضى في معظم الحالات إلى التجزئة والتفكك دون أن يؤدي إلى الديمقراطية .

وفي سنة ١٩٩٠ ، أنفقت دول العالم الإسلامي ما يربو على ٨٪ من مجمل إنتاجها القومي على التسلح ، بينما كان إنفاق الدول الغربية أقل من ٥٪ ، فقد أنفق العراق ٨٪ من إنتاجه القومي ، وسوريا ١١٪ ، والعربية السعودية ١٧٪ ، ومصر ٨٪ ، وباكستان ٧٪ . ومن بين الدول الخمس عشرة التي تملك صواريخ بالستية تسع منها إسلامية . وأخطر دولتين نوويتين في المنطقة هما إسرائيل وباكستان .

يقول نيكسون : «لقد زرت ثلاث عشرة دولة إسلامية من الدول السبع والثلاثين خلال السنوات الثماني والثلاثين» التي سبقت تأليف كتابه هذا ، ووجد قادتها يفخرون بتراثهم ، ومعظمهم مناهض للشيوعية . وباستثناء اليمن الجنوبي ، لم يستند النفوذ السوفياتي في العالم الإسلامي إلى الإعجاب بالأفكار الشيوعية ، وإنما إلى الحاجة لشراء الأسلحة السوفياتية . ويؤكد نيكسون أن الإسلام صمد أمام الشيوعية بثبات أفضل من المسيحية .

ويؤكد أن قلة من الأمريكيين يعرفون التراث الغني للعالم الإسلامي ، ومعظمهم يتذكرون أن الإسلام انتشر بالسيف في آسيا وأفريقيا وأوروبا ، ويتجاهلون أو يجهلون أن لا مكان للإرهاب في العقيدة الإسلامية ، وأن أوروبا قد أمضت ثلاثة قرون من الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت .

هذه هي صورة العالم الإسلامي السلبية كما قدمها ريتشارد نيكسون . وسوف نرى في المقال القادم صورة زاهية للإسلام في العصور الوسطى ، وتصوراً لنيكسون لمستقبل علاقات العرب بالعالم الإسلامي .

الاتجاهات السياسية في العالم الإسلامي

بعد أن استعرض نيكسون صورة الإسلام والمسلمين السلبية لدى الأمريكيين

والغـرب ، وحـاول إزالة الأوهام التي تكونت لـديهم عن خطر الإسـلام والأصـوليين المسلمين ، بإبراز عناصر الضعف والنزاع في صفوفهم ، سعى إلى تقديم صـورة زاهية عن الإسـلام والمسـلمين في العـصـور الوسطى . يقول في هذا الصـدد : «بينـمـا كـانت أوروبا تهيم في دياجير الظلام في العصور الوسطى بلغت الحضارة الإسلامية عصرها الذهبي ، وقدم العالم الإسـلامي مـساهمة عظيـمـة في العلوم والطب والفلسـفة» .

ويستشهد نيكسون بالمؤرخ الأمريكي ويل ديورانت Will Durant في كـتابه «عصر الإيمان The Age of Faith» ، الذي أكد فيه أن مفتاح التقدم في جميع العلوم كان في أيدي المسلمين في هذا العصر . كان ابن سينا أعظم المؤلفين في الطب ، والرازي أعظم الأطباء ، والبيروني أبرز الجغرافيين ، وابن الهيثم ، أشهر علماء البصريات ، وجابر بن حيان أعظم الكيميائيين ، وابن رشد أشهر الفلاسفة . وكان للعلماء العرب مساهمة جلى في تطوير أسـاليب البـحث العلمي . وكـتـب ديورانـت : «جلب روجـر بيكون Roger Bacon هذا الأسلوب إلى أوروبا ، بعد خمس مئة سنة من ظهور جابر بن حيان . فالفضل في اكتشافه يعزى إلى عرب إسبانيا الذين جاؤوا بالتنوير من الشرق الإسـلامي» . ولما تقـدم علمـاء النهـضـة الأوروبية في مـيـادين المعـرفـة ، واصلوا اكتشافاتهم بسبب اعتمادهم على عمالقة العالم الإسلامي .

عاد نيكسون ، بعد إشادته بماضي العرب والمسلمين ، إلى ما يجب انتهاجه من سياسـات للهيمنة على العالم الإسلامي واستغلال ثرواته . يقول في هذه الاتجاه : «يجب أن نتبنى سيـاسـات توجه التطور التـاريخي الطويل للعـالم الإسـلامي في اتجاهات بناءة ، ومعالجة المشكلات التي تواجهه مثل : أمن الخليج الفارسي ، والصراع العربي ـ الإسرائيلي . . . ما لم ننجح في مجابهة هذه التحديات ، فإن مهد الحضارة سيغدو قبراً لها» .

يؤكـد نيكسـون أن في العـالم الإسـلامي حضـارة حية تبحث عن هويتـهـا التاريخية ، بعد أن تخلص هذا العالم من قيود الاستعمار في الخمسينات والستينات من القرن العشـرين ، «وانساق في الدهاليز المظلمة للقوميـة العربيـة وعدم الانحياز والأصولية الرجعية» . وها هو في التسعينات يجدد البحث عن مكانة تليق به في هذا العالم . والولايات المتحدة بحاجة ماسة لسياسة فعالة تؤثر في هذا التطور بطرق بناءة .

يرى نيكسـون أن أكبر عقبة في طريق تطوير هذه السياسة هي «وضع جميع دول

العالم الإسلامي في فئة واحدة» . وينزعج كثيرون من الأمريكيين من الهتافات والشعارات المعادية للغرب في شوارع المدن الإسلامية . ويميلون إلى اعتبار جميع الأمم الإسلامية «أعداء لنا» . ويؤكد نيكسون أن العقيدة الإسلامية تمثل خيطاً من الوحدة يربط سياسات هذه الأمم معاً ، ولكنه لا ينسجها في كتلة متناسقة . فسياسات كل دولة في العالم الإسلامي لا علاقة لها بالإسلام ولا بكيفية تفاعل الإسلام في ثقافتها وتقاليدها القومية . هناك شيء من التضامن السياسي بين الأمم الإسلامية . لما غزا الاتحاد السوفياتي أفغانستان ، اهتزت علاقات موسكو مع الدول الإسلامية من المغرب إلى إندونيسيا . وبلغت مع بعض الدول مثل العربية السعودية مرحلة الجمود . ولا شك أن هذه الدول تدرك الدعم الأمريكي بلا حدود لإسرائيل ، من خلال تزويدها بمليارات الدولارات كمنحة ، مثلما تدرك الموقف السلبي الأمريكي من القضية الفلسطينية . ويعد هذا عائقاً رئيسياً لإقامة علاقات أوثق مع جميع الدول الإسلامية .

يعود نيكسون فيؤكد أن الإسلام يقدم نظرة عامة لهذه الأمم عن العالم ولا يقدم لها منبراً سياسياً . والإسلام مثل كل دين عظيم معرض لتفسيرات عديدة تؤيد مقاربات وتوجهات سياسية متباينة . في الغرب باركت المسيحية في فترة من الزمن الأنظمة الملكية التي تؤمن بالحق الإلهي المقدس للملوك ، وتقدم الآن مفتاحاً سحرياً للفكر الديمقراطي من خلال الاعتقاد بالكرامة الإنسانية للفرد . والإسلام بدوره قابل لتفسيرات متباينة وللتغيير التطوري . وخير دليل على ذلك أن الخميني وصدام حسين وأنور السادات وضياء الحق قد ادعوا جميعاً ، على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم السياسية ، انتماء أنظمة حكمهم إلى الإسلام .

للعمل في العالم الإسلامي ، يجب على صناع القرار في الغرب المناورة في إطار النزاعات الإيديولوجية السامة والمنافسات القومية . يلخص نيكسون التيارات الفكرية الأساسية في العالم الإسلامي في تيارات ثلاثة هي :

١- الأصولية : التي تلخصها صورة الرهائن الأمريكيين المعصوبة عيونهم وهم يعرضون أمام السفارة الأمريكية في طهران على شاشة التلفزيون ، وهي صورة تثير الحزن والألم . وتليها صورة (٢٤١) من جنود مشاة البحرية الأمريكية الذين قتلوا في تفجير شاحنة في ثكنتهم في بيروت ، وهيئات المختطفين الأمريكيين التي تشبه الأشباح في جنوب لبنان ، يرى نيكسون أن هذه الصورة توجز

التعطش السياسي للأصوليين الإسلاميين المتطرفين ، والكراهية للغرب التي تحركهم ، والتصميم لديهم على استعادة تفوق الحضارة الإسلامية . إنهم يسعون إلى فرض الشريعة الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم ، ولا تفصل بين الدين والدولة . وينظرون إلى الماضي كمرشد وهاد للمستقبل . هم ليسوا محافظين وإنما ثوريون يعملون على تدمير القديم من أجل بناء الجديد . لم يبحث نيكسون في أخطاء السياسات الأمريكية ، منذ نهاية الحرب العالمية في العالم الإسلامي والمآسي التي لحقت بالشعوب الإسلامية جراء هذه السياسة الخرقاء ، والأسباب التي أدت إلى ظهور حركات الإسلام السياسي .

٢- الراديكالية : يسيطر الدكتاتوريون وأنظمة الحزب الواحد على العديد من دول العالم الإسلامي ، متذرعين بشرعية الإيديولوجيات القومية المتطرفة . بعضها مثل ليبيا القذافي تشبه دكتاتورية موسوليني ، وبعضها الأخر مثل سوريا الأسد ، وعراق صدام حسين ، نظامان شموليان شرسان يبزان في قسوتهما نظام حكم ستالين . وهي أنظمة معادية للغرب كالأصوليين ، وتتاجر بمعارضتها للامبريالية لتعبئة شعوبها ، وتتعاون مع الاتحاد السوفياتي في الهجوم على الولايات المتحدة وحلفائها . ولا تقوم سلطة هذه الأنظمة على الكاريزما (الجاذبية القيادية) لقادتها وإنما على شراسة قواتها الأمنية .

٣- التحديث : يعد هذا التيار أبرز التيارات الفكرية الثلاثة وأشهرها ، ولكنه أقلها فاعلية على أرض الواقع . فهو تيار يسعى إلى دمج أقطار العالم الإسلامي بالعالم المعاصر ، اقتصاديا وسياسياً ، منطلقه التسامح مع الغرب باعتباره مفتاح القوة الدافعة للإسلام الحديث . وبعض الدول الإسلامية الحديثة مثل تركيا وباكستان ديمقراطية ، كما أن مصر وإندونيسيا تعدان من المجتمعات المنفتحة نسبياً ، ولكنها جميعاً بعيدة عن مستوى الديمقراطيات الغربية . ينادي القادة السياسيون التحديثيون بضرورة احتواء بلادهم على أفضل ما لدى الغرب من ثقافة وأعراف اجتماعية .

بعد هذا التصنيف للتيارات الفكرية والسياسة في العالم الإسلامي ، يدعو نيكسون إلى ضرورة التفريق بين الدين الإسلامي وأعمال المتطرفين المسلمين . ويؤكد ضعف شعبية هؤلاء المتطرفين بين شعوبهم . وأن فرص وصولهم إلى السلطة في بلادهم ضعيفة جداً .

ولكن لنيكسون نظرة صائبة للمستقبل . فهو يرى أن الشعوب الإسلامية مرشحة للثورة . إنها شعوب شابة ، ما يربو على ٦٠٪ منها تحت سن الخامسة والعشرين . وهي شعوب فقيرة متوسط دخل الفرد السنوي فيها ، بما في ذلك الدول المنتجة للنفط ، (١٦٠٠) دولار سنة ١٩٩١ . وهي شعوب محرومة من المشاركة في الحكم ، ٢٧٪ من هذه الشعوب تعيش في دول شبه ديمقراطية ، ولا تجد هذه الشعوب أملاً في الإيديولوجية المادية الشيوعية ، ولا في الرأسمالية الاستهلاكية الغربية .

ينادي نيكسون بضرورة مساندة التحديثيين في العالم الإسلامي ؛ لأن في ذلك مصلحة لهم وللغرب . ويتهم نيكسون الحكام العرب المستبدين بالبلادة وعدم الإحساس بمطالب شعوبهم . يقول في هذا الصدد : «في دعمنا لحاكم غير ديمقراطي صديق لنا ، يجب أن نوضح له أننا لا نؤيد أنظمة حكم لا تشرك شعوبها في الحكم» .

ويدعو إلى معرفة أصدقاء أمريكا وأعدائها في رسم السياسات الأمريكية . وينتقد السياسة الأمريكية نحو إيران والعراق وسوريا . ولكنه يوصي بوضع استراتيجية تقوم على التعاون مع أنظمة الحكم التحديثية ، وحصر علاقات أمريكا مع الأنظمة الأصولية المتطرفة والأنظمة الراديكالية «بالتعاون التكتيكي» ، وينهى عن البحث عن قادة معتدلين في الأنظمة الأصولية المتطرفة مثل إيران ، أو التودد إلى القادة الراديكاليين ، أو المساهمة في بناء دولهم ، ولكن دون قطع الاتصال بهم .

تمثل آراء نيكسون في الإسلام وفي الحركات السياسية في العالم الإسلامي قمة التوازن والاعتدال ، مقارنة بآراء غيره من القادة السياسيين الغربيين الذين سنتناولهم فيما بعد .

نيكسون يقترح سياسة أمريكية جديدة نحو العالم الإسلامي

ينتقل نيكسون ، بعد عرضه لصورة الإسلام المشوهة لدى الأمريكيين والغرب ، وللسياسة الواجب اتباعها للحفاظ على المصالح الغربية العراقية (١٩٨٠-١٩٨٨) . يقول نيكسون : «انتقد العديد من المراقبين السياسة الأمريكية نحو الحرب الإيرانية - العراقية ، وعبروا عن صدمتهم ، لأننا ساعدنا بالتناوب فريقاً من المتحاربين على الآخر ، ثم ساعدنا الفريق الآخر ، معتمدين على سير المعارك . هم على حق جزئياً ، فقد اقتضت مصالحنا أن لا يحرز النصر أي فريق في هذه الحرب . تصرفت إدارة ريغان

تصرفاً سليماً في اللعب على الطرفين . بالسماح ببيع الأسلحة للعراق ، كانت الغلطة في زيادة كميات الأسلحة حتى تمنع قدرات إيران الهجومية ، وليس بمساعدة صدام حسين ليصبح تهديداً عسكرياً بعد الحرب . إذن يؤيد نيكسون هذه الانتهازية الأمريكية ، الرامية إلى إطالة أمد الحرب لتدمير البنى التحتية للبلدين المتحاربين ، واستنفاد قدراتهما الاقتصادية ، وإنهاك قواهما العسكرية ، باعتبارهما عدوين للولايات المتحدة الأمريكية .

يرى نيكسون أن على الولايات المتحدة الحفاظ على مسافة معينة في علاقاتها مع هذه الأنظمة الحاكمة في العالم الإسلامي المعادية للغرب ، وانتهاج «التعاون التكتيكي» معها . «لقد تعلمنا من درس العراق القاسي أن صديق اليوم الخفي قد يصبح عدو الغد المميت . كانت الكلفة عالية في حالة صدام حسين : مئة مليار دولار و(١٤٨) قتيلاً من الأمريكيين لتصحيح خطئنا» .

يقترح نيكسون «سياسة إسلامية كبرى» من أجل توجيه التطور التاريخي للعالم الإسلامي ، بحيث تطبق هذه السياسة على كل الدول الإسلامية ، وتعتمد نقاطاً رئيسية للحضور الأمريكي في هذه الدول . تقوم هذه السياسة على شراكة مع دول إسلامية تحديثية منتقاة تشارك الولايات المتحدة في المصالح والأجندات المتقابلة . ولا بد لهذه الدول المنتقاة أن تتمتع بوزن حقيقي في المنطقة ، وأن يشمل العمل معها الأمور السياسية والأمنية ، وتقديم النصيحة والمساعدة لدفع التنمية الاقتصادية إلى الأمام ، بحيث تبرز هذه الدول تدريجياً كنماذج للنجاح والتقدم في العالم الإسلامي ، وقدوة للقوى التحديثية في هذا العالم ، ويتوقع نيكسون أن هذه السياسة ستجعل من هذه الدول المنتقاة مراكز جذب اقتصادية وسياسية ، وأقطاباً لتحريك المنطقة بأسرها في اتجاه إيجابي وفي إطار تغيير سلمي .

انتقى نيكسون أربع دول إسلامية كشريكات للولايات المتحدة وهي : تركيا وباكستان ومصر وإندونيسيا . ويلاحظ هنا أنه تجاهل بقية الدول العربية مثلما تجاهل دول الخليج العربي النفطية . ويبين نيكسون لماذا انتقى هذه الدول الأربع .

فتركيا تعد جسراً جغرافياً وثقافياً يربط العالمين الإسلامي والغربي . وفيها حكم ديمقراطي فاعل عمره تسع سنوات . وهي أكبر مزود لحلفاء شمال الأطلسي بالجنود بين الدول الأعضاء فيه . ويدعو الحكومة الأمريكية إلى حث حلفائها الأوروبيين لقبول تركيا في عضوية الاتحاد الأوروبي . كما يدعوها إلى حض تركيا على الإفادة

من علاقاتها التاريخية والثقافية لتعزيز نفوذها السياسي والاقتصادي في الشرق الأوسط . وإذا حصل تقدم في عملية السلام العربية ـ الإسرائيلية ، فالمسألة الثانية المهمة في المنطقة هي توزيع المياه ، وهنا يبرز دور تركيا في تخفيف أزمة المياه لدى الدول الفقيرة ، من خلال مد الأنابيب لتزويدها بما تحتاجه من مياه ، باعتبار تركيا أغنى بلدان المنطقة بالمياه .

أما باكستان فهي الشريك الاستراتيجي الرئيسي الوحيد للولايات المتحدة في المنطقة الممتدة من تركيا إلى اليابان . وقد تعاونت مع الولايات المتحدة في العقود الزمنية الأخيرة لدعم المقاومة الأفغانية للاحتلال السوفياتي ، ولتسهيل التقارب مع الصين سنة ١٩٧٢ . ومع أن سياسة باكستان تتعارض أحياناً مع السياسة الأمريكية ، وخاصة في مسألة انتشار الأسلحة النووية ، لم تبد أية دولة أخرى شجاعة مماثلة لشجاعتها في مجابهة العدوان السوفياتي على أفغانستان ، وحتى تتجنب الولايات المتحدة نزاعاً نووياً محتملاً بين باكستان والهند حول مسألة كشمير ، يجب عليها أن تحث نيودلهي على إنهاء حالات خرق حقوق الإنسان من قبل قواتها الأمنية في هذه الولاية ، والتفاوض على اتفاق للحكم الذاتي مع قادة كشمير . كما يجب تشجيع رجال الأعمال الأمريكيين على الاستثمار في باكستان لتعزيز عملية الإصلاح فيها .

يبرر نيكسون اختياره لمصر ، بأن سكانها يؤلفون ٣٥٪ من مجموع سكان العالم العربي ، وبأنها الدولة العربية الأولى التي وقعت معاهدة سلام مع إسرائيل ، وظلت لعشر سنوات مطرودة من جامعة الدول العربية ، ثم عادت كزعيمة طبيعية للعرب . ويقترح نيكسون قيام جبهة عربية موحدة مع الولايات المتحدة لدعم عملية السلام العربية ـ الإسرائيلية ، ومقابل ذلك تلغى الديون المترتبة على مصر ، وتقدم لها المعونات لوضع اقتصادها على مسار حرية السوق ، ومساعدة قادة مصر على تبني إصلاحات سليمة تؤدي إلى تغذية الشعب المصري ، وليس إلى إثراء بيروقراطية نهمة .

وآخر هذه الدول المنتقاة إندونيسيا المؤلفة من أرخبيل طوله ألف ميل ، وهي خامس دولة في العالم في عدد السكان . وقد بدأت بخطوات اقتصادية مهمة ، مع أنها ظلت تحكم حكماً مستبداً على يد الرئيس سوهارتو Suharto منذ سنة ١٩٦٧ . وارتفع دخل الفرد السنوي بين سنتي ١٩٦٧ و١٩٩١ من خمسين دولاراً إلى خمس

مئة دولار ، وتبنى برامج ناجحة للحد من نمو سكان بلاده المتعاظم ، وغدت إندونيسيا رائدة في إصلاحات حرية السوق في العالم الإسلامي . وارتفعت قيمة صادراتها من المنتجات غير النفطية حتى بلغت ضعف قيمة صادراتها من النفط سنة ١٩٩١ . وواصلت دفع أقساط ديونها منذ سنة ١٩٦٧ دون إعادة جدولة لها .

يقول نيكسون إن انتقاء هذه الدول الأربع لإقامة شراكة أمريكية معها لا يعني التخلي عن أنظمة الحكم الإسلامية التحديثية الأخرى الموالية للغرب . فهو يمتدح الحسن الثاني ، ملك المغرب ، ويعده من الحكام المسلمين المستنيرين ، وأنه ينتهج سياسات تقدمية في المغرب ، ويتعاون مع الولايات المتحدة في مسائل إستراتيجية مهمة . ويشيد بعلاقات المملكة العربية السعودية مع الغرب ، ولكنه يصف نظام حكمها بالمستبد المتسلط . ولا يعتبر المغرب والعربية السعودية من الدول التي تمثل قاعدة مركزية قابلة للحياة ، لأنهما تفتقران للثقل السياسي الضروري لتوجيه العالم الإسلامي .

ويقرر نيكسون أن سياسة الشراكة الانتقائية التي يقترحها لن تحقق نجاحاً فورياً . ولكنه يرى أن أثرها الواضح في توجيه التطور التاريخي للعالم الإسلامي سيظهر بعد جيل واحد . وهو يتوقع للأنظمة الأصولية الإسلامية ، مثل إيران ، وللأنظمة الراديكالية مثل ليبيا والعراق وسوريا بالزوال .

وينصح الإدارات الأمريكية بعدم الاقتراب كثيراً من الدول التحديثية الإسلامية حتى لا تغدو العلاقات الأمريكية معها هدفاً للمعارضة المحلية ، وذلك لأن ذكريات الاستعمار في العالم الإسلامي تجعل من النفوذ الغربي مسألة حساسة . ويرى أن تعامل هذه الإدارات القادة التحديثيين المسلمين كشركاء أنداد .

ينتقد نيكسون ثورات الغضب التي تعتري الأمريكيين حين تعارض حكومة أجنبية صديقة السياسة الأمريكية . ويضرب مثلاً على ذلك موقف القادة العرب من قصف الولايات المتحدة لليبيا في نيسان ١٩٨٦ ، رداً على هجمات إرهابية ضد موظفين أمريكيين ، ويقول : «استنكر العديد من القادة في المنطقة ذلك ، وأدانونا علناً ، ولكنهم سروا خفية بذلك» .

في مذكرات مارغريت تاتشر

مع أن مارغريت تاتشر Margaret Thatcher ، كانت رئيسة وزراء بريطانيا طوال فترة الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨) ، إلا أنها لم تول هذه الحرب اهتماماً في مذكراتها التي صدرت سنة ١٩٩٣ تحت عنوان «سنوات داوننغ ستريت The Dowing Street Years» عن دار النشر Harper Collins في لندن . وكتبت عنها بضعة أسطر ، بينما كتبت صفحات عديدة عن الأشهر القليلة التي سبقت تخليها عن السلطة ، والتي شهدت غزو العراق للكويت .

تناولت تاتشر الحرب العراقية ـ الإيرانية في فقرتين من مذاكرتها . اتهمت فيها العراق بالبادئ بالحرب . كتبت في هذا الصدد : «في أيلول ١٩٨٠ ، هاجم العراق إيران ، ووجدنا أنفسنا ، مرة أخرى ، في مخاض أزمة جديدة لها مضاعفات سياسية واقتصادية خطيرة محتملة على المصالح الغربية . قرر صدام حسين أن الفوضى القائمة في إيران تقدم له فرصة لا تعوض لإلغاء اتفاق الجزائر لسنة ١٩٧٥ الذي سوى النزاع بين البلدين حول شط العرب ، والاستيلاء عليه بالقوة : «بعد اندلاع الحرب بقليل جاء بيتر كارنغتون Peter Carrington وزير الخارجية إلى تشكرز Chequers مقر رئيسة الوزراء الصيفي خارج لندن ، لبحث الوضع معي . كنت معنياً بصورة رئيسية بالحيلولة دون انتشار النزاع إلى الخليج ، وتورط دول الخليج الغنية بالنفط الهشة الكيان ، وهي التي لها علاقات تقليدية وثيقة مع بريطانيا . أبلغت بيتر أنني لا أشاطر الرأي الشائع بأن الإيرانيين سيهزمون بسرعة . إنهم محاربون متشددون ، ولديهم سلاح جوي فعال يستطيعون به الهجوم على المنشآت النفطية العراقية . لقد كنت على صواب : ففي نهاية السنة ، وبعد نجاحات أولية ، أصبح العراقيون عاجزين عن التقدم ، وغدت الحرب تهدد استقرار الخليج والملاحة الغربية في المنطقة» .

قامت تاتشر بزيارة للعربية السعودية ودول الخليج العربية الأخرى في نيسان ١٩٨١ ، أي بعد مرور ما يربو على ستة أشهر من اندلاع الحرب العراقية الإيرانية . بدأت تلك الجولة في ١٨ نيسان ١٩٨١ بزيارة العربية السعودية . فكانت أول رئيس وزراء بريطاني يزور هذه الدول . وقد أعدت نفسها كامرأة للزيارة بارتداء ملابس محتشمة مراعاة للتقاليد الإسلامية المحافظة في هذه الدول . وقد امتدحت في مذكراتها زوجات قادة تلك الدول ، وما يتمتعن به من تعلم وثقافة ومعلومات . وشد

انتباهها ما يتمتعن به من نفوذ لا يقيم الغرب له وزناً .

أشارت تاتشر إلى العلاقات البريطانية التقليدية المتينة مع دول الخليج ، والتي تعود إلى سنين ماضية ، يوم كانت بريطانيا حامية لهذه الدول ومسؤولة عن أمنها ، قبل اكتشاف النفط بمدة طويلة . ولم تتردد في إبداء أسفها على انسحاب القوات البريطانية من هذه الدول ومنحها الاستقلال سنة ١٩٧١ . ووجهت اللوم لحكومة إدوارد هيث Edward Heath التي التزمت بقرار حكومة العمال ، برئاسة هارولد ويلسون Harold Wilson ، بسحب القوات البريطانية ، والتخلي عن مسؤوليات بريطانيا في منطقة شرقي السويس . وبررت هذا الأسف بقولها : «أثبتت الأحداث مراراً أن الغرب لا يستطيع انتهاج سياسة التخلي التام عن هذه المنطقة الاستراتيجية الحيوية» .

اعترفت تاتشر أن جولتها هذه كانت لأهداف تجارية وأمنية ، تقول في هذا الصدد : «وفي هذا المجال عززت صلاتنا الدفاعية القديمة مصالحنا التجارية . فبعض الطائرات الحربية والدبابات البريطانية تناسب هذه المنطقة» . واغتنمت تاتشر هذه المناسبة لتطمين قادة دول الخليج بشأن «قوة الانتشار السريع Rapid Deployment Force» التي كثر الحديث حولها آنذاك ، بسبب الحرب العراقية ـ الإيرانية . وكان بعض قادة الخليج وقادة دول المشرق العربي الأخرى ، يخشون أن تمهد هذه القوة الطريق لتدخل عسكري غربي مباشر في الشرق الأوسط . أكدت تاتشر لقادة الخليج أن ذلك لن يحدث دون علمهم ودن موافقتهم .

تقول تاتشر في مذاكرتها : «كان النزاع العراقي ـ الإيراني مستمراً ، وإن كان على مستوى متدن من الفعالة . ولا يعرف أحد ما سيكون عليه من الخطورة في تهديد الأصولية الإسلامية . إن حضوراً غربياً مكشوفاً جداً قد يخلق مبرراً لاستمراره ، لكن دعماً قليلاً جداً قد يعطيه فرصة» . وأثنت على مجلس التعاون الخليجي ، واعتبرته عاملاً مهماً لضمان أمن المنطقة .

وفي زيارتها للإمارات العربية المتحدة في ٢١ نيسان ١٩٨١ أكدت أن بريطانيا زودت الإمارات بكميات جيدة من الأسلحة والاستشارات العسكرية ، ولا سيما طائرات هوك Hawk الهجومية الأرضية والتدريبية منها أيضاً . وفي زيارتها لإمارة دبي في اليوم التالي علقت بقولها : «دبي ساحرة ، مثل بقية بلدان الخليج التي زرتها» ملأى بالأزهار التي يتم العناية بها يوميا . وهي ميناء حافل بالنشاط والحركة» .

وزارت تاتشر مسقط ، والتقت بالسلطان قابوس الذي اعتبرته «أحد أقرب

الأصدقاء لبريطانيا في الخليج» . وبحثت معه حاجات عُمان من الأسلحة والتجهيزات العسكرية ، مثلما تناولت في حديثها معه الوضع في الخليج والحرب العراقية ـ الإيرانية . وقد وصفت السلطان بأنه «كان دوماً مصدراً قيماً للمعلومات عن إيران وما يجري فيها» . وعلقت على موقفها من الحرب المذكورة بالعبارة التالية : «كنا حريصين على أن تبقى الحرب محصورة بين الدولتين المتحاربتين ، وأن لا تتجاوز الطرف الشمالي من الخليج» ، وذكرت أن حكومتها وضعت ثلاث بوارج حربية من مجموعة أرميلا للحراسة البحرية Armilla Patrol في الخليج سنة ١٩٨٠ للإبقاء على الممرات البحرية مفتوحة ، لما أصبحت الحرب العراقية ـ الإيرانية تهدد الملاحة في الخليج . وكانت زيارتها لقطر في ختام جولتها هذه ، وبحثت مع أميرها الشيخ خليفة مساهمة الشركات البريطانية في تطوير استخراج الغاز القطري .

اعتبرت تاتشر هذه الجولة التي جمعت بين الدبلوماسية والتجارة والمباحثات الخاصة أنموذجاً يمكن تكراره في السنوات القادمة .

أرادت تاتشر إخفاء الدور البريطاني الحقيقي في الحرب العراقية ـ الإيرانية . وهو دور استهدف إطالة أمد الحرب ، من خلال تزويد الطرفين المتحاربين بالأسلحة والعتاد والتجهيزات العسكرية . فقد وقعت شركات بريطانية عقوداً مع العراق سنة ١٩٨١ لبيع أسلحة وعتاد (بقيمة ٣١٢,٥ مليون جنية استرليني . وزودت الشركات البريطانية العراق بألف سيارة من نوع لاندروفر» العسكرية ، و(٦٠) سيارة أخرى مجهزة باتصالات لاسلكية ، و(٥٠) سيارة من نوع (رينج روفر) ، واشترى العراقيون كميات من رادارات سمبلين Cymbeline لتعيين مواقع مدافع الهاون .

واستمرت بريطانيا في تدريب العسكريين من العراق وإيران . فقد كان ثمانون من طياري سلاح الجو العراقي يتدربون في كارليسل Carlisle ببريطانيا ، وفي الوقت نفسه كان عشرة من الضباط الإيرانيين يتدربون على استعمال نظام الدفاع الجوي Skyguard من قبل الشركة الصانعة البريطانية British Manufacture and Research Company ومقرها في القاعدة الجوية في فالدرينغوت . واستمرت بريطانيا في تدريب العراقيين طوال مدة الحرب ، بينما حرم الإيرانيون من هذه التسهيلات مع نهاية سنة ١٩٨٢ .

فرضت بريطانيا حظراً على تصدير التجهيزات العسكرية إلى كل من العراق وإيران سنة ١٩٨٤ . ولكن الشركات البريطانية لم تلتزم بهذا الحظر . وفي تشرين

الثاني ١٩٨٦ ، زار الآن كلارك Alain Clark ، وزير التجارة والصناعة ، بغداد لتشجيع التجارة البريطانية مع العراق ، على الرغم من قرار الحظر المعلن . واتفق مع علي حسن المجيد على زيادة القروض البريطانية للعراق إلى (٧٥٠) مليون جنية إسترليني ، وشجعت الحكومة البريطانية البنوك البريطانية على منح العراق قروضاً تجارية بمبالغ كبيرة . وقام بنك Midland Bank بدور قيادي في هذا المجال ، وأقرض العراق (٣٤٠) مليون جنية استرليني سنة ١٩٨٩ ، وقدم قرضاً آخر له سنة ١٩٩٠ مقداره (٢٥٠) مليون جنية . وبين سنتي ١٩٨٠ و١٩٨٥ ، زودت بريطانيا العراق بمواد عسكرية قيمتها (٢٣٨٨) مليون جنية إسترليني كقروض . وزيد هذا الرقم حتى بلغ (٣٥١٧) مليون جنية إسترليني سنة ١٩٩٠ .

الحرب العراقية-الإيرانية في مذكرات جاك أتالي

كان اهتمام الساسة الفرنسيين بالحرب العراقية - الإيرانية أعمق مما كان لدى أقرانهم من الساسة الأوروبيين والأمريكيين . ذلك أن علاقات فرنسا بكل من إيران والعراق قد تجاوزت حذر الدول الغربية الأخرى وتحفظاتها . ففرنسا هي التي استقبلت آية الله الخميني على أرضها لاجئاً سياسياً ، ومنها بدأ اتصالاته مع الداخل الإيراني . وهي التي سهلت له العودة إلى طهران لقيادة الثورة التي أطاحت بالشاه سنة ١٩٧٩ . وفتحت فرنسا أبواب التعاون مع العراق منذ بداية السبعينات من القرن العشرين ، وأبرم العراق معها عقوداً لشراء الأسلحة منذ سنة ١٩٧٦ . وتطور التعاون الاقتصادي بين البلدين طوال عقد السبعينات .

كانت الحرب العراقية - الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨) مفاجئة للساسة الفرنسيين ، مثلما كان تطور الأحداث الداخلية في إيران بعد نجاح الثورة مفاجئاً لهم . ففي ليلة ٢٩/٣٠ تموز ١٩٨١ ، وصل حسن بني صدر ، رئيس جمهورية إيران السابق ، ومسعود رجوي ، قائد حركة مجاهدي الشعب إلى مطار إفروي Evreux بفرنسا ، طالبين اللجوء السياسي . أعطت الحكومة الفرنسية موافقتها لهما شريطة أن لا يقوما بأي نشاط سياسي . ردت إيران على ذلك بتظاهر مئتين من الحرس الثوري صباح ١٩٨١/٧/٣٠ أمام سفارة فرنسا في طهران . وانضم المئات إليهم في اليوم التالي حتى بلغ عددهم خمسة آلاف ، لاسيما على أثر التصريحات التي أطلقها بني صدر ورجوي في باريس .

كان الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران في لندن خلال هذين اليومين ، وبعد عودته سعى إلى التهدئة مع إيران ، فأوعز إلى مركز صناعة السفن في شيربورغ بإنزال ثلاث سفن حربية من قاذفات الصواريخ إلى مياه البحر بقصد تسليمها لإيران ، وهي جزء من صفقة عقدها الشاه سنة ١٩٧٤ ، وتم التحفظ عليها منذ سنتين . ووجه ميتران رسالة تهنئة إلى الرئيس الإيراني الجديد علي رجائي . لم تجد هاتان الخطوتان استجابة لدى السلطات الإيرانية ، التي أتهمت فرنسا بأنها أصبحت مركزاً لمناهضة الثورة الإسلامية . عندها قررت باريس إعادة مواطنيها كإجراء وقائي . فما كان من الإيرانيين إلا أن أعادوا لعبة الرهائن الأمريكيين ، فقرروا منع (٦٢) فرنسيا من العودة إلى بلادهم في ٦ آب ١٩٨١ .

ترأس ميتران اجتماعاً في قصر الإليزيه لبحث الموضوع دام خمس ساعات ، تقرر فيه إرسال بول ديبي Pol Depis المبعوث الخاص لميتران إلى طهران ، حصل مبعوث الرئيس الفرنسي على وعد من السلطات الإيرانية بمغادرة حوالي مئة فرنسي يومي ١٠و١٢ آب ١٩٨١ . بعث وزير الخارجية الفرنسي كلود شيسون Claude Chysson مستشاره برونو دولاي Bruno Delaye إلى بني صدر ورجوي ، حاملاً رسالة من الرئيس ميتران جاء فيها : «إذا لم يعد مواطنونا ستعيشون منقطعين عن العالم» . في ليلة ١٢ آب ، غادر الفرنسيون المحتجزون طهران . ومنذئذ ولسنين تالية غدت فرنسا وما تمثله في عيون الإيرانيين شيطاناً لئيماً .

في أعقاب هذه الأزمة الحادة بين فرنسا وإيران وصل إلى باريس طارق عزيز ، نائب رئيس الوزراء العراقي ووزير الخارجية في ١٩٨١/٨/١٩ ، طالباً استئناف التعاون العسكري العراقي - الفرنسي . ينقل جاك أتالي Jacques Attali ، مستشار الرئيس ميتران تفاصيل الموقف الفرنسي من الحرب العراقية - الإيرانية في يومياته ، التي نشرها في مجلدين ضخمين بعنوان : «حرفيا Verbatim» الأول سنة ١٩٩٣ والثاني سنة ١٩٩٥ ، وتدور حول الأحداث وردود فعل رئاسة الجمهورية الفرنسية عليها بين سنتي ١٩٨١ و١٩٨٨ .

جاء في يوميات أتالي عن يوم ١٩٨١/٨/٢٠ : «استقبل طارق عزيز من قبل كلود شيسون ، وزير الخارجية ، وشارل هيرني Charles Hernu ، وزير الدفاع ، على التوالي . تخشى كل جماعات الضغط الفرنسية الدبلوماسية والعسكرية والصناعية انتصار إيران ، وتتحالف لصالح العراق ولتأييده . ومهما يكن فهي تتمنى ظاهرياً أن

تدوم الحرب أطول مدة ممكنة لبيع مزيد من الأسلحة . أما فرنسوا ميتران فمقتنع بأن هذه الحرب ستدوم وقتاً طويلاً» .

وفي ١٩٨٢/٧/٥ ، سلم سفير العراق في باريس رئيس الحكومة الفرنسية بييرموروا Pierre Mauroy ، رسالة من طارق عزيز يطلب فيها الموافقة على شراء (٦٩) طائرة ميراج ٢٠٠٠ (Mirage 2000) مجهزة بصواريخ جو أرض وصواريخ إكزوسيت Exocet .

وفي ١٩٨٢/٤/١٠ وصلت أنباء إلى قصر الإليزية (رئاسة الجمهورية في باريس) عن تحسن أوضاع إيران المالية والعسكرية . فقد أصبحت قواتها المسلحة أحسن تنظيماً ، وغدا كل هجوم تقوم به يعد إعداداً جيداً . ولم تتردد إيران ، المدعومة من سوريا وليبيا والاتحاد السوفياتي وكوريا الشمالية والهند ، في إعلان أهدافها النهائية من الحرب مع العراق وهي : القضاء على نظام حكم صدام حسين . يواصل الاتحاد السوفياتي تقديم الأسلحة لكل من العراق وإيران . وتواصل الولايات المتحدة دعم الجيش الإيراني ، على الرغم من بعض الإيماءات بالميل إلى العراق . أما الإدارة الفرنسية بقيادة ميتران فما زالت ميالة كليا للعراق ، وإن كان الرئيس ميتران نفسه يبدي بعض التحفظات . هذا مجمل المواقف الدولية كما سجلها المستشار أتالي حتى نهاية سنة ١٩٨٢ .

تبدأ يوميات أتالي سنة ١٩٨٣ باجتماع في قصر ماتنييون Matignon (رئاسة الوزراء الفرنسية) برئاسة رئيس الوزراء لمناقشة الدين الفرنسي على العراق . كان على العراق أن يدفع لفرنسا سنة ١٩٨٣ (١٦,٨) مليار فرنك ، منها (٧,٤) مليار للعقود المدنية و(٩,٣) مليار فرنك للعقود العسكرية . اقترح العراقيون أن يدفعوا أقل قليلاً من سبعة مليارات فرنك للعقود العسكرية . ورأى الفرنسيون أن هذا قليل . أما وزير خارجية فرنسا فيرى أن الاقتراح العراقي جيد لأنه لن يبقى من ديون سنة ١٩٨٣ سوى (٢,٥) مليار فرنك غير مدفوعة من العقود العسكرية . ويقدر أن القطيعة مع العراق ضربة شديدة لتجارة فرنسا مع دول الخليج . أما رئيس الوزراء بييرموروا فيرى في الاقتراح العراقي خسارة في ميزان المدفوعات الفرنسي مقدارها عشرة مليارات فرنك . ويطالب العراق بمعاملة أفضل لفرنسا التي ستزوده بطائرات سوبر إتندار Super Etendard .

في ١٩٨٣/٤/٢٦ ، أكد الرئيس ميتران أن قرار رئيس الوزراء حول الديون

العراقية سليم ، ولا بد من بدء التفاوض حولها بسرعة . ودعي طارق عزيز لزيارة باريس يوم ١٩٨٣/٥/٦ للتفاوض مع جاك ديلور Jacques Delors . وشرع الاثنان في مباحثاتهما يوم ١٩٨٣/٥/٧ .

وعد شيسون طارق عزيز بتزويد العراق بطائرات سوبر إتندار . ولامه وزير الدفاع ورئيس الوزراء على ذلك ، فاقترح في ١٩٨٣/٩/١٢ تصدير النفط العراقي ، مقابل تأجيل تزويد العراق بطائرات سوبر إتندار . أما أوبير فيدرين Hubert Vedrine ، المستشار الفني في رئاسة الجمهورية ، فكان محبذاً لتزويد العراق بهذه الطائرات . وقد أيدت مصر في ١٩٨٣/٩/١٥ تزويد العراق بهذه الطائرات ، وأبلغت فرنسا بذلك . بعث طارق عزيز برسالة إلى كلود شيسون في ١٩٨٣/٩/١٩ رافضاً اقتراحه بشأن أنبوب النفط السوري مقابل طائرات سوبر إتندار . وقع شيسون عقد بيع الطائرات مع العراق . طالب العراق في ١٩٨٣/٩/٢٠ بتزويده بعشرة صواريخ إكزوسيت .

أثار رئيس الجمهورية الفرنسية السابق فاليري جيسكار ديستان احتمال قيام إيران بإغلاق مضيق هرمز ومنع وصول النفط إلى فرنسا . ورد على ذلك جاك أتالي بقوله : «إذا كان الغرب غير قادر على القول بوضوح لإيران إن كل عمل من هذا النوع قد يؤدي إلى رد فوري وصاعق ، وإذا كان الغرب كله لا يستطيع التعبئة للدفاع عن مصالحه الحيوية ، فإنه يستحق بالتأكيد أن يدخل سلك الدول المتخلفة . هناك لحظات لا بد فيها من معرفة كيفية الاختيار بين البقاء والزوال» .

لما سئل الرئيس ميتران في مدينة ليبج Liège عن دعم فرنسا للعراق ، أجاب : «تنفذ فرنسا عقوداً مبرمة قبل سنة ١٩٨١ . وفرنسا ليست الوحيدة التي تزود العراق وإيران بالأسلحة» .

الاتصالات الفرنسية-الأمريكية أثناء الحرب

جاء في يوميات جاك أتالي ، مستشار الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران ، أنه تناول طعام الغداء في قصر الإليزيه مع الملك فهد بن عبد العزيز ، عاهل العربية السعودية ، في ٤ شباط ١٩٨٤ . وقد أخبره العاهل السعودي أن الرئيس الإيراني هاشمي رفسنجاني قد قال لصديق له ، إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل موت الخميني . وإذا اجتاح الإيرانيون العراق فسوف يواصلون زحفهم إلى لبنان عبر سوريا . وأكد الملك فهد ضرورة مساعدة العراق ، لأن ذلك من مصلحة الغرب .

وفي ٤ نيسان ١٩٨٤ ، تلقى أتالي برقية من (روبرت) ماكفارلين Bud (Robert) Mcfarlane ، مستشار الرئيس الأمريكي رونالد ريغان للأمن القومي ، حول الوضع في الخليج ، وأبلغه فيها عزمه على إرسال مساعد الأميرال بوينتديكستر Pointdexter إلى باريس لبحث الموضوع معه . وجاء في البرقية : «ما زلنا قلقين جداً من الوضع غير المستقر في منطقة الخليج الفارسي ، في وقت تدخل فيه الحرب الإيرانية ـ العراقية في مرحلة جديدة أكثر خطورة . إن قرب وقوع ما سماه الخميني «الهجوم النهائي» يجعل من المفيد أن نتبادل تقييمنا للوضع وللاتجاهات التي قد يتخذها النزاع . نحن ندرس حالياً عدداً من السيناريوهات (المشاهد) للتصعيد المحتمل . اثنان منها يثيران القلق ، الأول : تصعيد عراقي كبير قد يمد الحرب إلى منطقة الخليج نفسها ، والثاني توغل إيراني في الأراضي العراقية من جهة البصرة . ونعتقد أن أيا من هذين السيناريوهين له مضاعفات خطيرة على استقرار المنطقة كلها ، وعلى الوصول إلى النفط .

«نحن ، مثلكم ، منهمكون في البحث عن الوسائل العملية للحيلولة دون انهيار العراق . وتركزت جهودنا ، حتى هذا اليوم ، على تخفيف العبء الاقتصادي في العراق ، وعلى مساعدته لإيجاد أسواق بديلة لنفطه . وعلى إغلاق السبل أمام إيران للتزود بالأسلحة . وبسبب معرفة حكومتكم الواسعة بالقوات العسكرية العراقية وما تعانيه من ضعف ، نقدّر عالياً آراءكم حول ما تستطيع فرنسا أن تفعله من أجل تقوية الدفاعات العراقية ، وما نستطيع عمله لمساعدتكم في هذا المجال . . . ونرى من المفيد أن نتشاور فيما بيننا على نطاق واسع وسري ، حول هذه المسائل» .

جاء الأميرال بوينتديكستر إلى باريس في ١٩٨٤/٤/١٧ ، واستقبله الجنرال سولينيه Saulnier ، المستشار العسكري للرئيس ميتران وجاك أتالي ، مستشاره السياسي . يقول أتالي في يومياته عن هذا اللقاء :

«عرض علينا بوينتديكستر مخاوف الولايات المتحدة من النتائج المحتملة للنزاع الإيراني ـ العراقي على دول الخليج العربي . وذكرنا بأن الرئيس ريغان التزم علناً بضمان حرية الملاحظة في الخليج . توقع الاميرال تقهقراً عراقياً مهماً في القطاع الجنوبي من جبهة القتال ، وامتداد الأصولية الإسلامية إلى جنوب شرقي العراق ، مع احتمال انتشار عدواها . وتوقع ، نتيجة لذلك ، تصعيداً عراقياً واعتداء على الملاحة الدولية في الخليج ، لدفع إيران إلى تنفيذ تهديداتها بالهجوم البحري والجوي

على ناقلات النفط للبلاد العربية المعتدلة الواقعة على السواحل الغربية للخليج، ومنع المرور في مضيق هرمز. كما توقع الأميرال الأمريكي أعمالاً إرهابية إيرانية ضد الأنظمة العربية المعتدلة. قال الجنرال سولينيه: كانت المقاومة العراقية للهجمات الإيرانية في شباط الفائت فعالة، ومن المؤكد أن الإيرانيين احتلوا بعض الأراضي العراقية، ومنها جزر مجنون، غير أن العراق حريص على عدم التضحية برجاله وبأسلحته، ولم يفقد السيطرة على الوضع».

قال بوينتديكستر: «لا يتمنى الرئيس ريغان هزيمة لإيران، لأنها ستخدم مصالح السوفيات، ولكنه لا يتمنى نصراً لإيران، خوفاً من سيطرة الأصولية الإسلامية على دول الخليج العربية. ولهذا قامت الولايات المتحدة بأعمال تقوي العراق وتعزز وضعه إلى حين، وتضعف إيران. فالبنوك الأمريكية تدعم تمويل إنشاء أنبوب النفط العراقي عبر العربية السعودية، وتبذل جهداً لتحويل العملاء الغربيين عن شراء النفط الإيراني، ومنع تهريب قطع الغيار من أصل أمريكي من المواد الحربية إلى إيران».

وقبل أن يغادر الأميرال الأمريكي، تقدم بطلب غريب إذا قال: «نود القيام، بصورة ظاهرة، بتمرين للدفاع الجوي والبحري لحساب دول الشاطئ الغربي للخليج. ولما كنا لا نود أن نظهر بمظهر شرطي الخليج الوحيد، فإننا نرغب في مشاركة بريطانيا وفرنسا في هذا التمرين». ولما أبلغ أتالي الرئيس ميتران بهذا الطلب الأمريكي، رفض تلبيته، متذرعاً بأن دول الخليج ليست على وفاق في موضوع الدفاع المشترك في حال هجوم إيراني محتمل.

وفي ١٩٨٤/٤/٢٧ تلقى أتالي رسالة من ماكفارلين بشأن حاملات النفط التي هوجمت في اليوم السابق في الخليج الفارسي. تضمنت هذه الرسالة استعداد الولايات المتحدة للحرب في هذه المنطقة منذ أربع سنوات، والطلب من الحكومة الفرنسية إيقاف بيع صواريخ إكزوسيت للعراق. وجاء في هذه الرسالة ما يلي:

«أود أن تشاركني طريقة تحليلنا لتكرار الهجمات على السفن في الخليج، وتورط إيران في هذه الهجمات. ولما كنا منشغلين جداً بهذا التصعيد الجديد للأزمة، فإننا لا نعتقد بوجود ضرورة في هذه المرحلة، لاتخاذ تدابير اقتصادية استثنائية، كما أننا لا نظن أنه من الضروري أن تتخذ الدول من خارج المنطقة أي عمل عسكري.

نحن نحث جميع الدول المعنية على الاشتراك بفاعلية وبكل القنوات الممكنة في البحث عن حلول دبلوماسية لهذا الخطر الواقع على حرية الملاحة. كما نتوقع من

دول الخليج أيضاً أن تتخذ ما تراه مناسباً لمعالجة المسائل الأمنية في الخليج بنفسها ، قبل طلب مساعدة عسكرية خارجية . ولا شك أن طائراتنا الأواكس Awacs في العربية السعودية ، ووجود قواتنا البحرية في الشرق الأوسط ، وجهودكم الخاصة ، تقدم لهم معونة مؤكدة . إن كتيبة من العسكريين المحترفين تقوم حالياً بعمليات في بحر العرب .

إما إذا امتد القتال ، وطلب منا أن نقوم بدور أكبر من قبل دول المنطقة ، فسوف نحتاج لأربع سنوات من التخطيط لهذا النوع من الأحداث . نحن لا نسعى إلى مثل هذا التورط ، ونرى أن المناخ السياسي سوف يسير في هذا الاتجاه . قد يطلب منا علناً تقديم المعونة ، ونرغب في أن يكون واضحاً للعالم ، بما في ذلك إيران والعراق والاتحاد السوفياتي ، أننا نسعى إلى البقاء على الحياد في هذا النزاع ، وأننا لا نسعى إلى استغلاله كذريعة لزيادة حضورنا العسكري الدائم في المنطقة .

نحن نرى ، في هذه المرحلة ، مواصلة جهودنا للحيلولة دون أي ذعر على الصعيد الاقتصادي ، وننصح المتحاربين بضبط النفس . ونبذل جهداً لنشر الفكرة القائلة بأن الاحتياطي العالمي من الطاقة والمخزون المتوافر يدفعان إلى التحذير من فرض حصار اقتصادي عالمي إذا توقفت الملاحة في الخليج الفارسي .

أما بشأن المسألة الحساسة ، ضبط النفس المطلوب من المتحاربين ، فإننا نعتقد أنه من الضروري أن يطمئن العراق إلى أن حاجاته على الجبهة سوف تلبى . ولكننا نود أيضاً أن تتمكنوا من دراسة وسائل تخفيض قدراته الهجومية ضد السفن في الخليج ، بما في ذلك الحد من بيعه صواريخ أكزوسيت . نحن ندرك أهداف العراق ، الذي يثير التصعيد في الخليج . ولكننا نرى أن هذا العمل يناقض أمن الغربيين ومصالحهم الاقتصادية . يضاف إلى ذلك أننا لا نرى أن مثل هذا العمل ستكون له النتائج التي ينتظرها العراق ، لأن تدخلاً عسكرياً غربياً ، إذا حدث ، لن يؤدي إلى شد أزر العراق ، ولن يجبر إيران على التفاوض على وقف إطلاق النار . وبناء عليه فإننا لا نرى أي تناقض بين التدابير المتخذة لتجنب إكراه إيران للعراق على الاستسلام العسكري وتلك المحتملة لتخفيض مخاطر التصعيد في الخليج .

يقوم بلدانا بدور رئيسي في حماية الاستقرار الاقتصادية والأمن في هذا الظرف ، فلنستمر في العمل على نطاق واسع وتنسيق جهودنا لهذه الغاية» .

لا نجد في يوميات أتالي رأي الحكومة الفرنسية في هذه المقترحات الأمريكية .

وهي مقترحات تدل على رغبة حقيقية في إطالة أمد الحرب بين إيران والعراق ، وإنهاك كليهما ، وحماية المصالح الغربية في منطقة الخليج .

اجتماع حافظ الأسد مع فرنسوا ميتران (١٩٨٢)

في يوميات جاك أتالي محضر الاجتماع الذي تم بين الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران والرئيس السوري حافظ الأسد في قصر الإليزية في باريس في ١٩٨٢/١١/٢٧ ، وسأقتصر هنا على ما جاء في المحضر المذكور فيما يتعلق بالحرب العراقية ـ الإيرانية ، والخلاف السوري العراقي :

«الأسد : هل نتناول الآن النزاع العراقي ـ الإيراني؟

ميتران : بالتأكيد .

الأسد : تعرفون حال العلاقات بين سوريا والعراق؟

ميتران : نعم ، ويجب أن أقول لك بأنها علاقات غير طيبة .

الأسد : نحن ننتمي إلى حزب واحد . ولكنهم (أي العراقيون) تخلوا عن هذا الحزب . والواقع أننا بذلنا ما في وسعنا لإخراجهم منه .

ميتران : واضح ، مع هذه الحرب ، أخذت الخلافات بعداً جديداً .

الأسد : قبل هذه الحرب ، اتخذنا قراراً بتحسين علاقاتنا ، وأجرينا حديثاً لساعات عديدة مع الفريق أحمد حسن البكر ، رئيس الجمهورية آنذاك ، ومع نائبه صدام حسين من أجل التوصل إلى إنشاء اتحاد بين بلدينا ، وتوصلنا إلى صياغة دستور جديد . وبعد ذلك بقليل ، علمت بإقالة الرئيس البكر في ١٩٧٩/٧/١٦ ، وقد أعلمني برسالة أن استقالته لأسباب صحية ، وأن صدام حسين قد يواصل الجهود التي بدأناها لاتحاد البلدين . وفي ٢١ آب ١٩٧٩ ، علمت أن العراقيين اكتشفوا مؤامرة سورية ضد العراق ، مؤامرة تورط فيها (٢١) عضواً في قيادة حزب البعث ، واحد وعشرون! كيف يمكن تصديق ذلك؟ حتى لو أردنا فعل ذلك ، فكيف باستطاعتنا في أربعة أيام الاتصال بجميع هؤلاء الأشخاص؟ ولذا أرسلت عبد الحليم خدام مبعوثاً إلى بغداد : قيل له إن ملحقاً عسكرياً سوريا قام بدور في هذه المؤامرة دون أن نعرف اسمه أو رسمه . قال المبعوث باسمي : إنه لو كانت هناك مؤامرة لكانت أيضاً ضد سوريا ، لأن الدولتين تريدان الاتحاد ، ولنا مصالح مشتركة . لم نحصل على جواب . وقاموا بطرد دبلوماسيينا بأساليب وحشية ، بعد اعتقالهم بالقوة في السفارة السورية

في بغداد ، وبعد أن وضعوا فيها مواد متفجرة . وقد ساءت العلاقات منذئذ . لقد أثرت هذه الحرب كثيراً علينا مباشرة ، لأنه كما تعرفون ، يقال «دمشق قلب العروبة النابض» .

ما إن بدأت هذه الحرب ، حتى اتصلت مع ملوك وأمراء شبه الجزيرة العربية لإيجاد مخرج ما . وجدت اهتماماً مماثلاً لاهتمامي لدى الملك خالد ، عاهل العربية السعودية ، هل تعرفه؟

ميتران : خالد : أعرفه ، وهو أول رئيس دولة استقبلته .

الأسد : أما الحسين ملك الأردن ، فقد سر لاندلاع الحرب . قلت له : «أنت مخطئ ، لأن في إيران ثورة حقيقية ، ومن الصعب جداً القضاء عليها . توغل الجيش العراقي في الأراضي الإيرانية لا يكفي في هذه المرحلة من الحرب ، سادت فوضى كبرى في الثورة الإيرانية أتاحت لبعضهم استغلالها . وبعد ذلك وأثناء الحرب برزت الصعوبات المتزايدة التي أثبتت صحة تقديرنا للوضع . سوريا تعرف ذلك ، لأنها اعتادت على الحروب الطويلة ، ولكن الملك حسين ، أراد أن ندعم العراق كلياً .

في القمة العربية في فاس سنة ١٩٨٢ ، أعد الملك حسين غداء لي ولصدام حضره الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد ، وملك العربية السعودية . لم أدعم العراق ، لأنني فكرت بأن نتائج هذه الحرب لن تكون في صالح الشعب العراقي . لقد أدنا غزو العراق لإيران ، مع أن كل الناس اعتقدوا أن العراق سيكون المنتصر . اتخذنا هذا الموقف بين الدولتين المتحاربتين ، غير أن العراق رفض كل وساطة ، معتبراً كل عربي يدعو إليها خائناً للأمة العربية . منذئذ ساد الصمت . كان عرفات (ياسر) يجلس في القاعة نفسها حيث كنت أنت ، قال لي إن صدام قد كرر الشيء نفسه : كل واسطة عربية خائن .

على أي حال ، لن يحصلوا الآن من إيران على رد بشأن الوساطة ، لأن أعداداً كبيرة جداً من الأسر فقدت أبناءها . ماذا بإمكان الإيرانيين أن يقولوا لشعبهم؟ لقد اعتدي عليهم ، ويجب عليهم أن يقدموا التنازلات؟

ميتران : نحن أصدقاء للعراق ، مع أني لا أعرف شخصياً صدام حسين ولم أدخل العراق قط . ولكنك تعرف أن معظم الدول العربية راضية عن سياستنا . ومن جهة أخرى ، يشك بأن إسرائيل تساعد إيران . يمكن إجمال سياستنا في هذه الحرب : مواصلة دعمنا للعراق ، دون إثارة ، وسنكون مرتاحين إذا توقفت الحرب .

بدأت الولايات المتحدة بالاهتمام بالعراق ، ولن ترتب الأمور . والفترة التي كنت فيها سيء الحظ هي لما كنا معها في لبنان . ولكني تخليت عن الأمريكيين بعد ذلك ، نحن معاً في حلف الأطلسي . نحن أصدقاء ، ولكن إلى حد ما مثل القط والكلب» .

وتحتوي يوميات أتالي على محضر الاجتماع الذي تم في قصر الإليزيه بين وفد جامعة الدول العربية برئاسة الأمين العام للجامعة الشاذلي القليبي وضم طارق عزيز ، نائب رئيس وزراء العراق وزير الخارجية ، مع الرئيس الفرنسي ميتران بعد ظهر يوم ١٢ آذار ١٩٨٥ . دار الحديث بين الوفد العربي والرئيس الفرنسي بحضور مستشاره أتالي ، حول الحرب العراقية ـ الإيرانية . استعرض القليبي تاريخ هذه الحرب وجهود عدد من الدول والمنظمات الدولية لإنهائها . وقال : إن إيران مصرة على مواصلة الحرب ، بينما يبدي العراق انفتاحاً على مفاوضات لإنهائها . وأبدى الأمين العام للجامعة أسفه ؛ لأن الدول الكبرى تزود إيران بالأسلحة لاستمرار هذه الحرب التي ستكون لها نتائج كارثيه على المنطقة وعلى الدول الصناعية . وطالب بممارسة ضغوط على الدول التي تزود إيران بالسلاح . وبين للرئيس أن الجامعة العربية قد أخذت مبادرة للاتصال بالدول الأعضاء في مجلس الأمن الدولي من أجل إيقاف هذه الحرب . وبدأت أولى خطواتها بالاتصال بالرئيس الفرنسي .

قال ميتران للوفد : من الصعب جداً إيجاد حل مع أناس لا يرغبون فيه ، تتمنى فرنسا ، بالطبع ، السلام ، ولكن إذا اتخذنا اليوم خطوات في هذا الصدد فسترفضها إيران ، باعتبارنا أصدقاء للعراق . للاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة مصلحة في إنهاء هذا النزاع . ولكن ليس هناك أسوأ من مبادرة دبلوماسية تفشل .

أعرب القليبي عن أمل الجامعة العربية في أن تمارس دول الجماعة الاقتصادية الأوروبية ومجلس الأمن الدولي ضغوطاً لإيجاد حل لهذا النزاع . ووعد ميتران الوفد العربي بالتحدث مع الزعيم السوفياتي ميخائيل غوربا تشيف Mikhail Gorbachev حول الموضوع .

كان العراق خلال هذه الحرب المزود الثاني لفرنسا بالنفط الخام . وأصبح المستورد الأول للأسلحة الفرنسية . حصل العراق على طائرات ميراج (Mirage F1) ، وميراج ٢٠٠٠ (Mirage 2000) وطائرات سوبر إتندار (Super Etendard) ، وطائرات عمودية من نوع بوما (Puma) ومن نوع (Gazelle) ، ودبابات من نوع Amx 10 وAmx 30 ، وصواريخ أكزوسيت ، ومدافع من مختلف العيارات الثقلية .

كان هدف فرنسا من دعمها للعراق تجارياً في المقام الأول ، وسياسياً في المقام الثاني . وكان من رأي الرئيس ميتران : «يجب الحيلولة دون هزيمة العراق ، ولكن دون أن يحقق النصر النهائي» .

توتر العلاقات الفرنسية-الإيرانية (١٩٨٦-١٩٨٨)

شهدت فرنسا في أيلول ١٩٨٦ تفجيرات في باريس في عدد من المدن الفرنسية الكبرى . وقد سجل جاك أتالي أعمال العنف هذه في يومياته وردود الفعل الرسمية الفرنسية عليها . ففي ١٩٨٦/٩/٤ ، اكتشفت عشرة قوالب من المتفجرات داخل حقيبة في عربة قطار من الدرجة الثانية في محطة قطارات ليون بباريس . ولم ينفجر الصاعق لحسن الحظ . وعلى أثر ذلك دعا وزير الداخلية الفرنسي شارل باسكوا المواطنين إلى إبلاغ الشرطة دون تأخير عن كل حادث أو تصرف غير طبيعي يشاهدونه . وطلب رئيس الجمهورية فرنسوا ميتران من الحزب الاشتراكي الفرنسي التضامن مع حكومة جاك شيراك الديجولية ، في مكافحة الإرهاب في رسالة مؤرخة في ١٩٨٦/٩/٨ .

وفي اليوم التالي رفض ميتران توقيع قرار بالعفو عن جورج عبد الله إبراهيم وأنيس نقاش وغاربجيان المحكومين بالسجن مدى الحياة مع الأشغال الشاقة ، لاشتراكهم في محاولة اغتيال شابور بختيار ، رئيس وزراء إيران السابق .

وفي ١٩٨٦/٩/١٢ انفجرت عبوة ناسفة في كفتيريا في محل Casino في حي الدفاع في باريس ، أدت إلى جرح واحد وأربعين شخصاً . وأصيبت في اليوم التالي ناقلة النفط الضخمة لوبريساك Le Brissac في الخليج الفارسي ، بصاروخين ، دون خسائر في الأرواح ، وبقليل من الأضرار المادية ، ورست في ميناء دبي بانتظار وصول فريق من هندسة سلاح الجو الفرنسي لإصلاح العطب . واكتشف شرطيان في ١٩٨٦/٩/١٤ قنبلة في الطابق الأرضي لمطعم شركة رينو Renault في شارع الشانزلزيه بباريس . نزلا بها إلى القبو في البناء المذكور لتفكيكها ، فانفجرت وقتلتهما .

عقد جاك شيراك مجلس الأمن الداخلي في رئاسة الوزراء لمواجهة الأعمال الإرهابية . وأعلن عن تعزيز قوات الشرطة في جميع أنحاء البلاد . وانفجرت قنبلة في شارع رين Rennes في باريس أمام مبنى محلات تاتي Tati ، أسفر عن قتل ستة

أشخاص وجرح واحد وخمسين شخصاً في ١٩٨٦/٩/١٧ . وفي اليوم التالي اغتيل الملحق العسكري الفرنسي في بيروت الكولونيل كريستيان غوتيير Christian Gouttière أمام السفارة الفرنسية .

أثارت هذه التفجيرات والأعمال الإرهابية المسؤولين الفرنسيين واحتاروا في من وراءها ، ودارت الشبهات حول إيران وسوريا . في ١٩٨٦/٩/١٨ توقف الرئيس ميتران في الكويت ، في طريق عودته من زيارة رسمية لاندونيسيا . وأجرى محادثات رسمية مع أميرها الشيخ جابر الأحمد الصباح حول الإرهاب والعلاقات بين الكويت والعراق . وسجل أتالي محضر هذه المحادثات كما يلي :

«الأمير جابر : أؤكد لكم ما قلته قبل قليل ، أنني آسف على الإرهاب الذي يضرب فرنسا . هذا شيء أصابنا هنا ، وكنت هدفاً له شخصياً . وعزمنا على المقاومة . لا نقبل أبداً أن يهددنا المجرمون الموجودون في سجوننا . كنا دوماً نقدم مصلحة الكويت على كل شيء . وأنا متأكد أن باستطاعة فرنسا أن تضع حداً لهذا الخطر ، وأعتقد أيضاً أن تعاوناً بيننا هو في صالح الطرفين .

الرئيس ميتران : عزم فرنسا على مواجهة الإرهاب مؤكد تماماً . إنه قضية صعبة ، ولكن سنذهب إلى النهاية في مكافحته ، ولسنا مستعدين للتساهل . أعتقد أننا سنصل إلى نهاية الفترة الحالية الدامية . وستكون كل المساعدات وكل الصداقات مفيدة لنا . بإمكاننا بالتعاون المتبادل أن نعيد أولئك الذين لا يحبون إلا الموت والدم ، إلى رشدهم . أنا لا أفهم لماذا يلقون بالإرهاب في فرنسا . هناك تصفيات حساب على أرضنا من وقت لآخر ، بين حركات جذورها في الخارج . وقضاؤنا مضطر للحكم على المذنبين القابعين في سجوننا ، فهل نلام على ذلك؟

لا علاقة لنا بنزاعات الشرقين الأدنى والأوسط . على ماذا تلومنا الحركات المتطرفة؟ في النزاع اللبناني ، قررت إرسال الجنود الفرنسيين إلى بيروت بعد الغزو الإسرائيلي (سنة ١٩٨٢) . وأدى هذا إلى إنقاذ حياة أربعة آلاف جندي من منظمة التحرير الفلسطينية الذين غادروا بيروت بشرف . وقامت فرنسا ، بعد ذلك ، بدور أساسي في تبادل الأسرى الإسرائيليين والفلسطينيين ، عن طريق الصليب الأحمر ، وأسفر عن الإفراج عن (٣٥٠٠) أسير فلسطيني . ثم أتاحت لهم فرنسا مغادرة طرابلس في شمالي لبنان إلى تونس ، تحرسهم بارجاتها الحربية (٤٠٠٠) عضو في منظمة التحرير الفلسطينية مدنيين وعسكريين . لقد تدخلنا في لبنان بطلب من

جميع الأطراف فيه وجميع الطوائف . وأبقينا على جنودنا الذين أنقذوا العديد من الناس . وكان ذلك بناء على طلب جميع الفئات اللبنانية . وقدمنا أقوى مساهمة في قوات الأمم المتحدة في لبنان FINUL .

رفضنا التعاون في أعمال معينة مع الأمريكيين ضد ليبيا . ولم نسمح لطائراتهم بالعبور فوق الأراضي الفرنسية . ولم نسلك سبيل الانتقام الجماعي . لقد أقمنا علاقات مناسبة مع سوريا ، ولنا علاقات ودية مع جميع دول الشرقين الأدنى والأوسط .

لدينا ، بطبيعة الحال ، مصاعب مع إيران . منذ سنة ١٩٧٦ أبرمت فرنسا عقوداً مع العراق . وقعت تلك العقود وقمنا بتزويده بالأسلحة . وقد التزمنا بتنفيذ هذه العقود بعد بداية الحرب بين العراق وإيران . وواصلنا هذه السياسة في عهدي . ولكن نحن لسنا أعداء لإيران . لم تقم فرنسا بأي عمل ضدها ، ونحن على استعداد لتحسين علاقاتنا معها وتطبيقها . ونحن ، إلى حد ما ، لسنا على استعداد لبيع الأسلحة لإيران . وهذا يعني بكل بساطة أننا لسنا طرفاً في هذا النزاع .

إذن لماذا اختطاف رهائننا التسعة؟ لماذا اغتيال سفير فرنسي؟ لماذا الاعتداءات؟ يا صاحب السمو ، أنت على رأس دولة تعتز بنفسها . وأقول لك إن هذه الأعمال العنيفة ستدفعنا إلى مزيد من مكافحة الإرهاب ، وجميع الذين يمدون له المساعدة . طلب مني الإيرانيون إصدار عفو عن أعضاء الكوماندوز الخمسة الذين حاولوا اغتيال شابور بختيار ، وقتلوا فرنسيين ، وأجبت : كلا . قيل لي : إذا تنازلت سنطلق سراح الرهائن . إنها مسألة شرف وكرامة وحتى إدارة سياسية جديدة . أولئك الذين ارتكبوا القتل على الأرض الفرنسية يقبعون في السجن . من الظلم إطلاق سراحهم . إذا توقف الإرهاب وعاد السلام إلى النفوس ، في المستقبل سنرى وننظر ثانية في الأمر . في الوضع الراهن لا يمكن تصور العفو .

أنا متفهم جداً لاقتراح سموكم بتبادل المعلومات التي تعد مؤشراً على الصداقة . يمكن لفرنسا أن تفيد من معرفتكم الواسعة بهذه المنطقة . أما بشأن موقفنا من إسرائيل ، فنحن نؤيد كل قرارات الأمم المتحدة ، وعلى استعداد لتطبيقها كلها . ليس لنا مع إسرائيل اتفاق عسكري ، ولا نزودها بالأسلحة .

إنني أبحث عن تفسير لما يجري فلا أجد سوى جنون القتل . إن بلاداً تشعر بالكرامة لا تقبل الخضوع . وهناك ، يا صاحب السمو ، هذه الحرب بين جارتيك ،

أقول لك عنها : نحن مستعدون لإقامة علاقات طيبة مع الإيرانيين . والخلافات معها قابلة للحلول . ولكن لن نبيعهم أسلحة . ما هو رأيك في هذا النزاع؟ الأمير جابر : هذا سؤال صعب جداً . ولكن ، قبل كل شيء ، أود العودة إلى ما قلته : موقف فرنسا من القضية الفلسطينية ، ومن لبنان ، ومن الحرب العراقية-الإيرانية ليس تماماً كموقفنا ، ولكنه الأقرب إلى موقفنا . ونحن نتمنى أن يكون لجميع الدول في العالم الموقف نفسه . وفيما يتعلق بالإرهاب ، أعتقد أن المسألة لا تقف عند الدول ، وإنما تتجاوزها إلى مجموعات تحت السيطرة . ربما وجب التفكير ايضاً في بعض الدول التي تتمنى أن تتبنى فرنسا سياسة تحالف مئة في المئة مع إسرائيل مثل الولايات المتحدة .

وبخصوص النزاع العراقي-الإيراني ، استقبلت فرنسا الخميني قبل سقوط الشاه ، وسمحت له بالنشاط السياسي . على المسؤولين الإيرانيين أن يتذكروا ذلك اليوم . ولا يجب على إيران توجيه اللوم إلى فرنسا . بالنسبة إلينا ، موقف فرنسا من النزاع جيد جداً . ربما كان باستطاعة فرنسا العمل بصورة أكثر فعالية لوضع حد لهذه الحرب ، بمساعدة الدول الأوروبية الأخرى ، لأن الخطر يتفاقم . ومهما يكن فلا يستفيد أحد من هذه الحرب . تحاول إيران مدها إلى الخليج كله . نحن نخشى أن تتخذ الدول الكبرى منها ذريعة للتدخل ، وهذا ليس في صالحنا ، ولا حتى في صالح أوروبا . بدأ الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة بإدراك خطورة الوضع . لكننا نتمنى موقفاً أقوى لأوروبا ، لوضع نهاية لهذه الحرب .

الرئيس ميتران : قوتنا ، لسوء الحظ ، محدودة ، مادام النزاع أخذ منحى عاطفياً . ولكنني مستعد تماماً أن أبلغ الجماعة الاقتصادية الأوروبية ، والتدخل باسم فرنسا لتأييد السلام . وأؤكد أننا سنفعل ما بوسعنا للضغط على المتحاربين للتوصل إلى السلام .

الأمير جابر أثنى على الموقف الفرنسي وقال : أنا سعيد جداً بمقابلتكم . . .

الرئيس ميتران : أشاد بشجاعة الأمير وبسياسته المستقلة .

يبدو لنا من محضر هذا الاجتماع رغبة الرئيس الفرنسي في إقناع الإيرانيين بالتخلي عن دعم الإرهاب في فرنسا ولبنان . ويتضح قلقه الشديد على ما كان يجري في فرنسا من اعتداءات وأعمال عنف ، وتصميمه الشديد على القضاء على الإرهاب .

التفجيرات في باريس (١٩٨٦-١٩٨٧) تثير قلق فرنسا

بعد عودة الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران من زيارته للكويت إلى باريس في ١٩٨٦/٩/١٩ ، عقد اجتماعاً في قصر الاليزيه حضره رئيس الوزراء جاك شيراك والوزيران المسؤولان عن الأمن شارل باسكوا وروبير باندرو . شرح باسكوا الاعتداءات التي جرت في فرنسا ، وما قامت به الشرطة يثبت أن جماعة جورج عبد الله متورطون في هذه الاعتداءات ، ولاسيما الاعتداء الأخير في مترو أوبير Auber . وقال شيراك : لم تحقق الشرطة مع عبد الله منذ دخوله إلى السجن . ودار نقاش مفصل حول المجموعات الإرهابية التي قامت بالاعتداءات ، وحول الجهات التي تدعمها . ولم تكن السلطات الفرنسية قد توصلت إلى معرفة الجهة التي وراءها هذه الجماعات الإرهابية ، وإن كانت الشكوك تدور حول إيران أو سوريا أو كليهما معاً .

يسجل جاك أتالي ، مستشار الرئيس ميتران في يومياته حال الاضطراب في الأوساط السياسية والأمنية الفرنسية حول الدولة التي وراء هذه الاعتداءات ، ويعرض مختلف التحليلات السياسية التي تتناول هذا الموضوع .

في ١٩٨٦/٩/٢٦ ، التقى أتالي بدبلوماسي فرنسي خبير بشؤون الشرق الأوسط ، بحث معه البيانات الصادرة عن الجماعات الإرهابية . قال الدبلوماسي إن سوريا وراء هذه الجماعات الإرهابية . وأضاف : «هم (أي الإرهابيون) بالتأكيد من الطلبة المتأخرين في دراستهم للحقوق وعلم الاجتماع في جامعتي السوربون ونانتر . هذا ما نلاحظه في العبارات والأسلوب الماركسي اليساري . وقد مروا بجميع المنظمات الفلسطينية المتطرفة ، ولاسيما الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش . وعملوا بالتأكيد في بيروت مع جميع الناس بمن فيهم الأرمن . وبعد ذلك اكتشف بعضهم الإسلام ، مثلما اكتشف يساريونا القدامى الليبرالية . أما مؤلفو بيانات «الجهاد» فهم من صنف مختلف : هم خبراء في الفكر الغربي دون أن يهيمن عليهم ، معبأون تعبئة ثورية إسلامية ، لهم حسابات بعيدة المدى ، ويديرون علاقاتهم مع الرأي العام الفرنسي بأخطاء قليلة .

ويرى هذا الخبير أن نظام البعث السوري ، نظام أقلية يسعى إلى إزالة كل شرعية من سوريا ولبنان غير شرعيته . وهو يدعم منظمة التحرير الفلسطينية . ويسعى إلى عزل لبنان المسيحي عن قاعدته الخلفية الفرنسية التي تتيح له حرية التنفس . ولا يقبل أن يكون للدول العربية الأخرى تمثيل دبلوماسي في لبنان . فقد حصل

الجزائريون على ضمانات من السوريين .

وتعرضت سفارة العراق للاعتداء . واختطف القائم بالأعمال السعودي . ويسعون إلى تراجع النفوذ الغربي بعامة والفرنسي بخاصة . ولم تعطنا سوريا دليلاً واحداً محسوساً على تعاونها في مكافحة الإرهاب ، خلافاً لجميع العرب الآخرين بدءاً من منظمة التحرير الفلسطينية» .

وذهب في تحليله إلى أن عدداً من الجماعات إعتاد على العمل معاً ، تعبئ نفسها ثم تتلقى مساعدة لوجستية من الشبكات السورية ، التي استعملتها في السابق لأهداف متنوعة» . في هذه الفرضية ليس لدى السوريين سبب رئيسي للتفكير بالاعتداءات ، وليس لهم مصلحة في منعها . ومن الجدير بالذكر أن سوريا ، بخلاف إيران ، حريصة على صورتها أمام العالم .

وفي ١٩٨٦/٩/٢٧ ، التقى أتالي بخبير فرنسي آخر بشؤون الشرق الأوسط من الجيش الفرنسي ، قدم له وجهة نظر مناقضة تماماً لوجهة نظر الخبير السابق . فهو يرى أن إيران هي مصدر الإرهاب ، وأنها تتبع «سياسة الوجهين : الشريف والإرهابي . وتطبق إيران هذه القاعدة في جميع علاقاتها الدولية ، ماعدا علاقاتها بالاتحاد السوفياتي الذي تخشى طهران ردود فعله . ويذهب هذا الخبير إلى أن إيران تواطأت في الاعتداءات الأخيرة في باريس . ويرى أن ازدياد الهجمات على قوات الأمم المتحدة في لبنان FINUL في وقت كان الحوار الإيراني-الفرنسي في أوج تقدمه ، دليل على رغبة طهران في الحديث بالمتفجرات لإرهاب المفاوض الفرنسي ، وزعزعة الاستقرار لدفع الفرنسيين إلى مزيد من التنازلات .

وأضاف الخبير العسكري : «أعتقد أن في إيران حزباً قومياً يتبنى المجابهة العنيفة ، في مقابل اتجاهات سياسية أخرى تدعو إلى تطبيع علاقاتها مع فرنسا واحترامها . ويسعى حزب المجابهة هذا إلى تعريض إيران للمغالاة الثورية وممارسة فرض الأمر الواقع والصدامات الداخلية» . وقد علق أتالي على هذين الرأيين بقوله : «لا نعرف إذا كانت إيران أو سوريا هي وراء الهجمات الإرهابية» .

وجاء إلى أتالي خبير ثالث في شؤون الشرق الأوسط في ١٩٨٦/٩/٢٩ ، قدم له رأياً مختلفاً عن الرأيين السابقين . يرى هذا الخبير أن إيران وسوريا معاً هما المتهمتان بدعم العمليات الإرهابية في فرنسا . وأداتهما في هذه العمليات حزب الله المدعوم من إيران . وهو حزب قرر زيادة حضوره وتوسيع سمعته في لبنان ؛ ليصبح تدريجياً

القوة الرئيسية في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي . ويختار أعضاءه من فئات لا نفوذ لها ، ومن أفراد محرومين في الأوساط الشيعية في المجتمع اللبناني ، مراعياً النظام العشائري . وقد أدرك هذا الحزب أنه لن يحظى بسمعة طيبة في المجتمع اللبناني إلا من خلال دوره في الدفاع عن البلاد . ولذلك اختار إستراتيجية التطرف : إثارة إسرائيل حتى تقوم بأعمال انتقامية ، والتصدي لها من أجل كسب ولاء سكان الجنوب إلى المقاومة التي تدافع عنهم . يتمنى حزب الله أن تحتل إسرائيل جنوب لبنان والبقاء فيه طويلاً ، حتى يقوم بحرب عصابات وطنية وإسلامية بمساعدة من إيران . ويرى هذا الخبير أن قوات الأمم المتحدة في جنوب لبنان FINUL تعرقل تحقيق خطة حزب الله . ولذا يحاول التصدي للقوات الدولية من أجل خروجها من لبنان .

وفي المقابل لم تتخل سوريا عن طموحها وأطماعها . فهي تقبل برؤية حزب الله في لبنان ، وتأمل في تطور الحرب العراقية-الإيرانية وسقوط صدام حسين في وقت قريب . وبعده قد تنشغل سوريا بإعادة توزيع أوراق اللعبة السياسية بتحييد حليفها الإيراني وحزب الله الذي تدعمه .

يرى هذا الخبير أن حزب الله حريص على إدامة العنف في لبنان ، حتى ينهك القوى الأخرى ويسيطر على البلاد . والنزاع الإيراني-العراقي فرصة للقتال ، والتضحيات ضرورية لإبقاء إيران في حالة تعبئة معنوية . وإذا انتهى هذا النزاع ستبدأ المعركة ضد العدوان الإسرائيلي في لبنان ، حتى ولو لم يكن دور طهران فيها محدوداً ، ولكنها الوسيلة الوحيدة للحفاظ على التوتر داخل إيران . ويرى هذا الخبير أن الهجوم على فرنسا في لبنان ضروري لإدامة التعبئة الشعبية داخل إيران . يعلق أتالي على هذا الرأي بقوله : «إذن إيران أو سوريا؟ إيران وسوريا» .

أظهرت التحقيقات التي أجرتها الشرطة الفرنسية أن الملحق في السفارة الإيرانية في باريس وحيد غورجي له ضلع في الأحداث الإرهابية التي جرت في أيلول ١٩٨٦ ، وأنه على علاقة مع بعض المتهمين في الشبكتين الإرهابيتين المواليتين لإيران ، اللتين تم الكشف عنهما في الأشهر الأولى من سنة ١٩٨٧ . وقد احتمى وحيد غورجي بالسفارة الإيرانية ، متذرعاً بالحصانة الدبلوماسية . وقد سجل جاك أتالي في يومياته معلومات تفصيلية وافية عن مواقف السلطات الفرنسية من قضية غورجي .

في ١٩٨٧/٥/٢٩ قرر قاضي التحقيق الفرنسي جيل بولوك Gilles Boulouque

إنابة الأجهزة الأمنية DST بالتحقيق مع غورجي . وفي ١٩٨٧/٧/٢ ، ظهر وحيد غورجي من جديد في سفارة إيران بباريس أثناء مؤتمر صحفي حول قضيته ، زعم فيه أن دبلوماسياً فرنسياً يدعى ديدييه ديستريمو Didier Destremau ، أكد للإيرانيين أن وزارة الخارجية الفرنسية لا ترغب في اعتقال غورجي ، وأنه كان من الأفضل بقاؤه في السفارة حتى تهدأ الحال . وفي اليوم نفسه أعرب وزير الخارجية الإيراني علي أكبر ولايتي عن أسفه لتدهور العلاقات الفرنسية-الإيرانية ، التي عزاها إلى خلافات داخلية في الحكومة الفرنسية .

استمرت قضية وحيد غورجي تشغل بال الساسة الفرنسيين حتى نهاية نيسان ١٩٨٨ ، وقبيل انتهاء الحرب العراقية-الإيرانية ببضعة أشهر . وظلت العلاقات الفرنسية-الإيرانية متوترة حتى نهاية هذه الحرب .

قضية الإيراني وحيد غورجي في فرنسا

توترت العلاقات بين فرنسا وإيران في صيف ١٩٨٧ ، وقد وصف جاك أتالي ، مستشار رئيس الجمهورية الفرنسية هذا التوتر في يومياته . ففي ١٩٨٧/٧/٢ تلقى جان-لوي بيانكو Jean-Louis Bianco ، المستشار في رئاسة الجمهورية من موريس أولريش Maurice Ulrich ، رئيس محطة الإذاعة الفرنسية Antenne 2 ، اتصالا هاتفياً جاء فيه أنه تقرر في طهران توجيه نداء غداً الجمعة بعد الصلاة لتنظيم مظاهرة أمام سفارة فرنسا ، وتوقع أن يجتاح المتظاهرون الشرطة وينهبوا السفارة . قام بيانكو بإبلاغ الرئيس ميتران الذي كان في زيارة لفنلندا بهذه المعلومة .

قرر ميتران دعوة رئيس الوزراء والوزراء المعنيين إلى اجتماع حال عودته ، في الساعة ٣٠ :٢٢ من مساء ذلك اليوم ، وصل إلى قصر الاليزيه وزير الداخلية شارل باسكوا والوزير المنتدب للداخلية روبير باندرو وعليهما إمارات الاضطراب .عقد الاجتماع في الموعد المقرر . قدم باسكوا ما لديه من معلومات عن الصراع بين القوى الداخلية في إيران ، مؤكداً أن المتشددين في إيران والاستخبارات الإيرانية يسعون إلى استعادة غورجي بأي ثمن . أما السياسيون الإيرانيون فيفضلون تجنب أزمة مع فرنسا . وأضاف وزير الداخلية : «على كل حال ، تقرر تنظيم مظاهرة غداً الجمعة أمام سفارة فرنسا وسوف تنتهي بنهبها . ولكن تقرر الاستئناس برأي الإمام الخميني قبل ذلك . وقدم جاك شيراك عرضاً دقيقاً لما سمعه من وزرائه . وسأل ميتران وزير الخارجية جان

برنار ريمون : قضية ديستريمو ، هل هي خيالية كلية؟ أجاب ريمون : «هناك ما قاله غورجي ، وهناك بيان وزارة الخارجية» . قال ميتران : لا أطلب منك ما قيل ، أطلب وجهة نظرك . قال ريمون : وزارة الخارجية تنكر ذلك . قال ميتران وقد بدت عليه إمارات الانزعاج : فهمت ، ولكن أنت هل تعتبر أن هذا لا أساس له؟ رد ريمون : نعم سيدي رئيس الجمهورية ، أنكر صحة ذلك . قال شيراك : أعتقد أن غورجي أراد الإثارة . يرى بعضهم (إشارة إلى باسكوا) مبادلته مع رهائننا ، وهذا أمر مرفوض . إذا أخذ الإيرانيون موظفي سفارتنا رهائن فاقتراحي قطع العلاقات الدبلوماسية مع إيران فوراً ، وطرد جميع الدبلوماسيين الإيرانيين في باريس إلى إيران ، بل وأقترح طرد ما بين (٤٠٠) و(٥٠٠) إيراني من المتهمين في فرنسا إلى إيران . تدخل روبير باندرو وقال : لا ننسى أن العديد من المشكوك فيهم من الإيرانيين من معارضي الخميني .

قال شيراك : نعم ، إذا نهبت سفارتنا فإنني أقترح إعادة جميع الدبلوماسيين الإيرانيين فوراً باستثناء غورجي ، وربما إغلاق قنصليات إيران أيضاً . هذه هي اقتراحاتي . ولكنني لم أتحدث إلى الوزراء ، وسأطلب منهم أن يقولوا ما يفكرون به بما في ذلك مخالفتي الرأي . ولما سأل شيراك وزير الخارجية أجاب : «نحن في وضع كان من الواجب تجنبه فعلياً . ولا يوجد إلا حلول سيئة للخروج منه» .

تحدث شيراك عن غورجي وقال : « إنه كان دوماً مترجماً في الاجتماعات المهمة . منذ بعض الوقت ، أرادت شخصية سامية إيرانية إرسال رسالة إلي ، رفضت استلامها . وقد رفض صاحبها أن يستقبل من قبل أي إنسان آخر غيري . وأخيراً عين موريس أولريش . وجاء إلي مصطحباً القائم بالأعمال الإيراني في باريس ووحيد غورجي . دخل الزائر إلى مكتب مدير مكتبي ، ورفض الحديث فيه ، عندها أدخل إلى مكتبي وقال لي : أود الحديث إليك وحدنا . عندها غادر أولريش والقائم بالأعمال الإيراني ، بينما بقي السيد غورجي . ولم يكن وجوده ضرورياً ، لأن زائري يتحدث الفرنسية بطلاقة . أمر غريب! كان هذا مشهداً سوريالياً ، أي مسؤول إيراني رفيع هذا؟» .

رد الرئيس ميتران : حسناً ، يجب أن نعمل . . علينا أن نطبق مقترحات رئيس الوزراء ، إذا ما أخذوا موظفي السفارة الفرنسية رهائن ، وإذا تم نهب السفارة وتدميرها ، علينا قطع العلاقات الدبلوماسية ، وطرد الدبلوماسيين الإيرانيين وبعض المتهمين بأعمال الإرهاب .

سأل ميتران روبير باندرو عن إمكانية إفلات غورجي من الشرطة ، فأجاب : لدينا جهاز ضخم ، ولسوء الحظ من الممكن أن يفلت . لا يوجد في ملفه شيء كبير ، وأظن أن القاضي قد يفرج عنه . وحصلت مشادة بين وزير الخارجية والوزير المنتدب للداخلية . واتهم الأول الثاني بحجز المعلومات عنه . حاول ميتران تهدئة الوضع ، وسأل باسكوا عن عناصر الإثبات لديه ضد غورجي . رد باسكوا : لدينا التنصت على المحادثات الهاتفية والإرسال باللاسلكي إلى طهران ومعلومات الأجهزة الخارجية . قال ميتران : ما يزعج ويقلق ويثير أن كل الأمور نشرت في الصحف قبل أن نعرفها . وحالما تصبح في الصحف تغدو حقائق أولية . والإيرانيون يستغلون ضعفنا ، لهذا يجب أن يكون ردنا خاطفاً .

في ١٩٨٧/٧/١٣ ، استقبل ميتران رئيس وزرائه ظهراً . قال شيراك : حصلنا على موافقة القاضيين بولوك ومارسو Marsaud . أن ينظر القاضي بولوك في قضية قصر العدل ، لأن الإيرانيين لا يريدون أن تحقق الأجهزة الأمنية مع غورجي . يكاد يكون من المؤكد أن لا يتهم جورجي ، وعندها يمكن إطلاق سراحه مقابل الإفراج عن رهينتين فرنسيين ، من خلال وساطة جزائرية أو باكستانية . ويجب أن يغادر السيد ديمارست Demarest فوراً إلى جنيف ، حيث سيقابل السيد أهاني مدير دائرة أوروبا في وزارة الخارجية الإيرانية . أنا بحاجة إلى موافقتك فوراً .

رد ميتران : هذا قرار يبدو ليس بالإمكان اتخاذه في بضع دقائق ، إنه يستحق التفكير . كانت ردة فعلي الأولية أنني لست متحمساً للدخول في مفاوضات مع دولة معروفة «كإرهابية» . وطلب شيراك من بيانكو ، المستشار في رئاسة الجمهورية ، إعداد كتاب موجه منه إلى شيراك يؤكد فيه إعطاء الضوء الأخضر إلا في حالة تحرير جميع الرهائن الفرنسيين .

عاد شيراك إلى قصر الاليزيه الساعة الرابعة بعد الظهر ، وسلمه ميتران الكتاب . طلب شيراك من ميتران رأيه في المقترحات التالية : «لتسوية قضية غورجي ، يحقق القاضي بولوك معه بدلاً من إحالة التحقيق معه إلى الأجهزة الأمنية . إذا تبين أنه غير مذنب ، يطلق سراحه ويطرد من البلاد إلى الجزائر أو إلى باكستان ، ولا يسلم للسلطات الإيرانية إلا بعد تسليم اثنين من الرهائن الفرنسيين لإحدى هاتين الدولتين . رد ميتران بأنه لن يوافق على أي اقتراح لا يتضمن الإفراج عن جميع الرهائن الفرنسيين . وحصلت ملاسنة بين رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء .

لما هاجم الإيرانيون ناقلة النفط الفرنسية مدينة أنفير Ville d'Anvers في الخليج الفارسي يوم ١٩٨٧/٧/١٣ رد الرئيس ميتران في تصريح لمحطة تلفزيون RTL بأن وحيد غورجي سيحال إلى القضاء، وعلى هذا الإيراني أن يصغي لما سيقوله القضاء الفرنسي، لأنه متهم بالمشاركة في أعمال إرهابية في فرنسا . . . لا يحمل غورجي سوى وثيقة خدمة صادرة عن وزارة الخارجية الفرنسية، وهي وثيقة ليست جواز سفر دبلوماسياً، ولا تمنحه حق الحصانة الدبلوماسية . ولذا عليه أن يقدم نفسه إلى مكتب القاضي بولوك .

وفي طهران، اتهم بول توري Paul Torri، السكرتير الأول في سفارة فرنسا رسمياً بالتجسس، ودعي للمثول أمام القضاء الإسلامي .

في ١٩٨٧/٧/١٦، رفض الإيرانيون الاقتراح الفرنسي، وطلبوا الإفراج عن غورجي، وسحب الشرطة من أمام سفارتهم في باريس . وهددوا بقطع العلاقات الدبلوماسية . في الساعة العاشرة ليلاً طلب ميتران من شيراك اتخاذ قرار حازم بقطع العلاقات الدبلوماسية مع إيران قبل أن تفعل هي ذلك . لم يعر شيراك لطلب رئيس الجمهورية اهتماما . ولما قابله في اليوم التالي قال له إنه ينتظر رأي وزير الخارجية والسيد بيير دولا فرانس Pierre Lafrance القائم بالأعمال الفرنسي في طهران . رد عليه ميتران : إذا لم نرد بسرعة فإننا نعطي الإيرانيين الشعور بأننا مترددون، بينما يعتقلون دبلوماسيينا ويمنعونهم من العودة إلى بلادهم . لا بد من إبلاغ مجلس الأمن الدولي والجماعة الاقتصادية الأوروبية بخرق إيران للقانون الدولي .

في ١٩٨٧/٧/٢١ أبلغ بيير دولا فرانس حكومته أن موظفي السفارة المحاصرين في طهران يتمتعون بأعصاب قوية وانسجام استثنائي . وأنهم انتهوا من إتلاف الوثائق الحساسة . واستطاعت سفارة إيطاليا زيارتهم في مساء ذلك اليوم . قال الدبلوماسي الايطالي الذي زار دولا فرانس في السفارة، إن الإيرانيين فتحوا تحقيقاً حول نشاط وحيد غورجي، وإنهم مقتنعون أن لا صلة له بالإرهاب ضد الشعب الفرنسي . ويخشون أن يكون متعاوناً مع مجاهدي الشعب أو مع الشرطة الفرنسية .

توصل الخبراء الأمنيون الفرنسيون، أثناء اجتماعهم في قصر الاليزيه في ١٩٨٧/٧/٢٨ لمناقشة الأزمة مع إيران . اتفقوا على أن إيران كانت وراء اعتداءات أيلول ١٩٨٦ .

وفي ١٩٨٧/١١/١٦ تم الاتفاق بين فرنسا وإيران على الإفراج عن بول توري

مقابل الإفراج عن وحيد غورجي ، على أن يتم التبادل في كراتشي . وفي ١٩٨٧/١١/٢٧ أفرج في لبنان عن الفرنسيين جان لوي نورماندان Jean Louis Normandin وروجيه أوك Roger Auque .

نشرت صحيفة «القبس» الكويتية في ١٩٨٨/٤/٢٨ ، أن إيريك رولو Eric Rouleau ، سفير فرنسا السابق في تونس ومستشار الرئيس ميتران ، قد دفع عشرة ملايين دولار لخاطفي الرهائن الفرنسيين ؛ للحيلولة دون الإفراج عنهم قبل الدورة الثانية للانتخابات الرئاسية الفرنسية ، وأنه قابل في جنيف صادق طباطبائي المقرب من الخميني لإقناعه بأن فرنسوا ميتران سينتخب حتماً ، وأن لإيران مصلحة في ذلك . وفي اليوم التالي نشرت الصحيفة نفسها على صفحتها الأولى أن ما نشر بالأمس عن إريك رولو لا أساس له من الصحة ، وأنه لم يقابل سامي مارون وصادق طباطبائي ، ولم يزر بيروت في التاريخ المشار إليه . وقدمت اعتذارها إلى رولو وإلى رئيس الجمهورية فرنسوا ميتران .

ومع انتهاء الحرب العراقية الإيرانية في تموز ١٩٨٨ خفت حدة التوتر بين إيران وفرنسا .

محادثات ميتران وتاتشر في باريس في ١٩٨٧/٧/٢٩

لم تول مارغريت تاتشر اهتماما للحرب العراقية-الإيرانية في مذكراتها . ولكنها كانت تقلقها ، كما تبين لنا يوميات جاك أتالي ، مستشار الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران . جاء في هذه اليوميات محضر لاجتماع بين رئيسة وزراء بريطانيا والرئيس الفرنسي بعد ظهر يوم ١٩٨٧/٧/٢٩ في قصر الاليزيه تناولا فيه الحرب العراقية-الإيرانية .

بدأ الحديث ميتران بقوله : «دخلت السياسة الفرنسية الأزمة بين العراق وإيران منذ سنة ١٩٧٦ ، بعقود أبرمت لتسليح العراق . ولم أرغب في أن تتورط فرنسا أكثر من ذلك . وكان الوضع جيداً مع الدول العربية المعتدلة ، والواقع مع جميع الدول العربية ، ما عدا سوريا وليبيا . والتزمنا بما لم أتمناه حقاً ، أي استمرار تنفيذ العقود السابقة مع العراق . وكنت أرى ضرورة الاستقرار على الحدود التاريخية بين العراق وإيران والعرب والإيرانيين .

قالت تاتشر : في الواقع شط العرب هو حد أساسي بين العراق وإيران . قال

ميتران : شط العرب الذي لا يسميه الإيرانيون بهذا الاسم ، يدخل في الفكرة التي كونتها عن التوازن العالمي والتوازنات في كل مكان . لو كنت سيد الموقف تماماً لسعيت ، بلا شك ، إلى تجنب هذه الورطة . ولكن هذا ما حصل . يجب قبول نتائج هذه الخيارات . بالهجوم على إيران اتخذ العراق قراراً أحمقَ . كان الاعتقاد بضعف إيران خطأً جوهرياً . التاريخ زاخر بمثل هذه الأخطاء . بلد منقسم داخلياً ليس أمامه سوى تحد خارجي حتى ينهض . وهذا ما حدث للثورة الفرنسية التي وجدت قوتها في تهديد وهي تواجه الحلفاء الأوروبيين المؤتلفين ضدها .

تاتشر : لا بد من وجود قومية حقيقية في هذه المواجهة .

ميتران : نعم ، خذي مثلاً الاتحاد السوفياتي سنة ١٩١٧ . لم يحقق لينين وتروتسكي النصر ، ولكنهما أنقذا الأساسي . وحتى هتلر طالت مدته أكثر مما يجب ، لأنه كان مدعوماً بالروح القومية الجرمانية لدى شعبه .

بالنسبة إلى العراقيين ، كان هذا خطأً تاريخياً غبياً . لقد استولوا على جزيرتين أو ثلاث جزر صغيرة ، فاستنهضوا القومية الإيرانية . وبسرعة بعد ذلك ، وجدت نفسي أمام اختطاف الرهائن عن طريق حزب الله والجهاد الإسلامي المدعومين من إيران . إن شروط إيران للإفراج عن الرهائن غير مقبولة . إنها تطالب بالتوقف التام عن مساعدة العراق أو تقديم المساعدة لإيران . ظن جاك شيراك وجان-برنار ريمون ، في المرحلة الحالية ، أن باستطاعتهما تسوية الأمر . وكان رأيي دوماً أنه يجب عدم الخوض في المفاوضات وتقديم التنازلات . وقعت الأزمة ولم تصل إلى نهايتها . واكتشفنا أن الاعتداءات التي وقعت علينا ليست بدعم من سوريا وإنما بدعم إيراني . وتجمعت قرائن الإثبات في أيدي العدالة والشرطة . وتركزت المسألة حول وحيد غورجي الذي لا صفة دبلوماسية له . وتوصلنا إلى الدراما التي تعرفينها بدءاً من تقديمه للعدالة .

انتهت إيران إلى توجيه إنذار مدته (٧٢) ساعة . ورأيت رفض ذلك ، وكان علينا استباق الأمور وقطع العلاقات مع هؤلاء الناس المخدرين روحياً . ونواجه الآن تهديدات . لقد أعطينا الأوامر لأسطولنا في البحر المتوسط إلى التحرك إلى المحيط الهندي . لن يدخل مضيق هرمز بالطبع . وهذا يعني أننا نملك قوة بحرية جوية قادرة على إيقاف التهديد . ليس لدينا النية للوصول إلى إيران . ولكن إذا هوجمنا فسوف نفعل ذلك .

تاتشر : كانت لنا ، كما تعرفون أزمة مع إيران . وأردت أن يبقى عدد قليل جداً

من الدبلوماسيين لدى الطرفين . أراد الإيرانيون ، في البداية ، شيئاً آخر . واقتصر التمثيل الدبلوماسي بيننا على دبلوماسي واحد هو القائم بالأعمال .

ميتران : كان عمل شرطتنا مفاجئاً ، هذا ما يجب قوله . كان بالإمكان تحذيرنا قبل ذلك . لقد طلبت مقدماً عودة دبلوماسيينا . وكان دبلوماسيونا قبل اندلاع الأزمة بخمسة عشر يوماً يتحركون بحرية في طهران . ثم منعوا من العودة إلى باريس . وكان هذا من العوامل التي دفعتني إلى اتخاذ قرار بقطع العلاقات مع إيران . في السفارة حالياً (١٥) شخصاً ، منهم امرأة وطفل منعهم الإيرانيون من العودة إلى فرنسا .

تاتشر : هل هؤلاء البشر متحضرون حقاً؟

ميتران : الوضع جامد منذ مدة طويلة .

تاتشر : هذا وضع سيء .

ميتران : أشرت على الحكومة أن تتصلب في موقفها . كثير من السياسيين وهنا لا أقصد الدبلوماسيين- يرون أن لكل مسألة حلاً . تمثل مصالحنا في إيران سفارة إيطاليا المجاورة تماماً لسفارتنا . فكرنا بالجزائر ، كما تعرفين ، غير أن سفارة إيطاليا مجاورة لسفارتنا مما يتيح لدبلوماسيينا الانتقال من جنينة إلى أخرى . لقد أحاط الإيرانيون ، لسوء الحظ ، السفارتين بطوق من قواتهم .

تاتشر : ما رأيك في اتخاذ قرار من مجلس الأمن وبنتائجه؟ إذا لم يحدث شيء ، فان المنطق هو اللجوء إلى فرض الحظر على إيران .

ميتران : كما تعرفين ، لا نحن ولا أنتم تزودون إيران بأي شيء . ولن يؤذينا فرض حظر على إيران . لقد ذكرت بعض الصحف من وقت لآخر تهريب بعض الأسلحة لإيران . وآمل أن يبرهن الأمين العام للأمم المتحدة بيريز دوكويار Perez de Cuellar عن شيء من العزم .

تاتشر : يبدو أن مصلحة الدولتين إيران والعراق قبول وقف إطلاق النار في الخليج . أما بشأن الألغام فهي موضوعة من قبل الإيرانيين ، على ما أعتقد .

ميتران : هذا محتمل .

تاتشر : إذا حدث هجوم جديد ، ستضطر الولايات المتحدة إلى الرد . يجب أن نحرص على بقاء هذا الممر المائي مفتوحاً للملاحة .

ميتران : ليس بالإمكان البقاء نفسياً دون المستوى . ليس لنا مصلحة في توسيع نطاق الحرب . وبعد كل هذا ، هذه ليست قضيتنا . ولكن لا تستطيع فرنسا أن تبعد

نهائياً عن العرب ، لأسباب عديدة . حينما نرى سلوك بعض المسلمين المتطرفين ، وحينما نفكر بأن المغرب العربي سيضم مئة مليون نسمة خلال عشرين سنة ، ولما نفكر في أعداد المهاجرين إلى فرنسا ، نشعر بأننا مجبرون على التفكير بما سيحدث في السنين العشرين القادمة .

تاتشر : على أي حال ، يجب أن لا يخسر العراق الحرب .

ميتران : سيكون ذلك أمراً مريعاً لو حدث . لا أقبل في المسألة التي تشغلنا اتفاقيات زائفة ، وإن كان من الصعب وضع خطة حالياً . هذا الصباح أهنت بسماع تصريح على الراديو من مسؤول في كانتون جنيف يقول : في الأزمة بين إيران وفرنسا ، ليست كل الأخطاء من جانب إيران . ماذا تتوقعين أن يفكر الإيرانيون حين يسمعون هذا؟ هل تعرفين أنه في الحادث الأخير لاختطاف طائرة مدنية ، زودت الحكومة المحلية في جنيف المختطفين بالوقود للمغادرة؟ وهل تعرفين أيضا أنهم طردوا لبنانياً مطلوباً للعدالة الفرنسية ، إلى لبنان .

تاتشر : هذا مؤسف ، مع خطف الطائرات يجب اتخاذ موقف حازم ، والحيلولة دون المغادرة ، وعدم تزويد الوقود ، وهذا ما نفعله . ولذا لم تعد لدينا حوادث اختطاف للطائرات .

ميتران : لو لم يتدخل السويسريون لقدنا الطائرة إلى الجزء الفرنسي من مدرج المطار . وكان الأمر قد صدر إلى قواتنا الخاصة بالتدخل» .

شعرت فرنسا أثناء الحرب العراقية-الإيرانية بسبب بيعها الأسلحة للعراق بحرج كبير ، ولما اندلعت الأزمة بينها وبين إيران في السنوات الأخيرة من الحرب ، شعرت بالعزلة الدولية ، ولا سيما على الصعيد الأوروبي . وكانت بريطانيا في عهد رئيسة الوزراء مارغريت تاتشر ، الدولة الأوروبية الوحيدة التي أبدت تعاطفاً معها .

العراق بين الإغراء بالتعاون مع الولايات المتحدة والاحتواء

بين نهاية الحرب العراقية ـ الإيرانية في ١٩٨٨/٧/١٨ بقبول إيران قرار مجلس الأمن الدولي بوقف إطلاق النار ، وغزو العراق للكويت في ١ آب ١٩٩٠ ، جرت أحداث خطيرة بلغت حد التآمر على العراق للحيلولة دون استعادة عافيته ، بعد أن دمرت الحرب بنيته الأساسية طوال ثماني سنوات ، وأودت بحياة مئات الألوف من شبابه في ميادين القتال ، وغدا على شفا الإفلاس المالي ، بعد أن تسابق الدائنون ،

وعلى رأسهم الدائنون العرب ، في الطلب منه تسديد ديونهم الضخمة .

تناول هذه الفترة الحرجة من تاريخ العراق جيمس بيكر James A. Baker III في مذكراته التي كتبها بالتعاون مع توماس دوفرانك Thomas M.Defrank بعنوان : «سياسات الدبلوماسية : الثورة والحرب والسلام ١٩٨٩-١٩٩٢ : The Politics of Diplomacy Revolution , War and Peace 1989-1992 الصادر سنة ١٩٩٥ . ومن المعروف أن بيكر قد تولى منصب وزير الخارجية في عهد الرئيس الأمريكي جورج بوش (الأب) .

يذكر بيكر أن السياسة الأمريكية التي ورثها الرئيس بوش من إدارة رونالد ريغان ، أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية ، قامت على عرقلة الطموحات التوسعية للثورة الإيرانية . وكانت تنظر إلى حلم آية الله الخميني في تصدير «الأصولية الإسلامية المتطرفة» إلى بلدان الشرق الأوسط بالطرق السلمية كتهديد خطير لاستقرار المنطقة وللمصالح الإستراتيجية الأمريكية . وشعر حلفاء أمريكا الرئيسيون في المنطقة ، مثل مصر والعربية السعودية وإسرائيل ، بالتهديد من الثورة الإيرانية . وقدّرت الولايات المتحدة أن المنطقة كلها قد تقع في بحر من الفوضى تهدد تزويد الغرب بالنفط ، وازدياد فرص اندلاع حرب جديدة في الشرق الأوسط .

انتهجت الولايات المتحدة سياسة احتواء إيران سياسياً وعاطفياً . ومن المعروف أن أزمة الرهائن الأمريكيين في طهران سنة ١٩٧٩ قد ساهمت في انتخاب المرشح الجمهوري رونالد ريغان سنة ١٩٨٠ ، بعد أن عجز الرئيس الأمريكي جيمي كارتر Jimmy Carter عن الإفراج عن الدبلوماسيين الأمريكيين ، الذين احتجزوا كرهائن في طهران مدة (٤٤٤) يوماً . وغدا كارتر في نظر الأمريكيين رمزاً لإدارة مشلولة ، ولانهيار القوة الأمريكية في العالم .

يقول بيكر : «كان استغلال ذلك واضحاً في انتخابات الرئاسة ، في هذه المرحلة من الدبلوماسية الأمريكية التي شهدت نتائج مؤسفة لفضيحة إيران ـ كونترا Iran-Contra سنة ١٩٨٦ . كنا جميعاً واعين تماماً لقدرات آية الله التدميرية في إطار السياسة المحلية .

قبل أربعة أشهر من تولي الرئيس ريغان السلطة ، غزا العراق إيران ، بادئاً حرباً دامت ثماني سنوات ، انتهت بمأزق ودمرت الشعبين . زودت الحرب إدارة ريغان بأداة مناسبة لاحتواء إيران بمساعدة العراق . ومع نهاية سنة ١٩٨٢ ، استنتج ريغان أن من

المصلحة القومية الأمريكية تطوير علاقات أوثق مع العراق . وفي سنة ١٩٨٣ ، وبعد أن قطع صدام حسين علاقته بالإرهابي «أبو نضال» سيء الصيت ، رفعت إدارة ريغان العراق من قائمة الدول التي تدعم الإرهاب وتموله . وبعد ذلك بسنة ، استؤنفت العلاقات الدبلوماسية (الأمريكية) مع العراق ، بعد سبع عشرة سنة من القطيعة . وفي هذه الفترة ، بدأت الولايات المتحدة بتقديم ضمانات القروض لمساعدة العراق على شراء القمح الأمريكي . وشاركت المخابرات العسكرية الأمريكية في مساعدة العراقيين في هذه الحرب . ولما بدأت إيران بالهجوم على ناقلات النفط سنة ١٩٨٧ ، لحرمان العراق من عائداته النفطية ، رفعت الولايات المتحدة علمها على ناقلات النفط الحيادية ونشرت بوارجها الحربية لحمايتها من الهجمات الإيرانية .

ولما انتهت الحرب العراقية ـ الإيرانية في سنة ١٩٨٨ ، كانت إدارة ريغان في الشهور الأخيرة من عمرها . وبطبيعة الأمور قرر الرئيس ريغان أن أي تقييم جدي للسياسة الأمريكية في الخليج الفارسي يجب أن يترك لخليفته . ووفقاً لذلك أمر الرئيس بوش (الأب) بإعادة النظر في الاستراتيجيات الأمريكية في المنطقة ، بعد أن أدى اليمين الدستورية بقليل . وتمت مراجعة أولية لها في نيسان ١٩٨٩ ، غير أن الموافقة النهائية عليها تأجلت إلى تشرين الأول ١٩٨٩» .

بعد هذا العرض الموجز للسياسة الأمريكية تجاه الحرب العراقية ـ الإيرانية يعرض بيكر لوضع العراق بعد الحرب وتصرفات قادته والموقف الأمريكي منها : «خرج العراق من الحرب في ضيق مالي شديد . وكان اقتصاده منهاراً والعديد من مدنه وبنيته الأساسية مدمرة . كان صدام حسين بحاجة للمال لبناء العراق المحطم . كما كان بحاجة ماسة لعلاقات ودية مع الدول العربية الغنية في الخليج وللدول الغربية الكبرى .

كان جيران العراق من العرب ، ولا سيما مصر ، ممتنين لصدام حسين لاحتوائه الخطر الإيراني . واعتقدوا أنه سيركز الآن على البناء الداخلي ، وسيشجع الولايات المتحدة على مد يد العون له . وكان حلفاء الولايات المتحدة من الأوروبيين ، والفرنسيين والألمان منهم بخاصة ، أكثر اهتماماً لبيع التكنولوجيا وكان السوفيات ما زالوا قوة عظمى والعراق زبونهم الأول . في ظل هذا المناخ الإقليمي والدولي ، انتهجت الولايات المتحدة سياسة الاحتواء المزدوج لكل من إيران والعراق ، وكانت بحاجة ماسة لحلفاء يتبنون السياسة نفسها حتى تحقق النجاح المرجو» .

يضيف بيكر إلى هذا الوصف الدقيق لحال العراق بعد انتهاء الحرب ، «في ذلك الوقت ، كنا نرى في العراق حليفاً محتملاً لتحريك عملية السلام الراكدة في الشرق الأوسط ، ودفعها إلى الأمام . وتصورنا أن عراقاً أقل تطرفاً وإثارة للخلاف قد يكون معيناً هامشياً لسلام شرق أوسطي . . . وبخلاف ذلك كنا مقتنعين بأنه إذا اختار العراق تشجيع الفلسطينيين والتأثير فيهم نحو السلام سيكون حليفاً محتملاً لنا . وأردنا أن نستطلع الرأي القائل إن علاقات سياسية واقتصادية أوثق مع العراق قد تقنعه بأن لا يكون حجر عثرة في طريق السلام . وقد تشجعت شخصياً بقبول هذا الرأي ، صدفة ، ليس من قبل العديد من قادة الشرق الأوسط فحسب ، وإنما أيضاً من قبل أفضل الأصدقاء في إسرائيل ، بمن فيهم شيخ أمريكي حثني على الاتصال السري بالعراق .

كانت إدارتنا الجديدة ، أثناء ذلك ، منشغلة بإحدى أكثر الفترات ثورية في تاريخ العالم : انهيار الإمبراطورية السوفياتية ، وانحلال حلف وارسو ، وتوحيد ألمانيا . كل هذه التحولات في البيئة الإستراتيجية ، مثلت أعظم التحولات منذ اختراع القنبلة الذرية . وقد أخذت عملية السلام في الشرق الأوسط ، والتطورات في أمريكا الوسطى ، وبعض الأحداث غير المتوقعة مثل مذبحة حزيران للمتمردين الصينيين في ساحة تياناغين Tiananmen في بكين ، كثيراً من وقتنا واهتمامنا . في هذا المناخ ، وفي ذلك الوقت ، لم يعتبر أي منا أن سياستنا نحو العراق ذات أولوية ملحة . ولم تثر اهتمامي أو اهتمام الرئيس بوش (الأب) .

لم تخل مراجعتنا لسياستنا السابقة نحو العراق من الاعتبارات الاقتصادية المحلية : من بدايتها المتواضعة في إدارة ريغان إلى أن توسعت سياسة تقديم الضمانات لقروض الحبوب العراقية ، وأصبحت هيئة تسهيل القروض Commodity Credit Corporation في وزارة الزراعة الأمريكية تقدم ما يربو على مليار دولار سنوياً بضمانات للعراق ، من أجل بيع المواد الغذائية الأمريكية له . ومع حلول سنة ١٩٨٩ ، غدا العراق تاسع دولة تشتري المنتجات الزراعية الأمريكية . كانت هذه البرامج تحظى بشعبية كبيرة في الكونغرس ولدى السياسيين المعنيين بالزراعة .

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن سجل تسديد العراق لهذه القروض كان نظيفاً . ولو حاولنا ، عزل العراق لعزلنا التجارة الأمريكية ، ولا سيما المصالح الزراعية عن فرص تجارية مهمة . وقد نتعرض للنقد واللوم من قبل أعضاء الكونغرس البارزين ، مثل

العضوين الديمقراطيين جاك بروكس Jack Brooks من تكساس ، وتشارلي روز Charli Rose من كارولينا الشمالية . وقد غدا كلاهما فيما بعد من النقاد العنيفين للسياسات التي كانوا ينادون بها بحماسة» .

هذا عرض موجز لتطور العلاقات الأمريكية العراقية - حتى أصدر الرئيس بوش (الأب) التعليمات رقم ٢٦ في ١٩٨٩/١٠/٦ ، التي سنتناولها في المقال القادم .

السياسة الأمريكية الجديدة نحو العراق (١٩٨٩-١٩٩٠)

كانت التعليمات التي أصدرها الرئيس الأمريكي جورج بوش (الأب) التي تحمل الرقم (٢٦) في بداية تشرين الأول ١٩٨٩ ، أول نقطة تحول في السياسة الأمريكية نحو العراق ، بعد المراجعة التي أجرتها الإدارة الجديدة للإستراتيجية الأمريكية في منطقة الخليج في نيسان ١٩٨٩ ، وتم إقرارها بصورة نهائية في تشرين الأول من السنة نفسها .

التقى جيمس بيكر ، وزير الخارجية الأمريكي بطارق عزيز ، نائب رئيس وزراء العراق وزير الخارجية في ١٩٨٩/١٠/٦ ، يقول بيكر عن هذا اللقاء في مذاكراته : «مثل كل الاتصالات الأولية ، كان لقاءً دبلوماسياً ودياً ، حاول كل منا التعرف على الآخر ، وتطوير أساس لمستقبل الاتصالات بيننا . أتذكر أنني أعجبت بطارق عزيز . فهو مدني عالمي الثقافة ، يتحدث بإنكليزية جيدة ، ويتمتع بسيطرة ممتازة على ذاكرته . كان في الواقع نسخة متأخرة من رينبتروب Ribbentrop وزير خارجية هتلر .

كان اهتمامي الأول في اللقاء بعزيز طلب مساعدته في تحريك عملية السلام في الشرق الأوسط . وقد رفض اقتراحي للمحادثات بين إسرائيل وفلسطيني الأراضي المحتلة . وفشلت لقاءاتي مع ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية في التوصل إلى اتفاق .

في هذه الأثناء أصدر حسني مبارك اقتراحه المؤلف من عشر نقاط من أجل كسر الجمود في عملية السلام . لما طلبت من طارق عزيز أن يؤيد نقاط مبارك العشر ، رد بأن الدعم العراقي للخطة معروف في المنطقة . كانت سياسة حكومته ، على أي حال ، هي الامتناع عن إصدار البيانات العلنية حول عملية السلام . رأيت في ملاحظاته رفضاً مهذباً ، ومع ذلك ما زلت آمل في أن يقتنع العراق بالمساعدة في التوصل إلى حل . وقد أخبرته ، خلال حديثنا ، أن الولايات المتحدة تقيم علاقاتها مع العراق وتود أن تراها متينة وواسعة . كانت لدي كل الأسباب للاعتقاد بالقدرة

الموجودة لتحريك العلاقة في اتجاه إيجابي . قال عزيز : إن صدام حسين قد أمره أن يوضح أن العراق متحمس أيضاً لإقامة علاقات طيبة مع الولايات المتحدة على قاعدة الاحترام المتبادل والتفاهم .

بعد ذلك ، وبصورة غير متوقعة ، تغيرت لهجته : اتهم الولايات المتحدة بالتدخل في شؤون العراق الداخلية ، وبالقيام بنشاط سري بقلب نظام الحكم فيه . كان دليله على ذلك موجزاً : تلقى العراق تقارير بأن دبلوماسيين أمريكيين رفيعي المستوى اتصلوا بزملاء عرب لهم ، أثاروا الشك والخوف حول النوايا العراقية التي كانت سلمية كلياً . وأضاف إن هؤلاء الدبلوماسيين تساؤلوا عن جهود العراق في تطوير قاعدة تكنولوجية - في إشارة خفية إلى التعبئة العسكرية المزعجة . كل ما نقوم بعمله هو لصالح شعبنا ، قال ذلك بإصرار . ثم اتهم بعض الوكالات الأمريكية ، ربما وكالة المخابرات المركزية CIA ، بمحاولة إثارة الاضطرابات في العراق .

قلت له : إنني فوجئت بشكواه . كان هذا أول تعرضي للبرانويا (جنون الارتياب) الذي تعلمته ، فيما بعد ، لدى المستويات العليا من الحكومة العراقية ، والذي يقدم العديد من الحسابات الخاطئة عن أمريكا والغرب التي كان لها نتائج فاجعة فيما بعد .

شكا عزيز بعد ذلك من أن حسابات العراق لدى هيئة تسهيل القروض الأمريكية قد انخفضت من مليار دولار إلى (٤٠٠) مليون دولار في السنة القادمة (١٩٩٠) . وزعم أن هذا التخفيض من شأنه إساءة العلاقات بين البلدين . ولا صلة له بأزمة بنك لافورو الوطني Banca Nazionale de Lavoro الذي لا علاقة لنا بها . وكان هذا إشارة إلى أن فرع أتلنتا Atlanta لهذا البنك الإيطالي قد أقرض العراق أكثر من ثلاثة مليارات دولار بكتب اعتماد غير مفوضة حسب الأصول المصرفية . قال عزيز : إذا كان موظفو الحكومة العراقية قد تورطوا مع البنك الإيطالي ، فيريد أن يعرف ذلك فوراً ؛ لأن بلاده حريصة على مكافحة الفساد . ولما سألته إذا كانت حكومته سوف تسمح بالتحقيق مع أي من الموظفين المتهمين بارتكاب أخطاء ، لم يجب ، وقال بأنه سيعتمد على المعلومات التي سيحصل عليها من العراق .

ولما كنت على اطلاع على العمليات السرية للحكومة الأمريكية ، أدركت أن مزاعم عزيز عن الجهود الأمريكية لزعزعة استقرار العراق لا أساس لها كلياً من الصحة . ومهما يكن ، فقد سألت شخصياً الرئيس بوش وسكوكروفت Brent

Scowcroft للتأكد من ذلك . وقد أخبرت عزيز في آخر الشهر برسالة مكتوبة أن الرئيس طلب مني أن أقول له بأن الولايات المتحدة ليست متورطة في أي نشاط لزعزعة استقرار العراق . وأستطيع أن أخبرك بهذا من أعلى سلطة . وأضفت إن من المهم أن أعلن أن بعض المزاعم الخطيرة تحتاج إلى مزيد من التحري . أما بشأن إدارة برنامج هيئة تسهيل القروض ، فكنت أشير طبعاً إلى احتمال تورط موظفي الحكومة العراقية في نشاطات بنك لوفورو الوطني . كنت آمل أن نتمكن من حل هذه المشكلات واستمرار البرنامج المذكور . وكررت له أن الرئيس ملتزم شخصياً ببناء أساس صلب لعلاقاتنا ، على الرغم من الخلافات في الرأي . وقد أبلغ عزيز سفيرتنا في بغداد إبريل غلاسبي April Glaspie ، أنه يعتبر رسالتي هذه إيجابية .

يذكر بيكر في مذكراته أن جون كيلي John Kelly مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا ، وابراهام سوفير Abraham Sofaer المستشار القانوني في وزارة الخارجية الأمريكية ، بعثا بمذكرة إجرائية إليه يوصيان فيها بالاستمرار في تقديم ضمانات قروض هيئة تسهيل القروض للعراق ، وأن بوب كميت Bob Kimmitt ، وكيل وزارة الخارجية للشؤون السياسية وديك ماكورماك Dick Mc Cormack وكيل وزارة الاقتصاد قد أيدا هذه التوصية . وتضمنت هذه المذكرة اتهاماً بفساد عراقي ومضاعفات فضيحة بنك لوفورو الوطني ، وأن محامين من الدولة قد استشيروا من قبل زملائهم في وزارة الزراعة الذين نظروا في التحقيقات الخاصة بالبنك الإيطالي ، وبصورة منفصلة مع المدعي العام الأمريكي في أتلنتا . وبينما كان من الممكن اتهام العديد من الموظفين العراقيين الذين تشير معلوماتنا عن التحقيق تورطهم في فضيحة البنك الإيطالي ، إلا أن المدعي العام لا ينوي الآن توجيه التهم إليهم . وأوصى هؤلاء أنه في حالة عدم وجود إثبات أو دليل على خطأ ارتكبه الموظفون العراقيون ، سوف تستأنف هيئة تسهيل القروض الأمريكية تقديم قروضها للعراق ، ولكن شريطة المراجعة الدورية والدفعات المتصلة بالأقساط لضمان التزام العراق بشروط هيئة تسهيل القروض . وقد وعد عزيز بالتعاون التام في التحقيقات في مسألة البنك الإيطالي .

يقول بيكر أيضاً إنه وافق في ١٩٨٩/١٠/٣١ على التوصية التي تحث وزير الزراعة كلايتون يوتر Clayton Yeutter على الاستمرار في برنامج المليار دولار من القروض الأمريكية للعراق . وفي اليوم نفسه اتصل بيكر بيوتر وحثه على تنفيذ

البرنامج كاملاً ، مع ضمانات كافية من العراق حتى لا تتكرر الأخطاء السابقة . وبعد ثلاثة أيام ، قررت وزارة الزراعة الأمريكية الاستمرار في برنامج المليار دولار كاملاً بقروض تدفع على دفعتين . وقدم القرار إلى المجلس الاستشاري القومي National Advisory Council الخاص بالسياسات المالية الدولية . وتمت موافقة المجلس على البرنامج المذكور في ١٩٨٩/١١/٨ بدفع قسط أول مقداره (٥٠٠) مليون دولار . وقبل دفع القسط الثاني لا بد من مراجعة البرنامج للتأكد من التزام العراق والنظر في أية تطورات جديدة في فضيحة البنك الإيطالي .

بعث بيكر برسالة إلى طارق عزيز في ١٩٨٩/١١/٩ جاء فيها : «إن القرار المتعلق ببرنامج المليار دولار يعكس الأهمية التي نوليها لعلاقتنا مع العراق» ، وإنه مسرور لعلمه بوعده في التعاون التام في مسألة بنك لوفورو الوطني . وأكد في هذه الرسالة أن تعاون البلدين في هذا المجال «يجب أن يكون خالياً من أي وصمة بعدم الشرعية» .

وتجاوز الرئيس بوش ، كما يقول بيكر ، المعارضة في الكونغرس ، ووقع في ١٩٩٠/١/٧ تعليمات تفوض بنك التصدير والاستيراد Export and Import Bank بتقديم قرض للعراق بمئتي مليون دولار لشراء الحنطة من قبل العراق . وقد أيد بيكر هذا القرار من أجل «تعديل السلوك العراقي» كما قال .

يتضح مما سبق أن الإغراءات المالية التي قدمتها الولايات المتحدة للعراق ، بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية ، كانت تستهدف جر العراق إلى الوقوف إلى جانب مصر حسني مبارك في الضغط على الفلسطينيين لدخول مفاوضات عملية السلام . ولما رفض العراق التعاون مع الولايات المتحدة في هذا المجال ، ساءت العلاقات بينهما .

ملاحظات حول الحرب العراقية-الإيرانية

اعتاد الساسة والعسكريون الغربيون ، منذ بداية الاستعمار الاقتصادي في القرن التاسع عشر ، الذي يطلق عليه الباحثون المعاصرون «الامبريالية Imperialism» ، أن يكتبوا مذكراتهم عن الحروب التي شنوها أو شاركوا فيها على شعوب ودول آسيا وأفريقيا . واتسمت هذه المذكرات ، بوجه عام ، بتبرير هذه الحروب أمام شعوبهم ، ولدى قراء مذكراتهم من الأمم الأخرى ، بدوافع أخلاقية أو حضارية ، أو دفاعاً عن النفس ، أو ضرورية لتحقيق المصالح القومية لدولهم والدفاع عنها ، أو للحفاظ على السلم العالمي .

وغالباً ما وصفت هذه المذكرات المجتمعات الآسيوية والإفريقية بالمبالغة في الغرابة والإثارة ، وحملت على قادتها السياسيين وزعماء قبائلها وكهنتها ، واتهمتهم بالبعد عن القيم الإنسانية والمنطق والعقلانية والتوحش . وأبرزت الدوافع التافهة لخلافاتهم ومنازعاتهم ، وعبثية صراعاتهم الدموية ، وخطورتها على مصالح دولهم . وغلب على هذه المذكرات الإشادة بالإنسان الغربي ، وبتفوقه ذكاءً ومقدرة وعلماً ومهارة ، وبيان تدني المستوى الفكري والأخلاقي والمسلكي لقادة الدول والمجتمعات الأفريقية والآسيوية .

ومن الجدير بالذكر أن الحرب العراقية-الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨) قد بدأت في مطلع صعود المد الإسلامي والصحوة الإسلامية التي كانت الثورة الإسلامية ، في إيران سنة ١٩٧٩ أولى انتفاضاتها الكبرى . وهي الثورة التي أثارت مخاوف القادة الغربيين على مصالحهم المهمة في العالم الإسلامي بعامة وفي منطقة الخليج بخاصة . فهم حريصون على احتكار التنقيب عن النفط والغاز في هذه المنطقة ، واستخراجهما ، وإيصالهما إلى البلاد الغربية دون أي عائق وبالأسعار المناسبة ، ودون أي تهديد أو خطر في المستقبل . وهم حريصون أيضاً على حماية ربيبتهم إسرائيل التي زرعوها في قلب الوطن العربي ، بعد أن شردوا أهلها واقتلعوهم من وطنهم ، وأخضعوا من بقي منهم لاحتلال بغيض مازال جاثماً على صدورهم منذ ما يربو على ثلاثة وستين عاماً .

ويتضح هذا بجلاء في مذكرات الساسة الغربيين التي تناولناها فيما سبق . فقد بيّن الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون في كتابه «اغتنم اللحظة : تحدي أمريكا في عالم تسوده قوة عظمى واحدة» الحديث عن الإسلام وصورته المشوهة في الولايات المتحدة الأمريكية ، والخصومات التي سادت العالم الإسلامي في العقود الزمنية الأخيرة من المغرب إلى ماليزيا ، ومن باكستان إلى الدول الإسلامية في آسيا الوسطى وتركيا . وبيّن أن الدول الإسلامية هي أكثر دول العالم شراءً للأسلحة وإنفاقاً على قواتها المسلحة .

وقد لخص نيكسون الاتجاهات السياسية في العالم الإسلامي بثلاثة هي : الأصولية الإسلامية والراديكالية والتحديثية . واعتبر الأول والثاني من المعادين للغرب ولسياساته في العالم الإسلامي ، بينما دعا إلى الأخذ بيد الاتجاه الثالث المتعاون مع الغرب والراغب في تحديث مجتمعاته على النمط الغربي . ونصح الرئيس

الأمريكي الأسبق بقيام شراكة انتقائية بين الدول الغربية وأربع من الدول الإسلامية هي تركيا وباكستان وإندونيسيا ومصر .

ولما عرض للحرب العراقية-الإيرانية قال نيكسون إن مصلحة أمريكا أن لا ينتصر طرف على آخر في هذه الحرب . ولم يختلف الموقف البريطاني عن الموقف الأمريكي ، فقد كان كل منهما يدعم الطرفين المتقاتلين بالأسلحة ويزودهما بالمعلومات والخبرة الفنية من أجل إطالة أمد الحرب ، وإنهاك الطرفين المتحاربين واستنفاد طاقاتهما ، وإغراقهما بالديون ، وتدمير بناهما التحتية ، والقضاء على اقتصادهما ، وزرع الأحقاد بين الأمتين العربية والإيرانية .

أما فرنسا فقد فتحت أبواب التعاون في المجال العسكري مع العراق قبل اندلاع الحرب العراقية-الإيرانية ، وواصلت هذا التعاون وتزويد الطرفين بأحدث الأسلحة طوال مدة الحرب . وأدى ذلك إلى سوء علاقاتها مع إيران وتدهورها . وعانت فرنسا من حملات الإرهاب في عاصمتها باريس خلال سنوات الحرب .

كانت مارغريت تاتشر ، رئيسة وزراء بريطانيا خلال تلك الحرب ، قد أدانت العراق ، واعتبرته البادئ في الحرب والمعتدي على إيران ، ووصفت سياسة العراق بالغباء والحماقة ، بينما أبدت تعاطفاً مع إيران في محادثاتها السرية مع ميتران .

لقد شرح جيمس بيكر في مذكراته الموقف الأمريكي من الحرب العراقية-الإيرانية . وأكد أن بلاده قد ساندت العراق في حربه ضد إيران ، لأن سياستها في عهد الرئيس رونالد ريغان قامت على احتواء إيران بمساعدة العراق وتطوير علاقاتها معه . فقد رفعت العراق من قائمة الدول التي تدعم الإرهاب ، واستأنفت علاقاتها معه سنة ١٩٨٣ ، وقدمت له ضمانات القروض لشراء القمح الأمريكي بمليار دولار سنوياً .

وبعد انتهاء الحرب العراقية-الإيرانية سنة ١٩٨٨ ، انتهجت الولايات المتحدة سياسة الحوافز نحو العراق ، في محاولة لدفع قادته إلى الضغط على منظمة التحرير الفلسطينية للتفاوض مع إسرائيل . رفض العراق العرض الأمريكي مما أدى إلى الضغط الاقتصادي والمالي عليه ليستجيب للدعوة الأمريكية . ولم يفلح هذا الضغط في تحقيق المأرب الأمريكي .

شرعت العلاقات العراقية-الأمريكية في التوتر وبلغت أدنى مستوى من التدهور ، ونقطة اللاعودة في ٢ نيسان ١٩٩٠ ، حينما هدد صدام حسين إسرائيل

بإحراق نصف أراضيها إذا هاجمت العراق ، في خطاب ألقاه في القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية . وفي ذلك اليوم قدم اثنان من كبار الموظفين في وزارة الخارجية الأمريكية هما روبن كميت ودنيس روس ، وهما يهوديان ، مذكرة إلى وزير الخارجية الأمريكي بضرورة تغيير السياسة الأمريكية نحو العراق من سياسة الحوافز إلى سياسة الاحتواء . ومع اندلاع الأزمة العراقية-الكويتية في نهاية أيار ١٩٩٠ تغير الموقف الأمريكي من العراق تغيراً كلياً .

وبالعودة إلى مذكرات الساسة الغربيين السالفة الذكر ، تبرز الهيمنة المعرفية الشاملة الغربية للمنطقة ولشعوبها في ماضيها وحاضرها ومستقبلها . وهي معرفة مستمدة من الخبرة الاستعمارية الماضية والمعلومات الاستخبارية العسكرية ، والأبحاث والدراسات الأكاديمية الراهنة ، والأبحاث عن مستقبل المنطقة بما يضمن الهيمنة الغربية عليها ، وهي أبحاث وفرتها مراكز البحوث والدراسات المستقبلية الغربية .

ولا يمكن اعتبار هذه المذكرات بريئة ، أو أنها تستهدف عرض الحقائق التاريخية ، وإنما تندرج في المعرفة المطوية بين ثنايا الممارسات الامبريالية والاستعمارية . وهذا أمر لا يجوز السكوت عنه أو القبول به أو الوقوف منه موقف الحياد ، ما دامت ثلاثة أقطار عربية وإسلامية تحت الاحتلال والهيمنة الغربية : فلسطين والعراق وأفغانستان ، وما دامت القواعد العسكرية الغربية تجثم على أرضنا العربية وتتحدى أمتنا صباح مساء .

الباب الثاني

غزو العراق للكويت

١٩٩٠-١٩٩١

الفصل الأول

غزو العراق للكويت في مذكرات
جيمس بيكر

موقف الاتحاد السوفياتي من غزو العراق للكويت

خصص جيمس بيكر ، وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية في عهد إدارة الرئيس جورج بوش (الأب) ، مئة وخمسين صفحة من مذكراته «سياسات الدبلوماسية : ثورة وحرب وسلام The Politics of Diplomacy: Revolution, War and Peace 1989-1992» الصادرة في نيويورك سنة ١٩٩٥ بالتعاون مع توماس ديفرانك Thomas M. Defrank ، والبالغ عدد صفحاتها (٦٨٧) صفحة ، لغزو العراق للكويت وعملية تحريرها . وتحدث بالتفصيل الممل عن وجهة النظر الأمريكية الرسمية ، وتبرير حماسة الولايات المتحدة لتحرير الكويت ، من خلال تكوين ائتلاف عسكري وسياسي دولي ، وحلل مواقف الاتحاد السوفياتي ودول أوروبا والدول العربية من عملية التحرير .

وصف بيكر مشاعره الوطنية ومعتقداته السياسية التي نشأ عليها في بداية حديثه عن غزو العراق للكويت . يقول إنه نشأ مثل جورج بوش (الابن) على الاعتقاد بأن أمريكا قد قادت العالم الحر خلال الحرب العالمية الأولى ، مثلما قادته في الحرب العالمية الثانية . وكان جيله مؤمناً إيماناً قلبياً بفكرة السلام الأمريكي . «أمريكا الملتزمة كقوة من أجل تغيير خلاّق وبنّاء في العالم» . وأنه ما زال يؤمن أنه قد حدثت أمور ذات قيمة في الشؤون العالمية خلال السنوات الخمسين الماضية نتيجة للتدخل الديناميكي للقيادة الأمريكية .

اعتبر بيكر غزو العراق للكويت في ٢ آب ١٩٩٠ تحدياً للقيادة الأمريكية للعالم ، وكشفاً لأطماع صدام حسين بنفط الكويت وأموالها ، ودحضاً لظنون بعض السياسيين الأمريكيين بخاصة ، والغربيين بعامة ، بأن حشد القوات العسكرية

العراقية على حدود الكويت ، قبيل الغزو ، كان القصد منه تخويف الكويتيين لفتح خزائنهم ، أو الاستيلاء على حقل رميلة النفطي وربما جزيرة بوبيان كرهينة للمساومة على تنازلات من الأمير . لم يتوقع أحد غزواً شاملاً للكويت . وعلى الرغم من البيان المشترك الصادر عن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في مطار فنكوف-٢ (Vnukov II) في اليوم الثاني للأزمة ، واصل العراق دفع قواته المسلحة إلى الكويت طوال الأسبوع التالي ليوم الغزو .

كان التصريح الذي أدلى به الرئيس جورج بوش (الأب) بعد ظهر الأحد الموافق ١٩٩٠/٨/٥ من البيت الأبيض مؤشراً قوياً إلى عزمه على الذهاب إلى الحرب . يقول بيكر إن تصريح الرئيس بوش هذا عكس شعوره الغريزي منذ البداية أن «الأزمة لم تكن عادية ، وأنها حقاً قد تصبح نقطة مفصلية في التاريخ» . وأثنى بيكر على «الدور الحاسم للاتحاد السوفياتي الذي كان يقوده وزير الخارجية ، صاحب البصيرة النافذة إدوارد شفردنادزه Eduard Shevardnadze تجاه دولة زبون للسوفيات» . مثلما أشاد بتعاون الدول الأوروبية في «عزل دولة عربية (العراق) يعتقد رئيسها أنه الوارث الطبيعي لعبد الناصر» . يقول بيكر عن شجاعة بوش ومغامرته : «كنت وإياه وحدنا في المكتب البيضاوي . قلت له : أعرف أنك تدرك أن هذا القرار فيه جميع العناصر التي أطاحت بثلاثة من آخر خمسة رؤساء جمهورية : أزمة الرهائن ، والأكفان ، والكساد الاقتصادي الشامل التي تسببت بنفط سعر برميله الواحد أربعون دولاراً . فهم الرئيس ذلك تماماً وقال : أعرف ذلك ياجيمي ، ولكننا نفعل ما هو صحيح وحق ، ونفعل ماهو واضح في المصلحة القومية للولايات المتحدة» .

الدبلوماسية القسرية وبناء الائتلاف

في اجتماع لمجلس الأمن القومي الأمريكي في منتجع كامب ديفيد في ١٩٩٠/٨/٤ ، قرر الرئيس بوش التصدي لغزو العراق للكويت وردعه عن دخول الأراضي العربية السعودية ، وذلك بانتهاج سياسة الدبلوماسية القسرية ضد العراق . يقول بيكر : «بدأنا بالضغط الدبلوماسي ، ثم أضفنا الضغط الاقتصادي ، ورتبنا الأمور في الأمم المتحدة ، وأخيراً تحركنا نحو الضغط العسكري ، من خلال زيادة عدد القوات الأمريكية في الخليج . كانت الاستراتيجية قيادة التحالف السياسي العالمي الرامي إلى عزلة العراق . ومن خلال استعمال العقوبات الاقتصادية ، أملنا في جعل صدام

يدفع ثمناً غالياً لعدوانه بحيث يجبر على الإفراج عن رهائنه الغربيين ، والانسحاب من الكويت . إذا لم يفعل ذلك فسوف نطرده بالقوة العسكرية» .

ولنجاح هذه الاستراتيجية لا بد من ائتلاف شركاء . يقول بيكر : «قلت لشفردنادزه ، لما التقينا في ١٩٩٠/٨/٣ ، تصور ما كان قد يحدث لدبلوماسيتنا الهجومية ، لو أننا تجاهلنا السوفيات ، الراعي التقليدي للعراق . وقد تمنى إستراتيجيتنا القائمة على الضغط الاقتصادي بالإخفاق لو رفضت تركيا إغلاق انبوب النفط العراقي الواصل إليها . وفي حال اللجوء إلى العمل العسكري ، نحتاج لمساندة الشعب الأمريكي والكونغرس لاستمرار الحرب . لكسب هذا التأييد كان علينا إظهار أننا جربنا جميع السبل المعقولة غير المهلكة ، وتصرفنا كدولة قائدة للمجتمع الدولي ، وأصررنا على تحمل الدول الأخرى عبئنا ، وخاصة الكلفة المالية» .

كانت الخطوة الأولى في بناء الائتلاف الدولي الأمم المتحدة . ففي الثاني من آب ١٩٩٠ ، بتوصية من الولايات المتحدة ، اتخذ مجلس الأمن الدولي أول قراراته الاثني عشر (رقم ٦٦٠) الذي أدان غزو العراق للكويت وطالب العراق بانسحاب تام وفوري وغير مشروط من الكويت . والطبيعة الصارخة للعدوان العراقي ساعدت على سهولة صدور القرار الذي أيدته كوبا أيضاً ، فكان قرارها مفاجئاً للولايات المتحدة ، وامتنع اليمن عن التصويت . وفي اليوم التالي أدان الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة العدوان العراقي . ووافقت العربية السعودية على السماح لمئة ألف جندي من القوات المسلحة الأمريكية في الانتشار على أراضيها .

في ٦ آب التقى الرئيس بوش برئيسة وزراء بريطانيا مارغريت تاتشر Margaret Thatcher في المكتب البيضاوي في البيت الأبيض . قالت تاتشر للرئيس : نحن ببساطة لا نستطيع ترك هذا (تعني صدام) صامداً . علينا أن نتدبر أمره الآن» . اتفقت مع بوش على أن المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة تعطيهما الحق في التصرف فردياً . ورأت أن الطلب من مجلس الأمن الدولي فرض عقوبات على العراق سوف يمهد للعمل العسكري فيما بعد . يقول بيكر : «لم يكن أمام الولايات المتحدة أي خيار حقيقي مبدئياً سوى مقاربة الائتلاف في التعامل مع الأزمة ، وإلا لن نحصل على دعم واسع لإقناع صدام أنه كان يجابه العالم المتحضر كله وليس دولة عظمى واحدة . ولن نحقق التضامن من الدول العربية الذي كان ضرورياً لعزل صدام دبلوماسياً» .

بعد قرار بناء الائتلاف ، وجهت الإدارة الأمريكية اهتماماً نحو مهمة عملية وشاقة هي توحيد الجهود والحفاظ عليها خلال الأزمة . وفي معالجة المضاعفات الإقليمية للأزمة ، احتاجت إلى مضيف للاعبين الرئيسيين بالإضافة إلى السعوديين . فاتجهت الأنظار نحو تركيا حيث حكومتها ضعيفة وتواجه تمرداً كردياً ، ونحو سوريا حيث الرئيس حافظ الأسد الذي يكره صدام ، ومصر «صوت الاعتدال العربي الأقوى في المنطقة» ، حسب تعبير بيكر . أما إسرائيل فقد تضعف الائتلاف إذا ما تحركت في أي لحظة ضد صدام . وإيران مع عدائها الشديد للعراق لا تقل عداء للولايات المتحدة . وفي الأردن انتهج مليكه «سياسة غامضة لم تبعده عن جاره الأقوى صدام» حسب تعبير بيكر ، وأعلن اليمن تضامنه مع العراق .

واقتضت الضرورة المالية إشراك القوى العالمية الصاعدة مثل اليابان وألمانيا . أما الاتحاد السوفياتي فقد تبادل بيكر وشفردنادزة إحدى عشرة محادثة هاتفية ، وخمس رسائل في آب ١٩٩٠ . يقول بيكر : « كانت علاقتي بشفردنادزه ذات مصداقية . وكنت راغباً وقادراً على السير معه بضعة أميال-حتى في وجه اعتراضات بعض زملائي في مجلس الأمن القومي من وقت لآخر» . يعتقد بيكر أن المستعربين الروس في وزارة الخارجية السوفياتية وعلى رأسهم بريماكوف Brimakov كانوا يعرقلون تعاون شفردنادزه معه . وكانوا غاضبين على البيان السوفياتي-الأمريكي المشترك الذي أدان الغزو العراقي .

في صباح ٧ آب اتصل بيكر من واشنطن بشفردنادزه في منتجعه خارج موسكو ، ونقل إليه آخر تقارير الاستخبارات عن الاحتلال العراقي للكويت ، وأبلغه أن الملك فهد قد طلب من الرئيس بوش إرسال قوات أمريكية إلى الخليج ، وأنها ستبدأ إنتشارها في اليوم التالي ، وهو إنتشار مؤقت ، وستغادر العربية السعودية مع حل الأزمة ، وليس لديهم النية لبقاء دائم فيها . كان شفردنادزه غاضباً إذ قال : هل تستشيروننا أم أنكم تبلغوننا؟ أجاب بيكر : «حسناً إدوارد ، أنا أتحدث إليك ، لأن هذا ليس شيئاً نود أن نفعله نحن . أود أن أستكشف معك إذا كانت القوات السوفياتية ترغب في المشاركة معنا في القوة المتعددة الجنسيات . وهذا قد يشير إلى العزم ، ويجعل استعمال القوة أقل احتمالاً» . طالب شفردنادزه بإحياء لجنة الأركان العسكرية التابعة لمجلس الأمن الدولي . وقد أغضب بيكر بعرضه مشاركة السوفيات في الائتلاف العسكري ، كلاً من كولن باول Collin Powell رئيس هيئة أركان

القوات المسلحة الأمريكية ، وديك تشيني Dick Cheney وزير الدفاع ، وبرنت سكوكروفت Brent Scowcroft رئيس مجلس الأمن القومي ، الذين قالوا إن السياسة الأمريكية منذ أربعين سنة تسعى إلى إبعاد السوفيات عن منطقة الخليج ، فكيف نعطيهم دوراً في هجوم محتمل على العراق؟ وبعد جدال طويل تم الاتفاق على مشاركة السوفيات في الائتلاف . وأبلغ بيكر شفردنادزه بذلك في ٨ آب ١٩٩٠ . ولكنه لدى بحث شفردنادزه الأمر مع الرئيس السوفياتي غورباتشيف Gorbachev رفض الأخير المشاركة . وأبلغ شفردنادزه بيكر بذلك بعد ساعات .

شراء تعاون تركيا مع الولايات المتحدة

في الثامن من آب صدر قرار مجلس الأمن الدولي رقم (٦٦١) المتضمن فرض عقوبات اقتصادية قاسية على العراق ؛ إذ فرض حظراً شاملاً على جميع المعاملات التجارية معه ومع الحكومة التابعة له في الكويت . كان هذا القرار الخطوة الأولى في الاستراتيجية الأمريكية لعزل العراق دبلوماسياً وللإمساك بخناق اقتصاده .

وبعد ثلاثة أيام من صدور هذا القرار طار بيكر إلى أنقرة للاجتماع بالرئيس التركي تورغوت أوزال Turgut Ozal ، فكانت أول زيارة للدول العشرين التي زارها بيكر خلال الأزمة الكويتية . يصف بيكر أوزال بالعبارات التالية : «عرفت تورغوت أوزال منذ أن كنت وزيراً للمالية . كان اقتصادياً محترفاً ، وممثلاً لتركيا لدى البنك الدولي وصندوق النقد الدولي . يتحدث الانكليزية بطلاقة . كان إنساناً ودوداً سريعاً بابتسامته . أسلوبه الحازم في اتخاذ القرار جعلني أعتمد على غرائزه العميقة أكثر من بيروقراطية حكومته» . أدرك أوزال الغرض من زيارة بيكر ؛ فأمر باغلاق أنبوب النفط العراقي الواصل إلى بلاده في اليوم السابق لوصول وزير الخارجية الأمريكي . وقال لبيكر عند لقائهما : لقد اتخذ قراره مع أنه لا يحظى بتأييد شعبي في بلاده . واتهم صدام حسين بالحمق ، ووصف الجيش العراقي بأنه جيش فارغ وقد لا يقاتل . وقال إن صدام مثل جميع المتنمرين قد يغير موقفه عند المجابهة . واعتقد أن العقوبات الاقتصادية سيكون لها أثرها على العراق في مدى ستة أسابيع .

يذكر بيكر في مذكراته أن سلاح الجو الأمريكي يحتفظ بجناح من الطائرات المقاتلة التكتيكية في قاعدة إنجرليك Incirlik التركية منذ سنة ١٩٦٦ ، وأن هذا الوجود العسكري الأمريكي غير مرحب به من المعارضة التركية ، وأن الحكومة

التركية لم تسمح للطائرات الأمريكية في مهام عسكرية من قاعدة إنجرليك ، أثناء أزمة الرهائن الإيرانية سنة ١٩٨٠ ، كما لم تسمح بانتشار قوات البحرية الأمريكية أثناء ضرب القوات الأمريكية في لبنان سنة ١٩٨٣ ، وأن الولايات المتحدة ستحتاج للقواعد الجوية التركية في عملية تحرير الكويت . وأبدى بيكر استعداد بلاده لمساعدة أوزال في مجابهة الدبلوماسيين الأتراك والرأي العام التركي المعارضين للتعاون العسكري مع الولايات المتحدة . وحاول بيكر ترضية أوزال بالتزام الولايات المتحدة بإيجاد الأموال لتعويض تركيا عن خسارتها من الإيراد السنوي لمرور النفط العراقي في أراضيها المقدر بمليار دولار ، ومن الحظر الاقتصادي المفروض على العراق .

ولما كانت معاملة دول حلف شمال الأطلسي لتركيا تفتقر إلى الاحترام ، كما يقول بيكر ، فقد سعى الأخير إلى معالجة هذا الأمر ؛ إذ أبلغ أوزال أنه استشار الأعضاء الرئيسيين في الحلف وفوضوه بأن يؤكد لأوزال التزامهم بالدفاع عن تركيا إذا ما هوجمت من العراق رداً على إغلاق أنبوب النفط . كما أبلغه بأن الولايات المتحدة طلبت رسمياً دعم طلب تركيا بالانضمام إلى الجماعة الاقتصادية الأوروبية .

أما أوزال فقد أبلغ بيكر أن خسائر تركيا من أنبوب النفط العراقي هي (٢,٥) مليار دولار وليس ملياراً واحداً . وطلب من بيكر إقناع البنك الدولي بزيادة إقراض تركيا من (٤٠٠) مليون دولار إلى مليار دولار . وبناء على هذا الطلب إتصل بيكر مع صديقه باربر كونابل Barber Conable رئيس البنك الدولي الذي أبلغ أوزال باستعداد البنك لإقراض تركيا بين مليار ومليار ونصف المليار دولار للعامين التاليين .

يبرر بيكر الاستجابة الأمريكية لمطالب أوزال بالبراغماتية للسياسة الواقعية الأمريكية ، ويقول : «كنا بحاجة إلى دعم أوزال ، وقد نحتاج إلى صلاحيته في المستقبل . . . وكان أوزال ، خلال الأزمة ، نصيراً ثابتاً في مساندته للولايات المتحدة . كان قائداً بقلب كبير وشجاع مثل شفردنادزه . ومرة أخرى كان مستعداً للوقوف إلى جانبنا ، متجاوزاً تحفظات وزارة خارجيته ، وعمل المطلوب منه . إن أمريكا محظوظة بأصدقاء وحلفاء لها كهذا» . وحوالي نهاية اجتماع بيكر بأوزال قال الأخير : «إن صدام أخطر طاغية في العالم . ولا بد من تدمير صواريخه وأسلحته الكيمياوية ، ويجب إخراجه من الكويت بقوة السلاح عند الضرورة» . وسأل بيكر : «هل أنتم مقدمون على التخلص من صدام حسين؟» أجاب بيكر : «سيدي الرئيس ، يمنعنا القانون من إغتيال موظفين أجانب ، تركيزنا الآن هو على خنقه بالعقوبات السياسية

والاقتصادية .» وقال أوزال : «نحتاج إلى القضاء عليه ، ستبقى كل دولة هشة إذا استمر صدام في الحكم ، سنبقى في خطر دائم . أرجو إبلاغ الرئيس بوش أن على صدام أن يذهب» .

واصل بيكر مساعيه لكسب الاتحاد السوفياتي إلى جانب الولايات المتحدة ، فحصل على تأييده لقرارين جديدين لمجلس الأمن الدولي ، أحدهما أعلن بطلان ضم العراق للكويت ، والثاني طلب من العراق الإفراج الفوري عن جميع الأجانب الذين أخذوا كرهائن في العراق .

نقلت الاستخبارات الأمريكية معلومة عن ناقلة نفط تحمل نفطاً عراقياً متجهة إلى عدن في اليمن . وكان من رأي وزير الدفاع الأمريكي ورئيس هيئة أركان القوات المسلحة ورئيس مجلس الأمن القومي ضرورة إيقاف ناقلة النفط ، فإذا لم تقف أغرقت . وكان بيكر يرى ضرورة إيجاد حل بالاتفاق مع الاتحاد السوفياتي . وفي ٢٠ آب أبلغ شفردنادزة بيكر أن السوفيات بإمكانهم إقناع صدام بالانسحاب من الكويت بلا شروط . وطلب مهلة خمسة أيام لمتابعة الموضوع . أبدى الرئيس بوش امتعاضه من الطلب السوفياتي ووقف إلى جانب بيكر على مضض . وفي ١٩٩٠/٨/٢٢ أبلغ بيكر شفردنادزه أن لدى السوفيات ثلاثة أيام . ووافق الرئيس بوش على تأخير التصويت على قرار جديد لمجلس الأمن يسمح باستعمال العمل العسكري لفرض الحصار التجاري على العراق . وفي ٢٤ آب أبلغ شفردنادزه زميله الأمريكي أن غورباتشيف بعث برسالة صريحة إلى صدام يطلب منه الجواب خلال أربع وعشرين ساعة بأنه سوف ينسحب من الكويت . وفي اليوم التالي تلقى بيكر الرسالة التالية من شفردنادزه :

«جيمس ، وعدت بالاتصال بك الساعة الحادية عشرة توقيت موسكو . ولما كنت مشغولاً في الكرملين ، طلبت مساعدة السفير ماتلوك Matlock لنقل رسالتي . جاء رد من العراقيين لا يستحق التعليق عليه ، لذلك قررنا أن نبلغ مندوبنا ومندوبي الأمن بالاتصال بالسفير توم بيكرنغ Tom Pickering ومندوبي بقية الدول الخمس . وكما أخبرتك سابقاً ، سوف نقترح تعديلات معينة على مشروع القرار دون أن يتغير محتواه ، وإنما توسع من دائرة الوسائل التي يمكن استعمالها لأغراض الرقابة . أعتقد أن ممثلينا باستطاعتهم الآن البدء بالمشاورات مع أعضاء مجلس الأمن الآخرين لتمرير القرار . إذا كان لديك أية أسئلة قد تظهر بعد ذلك ، سأكون عند الضرورة مستعداً غداً للاتصال بك . المخلص : إدوارد شفردنادزه» .

يعلق بيكر على الموقف العراقي بقوله : «لقد ارتكب صدام خطأً كبيراً في حساباته برفض الاستجابة للطلب السوفياتي ، فاضعف نفوذ رعاته في وزارة الخارجية السوفياتية على شفردنادزه وغورباتشيف» .

في صباح ٢٥ آب صدر قرار مجلس الأمن الدولي رقم (٦٦٥) الذي اعتبر التجارة مع العراق خرقاً للقانون الدولي ، وحظرها بكل الوسائل ، وفوض باستعمال القوة العسكرية لتنفيذ هذه العقوبات . وقد امتنعت كوبا واليمن عن التصويت .

تأمين الكلفة المالية لعملية درع الصحراء

في مطلع أيلول ١٩٩٠ أصدر مجلس الأمن الدولي خمسة قرارات جديدة ضد العراق لتوكيد عزلته الدبلوماسية . واجهت الولايات المتحدة مشكلة تمويل عملية حشد القوات الأمريكية والدولية في الخليج والعمليات العسكرية التي ستقوم بها . وتوقعت من الدول الأخرى المشاركة في الائتلاف المساهمة في هذا التمويل ، لأن شن الحرب ستكون كلفته عالية جداً . وكانت الولايات المتحدة قد حشدت مئات الألوف من جنودها في العربية السعودية ودول الخليج الأخرى ، وشحنتهم مع تجهيزاتهم جواً وبحراً . وكان عليها أن توفر لهم كل شيء من الصواريخ إلى معجون الأسنان لعدة أشهر . كان التقدير الأولي للتكاليف المباشرة التي تدفعها الخزينة الأمريكية نحو عشرة مليارات دولار . ولجلب المال اللازم قام جيمس بيكر ، وزير خارجية الولايات المتحدة ، بجولة على تسع دول دامت أحد عشر يوماً ، شملت أيضاً قمة هلسنكي بين بوش وغوربا تشيف . ولكنها بدأت وانتهت بالتوقف في دولتين كان دعمهما المالي أساسياً هما : العربية السعودية وألمانيا الغربية .

أعدت وزارات الدفاع والمالية والخارجية الأمريكية تحليلات مالية لتقدير كلفة عملية درع الصحراء Operation Desert Shield . وكانت ، في رأي بيكر أرقاماً قليلة غير مقبولة . ولذا قام والوفد المرافق له بزيارة العربية السعودية بمضاعفتها فوراً . وصلت طائرة بيكر والوفد الذي يرأسه إلى مدينة جدة في ١٩٩٠/٩/٦ وقابل بيكر الملك فهد بن عبد العزيز الساعة التاسعة مساءً . يقول بيكر : «كان السعوديون أكثر أعضاء الائتلاف عدوانية . لما وصل تشيني لطلب الإذن بإرسال قوات أمريكية إلى العربية السعودية ، كان الملك فهد قد اتخذ قراره قبل الاجتماع . لم يطلب السعوديون قوات أمريكية على أرضهم فحسب ، وإنما طلبوا سراً قراراً دبلوماسياً لا يمكن تحقيقه . لم

يريدوا مجرد طرد صدام من الكويت ، وإنما أرادوا تدميره . الحل الوحيد بالنسبة إليهم هو حرب يقودها الأمريكيون تدمر آلة صدام العسكرية تدميراً تاماً . منذ البداية كانوا من المدافعين عن استعمال القوة الكاسحة» .

حث السفير الأمريكي في جدة تشاس فريمان Chas Freeman بيكر على عدم المبالغة في المطالب المالية قبل اللقاء بالملك فهد ، وقال له : «إنهم مطوقون بطلبات المال ، لا تضغط كثيراً عليهم الآن» . وفي الاجتماع مع الملك فهد ، أبدى العاهل السعودي امتنانه لما فعله الأمريكيون . وكان عدوانياً وقاسياً في تعليقاته على صدام ، ويقول بيكر : «وهذا أمر متوقع في ضوء التهديد الذي تواجهه المملكة» . قال بيكر للملك فهد : نحن على استعداد لتقديم المال والدم من أجل بلادكم ، ونحتاج منكم أن تقدموا نصيبكم العادل . . إن خمسة عشر ملياراً من الدولارات مساهمة مناسبة» . استجاب الملك فهد فوراً ، وقال «أعلمونا فقط ماذا تريدون وما تحتاجون منا ونحن سنقوم به ، واذهب وتحدث مع وزير الخارجية» .

في اليوم التالي تناول بيكر طعام الفطور مع وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل والأمير بندر بن سلطان سفير العربية السعودية في واشنطن . قال بندر : «لا تطلب منا خمسة عشر ملياراً من الدولارات إلا بعد أن تحصل على خمسة عشر ملياراً من الدولارات من الكويتيين . إنهم قادرون على دفعها أيضاً ، لديهم جميع هذه الأرصدة . ما الخير فيهم إذا لم يسترجعوا بلادهم؟ لذلك أطلب منهم بمقدار ما تطلب منا ، وسوف تجد أنك ستحصل عليه» .

وفي صباح اليوم التالي طار بيكر من جدة إلى الطائف لمقابلة أمير الكويت الشيخ جابر الأحمد في فندق شيراتون ، حيث كان في لقاء مع عدد من مراسلي الصحف الأمريكية . ولما طلب منه بيكر مساهمة الكويت وافق الأمير على خمسة عشر ملياراً من الدولارات بسهولة .

بعد زيارة قصيرة للإمارات العربية المتحدة ، طار بيكر إلى الإسكندرية للقاء الرئيس المصري حسني مبارك . تم اللقاء على الإفطار ، وكان مبارك ما يزال يردد أنه خدع من صدام حسين ، الذي قال له قبل الثاني من آب بأن ليس لديه النية لغزو الكويت . قال مبارك وهو يرفع سبابته في الهواء ، كعادته حينما ينفعل : «جيم ، أنا أقول لك إنه رجل أحمق . كيف يمكن أن يكون أحمقَ هكذا؟ كيف يخدع نفسه بهذه الطريقة؟ لم يصغ لأحد !» واتهم مبارك العاهل الأردني الملك حسين بالاشتراك

في مؤامرة مع صدام لاحتلال الكويت ، واقتسام غنائم الاحتلال . وقال أيضاً «كان صدام أسطورياً في شراء جيرانه» . في سنة ١٩٨٩ أقنع الملك حسين حسني مبارك في الانضمام إلى العراق والأردن واليمن الشمالي لتكوين مجلس التعاون العربي . وبعد غزو الكويت ، قال مبارك إن صدام حاول استغلال المجلس لتحقيق طموحاته الإقليمية الإستراتيجية . وذكر مبارك لبيكر أن صدام قدم له ولوزرائه عدداً من سيارات مرسيدس ليموزين فرفضها ، بينما قبلها الآخرون . وقال لبيكر : «اذهب إلى عمان وسترى سيارات المرسيدس الجديدة» .

قال بيكر عن مبارك : «كان مبارك صقراً تقريباً في حماسته ضد صدام كالسعوديين . آمن بقدرة صدام على تهديد جيرانه وبضرورة تدمير قدراته العسكرية . وكان مستعداً لإشراك قواته في الائتلاف . وكان مسروراً من استعداد الولايات المتحدة لإعفاء مصر من (٧,١) مليار دولار من ديونها» .

من القاهرة اتجه بيكر إلى هلسنكي للانضمام إلى الرئيس بوش في اجتماع القمة مع الرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشيف ، للتنسيق في مواقف الدولتين الأعظم من أزمة الخليج . في الطائرة طلب بيكر من معاونيه صياغة مسودة بيان مشترك قوي يصدر عن هذه القمة . في صباح التاسع من أيلول ١٩٩٠ ، وبينما كان بوش وغورباتشيف مجتمعين في القصر الرئاسي ، التقى بيكر بشفردنادزه الذي حاول ربط أزمة الخليج بالقضية الفلسطينية . قال له بيكر : «يا إدوارد ، سيكون ذلك كارثة ، يبدو كما لو أن صدام تلقى ما لم يحصل عليه أي شخص آخر ، سيكون نصراً مؤزراً له ، ويجعله يعتقد أن ما يفعله صحيح . وقد تضع الدول العربية المعتدلة في موقف دفاعي ، ويسبب كل المشاكل مع الإسرائيليين . ببساطة ليس بإمكاننا فعل ذلك» . قال شفردنادزه : «حسناً ، ولكن دعنا نتحدث عن السلام بطريقة ما» . ورد بيكر : «يجب أن نؤكد رهاننا بضمان نجاحنا وإرادتنا في القول إنه إذا لم تجد العقوبات فنحن مستعدون لاتخاذ خطوات أخرى . وآمل أنه إذا لم تجد العقوبات ولم تتحقق المهمة ، بأن تشعروا بالحرية في الانضمام إلينا في مجلس الأمن للحصول على تفويض بالذهاب إلى الأبعد ، وفق خطوط القرار الذي أصدرناه حول منع النقل البحري . وهنا نحن نتحدث عن استعمال التدابير المناسبة . لم أطلب منك التوقيع على بياض ، ولا أطلب منك أن تفعله اليوم . أنا أقوم بالتلخيص رداً على سؤالك حول الخطوات التالية والاتجاه الذي قد نذهب فيه» .

رد شفردنادزه : «أنا موافق تماماً معك . كل ما فعلناه حتى الآن كان صحيحاً . وقد نفشل ، ويجب أن أقول قد أشعر بأنني أقل اهتماماً إذا فكرت بأننا نتعامل مع شخص يمكن توقع أفعاله . ولكن من المحتمل أن يقامر» . سحب بيكر مسودة البيان المشترك التي أعدها معاونوه وقرأها لشفردنادزه . قال الأخير : «هذا شيء جيد ، جيد جداً دع دنيس روس Denis Ross وسرجاي تاراسنكو Sergei Tarasenko يصوغان البيان المشترك» .

كان غورباتشيف في محادثاته مع بوش مصراً على ذكر مؤتمر دولي للنظر في القضية الفلسطينية . وكان بوش مستعداً لقبول ذلك . غير أن بيكر وروس حاولا إقناعه بالتخلي عن الفكرة ، وإصدار بيان مشترك فيه إشارة غامضة إلى العمل معاً في المنطقة بعد انتهاء الأزمة ، ويخلو كلياً من الإشارة إلى المؤتمر الدولي . وتم الاتفاق سراً على العمل الأمريكي-السوفياتي المشترك لعقد مؤتمر سلام لمنطقة الشرق الأوسط بعد خروج العراق من الكويت .

في ١٢ أيلول التقى بيكر بشفردنادزه في موسكو لتوقيع وثائق الوحدة الألمانية . وفي اليوم التالي طلب غورباتشيف وشفردنادزه لقاءً خاصاً مع بيكر وروس . تم اللقاء في غرفة صغيرة للاجتماعات . وبدأ غورباتشيف الحديث عن تحويل النظام السوفياتي إلى اقتصاد السوق . وقال : «نحتاج لمساعدة ، نحن الآن في منتصف مرحلة التحول . وكلما تحركنا نحو تطبيق هذه الإصلاحات حدث عدم رضى كبير بين الناس . من الصعب جداً علينا الآن ، الوضع المحلي يتجه نحو الأسوأ . في مدى ستة أو تسعة أشهر سوف تتحسن الأمور لدينا . ولكنا بحاجة لمساعدة الآن . علينا تلبية حاجات الشعب خلال هذه المرحلة الانتقالية . أنا أدرك وجود حد لما تستطيعون أن تفعلوه ، ولكن هل تستطيعون المساعدة في الحصول على بعض المال من السعوديين لنا؟» وذكر رقم أربعة إلى خمسة مليارات دولار .

رد بيكر بأنه سيرى ما باستطاعته فعله في هذا الصدد . ولما عاد بيكر إلى واشنطن بحث الأمر مع الرئيس بوش فوافق على المسعى . وبعد أسبوعين أثار بيكر الموضوع مع الأميرين سعود الفيصل وبندر بن سلطان . واستجابت العربية السعودية للمسعى الأمريكي وقدمت أربعة مليارات دولار للاتحاد السوفياتي كقرض رسمي . فكان هذا القرض ضماناً أساسياً للدعم السوفياتي في قرار مجلس الأمن الدولي المتضمن التفويض باستعمال القوة لإخراج القوات العراقية من الكويت .

بيكر في دمشق للمشاركة في تحرير الكويت

بعد لقاء بيكر بغورباتشيف في موسكو اتجه إلى دمشق للقاء بالرئيس السوري حافظ الأسد في ١٤/٩/١٩٩٠ ، وكانت فكرة الزيارة قد أحدثت خلافاً في وزارة الخارجية الأمريكية حتى إنها كادت أن لا تحدث . كان دنيس روس أشد المعارضين للزيارة . وكانت حجته أنه لأسباب خاصة به سينضم الرئيس الأسد إلى الائتلاف الأمريكي . فالرئيس الأسد على عداء شديد مع صدام حسين ، الذي حاول مراراً اغتياله ، ويعد المنافس الأول له في المنطقة . ولا شك أن تركيع صدام يتفق وأهداف الأسد . وكان لدى الأمريكيين بعض الشك في أن يرسل الأسد قوات سورية للعربية السعودية . وعلموا من حسني مبارك أن الأسد قد وعد بإرسال فرقة عسكرية على الأقل . ووعد السعوديون بدفع كلفة الحملة العسكرية السورية . وكان الرئيس الأسد قد وافق على إرسال ممثل له إلى اجتماع مجلس الجامعة العربية في القاهرة في آب ، بناء على الطلب الأمريكي ، وهو الاجتماع الذي أسفر عن تشكيل الائتلاف العربي لتحرير الكويت .

يقول بيكر حول أهمية هذه الزيارة : «من البداية وددت الذهاب إلى سوريا ، على الرغم من اعتراضات روس . ومع ميزات جميع حججه ، شعرت أن الأهمية الرمزية للمشاركة السورية أكبر بكثير من مجرد وجودها . لقد قوى تمثيل سوريا مصداقية المشاركين في الائتلاف العربي . وكان لدي هدف أبعد في ذهني ، فلا سبيل لتحريك عملية سلام شرق أوسطية شاملة بدون مشاركة سورية فاعلة . واعتقدت أنه قد تتوفر فرصة للبدء في وضع العمل الأساسي مع الأسد لجهد جديد لإنعاش عملية السلام» .

كان الرئيس جورج بوش (الأب) يعتقد أن جورج شولتز ، وزير الخارجية الأمريكي في عهد الرئيس ريغان Ronald Reagan قد ارتكب خطأ خطيراً بقطع الاتصال مع سوريا بعد تفجير ثكنة المشاة البحرية الأمريكية في بيروت سنة ١٩٨٣ . يقول بيكر : «بسبب معارضة روس الشديدة ، أسقطت زيارة سوريا من خط سير رحلتي في أيلول ١٩٩٠ . ولكن الرئيس بوش اتصل بي وقال : أعتقد أنه يجب عليك أن تفكر بالذهاب إلى سوريا في وقت ما . عندها أعطيت تعليمات لمارغريت توتوايلر Margaret Tutuwiler لإدخال دمشق في نهاية جولتي» . وأعلن بيكر عن عزمه على زيارة دمشق خلال مؤتمر صحفي في أعقاب اجتماع وزاري لحلف شمال الأطلسي في بروكسل .

قابل بيكر الرئيس الأسد في دمشق في ١٩٩٠/٩/١٤ . وبعد المجاملات التقليدية ، قدم بيكر نفسه للرئيس السوري مؤكداً له صداقته الحميمة مع الرئيس بوش منذ خمس وثلاثين سنة . وقال في هذا الصدد : «نحن قريبان جداً ، أشاركه في كل شيء ويشاركني في كل شيء» . أراد بيكر أن يعتبره الأسد امتداداً للرئيس الأمريكي ، يحمل آراءه ويتبناها . وكان السفير الأمريكي في دمشق إدوارد جرجيان Edward Djerjian قد أخبر بيكر أن الرئيس الأسد يعير أهمية كبيرة لمصداقية محدثيه ، ويمكن الاعتماد عليه في الالتزام بكلمته إذا أعطاها . قال الأسد : «حسناً ، لقد سمعنا عنك أشياء أيضاً . وكنا نتابع التقارير عن آرائك باهتمام بالغ . وتوصلنا إلى أنك قوي وصاحب قرار وتقول ما تعنيه . وهذا يجعلنا نعتقد بأنك رجل مستقيم . المهم أن يكون الإنسان صريحاً ومباشراً ، سواء اتفقنا أم لم نتفق . عند وجود هذه الصفات ، حتى لو لم يحصل اتفاق ، هناك ثقة . يجب أن لا تكون هنالك مسائل مخفية بيننا» .

وصف بيكر الوضع في الخليج كأول أزمة حقيقية في فترة ما بعد الحرب الباردة . وقال : «إن نظاماً جديداً في طريقه إلى التشكل بحيث لا ينجح صدام حسين في مغامرته ، وحتى في حال هزيمته لا يمكن اعتباره بطلاً» . وقدم للأسد موجزاً عن الاستعدادات العسكرية الأمريكية ، وأخبره أن الغرض الأساسي من زيارته هو معرفة إذا كان راغباً في السماح لفرقته العسكرية بالمشاركة في الائتلاف العسكري . وأكد له أن إرسال القوات السورية لفتة رمزية مهمة ، ولكن إذا جاؤوا إلى الحرب فإنهم يريدون اشتراك القوات السورية في القتال إلى جانب القوات المصرية . وفي حالة القيام بعمل عسكري فإنهم يريدون معرفة دور القوات السورية في العربية السعودية ، ودور الجيش السوري على الحدود السورية-العراقية . وطلب بيكر مناقشة هذه الأمور مع الرئيس السوري .

تجنب الرئيس الأسد الرد المباشر على ما قاله بيكر ، وأعرب عن أمله في أن تضعف العقوبات المفروضة على العراق من عزيمة صدام . وقال : «إنها عقوبات قاسية ولا بد أن تضعفه» . وأكد أن غزو صدام للكويت كان خطأً ، ولذا اتخذت سوريا موقفاً مبدئياً بدعم جهود الائتلاف . وظل غامضاً في مسألة مشاركة سوريا في الائتلاف العسكري . ولما ألح عليه بيكر قال الأسد إنه لم يقرر بعد عدد القوات التي سيرسلها إلى العربية السعودية . ولكنه وعد بالالتزام بالعدد المطلوب ولو بلغ مئة ألف جندي .

وأردف قائلاً : «سنفعل الشيء الصحيح ، وإن كان ليس من السهل عمله ، بسبب موقف الرأي العام لدينا» .

علق بيكر على لقائه بالأسد بقوله : «الأسد رجل واقعي ، لم يحتج لتذكيره أن الانضمام إلى الائتلاف قد يعزز نفوذه في العالم العربي ، ويساعد في إنهاء أحقاد قديمة مع صدام . كما أنه أدرك بالغريزة أن انضمامه إلى الائتلاف سوف يسهل للولايات المتحدة التعامل مع سوريا . وأراد بيكر منه أن يعترف بأن المخاطر أعلى بكثير من مجرد تحسين العلاقات الثنائية بين الدولتين . وقال بيكر للأسد : «نحن متفائلون بأن الظروف التي جمعت سوريا ومصر ودول الخليج معاً في ائتلاف عربي رئيسي بإمكانها أن تبشر بمستقبل لعملية سلام عربية-إسرائيلية» . في نهاية الاجتماع أبدى الرئيس الأسد الملاحظة التالية : «نحن راضون عن هذه المحادثة . لا بديل عن هذا اللقاء وجهاً لوجه . من المأمول أن يساعدنا هذا على إنجاز المزيد في المستقبل . إنه في صالح بلدينا والسلام في الشرق الأوسط . أريد سلاماً بطريقة حقيقية» .

اتجه بيكر بعد زيارته لدمشق إلى روما لإجراء مشاورات مع الايطاليين ، الذين وافقوا على إرسال سرب من طائرات تورنيدو Tornado إلى الخليج . ومن روما انتقل إلى ألمانيا حيث التقى بعد ظهر ١٩٩٠/٩/١٥ بالمستشار الألماني هلموت كول Helmut Kohl في منزله في مدينة لودفيجزهافن Ludwigshafen ، ليس بعيداً عن القاعدة الجوية الأمريكية العملاقة في رامشتاين Ramstein . ولما كان الدستور الألماني يمنع كول من إرسال قوات عسكرية ألمانية إلى الخليج فقد التزم بمبلغ مالي رمزي فكانت الاستجابة الألمانية في نظر بيكر في هذا الصدد : «قبل يومين في موسكو شاركت في حفل معاهدة الوحدة الألمانية ، حيث أنهت الدول المنتصرة الأربع الحليفة في الحرب العالمية الثانية حقوق الاحتلال في ألمانيا ، فاتحة الطريق لإعادة توحيد ألمانيا بعد حوالي نصف قرن من الزمن . كانت في الأساس اتفاقية توسطت فيها الولايات المتحدة ، ويعرف الألمان ذلك . والآن نريد مساعدة بالمقابل» .

في نهاية لقاء بيكر مع كول قال الأول : «عملنا معاً باتفاق تام في السنة الماضية لتلبية احتياجاتكم . أعتقد أننا قمنا بمهمة جيدة ، ولم تكن دوماً سهلة . عملنا معاً عن كثب ، وجعلناكم على علم بكل خطوة طوال الوقت . إنه إنجاز مدهش لنا جميعاً . ولكن لدينا بعض الحاجات الآن . لن تشاركوا في أي قوات لأن دستوركم يمنع ذلك ، وإذا ظهر أنكم شديدو البخل في المال ، فأنتم حصلتم على جميع

المكاسب من هذا ، ولا تشاركون . وحتى لو لم أومن بها فتلك هي الطريقة التي سينظر بها إليكم ، وعليكم أن تضعوني في وضع أقول فيه أمام الكونغرس إن ألمانيا قد قدمت حصتها . أنا أعرف مدى أهمية العلاقات الأمريكية الألمانية بالنسبة إليكم ، وتعلمون كم هي مهمة بالنسبة إلي . ولكن ليس بإمكانكم أن تتركوني معلقاً هناك» .

قدم المستشار كول معونة مقدارها ملياران من الدولارات ، وأضاف إليها ملايين الدولارات لدعم تجهيزات للقوات الأمريكية في الخليج ، وزيادة المعونة العسكرية والمالية لتركيا ، وتقديم السفن الألمانية لنقل القوات المصرية المدرعة ودباباتها الثقيلة إلى الخليج .

قرار مجلس الأمن الدولي بالتفويض باستعمال القوة

يقول جيمس بيكر في مذكراته إنه بتطرف صدام حسين وعناده وعزلته عن العالم ، لم يجد في العالم من يسانده على غزو الكويت ، مما ساعد الجهود الدبلوماسية الأمريكية على حشد ائتلاف دولي ضده . وتبين لأصدقاء الولايات المتحدة أمثال تورغوت أوزال وحسني مبارك خطأ تقديرهم بأن العقوبات الاقتصادية التي فرضها مجلس الأمن الدولي سوف تضطر صدام حسين إلى الانسحاب من الكويت في مدى ستة أسابيع . وكان غورباتشيف وشفردنادزه يؤيدان هذا الرأي . وبعد مضي شهرين توصلت الإدارة الأمريكية إلى الاعتقاد بأن العقوبات الاقتصادية وحدها لن تنجح في إخراج العراقيين من الكويت ، وفرض حصار بحري على الكويت والعراق . غير أن حكومة العراق رتبت الموارد الرئيسية في البلاد في محاولة للتصدي للعقوبات والحصار . وكان الوقت إلى جانبها ، بينما كانت الإدارة الأمريكية تخشى تفكك الائتلاف الدولي وانهياره ، وهي الساعية إلى استعمال القوة لإخراج القوات العراقية من الكويت .

وكخطوة أولى بررت الإدارة الأمريكية زيادة عدد قواتها في منطقة الخليج بالضغط على العراق لسحب قواته من الكويت . وفي ١٩ تشرين الأول ١٩٩٠ التقى الجنرال كولن باول ، رئيس هيئة الأركان للقوات الأمريكية مع جيمس بيكر في مكتب الأخير في وزارة الخارجية ، واتفقا على ضرورة القيام بعمل عسكري إلى جانب العمل الدبلوماسي . وكان بيكر قد التقى ببوب كيميت Bob Kimmitt وبحث معه الخطوات الضرورية للعمل العسكري ، ومنها اتخاذ قرارات من مجلس

الأمن الدولي لتفويض الائتلاف بالعمل العسكري ، والجهود الدبلوماسية لتعزيز استعمال القوة ، وإنشاء قيادة عسكرية فعالة ، والقيام بجولة على الدول المشاركة في الائتلاف . وكان رأي الإدارة الأمريكية جعل جميع الخيارات أمامها مفتوحة ، واختيار سياسة الاحتواء المعلنة ، وتشديد العقوبات ، وبقاء القوات الأمريكية في الخليج للقيام بدور دفاعي ، وحشد قوة هجومية مدروسة تكفي لإخراج القوات العراقية من الكويت . ولا بد أن تشمل هذه القوة عدداً من قوات دول الائتلاف ، بحيث تكون هذه القوة جاهزة للقتال في مدى ثلاثة أشهر .

وتم الاتفاق بين باول وبيكر على إقناع الرئيس بوش بإعلان موعد لاستعمال القوة العسكرية في الأول من شباط أو الأول من آذار ١٩٩١ . ودعا بيكر إلى نظام عالمي جديد بقيام الائتلاف الدولي للوقوف في وجه العدوان العراقي . وحذر من ارتكاب الأخطاء التي ارتكبت في فيتنام . وكان يرى أن الذهاب إلى الحرب يقتضي وجود قوة عسكرية ضخمة ، وموافقة الكونغرس الأمريكي والأمم المتحدة على استعمال القوة . وكتب : «إذا رفض الكونغرس الدخول في حرب ، وإذا لم يعلن عن عزمنا على احتوائه (العراق) ، والإبقاء على العقوبات ، والإبقاء على قواتنا هناك ، كما في ألمانيا وكوريا ، فنحن بحاجة للنظر في إجلاء الدبلوماسيين الأمريكيين الباقين في الكويت» .

وقد أبلغ بيكر الرئيس بوش بوجهة نظره ، بينما ذهب كولن باول إلى الرياض للاجتماع بقائد القوات الأمريكية في دول الخليج الجنرال نورمان شوارتزكوبف Norman Schwarzkopf لمعرفة عدد ما يحتاجه من القوات المسلحة لشن الهجوم على العراق والكويت .

في ١٩٩٠/١٠/٢٤ ، وافق الرئيس بوش ، بعد مناقشات أجراها مع ديك تشيني ، وزير الدفاع ، وكولن باول وسكوكروفت Scowcroft مستشار الرئيس للأمن القومي ، على زيادة عدد القوات الأمريكية في الخليج ، وأصدر أمره في ٣١ تشرين الأول ١٩٩٠ على زيادة هذه القوات في العربية السعودية إلى (٢٠٠) ألف جندي ، شريطة موافقة الحكومة السعودية على ذلك . وكانت الذريعة لهذه الزيادة إقناع صدام بضرورة مغادرة قواته للكويت بسلام . وأطلقت الإدارة الأمريكية على هذه السياسة «الدبلوماسية القسرية» تجاه العراق .

وعلى الصعيد الدولي اعترف الرئيس بوش بضرورة الحصول على موافقة المجتمع

الدولي على استعمال القوة ، لأن حلفاء الولايات المتحدة كانوا يشكون لسنين من عقلية الكاوبوي (راعي البقر) الأمريكي ، وقد عززت هذا الانطباع الحملات العسكرية على غراناادا Granada وبنما Panama . ولذا سعى بوش إلى الحصول على قرار من مجلس الأمن الدولي بتفويض الائتلاف العسكري الذي تقوده الولايات المتحدة باستعمال القوة ضد العراق ، وأعدت وزارة الخارجية الأمريكية مشروع القرار .

عارضت مارغريت تاتشر ، رئيسة وزراء بريطانيا ، الفكرة لاعتقادها أن الفشل في الحصول على القرار سوف يضعف قدرة الائتلاف على استعمال القوة ، استناداً إلى المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة ، التي تنص على حق الدول الأعضاء في الدفاع عن النفس . وكانت ترى أن الأمم المتحدة قد ترفض قراراً من هذا النوع . وقد أيدها ديك تشيني وسكوكروفت في هذا الرأي .

لم يأخذ الرئيس بوش بوجهة نظر تاتشر ، وأصبح من مهمة جيمس بيكر إقناع أعضاء مجلس الأمن بالقرار ، باعتماد «دبلوماسية الحوافز» . اعتمد بيكر صيغة اللجوء إلى «جميع الوسائل الضرورية بما في ذلك إستعمال القوة» . بحث بوب كيميت في قانونية القرار ، وتوصل إلى أن السوفيات والحلفاء الآخرين اعترضوا على مثل هذا التفصيل ، وفضلوا عبارة «جميع الوسائل الضروية» ، واعتبروها كافية كتفويض لشن الحرب .

عزم بيكر على مقابلة رؤساء الدول أو وزراء خارجية الدول الأعضاء في مجلس الأمن لإقناعهم بالقرار المقترح ، قبل التصويت ، لأن هذا الطلب بالتفويض باستعمال القوة يعد أول طلب منذ الحرب الكورية . قضى بيكر (١٨) يوماً في السفر إلى اثنتي عشرة دولة في قارات ثلاث ، منذ مغادرته واشنطن في ١٩٩٠/١١/٣ ، بدأ جولته بالبحرين حيث التقى الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة ، وكان بيكر حريصاً على بقاء الدول العربية والإسلامية في الائتلاف إذا قام الأمريكيون بقصف العاصمة العراقية ، أو ضرب صدام حسين إسرائيل . وكان الأمير واضحاً في «دعمه أي جهد ضد العراق ، باعتبار أن السلام مستحيل مع صدام» .

وقابل بيكر أمير الكويت في الطائف وولي عهده ، ووافقا على مقترحات بيكر . ثم توجه إلى جدة فقابل الأميرين سعود الفيصل وبندر بن سلطان لمدة ساعتين ، وقد حثاه على ضرورة الإسراع بشن الحرب . وقال بيكر لهما : «الطائرات الأمريكية ستقتل عرباً في العراق . العراق لم يقتل أمريكيين في الكويت ، لقد قتل عرباً ، وهذه

ليست مشكلة» . واختلف الأميران حول مسألة الهجوم الإسرائيلي على العراق . فقد أكد بندر لبيكر بأنها ليست مشكلة ، بينما ظن سعود أنها قد تكون «مشكلة معقدة» لا بد من أن يقررها الملك شخصياً .

التقى بيكر الملك فهد في قصر السلام من الساعة العاشرة ليلاً حتى منتصف الليل . قال فهد : إن صدام قد خطط أصلاً للهجوم على المنطقة الشرقية من المملكة ، وأنه تم ردعه بالرد السريع للقوات الأمريكية . وأضاف : «الأصدقاء الحقيقيون هم أولئك الذين تعتمد عليهم حينما تحتاجهم . فالولايات المتحدة والمملكة في خندق واحد» ووصف صدام بأنه «رجل فاقد لتوازنه ، رجل بدون فهم للأخلاق ، رجل يحتقر كل قيمة إنسانية مقبولة في كل مجتمع ، وربما أن الله خلق هذه الأحداث للتخلص من صدام» . ووافق الملك فهد على نشر مئتي ألف جندي أمريكي إضافة إلى الموجودين على أرض بلاده . ولما طلب منه بيكر السماح للقادة العسكريين الأمريكيين بقيادة قوات الائتلاف ، قال : «هذه الترتيبات طبيعية» ، مثلما وافق على مسألة إسرائيل الحساسة . ووافق أيضاً على تحمل التكاليف المالية لنقل القوات الأمريكية وتزويدها بالوقود والطعام والبناء .

غادر بيكر جدة إلى القاهرة للقاء بالرئيس مبارك . وافق الرئيس المصري على أسئلة بيكر الثلاثة . ولكنه لم يكن متأكداً من إرسال فرقة عسكرية ثالثة من قواته إلى الخليج . وأبدى تحفظه على استعمال الطائرات الحربية الأمريكية للقواعد الجوية المصرية في الهجوم على العراق . يقول بيكر تعقيباً على ذلك «في النهاية كنت متأكداً أنه سيوافق» .

محاولات إقناع الصين والاتحاد السوفياتي وفرنسا بالموافقة على تفويض أمريكا بإخراج العراق من الكويت بالقوة

بعد أن اطمأن جيمس بيكر على موافقة أمير البحرين وأمير الكويت وملك العربية السعودية ورئيس مصر على المشاركة في الحرب على العراق ؛ لإخراج قواته من الكويت ، والقيادة الأمريكية لهذه الحرب ، وعدم الانسحاب من الائتلاف الدولي إذا هاجمت إسرائيل العراق ، ركز وزير الخارجية الأمريكي على كسب الصين والاتحاد السوفياتي لمشروع القرار الأمريكي المقدم إلى مجلس الأمن للتفويض باستعمال القوة ضد العراق لسحب قواته من الكويت . التقى بوزير خارجية الصين

كيان كيشن Qian Qichen في صالة الضيافة للشخصيات المهمة في مطار القاهرة الدولي لمدة تسعين دقيقة . وكان الوزير الصيني في طريقه إلى بغداد . أخبر كيان كيشن وزير الخارجية الأمريكي أنه سيبلغ الرئيس العراقي بأن الصين ملتزمة بتطبيق جميع قرارات الأمم المتحدة ، وأن الانسحاب غير المشروط من الكويت هو السبيل الوحيد لتجنب إراقة الدماء . وطلب بيكر من زميله الصيني أن يبلغ صدام أن الصين ستؤيد قرار مجلس الأمن بالتفويض باستعمال القوة ضد العراق . غير أن الوزير الصيني لم يلتزم بتلبية هذا الطلب . وقال لزميله الأمريكي : إن الحديث عن استعمال القوة سابق لأوانه ، ويجب تجنب الحرب مهما كانت التكاليف . وأضاف : «مادام هناك شعاع من أمل للسلام ، فالصين سوف تبذل أقصى جهدها من أجل تسوية سلمية» .

يقول بيكر إن الصينيين كانوا غاضبين لأن الرئيس بوش لم يزر الصين ، كما أن بيكر نفسه لم يزرها . وقد بيّن بيكر لزميله الصيني أن الزيارة قد تثير نقداً محلياً من شأنه أن يسيء إلى العلاقات بين البلدين . ولإقناعه بذلك قرأ له من رسالتين حديثتين من أعضاء الكونغرس الغاضبين لاعتقادهم بأن الرئيس جورج بوش يدلل الصينيين . وعد بيكر زميله الصيني بإرسال بوب كيميت إلى بكين مع نهاية السنة لبحث إمكانية زيارة بيكر للصين سنة ١٩٩١ . وخرج بيكر بانطباع ، بعد لقائه بزميله الصيني ، بأن الصين لن تستعمل حق النقض (الفيتو) ضد مشروع القرار الأمريكي . وقد أبلغ الرئيس بوش بأنه يشعر أن الصين إما أن تؤيد مشروع القرار أو تمتنع عن التصويت . وأنه لا حاجة لزيارة منه للحصول على تأييدهم للقرار .

توجه بيكر من القاهرة إلى أنقرة في ١٩٩٠/١١/٧ ، حيث التقى بالرئيس التركي تورغت أوزال ، الذي وافق على قرار مجلس الأمن ، وعلى النظر في إرسال لواء من سلاح المدرعات إلى العربية السعودية . ووافق على زيادة عدد الطائرات الأمريكية الحربية في القواعد الجوية التركية من (٤٨) إلى (١٣٠) طائرة نفاثة . ولكنه قال إنه غير متأكد إذا كان سيسمح لها بقصف العراق . ويقول بيكر إنه كان متأكداً أن موافقة أوزال على السماح للطائرات الأمريكية بقصف العراق ستأتي .

ومن أنقرة سافر بيكر بطائرته إلى موسكو ، التي كانت تكسوها الثلوج عند وصوله إليها في ١٩٩٠/١١/٧ ، في العيد الثالث والسبعين للثورة البلشفية . بدأت محادثات بيكر مع شفردنادزه في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي . أبلغ بيكر

زميله السوفياتي أن الرئيس بوش سوف يعلن ، بعد ساعات قليلة ، عن زيادة عدد القوات الأمريكية في الخليج ، من باب المجاملة . قال شفردنادزه إنه غير مقتنع بأن الوقت قد حان للتهديد بالقوة ، لأن ذلك سيجعل من صدام حسين بطلاً ، وإنه ما زال يرى تشديد العقوبات على العراق . رد بيكر بأن شركاء أمريكا من العرب مجمعون على أن القتال لن يبدأ بعد منتصف آذار ١٩٩١ ، مع بداية شهر رمضان ، وبعده سوف يواجهون حرارة الصيف اللافحة ، وعندها سيضطرون إلى تأجيل العمل العسكري إلى الخريف ، وحينئذ تصبح القدرة على الحفاظ على الائتلاف طوال هذه المدة أمراً مشكوكاً فيه . استجاب شفردنادزه وقال : «الشيء الوحيد الحاسم إذن هو أنكم إذا كنتم عازمين على استعمال القوة ، عليكم أن تعرفوا أنكم ستنجحون . تعلمنا هذا من أفغانستان . لا تصغوا للعسكريين الذين يقدمون لكم آراء مبسطة . . . فهل أنتم متأكدون حقاً أنكم فكرتم بذلك جيداً؟» .

أجاب بيكر : «أود منك أن تسمع من عسكرنا . سآتي بهوارد غريفز Howard Graves إلى الاجتماع . إنه معيار لعلاقتنا أن آتي به إلى هنا لتستمع إليه . نحن نعمل شيئاً لم نعمله من قبل . قدم غريفز إيجازاً ، إلى هنا ، سرياً عالي المستوى عن خطة الحرب لتحرير الكويت . قال غريفز : فكرتنا ، قبل كل شيء ، هي التأكد من أننا دمرنا قدرة العراقيين على إيصال التعليمات الاستراتيجية لقواتهم . وبهذه الطريقة نحرمهم من القدرة على شن حرب على قواتنا أو القيام بدفاع فعال ضد هجماتنا . ثم سندمر دفاعاتهم الجوية : الطائرات والصواريخ . حالما ننتهي من ذلك سوف يكون في مقدورنا التحرك لتدمير قواتهم الأرضية في الكويت والعراق . وأكد غريفز التفوق التكنولوجي للقوات الأرضية الأمريكية . وقال : «بإمكان دباباتنا أن تدمر دبابات العدو وهي تسير بسرعة عالية . ليس لدى العراقيين وسيلة لحماية أنفسهم» . وأكد غريفز أن صواريخ سكود التي لدى العراقيين غير دقيقة ولا تهدد القوات الأمريكية .

بعد هذا الاجتماع التقى بيكر بالرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشيف ودام اجتماعهما ساعتين . لم يبد الزعيم السوفياتي تشجيعاً لمشروع قرار مجلس الأمن الدولي . وقال إن تحديد موعد للحرب قد تكون له نتائج عكسية . وأراد أن يعرف من المسؤول الأمريكي مدى استعدادهم للحرب . واقترح إصدار قرار يفوض باستعمال القوة ولكن بعد ستة أسابيع انتظاراً ، وآخر يأمر ببدء القتال إذا كانت قوات صدام ما زالت في الكويت . رد بيكر بأن هذه فكرة مخيفة ، فهي تنازل عن الانسحاب دون

شروط . واقترح إصدار قرار واحد يشمل الفترة التي اقترحها غورباتشيف مع تاريخ معين بعده يصبح استعمال القوة مفوضاً . لم يرغب الرئيس السوفياتي في الالتزام بوقت محدد ، ووعد بالرد على الاقتراح الأمريكي بعد أحد عشر يوماً عند لقائه بالرئيس بوش في قمة مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي Conference on Security and Cooperation in Europe (CSCE) . تكوّن انطباع لدى بيكر بأن غورباتشيف سوف يؤيد الولايات المتحدة في مجلس الأمن الدولي .

من موسكو توجه بيكر إلى برلين للمشاركة في الذكرى الأولى لسقوط جدار برلين في ١٩٩٠//١١/٩ ، وفي اليوم التالي كان في باريس للقاء بالرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران . وافق الفرنسيون على إرسال قواتهم العسكرية إلى العربية السعودية ، ولكنهم أصروا على أن لا تكون تحت القيادة الأمريكية . وفضلوا ترك العقوبات الاقتصادية تأخذ مفعولها لمدة أطول قبل النظر في استعمال القوة . وحبذوا ربط الأزمة بعملية سلام الشرق الأوسط ، وهذا في نظر الأمريكيين ما يريده صدام حسين . قال ميتران لبيكر : «صدام متوحش وذكي وماكر وأخطر من أي شخص آخر . وصدام في الكويت لا يختلف عن الأسد في لبنان . ولا ترى فرنسا فرقاً بين ما يجري في الكويت وما يجري في لبنان . ولكنكم لم تأتوا للدفاع عن لبنان» .

وقال ميتران أيضاً : «لدينا علاقات طيبة مع الأمير (الكويتي) والعربية السعودية . لقد ذهبت إلى العربية السعودية حديثاً . تلقيت هدايا ثمينة . في قصورهم لا نرى نساء أو أناساً عاديين . ليس نوع الحكم الذي أود إرسال الجنود الفرنسيين ليقتلوا من أجله . إن بلادي لا تستطيع أن تلزم نفسها بمبادئ الكويت . لا نستطيع الطلب من الجنود أن يموتوا من أجل نوع الحكم الموجود في الكويت . كيف سأقول للفلاحين الفرنسيين إنني التزمت بحياة أبنائهم للحفاظ على ملياردير؟ أمير الكويت رجل لطيف . هل نستطيع ضمان استعمال القوة من أجل حماية قاصات البنوك في سويسرا؟ هذه فكرة تجعلني غير متحمس كلياً» .

«ومهما يكن فإن صدام حسين ليس ملاكاً ، إنه رجل خطير ، ولا بد من إحتوائه . لدينا في العربية السعودية ستة آلاف مقاتل ، وأسطولنا الحربي يقوم بمهمته في الخليج الفارسي وأفريقيا . نحن نبذل ما في استطاعتنا ، بعد الولايات المتحدة . إذا لم يشعر صدام حسين بالتهديد فإنه لن يخضع . إن الصداقة الماضية بين فرنسا والعراق لم تتم على مستوى شخصي مع صدام حسين . لقد طلب مقابلتي خلال

السنوات التسع الماضية . لم أزر العراق قط ولم أره أيضاً . هناك برودة في علاقتنا ، مع أننا في فرنسا قد دعمناه عسكرياً ببيع أشياء له . رفضت طلبه لإعادة بناء المسارع النووي الذي دمره الإسرائيليون . وأدى رفضنا إلى تعريض علاقتنا للخطر» .

كان ميتران يرى أن الحرب ضرورية لتجريد العراق من أسلحته ، وأنه سيؤيد مشروع القرار في مجلس الأمن الدولي .

شراء موافقة إثيوبيا وزائير وساحل العاج وكولومبيا ورومانيا في مجلس الأمن بالمساعدات الاقتصادية

واصل جيمس بيكر اتصالاته مع الدول الأعضاء في مجلس الأمن الدولي ، بعد اتصاله برئيس وزراء الاتحاد السوفياتي ميخائيل غورباتشيف ووزير خارجيته إدوارد شفردنادزه ، ووزير خارجية الصين كيان كيشن ، والرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران ، فالتقى مع وزراء خارجية ثلاث من الدول الأعضاء في مجلس الأمن هي إثيوبيا وزائير وساحل العاج دينكا تسفاي Dinka Tesfaye الذي وقف إلى جانب أمريكا ، أما وزير خارجية زائير كاتانيا موشا بشوا Katanya Mushabshwa فقد وافق على دعم مشروع القرار الأمريكي بعد أن وعده بيكر بالاستمرار في دفع المعونة الأمريكية لبلاده ، التي كان الكونغرس الأمريكي قد اقترع على إيقافها . وقال وزير خارجية ساحل العاج سيميون أكي Simeon Ake لبيكر : إن الاهتمام الرئيسي في بلاده ليس بالخليج وإنما بالتنمية . فبلاده تمر في أزمة مالية . وحصل على وعد بالإعفاء من الديون المترتبة على بلاده .

والتقى بيكر بوزير خارجية رومانيا ، أدريان ناستازي Adrian Nastase ، في ١٩٩٠/١١/١٨ في باريس ، وقدم بيكر لحكومته (٥٨) مليون دولار منحة كمساعدة إنسانية .

اتجه بيكر مع الرئيس بوش من باريس بعد انتهاء مؤتمر قمة الأمن والتعاون الأوروبي في ١٩٩٠/١١/٢١ إلى جدة . وفي صباح اليوم التالي زار بوش القوات الأمريكية في العربية السعودية بمناسبة عيد الشكر Thanksgiving Day ، بينما غادر بيكر إلى صنعاء لإقناع المسؤولين اليمنيين بالتصويت لصالح مشروع القرار الأمريكي في مجلس الأمن الدولي . وكانت اليمن قد انتقدت دعوة الملك فهد للقوات الأمريكية للانتشار في بلاده . فرد السعوديون بطرد مئات الألوف من اليمنيين

المقيمين في المملكة . وقال بيكر في مذكراته «وأخبرني السعوديون أن الذهاب إلى اليمن مضيعة للوقت» . وكانت اليمن وراء محاولة في مجلس الأمن الدولي للضغط من أجل إصدار قرار من المجلس لبسط حماية الأمم المتحدة على الفلسطينيين في الأراضي التي تحتلها إسرائيل . وهي فكرة قديمة كان يؤيدها العديد من دول عدم الانحياز . وقد اغتنمت اليمن الفرصة لاستصدار هذا القرار قبل صدور مشروع القرار الأمريكي بالتفويض باستعمال القوة لإخراج القوات العراقية من الكويت . وسببت هذه المحاولة اليمنية إزعاجاً للولايات المتحدة ، لأنها ستضطر إلى استعمال حق النقض (الفيتو) ضد هذا القرار ، مما يخلق لها متاعب مع شركائها العرب ، ويعزز موقف صدام حسين الذي أثار النزاع العربي-الإسرائيلي .

في لقائه بالرئيس اليمني علي عبد الله صالح ، ذكره بيكر بأن الولايات المتحدة لم تضع اليمن الموحد على قائمة الدول الإرهابية ، مع أن اليمن الجنوبي كان مدرجاً على هذه القائمة قبل اتحاده مع اليمن الشمالي . وهذا سلاح استعملته الولايات المتحدة لإخضاع بعض الدول في العالم الثالث ، التي تحاول الخروج على إرادتها والتمرد على سياستها . وذكّره أيضاً أن الإدارة الأمريكية حثت السعوديين على تخفيف ضغوطهم على اليمنيين . وهدّده بأن اليمن سيدفع ثمناً باهظاً إذا استمر في الاندفاع من أجل استصدار قرار لحماية الفلسطينيين في مجلس الأمن . كما هدده أيضاً بقطع المعونة الأمريكية لليمن البالغة سبعين مليون دولار سنوياً . قال الرئيس اليمني : «هذه مثل عاصفة صيفية وسوف تزول» . ورد عليه بيكر مهدداً : «هذه العاصفة إذا جاءت ستكون عنيفة» . جاء القرار اليمني صفعة لبيكر . فبعد تناول الغداء والوفد المرافق له مع الرئيس اليمني ، أعلن الأخير رفضه لمشروع القرار الأمريكي في مؤتمر صحفي .

عاد بيكر إلى جدة في الليلة نفسها ، وقرر الذهاب إلى بوغوتا Bogota لمقابلة الرئيس الكولومبي سيزار غافيريا تراخيلو Cesar Gaviria Trajillo للاقتراع لصالح مشروع القرار الأمريكي في مجلس الأمن الدولي فحصل على موافقته . ثم غادر بوغوتا إلى لوس أنجيلوس للاجتماع بوزير خارجية ماليزيا في مطارها . كان الوزير أبو الحسن صعب المراس ويرى إصدار قرار من مجلس الأمن الدولي بشأن الأراضي العربية المحتلة . وقال لبيكر : «كنا نحبذ أن نراكم في ماليزيا . . . يجب أن أعبّر بصراحة عن عدم سعادتنا بالمقاربة الأمريكية في غربي آسيا . أنتم تقودون هذا

التحرك لمعاقبة العراق . ونحن بحاجة للحديث عن العدوان الإسرائيلي على الفلسطينيين . ماليزيا لا تعارض معاقبة صدام حسين ، ولكن في الوقت نفسه يجب معاقبة إسرائيل على أسلوب معاملة الفلسطينيين . سوف ندرس قراركم بكل عناية ، ولكن لن نؤيد العقوبات من أجل تدمير العراق تدميراً حقيقياً» .

وجهت وزارة الخارجية الأمريكية دعوة إلى جميع الدول الأعضاء في مجلس الأمن لتمثيلها بوزراء خارجيتها في اجتماع المجلس المقبل في ١٩٩٠/١١/٢٩. وطلب بيكر من وزير خارجية كوبا اللقاء به في نيويورك يوم ١٩٩٠/١١/٢٨. وفي هذا اليوم التقى بيكر مع شفردنادزه لمدة ساعتين ، وتم الاتفاق بينهما على الصيغة النهائية لمشروع قرار مجلس الأمن المقترح . وتم الاتفاق بينهما وبين وزير خارجية فرنسا رولان دوما Roland Dumas على أن يكون الموعد النهائي لسحب القوات العراقية من الكويت ١٩٩١/١/١٥ .

التقى بيكر في فندق والدورف-أستوريا Waldorf Astoria بوزير خارجية كوبا إزيدورو مالميركا Isodoro Malmierca في اليوم نفسه ، فكان أول لقاء على مستوى وزراء الخارجية في العلاقات الثنائية بين الدولتين بعد ثلاثين سنة تقريباً . وكان تأييد كوبا لستة قرارات لمجلس الأمن ضد العراق قد هيأ أرضية مشتركة يمكن البناء عليها . عرض بيكر وجهة النظر الأمريكية المعروفة ، مشدداً على مصداقية الأمم المتحدة وفاعليتها كهيئة للسلام والأمن . رد الوزير الكوبي منددا بالسياسة الإسرائيلية ضد الفلسطينيين . وقال : إن القرار يضمن الحرب ، وهذه ستؤدي إلى رفع أسعار النفط وقيام كارثة اقتصادية في العالم . وأكد أن الميل إلى استعمال القوة لا يسعف ، والتهديد بالقوة يجعل الموقف العراقي متشدداً . وقال أيضاً : «نحن نعتقد أن تبني قرار كهذا لن يفضي إلى نتيجة سلمية . تحتاجون إلى البحث عن صيغة للانصياع بدون عمل عسكري . ونعتقد أن تحديد موعد أمر خطير وقد يساء تفسيره . فقد يشجع العراق على البدء بعمل عسكري . ونشعر أن القرار ، كما قدم ، هو عملية تقودنا إلى الحرب ، ولذا نخالف ذلك مبدئياً» .

وبعد نقاش مطول بين بيكر ووزير خارجية الصين ، ودعوة الأخير لمقابلة الرئيس بوش بعد الاقتراع على مشروع القرار الأمريكي ، أبلغ الوزير الصيني بيكر أن حكومته وافقت على الامتناع عن التصويت على مشروع القرار المذكور . وقد تغيرت الدعوة بعد الاقتراع على القرار من مقابلة الرئيس بوش إلى مقابلة بيكر ، مما أغضب

الصينيين وهددوا بعدم ذهاب وزيرهم إلى واشنطن إذا لم يقابل الرئيس بوش . وقال بيكر لبوش : «هذا ثمن بخس ندفعه لتجنب الفيتو» .

كان بيكر يتولى رئاسة مجلس الأمن الدولي ، وكان قد طلب من السعوديين والكويتيين الضغط على الصينيين من أجل تغيير موقفهم . وقد فعلوا ، لكن الصينيين لم يؤيدوا القرار واكتفوا بالامتناع عن التصويت . وقبل إجراء التصويت سلم بيكر الأمين العام للأمم المتحدة خافير بيريز دوكويار Javier Pérez de Cuéllar شيكاً بمبلغ (١٨٦) مليون دولار كدفعة جزئية من دين الأمم المتحدة على الولايات المتحدة ، وهي في نظر بيكر «مبادرة رمزية من الرئيس بوش تقديراً منه للمساعدة التي قدمتها الأمم المتحدة في هذه الأزمة» . وفي الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم ١٩٩٠/١١/٢٩ التقى بيكر بوزير خارجية كولومبيا ، الذي أخبره أن بلاده وكوبا واليمن وماليزيا لن تضغط في الاجتماع من أجل التصويت على مشروع قرار بشأن الأراضي العربية المحتلة . وحصل بيكر على موافقة تسع دول أعضاء في مجلس الأمن على القرار المقترح من الولايات المتحدة . وبعد ذلك بعشر دقائق أبلغ وزير خارجية ماليزيا بيكر بأنه سيصوت مع القرار الأمريكي .

في الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر ذلك اليوم بدأت جلسة مجلس الأمن لمناقشة مشروع القرار الأمريكي . وأثناء إلقاء مندوب اليمن خطابه كتب بيكر إلى بوب كيميت : «فقد مندوب اليمن الدائم ما بين (٢٠٠) إلى (٢٥٠) مليون دولار على خطابه» ، ووقفت كوبا إلى جانب العراق مثلما وقفت اليمن . وتم الاقتراع على مشروع القرار في الساعة الخامسة و٢٦ دقيقة بعد ظهر ١٩٩٠/١١/٢٩ ، فكانت النتيجة (١٢) صوتاً لصالح القرار ، وعارضته كوبا واليمن ، وامتنعت الصين عن التصويت . وهكذا صدر القرار رقم (٦٧٨) الذي سمح للعراق سحب قواته من الكويت دون شروط حتى منتصف ليلة ١٥ كانون الثاني ١٩٩١. وفوضت الدول الأعضاء في الأمم المتحدة باستعمال الوسائل الضرورية لاستعادة السلم والأمن الدوليين في المنطقة .

يقول بيكر في مذكراته تعقيباً على ذلك : «بهذا التصويت أصبحت العناصر العسكرية والسياسية لخطتنا لإجبار العراق على الخروج من الكويت قد وضعت في مكانها الصحيح . لقد تضاعف عدد القوات المسلحة الأمريكية في المنطقة ، جاعلة تهديدنا باستعمال القوة ذا مصداقية . وأصبح للائتلاف الآن قرار من الأمم المتحدة يفوض باستعمال القوة عند الضرورة» .

موافقة الكونغرس على تفويض الرئيس بوش باستعمال القوة

كان على الإدارة الأمريكية أن تضمن إصدار قرار من مجلس الأمن الدولي يفوضها باستعمال القوة لإخراج القوات العراقية من الكويت ، وأن تضمن موافقة الكونغرس الأمريكي لتفويض الرئيس جورج بوش بشن الحرب . وقد حققت الهدف الأول باستصدار قرار مجلس الأمن رقم (٦٧٨) في ١٩٩٠/١١/٢٩ . وبقي عليها تحقيق الهدف الثاني .

يقول بيكر في مذكراته إنه علم في ١٩٩٠/١١/٧ أن البيت الأبيض قد خطط لإعلان نشر عدد ضخم من الجنود الأمريكيين في الخليج . أوصى بيكر الرئيس بوش بتأجيل الإعلان إلى ما بعد مشاورات مناسبة مع الكونغرس بسبب حساسية الموضوع . إن إلتزاماً ثقيلاً باستعمال القوة العسكرية مسألة لا بد من إقناع الكونغرس بها . اتصل بيكر بالرئيس بوش هاتفياً من موسكو وحثه على المباشرة بالاتصال هاتفياً مع قيادة الكونغرس شخصياً لإبلاغهم بما ينوي إعلانه . واقترح بيكر عليه ترتيب عرض إيجاز رئاسي لقادة الكونغرس بعد عودة بيكر مباشرة إلى واشنطن .

استغرقت عملية إقناع الكونغرس بتفويض الرئيس بوش بشن الحرب في الخليج شهرين ، ذلك أن الكونغرس والجمهور الأمريكي لم يكونا مستعدين لقبول فكرة استعمال القوات الأمريكية لإخراج القوات العراقية من الكويت . وكان بيكر ، بخلاف زملائه في الإدارة الأمريكية ، يعتقد أنه من الخطأ الفادح القيام بحرب كبيرة كهذه ، دون تأمين قرار داعم للإدارة من الكونغرس ، على الرغم من السلطة الشرعية والصلاحيات التي يتمتع بها رئيس الجمهورية للعمل منفرداً .

يقول بيكر في مذكراته : «من وجهة نظر نفسية ، واجهنا صعوبة في إعلام الجمهور وإقناعه بالتهديد الذي يواجهنا ، بعد احتلال العراق للكويت . فلجيل كان الأمريكيون يعتبرون الاتحاد السوفياتي هو الخصم الوحيد لنا . ولكن مع سنة ١٩٩٠ ، كانت موسكو تتراجع في أذهان معظم الشعب ، كخطر حقيقي يفرض نفسه . في هذا الانتقال المفاجئ ، ظهر العراق وصدام حسين ، الذي كان يقود رابع جيش في العالم ، والذي خزّن كميات كبيرة من الذخائر الكيمياوية والبيولوجية ، وسعى إلى بناء قدرة نووية . ومهما يكن ، فقد كان صدام قائداً مجهولاً لغالبية الأمريكيين ، ولذا كان من الصعب إقناع الناس بالتهديد الذي يشكله عليهم . وقد تفاقمت هذه المشكلة لأن عدداً قليلاً من الناس يعرف أي شيء عن الكويت او حتى أين توجد .

وأولئك الذين يعرفونها كبلد صغير تديره ملكية إقطاعية لا صلة لها بالديمقراطية الغربية . وخلال عقود من الزمن ، بعد أن أقتطعت الكويت من العراق على يد البريطانيين ، لم تسمح الأسرة الحاكمة من آل الصباح بأي انتخابات» .

وقد عكس عدم اهتمام الكونغرس بالكويت اللامبالاة الشعبية . أما الإدارة الأمريكية فقد وجدت في منطقة الخليج المصالح الحيوية الأمريكية ، ولذا احتفظت بأسطول حربي كبير في الخليج لمدة تربو على أربعين سنة لحماية هذه المصالح . أما في الكونغرس فالرأي السائد لدى الأكثرية في الحزبين الجمهوري والديمقراطي أن التدخل العسكري الأمريكي في الخليج ليس ضرورياً بالنسبة للمصالح القومية الأمريكية . كما أن الربط بين نفط الخليج والاقتصاد الأمريكي كان أمراً تجريدياً ، فمنذ عقد من الزمن والمستهلكون الأمريكيون يتلقون الغاز بالأنابيب في منازلهم ومؤسساتهم الرسمية والخاصة . ولم يحدث أن دعا أحد المرشحين للكونغرس ناخبيه إلى إرسال قوات لحماية المصالح الأمريكية في الخليج .

يقول بيكر «كان هجومنا الدبلوماسي في الأمم المتحدة ، منذ البداية ، عنصراً حاسماً في كسب تأييد الكونغرس المتذمر . فمنذ مطلع آب سيطرنا على مجلس الأمن بإصدار قرار بعد الآخر ، مشددين على عزلة صدام السياسية والاقتصادية . واعتقدنا أن التأثير التراكمي لهذه القرارات سيكون له الفائدة المحلية في احتمال دفع أعضاء الكونغرس إلى اتخاذ موقف سياسي مؤيد . ووددت لو كنت قادراً على أن أسأل أعضاء الكونغرس المشككين ، كيف يمكن أن ينكروا دعم رئيسهم ، وقد دعمته دول مثل أثيوبيا وماليزيا وزائير في مجلس الأمن . . . وأصبحت هناك علاقة طردية بين الائتلاف الدولي والتأييد المحلي . فكلما كان الائتلاف أقوى أصبح الحصول على الإجماع في الداخل أسهل . وكلما كان التأييد أقوى للرئيس في الداخل ، أصبح الرئيس في وضع قيادي أفضل تجاه الحكومات الأخرى . . . وكان عكس ذلك واضحاً أيضاً ، فلو بدأ الائتلاف بالتفكك فسوف يتوقف الدعم المحلي وتأييد الكونغرس ، ولو قيّد الكونغرس يدي الرئيس برفض تأييد سياسته لضعف الائتلاف» .

منذ صدور قرار مجلس الأمن الدولي رقم (٦٦١) في ١٩٩٠/٨/٨ سعى عدد من أعضاء الكونغرس إلى تجنب الخيارات الصعبة واكتفوا بالعقوبات الاقتصادية . ولم يرغب العديد من أعضاء الكونغرس في اعتبار أنفسهم مسؤولين عن إرسال القوات المسلحة من الولايات والمقاطعات ، التي يمثلونها إلى حرب دامية . كان من رأي بيكر

الحصول على تفويض من الكونغرس للرئيس مبني على الحقائق السياسية وليس على الشرعية الدستورية والتشريعية . وكان يعتقد أن الكونغرس لا يتمتع بحق مساو لحق الرئيس في إدارة السياسة الخارجية أو في استعمال القوات المسلحة ، باعتبار رئيس الجمهورية هو القائد الأعلى لهذه القوات ، كما ينص على ذلك الدستور الأمريكي . ولكنه كان يخشى أن عدم الحصول على موافقة الكونغرس لحرب واسعة المدى في الخليج سيجعل الإدارة الأمريكية عاجزة عن الاستمرار في الهجوم على صدام حسين من الناحية السياسية العملية ، ومضطرة إلى اللجوء إلى سياسة الاحتواء .

أصبحت مهمة إدارة بوش في كسب تأييد الكونغرس أكثر تعقيداً ، بسبب الخلاف القانوني منذ حرب فيتنام بين رئيس الجمهورية والكونغرس حول من هو صاحب الحق في شن الحرب : الرئيس أم الكونغرس . وكان قد صدر قرار صلاحيات الحرب War Powers Resolution سنة ١٩٧٣ الذي حد من السلطة التنفيذية في إدارة العمليات الحربية . ولكنه اعتبر قراراً غير دستوري . ولما قرر الرئيس رونالد ريغان في تشرين الأول ١٩٨٣ غزو غرانادا جمع قيادة الكونغرس في إحدى الأمسيات ، وأخبرها أن القوات الأمريكية سوف تغزو جزيرة غرانادا في البحر الكاريبي في اليوم التالي . غضب رئيس المجلس تيب أونيل Tip O Neil وقال : «إن هذه المجاملة غير كافية بموجب قرار صلاحيات الحرب : هذا مجرد إعلام وليس تشاوراً ، حظاً سعيداً» وغادر البيت الأبيض فوراً ، تاركاً وراءه رسالة واضحة : لا تنتظر مني أي تأييد إذا ساءت الأمور .

وعلى أمل إحداث تناقض بين موقفي الكونغرس والشعب الأمريكي حول الموقف من قرار الرئيس بزيادة عدد القوات المسلحة الأمريكية في الخليج ، ألقى جيمس بيكر خطاباً في مجلس الشؤون العالمية في لوس أنجلوس في ١٩٩٠/١٠/٢٩ حول الاستعمال الممكن للقوة ضد العراق ، إذا استمر الأخير في احتلال الكويت . كانت ردة فعل الكونغرس على خطاب بيكر عكس ما كان يسعى إليه أو يتوقعه . واتهم بيكر بالمبالغة ، ودعا الكونغرس إلى أن تأخذ العقوبات ضد العراق مداها . وأعربت قيادتا الكونغرس عن غضبهما لما أعلن الرئيس بوش في ١٩٩٠/١١/٨ عن الانتشار الجديد للقوات المسلحة الأمريكية في منطقة الخليج .

ولإقناع الكونغرس والرأي العام الأمريكي بضرورة استعمال القوة ضد العراق ،

صرح بيكر في ١٩٩٠/١١/١٣ بأن «شريان الحياة الاقتصادية للعالم الصناعي يأتي من الخليج ، ولا نستطيع السماح لدكتاتور مثل هذا (أي صدام حسين) أن يقطع هذا الشريان . . . إذا أردتم أن ألخص الأمر بكلمة واحدة ، إنها الوظائف ، لأن كساداً اقتصادياً على صعيد العالم سببه سيطرة دولة واحدة أو دكتاتور واحد ، إذا أردتم ، على شريان الحياة الاقتصادية للغرب ، سينجم عنه فقدان وظائف لدى المواطنين الأمريكيين» . ولجأت الإدارة الأمريكية ووسائل الإعلام الأمريكية إلى وصف صدام حسين بهتلر الجديد ، الذي يشكل تهديداً للاستقرار العالمي ، نتيجة ارتفاع أسعار النفط الخام . وركزوا على أن غزو الكويت خرق فاضح للقانون الدولي ، وحالة عدوان جلية ، وهي أول أزمة حقيقية في عالم ما بعد الحرب الباردة ، وأن صدام مصاب بجنون العظمة ، وأن المصالح القومية الأمريكية في خطر ، لأن عشرات الآلاف من الوظائف مهددة بالفقدان .

يعترف بيكر بأن الإدارة الأمريكية كانت مضطربة في خطابها السياسي ، وأن الدعم الشعبي لما سماه «عملية درع الصحراء» «Desert Shield Operation» بدأ بالتراخي . وبدأ الرئيس بوش يتضايق من المحتجين الذين يحثونه بشعار : «لا دم مقابل النفط» . وأصبح الكونغرس فزعاً ومتقلباً في موقفه من الحشد العسكري المستمر . وفشلت الحملة الإعلامية التي قامت بها الإدارة الأمريكية في تحقيق أهدافها على الصعيد الداخلي . وغدا واضحاً استحالة استعمال القوة في وجه رفض واضح من الكونغرس لذلك .

واصل الرئيس بوش وجيمس بيكر لقاءاتهما بأعضاء الكونغرس من أجل الحصول على تأييدهم . وقام بيكر بتقديم شهادة أمام لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ في ١٩٩٠/١٢/٥ ، دافع فيها عن الإجراءات التي قامت بها إدارة بوش في منطقة الخليج ، بما في ذلك قرار الرئيس بوش بإرسال بيكر إلى بغداد ، في فرصة أخيرة لحل سلمي بانسحاب القوات العراقية من الكويت . وكرر هذه الشهادة في اليوم التالي أمام لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب الأمريكي . وكان من الأسئلة التي وجهت لبيكر في هذه الشهادة : «هل أنت مقتنع ، كوزير للخارجية وكمواطن وكأب ، أن هذا الموضوع يستحق فقدان حياة ثلاثين أو أربعين أو خمسين أو ستين ألف أمريكي؟» .

يعترف بيكر أيضاً بأن المساعدة جاءت من مؤيدي إسرائيل من أعضاء

الكونغرس ، لأن الحرب تعني «تدمير أعظم تهديد لأمن إسرائيل» . وأن فشل محادثاته مع طارق عزيز ، وزير خارجية العراق في جنيف في ١٩٩١/١/٩ أدى إلى اختراق في الكونغرس . فبعد ذلك بثلاثة أيام ، أي في ١٩٩١/١/١٢ اقترع الكونغرس بتأييد الرئيس بوش في إعلان الحرب بموجب قرار مجلس الأمن الدولي رقم (٦٧٨) . وقد أيد مجلس الشيوخ بـ٥٢ صوتاً مقابل ٤٧ صوتاً معارضاً هذا القرار .

لقاء بيكر-طارق عزيز في ١٩٩١/١/٩

في اجتماع تم في البيت الأبيض بين الرئيس جورج بوش ووزير خارجيته جيمس بيكر ومستشاره للأمن القومي برنت سكوكروفت ، تقرر أن يعلن الرئيس في ١٩٩٠/١٢/١ ، عن رغبته في مقابلة طارق عزيز خلال الأسبوع الذي ينتهي في ١٩٩١/١/١٠ ، ثم قد يرسل بيكر إلى بغداد لمقابلة صدام حسين في موعد مناسب للطرفين في الفترة الواقعة بين ١٩٩٠/١٢/١٥ و١٩٩١/١/١٥ ، لعرض الانسحاب بلا شروط على صدام كبديل وحيد للحرب . وكان القصد من هذا الإعلان إقناع حلفاء الولايات المتحدة والكونغرس والرأي العام الأمريكي والعالمي بأنها لا تريد استعمال القوة ، وإنما تسعى لإيجاد مخرج سلمي للأزمة . قبل العراق الاقتراح الأمريكي في ١٩٩٠/١٢/٣ على أن تكون المحادثات ثنائية . ولكن واشنطن رفضت الشرط العراقي . وفي ١٩٩٠/١٢/٦ ، بدأ العراق بالإفراج عن الرهائن الأجانب لديه بمن فيهم ألفا مواطن غربي . واقترح العراق أن يقابل بيكر الرئيس العراقي في ١٩٩١/١/١٢ ، أي قبل ثلاثة أيام من الموعد الذي حدده قرار مجلس الأمن للانسحاب من الكويت ، وزيارة طارق عزيز لواشنطن لمقابلة الرئيس بوش في ١٩٩٠/١٢/١٧ ، قبل الأمريكيون بالاقتراح الأخير ورفضوا الاقتراح الأول . وقدموا خمسة عشر موعداً لمقابلة بيكر-صدام حسين . ألغى صدام حسين زيارة طارق عزيز لواشنطن في ١٩٩٠/١٢/١٥ وقال : «إذا كانت الولايات المتحدة تنوي استعمال الاجتماع لتكرار قرارات مجلس الأمن فلا مبرر لنا للذهاب» .

وأعلنت الولايات المتحدة في ١٩٩١/١/٣ بأن بيكر على استعداد لمقابلة طارق عزيز في جنيف في أيام ٧ أو ٨ أو ٩ كانون الثاني ١٩٩١ . وقبل العراق أن يتم اللقاء في ١٩٩١/١/٩ .

تم الاتفاق بين الإدارة الأمريكية والحكومة العراقية على لقاء جيمس بيكر ، وزير

الخارجية الأمريكية ، وطارق عزيز ، وزير خارجية العراق في جنيف في ١٩٩١/١/٩ ، وتقابلا في فندق إنتركونتننتال Intercontinental ، وأطلق بيكر على هذا اللقاء «اجتماع الفرصة الأخيرة» . كان الهدف منه «الحفاظ على وحدة الائتلاف الدولي» الذي تكوّن بقيادة الولايات المتحدة ، والاستجابة لاقتراحات من جميع أنحاء العالم باللجوء إلى الحلول السلمية ، ومنها دعوة الأمين العام للأمم المتحدة خافير دوكويار إلى بذل أي جهد للسلام في الفترة السابقة للخامس عشر من كانون الثاني ١٩٩١ .

يقول بيكر في مذكراته إن الأمير بندر بن سلطان ، سفير العربية السعودية في واشنطن ، اتصل به هاتفياً في مطلع كانون الأول ١٩٩٠ وقال : «إن بغداد آخر مكان يجب أن أفكر في زيارته» وأضاف : «هل جننت للذهاب إلى هناك . هذا الرجل سوف يحتفظ بك كرهينة» . ويعقب بيكر على ذلك بقوله : «كان بندر بالطبع لا يريدني أن أذهب في المقام الأول ، ليس لدى السعوديين الرغبة في حل يقوم على تسوية تجعل قوات صدام سليمة . وكان اهتمام بندر ليس بالمخاطرة الجادة ، ولم يكن له أي دور في القرار بعدم رؤية صدام . ولكن سوف أعترف بأن حماستي للذهاب إلى بغداد قد تلاشت بعد محادثتي مع بندر ، ولا سيما بعد أن أثار دينيس روس Denis Ross الخوف نفسه» .

وصل بيكر إلى مطار جنيف حوالي الساعة التاسعة ليلاً من مساء ١٩٩١/١/٨ وقابلته جموع المحتجين على الحرب من السويسريين على زاوية الشارع المقابل للفندق . وفي قاعة الفندق انتصبت حمامة سلام ضخمة من الخشب مع غصن من الزيتون في منقارها . وقد أحاط به آلاف الصحفيين عند دخوله إلى الفندق .

بدأ الاجتماع بين الوزيرين صباح ١٩٩١/١/٩ ، وكان إلى جانب عزيز ممثل العراق الدائم لدى الأمم المتحدة في جنيف برزان التكريتي أخ صدام حسين غير الشقيق ، الذي لم ينطق بكلمة اثناء الاجتماع . بدأ بيكر عرض أفكاره ، وجمال هلال مترجمه إلى العربية يتابع ما يقول . أوضح بيكر لعزيز بأنه لن يفاوض على القرارات التي اتخذتها الأمم المتحدة ، ثم قدم لعزيز رسالة من الرئيس بوش للرئيس صدام حسين وطلب منه إيصالها إليه . قرأ عزيز الرسالة ثم قال : «أيها السيد الوزير ، قلت إن الغرض من هذا الاجتماع أن لا يضغط أحد منا على الآخر . قرأت الرسالة ، وهي مليئة بتعابير التهديد . حقاً إنها غريبة عن أسلوب الاتصالات بين رؤساء الدول . لا أستطيع قبولها . قد تنشرها في وسائل إعلامكم . آمل أن لا تعيق هذه

الرسالة اجتماعنا . لم نتحدث طوال الأزمة . لقد وضع شعبانا في مجابهة الواحد للآخر ، ويجب أن نستطلع كل الإمكانات لحل بين بلدينا» .

رد بيكر بقوله : «أود أن يكون واضحاً أنني لا أرى هذه الرسالة غير ملائمة على أي حال . من المهم أن يفهم جيداً أحدنا الآخر . لا أستطيع حملك على أخذ هذه الرسالة معك ، ولن أحاول ذلك . وعلى أي حال ، يجب أن تعرف أننا قد ننشرها وقد لا ننشرها . أنت الوحيد على هذه الطاولة الذي يعرف ما فيها . إنها مسؤولية كبيرة ، كما يبدو ، لا أحد يتحمل مسؤولية الآخر . أذا كان هذا ما تريده فليكن» . ترك بيكر رسالة بوش ونسخة عزيز منها في منتصف الطاولة . وأضاف بيكر : «هدفنا أن تغادروا الكويت . هذا هو الحل الوحيد الذي سنقبله . وإذا لم تفعلوا ذلك فإننا سنجد أنفسنا في حرب معكم . وإذا ذهبتم إلى الحرب ضد الائتلاف فأنتم الخاسرون . لن تكون هذه حرب استنزاف مثلما حاربتم إيران . سنحارب باستعمال وسائل وأسلحة تدل على قوتنا وليس على قوتكم . لدينا الوسائل التي تحدد كيفية إدارة الحرب التي ليست لديكم . هذا ليس للتهديد وإنما للتبليغ . قد تختارون رفضه أو أن لا تصدقوا ما نقول ، ولكن لدينا مسؤولية إخباركم بأن لدينا مزايا تكنولوجية هائلة تملكها قواتنا . ورأينا هو أنه إذا اندلعت الحرب ستواجه قواتكم قوة نار مدمرة متفوقة . ستدمر قواتنا فعلاً قدرتكم على إدارة البلاد ، وستدمر قدرتكم على قيادة قواتكم المسلحة ، هذا هو رأينا-فقد ترفضونه ولا توافقون عليه . من واجبنا أن نقول لكم بأنه لا يوجد مأزق . . . ولا وقف لإطلاق النار من الأمم المتحدة أو فرصة للتفاوض . . . إذا بدأت الحرب ستكون ماحقة ، لن تكون فيتنام ثانية . إذا اندلعت الحرب ، لا سمح الله ، فسنحارب حتى نهاية سريعة حاسمة» .

وحذر بيكر عزيز من استعمال العراقيين للأسلحة الكيمياوية والبيولوجية بقوله : «إذا اشتمل القتال على استعمالكم للأسلحة الكيمياوية والبيولوجية ضد قواتنا ، سيطلب الشعب الأمريكي الانتقام ، ولدينا الوسائل لتنفيذه . . . هذا ليس تهديداً إنه وعد . إذا كان هنالك استعمال لأسلحة كهذه ، لن يكون هدفنا تحرير الكويت وإنما إزالة نظام الحكم العراقي الراهن ، وكل مسؤول عن استعمال تلك الأسلحة سيعتبر مجرماً» . وأنهى بيكر حديثه بقوله : «ستدمر الحرب كل شيء كافحتم من أجل بنائه في العراق . وسوف تبدأ هذه الحرب بسبب عدم رغبتكم في الانسحاب من الكويت . وهي حرب ستحول العراق إلى بلد ضعيف ومتخلف . . . كان هنالك قادة

آخرون أساؤوا تقدير استعداد الديمقراطية الأمريكية للقتال ، ودفعوا ثمناً غالياً . لا تكرروا الغلطة . لدينا أقوى نظام حكم في العالم ، ستتوحد أمريكا في دخول الحرب إذا لم تعطونا خياراً آخر» .

لم يرد عزيز على أقوال بيكر ، ولكنه قال : «إن العراق لا يحكمه حمقى . وعمر قيادته في الخمسينات ، وهذا عمر النضوج . . ونحن نعرف أنكم بلد متقدم ونقلتم أسلحة هائلة إلى منطقتنا ، ونعرف فاعلية كل سلاح وقوته التدميرية . نحن حكومة مجتهدة ونشيطة ، نعمل بكد ونقرأ ونحلل ونتابع . ليس لدي أوهام حول تكاليف الحرب . أصغر أبنائي في الحادية عشرة . كل مارآه في حياته الحرب والغارات الجوية والصواريخ الإيرانية . الحرب ليست أمراً غريباً علينا . هناك آية في القرآن تصف الحرب كشيء ممقوت (كتب عليكم القتال وهو كره لكم) . وهكذا نعرف هذه الحقائق ، ونعرف تصميمكم على أن الحرب ستكون مدمرة . أقول هذا بلا غطرسة ، على الرغم من أن جزءاً من بيانك احتوى بعض الإهانات . القيادة الحالية ستواصل قيادتها للعراق الآن وفي المستقبل . أولئك الذين سيختفون ليسوا في العراق ولكن بعض أصدقائكم في المنطقة» . وأضاف عزيز : «العراق ، كدولة ، عمره ستة آلاف سنة . وشهد ممالك وإمبراطوريات وحضارات متعاقبة . وقد صمدنا أمام ائتلاف مثل ائتلافكم في الماضي ، وسوف نصمد ونبقى أطول بكثير من ائتلافكم . لا نخشى الهجوم علينا من دولة عظمى ، شعبنا لا يؤيدنا فحسب وإنما هو يحبنا ، وسكانه التسعة عشر مليوناً مقتنعون بأنه إذا اندلعت الحرب بيننا سنكون المنتصرين . أود أن أقول إن الحرب لا ترعب العراق ولا تخيفه . . . آمل أن لا تسيئوا حساباتكم لقدراتنا على تحمل كلفة الحرب» .

بعد ساعتين من الخطابات لم يحدث أي تقدم . واستراح الفريقان ليستأنفا محادثاتهما في الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر ذلك اليوم . وصف عزيز الغزو العراقي للكويت بأنه عمل دفاعي ضد تحالف بين الولايات المتحدة وإسرائيل وحكام الكويت السابقين لتدمير العراق . وتوقع أن ينهار الائتلاف العربي إذا اندلعت الحرب ، مؤكداً أن العرب لن يقاتلوا إخوانهم . وتساءل عزيز : لماذا لا تشجعون حلاً عربياً؟ بالإمكان إيجاد حل عربي إذا وجب على العراق الانسحاب من الكويت .

طلب بيكر من عزيز ضمانة بأن يغادر الدبلوماسيون الأمريكيون الخمسة في السفارة الأمريكية في بغداد دون أي تأخير ، فوعده بذلك .

انتهت المحادثات بين الفريقين بعد ست ساعات وخمس وأربعين دقيقة دون التوصل إلى نتيجة . قال بيكر في تقييمه لطارق عزيز : «لا بد من القول إن طارق عزيز دبلوماسي محترف من البداية حتى النهاية . كانت محادثات باردة ومباشرة وغير مثمرة كلياً» .

العربية السعودية والكويت وألمانيا واليابان تدفع تكاليف حرب تحرير الكويت

يقول جيمس بيكر في مذكراته : «لقد انشدّ انتباه العالم إلى اجتماع التاسع من كانون الثاني في جنيف مع طارق عزيز . . وبينما كنا نأمل باختراق دبلوماسي أصبح علينا إنهاء ترتيبات الحرب مع شركائنا في الائتلاف ، إذا لم يأت ذلك الاختراق . احتجنا إلى أن نعرف أنهم سيرسلون قواتهم إلى المعركة تحت قيادة جنرالات أمريكيين . وبالنسبة إلى شركائنا العرب ، كان من الحساسية أن نعرف مرة أخرى ، أنهم سيبقون ثابتين إذا هاجم العراق إسرائيل ، كما أكد ذلك علناً طارق عزيز» .

في ١٩٩١/١/١١ ، وصل بيكر إلى الطائف للقاء بأمير الكويت . ثم زار جناح الطائرات المقاتلة الثامن والأربعين من سلاح الجو الأمريكي . وقد نقلت طائراته من طرز F-11 وEF-111 وReven الإلكترونية لتعطيل الرادارات من قواعدها في إنكلترا إلى مطار عسكري سعودي في الصحراء خارج الطائف ، وهو الجناح الذي اشترك في الهجوم على ليبيا سنة ١٩٨٦. وقد بلغ عدد المقاتلين من سلاح الجو الأمريكي نحو ثلاثة آلاف ، قضوا أربعة أشهر من التدريب في الصحراء . قال بيكر لمقاتلي الجناح المذكور : «حينما تحدثت إليكم قبل أربعة أشهر قال لي معظمكم إنكم مستعدون ، ولكنكم سألتم أيضاً ما هي المدة ، قبل أن تعرفوا إذا كنتم ستدعون للعمل لرد هذا العدوان الملعون . والآن مع دقات الساعة لمنتصف ليلة ١٩٩١/١/١٥ ، لا أستطيع أن أعطيكم جواباً محدداً ومطلقاً ، ولكن باستطاعتي أن أقول لكم هذا : لن تنتظروا طويلاً لجواب عن هذا السؤال» .

كان بيكر قد قابل دوغلاس هيرد Douglas Hurd ، وزير خارجية بريطانيا في ١٩٩١/١/٧ ليتأكد من استعداد بريطانيا للمشاركة في المعركة . والتقى بوزير خارجية إسبانيا فيليب أوردونيز Felipe Ordonez الذي رتب معه عقد مؤتمر للسلام حول النزاع العربي-الإسرائيلي في مدريد ، بعد انتهاء عملية تحرير الكويت . طلب بيكر من زميله الإسباني الموافقة على السماح لطائرات B52 قاذفة القنابل الثقيلة ،

وحاملات الوقود الجوية KC-135 بالانطلاق من قاعدة توريخون Torrejon الجوية ، في طريقها من القواعد الأمريكية إلى أهدافها في العراق والكويت .

بعد التشاور مع وزير خارجية لكسمبورغ جاك بوز Jacques Poos الذي كان يرئس الجماعة الاقتصادية الأوروبية ، وصل بيكر إلى باريس في ١٩٩١/١/٨ ، في اجتماعه مع الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران بدأ بيكر بقراءة رسالة الرئيس بوش إلى صدام حسين ، التي سلمها في اليوم التالي لطارق عزيز في جنيف ، وطلب من الرئيس ميتران مقترحاته بشأنها : قال ميتران إنها ممتازة ، وأضاف : «هذه رسالة شديدة اللهجة ، كما يفهم منها . إنها لا تترك لصدام حسين أي خيار سوى الاستسلام الكامل» . ولكنه اعترض على عبارة «العراق سيتجنب الدمار» . وقال : «هذه لغة حمقاء ، إنها غلطة أن نعلن تدمير العراق . إنها تخلق خلطاً بين المؤسسات العسكرية والمدنية . وهذه نقطة يمكن استغلالها لأغراض دعائية» . وبعد التشاور مع الرئيس بوش تغيرت الصياغة إلى «إذا انسحب العراق فإن المؤسسة العسكرية العراقية ستنجو من الدمار» . رفض ميتران وضع القوات الفرنسية في الخليج تحت القيادة العسكرية الأمريكية ، وقال بأن قواته الجوية لن تشارك في القتال . وعند بحث المؤتمر الدولي للسلام في الشرق الأوسط ، أكد ميتران الخطأ الذي ترتكبه الولايات المتحدة وإسرائيل ولا سيما إسحق شامير الذي وصفه بأنه «عنيد جداً ومتمرد» .

وبحث بيكر مع هلموت كول مستشار ألمانيا بعد ظهر اليوم نفسه ، التزام ألمانيا المالي لدعم الحرب المقبلة ، فوعد بدفع (٣٣٥) مليون دولار شهرياً . وقابل بيكر قبل ذهابه إلى جنيف جياني دوميشيليس Gianni de Michelis وزير خارجية إيطاليا في ميلانو . أكد الأخير لبيكر دعم بلاده للوجود الأمريكي في أوروبا والدور القيادي الأمريكي لحلف شمال الأطلسي . كما أكد مشاركة إيطاليا في عملية تحرير الكويت بعدة أجنحة من الطائرات المقاتلة .

وبعد الانتهاء من لقاء بيكر مع طارق عزيز ، اتجه الأول إلى الرياض في ١٩٩١/١/١٠ ، حيث التقى على العشاء مع الأميرين سعود الفيصل وبندر بن سلطان ، اللذين أكدا عزم العربية السعودية على القتال من أجل تحرير الكويت . وتم الاتفاق على أنه ، في حال الأمر بالهجوم ، يخبر بندر الملك فهد بموجب شيفرة متفق عليها مسبقاً هي «صديقنا القديم سليمان سيأتي» . وقدم بيكر طلباً بأن يساهم السعوديون في تكاليف عملية درع الصحراء لسنة ١٩٩١ بمليار ومئة مليون دولار

شهرياً . وإذا استمر القتال بـ(٨٠٠) مليون دولار مساعدة اقتصادية لتركيا ، ومليار لمدة خمس سنوات لصندوق الدفاع الخاص التركي ، و(٨٠٠) مليون دولار لشرق أوروبا ، للمساعدة في تغطية ارتفاع أسعار النفط ، نتيجة للحظر المفروض على النفط العراقي . وأراد الأميران أن يعرفا كم طلب بيكر من الكويت ، فقال لهما طلبنا من الكويت نصف ما طلبناه منكم . كانت مساهمتنا العربية السعودية والكويت في الحرب سنة ١٩٩٠ متساويتين . ولما قابل بيكر الملك فهد ، كان الأخير كريماً جداً في تلبية طلباته .

طلب بيكر من الرئيس بوش إقناع الرئيس حافظ الأسد بالمشاركة في الهجوم البري لتحرير الكويت ، نظراً لأهمية مشاركة الجنود العرب في تحريرها . وأثناء لقاء بوش بالأسد في ١٩٩٠/١١/١٧ في جنيف ، اقتنع الأخير بنشر قوات سورية في عمليات دفاعية إذا اندلعت الحرب . ولم ينجح في إقناعه في اشتراكها في عمليات هجومية . وأرسل الجنرال الأمريكي هوارد غريفز إلى وزارة الدفاع السعودية لسؤال الجنرال نورمان شوارتز كوبف لإعداد دور هجومي يتفق مع رغبات السوريين . عاد غريفز يحمل الحل التالي : لن يطلب من السوريين الدخول إلى الأراضي العراقية ، وإنما سيدخلون إلى الكويت كاحتياطي للقوات المدرعة المصرية ، ويشاركون في الهجوم إذا احتاجتهم القوات المصرية . ووافق الملك فهد على إرسال الأمير سعود الفيصل إلى دمشق ؛ لإقناع الرئيس الأسد بذلك قبل وصول بيكر إليها بيومين .

اقترح الملك فهد على بيكر تأخير الهجوم على العراق قليلاً لأن القوات العراقية ستكون في ١٩٩١/١/١٥ ، في أعلى درجات الاستعداد ، والتأخير سيضعف من استعدادها . وكانت نصيحة تزامنت مع الحسابات التكتيكية الأمريكية .

من الرياض انتقل بيكر إلى أبو ظبي لمقابلة الشيخ زايد ، الذي كان مثل الملك فهد صقراً في موقفه . وكان يعتقد أن الحرب ستدوم ثلاثة أيام ، وسيخرج العراقيون من الكويت خلال أربع وعشرين ساعة . ولما طلب منه بيكر المساهمة المالية في الحرب قال : «أرجو تقديم التقديرات إلينا وسوف ننظر فيها . سوف نلتزم بما تلتزمون به» . وفي لقاء بيكر مع ولي عهد الكويت في الطائف ، طلب منه دفع (٤٠٠) مليون دولار شهرياً للوجود الأمريكي في الخليج ، و(٨٠٠) مليون دولار لتركيا و(١٥٠) مليون دولار و(٤٠٠) مليون دولار مساعدة لبلدان أوروبا الشرقية . فوافق على ذلك .

اتجه بيكر بعد ذلك إلى القاهرة ، حيث قابل الرئيس حسني مبارك ، الذي لم يفاجأ برفض طارق عزيز قبول رسالة الرئيس ، بوش ، وقال : كان من الواجب أن يقبل

رسالة الرئيس وأن يرد عليها صدام حسين . طلب بيكر من مبارك الضغط على الرئيس الأسد لمشاركة القوات السورية في الهجوم ؛ فطمأنه على ذلك . وفي القاهرة اتصل بيكر هاتفياً بعبد الكريم الارياني ، وزير خارجية اليمن ، بناء على نصيحة مبارك . فقد كان الأرياني يستعد للسفر إلى بغداد لإقناع صدام بالانسحاب ، إذا ضمن عدم هجوم القوات الأمريكية أثناء الانسحاب . أكد له بيكر هذه الضمانة .

من القاهرة اتجه بيكر إلى دمشق للقاء الرئيس الأسد ، بعد ظهر ذلك اليوم . دام الاجتماع بينهما أربع ساعات . وكان الأسد متردداً . وسأل بيكر : « ماذا سأقول للشعب السوري؟ هناك سوريون يسألون : لماذا أرسلنا قوات إلى الخليج؟ أنا لا أعطيك قراراً نهائياً ، أنا فقط أناقش المسألة . نريد أن يكون كل شيء واضحاً» . وفي النهاية رفض أن تقاتل القوات السورية في الكويت . ولكنه قال : «حسناً ، سوف نتحدث بذلك إلى السعوديين» .

غادر بيكر دمشق إلى أنقرة ، غير أن الضباب حال دون هبوط طائرته في مطارها ، فتحولت إلى قاعدة أنجرلك الجوية ، حيث قضى تلك الليلة في مسكن الضباط العزاب . وفي صباح اليوم التالي قابل بيكر الرئيس التركي تورغوت أوزال ، الذي كان ثابتاً في موقفه المؤيد للولايات المتحدة . ومن إنجرليك توجه بيكر إلى لندن ، حيث قابل جون ميجور John Major الذي حل محل مارغريت تاتشر منذ تشرين الثاني ١٩٩٠. ومن لندن اتجه إلى أوتاوا حيث قابل بريان مولروني Brian Mulroney الذي كان أقل تأييداً من جون ميجور . وفي العاصمة الكندية قابل غاريث إيفانز Gareth Evans ، وزير خارجية أستراليا ، الذي كان هناك بالصدفة ، وأكد ثبات بلاده في موقفها المؤيد للولايات المتحدة . ورفض بيكر أن يعلمه بالموعد الدقيق للهجوم على العراق ، على الرغم من إلحاحه الشديد .

قصف إسرائيل بصواريخ سكود العراقية

مضت ليلة الخامس عشر من كانون الثاني ١٩٩١ هادئة دون أن يحدث شيء في الخليج ، حيث التوتر لدى قوات الائتلاف والقوات العراقية قد بلغ أوجه . وفي صباح اليوم التالي ١٩٩١/١/١٦ دعا الرئيس جورج بوش وزير خارجيته جيمس بيكر إلى البيت الأبيض . تحدث الاثنان عن الوضع في الخليج والاستعدادات لشن الحرب ، والاحتمالات المتوقعة . واستمر الحديث إلى وقت الغداء فتناولاه سوية .

وبعد الغداء عاد بيكر إلى وزارة الخارجية ، فالتقى بصورة منفردة مع سفراء إسرائيل والكويت والعربية السعودية وألمانيا وسوريا واليابان ، وتحدث هاتفياً مع أربعة عشر من وزراء الخارجية ومع أعضاء لجنة الشؤون الخارجية في الكونغرس الأمريكي .

في الساعة السادسة والدقيقة الحادية عشرة مساءً بتوقيت واشنطن ؛ اتصل بيكر بوزير خارجية الاتحاد السوفياتي الكسندر بسمرتنيخ Alexander Bessmertnykh في شقته في موسكو ، وأخبره أن الهجوم سيبدأ قريباً جداً . ولما ألح بسمرتنيخ لمعرفة الوقت بدقة ؛ قال له أن يتوقع الهجوم في مدى ساعة . طلب بسمرتنيخ تأخيره ، فرد بيكر بأن الوقت متأخر وقد تجاوزوا هذه النقطة . بعد (٢٧) دقيقة اتصل بسمرتنيخ ببيكر قائلاً : إن غورباتشيف يطلب من الرئيس بوش طلباً شخصياً أن يؤجل الحرب لمدة (٢٤) ساعة . رد بيكر أن طلبه قد تجاوزته الأحداث ، ونحن الآن في ساعة بدء القتال ، وليس بالإمكان إيقاف عملية بهذا الحجم» . وكان بيكر يراقب قصف بغداد من محطة CNN الأمريكية ومراسليها في العراق .

في الموجة الأولى للهجوم على الأهداف العسكرية العراقية ، لم يفقد الأمريكيون أية طائرة . وفي مساء اليوم الأول قصفت ثمانية صواريخ سكود عراقية تل أبيب وحيفا . ولم يحرك رئيس وزراء إسرائيل إسحق شامير ساكناً ؛ لأنه أدرك أن دخول بلاده الحرب سيؤدي إلى انقسام الائتلاف وفقدان إسرائيل لهدف إستراتيجي أوسع ؛ وهو تدمير قدرات العراق العسكرية ، ولأنه بضبط النفس الذي مارسه سيحسن من علاقاته مع الإدارة الأمريكية ، بعد أن ساءت بسبب موقفه المتطرف من عملية السلام . ويضيف بيكر سبباً آخر بقوله : «ومن المعروف أن شامير اجتمع سراً لبعض الوقت مع الملك حسين في مسعى لإيجاد صيغة قد تؤدي إلى السلام بين الأردن وإسرائيل . ومع أن الملك واصل دعمه للعراق خلال الأزمة ، فقد بقي على اتصال مع شامير . وخلال واحد من اجتماعاتهما ، أخبر حسين شامير أنه إذا اندلعت الحرب فإنه سيضطر إلى الهجوم على الطائرات الإسرائيلية التي تدخل المجال الجوي الأردني في طريقها لضرب العراق» .

والواقع أنه حالما بدأت صواريخ العراق تنهمر على المدن الإسرائيلية ؛ سعى وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه آرنس Moshe Arens بإلحاح للحصول على إذن أمريكي بالرد بغارات جوية إسرائيلية على العراق . واتصل آرنس بديك تشيني ، طالباً منه الرقم السري الإلكتروني IFF للتعرف على طائرات العدو وطائرات الصديق بين

الطائرات المقاتلة . وقال : إن الهجمات المضادة التي كان يفكر فيها تحتاج إلى دخول طائرات إسرائيل المقاتلة والعمودية المجال الجوي السعودي ، في طريقها إلى غرب العراق . وطلب من تشيني أن يتصل بالرئيس جورج بوش مع السعوديين ؛ لتأمين السماح بمرور تلك الطائرات .

يقول بيكر في هذا الصدد : «هاتفت الرئيس بوش في منزله ، وأوجزت له هذه الطلبات . كانت علاقته مع شامير متوترة . ولذا طلب مني أن أتصل مباشرة مع رئيس الوزراء الإسرائيلي والطلب منه ضبط النفس ، والاتصال بأرنس أيضاً . وبينما كنت في انتظار الاتصال بشامير هاتفت سفراء العربية السعودية ومصر وسوريا ، لإبلاغهم بأننا سنبذل كل ما في استطاعتنا لإبقاء إسرائيل خارج الحرب . . . وأخبرت الأمير بندر بن سلطان أن إسرائيل تطلب الإذن لمرور طائراتها في سماء بلاده لمهاجمة العراق . قال بندر إن الملك فهد رجل كريم ، ولكن ذلك سيكون مضيعة للوقت لتمرير مثل هذا الطلب إليه . . ولما اتصلت أخيراً به (أرنس) في الساعة التاسعة والنصف مساءً . . . قال أرنس بصراحة : ليس لدينا خيار ، علينا دخول الحرب ، لقد ضربونا ، وعلينا ضربهم . لا تستطيع إسرائيل أن تقعد وهي تتلقى الضربات بالصواريخ دون الرد» . رد عليه بيكر بقوله : «الرئيس وكلنا نشعر بالحزن والأسى بشأن الهجمات . الرد مفهوم بالتأكيد ولكنه سيكون مدمراً . ليس من مصلحتكم تعقيد مهمتنا . لكم مصلحة في هذه الحرب كما لنا . لا تستطيعون جعل هذا الرجل (صدام حسين) طليقاً ، يجب أن تعتبروا هذا رجاءً رسمياً للامتناع عن الرد . . كان مصراً على حق إسرائيل في الدفاع عن النفس ، ولكنه وافق على بحث طلبنا بضبط النفس مع شامير فوراً» .

وخلال دقائق من إطلاق صواريخ سكود العراقية على إسرائيل ، وجه الجنرال شوارتز كوبف الطائرات الحربية الأمريكية والبريطانية إلى غرب العراق ، من أجل البحث عن قواعد تلك الصواريخ وتدميرها . واتصل بيكر بشامير وقال له : «لدينا الآن أربع طائرات F-15 فوق قواعد إطلاق الصواريخ ، وتقوم طائراتنا بالبحث عنها وتدميرها في غرب العراق . ليس بإمكان سلاح جوكم أن يفعل شيئاً لا نفعله . إذا كان هناك شيء ما أخبرونا سنفعله» .

في الساعة الثانية وثلاث دقائق صباحاً أيقظ شامير بيكر من نومه ؛ ليبلغه أن مجلس الوزراء الإسرائيلي قرر إعداد رد فوري على الهجمات على تل أبيب وحيفا .

وقال بيكر له : «إن هجوماً كهذا سيكون دماراً لإسرائيل . لا أحد عليه خطر في هذا أكثر منكم . لا تعقدوا الأمور علينا في القيام بالمهمة نيابة عنكم . قبل أن تفعلوا شيئاً دعنا نرى إذا كان الهجوم ما زال قائماً» .

لقد استغل الإسرائيليون هذه الحرب لصالحهم بهذه المناورة . وفي ضوء تشدد شامير وآرنس في موقفهما من الرد على الهجمات الصاروخية العراقية ، أوفد الرئيس بوش إيغلبرغر ثانية إلى إسرائيل في ١٩٩١/١/٢٠ ، وقد أعلمه شامير أنه إذا استمرت الصواريخ فسترد إسرائيل . وقال آرنس : «إن الولايات المتحدة لا تعمل ما يكفي لإزالة قواعد إطلاق صورايخ صدام» . وطلب فتح اتصال مع أقمار التجسس الأمريكية ، بحيث يحصل الإسرائيليون على معلومات فورية عن انتشار القوات العراقية . وطلب أيضاً فتح قناة اتصال مباشرة مع قيادة شوارتزكوبف ، والسماح لمجموعة تخطيط إسرائيلية بالمشاركة في حاملة طائرات أمريكية . وعرض إرسال جنرال إسرائيلي إلى قيادة القوات المركزية الأمريكية . وقد رفضت الولايات المتحدة مطالب آرنس .

ومع أن إسرائيل رفضت عرضاً أمريكياً بإرسال بطارية صواريخ باتريوت Patriot قبل عملية درع الصحراء ، فقد أصبحت الآن متحمسة للحصول عليها ، كما يقول بيكر . ويذكر بيكر أيضاً أن القوات المسلحة الأمريكية سمحت بإشراك إسرائيل في عمليات التجسس ، والاتصال المباشر بين وزارتي الدفاع في الدولتين ، وساعدت الاستخبارات الإسرائيلية القادة العسكريين الأمريكيين في التعرف على الأهداف في العراق .

حاولت إسرائيل استغلال الموقف ؛ فاتصل مستشار لشامير بالسفير الأمريكي في تل أبيب وقال له : «إذا لم تعطونا شيئاً كبيراً جداً ومهماً جداً فإننا سنضرب العراق» . وجدد الإسرائيليون طلبهم في ١٩٩١/١/٢٢ بإيجاد ممر عرضه خمسة أميال عبر الأراضي السعودية لشن عملية كوماندوز ضد قواعد سكود في غرب العراق . غير أن البنتاغون رفض الطلب الإسرائيلي .

عرض الرئيس بوش على إسرائيل مضاعفة عدد صواريخ باتريوت ، وإرسال فريق من الخبراء إلى إسرائيل لتثبيتها كمنحة من الحكومة الأمريكية ، وتزويد إسرائيل بمعلومات استخبارية من قمر صناعي للاتصالات متطور جرب في الخليج . غضب شامير من هذا العرض وقال إنه شعر بالاهانة ؛ لأنه عرض مشروط بامتناع إسرائيل

عن الرد على الهجوم العراقي .

كان القادة السوفيات قلقين من الدمار المتزايد في العراق ، وتزايد الإصابات بين المدنيين . التقى بسمرتنيخ في ١٩٩١/١/٢٦ ببيكر وقال له إنه يفكر بتقديم مشروع قرار جديد إلى مجلس الأمن الدولي لوقف القصف الجوي للعراق . واقترح إصدار بيان مشترك حول ما بعد الأزمة . ولكن بيكر رفض هذا المقترح . وفي ١٩٩١/١/٢٨ عاد بسمرتنيخ بمشروعين لبيان مشترك ، واحد عن الحرب في الخليج والثاني حول الشرق الأوسط . وتم الاتفاق على بيان واحد وقعه الوزيران السوفياتي والأمريكي في ١٩٩١/١/٢٩ ، جاء فيه أن وقف القتال ممكن إذا قدم العراق التزاماً واضحاً بالانسحاب من الكويت . وقد أغضب هذا البيان الرئيس بوش وموظفي البيت الأبيض . غير أن البيان المذكور لم يحل دون مواصلة القصف الجوي للعراق والبدء بالهجوم البري بعد أيام .

الاتحاد السوفياتي يحاول إيقاف الهجوم البري على القوات العراقية

مع اقتراب الهجوم الجوي والصاروخي على العراق من نهايته ، بعد أن دمر البنى التحتية في البلاد وألحق أضراراً بالغة بالمنشآت العسكرية والمدنية العراقية ، اتجهت جهود الاتحاد السوفياتي إلى تجنب حرب برية على العراق . وقام بريماكوف ، مبعوث الرئيس السوفياتي الخاص ، بهذه المهمة . يستغرق حديث جيمس بيكر عن بريماكوف في مذكراته خمس صفحات ، يعبر فيها عن غيظه من جهوده ومحاولاته لإيقاف القصف الجوي الأمريكي للعراق ، وإيجاد حل الفرصة الأخيرة لانسحاب القوات العراقية من الكويت . ويعلق على هذه الجهود بقوله : «كانت وساطة بريماكوف ، خلال هذه الفترة ، إلهاءً لنا ، لا سيّما بعد أن أصبح واضحاً أن ليس له ولا لغورباتشيف نفوذ كاف لدى العراقيين لتعديل سلوكهم» .

وفي المقابل كان بيكر والرئيس بوش يريان دعم موقف غورباتشيف الضعيف في الاتحاد السوفياتي . يقول بيكر في هذا الصدد : «وحقيقة كنا نصغي لمقترحاته ونتسامح مع مبادرات وساطة بريماكوف بأدب . وهي شهادة هادئة على مدى ضعف موقف غورباتشيف آنذاك . واعترف غورباتشيف في المقابل ، مراعاة لمصالحه الاستراتيجية الخاصة ، بضرورة البقاء في الفلك الأمريكي ، مهما كان ذلك كريهاً له شخصياً آنذاك . فالدعم الاقتصادي والمعنوي الأمريكي المستمر كان مهماً لبرنامجه

في الإصلاح الاقتصادي المؤلم والمختلف عليه . . . لقد توسطنا سابقاً مع السعوديين وأصدقائنا الآخرين لتقديم المساعدة المالية لغورباتشيف . وباختصار كان مديناً لنا ونحن بحاجة إليه» .

يعرض بيكر المفارقة في موقف الاتحاد السوفياتي فيقول : «تاريخياً ، كان العراق حتى غزوه للكويت دولة زبون للاتحاد السوفياتي ، وبمثابة خزانة عرض . وبعد خمسة أشهر أصبح هذا الزبون مسحوقاً بأوسع غزو جوي غربي منذ الحرب العالمية الثانية ، وحاميه السابق كان شريكاً دبلوماسياً في الهجوم . هذا الطيف كان مرعباً للدول الزبونة الأخرى للسوفيات ، والتي تعجبت ، بلا شك ، من استمرار ومصداقية شراكتها مع موسكو .

وعسكرياً ، كان غورباتشيف تحت ضغط عظيم من جنرالاته . لم يدخر العراقيون جهداً لبناء قواتهم العسكرية التقليدية . وزيدت تجهيزاتهم السوفياتية الحديثة بأسلحة غربية متطورة . وشحذ تكتيكهم عبر السنين بخبراء من الجيش الأحمر ، فكانوا مرآة لصورة المبدأ القتالي السوفياتي . مع مطلع شباط ١٩٩١ ، كان واضحاً أن الأسلحة الأمريكية والتكتيكية الأمريكي في الحملة الجوية قد قضت على جيش صدام . كان الضباط السوفيات يفخرون باستمرار ، أمام الزوار الأمريكيين في أواخر سنة ١٩٩٠ ، أن العسكريين العراقيين سيكونون أنداداً ذوي مصداقية لقوات الائتلاف . وفي هلسنكي حذرني المارشال سرجاي أخروميف Sergei Akhromeyev بقوله : «يجب أن لا تقللوا من أهمية هؤلاء الأولاد . سوف يقومون بقتال جيد جداً . ولن تكون حرباً سهلة» . والآن فإن أخروميف وغيره من كبار القادة العسكريين السوفيات لا بد أنهم في غاية التوتر ؛ لأن حرباً برية لن تهزم صدام ببساطة فحسب ، وإنما ستعرض بصورة أسطع أسطورة القوة العسكرية السوفياتية» .

يرى بيكر في مذكراته أن الوضع الداخلي في الاتحاد السوفياتي قد تأثر كثيراً بما جرى في منطقة الخليج آنذاك . فقد كانت حركة الإصلاح «البيريسترويكا» التي قادها غورباتشيف تحت هجوم خطير . فقد استقال شفردنادزه في كانون الأول ١٩٩٠ ، وضعفت قبضة غورباتشيف على السلطة . كان الإصلاحيون المتطرفون بقيادة بوريس يلتسين Boris Yeltsin يشكون من بطء عملية الإصلاح السياسي والاقتصادي ، ويشككون في التزام غورباتشيف بالإصلاح . وكان المحافظون يهاجمونه ، وبلغ هذا الهجوم أوجه بمحاولة الانقلاب الفاشلة البرلمانية في حزيران ١٩٩١ ، ومحاولة انقلاب

عسكرية بعد ذلك بشهرين . فقد كان الحرس القديم في الحزب الشيوعي في قلق متزايد . فهم يرون أن توحيد ألمانيا ، وتحرر أوروبا الشرقية ، وتآكل حلف وارسو ، ومعاهدة القوات التقليدية في أوروبا CFE ، هي رموز للاستسلام السوفياتي . وساعد التخلي عن العراق في قيام الانقلاب العسكري على يد المحافظين في روسيا .

يقول بيكر عن محاولة السوفيات تأخير الهجوم البري لتحرير الكويت : «اتفقت مصالح بريماكوف مع طموحات غورباتشيف الخيالية في أن يصبح صانعاً للسلام . ومع اشتداد الحملة الجوية على العراق أصبحت أزمة الخليج مشهداً أمريكياً . وإن مبادرة سلام ناجحة تحول دون حرب برية ، قد تتيح للسوفيات التأكيد بأنهم شاركوا في صناعة النتيجة والنهاية . كما أن حاجة غورباتشيف للظهور بأن اتحاده المنهار ما زال محافظاً على مكانته على الصعيد الدولي قد لبيت» .

في ١٠/٢/١٩٩١ ، أعلن غورباتشيف أنه أرسل مبعوثه الخاص بريماكوف إلى العراق أملاً إيقاف الحرب . وصل بريماكوف إلى بغداد بعد يومين ، وقدم للحكومة العراقية خطة تتضمن إعلان العراق رغبته في الانسحاب من الكويت ، مقابل موافقة الائتلاف على وقف إطلاق النار .

وفي ١٥ شباط ١٩٩١ اتصل وزير الخارجية السوفياتي بسمرتنيخ ببيكر هاتفياً وأعلمه بأن غورباتشيف قد بعث برسالة إلى الرئيس بوش حول الحرب في الخليج . وفي هذه الأثناء وافق الرئيس العراقي صدام حسين على خطة بريماكوف . ولما تسلم الرئيس بوش رسالة غورباتشيف التي تضمنت خطة بريماكوف ، رفضها فوراً وعلناً . واتصل بيكر هاتفياً ببسمرتنيخ وقال له : «إن مشروع بريماكوف خدعة . لن نقبل أي شيء يقل عن قرارات مجلس الأمن الدولي بدون شروط» .

كان طارق عزيز قد زار موسكو ، وتباحث مع القادة السوفيات حول حل للأزمة . وفي ١٨/٢/١٩٩١ اتصل بسمرتنيخ مع بيكر يبلغه باتفاق بين غورباتشيف وعزيز على حل جديد . وقد لخص السفير السوفياتي في واشنطن شيتفريكوف مشروع غورباتشيف لبيكر هاتفياً . ويتضمن النقاط الرئيسية الأربع التالية :

١- يعلن العراق عن عزمه على الانسحاب ، ويوافق على وقت معين للبدء في نقل قواته .

٢- يبدأ الانسحاب في اليوم التالي لوقف إطلاق النار .

٣- يكون الانسحاب بلا شروط .

٤- عدم الهجوم على القوات العراقية المنسحبة .

رد الرئيس بوش على هذه الخطة بأنها غير مرضية . وأعلن في نهاية يوم ١٩٩١/٢/١٩ أن خطة غورباتشيف لا تكفي لحل مقبول . وقال بيكر إن الخطة لم تتضمن خضوع العراق لجميع قرارات مجلس الأمن الدولي ، ولم تحتو على تبادل الأسرى .

جاء في رسالة بوش إلى غورباتشيف : «إنني أقدر جهودك ، ولكن أخشى أن يعطي النقص والغموض الواردين في رسالتك صدام حسين الانطباع أن بإمكانه النجاة من نتائج أفعاله ، وأن يحصل على نتيجة غير واضحة يمكن استغلالها سياسياً» . وأضافت الرسالة شرطاً جديداً هو : «لا وقف لإطلاق النار قبل البدء بانسحاب عراقي كبير ينتهي خلال (٩٦) ساعة» .

وأسفرت محادثات المجلس الحربي للرئيس بوش يومي ٢٠ و٢١ شباط ١٩٩١ عن توجيه إنذار جديد مماثل للذي صدر قبل شن الهجوم الجوي . في اتصال هاتفي بين بيكر وغورباتشيف يوم ١٩٩١/٢/٢٢ ، أبلغه أن العراق يطلب مدة ثلاثة أسابيع لسحب قواته ، وتبادل الأسرى خلال ثلاثة أيام من وقف إطلاق النار ، وحالما يتم الانسحاب بموجب قرار مجلس الأمن رقم (٦٦٠) تلغى بقية قراراته بشأن العراق . رد بيكر بأن هذه الخطة تعطي العراق حصانة من مجموعة من العقوبات والتعويضات والمسؤوليات التي فرضتها عليه قرارات مجلس الأمن الدولي ، نتيجة غزو للكويت . ورد غورباتشيف أثناء الحديث الهاتفي بقوله : «لقد تعاونت معكم ، وحاولت إيجاد دور سياسي لحماية موظفيكم والعراقيين . مهمتنا إيجاد حل عملي . لا يستطيع العراقيون الخروج في مدى أسبوع» . وفي حديث غورباتشيف الهاتفي مع الرئيس بوش حاول إقناعه بخطته لكن بوش رفضها وقال : «هذا ليس مقبولاً على الإطلاق» .

بعد انتهاء حديث بوش مع غورباتشيف بساعة واحدة صدر الإنذار الأمريكي الذي أعلنه الناطق بلسان البيت الأبيض مارتن فيتزووتر Martin Fitzwater : «في جهد أخير للحصول على إذعان عراقي لإرادة المجتمع الدولي ، إذا كان لا بد من تجنب حرب برية ، نصر على وجوب موافقة العراقيين على جميع قرارات الأمم المتحدة ، والبدء بانسحاب كامل الظهر بتوقيت نيويورك من يوم ٢٣ شباط ، وإتمام الانسحاب خلال أسبوع» .

وفي الساعة الواحدة من صباح ٢٣ شباط أيقظ بسمرتنيخ بيكر من نومه وقال

له : إن طارق عزيز سوف يعلن قريباً التزام العراق بانسحاب غير مشروط ، وبذلك لا يوجد سبب لحرب برية . وقال : لقد خلط إنذار الرئيس بوش الأشياء ، وإن الدبلوماسية السوفياتية قد أخضعت صدام . كرر بيكر حججه السابقة لرفض هذا الانسحاب . وعزا رفضه إلى تصلب العراقيين ورفضهم الإذعان للشروط الأمريكية .

عاد غورباتشيف إلى الاتصال الهاتفي ببيكر في الساعة الثالثة و(٢٥) دقيقة بعد ظهر يوم ٢٣ شباط ، وقال : لدينا الآن الفرصة لإيقاف إرسال الأكفان إلى الوطن من الخليج الفارسي . رد بيكر بقوله : «إن صدام لن يغادر إلا إذا أجبرناه بالقوة . ما زالوا يساومون ، علينا أن نقنعهم أن البازار أغلق . عليهم الوقوف والقول لقد هزمنا ، نحن مغادرون ، لا يستطيعون الاستمرار في محاولة المساومة» .

بدأ الهجوم البري على الكويت في الساعة التاسعة من مساء ٢٣ شباط بتوقيت واشنطن أي قبل فجر يوم ١٩٩١/٢/٢٤ بتوقيت العربية السعودية ، وقبل عشر دقائق من إعلان الرئيس الأمريكي ذلك ، ابلغ بيكر بسمرتنيخ هاتفياً بذلك أيضاً ، أي في الساعة التاسعة وخمسين دقيقة مساء . كما أبلغ الحلفاء المشاركون في الائتلاف بذلك .

يذكر بيكر أن الخسارة الأمريكية في الهجوم الجوي على العراق والكويت كانت (٢٧) طائرة حربية قتالية . وفي ١٩٩١/٢/٢٧ أعلن شوارتزكوف قائد عملية عاصفة الصحراء The Desert Storm Operation أن الأهداف من الحرب قد تحققت . وفي تلك الليلة أعلن الرئيس بوش وقف إطلاق النار الساعة الواحدة صباحاً من ١٩٩١/٢/٢٨. وبذلك دامت عملية عاصفة الصحراء ستة أسابيع .

الفصل الثاني

غزو العراق للكويت
في مذكرات ديك تشيني

الخطر العراقي على منطقة الخليج كما يتصوره ديك تشيني

خصص ديك تشيني Dick Cheney ، وزير الدفاع في إدارة الرئيس جورج بوش (الأب) في الولايات المتحدة الأمريكية ، خمسين صفحة في مذكراته التي أعدها بالتعاون مع ليزشيني Liz Cheney بعنوان «في عهدي : مذكرات شخصية وسياسية : In My Time: A Personal and Political Memoir» التي صدرت في كل من نيويورك ولندن وتورونتو وسدني ونيودلهي عن دار النشر Threshold Edition سنة ٢٠١١ ، عن غزو العراق للكويت وتحريرها على يد الائتلاف الدولي الذي كونته الولايات المتحدة سنة ١٩٩٠ .

يقول تشيني في مذكراته إن المخططين العسكريين في الحرب الباردة ، التي بدأت في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وانتهت بانهيار الاتحاد السوفياتي ومنظومة الدول الاشتراكية في أوروبا الشرقية ، في مطلع التسعينات من القرن العشرين ، كانوا ينظرون إلى الخليج الفارسي كهدف للاتحاد السوفياتي ، وأنه يواجه دوماً هذا التهديد . ولذا رأوا أن الولايات المتحدة الأمريكية بحاجة إلى الاستعداد لمجابهة الدبابات السوفياتية الزاحفة جنوباً عبر إيران للوصول إلى شبه الجزيرة العربية الغنية بالنفط . ومع قرب انتهاء الحرب الباردة ، قرر الأميرال بيل كرو Bill Crowe ، رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة الأمريكية ، خلال الأشهر القليلة الأولى من وجود تشيني وزيراً للدفاع ، أنه بانخفاض التهديد السوفياتي يحتاج الخليج الفارسي إلى اهتمام أقل . وفي سنة ١٩٨٩ نشر كرو دليلاً للعسكريين الأمريكيين جعل فيه الخليج في نهاية التفكير بأولويات أمريكا الاستراتيجية .

خالف تشيني رئيس هيئة الأركان في هذا التقرير الاستراتيجي . ورأى أنه من

المبكر جداً إسقاط السوفيات من الحسابات الأمريكية . وأنه من الخطأ إهمال احتمال تهديد قد يولد من داخل المنطقة . وفي كانون الثاني ١٩٩٠ ، وضع تشيني دليلاً للعسكريين معدلاً مبيناً بوضوح أن شبه الجزيرة العربية تحتل أولوية عالية ، وأن من الواجب على الولايات المتحدة التخطيط لاحتمال أزمة الخليج . وبالفعل جاءت الأزمة أسرع من أية أزمة أخرى .

كان صدام حسين ، كما يقول تشيني ، غاضباً في ربيع وبداية صيف سنة ١٩٩٠ . فقد هدد بحرب كيمياوية تأكل نيرانها نصف إسرائيل إذا حاولت الأخيرة أن تقوم بشيء ضد العراق . وهاجم الكويت والإمارات العربية المتحدة ، واتهمهما بالعمل على تخفيض أسعار النفط و«طعن خنجرهما المسموم في ظهرنا» . واتهم وزير الخارجية ، نائب رئيس الوزراء العراقي طارق عزيز الكويتيين بالاعتداء على الأرض العراقية وسرقة النفط العراقي ، ورفض إعفاء العراق من ديونهم ، ناكرين الجميل في وقت كان يقاتل إيران ، ويقدم أنهاراً من دماء أبنائه ، دفاعاً عن السيادة العربية والكرامة العربية . كانت اتهامات قاسية ، ولكن ما تلاها كان صدمة . ففي منتصف شهر تموز ١٩٩٠ بدأت الدبابات العراقية بالتحرك نحو الكويت ، وفي ١٩ تموز ، أظهرت صور الأقمار الأمريكية الصناعية ثلاث فرق مدججة بالسلاح الثقيل في مدى قصف الحدود الكويتية .

يقول تشيني في مذكراته إنه استقبل زائرين إسرائيليين في مكتبه ، أثناء الأزمة العراقية–الكويتية هما موشيه أرنس Moshe Arens وإيهود باراك Ehud Barak ، الأول وزير الدفاع الإسرائيلي والثاني نائب رئيس أركان جيش الدفاع الإسرائيلي . جلس الاثنان في ٢٠ تموز ١٩٩٠ على الطاولة المستديرة في مكتب تشيني في البنتاجون ، وأخرجا أوراقاً وخرائط من حقيبتهما ، تضمنت دليلاً على مرحلة متقدمة من برنامج نووي عراقي . واعتقدا بوجود مدخل للعراق إلى التكنولوجيا النووية الأوروبية ساعد على سرعة إتمام العراقيين لتخصيب اليورانيوم . وقال المسؤولان الإسرائيليان لتشيني : «لدينا قليل من الوقت لإيقاف هذا البرنامج» .

لقد اعتبر الإسرائيليون ، منذ مدة طويلة ، أن عراقاً مسلحاً نووياً تهديد مميت لهم . وفي سنة ١٩٨١ قصفوا مفاعل أوزيراك Osirak العراقي ، فأعاقوا بذلك البرنامج النووي العراقي . لقد أخذ تشيني ما قاله أرنس وباراك مأخذ الجد ، وخاصة بعد أن وصفا برنامجاً أكثر تقدماً مما جاء في التقديرات الاستخبارية الأمريكية . أعرب

المسؤولان الإسرائيليان عن قلقهما من الخطر المتنامي للحرب في الشرق الأوسط، وطلبا من وزير الدفاع الأمريكي تطوير تكنولوجيتهم العسكرية؛ لمواجهة التهديد الذي تتعرض له إسرائيل من الصواريخ البالستية العراقية. طورت إسرائيل صاروخ أرو Arrow المشابه لنظام الصاروخ الأمريكي باتريوت Patriot. ولكنهم يحتاجون للمساعدة الأمريكية في مجالات الرادار، ونظام إنذار مبكر أكثر فاعلية. وقد وعدهما تشيني بالمساعدة.

يقول تشيني إنه علم من جهات عديدة في الشرق الأوسط، بينما كان صدام يحشد حرسه الجمهوري، أفضل وحداته العسكرية وأكثرها خبرة، على الحدود العراقية-الكويتية، أن الغاية من هذا الحشد تخويف الكويت والإمارات العربية المتحدة لدفع المال له. وهذا ما أكده الرئيس المصري حسني مبارك وقادة عرب آخرون. وحث هؤلاء الرئيس جورج بوش (الأب) على عدم اتخاذ أية خطوة قد تثير صدام، وأن هذا خلاف عربي داخلي باستطاعتهم تسويته. وتلقى الرئيس الأمريكي نصيحة مماثلة من وزارة خارجيته، ومن معظم الأجهزة الأمريكية.

وفي نهاية تموز ١٩٩٠، لما بدأ صدام يحرك مدافعه، بدا للأمريكيين أنه يود اجتياز الحدود والاستيلاء على الكويت. في يوم الأربعاء الأول من آب ١٩٩٠ جاء الجنرال نورمان شوارتزكوبف Norman Schwarzkopf، القائد الأعلى للقيادة الوسطى (أو المركزية) الأمريكية المسؤولة عن منطقة الشرق الأوسط، إلى البنتاجون ليقدم إيجازاً لوزير الدفاع ديك تشيني. قال شوارتزكوبف من المحتمل أن يدخل صدام إلى الكويت، وربما للاستيلاء على حقل نفط الرميلة أو للاستيلاء على الجزر المختلف عليها بعد الحدود: وربة وبوبيان. وفي آخر تلك الليلة كان تشيني من منزله في ماكلين McLean، يتلقى اتصالاً هاتفياً من مرافقه العسكري الأميرال بيل أونز Admiral Bill Owens يقول: اجتاز العراقيون الحدود إلى الكويت.

اجتمع مجلس الأمن القومي الأمريكي صباح اليوم التالي، بعد أن دخلت القوات العراقية إلى مدينة الكويت، وتبين وجود طابور من الدبابات يتحرك جنوباً نحو الحدود الكويتية-السعودية. حضر الاجتماع صحافة البيت الأبيض. أراد المراسلون الصحفيون أن يعرفوا موقف الولايات المتحدة وخططها. وسألوا: هل سيستعمل الرئيس القوة العسكرية؟ قال الرئيس بوش: «لم أفكر بمثل هذه الأفعال». ودارت الأسئلة: هل هذا حدث إستراتيجي مهم؟ وهل له أهمية من وجهة النظر

الأمريكية ، إن أخذ العراق الكويت ، وهو بلد صغير على الخليج؟ في النقاش الذي تلا ذلك ، أشار كولن باول Colin Powell ، رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة ، إلى أنه غير مقتنع بأن الكويت مهمة . ولكن وزير الدفاع عارضه في هذا الرأي ، وبيّن الأهمية الاقتصادية الضخمة التي قد يجنيها صدام من ضم الكويت . وقال : لا بد من إصدار بيان قوي يبين التزامنا نحو العربية السعودية . إن استيلاء صدام على الكويت يعني أنه سيصبح لديه ٢٠٪ من احتياطي النفط العالمي ، وباستيلائه على المنطقة الشرقية من العربية السعودية سوف يحصل على ٤٥٪-٥٠٪ من احتياطي النفط العالمي .

انتهى اجتماع مجلس الأمن القومي ، وسافر الرئيس بوش إلى أسبن Aspen في ولاية كولورادو ، حيث كان من المقرر أن يلقي خطاباً عن القوة العسكرية للولايات المتحدة بعد الحرب الباردة . مع سقوط حائط برلين وانهيار مكانة الاتحاد السوفياتي في أوروبا الشرقية ، نشأ ضغط متنام في واشنطن لتعديل الاستراتيجية الأمنية القومية والموازنة الدفاعية . وفي وزارة الدفاع الأمريكية تم التركيز على بناء قوة جديدة تسمى «القوة الأساسية base-force» واستراتيجية جديدة إقليمية تحول دون سيطرة أي خصم على أي جزء من العالم للولايات المتحدة فيه مصالح حيوية .

ذهب تشيني وباول بعد اجتماع مجلس الأمن القومي إلى الكونغرس لتقديم إيجاز عن فكرة «القوة الأساسية» . ولكن الحضور كان مهتماً بما جرى في الكويت . وبعد تقديم الإيجاز عاد تشيني وباول إلى مكتب الأول في البنتاجون للاستماع إلى إيجاز من الجنرال توم كيلي Tom Kelly مدير العمليات في هيئة الأركان المشتركة ، حول الغزو العراقي للكويت . سأل تشيني باول : «ماهي خياراتنا في الرد؟» قال باول : الخيارات جاهزة ومدروسة ، والكويت دولة ملكية صغيرة تبعد عنا ستة آلاف ميل ، وقد لا يدعم الشعب الأمريكي إعادة الأمير إلى عرشه . يقول تشيني إن إصغاءه لرأي باول جعله يدرك أثر حرب فيتنام على تكوين آراء كبار جنرالات أمريكا . فقد رأوا في فقدان الدعم الشعبي لحرب فيتنام تدنياً في المجهود الحربي وتدميراً لسمعة العسكريين .

يقول تشيني : «مسؤوليتنا في وزارة الدفاع هي التأكد من أن الرئيس قد حصل على عدد من الخيارات للنظر فيها ، ولا يوجد في الحكومة من يزوده بهذه الخيارات غيرنا» . وطلب من باول عدداً من العمليات العسكرية لردع القوات العراقية عن غزو

العربية السعودية . وطلب ، في الوقت نفسه ، من مرافقه العسكري الأميرال أونز Admiral Owens أن يزوده الأسطول بما لديه من الخطط للغاية نفسها ، وطلب من معاونه العسكري الأدنى الكولونيل في سلاح الجو غاري تركسلر Garry Trexler أن يزوده بما لدى سلاح الجو من خطط أيضاً .

كتب تشيني بعد ظهر ذلك اليوم في دفتر ملاحظاته : «أيجب أن يكون هدفنا إخراج صدام من الكويت؟ أليست هذه أفضل استراتيجية قصيرة وطويلة المدى؟» وبعد التفكير في الخيارات الدبلوماسية والعقوبات الاقتصادية كتب «كلا ، لا يوجد خيار غير عسكري من المحتمل أن يسفر عن نتيجة إيجابية . مفتاح الوضع هو قوة الولايات المتحدة العسكرية-الشيء الوحيد الذي يخشاه صدام حسين» .

إقناع القيادة السعودية بنشر القوات الأمريكية في المملكة

في اليوم الثاني لغزو العراق للكويت ، اجتمع مجلس الأمن القومي الأمريكي . وأثناء الاجتماع اتخذ مستشار الرئيس للأمن القومي ، برنت سكوكروفت Brent Scowcroft موقفاً من غزو العراق للكويت ، مماثلاً لموقف وزير الدفاع ديك تشيني . ولكن لا بد من قبول دولة من دول الخليج لنشر القوات الأمريكية فيها . وكانت العربية السعودية الدولة الأنسب لذلك . ولكن لا بد من إدراك السعوديين أن وجود القوات الأمريكية على أرضهم ضروري لحمايتهم . طلب سكوكروفت من تشيني ترتيب لقاء مع الأمير بندر بن سلطان ، السفير السعودي لدى الولايات المتحدة ، وترتيب إيجاز له حول التهديد العراقي للعربية السعودية ، وماذا يمكن للولايات المتحدة أن تفعل للدفاع عن المملكة . ومن المعروف أن الأمير بندر طيار مقاتل سابق ، وله صلات واسعة في واشنطن ، ومعروف بمزاحه وسيجاره وصداقاته مع كل من الرئيس جورج بوش ، وجيري جونز Jerry Jones مالك دلاس كاوبويز Dallas Cowboys (فريق رياضي) . قال سكوكروفت : «إن الرئيس أراد أن يعطي بندر إيجازاً كاملاً عن خطة عمليات (٩٠-١٠٠٢) ، التي أعدتها القيادة المركزية للدفاع عن مصالحنا في الخليج . وهي خطة لم تستكمل ، وككل الخطط الحربية يمكن تعديلها وفق الأحداث على أرض الواقع . ولكنها قد تعطي بندر تفكيرنا حول قوة رد فعلنا» .

قبل وصول الأمير بندر إلى مكتب تشيني في البنتاجون ، التقى تشيني بباول لإبلاغه بأن الهدف من اللقاء ببندر شرح الخطة الشاملة لعملية (١٠٠٢) لكي يعرف

السفير السعودي حجم الالتزام العسكري الذي ينوي الرئيس بوش الالتزام به نحو العربية السعودية .

يقول تشيني : «كان بندر شكاكاً خلال القسم الأول من اجتماعنا . ذكّرنا بقصة الوقت حينما أطيح بشاه إيران ، وقرر الرئيس كارتر تزويد المملكة بطائرات F-15 مجردة من أسلحتها ، مما جعل السعوديين يشعرون بالإهانة ، وترك في نفوسهم ذكرى مرة عن أمريكا كحليف لا يعتمد عليه» . وأضاف : «قلت لبندر هذه المرة الأمر مختلف . وأريناه صور القمر الصناعي للقوات العراقية المحتشدة قرب الحدود السعودية» .

ثم قدم له باول إيجازاً عما لدى الولايات المتحدة من استعدادات للدفاع عن المملكة ، عارضاً الفرق العسكرية والدبابات والمدفعية والبوارج الحربية . سأل بندر بعد نهاية الإيجاز : «كم عدد القوات التي تتحدث عنها؟ أجاب باول : من مئة وخمسين ألف إلى مئتي ألف مقاتل» . تراجع بندر وقد أقنعه باول بصدق النوايا الأمريكية . وأكد له تشيني الحاجة إلى البدء بنقل القوات الأمريكية بأسرع وقت ممكن ، قائلاً : «ليس لدينا الوقت للانتظار بينما يحشد صدام قواته ويخطط للتحرك التالي» . قال بندر إنه سيغادر تلك الليلة إلى الرياض ليقدم إيجازاً للملك فهد حول الخطة ، وإنه سوف يؤيد نشر القوات الأمريكية في بلاده ، وينقل الشعور بالاستعجال لمليكه .

دعا الرئيس بوش إلى اجتماع آخر لمجلس الأمن القومي يوم ٤ آب في كامب ديفيد . عقد الاجتماع الذي قدم فيه نورمان شوارتزكوبف ، قائد القيادة المركزية إيجازاً عن خطة العملية العسكرية (٩٠-١٠٠٢) التي سوف تستعمل قواتها ومدة نشرها في العربية السعودية . وشدد باول على الحاجة إلى مدة بضعة أشهر حتى تتوافر قوة فعالة على الأرض . وأبدى باول تخوفه من أن يتمكن صدام حسين من الاستيلاء على حقول النفط السعودية قبل وجود قوات كافية هناك لإيقافه . وقد شاركه جميع أعضاء مجلس الأمن القومي هذه المخاوف . وكان لدى المحللين الاستخباريين الأمريكيين مؤشرات تدل على عزم صدام على غزو العربية السعودية .

بدا واضحاً تماماً أنه إذا لم يوافق السعوديون على قبول القوات الأمريكية ، فالخيارات أمام الأمريكيين قليلة ومحدودة . فقد تقبل إسرائيل القوات الأمريكية ، ولكن ليس باستطاعة الأمريكيين أن يشنوا حرباً على بلد عربي من أرض إسرائيل . كانت تركيا خياراً ثانياً مع وجود القاعدة الجوية الأمريكية الكبرى في انجرليك .

ولكن المسافات سوف تشكل تحدياً لوجستياً حقيقياً . وأثناء اجتماع مجلس الأمن القومي في كامب ديفيد ، بلغ المجتمعين أن السعوديين غير مرتاحين لفكرة إنزال قوات أمريكية في المملكة . وعندها طلب الرئيس بوش الملك فهد هاتفياً حول الموضوع .

عاد تشيني إلى منزله بعد انتهاء الاجتماع . وبعد ساعات قليلة اتصل به سكوكروفت وقال له : «إننا نحتاج إلى إرسال فريق ليقدم إيجازاً للسعوديين حول احتمال نشر قواتنا هناك» ، وقال أيضاً إنه قد يقود الفريق وقد يأخذ معه الجنرال كولن باول . قال له تشيني : «برنت ، أود أن أقود الفريق أنا . نشر القوات هي مسؤوليتي ، ويجب أن أكون الذي يقود الفريق» . رد سكوكروفت : « حسناً سوف أنقل هذا للرئيس باعتباري مستشاراً للأمن القومي» . واتصل به بعد قليل ليقول له إن الرئيس موافق على رئاسته للفريق .

كان لدى تشيني اعتراض على اشتراك كولن باول في الفريق ، لأنه كان متردداً في بحث الخيارات العسكرية . وهم بحاجة لإقناع السعوديين بقبول قواتهم الآن . ولم يكن وزير الدفاع متأكداً أن باول قد يقدم الرسالة القوية التي يقتضي سماعها . وحاول أن لا يكون الاثنان خارج البلاد في الوقت نفسه . ولذا قرر إبقاء تشيني في الولايات المتحدة ، وتكليف الجنرال نورمان شوارتزكوبف بتقديم الإيجاز للسعوديين ، باعتباره قائد القيادة المركزية .

لم يكن واضحاً أن السعوديين سيقبلون فريقاً بهذا المستوى الرفيع . قام سكوكروفت بالاتصالات الهاتفية معهم بعد ظهر ذلك اليوم وفي الليل . ووافق السعوديون على استقبال الفريق برئاسة تشيني صباح يوم الأحد ٥ آب . وغادر الفريق من قاعدة اندروز الجوية العسكرية بعد ظهر ذلك اليوم على طائرة بوينغ ٧٠٧ التي يستعملها وزير الدفاع . وقد ألقى الرئيس بوش تصريحاً في ذلك اليوم قال فيه : «لن يصمد هذا العدوان ضد الكويت» .

كتب تشيني في دفتره الصغير نقاطاً لايجازه أمام الملك فهد جاء فيه : «سيغدو صدام أقوى ، بعد استيلائه على الثروة الكويتية ، وسوف يسيطر على الخليج ، بل سيسيطر على منظمة الدول المصدرة للنفط (OPEC) ، وسوف يحصل على المزيد من الأسلحة المميتة من النوع الذي يتيح له السيطرة على المنطقة . وفي وقت ما لا بد من التصدي له ، والآن أسهل ، كجزء من جهد دولي مشترك» .

خلال الطيران طلب تشيني من موظف وكالة الاستخبارات المركزية CIA تقديم

العرض الذي أعده للملك فهد ، فلما قدمه وجده تشيني عرضاً فنياً غامضاً لا يدفع إلى حالة الاستعجال المبتغاة . ولذلك قرر حذفه من الإيجاز ، على أن يتولاه هو وشوارتزكوبف .

وأثناء الرحلة طلب تشيني من السفير الأميركي تشارلز فريمان Charles Freeman الذي كان معه على الطائرة إيجازاً عما يتوقع . قال السفير لتشيني : يجب أن تكون حذراً ، وأن لا تكون عدوانياً ، وأن لا تتحدث عن قوات ضخمة تخيف السعوديين . وأن عليه الانتظار في الرياض لساعات أو ليوم حتى يقابل الملك ، وأن السعوديين لا يقررون بسرعة .

نزلت طائرة تشيني في مطار جدة حوالي الثانية بعد الظهر ، حسب التوقيت المحلي . وذهب الفريق الأمريكي إلى أحد قصور الضيافة . وجاء الأمير بندر لمقابلته ، بينما كان الفريق ينتظر الاجتماع بالملك فهد . قال له بندر : «من المهم جداً أن تبيّن للملك بأنك جدي ، وأن تؤكد له بأنكم ستلتزمون بقوات كبيرة ، وأن تقوموا بذلك بسرعة . وأن لا تكون حذراً أو غير راغب في عمل ما هو ضروري» . بعبارة أخرى كانت نصيحة بندر نقيض نصيحة السفير الأمريكي . عندها قرر تشيني قبول نصيحة بندر .

دخل تشيني وفريقه إلى الملك فهد حوالي الساعة السابعة مساءً . حضر الاجتماع ولي العهد السعودي الأمير عبد الله بن عبد العزيز ، ووزير الخارجية الأمير سعود الفيصل ، ونائب وزير الدفاع الأمير عبد الرحمن ، بسبب غياب وزير الدفاع الأمير سلطان بن عبد العزيز خارج البلاد ، والذي كان من المقرر عودته صباح اليوم التالي . كان الفريق الأمريكي يضم ، بالإضافة إلى رئيسه وزير الدفاع ديك تشيني ، الجنرال نورمان شوارتزكوبف ، وبول ولفوفيتز Paul Wolfowitz ، والسفير تشارلز فريمان ، وبوب غيتس Bob Gates ، نائب مستشار الأمن القومي .

بدأ تشيني بالحديث ، مؤكداً التزام الولايات المتحدة نحو العربية السعودية ، ومشيراً إلى الخطر الذي يمثله صدام حسين . وقال إن الرئيس بوش يعمل على بناء دعم دولي للعمل الاقتصادي والدبلوماسي والعسكري ضد العراق . وإنه حريص على ردع أي هجوم على العربية السعودية . وسيكون الردع العسكري حاسماً والإجراءات الاقتصادية بدأت تؤثر وتشعر صدام بالألم .

طلب تشيني من الجنرال شوارتزكوبف تقديم إيجاز مفصل عن القوات التي

نشرها صدام على طول الحدود بين الكويت والعربية السعودية ، وعن استعداد الولايات المتحدة لنشر قواتها الجوية والبحرية والبرية في السعودية فوراً . وأكد تشيني في نهاية الإيجاز أن القوات الأمريكية ستبقي في المملكة ما دام السعوديون يريدونها وستغادر حينما يريدونها ، أن تغادر . وشدد على أهمية العمل بسرعة . كان الأمير بندر يتولى عملية الترجمة بين الطرفين .

بدأ السعوديون نقاشاً بينهم بالعربية . وظهر ، كما علم تشيني فيما بعد ، اتجاه بينهم يدعو إلى الانتظار ، غير أن الملك أنهى الجدل بقوله : «انتظر الكويتيون والآن يقيمون في فنادقنا» . واتجه الملك نحو تشيني وقال : «حسناً ، أعرف أن قراري مثير للجدل ، ولكن لا يهم ذلك ما دامت العربية السعودية في خطر» .

عاد الفريق الأمريكي إلى قصر الضيافة ، واتصل تشيني بالرئيس بوش هاتفياً ، وكان في البيت الأبيض مع رئيسة وزراء بريطانيا مارغريت تاتشر بجانبه ، قال له : «السيد الرئيس ، وافق السعوديون على قبول قواتنا ، فهل نحصل على موافقتك للبدء بنشر قواتنا؟» أجاب : «نعم ياديك ، باشر» . شكر تشيني الرئيس بوش . وطلب كولن باول ، وأمره بالبدء بعملية نقل القوات الأمريكية إلى العربية السعودية .

تشيني يقنع مصر والمغرب ودول الخليج العربية بالمشاركة في الائتلاف الدولي والحل العسكري

بعد ساعات من موافقة الملك فهد على نشر القوات العسكرية الأمريكية على الأرض السعودية انطلقت طائرات F-15 النفاثة من قاعدة لانغلي Langley الجوية العسكرية إلى العربية السعودية ، وشرعت بعمليات الحراسة الجوية . وفي اليوم التالي ٦ آب وصل اللواء (٨٢) المحمول جواً إلى الأرض السعودية . وبدأت البارجة أيزنهاور Eisenhower عبور قناة السويس ، والبارجة إنديبندنس Independence من خليج عمان باتجاه الخليج الفارسي . وخلال أسبوع واحد وصل مشاة البحرية الأمريكية والبوارج الحربية الثلاث ، وطائرات A-10 قانصات الدبابات ، وثلاثة آلاف مقاتل من مجموع (١٥١) ألف مقاتل ، و(١٨) طائرة F-117S .

غادر تشيني جدة متجهاً إلى مصر للقاء بالرئيس حسني مبارك في مقره الصيفي في الاسكندرية على البحر المتوسط . انتظر تشيني في غرفة في القصر الرئاسي ، ريثما ينتهي الرئيس مبارك من لقاء مع نائب الرئيس العراقي عزت إبراهيم الدوري ،

الذي كان يقوم بجولة على الدول العربية ؛ لإقناعها بعدم الانضمام إلى الائتلاف الدولي الذي بدأت بتكوينه الولايات المتحدة .

بعد خروج نائب الرئيس العراقي دخل تشيني إلى الرئيس مبارك ؛ فوجده غاضباً جداً . قال مبارك لتشيني : «لقد كذب عليّ العراقيون . قبل أيام من الغزو كان جميع رؤساء الدول العربية في مؤتمر قمة للجامعة العربية . وعلى مائدة العشاء كان العراقيون يجلسون إلى جانب الكويتيين ينادونهم إخوة ، ويعدون بعدم الغزو» . لما أخبر تشيني الرئيس مبارك بموافقة السعوديين على نشر القوات الأمريكية أبدى استعداده للمساعدة . وسأل تشيني : ماذا تحتاجون؟ طلب منه تشيني حقوق الطيران فوق مصر ومجالها الجوي فوافق ، وطلب الإذن بمرور حاملة الطائرات أيزنهاور التي تسير بالقوة النووية عبور قناة السويس ، فوافق فوراً . وسأله : متى ستأتي؟ قال تشيني : الليلة . وأيد مبارك الجهود الأمريكية لحماية العربية السعودية . يقول تشيني : «أثبت مبارك والملك فهد خلال الأزمة أنهما أكثر حلفاء أمريكا أهمية في المنطقة» .

غادر تشيني مصر بعد ظهر ذلك اليوم متوجهاً إلى واشنطن ، وحالما ارتفعت الطائرة في الجو ، فوق البحر المتوسط ، تلقى محادثة هاتفية من الرئيس بوش يطلب منه التوقف في المغرب لمقابلة الحسن الثاني ملك المغرب لشرح الخطة الأمريكية في الخليج ، وإطلاعه على محادثاته مع السعوديين والمصريين .

نزلت طائرة تشيني في المغرب في منتصف الليل ، واتجه مع فريقه مباشرة إلى القصر الملكي . طلب تشيني مقابلة الملك الحسن الثاني بصورة منفردة . سأل الملك إذا كانت المعلومات التي سيبحثها سرية ، فقال تشيني : نعم سرية جداً . أبلغ تشيني الملك بأن السعوديين قد وافقوا على نشر قوات أمريكية على أرضهم ، وأن الرئيس مبارك مؤيد لذلك . كما أن الرئيس بوش سوف يعلن قريباً عن ذلك . أراد الحسن الثاني أن يعرف تفاصيل الخطط الأمريكية . لما انتهى تشيني من إيجازه ، قال له الملك إنه مستعد لإرسال قوات مغربية إلى جانب القوات الأمريكية .

غادر تشيني المغرب إلى الولايات المتحدة ؛ فوصل إلى قاعدة أندروز الجوية الساعة الثالثة والثلث من صباح يوم الأربعاء ١٩٩٠/٨/٨ ، وفي الساعة السابعة والربع من صباح ذلك اليوم توجه إلى البيت الأبيض ، وصل إليه الساعة الثامنة مع جيمس بيكر وزير الخارجية ، وبرنت سكوكروفت مستشار الرئيس للأمن القومي . قدم تشيني إيجازاً للرئيس بوش عن رحلته . وفي الساعة التاسعة ، وجه الرئيس بوش

خطاباً إلى الأمة ، أعلن فيه عن نشر القوات الأمريكية في صحراء العربية السعودية .

غادر تشيني واشنطن في جولة ثانية إلى الخليج في ١٧ آب لمدة أسبوعين . كان ما يخشاه وما يقلقه أن تقوم القوات العراقية بالاستيلاء على آبار النفط السعودية ، والقوات الأمريكية الموجودة في الخليج في أضعف حالاتها . زار تشيني العربية السعودية أولاً ، ثم زار البحرين والإمارات العربية المتحدة وعمان . وكان الأمير سلطان بن عبد العزيز ، وزير الدفاع السعودي ، قد ساعد في ترتيب هذه الزيارات ، التي كان الهدف منها الحصول على حق إقامة قواعد عسكرية أمريكية فيها ، ونيل الدعم لما أصبح يعرف بعملية «عاصفة الصحراء Operation Desert Storm» . يقول تشيني : «كانت مساعدة سلطان رئيسية لأن العربية السعودية هي الدولة العربية المهيمنة في الخليج-أكبر منتج للنفط ، والأكبر جيوسياسياً ، والأقوى عسكرياً ، وبدون موافقة السعودية من المتعذر الحصول على التعاون التام مع أي من حلفائنا في الخليج . حالما وقع السعوديون ، تحمس الآخرون للانضمام إلى الائتلاف الذي أنشأناه لمجابهة صدام . كان الاستثناء الوحيد الأردن ، حيث كان الملك معتمداً على النفط العراقي ، واليمن الذي كان قد وقع في أحضان صدام» .

يقول تشيني : «استقبلت استقبالاً حاراً في البحرين ، وهي حليف قديم للولايات المتحدة ، ومقر لنشاطات الأسطول الأمريكي في الخليج الفارسي . وحينما توقفت في الإمارات العربية المتحدة ، كنت أعلى مسؤول أمريكي يزورها لأول مرة . كان مضيفي رئيس الدولة الشيخ زايد ، وهو رجل يحترمه جميع جيرانه ويقدره شعبه . لقد وافق على استعمال قواعد بلاده الجوية للطائرات الأمريكية من نوعي F-16, C-130 . ولعمان الواقعة في فم الخليج علاقات وطيدة مع العسكريين الأمريكيين . وكان السلطان قابوس راغباً في تقديم قواعد مهمة لقواتنا البحرية والجوية» .

يتابع تشيني قوله : «لم أعتزم التوقف في قطر بسبب العلاقات المتوترة بين دولتينا . طلب القطريون تزويدهم بصواريخ ستنجر Stinger ، كما كان لدى حلفائنا في البحرين . لما رفضنا إشترى القطريون صواريخ ستنجر من السوق السوداء ، مما أدى إلى احتجاج من وزارة خارجيتنا . وقد رتب لي الأمير سلطان زيارة لقطر . استقبلت في قصر جميل من قبل الأمير وابنه الذي أطاح بوالده سنة ١٩٩٥ وحل محله . وغدت قطر في عهد الابن قاعدة عسكرية أمريكية مهمة ، وربما أهم قاعدة في المنطقة» .

ولما كانت الولايات المتحدة تحشد قواتها في العملية التي سمتها «درع الصحراء Operation Desert Shield» فقد سافر العديد من كبار الضباط الأمريكيين إلى منطقة الخليج ، وعلى رأسهم رئيس هيئة أركان القوات الجوية مايك دوغان Mike Dugan .

يشير تشيني إلى خلاف بينه كوزير للدفاع وبين كولن باول ، رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة الأمريكية . ويذكر أنه حينما جاء باول إليه في ١٩٩٠/٩/٢٤ يدافع عن العقوبات الاقتصادية وأثرها على العراق ، قال له إنه يجب أن يقدم حججه مباشرة للرئيس . وعلق على ذلك : «لا أعتقد ولا أحب أن يقول بأول بأننا لم نصغ إليه» . وقد أخذه تشيني بعد ظهر ذلك اليوم إلى مكتب الرئيس وقال له : «لدى الجنرال باول شيء يود قوله» . وقال باول رأيه . وبعد أسبوع طلب الرئيس بوش تقديم إيجاز عن الخطط الأمريكية لاستعمال القوة لإخراج القوات العراقية من الكويت .

في ١٩٩٠/١٠/١٠ ، التقت مجموعة في غرفة اجتماعات هيئة الأركان المشتركة في البنتاجون ؛ للاستماع إلى إيجاز من ممثل نورمان شوارتزكوبف ، الميجور جنرال روبرت جونستون Robert Johnston عن خطة الحرب الهجومية . وكان شوارتزكوبف وفريق المخططين معه في الرياض قد قسموا خطة الحرب إلى أربع مراحل . تضمنت المراحل الثلاث الأولى منها هجمات جوية على القيادة العراقية ، وعلى مقار السيطرة والاتصالات والتزويد العراقية وقواعد الذخائر ومواقع الحرس الجمهوري . أما المرحلة الرابعة فهي الحرب البرية ، وتضمنت هجوماً مباشراً على القوات العراقية في الكويت من الجنوب إلى الشمال . يقول تشيني : «لم يشعر أحد من الحضور بأن خطة الهجوم البري سليمة» .

ظن تشيني أن الرئيس بوش يحتاج إلى الاطلاع على هذه الخطة فوراً . فهو بحاجة إلى أن يعرف ، كقائد أعلى للقوات المسلحة ، ما هي القوات على الساحة ، وهل هي قادرة على العمل؟ رتب تشيني الأمر مع شوارتزكوبف ، متجاوزاً كولن باول ، لتقديم الإيجاز عن الخطة السابقة الذكر في البيت الأبيض ، بحضور الرئيس ومستشاره للأمن القومي سكوكروفت . وقال تشيني في هذا الإيجاز إن لديه الثقة العالية في الخطة الجوية ، وفي القدرة على تنفيذها . وبيّن للحضور أن المرحلة الرابعة من الخطة المعروفة بالحملة البرية صعبة التنفيذ ، ذلك أن لدى الأمريكيين آنذاك (٢٠٠) ألف مقاتل على مسرح المعركة ، بينما حشد العراقيون حوالي (٤٠٠) ألف

مقاتل . ناهيكم عن التحصينات وحقول الألغام التي زرعتها هذه القوات والشبكة اللوجستية التي أنشأتها .

كان الهدف من الخطة كلها تحرير الكويت بالقوة المسلحة . وقد قدم الايجاز الجنرال بستر غلوسون Buster Glosson من القوات الجوية الأمريكية عن الخطة الجوية . وقدم الجنرال جونستون الإيجاز عن الحرب البرية ، مبيناً أنه لم يحبذ أحد هذه الخطة . وأعرب الرئيس بوش وسكوكروفت بدورهما عن عدم رضاهما عنها أيضاً . واتفق على وضع خطة جديدة للحرب البرية .

في صباح اليوم التالي طلب تشيني من كولن باول أن يتصل بشوارتزكوبف ويعد خطة جديدة للهجوم البري . وفي الوقت نفسه طلب من أمين عام وزارة الدفاع الجنرال بول ولفوويتز Paul Wolfowitz مع فريق صغير بدراسة خطة سميت «النزهة الغربية Western Excursion» ، أعدها الجنرال هنري روين Henry Rowen مساعد وزير الدفاع لشؤون الأمن الدولي ، وتطويرها . أخذ فريق ولفوويتز برئاسة الجنرال المتقاعد ديل فيسر Dale Vesser فكرة روين ووسعها إلى خطة لتحريك قوات الائتلاف إلى الصحراء الغربية في العراق ، بدلاً من الهجوم المباشر على قلب الدفاعات العراقية في الكويت . وتشمل هذه الخطة احتلال أراض عراقية ، بحيث يجبر العراقيون على تحريك قواتهم الرئيسية للدفاع عن تهديد محتمل لبغداد ، وربما الاستيلاء عليها للمساومة مقابل الخروج من الكويت .

سعي تشيني لتحرير الكويت بالقوة العسكرية

قام تشيني ، وزير الدفاع الأمريكي بجولة مدتها تسعة أيام على لندن وباريس وموسكو ، بدءاً من ١٩٩٠/١٠/١٥ ، في لندن قابل رئيسة وزراء بريطانيا مارغريت تاتشر في رئاسة الوزراء (١٠ داوننغ ستريت) . بعد بداية الاجتماع بقليل طلبت من الجميع المغادرة باستثناء تشيني وزميله البريطاني توم كنغ Tom King . دام الحديث بين الثلاثة ما يربو على ساعة حول أزمة الخليج . أشارت خلالها تاتشر إلى خبرتها في حرب فولكلاند Falkland سنة ١٩٨٢ ، والدروس التي استخلصتها منها في الاستراتيجية العسكرية ، وكيفية حشد التأييد الشعبي والحفاظ عليه .

في اليوم التالي (١٩٩٠/١٠/١٦) هبطت طائرة تشيني في مطار موسكو مع الغسق . ووضع إكليلاً من الزهور على قبر الجندي المجهول في الساحة الحمراء . كانت

لحظه مثيرة لوزير دفاع أمريكي يميني متطرف . تناول طعام العشاء في «داشا» خارج موسكو أقامه على شرفه وزير الدفاع السوفياتي يازوف Yazov . وفي صباح اليوم التالي التقى بالرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشيف Mikhail Gorbachev في مكتبه في الكرملين . أكد غورباتشيف أن حكومته تريد حلاً سلمياً لأزمة الخليج . وقد حضر الاجتماع إدوارد شفردنادزه Eduard Shevardnadze وزير الخارجية ، ويازوف وزير الدفاع . وقد أكد الوزيران لتشيني أن الأمريكيين لن يواجهوا مفاجآت في الأسلحة التي زود السوفيات العراق بها .

بينما كان تشيني يغادر موسكو ، كان الجنرال كولن باول يغادر واشنطن إلى الرياض في مهمة إعداد قائمة بالتعاون مع شوارتزكوبف بالقوات الإضافية الأمريكية ، التي تحتاجها عملية تحرير الكويت . وكان بول ولفوويتز وفريقه يعملون على وضع خطة جديدة للحرب البرية . وفي صباح ١٩٩٠/١٠/٢٣ ، طلب تشيني الأميرال ديف جرميا Dave Jermiah ، رئيس هيئة الأركان البحرية إلى مكتبه ليقدم له إيجازاً عن الخطة الحربية لتحرير الكويت ، وأعطي الخطة التي أنجزها فريق ولفوويتز .

ظهر تشيني على شاشة تلفزيون CBS في صباح ١٩٩٠/١٠/٢٥ في برنامج «هذا الصباح This Morning» . ولما سأله هاري سميث Hary Smith إذا كانت الولايات المتحدة مستعدة لإرسال مئة ألف مقاتل آخرين إلى الخليج ، أجاب بأن الإدارة الأمريكية تفكر بإرسال مثل هذا العدد ، مؤكداً أنها لم تضع حداً أعلى لعدد القوات التي سترسلها . كان الهدف من هذه الإجابة إعداد الشعب الأمريكي لقبول حشد جديد للقوات الأمريكية في الخليج ، وتطمين الجنرالات بالاستجابة لطلباتهم . وبعد أيام أدلى الجنرال شوارتزكوبف بتصريح لمراسل الصحيفة الأمريكية Atlanta Journal-Constitution في الخليج ، قال فيه إن العقوبات الاقتصادية تفعل فعلها ، وطالب بالاستمرار بها ، وعدم الإقدام على الحرب وقتل الناس . فأثار هذا التصريح غضب تشيني .

عاد الجنرال من الرياض في ١٩٩٠/١٠/٣٠ حاملاً معه طلبات القيادة المركزية . قابل باول وزير الدفاع وقدم له هذه الطلبات التي أيدها . وذهب معه بعد ظهر ذلك اليوم إلى البيت الأبيض ، حيث التقى بالرئيس بوش وسكوكروفت وجيمس بيكر ، وقدم باول ما يريده شوارتزكوبف من قوات ، وهي مضاعفة عدد القوات الموجودة آنذاك

في الخليج . وقد وافق الرئيس بوش على هذا الطلب . وقبل أن يعلن الرئيس بوش عن ذلك ، التقى تشيني بقادة الكونغرس وأعلمهم بذلك . في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ١٩٩٠/١١/٨ أعلن الرئيس بوش ذلك بقوله : «أمرت اليوم وزير الدفاع بزيادة حجم قوات الولايات المتحدة التي ستشترك بعملية درع الصحراء لضمان خيار الائتلاف بهجوم عسكري كاف ، إذا كان ذلك ضرورياً لتحقيق الأهداف المشتركة» .

في الساعة ٤,٤٥ من بعد ظهر اليوم نفسه عاد تشيني إلى وزارة الدفاع ، وقدم إيجازاً إلى صحفيي البنتاجون بحضور الجنرال باول . وأعد الاثنان بعد ذلك قائمة بالوحدات العسكرية الأمريكية التي ستنقل إلى الخليج ، وهي : الفيلق السابع VII Corps من شتوتجارت في ألمانيا الغربية ، والفرقة المدرعة الأولى من ألمانيا الغربية ، والفرقة المدرعة الثانية ، ولواء الفرسان المدرع الثاني ، وفرقة المشاة الأولى في فورت رايلي Fort Riley في كنساس . وقرر الأسطول إرسال حاملة طائرات ومن عليها . ومن مشاة البحرية تقرر إرسال قوة مشاة الحملة الثانية II Marine Expedition Force من كامب لوجون Camp Lejeune ، ولواء مشاة البحرية الخامس 5th Marine Expeditionary Brigade من كامب بندلتون Camp Pendleton . وأعلن تشيني أنه قد يرسل إلى الخليج وحدات قتالية من جيش الحرس الوطني Army National Guard .

ولما ظهر تشيني في ١٩٩٠/١١/١٨ على برنامج «قابل الصحافة» التلفزيوني ، سئل : هل قررت الإدارة الأمريكية الحصول على تفويض من الكونغرس لاستعمال القوة ضد العراق ، أجاب بأنه يحب الكونغرس الذي خدم فيه عشر سنوات ، ولكن لديه شعور بحدود صلاحياته . فالقرار قد اتخذ ، وأن وضع مسألة لها صلة بالأمن القومي في أيدي (٥٣٥) عضواً في الكونغرس مقترح خطير . وأضاف : «إن نقاشاً في الكونغرس قد ينقل الشعور لدى حلفائنا ولدى صدام بأننا لسنا عازمين في التزامنا بتحرير الكويت» .

مع نهاية تشرين الثاني ١٩٩٠ ، كان الكونغرس يستمع لشهادات سام نون Sam Nunn ، رئيس لجنة القوات المسلحة ، الذي كان ينوي الترشح لرئاسة الجمهورية . بدا نون مصمماً على تقديم منبر لأولئك المعارضين لاستعمال القوة من أجل تحرير الكويت . ومن بين الذين قدموا شهاداتهم الأميرال بيل كرو Bill Crowe ، رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة السابق ، الذي قال : «نحتاج سنة أخرى لإعطاء

العقوبات مدى لتأخذ مفعولها قبل أن نفكر باللجوء إلى القوة» .

بعد يوم واحد من شهادة كرو ، اتخذ مجلس الأمن الدولي قراراً بتحديد يوم ١٩٩١/١/١٥ ، موعداً نهائياً لانسحاب العراق من الكويت ، وفوض الدول الأعضاء في الأمم المتحدة باتخاذ كل الوسائل الضرورية لتحقيق ذلك . وعندما أعلن الرئيس بوش أنه عازم على إرسال جيمس بيكر للتفاوض مع صدام حسين ، ودعوة طارق عزيز إلى الولايات المتحدة ، انزعج العديد من حلفاء أمريكا ، وبخاصة السعوديين ، الذين شعروا بأن أمريكا قد سحبت البساط من تحت أقدامهم .

أراد تشيني أن يعرف تفاصيل الحرب المقبلة في الخليج ، فكلف الجنرال توم كيلي Tom Kelly مدير العمليات في هيئة الأركان المشتركة بتقديم (٣٦) إيجازاً حول عمل صواريخ كروز Cruise ، وكيفية إختراق حقول الألغام ، والأسلحة الكيمياوية والبيولوجية وكيفية الوقاية منها وغير ذلك .

سافر تشيني وكولن باول إلى العربية السعودية في ١٩٩٠/١٢/١٨ ، والتقيا بقيادة الجنرال نورمان شوارتزكوبف في قبو مسلح تحت مبنى وزارة الدفاع السعودية . واستمعا إلى إيجاز عن جوانب من التخطيط للحرب الجوية والبرية . خلال جلسات الصباح تم التركيز على الاستخبارات ومعلوماتها عن القوات العراقية ، ومواقعها واستعداداتها ، واستعدادات القوات الأمريكية . أما بعد الظهر فقد ركز الإيجاز على خطة الحرب نفسها ، ولا سيما على المرحلة الرابعة منها أي الهجوم البري ، التي تقوم على مناورة «الخطاف» ، مع ما تتطلبه من تحرك للقوات وأسلحتها وتجهيزاتها مئات الأميال إلى الغرب ، للهجوم على القوات العراقية من الجانب الغربي . وكل ذلك يعتمد على التفوق الجوي وعنصر المفاجأة . قبل تشيني وباول بالخطة التي أعدها شوارتزكوبف وفريقه ، وعادا إلى واشنطن مطمئنين .

تلقى تشيني في طريق عودته معلومة بأن وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه أرنس يود مقابلته بسرعة . يقول تشيني : «وعدنا الإسرائيليون بأن لا يقوموا بأية ضربة استباقية للعراق . كانوا متوترين ويرغبون في معرفة توقعاتنا . . . كان مهما أن تبقى إسرائيل خارج الخطة الحربية . لا نريدهم أن يكونوا ذريعة لصدام لفصم عرى ائتلافنا» . بدلاً من الاجتماع بأرنس اتفقنا على مد خط ساخن ورمز «Hammer Rick» لربط مكتبي في البنتاجون مباشرة مع وزير الدفاع الإسرائيلي .

عاد الحديث عن ضرورة الحصول على موافقة الكونغرس لاستعمال القوة ضد

العراق . وقد عارض تشيني هذا التوجه . وحجته في ذلك مصادقة مجلس الشيوخ الأمريكي على ميثاق الأمم المتحدة ، الذي تسمح مادته الحادية والخمسون بمساعدة أي دولة عضو مثل الكويت تعرضت للغزو . وفوق ذلك ، إذا لم يوافق الكونغرس ستكون ضربة قاصمة للائتلاف الدولي وللقوات الأمريكية المنتشرة في الخليج . ورأى في هذا التوجه سابقة خطيرة . ومن الناحية القانونية والدستورية لدى الرئيس الصلاحية لشن الحرب على العراق لتحرير الكويت . استمع الرئيس بوش إلى جميع الحجج المتضاربة ، وقرر في ١٩٩١/١/٨ ، إرسال طلب إلى الكونغرس للموافقة على استعمال «كل الوسائل الضرورية لتنفيذ قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم ٦٧٨» الذي يطلب من صدام الانسحاب من الكويت .

لما ذهب جيمس بيكر لمقابلة طارق عزيز في جنيف ، كان تشيني يخشى أن يعقد بيكر صفقة اللحظة الأخيرة ، على أساس وعد من العراق بالانسحاب من الكويت ، وكان يخشى انسحاب العراق من الكويت . فهو يريد ضرب العراق وتدمير قواته المسلحة ، بحيث لا يستطيع تهديد أحد من جيرانه إلى الأبد . ولما اتصل بيكر بالرئيس بوش صباح ١٩٩١/١/٩ ليقول إن العراقيين مصممون على البقاء في الكويت ، كان تشيني وسكوكروفت في مكتب الرئيس ، شعر الثلاثة بسعادة عارمة ، فالحل العسكري هو الحل الوحيد ، وسوف ينفذون ما عزموا عليه منذ بداية الغزو العراقي للكويت .

غادر بيكر جنيف إلى الرياض لطمأنة السعوديين . وبذلت جهود كبيرة في واشنطن لإقناع الكونغرس بتفويض الرئيس بوش باستعمال القوة ضد العراق . في ١٩٩١/١/١٢ ، اتخذ الكونغرس قرار التفويض ب (٢٥٠) صوتاً مقابل (١٨٣) صوتاً في مجلس النواب ، وب(٥٢) صوتاً مقابل (٤٧) صوتاً في مجلس الشيوخ .

بعد ظهر يوم ١٩٩١/١/١٥ ، جاء الجنرال باول إلى مكتب تشيني بقرار لتوقيعه كوزير للدفاع . كان هذا القرار تنفيذاً لأمر الرئيس بتفويض شن الحرب ، وقد وقعه باول أيضاً .

عاصفة الصحراء كما يرويها تشيني

يقول تشيني في مذكراته إنه في ساعات الصباح الأولى من يوم الأربعاء ١٩٩١/١/١٦ ، توقف بسيارته في شارع الدستور Constitution Avenue في

واشنطن . ونزل منها مع زوجته لين Lynne ، ومشيا تحت رذاذ من المطر في زقاق منحدر إلى النصب التذكاري للجنود ، الذين ماتوا في فيتنام Vietnam Veteran Memorial . وقفا أمام الحائط الأسود الطويل كما يفعل الزوار صامتين وبخشوع . فالأسماء الثمانية والخمسون ألفاً المنقوشة على الحائط هي تذكار لثمن الحرب المرعب . ويقول أيضاً : «كانو يذكرونني أيضاً ، مع قرب بدء العمليات الحربية في العراق ، بالالتزام المقدس لدى قادة أمريكا المدنيين بتقديم جنودنا برسالة واضحة . حنينا رؤوسنا للتفكير بشبابنا الأمريكيين الذين سيطيرون في القتال فوق العراق» .

في الساعة السابعة والربع من صباح ذلك اليوم التقى تشيني وجيمس بيكر وبرنت سكوكروفت في مكتب الأخير في البيت الأبيض ، لاستعراض تفاصيل ما سيحدث في الساعات القادمة . ونظروا في القائمة التي تحتوي أسماء الزعماء الذين سيتصلون بهم لإبلاغهم مقدماً بأن حرب تحرير الكويت ستبدأ حالاً . كان أول اتصال أجراه تشيني مع وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه آرنس ، وعرض عليه إرسال بطاريات باتريوت المضادة للصواريخ للمساعدة في حماية إسرائيل من هجمات الصواريخ التي قد يطلقها صدام . وكان بول ولفوويتز وكيل وزارة الدفاع ، ولورنس إيجلبرغر Lawrence Eagleberger نائب وزير الخارجية قد سافرا إلى إسرائيل لهذا الغرض ، ولكن الإسرائيليين رفضوا العرض الأمريكي ، وقبلوا عرضاً بإنذار مبكر من الأقمار الصناعية عن أي صاروخ ينطلق . وقد أبلغ تشيني زميله الإسرائيلي بأن موعد بداية الحرب على العراق هو الساعة السابعة مساءً بتوقيت واشنطن ، الثالثة من صباح اليوم التالي في بغداد .

في الوقت الذي تحدث فيه تشيني مع آرنس ، كانت سبع طائرات أمريكية من نوع B-52 قد انطلقت من القاعدة الجوية باركسديل Barksdale في ولاية لويزيانا مزودة بصواريخ كروز متجهة إلى العراق . ومع اقتراب ساعة البدء بالعمليات الحربية الجوية استعدت طائرات F-15E المقاتلة القاذفة ، وإيواكس KC-135, AWACS التي تزود الطائرات المقاتلة بالوقود جواً ، وطائرات F-117 الخفية المقاتلة للانطلاق من قواعدها في العربية السعودية . وكانت البوارج الحربية مثل وسكونسن Wisconsin وميسوري Missouri في الخليج تخضع للفحص ؛ للتأكد من أن صواريخ كروز التي تحملها جاهزة للانطلاق .

بينما كانت طائرات F-117 الخفية تخترق المجال الجوي العراقي دون اكتشافها

بالرادار متجهة نحو بغداد ، كانت ثماني طائرات عمودية من نوع أباتشي Apache مزودة بالمدافع الرشاشة تطير على ارتفاع منخفض في الظلام ، وتدمر نظامي إنذار مبكر عراقيين ، ومحدثة خرقاً في دفاعات العراقيين الجوية ، بحيث تتيح لبقية الطائرات الأمريكية الوصول إلى بغداد بسلام . لقد تحولت عملية درع الصحراء إلى عملية عاصفة الصحراء .

مع اقتراب ساعة البدء أرسل تشيني مساعده ماك لين Mc Lean إلى منزله لإحضار حقيبة ملابسه ، لأنه قرر النوم في الغرفة الصغيرة الملحقة بمكتبه في البنتاجون . لم يحضرها صباحاً معه ، خوفاً من إثارة انتباه الموظفين إلى أن ساعة بدء الحرب قد اقتربت .

بعد ساعتين من بدء الحرب ، التي كانت أول حرب يراها الأمريكيون حية على التلفزيون ، تحدث الرئيس بوش إلى الأمة من مكتبه البيضاوي الساعة التاسعة ليلاً ، وأعلن بدء العمليات العسكرية . وفي الساعة ٩,٣٠ مساء ، ظهر تشيني وباول على شاشة التلفزيون في البنتاجون يعقدان مؤتمراً صحفياً ، ويقدمان إيجازاً عن العمليات العسكرية للشعب الأمريكي مباشرة . بعد هذا الإيجاز اتصل تشيني بالرئيس بوش قائلاً : «لقد أرسلنا (٥٦) طائرة من الأسطول وعادت كلها سالمة . لدينا أكثر من مئتي طائرة مقاتلة لم نفقد واحدة منها . في الليل فقدنا طياراً واحداً هو سكوت سبيتشر Scott Speicher الذي أسقطت طائرته F-18 فوق الأراضي العراقية .

في اليوم الثاني من الحرب ، بدأ صدام بإطلاق صواريخ سكود على إسرائيل . كانت من النوع المتدني من صنع الستينات من القرن العشرين ، سقطت في منطقة مدن فأحدثت دماراً كبيراً . بعد إطلاق أول دفعة منها اتصل وزير الدفاع الإسرائيلي بتشيني هاتفياً . ورجاه تزويد إسرائيل ببطاريات باتريوت وفنيين لتركيبها وتدريب الإسرائيليين عليها . وقال آرنس إن الإسرائيليين يخططون للقيام بضربات جوية انتقامية . وطلب شيفرة التعارف على الصديق من العدو أو رموز (IFF) التي تتيح للطيارين الإسرائيليين تجنب التعرض للنار من الطائرات الحليفة . وعد تشيني بالاتصال به ثانية .

اتصل تشيني بسكوكروفت في البيت الأبيض يطلب رأيه في الطلب الإسرائيلي . فكان يرى ضرورة إبعاد الإسرائيليين عن الحرب . أما تشيني فكان يرى ضرورة البقاء على صلة وثيقة بهم والعمل على حمايتهم . اتصل تشيني بآرنس وقال

له بأنهم سوف يبحثون عن منصات إطلاق صواريخ سكود في غرب العراق ويضربونها .

قصفت تل أبيب في الليلة التالية بالصواريخ العراقية ، واتصل آرنس بتشيني . لما سأل تشيني عن الوضع على الجبهة ، تبين أن شوارتزكوبف لم يرغب في تحويل عدد من الطائرات المقررة لضرب أهداف استراتيجية في بغداد إلى أهداف غير مهمة .

يعلق تشيني على ذلك بقوله : «كان ذلك سوء تقدير منه ، فقد كان مهماً أن نبقي الإسرائيليين خارج الحرب . ولما كانت إسرائيل من اهتمام قيادة القوات الأمريكية في أوروبا ومن مهامها ، فإن شوارتزكوبف لم يهتم بها . ومهما كان السبب ، فقد طلب تشيني من الجنرال باول أن تبحث الطائرات الأمريكية عن منصات صواريخ سكود ، باعتبارها ضرورة وليست خياراً عسكرياً . استأنفت الطائرات البحث في الليلة التالية دون أن تعثر على شيء .

واتصل تشيني بشوارتزكوبف شخصياً وأبلغه أن الرئيس بوش يعتبر القضاء على منصات صواريخ سكود مسألة استراتيجية لابقاء إسرائيل خارج المعركة . وقال له : «أنا الرجل الذي عليه أن يستند إلى الإسرائيليين ، وعليه أن يطمئنهم بأننا نفعل ما في استطاعتنا ، ومصداقيتي على المحك . إذا أخبرتهم أننا سنفعل شيئاً ما فعلينا أن نفعله» .

لم تنه طلعات الطائرات الأمريكية في صحراء العراق الغربية صواريخ سكود على إسرائيل ، وعلى العربية السعودية . والسبب أن العراقيين وضعوا هذه الصورايخ على منصات متنقلة . كان تشيني يتصل يومياً بآرنس لإطلاعه على ما يفعله الأمريكيون من أجل صيد المنصات : (٢٤) طائرة من نوع F-15 تحمل قنابل عنقودية ، وأربع طائرات من النوع نفسه تحرسها ، و(٤٨) طائرة من نوع A-10 تطير (١٢) ساعة في النهار ، و(١٢) طائرة من نوع F-16 تبحث عن منصات الصواريخ ، و(٢٤) طائرة من الوحدات المتحركة تعمل بعد الظهر ، و(١٢) طائرة لضرب المخابئ في الساعة الثالثة بعد الظهر .

سافر لاري إيجلبرغر من وزارة الخارجية وبول ولفوويتز من البنتاجون إلى إسرائيل ثانية ؛ لاقناع القيادة الإسرائيلية بالجهد الذي تقوم به القوات الأمريكية في البحث عن منصات الصواريخ العراقية . وقامت الولايات المتحدة بتزويد إسرائيل بصواريخ باتريوت خلال (٤٨) ساعة من قواعدها العسكرية في ألمانيا . وأرسل شوارتزكوبف

قوات عمليات خاصة في غرب العراق للعمل خلف الخطوط العراقية لصيد منصات صواريخ سكود ، فخف عدد هجمات هذه الصواريخ ، وبذلك حال الأمريكيون ، كما يقول تشيني ، دون دخول إسرائيل في الحرب .

لما بدأت عمليات القصف الشديدة على العراق ، شرع السوفيات بالسعي إلى وقف إطلاق النار بشروط رفضها الأمريكيون . وحثوهم على وقف القصف مقابل وعد غامض من صدام حسين بالإذعان لقرارات الأمم المتحدة . رفض الأمريكيون ذلك ؛ لأن التوقف سوف يعطي العراقيين الوقت لإعادة تسليح قواتهم وتجميعها . وفي ١٩٩١/١/٢٨ ، قام وزير خارجية الاتحاد السوفياتي الجديد ألكسندر بسمرتنيخ Alexander Bestmertnykh بزيارة واشنطن للقاء بجيمس بيكر . وفي اليوم التالي صدر بيان مشترك حول العراق ، دون موافقة البيت الأبيض المسبقة ، ودون عرضه على البنتاجون . نص البيان على موافقة الطرفين على وقف إطلاق نار مقابل وعد من صدام حسين بالانسحاب . وربط البيان بين وقف إطلاق النار وعملية السلام الإسرائيلية-الفلسطينية . كان البيان مناقضاً لخطط المحافظين الجدد في الحرب ولسياستهم نحو الشرق الأوسط والصراع العربي الإسرائيلي . أثار البيان الذي صدر في اليوم الذي ألقى فيه بوش خطابه عن حالة الاتحاد ، زوبعة في الصحف الأمريكية .

اعتذر بيكر عما حدث ، وتمسك الرئيس بوش بموقفه القاضي بمواصلة الحرب .

تحديد موعد الهجوم البري لتحرير الكويت

بعد مضي ثلاثة أسابيع على بداية حرب تحرير الكويت ، التي أطلق عليها الأمريكيون «عاصفة الصحراء» ، قام وزير الدفاع الأمريكي ديك تشيني ورئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة الجنرال كولن باول بزيارة القوات الأمريكية على أرض دول الخليج العربية ، والاطلاع على آراء قادتها وحاجاتهم . زارا الفرقة (١٠١) المحمولة جواً ، والطيارين الذين يشاركون في قصف العراق . روى هؤلاء الطيارون كيف أن طائرات F-111 المزودة بنظام تصويب يعمل بالأشعة تحت الحمراء ، تصيد الدبابات العراقية المخفية تحت أكياس الرمل أو الخنادق الصغيرة ، وأكد هؤلاء أنهم دمروا (٥٠٪) من الدبابات العراقية قبل بدء الهجوم البري .

قضى تشيني وباول ثماني ساعات في لقاء مع قائد القوات الأمريكية والحليفة ،

قدم خلالها إيجازاً عما تم خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من الحرب الجوية ، وعن الهجوم البري المرتقب . كان همهما الحصول على موعد من شوارتزكوبف للهجوم البري . قال لهما (٢١) شباط مع مدة ثلاثة أيام قبل وبعد هذا الموعد .

لما عاد تشيني وباول إلى واشنطن ، قابلا الرئيس بوش وقدما له تقريراً عن زيارتهما . كانت تقديرات خبير في معهد بروكنجز Brookings Institution أن الخسائر الأمريكية ستكون بين ألف وأربعة آلاف قتيل . وتوقع آخرون أن تكون هذه الخسائر أكثر من عشرة آلاف قتيل . وكان احتمال استعمال العراقيين للأسلحة الكيمياوية يقلق القيادة الأمريكية . ولذا زودت قواتها بملابس خاصة لتفادي تعرضها لهذه الأسلحة . وكانت هذه القيادة عازمة على الرد على العراقيين بأسلحة مدمرة مذهلة . يذكر تشيني أن اللواء وفيق السامرائي رئيس الاستخبارات العسكرية خلال حرب تحرير الكويت ، قد قال ، بعد الحرب ، إن بعض صواريخ سكود كانت مجهزة برؤوس كيمياوية ، ولكنها لم تستعمل «لأن الإنذار الأمريكي كان شديداً وفعالاً . فقد كانت قوات الحلفاء متأكدة من إستعمال الأسلحة النووية ضد العراق ، وأن الثمن سيكون كبيراً وعالياً» .

ورداً على المساعي السوفياتية لإيقاف إطلاق النار ، خرج الرئيس بوش يوم الجمعة ١٩٩١/٢/٢٢ ، إلى حديقة الورود في البيت الأبيض ووجه إنذاراً إلى العراقيين بقوله : «على العراقيين حتى ظهر غد السبت أن يبدأوا إنسحاباً فورياً غير مشروط من الكويت» وقبل إنتهاء الموعد المحدد بالإنذار بـ(٤٥) دقيقة ، اتصل الرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشيف هاتفياً بالرئيس بوش ، وقدم اقتراحاً جديداً لا يتضمن الانسحاب الفوري وبلا شروط . رد الرئيس بوش بالرفض مؤكداً التزامه بالموعد النهائي في إنذاره .

في صباح ٢٤ شباط بدأ الهجوم البري لتحرير الكويت . يقول تشيني : «ذهبت في ذلك الصباح مع زوجتي لين إلى كنيسة القديس جون قرب البيت الأبيض ، وكان الرئيس بوش وزوجته هناك . أرسلت إليه الملاحظة التالية : «السيد الرئيس ، الأمور تسير على ما يرام» . «دعاني ولين إلى البيت الأبيض بعد القداس . وأخبرته أن المعركة تدور كما خططنا لها ، والمقاومة العراقية ضئيلة على الجبهة ، والمشكلة الوحيدة التي تواجهنا استسلام القوات العراقية بأعداد كبيرة وكيفية التعامل معها» .

نشرت مجلة «تايم Time» الأمريكية خريطة ممتازة للحرب ، كانت على طاولة

قهوة الرئيس . وقد ظهرت عليها القوات العراقية منتشرة على طول الحدود الكويتية-السعودية ، والحرس الجمهوري موزعاً على الحدود العراقية-الكويتية . كما ظهرت عليها المواقع العامة للقوات الأمريكية : مشاة البحرية ، وحاملات الطائرات ساراتوغا Saratoga ، وكينيدي Kennedy ، وثيودور روزفلت Theodore Roosevelt ، وأمريكا America في البحر الأحمر ، وحاملتا الطائرات ميدوي Midway ، ورينجر Ranger ، والبوارج الحربية ميسوري Missouri ووسكونسن Wisconsin في الخليج الفارسي .

شرح تشيني للرئيس بوش ما جرى في الليلة الفائتة . فقد اخترقت فرقتا مشاة البحرية الأولى والثانية خط الدفاع العراقي الأول وبلغت خط الدفاع الثاني . وتوغل اللواء الأول من الفرقة (١٠١) حوالي مئة ميل داخل الأراضي العراقية . ومن المنتظر أن يلحق اللواء الثاني باللواء الأول في مدى ساعتين أو ثلاث ساعات . وتوغلت كتيبة الفرسان المدرعة الثالثة عشرين ميلاً في الأراضي العراقية ولم تجد مقاومة . أما الفيلق السابع VII Corps الذي كان من المقرر أن يهاجم تلك الليلة فقد بدأ يدمر الخنادق التي أنشأها العراقيون كحواجز .

واجتازت القوات المصرية الحدود الكويتية-السعودية بمقاومة ضئيلة . وواجهت القوات السعودية مقاومة ضعيفة على الساحل . بلغت الخسائر الأمريكية مع أول يوم للهجوم البري طائرتين عموديتين من نوع أباتشي .

وصلت أنباء بعد ظهر اليوم الثاني ٢٥ شباط بأن القوات العراقية تعد بالانسحاب مقابل قرار يوقف إطلاق النار من الأمم المتحدة . غير أن الأحداث تسارعت على الأرض . فقد بدأ تحرير مدينة الكويت يوم ٢٦ شباط على يد القوات العربية المشاركة في الائتلاف .

في الاجتماع الذي عقد في مكتب الرئيس بوش يوم ٢٧ شباط جاءت أنباء مفاجئة بانتهاء الحرب أسرع بكثير مما توقعت القيادة الأمريكية . كانت القوات العراقية قد انسحبت من الكويت على طريق الموت ، حيث شوهدت صور الدبابات المحترقة والسيارات المهجورة على طول الطريق التي نقلتها وسائل الإعلام المختلفة إلى العالم .

اتصل كولن باول هاتفياً بالجنرال شوارتزكوبف في الرياض من مكتب الرئيس بوش وقال له : إن الرئيس يود أن يعرف متى تنتهي الأمور . وكان شوارتزكوبف قد

عقد مؤتمراً صحفياً في الرياض قال فيه إن المهمة قد أنجزت . ورداً على سؤال باول أيد إيقاف القتال فوراً ، وطلب بعض الوقت للاتصال بقادة الوحدات لاستشارتهم . وبعد ساعات قليلة اتصل شوارتزكوبف وقال : إن قادة الوحدات وافقوا على إيقاف القتال حالاً .

أعلن شوارتزكوبف أن مفاوضات وقف إطلاق النار سوف تعقد في صفوان داخل الحدود العراقية مع الكويت . مثل العراق في صفوان اثنان من كبار الضباط العراقيين ، ومثل الائتلاف شوارتزكوبف والفريق الركن خالد بن سلطان .

يقول تشيني : «كنا نأمل أن ينقلب العسكريون العراقيون على صدام حسين بعد الهزيمة المذلة التي لحقت به في المعركة . ولكن لم يحدث ذلك . كانت هناك انتفاضات شعبية بين الأكراد في الشمال والشيعة في الجنوب . بعد ستة أسابيع من انتهاء الحرب ، فرضت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا منطقة حظر جوي فوق كردستان في شمال العراق ، بحجة منع صدام من ذبح الأكراد وإيقاف تدفق اللاجئين الأكراد عبر الحدود إلى تركيا . وفي الجنوب استعمل صدام الطائرات العمودية للقضاء على تمرد الشيعة» . ويقول تشيني إن عشرة آلاف من الشيعة لجأوا إلى المنطقة التي كانت ما تزال في أيدي القوات الأمريكية . ورفض شوارتزكوبف التعامل مع اللاجئين الشيعة ، بينما وافق السعوديون على إنشاء مخيم لهؤلاء اللاجئين .

عادت القوات الأمريكية إلى وطنها . يقول تشيني : «نشأ شعور واضح بأن إنجازاً عظيماً قد استعاد الشعور بالكبرياء الوطني الذي فقدناه في فيتنام . ورحبت البلاد برجالنا ونسائنا من القوات المسلحة باحتفالات يستحقونها» .

جرى تكريم هذه القوات العائدة إلى الوطن في واشنطن . بدأ في ١٩٩١/٦/٨ ، بالصلاة في مقبرة أرلنجتون القومية Arlington National . وألقى الرئيس بوش خطاباً تحدث فيه عن الحلم بكومنولث الحرية Commonwealth of Freedom : «تتحمل أمريكا ، لأنها تجرؤ على الدفاع عن هذا الحلم . ذلك الحلم يربط سهول الفلاندرز وصخور نورماندي وتلال كوريا المغطاة بالثلوج وحقول الأرز في الميكونغ . وقد عشناها في السنة الأخيرة على الصحارى الجرداء المستوية ، وعلى السفن التي تتقاذفها أمواج البحر ، وفي الطائرات النفاثة التي تخط الأميال فوق أرض العدو . وقد عشناها لأننا جرؤنا على المخاطرة بأثمن ما لدينا من رصيد-أبنائنا وبناتنا ، إخواننا وأخواتنا ،

أزواجنا وزوجاتنا-أروع قوات أي بلد في الدنيا» .

وجرى استعراض عسكري في شارع الدستور (واشنطن) . وجرى عرض عسكري مماثل في نيويورك بعد بضعة أيام .

اتصل تشيني هاتفياً بالطيار الإسرائيلي ديفيد ايفري David Ivry الذي قام بغارة في ١٩٨١/٦/٧ ، على المفاعل النووي العراقي (أوزاريك) ، «لأنه بدون هذا العمل ، كما قال تشيني ، لواجهنا سلاحاً نووياً من صدام سنة ١٩٩١» .

يذكر تشيني أن الولايات المتحدة تلقت تبرعات من دول الخليج ومن ألمانيا واليابان ؛ لتغطية تكاليف حرب تحرير الكويت بمبلغ (٥٣,٧) مليار دولار ، بينما بلغت الكلفة الحقيقية حسب قوله (٦١,١) مليار دولار .

وكان من نتائج هذه الحرب على الساحة الأمريكية فشل الرئيس جورج بوش (الأب) في انتخابات الرئاسة ، وفوز المرشح الديمقراطي بيل كلينتون Bill Clinton .

الفصل الثالث

غزو العراق للكويت
في مذكرات الجنرال كولن باول

تحليل الجنرال كولن باول للأزمة العراقية-الكويتية

خصص الجنرال كولن باول Colin Powell خمساً وستين صفحة عن الغزو العراقي للكويت وتحريرها في مذكراته التي كتبها بالتعاون مع جوزيف بيرسيكو Joseph E. Persico بعنوان : «رحلتي الأمريكية My American Journey» ، الصادرة في نيويورك عن دار النشر Ballantine Books سنة ١٩٩٦ ، والبالغ مجموع عدد صفحاتها (٦٤٣) صفحة . كان باول يشغل منصب رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة في وزارة الدفاع الأمريكية ، طوال مدة غزو العراق للكويت وتحريرها على أيدي قوات الائتلاف الدولي ، الذي كونته إدارة الرئيس جورج بوش (الأب) بين أيلول ١٩٩٠ وآذار ١٩٩١ .

يقول باول إن غزو صدام حسين للكويت قد جاء بعد تسعة أشهر من عرضه ل «نظرة استراتيجية عامة -١٩٩٤ . Strategic Overview 1994» التي قال فيها إن كوريا والخليج الفارسي هما أسخن نقطتين محتملتين لتدخل القوات الأمريكية فيهما . «فالجيش العراقي جعلني قلقاً منذ أن أنهى العراق وإيران حربهما الدامية التي دامت ثماني سنوات ، في سنة ١٩٨٨ ، حينما كنت مستشاراً للأمن القومي . ما دام لدى صدام حسين جيش من مليون مقاتل لم تعد إيران تخشاه ، كنت أخشى أن يتطلع إلى الأذى في مكان ما» .

يعزو باول الأزمة العراقية-الكويتية إلى ديون العراق التي بلغت تسعين مليار دولار بعد الحرب العراقية-الإيرانية . فقد لام صدام الكويت والإمارات العربية المتحدة ؛ لأنهما حالا دون شق العراق طريقه للخروج من أزمة الدين الضخم هذه . فقد طعنتا العراق في ظهره بزيادة حصتيهما من النفط المقررتين لهما لدى منظمة

الدول المصدرة للنفط (OPEC) ، مما أدى إلى انخفاض سعر النفط ، وانخفاض دخل العراق . واتهم صدام الكويت بسحب (٢,٥) مليار دولار نفطاً من حقل الرميلة الذي تشترك الدولتان به . وربما أنه كان يطمع بجزيرتين كويتيتين هما وربة وبوبيان الواقعتان في مدخل الخليج . ويتفق باول مع جيمس بيكر وديك تشيني وغيرهما في تحديد أسباب الأزمة العراقية-الكويتية بالأطماع المالية والتوسعية العراقية .

في جولة قام بها باول في تموز ١٩٩٠ على دول المنطقة ، زار خلالها تونس ومصر والأردن وإسرائيل ، وجد أن هذه الدول كانت متفائلة لإيجاد حل عربي لمشاكل العراق المالية . ولما وصل إلى القدس أقام له زميله الإسرائيلي دان شومرون Dan Shomron ، رئيس هيئة الأركان ، حفلة ، ففاجأ مضيفيه بالحديث إليهم بلغة اليديش (الألمانية-العبرية) ، التي أجرى بها حواراً مع رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق شامير .

عاد باول إلى واشنطن في الأسبوع الثالث من تموز ١٩٩٠ ، وبعد عودته استقبل الأميرال مايك ماك كونيل Mike Mc Connell ، ضابط الاستخبارات في هيئة الأركان المشتركة ، ونشر على طاولته صور الأقمار الصناعية التي تبيّن نقل ثلاث فرق مدرعة قرب الحدود الكويتية ، أي حوالي (٣٥) ألف جندي . وقال ماك كونيل هذه من قوات الحرس الجمهوري العراقي ، قوات النخبة لدى صدام حسين ، وهي مزودة بمئات الدبابات السوفياتية من نوع T-72 . وتساءل باول : «ماذا يعني هذا؟ التخويف؟ الضغط؟ الغزو؟ إلى أي مدى هو مستعد لذلك؟» .

وفي ٢٤ تموز زاد قلق باول ، فطلب الجنرال نورمان شوارتزكوبف القائد الأعلى في القيادة المركزية Contral Command المسؤولة عن النشاطات العسكرية في جنوب آسيا والقرن الأفريقي ، ومناطق حساسة في الشرق الأوسط ، ومقرها في القاعدة الجوية ماك ديل Mac Dill في مدينة تامبا Tampa . في لقائه مع شوارتزكوبف بحث باول الحشد العسكري العراقي المتواصل ، والذي بلغ في ذلك اليوم أربع فرق وأكثر من مئة ألف جندي . وعلى الرغم من التطمينات العربية للقادة الأمريكيين بعدم احتمال شن العراق حرباً على الكويت ، فإنه طلب من شوارتزكوبف «أن يأتي له بثلثي جواب ، وثلث واحد يجب أن يخصص لسلسلة من الخيارات الانتقامية ، إذا ارتكب صدام اختراقاً صغيراً للحدود . ولكن إذا كانت نواياه قد تحولت إلى أكثر طموحاً . أريد ثلثاً للجواب : كيف سنوقفه ونحمي المنطقة» قال نورمان : سوف أبدأ .

والواقع أن شوارتزكوبف بدأ التفكير في المسألة . فقد نشأت القيادة المركزية التي يتولى قيادتها العليا من قوة الانتشار السريع المشتركة Rapid Deployment Joint Task ، التي تشكلت خلال رئاسة جيمي كارتر Jimmy Carter للتعامل مع حرب محتملة بين إيران حليفة الولايات المتحدة آنذاك والجيش السوفياتي . وقد أنفقت أموال ضخمة ووقت طويل للرد الأمريكي من أجل إيقاف الجيش الروسي القادم من جبال زاغروس في شمال إيران . وبعد سقوط الشاه تحولت إيران من صديق للولايات المتحدة وحليف إلى عدو ، وغدا احتمال تقدم قوات سوفياتية نحو الخليج الفارسي أمراً بعيد الاحتمال . وتحول انتباه القيادة المركزية نحو العراق وتهديده لجيرانه .

ينظر العسكريون عادة إلى ثلاثة مفاتيح موثوقة تعدها القوة المعادية للهجوم : هل تحرك مدفعيتها إلى الأمام؟ هل تؤسس لاتصالات؟ هل تعزز قواتها لوجستياً بكميات من الوقود والذخيرة؟ توافرت هذه الشروط الثلاثة في ٣١ تموز ١٩٩٠ في جنوب العراق . عندها دعا باول شوارتزكوبف ثانية وقال له : أريدك أن تأتي غداً وتقدم إيجازاً لوزير الدفاع ديك تشيني وهيئة الأركان المشتركة حول تقديرك للوضع في جنوب العراق وخططك لمواجهة كل الاحتمالات .

قدم الجنرال شوارتزكوبف إيجازاً شاملاً واضحاً دام تسعين دقيقة في الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم التالي . وسأله تشيني : ماذا تعتقد بأنهم سيفعلون؟ قال نورمان : أعتقد بأنهم سيهاجمون ، وأقدّر أنه سيكون هجوماً محدوداً للاستيلاء على جزء من حقل الرميلة النفطي وجزيرة بوبيان . وانتهى الاجتماع عند هذه الملاحظة .

وكان ديك كير Dick Kerr نائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية CIA ، قد قدم تقديراً مماثلاً لتقدير شوارتزكوبف قبل إيجاز الأخير . يرى باول أن إدارة الرئيس بوش كانت تنوي الابتعاد عن الخلافات العربية . فخلال اجتماع مع صدام حسين قبل ذلك بخمسة أيام أخبرته السفيرة الأمريكية في بغداد أبريل غلاسبي April Glaspie بقولها : «ليس لنا رأي في النزاعات بين العرب مثل خلافكم على الحدود مع الكويت» . وبعد ذلك بعثت السفيرة برقية إلى وزارة الخارجية في واشنطن تحث حكومتها على التخفيف من نقدها حتى يتمكن العراق والكويت من تسوية نزاعهما بنفسيهما . وفي رسالة لاحقة إلى صدام أبرق الرئيس بوش بأن «إدارته مستمرة في رغبتها في علاقات أفضل مع العراق» . وكانت دول عربية تقول لن يحدث شيء ، والولايات المتحدة تقول إذا حدث شيء فلا يعنينا ذلك .

قدمت عدة اقتراحات في وزارة الخارجية ووزارة الدفاع حول كيفية ردع العراقيين عن غزو الكويت : كان أحدها الإسراع بحركة حاملة الطائرات إندبندس Independence التي كانت متجهة إلى الخليج الفارسي . كما اقترح أل غراي Al Gray قائد فيلق المشاة البحرية ، إرسال بوارج الأسطول الأمريكي الموجودة في قاعدة دييجو غارسيا Diego Garcia في المحيط الهندي إلى الخليج . ولكن هذه التحركات ليس لها أثر رادع إلا إذا أعلن الغرض من إرسالها . في تلك المرحلة ، لم تكن الإدارة الأمريكية قد قررت تحذير العراق . يقول باول إنه وتشيني كانا يتذمران من موقف البيت الأبيض . وهو هنا يناقض أقوال ديك تشيني الذي يتهم باول بعدم الاكتراث . وكان الطلب الوحيد الذي تلقته الإدارة الأمريكية من الإمارات العربية المتحدة بإرسال حاملتي طائرات أمريكتين للمساعدة في المراقبة الجوية ، دون إحداث رعب لدى صدام حسين .

ويعرب باول عن أسفه لعدم قيام إدارة الرئيس بوش بأي عمل سياسي أو عسكري لردع صدام الذي قد يرتدع بحركات رمزية . ويذكر باول أنه طلب من تشيني أن يقترح على الرئيس بوش إرسال رسالة شديدة اللهجة إلى صدام حسين أو الاتصال هاتفياً به ومحاولة تخويفه . ويذكر أيضاً أن تشيني كان قلقاً مثله ، وأنه بدأ الاتصال بأعضاء مجلس الأمن القومي ووزارة الخارجية لإعداد احتجاج على تجمع القوات العراقية على الحدود الكويتية . ولكن هذا المسعى جاء متأخراً جداً . فقبل توجيه التحذير للرئيس العراقي كان ثمانون ألف جندي من الحرس الجمهوري يعبرون الحدود متجهين إلى مدينة الكويت .

تاتشر وفكرة الائتلاف الدولي لمواجهة العراق

في اليوم التالي لدخول القوات العراقية إلى الكويت ، دعا الرئيس بوش (الأب) جميع أعضاء مجلس الأمن القومي إلى الاجتماع في الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم (١٩٩٠/٨/٣) . طلب الجنرال كولن باول من الجنرال شوارتزكوبف ، القائد الأعلى للقيادة المركزية ، أن يحضر الاجتماع ويأتي بخرائطه وخططه إلى البيت الأبيض . كانت هذه أول فرصة لشوارتزكوبف للقاء بالقيادة السياسية العليا الأمريكية في العمل . يقول باول إنه أراد بدعوته لحضور الاجتماع أن يتعرف على الناس الذين من المحتمل أن يعمل معهم . في تقدير باول أن اجتماع مجلس الأمن القومي كان

متشعب الأحاديث وغير مركز . وتناول الحضور أثر الغزو العراقي على أسعار النفط ، وكيف يجب الرد على عدوان صدام . والسؤال الذي سيطر على أذهانهم : «ماهي الخطوة التالية لصدام ، هل سيتوقف بالاستيلاء على الكويت أم سيغزو العربية السعودية؟ وهل سنلجأ إلى العقوبات؟ وإلى أي مدى كنا مستعدين للذهاب؟» ولما سأل مراسلو الصحف الرئيس بوش قبل الاجتماع إذا كان لديه النية بارسال قوات إلى المنطقة ، رد بقوله : «لا أفكر بعمل كهذا» .

قدم شوارتزكوبف خطته للطوارئ للدفاع عن العربية السعودية في اجتماع مجلس الأمن القومي هذا ، دون التوصل إلى اتخاذ قرار بهذا الصدد . سأل باول الرئيس بوش : «السيد الرئيس ، هل يجب أن نفكر بوضع خطة على الرمال بشأن العربية السعودية؟» فكر بوش للحظة ثم قال : نعم يجب علينا فعل ذلك . وظل مصير الكويت بلا حل .

بعد انتهاء الاجتماع ، غادر بوش إلى أسبن Aspen في ولاية كولورادو للقاء برئيسة وزراء بريطانيا مارغريت تاتشر ، وإلقاء خطاب حول استراتيجية الولايات المتحدة الجديدة القائمة على فكرة القوة الأساسية Base Force . وذهب باول مع ديك تشيني وبول ولفوويتز ، أمين عام وزارة الدفاع ، إلى الكابتول لتقديم إيجاز عن القوة الأساسية للجان الكونغرس المختصة بالدفاع . ولكن أسئلة الحضور دارت حول ما يجري في الكويت .

بعد عودة الرئيس بوش من أسبن دعا مجلس الأمن القومي إلى الاجتماع لبحث الغزو العراقي للكويت . قال الرئيس بوش في هذا الاجتماع : «مرت أربع وعشرون ساعة . نعمل جيداً حتى الآن ، مع أن رئيسة الوزراء تاتشر وأنا التقينا وجهاً لوجه . أرى أن باستطاعتنا جمع أصدقائنا لدعم عمل سياسي واقتصادي مشترك في الخليج» . وأبدى سروره لأن الرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشيف لم يتعامل مع هذه الأزمة كمجابهة بين الغرب والشرق ، ووافق الاتحاد السوفياتي في مجلس الأمن الدولي على إدانة الغزو العراقي للكويت ، وطالب بانسحاب فوري وغير مشروط للقوات العراقية من الكويت .

في هذا الاجتماع قدم بيل وبستر Bill Webster مدير وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) تقريراً عن الوضع في الكويت ، وقال : «العراقيون على بعد ثمانية أعشار الميل من الحدود مع العربية السعودية . إذا بقي صدام حيث هو فسوف يستولي

على ٢٠٪ من احتياطي العالم من النفط . وبعد بضعة أميال باستطاعته الاستيلاء على ٢٠٪ أخرى . وسيكون له مدخل سهل إلى البحر من الموانئ الكويتية . قد يميل الأردن واليمن إليه ، وسيكون في وضع لحث الآخرين إلى تأييده . باستطاعتنا توقع أن تبدأ الدول العربية بعقد صفقات معه . ستكون إيران تحت أقدام العراق ، وإسرائيل تحت التهديد ، وسيكون صدام أهم شخصية في الخليج الفارسي» .

قال برنت سكوكروفت ، مستشار الرئيس للأمن القومي : «علينا أن نحصل على جواب . وإرضاء صدام ليس خياراً» . وأضاف تشيني : «لا نستطيع فصل الكويت عن العربية السعودية . حينما يجتاز العراقيون الحدود السعودية سيكونون على بعد أربعين كيلومتراً من حقول النفط . ولدينا هنا احتمال قيام حرب كبرى» . وقال لاري ايجلبرغر Larry Eagleberger نائب وزير الخارجية الذي حل محل جيمس بيكر في هذا الاجتماع : «علينا أن نذهب إلى الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة الذي يفوضنا باستعمال القوة العسكرية والعقوبات الاقتصادية» . قال الرئيس بوش : «كنت على اتصال مع القادة العرب . تحدث إلي الرئيس مبارك في مصر ، والملك حسين في الأردن ، والملك فهد في العربية السعودية . ما زالوا يقولون لي إن بإمكانهم إيجاد حل عربي . . . ولكن مهما نعمل علينا أن نجمع المجتمع الدولي وراءنا» . عرض باول خطة شوارتزكوبف للدفاع عن العربية السعودية ، ووصف القوات التي بالإمكان نقلها إلى الخليج بسرعة . وقال : «كنت متأكداً بأن العراقيين لم يقرروا بعد غزو العربية السعودية . وكنت واثقاً من أنهم لن يغامروا بحرب مع الولايات المتحدة . وقلت : ولكن من المهم رفع العلم الأمريكي في الصحراء السعودية بأسرع وقت ممكن . لا نريد أن يؤدي تراخينا إلى تشجيع صدام على مزيد من العدوان» . وقد أيده في موقفه هذا تشيني وإيجلبرغر ، وكان سكوكروفت قد اتخذ هذا الموقف في الساعات الأولى من الغزو . قال الرئيس بوش : «نحن ملتزمون نحو العربية السعودية» .

يعتقد باول أنه ارتكب خطأ في هذا الاجتماع حينما سأل : هل من الأهمية خوض حرب من أجل تحرير الكويت؟ يقول في هذا الصدد : «كان سؤالاً حول الغاية من الحرب ، طرحته حتى يعرف العسكريون ما هي الاستعدادات التي سيقومون بها . اكتشفت استغراباً من الحضور . كان السؤال سابقاً لأوانه ، وما كان يجب أن يصدر عني . تجاوزته . . . كان من المفروض أن أقدم مشورة عسكرية فقط» .

في آخر ذلك النهار اتصل الرئيس بوش وسكوكروفت بالأمير بندر ، سفير

العربية السعودية في الولايات المتحدة . أرادوا أن يدرك بندر الخطر والتهديد اللذين يواجهان بلاده ، وأن يعرف أن الولايات المتحدة مستعدة للمساعدة . وبناء على اتصال سكوكروفت دعا تشيني بندر إلى البنتاجون لإعطائه «قدراً آخر من الحقيقة» . وعند وصوله إلى مكتب تشيني قام بندر بدور الطيار المقاتل المتأمرك المرح بشرب القهوة مع الرغوة بكاس ، وحركها بقلم ذهبي . يقول باول «كنا نناديه عادة : بندر الفخيم Bander the Magnificent ، أو العربي بمسدس على جنبه Arab Gatsby بينما كان يناديني Milord» أما ذلك النهار فقد تجنب الجميع المزاح . وأطلع بندر على صور الأقمار الصناعية للقوات العراقية على الحدود السعودية ، نظر إليها بندر والسيجار بين أسنانه . لم يقل شيئاً . قال تشيني : «نحن مستعدون لمساعدتكم في الدفاع عن أنفسكم» .

يقول باول : «نظر إلينا بندر نظرة ملؤها الشك والريبة وقال : «مثلما فعل جيمي كارتر؟» كان يشير إلى أزمة سابقة ساعد جيمي كارتر العربية السعودية بطائرات F-15 مجردة من السلاح . رد تشيني بتوجيه الحديث إلى باول : «قل للأمير بندر ما نحن على استعداد لفعله» . بدأ باول ، بالقول : «سنبدأ بإرسال الجناح المقاتل التكتيكي الأول من سلاحنا الجوي ، والفرقة (٨٢) المحمولة جواً ، وحاملة الطائرات . وسنواصل إرسال الوحدات العسكرية» . وسأل بندر : «ماذا سيضيف ذلك؟» قال باول : «سنرسل حوالي مئة ألف جندي كبداية» . قال بندر : «أرى أنكم جديون» . قال تشيني : «نقترح أن تحث الملك فهد على قبول عرضنا لحماية المملكة» . غادر بندر البنتاجون مؤكداً لتشيني وباول بأنه في طريقه إلى الرياض لينقل ما اقترحاه .

بعد مغادرة بندر ، تذكر تشيني ما حدث في الاجتماع السابق لمجلس الأمن القومي ، وقال لباول : «أنت رئيس هيئة الأركان المشتركة ، أنت لست وزير الخارجية ، ولم تعد مستشاراً للأمن القومي ، ولست وزير الدفاع ، لذلك تمسك بالشؤون العسكرية» . وعرض عليه أخذ إجازة . عندها قال باول له إنه أسف على ما قاله بصراحة في البيت الأبيض ، وإن غايته كانت إعطاء العسكريين أهدافاً واضحة .

عقد اجتماع ثالث لمجلس الأمن القومي في منتجع كامب ديفيد . وكان الموضوع الرئيسي فيه إيجاز الجنرال شوارتزكوبف عما يمكن عمله للدفاع عن العربية السعودية ، ومقدار القوات التي يحتاجها هذا الدفاع ، ونشر هذه القوات وتسليحها والاستراتيجية الجوية . ولما انتهى شوارتزكوبف من إيجازه عن العربية السعودية ،

أضاف : «والآن إذا أردت طرد العراقيين واستعادة الكويت ، فذلك يحتاج بعض الوقت» . ثم عرض الحاجة في البداية لمئة ألف جندي ، وقدم جدولاً زمنياً تتراوح مدته بين ثمانية أشهر وسنة .

الرئيس بوش يعلن اللجوء إلى القوة منذ بداية الغزو العراقي للكويت

كتب كولن باول في مذكراته : «بينما كان تشيني وشوارتزكوبف في طريقهما إلى جدة في العربية السعودية لحث الملك فهد على قبول عرضنا للمساعدة ، كنت في مكتبي الصغير أشاهد تلفزيون CNN الذي يبث نزول الرئيس بوش من طائرته العمودية على مرج البيت الأبيض عائداً من كامب ديفيد . كانت أمامه مجموعة من الميكروفونات . اقترب الرئيس منها ، بينما كان مراسلو الصحف ووسائل الإعلام الأخرى يسألون سؤالاً واحداً : هل سيتخذ عملاً عسكرياً؟ تجهم وجه الرئيس ورفع إصبعه مهدداً وقال : «لن يصمد هذا ، هذا لن يصمد ، هذا العدوان على الكويت» . تساءل باول : من «نحن لن نبحث التدخل» إلى «لن يصمد هذا» خطوة عملاقة . فهل ألزم الرئيس الولايات المتحدة بتحرير الكويت؟ هل كان قصده أن يتم التحرير بالوسائل الدبلوماسية والضغط الاقتصادي أو القوة؟ وهل هناك خيار أخير مفاجئ يصبح خيار النهاية؟» ربما تأثر الرئيس بما لديه من موارد وقوات عسكرية أو أنه تأثر بأفكار رئيسة وزراء بريطانيا مارغريت تاتشر .

في الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر يوم الاثنين ١٩٩٠/٨/٦ اتصل ديك تشيني من جدة بباول ، وقال له بأنه قد غادر على التو من لقائه بالملك فهد ، وقد حصل على موافقته ، وأبلغ الرئيس بوش بذلك . وأمره بصفته وزيراً للدفاع بالبدء بإصدار الأوامر لنقل القوات المسلحة الأمريكية إلى العربية السعودية . كان مشروعاً مرعباً ، إنه إطلاق العنان للجبروت العسكري الأمريكي ، على حد تعبير كولن باول .

تم تجهيز الفرقة (٨٢) المحمولة جواً والموجودة في Fort Bragg في شمال كارولينا ، والفيلق الثالث في أتلنتا ، وجناح الطائرات المقاتلة التكتيكية الأول في القاعدة الجوية لانجلي Langley في فيرجينيا . ولكن لن يتحرك أي مظلي إلا إذا نقل جواً بواسطة قيادة النقل الجوي العسكري The Military Airlift Command ، والنقل الاتحادي السريع للقوات المسلحة The Armed Forces Federal Express ، تتألف قيادة النقل الجوي العسكري من نظام بري وبحري وجوي واسع يسمى

TRANSCOM . ومقر هذه القيادة في القاعدة الجوية سكوت Scott في ولاية إلينوي ، ويتولى قيادتها الجنرال هـ .ت . جونسون H.T. Johnson . وقام باول بنقل أمر وزير الدفاع إلى القوة الجوية (٢١) في قاعدة ماك غوير MC Guire الجوية في ولاية نيوجيرزي ، والقوة الجوية (٢٢) في قاعدة ترافيس Travis الجوية في ولاية كاليفورنيا .

كان حوالي ٨٠٪ من طائرات قيادة النقل الجوي العسكرية في طريقها إلى تنفيذ أوامر باول . وفي قاعدة سكوت الجوية توجد شاشة كبيرة جداً مربوطة بكمبيوتر تظهر عليها كل طائرات النقل الجوي العسكري ، ومقدار حمولة كل طائرة ووقودها وصيانتها ، وأسماء طاقمها ، وما تبقى لها من وقت للطيران ولكل فرد من أفراد طاقمها قبل أن يستريح ويحل محله فرد آخر . ووفقاً للأوامر بدأ ما يربو على (١٦) ألف مظلي من الفرقة (٨٢) المحمولة جواً بالصعود إلى طائرات C-141 مع الذخيرة الكافية وقطع الغيار وأجهزة الصيانة لجناح كامل من (٧٢) طائرة مقاتلة ستحملها طائرات C-5 العملاقة . وبدأت الطائرات المزودة للوقود جواً بالطيران لتزويد طائرت F-15 المتجهة نحو الخليج الفارسي . إن أسطولاً ضخماً من الطائرات ملأ سماء المحيط الأطلسي متجهاً إلى الخليج تحميه طائرات في عملية سرية مضمونة .

صدر الأمر إلى قيادة النقل الجوي العسكري الساعة ٨,٤٥ من مساء ٦ آب ١٩٩٠ . وفي الساعة ٩,٤٥ من صباح اليوم التالي انطلقت أول طائرة نقل من نوع C-141 من القاعدة الجوية في تشارلستون Charlston في ولاية جنوب كارولينا .

علمت القيادة العسكرية العليا للقوات الأمريكية من وكالة الاستخبارات المركزية أن لدى العراقيين ألف طن من السموم الكيمياوية ، وأنهم استعملوا غاز الخردل وغازات الأعصاب في حربهم ضد إيران ، وضد الأقلية الكردية المتمردة سنة ١٩٨٨. وكان بالإمكان تدبر السلاح الكيمياوي بالملابس الواقية وأنظمة كشف وتنبيه . أما الأسلحة البيولوجية فمسألة أكثر إزعاجاً ، وقد اتخذت التدابير اللازمة لمواجهة الأسلحة الأولى .

أعطى باول أمره إلى الكولونيل تيم لوري Tim Laurie ، رئيس قسم العمليات المشتركة في هيئة الأركان المشتركة ، مساء يوم ١٤ آب : «انتبه ، أنا لست ذاهباً لإيجاز جنرالات ، سوف أتحدث إلى قادة سياسيين ولذا اجعلها بسيطة . لا أريد مجموعة من الخرائط ، أريد خارطة واحدة» .

وكان باول قد ذهب إلى مقر القيادة المركزية في تامبا لمقابلة شوارتزكوبف . كان الأخير قلقاً ، كما يقول باول ، لأنه يود معرفة الهدف من هذه العملية العسكرية الضخمة . وفي يوم ١٥ آب ١٩٩٠ جاء الرئيس بوش إلى البنتاجون ليستمع إلى إيجاز من رؤساء الأركان وإلقاء خطاب فيهم . كان لدى باول خمس عشرة دقيقة بين نهاية إيجاز رؤساء الأركان وخطاب الرئيس بوش . ورتب تشيني اجتماعاً في مكتبه حضره الرئيس بوش وتشيني وسكوكروفت وجون سنونو وباول .

في هذا الاجتماع قال باول : «السيد الرئيس ، دعني أقول لك كيف يتم الحشد العسكري حالياً . أشرت إلى اليوم آنذاك على الخريطة ، وبينت أنه من هذه اللحظة لدينا (٣٠) ألف جندي في العربية السعودية . مهمتنا الحالية الردع والدفاع عن العربية السعودية . وخلال أسبوعين سنكمل الحشد الرادع . يجب أن تكون لدينا قوة كافية لردع صدام عن الهجوم ، إذا كان هذا كل ما يدور في ذهننا ، وبينما تحتشد القوات والتجهيزات ، سوف ننتقل من الردع إلى المرحلة الدفاعية بدءاً من أيلول . ومع ٥ كانون الأول سيكون لدينا (١٨٤) ألف جندي هناك ، ولا شك بأننا سنكون قادرين على الدفاع عن العربية السعودية» .

وقد بيّن باول للرئيس بوش أن تكاليف عملية الحشد ستبلغ (١,٢) مليار دولار حتى ٣٠ أيلول ، ومليار دولار كل شهر بعد ذلك . وإذا تواصل الحشد على هذا المستوى سوف تضطر هيئة الأركان المشتركة لدعوة الجنود والضباط الاحتياط . وقال باول للرئيس : «سيدي ، إن دعوة الاحتياط تعني سحب الناس من وظائفهم ، ويؤثر على الأعمال ، ويعني الأسر . إنه قرار سياسي رئيسي» .

وكان مجلس الأمن الدولي قد اتخذ قراراً قبل ذلك بستة أيام بحظر التجارة مع العراق . وقد دفع هذا القرار باول إلى القول : «إذا كان هدفك فقط الدفاع عن العربية السعودية والاعتماد على العقوبات للضغط على صدام حسين للانسحاب من الكويت ، فيجب علينا تجاوز تدفق القوات ربما إلى تشرين الأول . ونحتاج إلى شهر تقريباً لتنظيف أنابيب النفط ، ويتم جمع (١٨٤) ألف جندي مع مطلع كانون الأول . وقد نحتاج إلى عملية تدوير القوات المسلحة كل ستة أشهر مرة . لدينا شهران لتقدير أثر العقوبات» . هز الرئيس بوش رأسه وقال : «لا أعرف إذا كانت العقوبات سيكون لها مفعول في إطار زمني مقبول» .

كان باول يسعى إلى معرفة بماذا يفكر الرئيس بوش حتى يكيف خططه

العسكرية وفق الأهداف التي يفكر فيها الرئيس . هل الهدف فقط الدفاع عن العربية السعودية؟ أم تحرير الكويت؟ وهل الهدف تحرير الكويت فقط؟ وهل يفكر بوش بإخراج صدام من الكويت ، وهو يرفض التفاوض معه أو الاعتماد على العقوبات وحدها؟ وهل الهدف تدمير قدرة العراق العسكرية؟ كل خيار من هذه الخيارات يحتاج إلى مستوى معين من القوات العسكرية ومدة زمنية معينة .

قال باول في مذكراته : «كنت أقول لنفسي : هل نريد أن نذهب إلى ما وراء الكويت إلى بغداد؟ هل نحاول إكراه صدام على التخلي عن السلطة؟ إلى أي مستوى من الضعف نريد أن نترك العراق؟ وهل بالضرورة نترك منطقة الخليج تحت هيمنة إيران أو سوريا؟»

بعد الايجاز خرج الرئيس بوش إلى مدخل البنتاجون المطل على النهر وحدد هدفه بقوله : «الانسحاب الفوري والكامل وغير المشروط لكل القوات العراقية من الكويت ، وإعادة حكومة الكويت الشرعية» . كان باول وشوارتزكوبف إلى جانب الرئيس ، نظر كل منهما في عيني الآخر وقال باول : يبدو أن الرئيس لا يرغب في الانتظار طويلاً حتى تأخذ العقوبات مداها .

كولن باول يرى أن العراق لن يهاجم العربية السعودية

في ٧ آب ١٩٩٠ سافر ديك تشيني إلى الرياض لمزيد من المشاورات مع القيادة السعودية . وبينما كان في طائرته بوينغ (707) فوق المحيط الأطلسي اتصل هاتفياً بباول وقال له : «كولن ، لدينا عدد قليل من المظليين هناك وجناح من سلاح الجو» . رد باول : «أعرف ، ولكن تدفق القوات مستمر» قال تشيني : افترض أن كل ما نفعله قد يثير صدام ويدفعه إلى غزو السعوديين ، ألا يوجد أي شيء باستطاعتنا عمله» . كان تشيني بحاجة إلى تطمين . قال له باول : «ديك ، تذكرّ ما قلته سابقاً . إن صدام لا يحب أن يحارب الولايات المتحدة ، أنا متأكد من ذلك ، ولهذا علينا أن نأتي بهذه القوات إلى هناك . هذا هو الردع الحقيقي : رفع العلم الأمريكي في الصحراء» قال تشيني ثانية : « ولكن إذا تحرك صدام لا نستطيع حماية العربية السعودية» . رد باول : «ليس حتى الآن على الأقل . ولو أرادو غزو السعودية لكان بإمكانهم فعل ذلك حتى الآن» .

فكرت هيئة رؤساء الأركان المشتركة وهيئة أركان القيادة المركزية بتسمية العملية

العسكرية الأمريكية في الخليج . فاقترح «درع الجزيرة Peninsula Shield» ولكن الاسم بدا لهم بشعاً ، كما يقول باول ، واقترح اسم «درع الهلال Crescent Shield» فبدا لهم عربياً جداً . وأخيراً اتفقوا على اسم «درع الصحراء Operation Desert Shield» التي وافق عليها وزير الدفاع تشيني . ولما تطورت العملية من الدفاع عن العربية السعودية إلى تحرير الكويت سموها «عاصفة الصحراء Desert Storm» باقتراح من شوارتزكوبف .

بعد أن اتخذ شوارتزكوبف قيادته في مبنى وزارة الدفاع السعودية في الرياض ، قضى أيامه يكافح للتغلب على المشاكل الناجمة عن تعيين مواقع القوات من أجل الدفاع عن المملكة .

مع مطلع أيلول ۱۹۹۰ كان الحشد العسكري قد بدأ يصل إلى مستويات ضخمة . وفوض الرئيس بدعوة نحو مئتي ألف جندي احتياطي وحرس وطني ومتطوعين . أربع مجموعات من حاملات الطائرات ستصل قريباً تدعمها بوارج حربية وغواصات تحمل صواريخ كروز ، وسفن النقل تم تنشيطها . مئات الطائرات المقاتلة والقاذفة ، وحاملات الشحن أحاطت بشبه الجزيرة العربية تبحث عن أماكن لإنزال ما عليها أو للهبوط . كان لا بد من بناء قواعد ضخمة في العربية السعودية لاستقبال هذا الطوفان من القوات والتجهيزات .

في هذه المرحلة الأولية لم تكن القيادة العسكرية تعرف إذا كان الرئيس بوش سيفي بوعده باللجوء إلى الحرب .

يقول باول : «كنا بحاجة إلى خطة جوية لإخراج صدام من الكويت» . طلب من شوارتزكوبف والكولونيل جون واردن John Warden قائد الحملة الجوية في الخليج توسيع خطتهما الاستراتيجية لتشمل ضربات تكتيكية ضد الجيش العراقي المنتشر في الكويت . وتولى هذه المهمة واردن والللفتننانت جنرال تشوك هورنر Chuck Horner ، قائد القوات الجوية لدى شوارتزكوبف ، ومساعد هورنر البريجيدير بستر غلوسون Buster Glosson . فأجروا التعديلات المطلوبة .

زار باول الرياض في ۱۹۹۰/۹/۱۲. وكان قد مضى على وجود شوارتزكوبف فيها أسبوعان ، وقام باول بجولة سريعة على فرقة المشاة (٢٤) ، والجناح المقاتل التكتيكي الأول ، والحملة من مشاة البحرية الأولى ، والبارجة الأمريكية بلوبريدج Blue Bridge وهي سفينة قيادة وسيطرة ، والبارجة الحربية وسكونسن Wisconsin . يقول باول

تعليقاً على الزيارة : «كانت معنويات القوات مرتفعة ، ولكن الصحراء عالم كئيب موحش ، ناهيكم عن القيود الإسلامية المفروضة على الجنود القادمين من عالم غربي . لقد حذرني الأمير بندر «لا أناجيل ، إن موظفي الجمارك السعوديين سوف يصادرونها . واتفقنا على نقل الأناجيل مباشرة إلى قواعدنا الجوية . ثم أخبرني بندر بعدم قيام صلوات على الأرض العربية لقواتنا من اليهود . قلت له : يموتون دفاعاً عن بلادكم ولا تدعونهم يصلون فيها؟ أجاب : كن عاقلاً يا كولن ، سوف تنقل من قبل CNN وماذا سيظن شعبنا؟ وجدنا حلاً عملياً . خططنا لنقل الجنود اليهود إلى سفن أمريكية في الخليج يقيمون صلواتهم على ظهرها . وأبدى بندر قلقه من الصلبان . قلت له إن جنودنا سيؤمرون بوضعها داخل قمصانهم وليس فوقها . ولكن ماذا عن النساء الأمريكيات بأذرعهن العارية وقمصان (T) وقيادتهن للسيارات؟ لا حدّ للحساسيات العربية . لقد أحدثت قواتنا ثورة اجتماعية صغرى لما رأت السعوديات الأمريكيات يقدن السيارات . ولما قلدناهن اعتقلتهن السلطات السعودية لمخالفتهن الشريعة الإسلامية» . وأبرمت اتفاقاً مع بندر : «إذا حصلت أية علاقة جنسية بين أمريكي وسعودي ينقل الأمريكي إلى خارج البلاد» . يقول باول إن جنودهم أبدوا انضباطاً جيداً ، ويعزو ذلك إلى عدم تزويد هذه القوات بالمشروبات الكحولية .

لم يقتصر الحشد العسكري على القوات الأمريكية ، وإنما شاركت (٢٨) دولة في قوات الائتلاف ، منها معظم البلاد العربية ، ولا سيما دول الخليج العربية وبريطانيا وإيطاليا وفرنسا وكندا . وكان أعظم إنجازات شوارتزكوبف قدرته الاستثنائية على قيادة هذه الجيوش المتباينة في قوة محاربة واحدة .

عاد باول من رحلته إلى الشرق الأوسط إلى واشنطن في ١٩٩٠/٩/١٥ ، وفي صباح اليوم التالي فوجئ بما نشرته صحيفة واشنطن بوست Washington Post بعنوان : الولايات المتحدة تعتمد على الضربات الجوية إذا اندلعت الحرب «U.S. to Rely on Air Strikes if War Erupts» مصدر الصحيفة هو الجنرال مايكل دوغان Michael Dugan الذي حل محل لاري ولش Larry Welch كرئيس لأركان القوات المسلحة قبل ثلاثة أشهر . وكان دوغان قد عاد على التو من رحلة إلى العربية السعودية ، وتعامل مع الصحف دون حذر في تصريحاته . قال دوغان في تصريحاته للصحيفة : «إن القوة الجوية هي الرد الوحيد المتاح لبلادنا . وإن الاسرائيليين نصحوه بأن الطريق الأفضل لإيذاء صدام هي ضرب أسرته وحرسه الشخصي وعشيقاته» .

المهم في تصريحات دوغان القول إن العراقيين عدو يسهل التغلب عليه ، وإن القادة الأمريكيين يتلقون نصائحهم من الإسرائيليين ، وهذه فكرة قاتلة للتحالف العربي الذي كانت القيادة الأمريكية تسعى إلى إقامته .

لما قرأ تشيني ما جاء في الصحيفة المذكورة غضب كثيراً ، وأبلغ سكوكروفت بذلك . وفي اليوم التالي أعفى تشيني دوغان من منصبه بعد أن حصل على موافقة الرئيس بوش على ذلك .

يقول باول : «في ١٩٩٠/٩/٢٤ ذهبت إلى مكتب ديك تشيني ، وقلت له : «ديك ، أصبح الرئيس قليل الصبر ، فهو يسأل دوماً إذا لم يكن بالإمكان إخراج العراقيين من الكويت بالضربات الجوية . قال تشيني : نعم ، هو قلق لأن الوقت يمضي بسرعة . . وكنت قلت له في ١٥ آب أن عليه أن ينتظر بعض الوقت حتى تشرين الأول ليقرر استمرار العقوبات أو الحرب . كان جورج بوش قد استثمر رأس ماله السياسي الضخم في درع الصحراء . توقفت إدارته تقريباً على الصعيد المحلي ، بينما ابتلع الخليج كل اهتمامه . لم يعتقد أن باستطاعته الحفاظ على الائتلاف الدولي متماسكاً إلى ما لانهاية» .

قال باول لتشيني : «أنت تعرف كيف أشعر أنا وشوارتزكوبف والأركان . يجب أن لا نذهب إلى الحرب قبل أن نحصل على قوة كافية تضمن النصر . وهذا يأخذ وقتاً» سأله تشيني : ماذا تريد أن تفعل؟ أجاب : سياستنا حتى الآن هي الأمل في أن يكون للعقوبات أثرها ، وعلى الرئيس في الشهر القادم أن يقرر إذا كانت العقوبات ستستمر أو مواصلة الحشد للذهاب إلى الحرب .

قال تشيني : «الرئيس حاضر بعد ظهر هذا اليوم ، سنذهب إليه ، وبإمكانك عرض ما لديك عليه» . ذهب الاثنان إلى الرئيس بوش وكان عنده سكوكروفت وسنونو . قال تشيني : «السيد الرئيس ، رئيس هيئة الأركان المشتركة لديه بعض الأفكار يود أن يقولها لك» . هز الرئيس رأسه لدفع باول إلى الكلام . قال باول : «سيدي ، ما زال لديك خياران أساسيان : الأول هو الخيار الهجومي . وتحدث بالتفصيل عن الحشد والخيار الجوي . وأضاف : مازلت أوصي أن نستمر بالإعداد لحملة كاملة على المستويات الجوية والبرية والبحرية . إذا قررت أن تختار ذلك السبيل في تشرين الأول ، سنكون مستعدين لشن شيء ما في كانون الثاني ١٩٩١» . ولكن ما زال هناك الخيار الآخر : العقوبات . وقد وصف باول كيف يمكن الحفاظ على الوضع

الدفاعي في العربية السعودية بينما تأخذ العقوبات مداها . وقال : «حتى ولو قمنا بحشد لقوة هجومية باستطاعتنا دوماً الرجوع إلى المستوى الدفاعي . احتواء العراق بعدوان أخر من خلال إستراتيجيتنا الدفاعية وخنقه لإجباره على الانسحاب من خلال العقوبات يبقى خياراً حياً» . العقوبات تبقي المبادرة بيد العراقيين لتقرير متى يشعرون بأثرها . وقد علّمنا التاريخ أن العقوبات تحتاج إلى وقت لتأخذ مفعولها . لم أكن داعية لأي خيار : الحرب أو العقوبات في ذلك اليوم . وإنما اعتقدت ببساطة أن الخيارين لا بد من إعادة النظر فيهما بالتفصيل وبعدالة» .

ولما انتهى باول من عرضه شكره الرئيس وقال : هذا مفيد ومهم جداً ، ومن الأفضل النظر في كل الزوايا . ولكني لا أعتقد بأن لدينا الوقت لكي تأخذ العقوبات مفعولها . وانتهى الاجتماع .

تعديل خطة عاصفة الصحراء

يقول كولن باول في مذكراته إنه استقبل في الأول من تشرين الأول ١٩٩٠ رئيس هيئة الأركان السوفياتية الجنرال ميخائيل مويسييف Mikhail Moiseyev وزوجته كالينا يوسفوفنا Calina Iosifovna ، في أوج عملية الحشد لعملية درع الصحراء . ورافقه في زيارته لقاعدة إيلورث Ellworth الجوية في شمال ولاية داكوتا ليرى صاروخاً موجهاً إلى بلاده . ثم أخذه إلى الموقع السري لقيادة الدفاع الجوي الأمريكي الشمالية North American Air Defence Command في ولاية كولورادو ، موضحاً له كيفية مراقبة صواريخ بلاده . كان الهدف من الزيارة بناء تنسيق جديد مع السوفيات وإقامة علاقة شخصية لقاء تعاونهم في أزمة الخليج . أراد باول أن «يتعرف الجنرال السوفياتي على أمريكا ، وأن يشعر بها ويلمسها ويعرف القوة الحقيقية لمجتمعها الحر» .

في ٦ تشرين الأول اتصل باول بنورمان شوارتزكوبف في الرياض ، وطلب منه إرسال فريق عسكري إلى واشنطن لتقديم إيجاز للرئيس بوش عن الاستراتيجية الهجومية التي ستنفذ لإخراج العراقيين من الكويت . رفض نورمان تلبية الطلب ، وقال : «ليس لدي خطة هجومية ، لأنه ليس لدي قوات برية» . كان لديه فيلق واحد فقط ، أي أربع فرق من الجيش ، وفرقة من مشاة البحرية ، وكتيبة فرسان مدرعة ، ولواء مدرع بريطاني ، ولواء خفيف فرنسي ، وقوة مصرية-سورية مختلطة ، وتشكيلة

من عناصر مختلفة . وكلها تقدر بنحو (٢٠٠) ألف جندي . وهذه تكفي فقط للدفاع عن العربية السعودية . ولكن ليس لديه ما يكفي لإخراج الجيش العراقي من الكويت الذي يقدر عدده بنصف مليون مقاتل .

كان باول بحاجة لإيجاز الرئيس عما يستطيع شوارتزكوبف عمله بما لديه من قوات . وكان قد أصر منذ البداية على حاجته إلى المزيد من القوات لينتقل إلى مرحلة الهجوم . وكان باول يريد أن يعرف حاجة شوارتزكوبف من القوات للمرحلة الجديدة . ولذلك قال له : «انتبه ، خطتك الجوية جيدة ، يحتاج البيت الأبيض إلى أن يقدم له إيجاز عنها ، وأحتاج أنا أن أعرض على القادة حال الخطة البرية حتى ولو لم تكن تامة» . بعث شوارتزكوبف على مضض فريقاً للإيجاز بقيادة الجنرال في مشاة البحرية بوب جونستون Bob Johnston ، رئيس أركانه . أراد باول أن يستمع وزير الدفاع والقادة العسكريون إلى هذا الايجاز .

تم الإيجاز بعد ظهر ١٠ تشرين الأول في البنتاجون ، حيث عرض جونستون الخطة كاملة ، ثم دعا البريجادير بستر غلوسون لتقديم الجانب الجوي منها . وشمل هذا الجانب دور الأسطول وسلاح الجو وطائرات الائتلاف وصواريخ كروز . أما الهدف فيمتد من المنشآت حول بغداد إلى الخنادق العراقية في الكويت ، وجميع خطوط التزويد والاتصالات . كانت الخطة ، في نظر باول ، «جريئة وفيها إبداع ومتينة» . لما انتهى غلوسون من إيجازه قدم اللفتنانت كولونيل جو بيرفيس Joe Purvis من معهد الدراسات العسكرية المتقدمة في ليفينورث Leavenworth ، إيجازاً عن الهجوم البري . كانت خطة هذا الهجوم تقوم على القوات المخصصة آنذاك فقط . واشتملت على ثلاث هجمات خادعة ، وعلى هجوم رئيسي . فمشاة البحرية سيقومون بهجوم خادع لإبقاء الفرق العراقية على طول الساحل الكويتي ، ويقوم مشاة البحرية بهجوم خادع ثان على طول الحدود بين العربية السعودية والكويت من الداخل إلى الساحل . وتشن القوات المتعددة الجنسيات هجوماً خادعاً ثالثاً على الطرف الغربي من الحدود الكويتية-السعودية . أما الهجوم الرئيسي من جميع الفرق الأمريكية في الوسط فسيكون باتجاه الدفاعات العراقية الرئيسية ، من أجل الوصول إلى مفترق الطرق الرئيسي شمال مدينة الكويت .

يرى باول أن شوارتزكوبف كان على حق في اعتبار هذه الخطة البرية ضعيفة ، وأنه لا يرغب في عرضها في واشنطن . وطلب فرقتين اثنتين أخريين ، ومقرات

الفيالق . ويذكر باول أن تشيني لم يكن سعيداً بما سمع من إيجاز . وفي نقاش مع هيئة الأركان تكوّن رأي بضرورة إعداد خطة أفضل للهجوم البري . وفي اليوم التالي قدم الجنرال جونستون الإيجاز نفسه للرئيس بوش «وعصابة الثمانية The Gang of Eight» (الرئيس بوش ، ونائبه كويل Quayle ، وجيمس بيكر ، وجون سنونو ، وبرنت سكوكروفت ، وبوب غيتس وديك تشيني وكولن باول) . أثارت الخطة الجوية إعجاب الجميع . وبيّن باول اعتراض شوارتزكوبف على خطة الحرب البرية ، ووعد الرئيس بوضع خطة أفضل .

اتصل باول بشوارتزكوبف في ١٩٩٠/١٠/١٢ وأبلغه بما جرى في الإيجاز ، ورضى الجميع عن خطة الهجوم الجوي ، وضرورة تعديل خطة الهجوم البري . طلب تشيني من باول معرفة العدد الأعلى اللازم للحرب البرية وموعد بدء الهجوم الجوي ، ومراجعة الخطة الحربية كلها بالتفصيل ، ودراسة الخيار النووي . طلب باول من الجنرال توم كيلي إعداد خطة لضربة نووية . أعد تقريراً في هذا الصدد تضمن استعمال عدد من القنابل النووية التكتيكية لتدمير فرقة مدرعة واحدة في الصحراء . ولذا استبعد اللجوء إلى السلاح النووي .

سافر باول إلى العربية السعودية ، والتقى يوم ١٩٩٠/١٠/٢٢ ، في غرفة حرب شوارتزكوبف في الطابق الخامس تحت الأرض من وزارة الدفاع السعودية . وضم الاجتماع الجنرال شوارتزكوبف واللفتنانت جنرال جون يوسوك John Yeosock قائد الجيش ، واللفتنانت جنرال والت بومر Walt Boomer قائد مشاة البحرية ، والأميرال ستان آرثر Stan Arthur قائد الأسطول ، واللفتنانت جنرال تشوك هورنر Chuck Horner قائد القوات الجوية ، واللفتنانت جنرال كال ولر Cal Waller نائب القائد العام في القيادة المركزية . تناول المجتمعون خطة الهجوم البري بفيلق واحد واستبعدوها . ثم قدمت خطة هجوم بفيلقين تأخذ في الاعتبار تفوق القوات المدرعة الأمريكية ، واستعمال الطائرات العمودية في الفرقة (١٠١) المحمولة جواً . وقد اتضح في هذه الخطة الإفادة من الجناح الغربي المكشوف للقوات العراقية . ومع ذلك طلب باول وضع خطة أفضل من هذه .

في المساء المتأخر من ذلك اليوم ، جاء شوارتزكوبف إلى القصر السعودي الذي كان يقيم فيه كولن باول . وبحث الاثنان وضع الجيش العراقي في الكويت . فتحصينات هذا الجيش تمتد في الجنوب وإلى شرقه البحر . وبذلك وضع نفسه في

فخ . ودار الحديث حول ضرب الجيش العراقي من الغرب والشمال لقطع خطوط إسناده . وقال باول : «باستطاعتنا استعمال فيالق مدرعة ثقيلة للانطلاق بسرعة في العمق حول الجناح العراقي الغربي . وباستطاعتنا إرسال الفيلق الثامن عشر المحمول جواً إلى الغرب ، بعيداً ثم شمالاً لمحاصرة القوات العراقية في وادي نهر الفرات ، وقطع خطوط إسنادها . وأضاف : «كانت الخطة التي وضعناها لا عبقرية فيها . والواقع أن وضع القوات العراقية هو الذي رسمها لنا عملياً» .

والتقى الفريق نفسه في صباح اليوم التالي في مقر قيادة شوارتزكوبف ؛ لتطوير الأفكار التي بحثت في الليلة الماضية . كرر شوارتزكوبف طلب جلب فيلق من فرقتين من القوات الأمريكية في أوروبا . وافق باول على ذلك ، واقترح أيضاً إضافة فرقة ثالثة من الولايات المتحدة ، وفرقة مشاة بحرية أيضاً ، بالإضافة إلى ست حاملات طائرات . وأكد لشوارتزكوبف أنه والرئيس بوش ووزير الدفاع تشيني سوف يعطونه ما يحتاجه للقيام بمهمته على خير وجه . عليه أن لا يقلق ، ولن يقوم بأي عمل إلا إذا كان جاهزاً له .

عاد باول إلى واشنطن وهو يشعر بأن الوضع أفضل مما كان عليه قبل أسابيع . وفي الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر يوم ١٩٩٠/١٠/٣٠ ، دعا الرئيس بوش عصابة الثمانية باستثناء نائبه كويل . كان الغرض من الاجتماع تحديد الأهداف القادمة للقوات الأمريكية في الخليج . بدأ سكوكروفت بالقول : «نحن أمام مفترق طرق ، إذا أخذنا طريق إخراج الجيش العراقي فإن ذلك يثير سؤالاً حساساً : هل سنحاول الحصول على قرار من مجلس الأمن يفوضنا باستعمال القوة؟ وإذا لم نستطع الحصول عليه ، فهل نحن مستعدون للذهاب وحدنا إلى الحرب مع بقية حلفائنا الراغبين؟» كان جيمس بيكر على وشك القيام بجولة في أوروبا . وقد بحث المجتمعون مقدار المساعدة العسكرية والمالية التي يستطيع الحصول عليها من أصدقاء الولايات المتحدة . ثم انتقلوا إلى بحث الحاجة الماسة جداً لإبقاء إسرائيل خارج القتال . إذا أرادوا تماسك الدول العربية ضد شقيق ضال فالشيء الوحيد الذي لا يتسامحون به هو القتال إلى جانب الإسرائيليين . قال الرئيس بوش : «حسناً ، دعنا نسمع ما سيقوله كولن» . قال باول : «عدت على التو من الرياض ، وبإمكاني أن أنقل إليكم أن المرحلة الأولى من المهمة هي على وشك الإنجاز . وسنكون قريباً جداً في وضع للدفاع عن العربية السعودية . مع مطلع كانون الأول سيكون كل جندي

وكل شيء في موضعه» . وواصل الحديث بالتفصيل عن موقع كل وحدة عسكرية . ثم قال : «وهنا كيف سنذهب إلى الهجوم لطرد العراقيين من الكويت؟» نهض الرئيس بوش إلى الأمام وأصغى باهتمام ، حينما وصف باول الحملة الجوية على العراق والكويت ، والهجوم البري على شكل خطّاف من اليسار ضد الجناح الغربي للقوات العراقية . ولما انتهى باول من عرضه للخطة الهجومية ، سأل سكوكروفت : ماحجم القوة التي نتكلم عنها؟ أجاب باول : «نحن نقترب من (٢٥٠) ألف جندي للمرحلة الدفاعية ، ولكن إذا اختار الرئيس المرحلة الهجومية فإننا نحتاج إلى أكثر من ذلك . سأل سكوكروفت ثانية : كم أكثر؟ أجاب باول : «تقريباً ضعف هذا العدد حوالي مئتي ألف جندي» . سأل سكروكروفت : متى؟ ثم سأل الرئيس : «كولن ، هل أنت متأكد أن هذا لا يكفي؟ أجاب باول : «سأكون أسعد عسكري في الجيش إذا انسحب العراقيون لما تبدأ القنابل بالسقوط . ولو فعلوا ذلك ، باستطاعتك أخذ النفقات على نشر القوات البرية من راتبي» .

بحث المجتمعون أيضاً إصدار إنذار لصدام حسين بالانسحاب قبل بدء الهجوم ، واقترح جيمس بيكر الأول من شباط ١٩٩١. قال باول : «إذا أصدرنا الإنذار فيجب أن نعني ذلك فعلاً ، علينا أن نكون مستعدين للذهاب إلى الحرب» . وافق الرئيس بوش على اقتراح بيكر ، وقال : «حسناً ، فلنفعلها ، لدينا قرار . سوف نذهب إلى الحرب في مدى ثلاثة أشهر إذا لم يكن للعقوبات مفعولها وبقي العراقيون في الكويت» .

التركيز في الإعلام الغربي على صدام حسين الشيطان

بعد الانتخابات النصفية للكونغرس الأمريكي ، التي أجريت في ١٩٩٠/١١/٨ ، أعلن الرئيس بوش أن مئتي ألف جندي امريكي في طريقهم إلى الخليج «لضمان أن الائتلاف لديه خيار عسكري هجومي مناسب» . وارتفعت موجة الاحتجاج في الكونغرس وعبر الولايات المتحدة كلها . وظهر الصقور والحمائم كما حدث في الستينات حول حرب فيتنام .

في ١٩٩٠/١١/٢٩ اتخذ مجلس الأمن الدولي القرار رقم (٦٧٨) الذي عين موعداً هو ١٩٩١/١/١٥ للجوء إلى القوة العسكرية لإخراج العراقيين من الكويت . ومع صدور هذا القرار تشكل ائتلاف دولي ، من خلال الاتصال الهاتفي من المكتب

البيضاوي في البيت الأبيض . شاركت في هذا الائتلاف حتى ذلك التاريخ (١٣) دولة من الدول الأعضاء في حلف شمال الأطلسي ، بما فيها بريطانيا وفرنسا ومعظم الدول العربية ، ومن الدول التي تحررت من النير السوفياتي : تشيكوسلوفاكيا وبولندا وبلغاريا ، ودول فقيرة مثل بنغلادش والسنغال والصومال وزائير . قدمت خمس وثلاثون دولة قواتها وأسلحتها وأموالها . بلغ عدد قواتها (٢٠٠) ألف جندي انتشرت إلى جانب القوات الأمريكية .

كان قرار مجلس الأمن الدولي واضحاً بأن المهمة هي تحرير الكويت . ولكن ماذا عن مستقبل العراق؟ يقول باول : «لا ترغب العربية السعودية في نظام حكم شيعي يفصل العراق في الجنوب . ولا يرغب الأتراك في نظام حكم كردي يفصل العراق في الشمال . . . ولم يكن في نيتنا ، خلال اجتماعاتنا ، تمزيق العراق وتفكيكه أو فتح بغداد أو تغيير نظام الحكم العراقي . . كنا بالطبع نتمنى أن لا يستمر صدام في الحكم . ولكن القضاء عليه لم يكن هدفاً مقرراً . ما أملناه بصراحة في فترة ما بعد حرب الخليج هو عراق بلا صدام» .

يقول باول : «دهشت من موقف صدام ، في ضوء القوات المنتشرة ضده ، والذي لا يقارن بالغزو الأمريكي لأوروبا في الحرب العالمية الثانية . فهو لم يتزحزح عن موقفه . تجاوز العقوبات ومداها والحشد الدفاعي ومداه ، والحشد الهجومي ومداه ، والتفويض من الأمم المتحدة باستعمال القوة ومداه . وما زال فاتحاً الطريق إلى الكارثة . كان عليه أن يعرف أنه سيخسر . ولكنه كان يعتقد أنه ما دام في السلطة فهو مستعد لدفع الثمن لمغامرته في الكويت بدماء العراقيين» .

هاجم الرئيس بوش صدام حسين واعتبره شيطاناً ، مثلما فعل بمانويل نورييغا Manuel Noriega ، وقال : «نحن نتعامل مع هتلر جديد» ، ووصف صدام «بطاغية لا تحركه العواطف الإنسانية» . لم تعجب هذه التصريحات كولن باول ، فاقترح على تشيني وسكوكروفت أن يخفف الرئيس من هجومه المفرط على صدام ، ليس لأن التهم غير صحيحة ، ولكن لأن الاتهام بالشيطنة تجعله غير مرتاح . وكان يفضل الهجوم على «نظام الحكم العراقي» أو «نظام صدام حسين» «فهدفنا ، كما يقول ، إخراج العراقيين من الكويت ليس إلا ، ولم يشمل إسقاط دكتاتورية صدام . وأعتقد أنه من غير الحكمة رفع التوقعات الشعبية بجعل الرجل شيطاناً ثم نتركه في موقعه» .

ويتناول باول نورمان شوارتزكوبف فيقول : «كان نورمان تحت الضغط بركاناً نشطاً ، يثور دوماً معي . وكانت ثورته صمام أمان لليأس . وكان معاونوه قد تلقوا الكثير منه ، ومع ذلك ظلوا مخلصين له . لاحظ ديك تشيني أثناء رحلته مع نورمان إلى العربية السعودية لإقناع الملك فهد بإنزال القوات الأمريكية في العربية السعودية ، أن ضابطاً برتبة ميجور يقف أمام الحمام في الطائرة ونورمان داخله . كما لاحظ أن كولونيلاً كان يكوي له بذلته . وكان يسأل باول عنه : «هل أنت واثق ثقة مطلقة بشوارتزكوبف؟» ، كان نورمان خشناً في معاملته مع معاونيه .

في يوم الاثنين ١٩٩٠/١٢/٣ ، قدم باول وتشيني شهادة عن عملية درع الصحراء أمام لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ الأمريكي . وكان رئيس اللجنة الشيخ سام نون Sam Nunn المعارض للحرب في الخليج ، قبل إعطاء العقوبات المدة الكافية لتأخذ مفعولها . قال باول في شهادته : «إن إعطاء العقوبات مداها يشبه الدخول في نفق لا نهاية له» . واستعرض التقدم في حشد قوات الائتلاف الدولي ، وامتدح ما قامت به القوات المسلحة الأمريكية . وقال : «إن لدى العراق أكبر رابع جيش في العالم ، وفي الكويت الآن (٤٥٠) ألف جندي عراقي و(٣٨٠) دبابة عراقية و(٢٥٠٠) مدفع عراقي ، وإن العراق وعد بإرسال (٢٥٠) ألف جندي إضافة إلى الموجود . ولديه ترسانة من الأسلحة البيولوجية وقدرة نووية» .

في بداية الحشد أعلن السعوديون أنهم لن يسمحوا لمراسلي الصحف والتلفزة بدخول البلاد . كنا نعرف أن ذلك غير ممكن ، فليس بالإمكان إرسال حوالي نصف مليون جندي أمريكي والآلاف من قوميات أخرى للإعداد لحرب كبرى ، ثم تفرض عليها تعتيماً إعلامياً . حثثنا السعوديين على إصدار تأشيرات دخول للصحفيين . قبلوا على مضض بدخول عدد قليل من المراسلين أول الأمر ، ثم فتحوا الباب على مصراعيه ، فدخل إلى البلاد (٢٥٠٠) صحفي ، سببوا وجع رأس لشوارتزكوبف .

في ١٩٩٠/١٢/١٩ ذهب باول وديك تشيني إلى الرياض للتعرف على مدى استعداد القوات الأمريكية ونقل ذلك للرئيس بوش . تأكدا من أن كل شيء يسير حسب الجدول الزمني ، وقاما بزيارة الوحدات العسكرية . وبعد عودتهما من الرياض ، ذهبا ليلة عيد الميلاد لمقابلة الرئيس بوش في منتجع كامب ديفيد ، حيث كان معه برنت سكوكروفت ونائبه بوب غيتس . قدم تشيني وباول إيجازاً عن زيارتهما للعربية السعودية . كان الرئيس بوش قلقاً وتحت ضغوط شديدة ، ويسأل :

«متى سنكون مستعدين؟ متى نستطيع الذهاب للحرب؟» يقول باول : «إن التعامل مع الرئيس بوش مثل محاولة إبقاء الملك هادئاً في قصة ألف ليلة وليلة» .

دار الحديث في ذلك الاجتماع حول ضحايا الحرب المقبلة وكم عددهم . قدّر مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية Center for Strategic and International Studies» عدد الضحايا بـ(١٥) ألف ضحية بين القوات الأمريكية . وصدر أمر إلى وزارة الدفاع بإعداد (١٥) ألف كيس نعش . وكان تقدير كولن باول وشوارتزكوبف خمسة آلاف قتيل . ولكن باول رفض أن يقدم رقماً للرئيس عن عدد الضحايا ، وتحت الضغط قدر العدد بثلاثة آلاف ضحية من قتلى وجرحى ومفقودين .

يقول باول إنه أدرك من أسئلة الرئيس بوش أنه لا يريد انسحاباً عراقياً من الكويت ، لأن الانسحاب يعني احتفاظ العراق بجيش ضخم سليم مستعد للقتال في أي وقت آخر .

وفي مساء اليوم نفسه ، بعد عودته إلى منزله ، تلقى باول مكالمة هاتفية من الجنرال السير ريتشارد فنسنت Sir Richard Vincent نائب رئيس هيئة الدفاع البريطانية : «كولن ، لا أستطيع أن أقول لك كم من الصعوبة أن أخبرك هذا» قال باول : نعم يا ديك ما هذا؟ رد فنسنت : «كان الماريشال باتريك هاين Patrick Hine ، قائد سلاح الجو ، لدى رئيس الوزراء (جون ميجور) يقدم له إيجازاً عن الخطة العسكرية ، ليس هنا المشكلة ، بعد الاجتماع أغلق بادي حقيبة أوراقه والكمبيوتر وأعطاه للضابط المساعد» سأل باول : وماذا؟ واصل فنسنت : «يبدو أن الضابط أوقف سيارته وقام بعملية شراء ، وسرقت الحقيبة والكمبيوتر» . سأل باول : وماذا فيهما؟ أجاب فنسنت : «لقد استرجعنا الحقيبة ، فلا تقلق ، ولكن الكمبيوتر يحتوي على خطة المعركة» . متى حدث هذا؟ سأل باول . رد فنسنت : «هذا الشيء الثاني الذي أخشى إعلامك به ، قبل أسبوع تقريباً» . قال باول : قبل أسبوع وتخبرني الآن؟!

علمت الصحف الصفراء البريطانية بالقصة . ولعدة أيام لم يظهر شيء . فاللص إما أنه وطني لم يشأ الكشف عن الأسرار في حكومته أو أنه خبيث لم يقرأ حتى الأخبار .

ومن المفارقات المزعجة التي تعرض لها كولن باول الأسمر من أصل أفريقي ، أن دعي في مطلع سنة ١٩٩١ ليكون قيم التشريفات في العرض الاحتفالي في أتلانتا في عيد ميلاد القس مارتن لوثركنغ Martin Luther King الابن . وكان المناخ

السياسي قد بدأ بالتغير . فالسود الذين يشكلون ١١٪ من سكان الولايات المتحدة الأمريكية ، يمثل الشباب منهم العاملون في القوات المسلحة في الخليج ٢٦٪ ، ومن الواضح أن نسبة الضحايا بينهم ستكون أعلى مما لدى البيض . أظهر استطلاع نشرته صحيفة نيويورك تايمز New York Times ومحطة CBS التلفزيونية في ذلك الشهر أن نصف السود أيدوا تحرير الكويت ، بينما بلغت نسبة المؤيدين البيض ٨٠٪ منهم .

اتصل جو لوري Joe Lowery من مؤتمر القيادة المسيحية الجنوبية Southern Christian Leadership Conference بباول وقال له : «كولن ، تعرف أنني أحترمك ، ولكن هناك الذين يعتقدون أنه من غير المناسب بالنسبة إلى عسكري أن يخدم كقيم على التشريفات في العرض الاحتفالي للدكتور كنغ» . يقول باول : «آخر ما كنت أريده هو أن يحدث أي شيء يفسد حدثاً لتكريم ذكرى هذا المناضل من أجل حقوق الإنسان» .

في ١٩٩٠/١١/٢٠ تقدم عضو الكونغرس من الحزب الديمقراطي رون بيلومز Ron Bellums من كاليفورنيا ومعه أربعة وأربعون عضواً من مجلس النواب الأمريكي بدعوى إلى المحكمة الفيدرالية لمنع الرئيس بوش من إصدار أمر بالحرب على العراق بدون موافقة الكونغرس .

أول حرب في التاريخ تذاع حية من عاصمة العدو

اجتمعت عصابة الثمانية في البيت الأبيض بعد العشاء يوم ١٩٩١/١/٦ ، وكان عليها أن تتخذ قراراً قبل تسعة أيام من موعد الإنذار الذي وجهه مجلس الأمن الدولي للعراق للانسحاب من الكويت . كان جيمس بيكر ، وزير الخارجية في أوروبا ، ومن المقرر أن يقابل طارق عزيز ، وزير خارجية العراق ، يوم ١٩٩١/١/٩ ، في جنيف في آخر محاولة لإخراج العراقيين سلمياً وتجنب الحرب . وكان مقرراً أن يجتمع مجلس النواب والشيوخ في الأسبوع القادم لمنح الرئيس بوش تفويضاً بشن الحرب من أجل تحرير الكويت . كان تشيني يعتقد أن المعارضة في الكونغرس ستنجح في رفض تفويض الرئيس . وتساءل : ما موقف الرئيس بعد ذلك . وكان باول يحبذ أن يتخذ الكونغرس موقفاً واضحاً من الحرب . ولكن مهما كان موقف الكونغرس فالرئيس بوش مصمم على شن الحرب على العراق . يقول باول إن الرئيس التفت إليه طالباً موعد بداية الحرب فأجابه : «الساعة الثالثة من صباح يوم ١٧ كانون الثاني

بتوقيت الرياض» . فالقصف في الليل يعطي الطائرات المقاتلة والقاذفة الوقت الكافي لدخول الأراضي العراقية والخروج منها في ظل الظلام الدامس . وقد اختيرت الساعة هذه لتقليل حالات التصادم بين الطائرات ، وسيكون معظم العراقيين نائمين في بيوتهم وليسوا في الشوارع أو في أماكن عملهم . أثار الموعد نقاشاً بين المجتمعين ، فالموعد المقرر من الأمم المتحدة هو ١٥ كانون الثاني بتوقيت واشنطن ، فلماذا لا يبدأ القتال الساعة الثالثة من صباح ١٦ كانون الثاني؟ بدا الموعد المقترح محسوباً جيداً .

مع اقتراب بدء المعركة ، دعا باول تشيني إلى مكتبه لتناول الغداء . وكان قد أجرى عملية جراحية في القلب والتزم بحمية قاسية . قلما كانا يلتقيان في مناسبات اجتماعية . طلب شطائر البرغر بالجبنة . واستعرضا قائمة الأهداف العراقية التي ستقصف . في ١٩٩١/١/١٥ اقترب بدء القتال . تلقى باول اتصالاً هاتفياً من زميله البريطاني السير ديفيد كريغ David Graig الذي سأله : «كولن ، هل مازلت مصمماً على قصف المنشآت البيولوجية العراقية؟» . أجاب باول : نعم . قال كريغ : «فيه مخاطرة؟» . كان كريغ على حق ، فالقصف قد يدمر أي جراثيم أمراض . إنها مقامرة . وقد قالها باول للرئيس بوش الذي اضطرب كثيراً . ولكن باول لم يكن يتوقع استعمال العراق للأسلحة البيولوجية والكيمياوية . مع اقتراب موعد الإنذار الصادر عن مجلس الأمن ، أعد باول صياغة إنذار للعراق من الرئيس بوش جاء فيه : «سوف تستعمل الأسلحة التقليدية فقط باتفاق تام مع اتفاقية جنيف والقواعد الحربية المقبولة عموماً . إذا استعملت أسلحة كيمياوية أو بيولوجية خرقاً للالتزامات التعاهدية فإننا سوف ندمر أسطولك التجاري ، والبنية التحتية للسكك الحديدية والموانئ والطرق الرئيسية والمنشآت النفطية والبنية التحتية الجوية ، وسدود الفرات ودجلة وإغراق بغداد بالماء» .

اجتمعت عصابة الثمانية في البيت الأبيض صباح ١٩٩١/١/١٥ ، وناقشت عدة أمور ، منها احتمال استعمال العراقيين للسلاح البيولوجي ، وخطاب الرئيس إلى الأمة يوم بدء القتال . أمر وزير الدفاع ببدء عمليات الهجوم الجوي في ١٧ كانون الثاني . وبعث باول بهذا الأمر إلى الجنرال نورمان شوارتزكوبف في الرياض في الساعة ٤,١٥ من بعد ظهر ١٩٩١/١/١٥ .

بدأت المرحلة الجوية من عملية عاصفة الصحراء صباح يوم ١٩٩١/١/١٧ ، وانطلقت طائرات B-52 من قاعدة باركسديل Barksdale الجوية في ولاية لويزيانا ،

واجتازت طائرات الجيش العمودية من نوع أباتشي Apache الحدود العراقية ، وقصفت منشآت الإنذار المبكر العراقية . وانطلقت طائرات F-117 A الخفية من قواعد في العربية السعودية ، وأطلقت حاملات الطائرات في الأسطول السادس الأمريكي صواريخ توماهوك Tomahawk من الخليج الفارسي والبحر الأحمر . كانت الدفاعات الجوية العراقية تطلق قذائفها بصورة عمياء في سماء بغداد ، بادئة ما سماها صدام «أم المعارك» .

يقول كولن باول ، رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة الأمريكية في مذكراته : «بقيت طوال ليلة ١٦-١٧/١/١٩٩١ ، يقظاً أنتظر دقات الهاتف ، وأشاهد التلفزيون . بينما نذير أول حرب لنا تذاع حية من عاصمة العدو . بعد الساعة الخامسة صباحاً بتوقيت واشنطن ، اتصل بي شوارتزكوبف ليقدم أول تقرير موجز عن الحملة الجوية . كان محترفاً في نقل أول علامات النصر ، وكان مضغوطاً جداً لإخفاء انفعاله . قال : لقد قمنا بـ(٨٥٠٠) طلعة ، وأصبنا معظم الأهداف . وقصفنا مواقع الأسلحة البيولوجية والنووية العراقية بشدة . وقصفنا النظام الدفاعي الجوي العراقي الغربي ، ومستودعات التزويد التي شبت بها النيران ، وضربنا منصات إطلاق صواريخ سكود ، ومبنى الاتصالات في مدينة بغداد الذي تركناه يلتهب ، ودمرنا أحد قصور صدام» . ولما سأل باول : وماذا عن خسائرنا؟ قال شوارتزكوبف : «كولن ، لا يمكن أن تصدق . لم يسقط لنا سوى طائرتين ، في حين توقعنا فقدان (٧٥) طائرة في الضربة الأولى . وقد انسلت مقاتلاتنا F-117A الخفية ، التي استعملت لأول مرة في بناما ، عبر الدفاعات الجوية العراقية كالأشباح ، وبرهنت المدافع العراقية المضادة للطائرات على عدم فاعليتها . وقلما تحرك سلاح الجو العراقي عن الأرض» .

في الليلة الأولى قصفت (٧٠٠) طائرة من قوات الائتلاف الجوية العراق ، وأطلق لأول مرة مئة صاروخ كروز . وقامت (١٦٠) طائرة من حاملات الوقود بتزويد الطائرات المقاتلة في الجو . وجعلت مهمة السيطرة على هذه الطائرات المقاتلة والقاذفة وحاملات الوقود والصواريخ مطار شيكاغو أوهير Chicago O`Hare يبدو كمطار محلي صغير .

خلق الاستخفاف الذي نشأ بعد الضربات الأولى في اليوم الأول مشكلة . فقد بدت تقارير مراسل محطة تلفزيون CNN ولف بلتزر Wolf Blitzer من البنتاغون كما لو أن كل ما بقي هو الاحتفال بالنصر . ولذلك اتصل باول ببيت وليامز Pete

Williams الناطق بلسان وزارة الدفاع الأمريكية وقال له : «بيت ، قل لبلتزر والصحفيين الشباب الآخرين أن يخففوا من حماستهم . هذه بداية الحرب وليس نهاية لعبة كرة» . وخلال الأيام القليلة التالية تحول الاستخفاف بسرعة إلى ذعر . والسؤال الذي طرح : لماذا لم نحرز النصر حتى الآن؟ هل هناك شيء خطأ؟ والحقيقة أنه على الرغم من توقعات قادة سلاح الجو المتحمسين ، لم يظهر العراقيون أية إشارة إلى الانهيار .

في صباح ١٩٩١/١/٢٢ صعد باول إلى مكتب وزير الدفاع وقال له : «ديك ، علينا أن ننظر في الأمر ، فالشعب الأمريكي رأى على شاشات التلفزيون حتى الآن إيجازات الضباط من العربية السعودية والبنتاجون فقط ، ولم يظهر أي شخص من كبار رجال الإدارة ليوضح كيف تجري الحرب . يجب أن يقوم بهذا شخص ما» . رد تشيني : سوف نعقد مؤتمراً صحفياً غداً .

أعد باول الخرائط والرسوم البيانية اللازمة للمؤتمر الصحفي . وفي الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم التالي التقى تشيني وباول مع الصحفيين في غرفة الإيجاز في البنتاجون . قال تشيني : لا يستطيع صدام حسين أن يغير المجرى الأساسي للحرب ، سوف يهزم . وشرح باول خطة المعركة باستعمال سلاح الجو أولاً لتدمير نظام الدفاع الجوي العراقي وقيادته وسيطرته واتصالاته ، بحيث «يجعل العدو لا يسمع ولا يحس ولا يرى ، وبعد ذلك نوسع الهجوم على القوات العراقية في الكويت» . وأضاف : «إن إستراتيجيتنا لملاحقة هذا الجيش بسيطة جداً . أولاً سنقطعه ثم نقتله» وقد احتلت هذه الكلمات عناوين التغطية الإخبارية في التلفزيون ذلك المساء ، وفي صحف اليوم التالي . يقول باول : «كان القصد إفهام العالم والعراق هدفنا من الحرب بوضوح» .

في ١٩٩١/١/٢٨ ، طلب تشيني باول وأمين عام وزارة الدفاع بول ولفوويتز إلى مكتبه في البنتاجون . وبعد قليل وصل إلى المكتب نفسه ثلاثة إسرائيليين هم : إبراهام بن شوشان الملحق العسكري في السفارة الإسرائيلية في واشنطن ، ودافيد إفري David Ivri المدير العام لوزارة الدفاع الإسرائيلية ، وايهود باراك نائب رئيس هيئة الأركان في جيش الدفاع الإسرائيلي . جلس الستة على طاولة تشيني . يقول باول : «أصغينا إلى النوايا الإسرائيلية : هجوم جوي وبري في صحراء غرب العراق للبحث عن منصات صواريخ سكود وتدميرها» . بدأ باراك بالقول : «هذه الهجمات مدمرة لمعنويات شعبنا» . وهو يقصد إطلاق العراق صواريخ سكود على إسرائيل . رد

باول ذاكراً قدرة صواريخ باتريوت على إسقاط صواريخ سكود . قال باراك : «هذا ليس كافياً فبعض الصواريخ ما زالت تسقط علينا مرعبة السكان المدنيين . يجب أن تفهمونا . من الصعب على الإسرائيليين أن يخاطر الآخرون بحياتهم دفاعاً عنا . نود أن نشارك» . كرر باول حجته حول هشاشة الائتلاف . قال باراك : «إذا لم ندخل ونزيل صواريخ سكود ، فقد يزودها صدام برؤوس كيمياوية حينما تشنون عليه هجومكم البري . وقد يطلق غاز الأعصاب أو رؤوساً بيولوجية على مدننا . إذا حدث ذلك ، تعرفون ماذا يجب أن نفعل» . وأضاف : «إن لدي فكرة جيدة . طواقم الصواريخ الإسرائيلية جاهزة . لدى إسرائيل قوة هجومية جاهزة للذهاب إلى منصات صواريخ سكود . بإمكان طائرات إسرائيل عبور الأردن والعربية السعودية» . كان شوارتزكوبف قد حذر باول من أن السعوديين لن يقبلوا بمهمة كهذه . كان واضحاً من الجانب الأمريكي ضرورة إبقاء إسرائيل خارج هذه الحرب .

الهدف الأمريكي: تدمير العراق قبل تحرير الكويت

في الأسبوع الثالث من شهر شباط ١٩٩١ كانت الحرب الجوية على العراق متواصلة لخمسة وثلاثين يوماً . أراد كولن باول أن يعلم الرئيس بوش أن الحرب ستكون مختلفة حالما يبدأ الهجوم البري لتحرير الكويت . واغتنم فرصة الايجازات اليومية ليقول له : «لما تدخل كتيبة في قتال ناري لا تفقد طياراً أو اثنين وإنما قد تفقد خمسين إلى مئة جندي في دقيقة واحدة . كما أن ميدان المعركة ليس منظراً جميلاً ، قد ترى جذع جندي يحترق معلقاً خارج برج دبابة ، بينما تنفجر الذخيرة في الداخل وتمزق بقية طاقمها إرباً . وعلينا أن نعوّد أنفسنا على رؤية صور بشعة» . وقد أدرك الرئيس بوش ووزير الدفاع تشيني أن الحرب البرية لا يمكن أن تنقل إلى الجمهور مثل الضربات الجوية .

ومع استمرار القصف الجوي ، بدأ التركيز على الجانب السلبي من القوة الجوية ، وخاصة ما حدث في ١٣ شباط حينما أطلقت طائرتان أمريكيتان النار على ملجأ الفردوس في بغداد ، ظناً من القيادة الأمريكية أنه مركز قيادة وسيطرة عراقية . وقد شاهد العالم الضحايا يخرجون من بين الردم والدخان . بحث باول هذه المأساة مع شوارتزكوبف وسأله : «هل ما زلنا بحاجة لقصف بغداد بعد ما يربو على شهر من الحرب؟ وكم مرة باستطاعتك قصف مقر حزب البعث ، ولأي هدف؟ لا يوجد فيه

أحد ينتظر صاروخ توما هوك» . وبدأ الاثنان مراجعة الأهداف التي تقصف بدقة يومياً . لقد أكد قصف ملجأ الفردوس الحاجة إلى البدء بالهجوم البري .

قام تشيني وباول بزيارة إلى مسرح العمليات بين يومي ٨ و١٠ شباط ١٩٩١ . قال شوارتزكوبف لهما إنه سيكون مستعداً للبدء بالحرب البرية في ٢١ شباط . عاد تشيني وباول إلى واشنطن فوجدا الرئيس بوش قلقاً . اتصل شوارتزكوبف بعد ثلاثة أيام بباول وأخبره أن ٢١ شباط ليس موعداً مناسباً ، لأن على فرقتي مشاة البحرية الأولى والثانية أن تنتقلا من وسط خط المجابهة مع مدينة الكويت ، وتخترقا مجموعة من الخنادق العراقية ، وحزاماً من حقول الألغام ضد الأفراد وضد الدبابات ، وأسلاكاً شائكة وحقول ألغام أخرى ومصائد دبابات ، ثم صعود تلال من الرمال ارتفاعها عشرون قدماً ، واجتياز الخنادق المليئة بالزيت المحترق . وعليهما أيضاً أن تواجها وابلاً من النيران من المدفعية العراقية . وهذا يحتاج إلى وقت لنقل قوات هاتين الفرقتين عشرين ميلاً إلى الغرب . وكل هذا يحتاج بضعة أيام . وطلب شوارتزكوبف أن يبدأ الهجوم البري يوم ٢٤ شباط . قال له باول : الغاية من الهجمات الأولى إبقاء العراقيين المحصنين في مواقعهم ، وهذه مهمة مشاة البحرية . وإذا واجه قائدها والت بومر Walt Boomer مقاومة شديدة عليه أن يتوقف . فمهمته مشاغلة العدو من أجل إتاحة المجال للفيلق السابع والفيلق الثامن المحمولين جواً للقيام بعملية الخطّاف في صحراء العراق الغربية .

من القواعد الأساسية في العمليات العسكرية أن قائد الميدان دوماً على حق ، ومن في الخلف على خطأ . فقائد الميدان أمامه المشهد الحربي ، يشعر بالأرض ويوجه القوات ، ويواجه العدو ويقدّره . لذلك نصح باول وزير دفاعه بقبول توصيات شوارتزكوبف . ذهب تشيني على مضض إلى الرئيس بوش وحصل منه على تأجيل موعد بدء الحرب البرية إلى ٢٤ شباط .

يقول باول : «خلال الأسابيع السابقة راقبت الفيلق السابع بعشرات الآلاف من جنوده ، ومئات دباباته وهي تدخل العربية السعودية . كنا قد حركنا سراً قواتنا المدرعة والمحمولة جواً إلى الجناح الغربي العراقي المكشوف . وكنا نحبس أنفاسنا ونحن نراقب رد فعل العراقيين . كل ما فعلوه إرسال فرقة أخرى قليلة العدد إلى هذا الجزء من الصحراء . قلت لنفسي هذا ما نريد ، لقد خدعوا بتحركنا للضرب في هجوم على الجبهة الأمامية الرئيسية ، وإنزال في الكويت من الخليج الفارسي . لقد أظهروا

لنا كل شيء عندهم ، وليس بإمكانهم إيقاف عملية الخطاف من اليسار . قبل ذلك كنا نخشى أن أرض الصحراء في الجناح الغربي قد لا تتحمل الآليات المدرعة الثقيلة . جرّب المهندسون الرمال ، وقالوا لنا : لا تقلقوا . وسألنا بدو المنطقة فأكدوا لنا صلابة الأرض» .

حاول ميخائيل غورباتشيف وقف إطلاق النار في ١٨ شباط ، وسافر طارق عزيز إلى موسكو لبحث خطة لوقف القتال مقابل انسحاب العراقيين من الكويت . يقول باول «كان الوقت متأخراً . . بعد إنفاق (٦٠) مليار دولار ونقل نصف مليون جندي عبر ثمانية آلاف ميل . لقد أراد بوش أن يوجه ضربة قاضية لغزاة الكويت ، لا يريد نصراً بالتفاوض يسمح لصدام بالانسحاب دون المساس بجيشه» .

في ٢٠ شباط اتصل شوارتزكوبف بباول ، وطلب تأجيلاً ثانياً للحرب البرية إلى ٢٦ شباط ، بسبب سوء أحوال الطقس خلال يومي ٢٤و ٢٥ شباط . يقول باول : لم يكن لدي من الحجج المقنعة لتشيني والرئيس ، فطلب من شوارتزكوبف حججاً أفضل للتأجيل . وبعد نقاش حاد بين القائدين العسكريين تم الالتزام بيوم ٢٤ شباط لبدء الهجوم البري .

في الساعة ١٠,٣٠ من مساء يوم ٢١ شباط اجتمعت عصابة الثمانية في مكتب الرئيس بوش في البيت الأبيض للنظر في اقتراح غورباتشيف . قال بوش : «لا أريد أخذ هذه الصفقة . ولكن لا أريد أن أكون قاسياً مع غورباتشيف ، خاصة بعد أن سار معنا إلى هذا الحد . علينا إيجاد مخرج من هذا المأزق» . رفع باول إصبعه ، فأعطاه بوش الكلام . قال باول : «إن الرأي العام الدولي قد حدد يوم ١٥ كانون الثاني موعداً لخروج صدام من الكويت ، دعنا نضع موعداً نهائياً لاقتراح غورباتشيف ، ولنقل ظهر يوم السبت ، إذا خرج العراقيون حصلت على جائزة نوبل للسلام يا سيد غورباتشيف ، وإذا لم يتحركوا ، كما كنت أتوقع ، يبدأ القتال» . سأل بوش البقية : ما رأيكم في هذا؟ وافق الجميع ما عدا تشيني .

في الساعة ١٠,٤٠ من صباح اليوم التالي وقف الرئيس بوش في حديقة الورود في البيت الأبيض أمام كاميرات الصحفيين وقال : «سوف يعطي الائتلاف صدام حسين حتى ظهر السبت لعمل ما يجب عمله ، وبدء الانسحاب الفوري غير المشروط من الكويت» . لم يغتنم صدام هذه الفرصة حتى ظهر السبت ٢٣ شباط . وفي الساعة الرابعة من صباح ٢٤ شباط بتوقيت الرياض ، في ظلام صباح بارد ماطر ،

اجتازت مشاة البحرية الأمريكية ولواء من دبابات الجيش ، تتبعهم قوات سعودية ومصرية وكويتية وسورية وعربية أخرى الحدود إلى داخل الأراضي الكويتية . وفي أقصى الغرب انطلق الفيلق الثامن المحمول جواً بالفرقة (٨٢) المحمولة جواً ، وفرقة فرنسية مدرعة خفيفة غطت الجناح الأيسر . وقامت الفرقة (١٠١) المحمولة جواً بهجوم جوي ، وتحركت فرقة المشاة (٢٤) الآلية بخط مستقيم شمالاً داخل العراق باتجاه وادي نهر الفرات . وقف بين هذه القوات الفيلق السابع الأمريكي مع الفرقة المدرعة الأولى البريطانية ، لشن هجوم الخطّاف الرئيسي ، بعد التأكد من أن الهجمات المساندة قد حجزت العراقيين في مواقعهم . بهذه الصورة بدأت الحرب البرية ، حسب مذكرات كولن باول .

بقي باول في مكتبه يتلقى التقارير ويشاهد التلفزيون CNN . اخترقت مشاة البحرية القوات العراقية واتجهت نحو مدينة الكويت ، بعد أن قامت طلائعها في تلك الليلة بالزحف عبر الأسلاك الشائكة والخنادق وحقول الألغام لتبين للمهاجمين الطرق السليمة . وفي الغرب توغلت فرقة المشاة (٢٤) بقيادة الجنرال باري ماك كافري Barry Mc Caffrey ستين ميلاً من الأراضي العراقية في اليوم الأول . كان الاختراق الأولي سريعاً وعميقاً . وقد استسلم في اليوم الأول عشرة آلاف جندي عراقي ، جائعين وعطشى ومرهقين ومذعورين من (٣٨) يوماً من القصف الجوي والمدفعي والصاروخي . وكان مجموع الخسائر الأمريكية في اليوم الأول ثمانية قتلى و(٢٧) جريحاً .

مع صباح اليوم الثاني كانت فرقة مشاة البحرية الأولى تقاتل داخل مدينة الكويت وحول مطارها . وقام الفيلق السابع الأمريكي بقيادة الجنرال فريد فرانكس Fred Franks بتطويق القوات العراقية من الغرب إلى الشرق لقطع الجيش العراقي في الكويت وقتله ، غير أن تحركه كان بطيئاً جداً . وفي اليوم الثاني دمر صاروخ سكود عراقي الثكنات الأمريكية قرب الظهران وقتل (٢٨) جندياً أمريكياً .

وفي اليوم الثالث من الهجوم البري ، قامت مشاة البحرية الأمريكية والقوات الخاصة في الجيش الأمريكي والقوات السعودية والمصرية والكويتية والعربية الأخرى بتحرير الكويت . وأخذ الأمريكيون (٣٨) ألف أسير عراقي .

عقدت عصابة الثمانية اجتماعا في البيت الأبيض بعد ظهر ٢٧ شباط ، من أجل الإيجاز اليومي . وكان عدد الأسرى العراقيين قد بلغ (٧٠) ألف أسير . وأمر

صدام قواته بالانسحاب من الكويت . وغدا الطريق الواسع ذو المسارات الأربعة الواصل بين مدينة الكويت والبصرة ميداناً للقتال ، وتجمعاً لسيارات وآليات عراقية بلغ عددها (١٥٠٠) آلية . وسماها الصحفيون «طريق الموت» .

عند اتصال باول بشوارتزكوبف طلب تمديد القتال يوماً واحداً فقط ، واقترح وقف إطلاق النار في ليلة اليوم التالي ١٩٩١/٢/٢٨.

في اجتماع عصابة الثمانية بعد ظهر ١٩٩١/٢/٢٧ قال باول : لدى قواتنا هدف خاص ، مفوض من الأمم المتحدة ، هو تحرير الكويت ، وقد حققناه . وافق الرئيس بوش على وقف القتال . وفي الساعة الواحدة بتوقيت واشنطن أعلن الجنرال شوارتزكوبف تحقيق الأهداف لحملته العسكرية ، وأنه ينتظر من القيادة السياسية قرار وقف القتال .

أعلن الرئيس بوش وقف إطلاق النار الساعة التاسعة ليلاً بدءاً من الساعة الخامسة من صباح ١٩٩١/٢/٢٨ ، أي الساعة الثامنة صباحاً بتوقيت الرياض من اليوم التالي . وألقى خطاباً قصيراً قال فيه : «يسرني أن أعلن أنه في منتصف هذه الليلة حسب التوقيت الشرقي ، مضت مئة ساعة على بداية الحرب البرية ، وستة أسابيع على بدء عملية عاصفة الصحراء . ستوقف جميع قوات الولايات المتحدة والائتلاف عمليات القتال الهجومية» .

الفصل الرابع

غزو العراق للكويت
في مذكرات الجنرال نورمان شوارتزكوبف

القيادة المركزية ومسؤوليتها عن الشرق الأوسط

خصص الجنرال نورمان شوارتزكوبف H. Norman Schwarzkopf ، القائد الأعلى لقوات الائتلاف الدولي التي حررت الكويت ، في مذكراته Memoires التي كتبها بالتعاون مع بيتر بيتر Peter Petre وترجمت إلى اللغة الفرنسية من قبل بيير جيرار Pierre Girard وإديث أوكس Edith Ochs وفرانك ستراشتز Frank Straschitz ، وصدرت عن دار النشر الفرنسية Librairie Plon ، بباريس سنة ١٩٩٢ ، (٢٣٧) صفحة في عشرة فصول من مذكراته هذه للغزو العراقي للكويت وتحريرها ، والتي تقع في (٥٧٤) صفحة في (٢٤) فصلاً ، أي حوالي نصف عدد صفحاتها .

وهي تحتوي على معلومات واسعة ودقيقة وتفصيلية لا نجدها في مذكرات القادة العسكريين الغربيين الآخرين ، الذين تناولوا ما سموها «حرب الخليج الثانية» .

يقول شوارتزكوبف إنه دعي إلى وزارة الدفاع (البنتاجون) حوالي ١٥ آب ١٩٨٧ ليعمل مستشاراً للجنرال كارل فيونو Carl Vuono الذي أصبح رئيساً لهيئة أركان الجيش البري الأمريكي . وغدا شوارتزكوبف مسؤولاً عن توزيع الموازنة السنوية ، للجيش البري التي بلغت في ذلك العام (٧٥,٣) مليار دولار . وكان تحت إمرته رؤساء الإدارات الخمس الكبرى المتصلة بمهام الجيش الرئيسية : مدير الخطط والاستراتيجية المكلف بالتخطيط على المدى البعيد ، وعن جميع المشاريع الخاصة بالجيش البري بالتنسيق مع الأسلحة الأخرى ، وبعض الخطط المتصلة بالحروب والأحداث الأخرى التي قد تحدث في العالم ، ومدير العمليات المسؤول عن مركز عمليات الجيش ، ومركز الاتصالات الذي يراقب نشاطات الجيش في العالم ، في حالة التعبئة أو في حالة مواجهة كوارث طبيعية أو اضطرابات في المدن ، ومدير التجهيزات الذي يعد

لجيش المستقبل ويحدد الأسلحة والبنى الضرورية لكسب المعارك في القرن الحادي والعشرين ، ومدير التكوين العسكري ، ومدير الإدارة التي تحدد سياسة الجيش في ميدان الأسلحة النووية والكيمياوية والفضائية . وتولى شوارتزكوبف ، بالاضافة إلى ذلك ، منصب مساعد فيونو العملياتي ، وبهذه الصفة كان يرافقه إلى جميع اجتماعات هيئة رؤساء الأركان المشتركة . ويمثل الجيش البري في اجتماعات زملائه المساعدين للعمليات في الأسطول ، وسلاح الجو ، ومشاة البحرية . كان فيونو يجتمع وجميع رؤساء هيئة الأركان المشتركة مرتين في الأسبوع في قاعة المؤتمرات في البنتاجون ، التي سميت بالخزان The Tank .

كان الشرق الأوسط يحتل مكانة جيدة في جدول الأعمال . وكانت الحرب العراقية-الإيرانية قد بدأت سنتها الثامنة . وتعرضت ناقلات النفط العملاقة للخطر . فاقترحت إدارة الرئيس رونالد ريغان Ronald Regan أن ترافق ناقلات النفط قوات لحمايتها . وحملت هذه العملية الاسم الرمزي Ernest Will وانتهت بتعبئة (٢٤) بارجة حربية و(١٦) ألف جندي . ولما بدأ شوارتزكوبف عمله في الأسبوع الأول ، أصيبت ناقلة النفط العملاقة بريدجتون Bridgeton بلغم ، ودارت الشكوك حول إيران ، فاكتفت الولايات المتحدة بإرسال طائرة عمودية مجهزة بالعمليات الليلية كشفت أن قارباً إيرانياً وضع اللغم .

يقول شوارتزكوبف : «بعد ذلك أصبحت ردودنا على الهجمات الإيرانية أكثر عنفاً . وخلال عملي في اجتماعات رؤساء الأركان لمدة (١٨) شهراً ، قمنا بعمليتي انتقام . في تشرين الأول ١٩٨٧ حينما أصاب صاروخ كروز ناقلة نفط تحمل العلم الأمريكي في ميناء الكويت ، هاجمنا منصتي تحميل نفط إيرانيتين في الخليج . وسميت العملية Praying Mantis . وحدثت الثانية في نيسان ١٩٨٨ حينما أدى لغم إيراني إلى إغراق الفرقاطة الأمريكية في الأسطول الأمريكي «ساموبل روبرتس Samuel B. Roberts» . وانتقاما لها دمرنا ثلاث سفن حربية إيرانية . ولما حاول الإيرانيون الرد ، جرت معركة بحرية عنيفة أدت إلى إغراق المزيد من السفن والطائرات الحربية الإيرانية .

في مثل هذه الأزمة ، كان دور هيئة رؤساء الأركان المشتركة اقتراح الخيارات العسكرية ، والقرار يعود لرئيس الجمهورية ولمجلس الأمن القومي ووزير الدفاع . ويقول شوارتزكوبف إنه فوجئ بالقدرات العسكرية المحدودة للولايات المتحدة في الخليج

العربي . إذ لم يكن باستطاعتها استعمال مطارات المنطقة ، وليس لها سوى مدخل محدود في مداه الجوي ، ومياه الخليج ضيقة لاستعمال حاملات الطائرات .

في حزيران ١٩٨٨ عرض الجنرال فيونو على شوارتزكوبف تولي القيادة العليا للقيادة الوسطى (المركزية) The Central Command في القوات المسلحة الأمريكية ، وهي المسؤولة عن العمليات العسكرية في جنوب وغرب آسيا والشرق الأوسط والقرن الأفريقي . رحب شوارتزكوبف بالعرض وقال : «كان الشرق الأوسط دوماً يبهرني ، وقد قضى فيه معظم أفراد أسرتي حياتهم . وهي منطقة ذات أهمية إستراتيجية كبيرة» . وقد رشح لهذ المنصب ، بالإضافة إلى شوارتزكوبف ، الأميرال هانك موستن Hank Mustin نائب رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة . ولكن وزير الدفاع آنذاك فرانك كارلوتشي Frank Carlucci اختار شوارتزكوبف لهذا المنصب ، الذي أعلن تعيينه له في تموز ١٩٨٨ . وفي شهر تشرين الأول درس شوارتزكوبف برنامجاً مكثفاً عن الشرق الأوسط ، في معهد الخدمة الخارجية Foreign Service Institute في مدنية آرلنجتون Arlington بولاية فيرجينيا ، حيث يحصل موظفو وزارة الخارجية على تدريب قبل الذهاب إلى السفارات في الخارج . كان البرنامج ثماني ساعات يومياً لمدة أسبوعين حول الثقافة والعادات والمشاكل النفطية ومشاكل المياه والنزاعات الدينية . وفي ١٨ تشرين الثاني ثبت كارل فيونو النجمة الرابعة على كتف شوارتزكوبف ، وهي أعلى رتبة في الجيش في الولايات المتحدة .

وإستلم شوارتزكوبف وظيفته كقائد أعلى في القيادة المركزية في ١٩٨٨/١١/٢ ، في مقرها في مدينة تامبا Tampa . وبعد أسبوعين كان في القاهرة . يقول في هذا الصدد : «كنت أسمع لأذان العشاء من غرفتي في الفندق وأنظر إلى النيل . هذه هي المرة الأولى التي أعود فيها إلى الشرق الأوسط منذ سنة ١٩٤٧ . وتدفقت الذكريات في ضوء القمر . رأيت القباب والمآذن التي ألفتها في طفولتي . في تلك الفترة من الزمن ، كان المؤذنون يصعدون إلى أعالي المآذن للأذان خمس مرات في اليوم . أما اليوم فالمآذن مزودة بمكبرات الصوت ، وبذا تجنبوا الصعود على الدرج . وشممت رائحة النيل ، ورائحة الحمير والجواميس التي تجر العربات في شوارع المدينة . وشممت أيضاً رائحة التبغ التركي والقهوة والشاي من الصباح حتى المساء . يسير الرجال في المدينة حاملين المياه لبيعها للمارة . . . في سن الرابعة عشرة كنت أدرس في سويسرا ، ووعدت بالعودة . والآن بعد أربعين سنة عدت إليها أخيراً» .

يقول شوارتزكوبف ، إنه حينما أقر الكونغرس والرئيس ريغان إنشاء القيادة المركزية سنة ١٩٨٢ ، كانت المسؤولية العسكرية عن منطقة الشرق الأوسط تتوزع بين القيادة الأمريكية في أوروبا ، ومقرها في مدينة شتوتجارت بألمانيا ، وقيادة المحيط الهادي ومقرها هاواي . ولم تهتم القيادتان بالشرق الأوسط . ولما أصبحت القيادة المركزية مسؤولة عنها اعترضت القيادتان على ذلك بشدة . ولذلك ظلت البلاد العربية التي لها موانئ على البحر المتوسط ، مثل سوريا ولبنان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، تابعة للقيادة الأمريكية في أوروبا . وظل الأسطول الأمريكي السادس يحرس هذا البحر . وشملت القيادة الأوروبية إسرائيل . بينما تولت القيادة المركزية شبه جزيرة العرب وخليج عدن والبحر الأحمر ، أي بدءاً من مصر والسودان والقرن الأفريقي نحو الشمال الشرقي حتى أفغانستان وباكستان ، على مدى ستة آلاف ميل .

كانت زيارته للقاهرة ضمن خطة للتعرف على المنطقة الواقعة ضمن اختصاص القيادة المركزية . ولما كانت الولايات المتحدة لا علاقة عسكرية لها مع كل من إيران والعراق وأفغانستان وإثيوبيا والجمهورية الشعبية الديمقراطية اليمنية (اليمن الجنوبي) ، فلم تدخل هذه الدول في برنامج زيارته هذه ، الذي اقتصر على مصر والعربية السعودية وباكستان . كان استقباله في القاهرة وإسلام أباد مباشراً وودياً . ففي القاهرة قضى ساعات من المحادثات مع صافي أبو شنف ، رئيس هيئة الأركان المصرية ، وأحمد عبد الرحمن مدير الاستخبارات العسكرية . وفي باكستان استقبله الأميرال افتكار أحمد سيروهي ، رئيس هيئة أركان الجيوش الباكستانية ، والجنرال ميرزا إسلام بيك الرجل القوي الذي تولى قيادة الجيش البري بعد اغتيال الجنرال محمد ضياء الحق في آب ١٩٨٨ . ثم أجرى حديثاً مطولاً مع الرئيس الباكستاني غلام إسحق خان ، ورئيسة وزرائه بنظير بوتو .

كان استقباله في الرياض فاتراً ، لأن الكونغرس حدد بيع الأسلحة الأمريكية إلى العربية السعودية ، حسب النظرية القائلة : إن كل سلاح يباع للعرب ، حتى المعتدلين منهم ، ينتهي استعماله ضد إسرائيل . ولذا سلح السعوديون جيشهم بالمقاتلات البريطانية ، والرادارات للمقاومة الجوية الفرنسية ، والمدفعية البرازيلية والصواريخ الصينية . أما المعونة العسكرية الأمريكية لأمن البلاد فكان يتم التفاوض عليها من قبل السفير بندر بن سلطان آل سعود . ولما أرسلت القيادة المركزية جنرالاً

بنجمتين ليقود وحدة جوية مشتركة ، بدون دعوة من الجيش السعودي ، وعلم بذلك الفريق محمد الحمد ، رئيس هيئة الأركان السعودي ، طرده من المملكة .

ولما وصل شوارتزكوبف إلى الرياض ، لم يكن الأمير سلطان بن عبد العزيز ، وزير الدفاع والطيران ، مستعداً لاستقباله . وأجرى محادثات مع الفريق محمد الحمد ، بينما قبل الأمير عبد الرحمن بن عبد العزيز ، نائب وزير الدفاع والطيران ، مقابلته لمدة عشرين دقيقة .

الشعور الأمريكي بخطر القوة العسكرية العراقية

حينما قابل وزير الدفاع الأمريكي فرانك كارلوتشي الجنرال نورمان شوارتزكوبف في تموز ١٩٨٨ وعرض عليه تولي القيادة العليا للقيادة المركزية ، قال له الأخير : يجب أن نقلق من القوة العسكرية العراقية . وطلب من الوزير أن يبين له بأي معيار قد عدّل نصر العراق على إيران ميزان القوى في الخليج العربي-الفارسي (كما اعتاد شوارتزكوبف أن يسميه في مذكراته) . من المعروف أنه بعد توقيع اتفاق وقف إطلاق النار بين الدولتين في آب ١٩٨٨ ، برعاية الأمم المتحدة ، أصبح لدى العراق جيش مؤلف من مليون جندي ، واقتصاد ضعيف . رد كارلوتشي : «هذا ما وددت قوله بالضبط» .

ولما زار شوارتزكوبف دول الخليج ، أذهله أن معظم الدول (العربية السعودية والأردن والإمارات العربية المتحدة والبحرين وقطر) لا تثق بإيران ولا بالعراق . وكان قادتها يرون أن وقف إطلاق النار ليس سوى تهدئة ، وحالما تستعيد إيران تسليحها سوف تستأنف القتال ضد العراق وتهديد جيرانها العرب . أما بالنسبة إلى العراق ، فقد عبّر الملك حسين عن رأي الأكثرية حينما تناول شوارتزكوبف الغداء معه في كانون الثاني ١٩٨٩ بقوله : «نحن لا نقلق من العراقيين ، فقد عانوا بما يكفي من الحرب ، وليس لديهم نوايا عدوانية نحو إخوانهم العرب» . وذكّره بأن الأردن ومصر واليمن والعراق قد أنشأوا مجلس التعاون العربي ، مؤكداً له أن الأردن ومصر سوف يقنعان العراق بالاعتدال في موقفه العسكري .

وكانت المفاجأة الثانية لشوارتزكوبف اكتشافه أن العديد من القادة العرب ينتظرون تعزيز الوجود العسكري الأمريكي في الخليج ويحبذون ذلك . وكان لتدخل الولايات المتحدة في حرب ناقلات النفط العملاقة انطباع عظيم لديهم . واقتبس

شوارتزكوبف من اللواء مزيد الصانع ، رئيس هيئة الأركان الكويتية قوله : «لم نعتقد قط أنكم (الأمريكيين) ستأتون ، ولكنكم جئتم . ولما جئتم اعتقدنا أنكم ستغادرون حالما تتلقون الخسائر ، ولكنكم لم تفعلوا ذلك . فقد بقيتم ودافعتم عنا . ونحن نفكر حالياً بأن الولايات المتحدة صديقة للعالم العربي» .

حتى هذا الوقت ، كانت إمارة البحرين الوحيدة التي تحبذ حضوراً عسكرياً أمريكياً في الخليج ، منذ عهد الرئيس ترومان ، وهي تستقبل المقر العام لقوة الشرق الأوسط من مشاة البحرية . وعلى الرغم من انتقادات دول الخليج الأخرى ، ظل أمير البحرين مخلصاً لالتزاماته ، وظلت بلاده أفضل صديق للولايات المتحدة في الشرق الأوسط . وتبين لبعض جيرانها أن البحرين لو منعت الأسطول الأمريكي من دخول موانئها لكان مصير حرب الناقلات النفطية مختلفاً جداً .

لما تولى شوارتزكوبف القيادة العليا للقيادة المركزية ، كانت تعليمات الأميرال كرو ، رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة ، إعادة القوات الأمريكية في الخليج الفارسي-العربي إلى مستواها السابق لحرب الناقلات النفطية . وهذا يعني وجود أسطول من أربع بارجات حربية الغاية منها رفع العلم الأمريكي هناك . ولكن شوارتزكوبف كان يرى زيادة هذا الحضور العسكري . لذا ذهب في نيسان ١٩٨٩ إلى واشنطن ، لحث أعضاء لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ لرفع القيود المفروضة على بيع الأسلحة للبلاد العربية المعتدلة ، مثل البحرين والعربية السعودية والكويت . وقال : لا بد أن يرافق هذه الأسلحة فنيون ومستشارون أمريكيون ليمارسوا نفوذهم على الاستعمال النهائي لهذه الأسلحة .

يقول شوارتزكوبف : «لم أحصل على أشياء مهمة . يثير العرب دوماً موضوع مواقفنا من إسرائيل والفلسطينيين . وهنا كنت على الحبل المشدود ، فالولايات المتحدة ليست مستعدة لتقليص دعمها لإسرائيل ، وإنما أردت أن يفهم محدثي العربي أن باستطاعة الأمريكيين أيضاً أن يفهموا وجهة النظر العربية . وقد طرح هذا السؤال في خريف ١٩٨٩ حينما قابلت مساعد قائد الحرس الوطني السعودي الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري ، في قصره بالرياض . . . بدأ التويجري بالنظر إلي من القدمين إلى الرأس ، قبل أن يصيح : أي شرف عظيم لي أن أكون بحضرة جنرال أمريكي عظيم مثلك . ورددت : بالنسبة لهذا الجنرال : هذا شرف أعظم له أن يكون بحضرة رجل بحكمتك . سألني عن إسرائيل ، وأصغى بانتباه كبير لشرحي

عن الالتزام الأخلاقي والعاطفي الأمريكي نحو إسرائيل . وسأل : أليس صحيحاً أنه لو خيرت الولايات المتحدة بين العربية السعودية وإسرائيل فستختار إسرائيل؟ وأجبت : لماذا يجب عليها أن تتوصل إلى مثل هذا الخيار؟ بدا لي هذا قليل الاحتمال . الولايات المتحدة صديقة للعربية السعودية ولإسرائيل . أليس من حق الإنسان أن يكون له أصدقاء عديدون ، أو أنه يجب أن لا يكون له سوى واحد؟ قال الشيخ : «ممتاز ، هذا يسرني» .

يؤكد شوارتزكوبف أن الخبراء في الشؤون العربية في وزارة الخارجية وفي وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) ووزارة الدفاع نادرون ، وأن كبار الضباط لا يعرفون شيئاً عن البلاد العربية ، ذلك أن همهم حلف شمال الأطلسي واليابان وكوريا .

يعتبر شوارتزكوبف الشرق الأوسط أهم مناطق العالم . فالنفط القادم من الخليج الفارسي-العربي يغطي ثلثي حاجة اليابان السنوية ، و٣٠٪ من حاجة أوروبا ، و١٠٪من حاجة الولايات المتحدة . وفي هذه المنطقة ٦٥٪ من احتياطي النفط العالمي . وفي تقدير معهد الخدمة الخارجية ، سوف تضخ منطقة الخليج نفطاً خاماً على مدى قرنين من الزمن ، بينما لا يكفي الاحتياطي من النفط في الولايات المتحدة لاستغلال عشرين سنة .

في صيف ١٩٨٩ ، وخلال جولته الثانية على دول الشرق الأوسط ، شعر شوارتزكوبف أن الأبواب بدأت تنفتح له ، بعد أن عرف القادة العرب حماسته للثقافة العربية ، وأبدوا استعدادهم للكشف عن بعض أسرارهم العسكرية . يقول في هذا الصدد : «في زيارتي الأولى للكويت امتنع اللواء الصانع عن الحديث عن خططه الدفاعية . ومثل بقية عرب الخليج قلل من الخطر العراقي . ولما جئت في تشرين الأول ، جعلني أزور وحداته القتالية . ولم أخف ملاحظة أن جميع المدافع في الكويت موجهة نحو الشمال ، نحو العراق . قال الصانع : لقد تحولنا وغدا العراق التهديد الرئيسي للكويت . وأوضح أن صدام حسين لم يحقق أهدافه الرئيسية من الحرب ضد إيران ، وهي إعطاء العراق مدخلاً إلى الخليج . قام العراق ، أثناء احتلاله لشبه جزيرة الفاو ، بتدمير شط العرب الذي يحتاج الآن إلى تنظيف منتظم ، كان مستحيلاً أثناء الحرب . كان هذا الممر المائي الواسع مليئاً بالسفن الحربية الغارقة ، وبقايا الصواريخ والقنابل التي لم تنفجر . وأضاف الصانع : يعتمد العراق الآن على ميناء أم قصر ، ومیناؤه العسكري قريب من الجزيرة الكويتية بوبيان ، التي يحاول

صدام حسين الاستيلاء عليها» .

ومن أجل توكيد هذا الخطر العراقي ، جاءت أبريل غلاسبي April Glaspie سفيرة الولايات المتحدة في بغداد لمقابلة شوارتزكوبف في اليوم الثاني لزيارته للكويت . لم تكن مهمتها سهلة . فالعلاقات بين الولايات المتحدة والعراق ليست متوترة فحسب ، بل كانت كامرأة ، في عيون العرب ، ما كان بإمكانها أن تقوم بما يقوم به الرجل . هذا ما قاله شوارتزكوبف . وأضاف : «كانت امرأة صريحة . وصفت العراق بأنه نظام حكم مرعب وقمعي ، لم يسمح لها بحرية الحركة . . . وفي العراق نظام حكم عسكري . . . وكان على غلاسبي أن تعود إلى بغداد دون تأخير» .

يقول شوارتزكوبف : «قصد من القيادة المركزية أن تكون قوة تدخل سريع مهمتها ، في حالة الحرب ، منع الجيش الأحمر من السيطرة على حقول النفط الثمينة في إيران . هذا السيناريو كان الأساس للخطة العملية للقيادة المركزية . وهي الدليل لتنظيم وحداتها العسكرية ،وعمل المناورات وتخزين المواد والمنافسة مع القيادات الأخرى للحصول على حصتها في موازنة وزارة الدفاع» .

بدأ التفكير بتغيير الخطة الرئيسية للقيادة المركزية في تموز ١٩٨٩ بفرضية جديدة : العراق بصفته المعتدي : رابع جيش في العالم ، مرابط إلى الشمال من آبار النفط ، التي يعد إنتاجها ضرورياً جداً لا غنى عنه في العالم الصناعي . كثيرون من العرب قالوا لشوارتزكوبف أن لا يقلق من العراق . وقلة منهم قالوا عكس ذلك . وبدا له من الحكمة أن يقلق ؛ لأن صدام حسين لم يخفض عدد قواته منذ دخول وقف إطلاق النار حيز التنفيذ مع إيران قبل سنة .

كانت الخطوة التالية ، في نظر شوارتزكوبف ، إقناع البيروقراطية في وزارة الدفاع بالتخلي رسمياً عن فرضية هجوم سوفياتي على إيران . يقول أيضاً : «ليس لدى قيادته الحرية في اختيار الحرب كما تريد ، لأن هيئة رؤساء الأركان المشتركة هي التي تملي مهمتها ، وفقاً للاستراتيجية القومية كما هي مسجلة في وثيقة سرية للغاية بعنوان (أوامر التخطيط الدفاعي Defense Planning Guidance) التي ترسل إليها من وزير الدفاع» .

توقع شوارتزكوبف مقاومة قوية في البنتاغون . وعرضت أفكاره مراراً على نائب الأميرال جون هاو Jon Howe مساعد رئيس هيئة الأركان المشتركة ، دون أن يفعل شيئاً . ولما قدم الأخير استراتيجيته لوزير الدفاع الجديد ديك تشيني ، دعا أمين عام

وزارة الدفاع بول ولفوويتز Paul Wolfowitz ، ومساعد وزير الدفاع للأمن الدولي هنري روين Henry Rowen ، شوارتزكوبف لإبداء رأيه فيها ، فرفض ذلك . ووجد شوارتزكوبف في الجنرال كولن باول Colin Powell الذي عين رئيساً لهيئة رؤساء الأركان المشتركة ، حليفاً له في تغيير الاستراتيجية القديمة . واستغرق التوجه الجديد للقيادة المركزية ، كما تصوره شوارتزكوبف ، سنتين كاملتين .

قرار الرئيس بوش (الأب) باستعمال القوة في الساعات الأولى لغزو العراق للكويت

بعد أن غيرت القيادة المركزية الأمريكية خطتها الإستراتيجية ، وغدا العراق الخطر الذي يتهدد آبار النفط في الخليج ، بدلاً من الاتحاد السوفياتي ، قامت بمناورة «النظرة الداخلية Internal Look» في تموز ١٩٩٠ في القاعدة الجوية إجلين Eglin في ولاية فلوريدا ، وفق سيناريو خيالي يصور (٣٠٠) ألف من القوات العراقية و(٣٢٠٠) دبابة عراقية و(٦٤٠) طائرة مقاتلة تتجمع في جنوب العراق ؛ للهجوم على شبه الجزيرة العربية ، تتصدى لها قوات من القيادة المركزية أقل عدداً ، لمحاولة إيقاف الهجوم العراقي قبل أن يتمكن العراقيون من السيطرة على حقول النفط ومصافيه ، وموانئ العربية السعودية . وحتى يكون التمرين العسكري أكثر واقعية ، طلب القائد الأعلى للقيادة المركزية ، قبل عدة أسابيع من مركز اتصالات القيادة ، إرسال سلسلة من الرسائل الوهمية حول تطور الوضع العسكري في العراق ، إلى القيادات العامة الأمريكية لوحدات الجيش البري والأسطول وسلاح الجو ومشاة البحرية للمشاركة في المناورة . دامت المناورة أسبوعاً كاملاً .

ومن المفارقات العجيبة أنه ما إن انتهت المناورة حتى هدد صدام حسين الكويت والإمارات العربية المتحدة في ١٩٩٠/٧/١٧ بإعلان الحرب عليهما ، واتهمهما بطعن العراق في ظهره بخنجر مسموم ، وذلك من خلال تجاوز حصتيهما من إنتاج النفط المقرر لدى منظمة الدول المصدرة للنفط OPEC ، مما أدى إلى خفض سعر النفط الخام . وأضاف الرئيس العراقي إن جشعهما دفعهما إلى التآمر مع الامبرياليين الأمريكيين والإسرائيليين لتدمير العراق . وفي اليوم نفسه تلقت القيادة المركزية تقارير أولية حول حركة القوات العراقية غير العادية شمال الكويت .

يقول شوارتزكوبف إن الخلاف على حصص الإنتاج بين دول منظمة البلدان

المصدرة للنفط ليس جديداً . ولكن ديون العراق أثناء الحرب العراقية-الإيرانية قد تجاوزت (٨٠) مليار دولار ، ولم يرغب قادة دول الخليج العربية في مساعدته ، وإن عاهل العربية السعودية الملك فهد والسلطان قابوس عاهل عمان يريان في صدام رجلاً فظاً ، ولكنه لم يثر قلقهما ، فقد قاد بلاده إحدى عشرة سنة دون الهجوم على جيرانه العرب . وكانا يعتقدان أن العرب قادرون على تسوية خلافاتهم سلمياً .

كانت الإمارات العربية المتحدة الأولى في طلب المساعدة من الولايات المتحدة . قدم الشيخ محمد بن زايد ، بالاتفاق مع والده ، طلباً لتزويدهم بطائرتي تزويد الوقود جواً . أراد محمد أن يكون سلاحه الجوي مستعداً للدفاع في حالة هجوم عراقي . وطلب إبلاغه مسبقاً باحتمال غارة جوية عراقية . وقد استجابت القيادة الأمريكية لطلبه بعد تردد سببه رفض وزارة الخارجية . ومع اقتراب نهاية تموز ١٩٩٠ أرسلت الطائرتان بحجة القيام بتمارين مشتركة مع سلاح جو الإمارات . ونشر الأمريكيون ثلاث بوارج حربية في الخليج حتى تكشف راداراتها أية غارات عراقية محتملة . وفي الكويت وضع اللواء الصانع واللواء جابر الخالد الصباح القوات الكويتية في حالة تأهب قصوى ، واتخذت مواقع دفاعية شمال مدينة الكويت . ولكن الشيخ جابر الأحمد الصباح ألغى قرارهما ، وطلب من القوات العودة إلى ثكناتها . فقد اعتقد الأمير أن بالإمكان تهدئة صدام حسين بالمال . وزودت وزارة الخارجية الأمريكية وزارة الدفاع برسائل تقول إن المجتمع الدبلوماسي الدولي يرى أن صدام قد جرد حسامه لتخويف الكويت في النقاش حول أسعار النفط ، ولن يهاجم بلد عربي بلداً عربياً آخر .

كانت الاستخبارات الأمريكية تتنبأ صباح كل يوم أن القوات العراقية تتحرك دون توقف . ووضعت المنطقة تحت الرقابة العسكرية الأمريكية . استعمل العراق صحراء منطقة البصرة لتدريب قواته . وظن الأمريكيون ، في البداية ، أن ذلك مجرد تمرين عسكري . ومع نهاية تموز ، بدأت القوات العراقية بمغادرة منطقة المناورة ، وانتشرت جنوب غربي البصرة باتجاه الحدود نحو الكويت . وتقدمت الدبابات وخزنت المواد الحربية قريباً من الوحدات العسكرية ، وتجمعت الطائرات العمودية قرب الوحدات العسكرية الخاصة . ورداً على طلب كويتي معلومات من القيادة الأمريكية حول التهديد العراقي ، أرسل إلى مدينة الكويت القومندان جون فيلي John Feeley ومعه ملف من الصور السرية جداً حول التجمعات العسكرية العراقية . وبعد ظهر ٣١ تموز ١٩٩٠ أبلغت القيادة المركزية وزارة الدفاع أن الحرب بين العراق والكويت أصبحت

حتمية . وقد أكد ذلك محللو وكالة استخبارات الدفاع Defense Intelligence Agency بتقارير مماثلة . أمر كولن باول الجنرال شوارتزكوبف بالحضور إلى واشنطن ، لكي يقدم لوزير الدفاع ديك تشيني وهيئة رؤساء الأركان المشتركة خياراتهم في حالة اندلاع الحرب .

قدم شوارتزكوبف ، بعد ظهر اليوم التالي ، لهيئة رؤساء الأركان المشتركة ، إيجازاً مدته تسعون دقيقة ، بالصور عن الاستعدادات العراقية . سأل تشيني : ماذا سيفعل العراقيون؟ أجاب شوارتزكوبف : «لا شك بوجود خطة عسكرية ، وأعتقد بأنهم سيهاجمون . لن يستولي صدام على البلاد كلها وإنما سيستولي على مواقع جنوب خط العرض ٣٠° ، بالسيطرة على حقول الرميلة النفطية وجزيرة بوبيان التي تسيطر على ميناء أم قصر العراقي ، وسيبقى هناك» . وبعد ذلك عرض الخطط التفصيلية لعمليات جوية وبحرية أمريكية محتملة ضد العراق ، وحدد الأهداف الحيوية العراقية : القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية ، والمنشآت الكهربائية والمصانع . وشرح الخطوط العامة للدفاع عن العربية السعودية .

مع عودة شوارتزكوبف إلى مقر قيادته في تامبا ، تلقى تقارير بأن القوات العراقية دخلت إلى حقل الرميلة النفطي في الأراضي الكويتية . وحوالي الساعة الرابعة صباحاً بتوقيت الكويت ظهر القومندان فيلي ، الذي استيقظ من نومه في الفندق بعد سماع متفجرات عن بعد ، وأسرع إلى السفارة الأمريكية حيث يوجد اتصال مباشر مع القيادة المركزية في تامبا ، وقال : «العراقيون وسط مدينة الكويت . لا بد من إبلاغ الجنرال كولن باول بذلك» . كان باول قد علم بالأمر عن طريق السفير الأمريكي في الكويت نات هاول Nat Howell ، عبر وزارة الخارجية . صعد القومندان فيلي إلى سطح السفارة في الكويت ليعلق على معركة الكويت ، واصفاً الدبابات والطائرات العمودية والطائرات المقاتلة العراقية التي كان يشاهدها . واجهت القوات العراقية مقاومة خفت مع تقدمها . وطوّق رتل من الدبابات المدينة ، متجهاً نحو القواعد العسكرية وحقول النفط في جنوب الكويت .

في اليوم الثاني من الاحتلال العراقي ، ذهب شوارتزكوبف إلى البنتاجون وقدم نفسه إلى مكتب كولن باول ، مستعداً لمرافقته إلى اجتماع مجلس الأمن القومي . ولأول مرة في حياته سيقدم شوارتزكوبف إيجازاً أمام رئيس الولايات المتحدة . قال له باول : إن اجتماعات مجلس الأمن القومي تستهدف قبل كل شيء الرئيس . ولما

يتخذ الرئيس قراراً يتخذه بعد استشارة عدد محدود من المسؤولين . قدم شوارتزكوبف عرضاً أمام باول ، الذي طلب منه أن يقتصر على ما يمكن أن تفعله القيادة المركزية فوراً ، أي العمليات الجوية والبحرية التي وصفها أمام رؤساء الأركان . وطلب منه باول أن لا يتحدث عن طلب قوات برية قبل معرفة نوايا صدام . وقال له : «إن تدخلاً أمريكياً محتملاً يعتمد على مدى التوغل العراقي» ، وأضاف : «أعتقد أننا سندخل الحرب من أجل العربية السعودية ، وأشك أن ندخلها من أجل الكويت» . وذكّره بأنه مجرد مدعو ، وبهذه الصفة يجب أن لا يتكلم إلا إذا طلب منه ذلك .

في اجتماع مجلس الأمن القومي ، بدأ القاضي وليام ويبستر William Webster ، مدير الاستخبارات المركزية ، بالكشف عن المعلومات حول الغزو العراقي للكويت . ولم يختلف في معلوماته عن معلومات القيادة المركزية . وقدم اللفتنانت جنرال برنت سكوكروفت ، مستشار الرئيس للأمن القومي ، وتوم بيكرينغ Tom Pickering ، رئيس بعثة الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة ، وديك تشيني ، وزير الدفاع عروضهم . أما الأعضاء الآخرون فلم يعلقوا على الأحداث .

أراد الرئيس بوش أن يفحص كل جوانب الأزمة : هل توجد إمكانية لتحالف عراقي-إيراني؟ هل باستطاعتنا إيقاف تصدير النفط من العراق والكويت؟ ما هي نتائج هذا على الاقتصاد العالمي؟ لماذا امتنعت اليمن عن التصويت في مجلس الأمن الدولي؟ ماذا باستطاعتنا أن نعمل لمنع المواطنين الأمريكيين من أن يؤخذوا كرهائن؟

لما قدم باول الجنرال شوارتزكوبف قال الأخير : مع أننا لا نستطيع أن نعمل شيئاً لإيقاف الغزو ، إلا أننا نستطيع التأثير على عمليات معينة بقواتنا الجوية والبحرية لإظهار عزم الولايات المتحدة على معاقبة العراق . كان قد مضى على غزو العراق للكويت أربع عشرة ساعة تقريبا . كان واضحاً أن الرئيس بوش عازم على إفشال عدوان صدام . لقد أمرنا أن نكون مستعدين للقتال ، إذا أخذ العراق موظفي السفارة الأمريكية رهائن . وقدّر الرئيس أن هجوماً عراقياً على العربية السعودية يشكل ذريعة للحرب (casus belli) .

خطة الدفاع عن العربية السعودية

في ٣ آب دعا باول شوارتزكوبف لتقديم إيجاز جديد للرئيس بوش . وقال له : هذا الاجتماع سيكون مختلفاً عن الاجتماع الأول . وسيعقد في منتجع كامب

ديفيد ، حيث سيكون الرئيس مع مجموعة محدودة . وعليك أن تقوم بدورك ، خذ الوقت كله من أجل عرض خطتك العملياتية . يقول شوارتزكوبف : «أسوأ السيناريوهات التي تصورتها أصبح حقيقة . الاستيلاء على الكويت استغرق أقل من ثلاثة أيام . ولم يكن لدى العراقيين النية ، كما يبدو ، للبقاء هناك» .

نجحت مصر والأردن والعربية السعودية في عقد مؤتمر قمة لجامعة الدول العربية . ولكن فرق الحرس الجمهوري العراقي الثلاث التي شنت الهجوم الأولي على الكويت ، شرعت في تمركز دباباتها ومدافعها على طول الحدود مع العربية السعودية ، وجلب المؤن إليها . ووجب علينا افتراض أنها تستعد لاجتياز الحدود .

كانت القيادة العليا للقيادة المركزية تحت ضغط شديد . شكلت البوارج الحربية خط صد رادار للإمارات العربية المتحدة . وفي العربية السعودية ومصر أعدت هذه القيادة المساعدة الأمنية بتوفير الطائرات لإجلاء المدنيين الأمريكيين في الكويت . ووضعت حاملة الطائرات إندبندنس Independence تحت القيادة المركزية ، وكانت تحرسها ست بوارج ، وتتجه نحو جزيرة دييجو غارسيا Diego Garcia في المحيط الهندي ، ولكنها تلقت أمراً بالتوجه إلى الخليج . وأعدت القيادة المركزية خطة حظر بحري على العراق . وطلبت من سلاح الجو الأمريكي إعداد خطة إرسال محتمل نحو منطقة العمليات لوحدات موزعة على قواعد متنوعة في الولايات المتحدة . وكان عليها أن ترد على أسئلة كولن باول : كم نحتاج من الوقت للقيام بعملية إنقاذ لموظفي السفارة؟ ماذا تعتقدون أن الجامعة العربية ستفعل؟

كان شوارتزكوبف قائداً صعب المراس ، يدفع العاملين معه إلى العمل بلا رحمة ، ولا يتردد في التكرار والحث على تلبية مطالبه . ويقول لهم : «لا أريد التبجح . لقد اتهم العسكريون الأمريكيون في فيتنام بأنهم كانوا بانتظام يجمّلون الحقيقة لإرضاء رئيس الجمهورية . ولذا كان الرئيس يتخذ قرارات معينة كارثية مبنية على معلومات غير دقيقة . يجب أن لا نكرر هذا الخطأ» .

وفي صباح السبت ٤ آب التقى شوارتزكوبف بكولن باول وديك تشيني في البنتاجون ، وكان يرافقه اللفتنانت جنرال تشوك هورنر Chuck Horner قائد القوات الجوية . أرادوا تقديم إيجاز للرئيس بوش عن الخيار الجوي الذي كان جاهزاً فوراً . وفي كامب ديفيد استقبلهم الرئيس في قاعة الاجتماعات التي ضمت نائبه كويل Quayle ووزير الخارجية جيمس بيكر ، ووزير الدفاع تشيني ، والجنرال سكوكروفت ،

ورئيس هيئة أركان البيت الأبيض جون سنونو ، والقاضي وبستر مدير وكالة الاستخبارات المركزية . عبّر الرئيس بوش عن قلقه على الكويت ومصير الأمريكيين الباقين فيها . وقال : «لا يمكن للولايات المتحدة وبقية العالم البقاء دون رد فعل على العدوان العراقي» .

لما جاء دور شوارتزكوبف ، بدأ ببيان قوة العراق العسكرية ، وقال : «بين الجيوش الدائمة في العالم ، لم يتجاوز جيش صدام في العدد سوى الجيش الصيني والجيش السوفياتي والجيش الفيتنامي ، بينما يحتل جيش الولايات المتحدة المرتبة السابعة . تشتمل آلة الحرب العراقية على (٩٠٠) ألف مقاتل موزعين على (٦٣) فرقة ، منها ثماني فرق مختارة تؤلف الحرس الجمهوري . لدى صدام ضعفا حاجته للدفاع عن بلاده من جيرانه . أما ترسانته الحربية فتحتوي على أفضل الأسلحة المعروضة في السوق الدولي من دبابات سوفياتية T-72 ، ومدافع ثقيلة من جنوب أفريقيا عيار (١٥٥ ملم) ، ومنصات إطلاق صواريخ صينية وسوفياتية أرض-أرض ، وصينية سلك ورم Silkwarm وفرنسية إكزوسيت Exocet ، وطائرات مقاتلة سوفياتية ميغ ٢٩ (MIG29) وطائرات مقاتلة وقاذفة لمدى بعيد سوخوي ٢٤ (SU-24) ، ومقاتلات فرنسية ميراج -١ (Mirage-1) . والقائمة لا تنتهي» . ثم شرح ما لدى العراق من الأسلحة الهجومية الكيمياوية ، التي استعملت في الحملة العسكرية الثانية على شبه جزيرة الفاو ، خلال الحرب العراقية-الإيرانية . وهو سلاح لوجستي غير كاف ، ويتبع الجيش العراقي نظاماً مركزي القيادة ، لا تتخذ فيه القرارات المهمة إلا من صدام نفسه .

وبعد ذلك ، عاد شوارتزكوبف إلى الخيارات الجوية والبحرية المتوافرة لدى الولايات المتحدة . وقال : «كانت الخطة الدفاعية تلك التي استعملناها من أجل مناورة «النظرة الداخلية Internal Look» قبل بضعة أسابيع . ولكننا أثريناها بجدول زمني لانتشار القوات المطلوبة . وقال أيضاً : من أجل تنفيذ هذه الخطة لا بد من تعاون العربية السعودية لاستعمال أراضيها ومطاراتها وموانئها . وإذا أعطى الرئيس الأمر بالموافقة ، فباستطاعتنا نقل لواء من الفرقة (٨٢) المحمولة جواً ، وإن كان لا وزن له أمام دبابات صدام . ونستطيع خلال أسبوعين مضاعفة القوات البرية إلى ثلاثة أضعاف ، بإضافة لواء من مشاة البحرية . ومجموعة من القوات الخاصة ، ووحدات أخرى محمولة جواً . وستبدأ وحداتنا الثقيلة بطائرات أباتشي Apache ، ولواء من

المشاة الآلية مع دباباته من نوع أبرامز Abrams . وهذه هي الأسلحة المضادة للدبابات التي نحن بحاجة إليها لإيقاف هجوم صدام . ولحماية هذه القوات حال وصولها لا بد من نقل مئات الطائرات إلى القواعد الجوية السعودية ، بينما يحرك الأسطول حاملتي طائرات مع ما يحرسها من بوارج حربية بما يكفي حقاً لصد هجوم رئيسي عراقي .

كانت هذه هي خطة الدفاع عن العربية السعودية . أما إذا أردنا يوماً طرد العراقيين من الكويت ، فيجب الانتقال إلى خطة هجوم تتطلب قوات متفوقة ومزيداً من الوقت . هذا يتطلب استقدام ست فرق إضافية من الولايات المتحدة والقوات الأمريكية في أوروبا مع القوات المساندة لها . ولاستقدام هذه القوات نحتاج إلى مدة ثمانية إلى عشرة أشهر . كان باول وتشيني يدعمانني بقوة في موقفي» . ولما طلب الرئيس بوش من شوارتزكوبف رأيه في الأزمة وهل تنتهي بحرب قال : «يبدو لي من المحتمل أن تجد الهيئة الدبلوماسية والدول العربية حلاً سلمياً لها» .

يقول شوارتزكوبف : «ماكدت أصل إلى تامبا هذا السبت بعد الظهر حتى اتصل بي هاتفياً كولن باول قائلاً : « طلب الملك فهد تقريراً عن التهديد الواقع على مملكته ، نريد منك الانضمام إلى الوفد الذي سيبين للملك ما نحن على استعداد لفعله . خذ معك من تحتاج من الخبراء الذين سيشرحون للضباط السعوديين ذلك في المناسبة نفسها» .

سأل شوارتزكوبف باول : هل موقف الحكومة الأمريكية بأننا مستعدون لإدخال قواتنا المسلحة؟ أجاب : نعم إذا فوضنا الملك فهد بذلك . يقول شوارتزكوبف : «بوغت بهذا الجواب . لا بد أن أموراً حدثت بعد مغادرتي كامب ديفيد لم يخبرني عنها باول . إذن قرر الرئيس بوش إرسال القوات الأمريكية المسلحة إلى الخليج» .

انتظر الوفد الأمريكي الذي كان برئاسة وزير الدفاع تشيني في المطار تشاس فريمان Chas Freeman سفير الولايات المتحدة في الرياض ، ورافق الوفد طوال إقامته فيها . وضم الوفد ، بالإضافة إلى تشيني وشوارتزكوبف ، بول ولفوويتز الأمين العام لوزارة الدفاع ، وبيت وليامز Pete Williams المكلف بالعلاقات الخارجية في وزارة الدفاع ، وآرت هيوز Art Hugues المختص بالشرق الأوسط في وزارة الدفاع ، والميجور جنرال مارتي براندتنر Marty Brandtner مساعد رئيس العمليات في هيئة رؤساء الأركان المشتركة ، وبوب غيتس Bob Gates مساعد مستشار الرئيس للأمن القومي ، ومحلل في وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) يحمل ملفاً عن أحدث الصور

المأخوذة بالأقمار الصناعية . وجاء شوارتزكوبف أيضاً بالضباط الذين يعرفون الشرق الأوسط : اللفتنانت جنرال تشوك هورنر قائد سلاح الجو ، واللفتنانت جنرال جون يوسوك John Yoesock ، والميجور جنرال دان ستارلنغ Dan Starling المسؤول عن اللوجستيك في القيادة المركزية ، والأميرال غراند شارب Grand Sharp الاستراتيجي المخطط في القيادة المركزية ، ومرافق شوارتزكوبف الكولونيل Burwell Baxter Bell .

انتظر الوفد الملك فهد في جدة في قصر الضيافة المجهز بأفخم الأثاث . ولما دخلوا على الملك فهد ، جلس تشيني على يمين الملك ، وجلس بقية أعضاء الوفد في مقاعد عينت لكل منهم . وحضر الاجتماع ولي العهد الأمير عبد الله ، والأمير فيصل وزير الخارجية ، والأمير بندر ، سفير العربية السعودية في واشنطن ، والأمير عبد الرحمن بن عبد العزيز ، نائب وزير الدفاع والطيران ، واثنان آخران من أفراد الأسرة المالكة . وتولى بندر عملية الترجمة . كان من المفروض أن لا يتحدث من الوفد الأمريكي سوى تشيني وشوارتزكوبف . نقل تشيني إلى الملك تحيات الرئيس بوش ، وعبّر بإيجاز عن قلقه من الوضع في الكويت . ثم التفت إلى شوارتزكوبف وقال : «الجنرال شوارتزكوبف سوف يشرح لكم الوضع كما نراه نحن ، والخيارات العسكرية التي لدينا» .

عرض شوارتزكوبف سلسلة من صور الدبابات العراقية على الحدود السعودية . وقال : «لا نعرف بالتأكيد إذا كان لدى العراقيين النية للهجوم على العربية السعودية . ولكن بالحكم عليهم ، من خلال إنتشار قواتهم والعمليات العراقية المماثلة خلال الحرب الإيرانية-العراقية ، فإنهم يقومون بما نسميه (وقفة إستراتيجية) من أجل أن يعيدوا التسليح والتزويد بالذخيرة والغذاء قبل استئناف العمليات الهجومية . أفضل قواتهم موجودة في الخطوط الأمامية مستعدة للهجوم ، وموقفهم ليس بالتأكيد موقفاً دفاعياً» . ثم شرح لهم الخطوط الكبرى للخطة الدفاعية الأمريكية عن المملكة ، موضحاً بالبيانات القوات التي بالإمكان نقلها إلى العربية السعودية . بعد نهاية إيجاز شوارتزكوبف ، قال تشيني : «هذه هي الرسالة التي كلفني الرئيس بوش نقلها إليك . نحن مستعدون لنشر قواتنا للدفاع عن المملكة العربية السعودية ، إذا طلبتم ذلك منا سنأتي ، وحالما تطلبون منا العودة سنغادر» .

بعد نقاش بين السعوديين بالعربية لم يترجمه بندر ، اتجه الملك فهد نحو تشيني وقال : «حسناً ، موافق» .

عملية درع الصحراء

بعد لقاء الوفد الأمريكي برئاسة ديك تشيني ، وزير الدفاع ، بالملك فهد ، وحصوله على موافقة الملك على انتشار القوات الأمريكية في أراضي المملكة ، من أجل حمايتها من هجوم عراقي محتمل ، عاد الوفد إلى قصر الضيافة في الرياض ، وتداولوا في نتائج اللقاء . قال السفير الأمريكي في الرياض تشارلز فريمان ، الذي يعرف العربية ، والذي تابع الحديث الذي دار بين أفراد الأسرة المالكة بالعربية ولم يترجم إلى الإنكليزية أثناء اللقاء ، إن الأمراء اقترحوا على الملك فهد الصبر والتأني ، ولما قال أحدهم : «يجب تحاشي اتخاذ قرار مستعجل» . رد عليه الملك فهد : «لم يتخذ الكويتيون قراراً عاجلاً ، واليوم نجدهم في فنادقنا» .

وسأل شوارتزكوبف الوزير تشيني : «هل تريد أن أحرك القوات؟» وافق تشيني . والتفت شوارتزكوبف نحو تشوك هورنر ، قائد سلاح الجو في قاعدة شو Shaw الجوية في كارولينا الجنوبية ، وقال : «أريد أربعة أسراب من الطائرات المقاتلة التكتيكية جاهزة للطيران إلى العربية السعودية ، أعطهم يا تشوك الضوء الأخضر» .

استعرض تشيني وشوارتزكوبف برنامجهما في اليوم التالي ، إذ كان عليهما مقابلة الرئيس المصري حسني مبارك قبل العودة إلى واشنطن . وأبلغ شوارتزكوبف تشوك هورنر بتكليفه بالقيادة العليا للقيادة المركزية طوال فترة غيابه ، وكلف الجنرال يوسوك أن يرتب مع القادة العسكريين السعوديين استقبال الفرقة (٨٢) المحمولة جواً على الأرض السعودية . وعهد إلى الجنرال دين ستارلنغ باتخاذ التدابير اللوجستية لاستقبال القوات الأمريكية على الأرض السعودية ، وقال له : هل تعرف يا دين أية تحديات لوجستية تنتظرك؟ أعتمد عليك لإنشاء القواعد . يجب عليك أن تضمن استعداد الموانئ السعودية لاستقبال أول ناقلات التموين من المحيط الهندي ، التي ستصل بين يوم وآخر» . ثم خاطب الأميرال شارب بقوله : «ياغرانت ، طلب بول ولفوويتز أن تصحبه في جولته على دول الخليج لإبلاغها بانتشار قواتنا» . وأضاف مازحاً : «أعرف أن ليس بينكم من يود البقاء هنا . سأحاول أن أعمل على عودتكم إلى الولايات المتحدة خلال ثلاثة أسابيع تقريباً ، وبانتظار ذلك أعدكم بدعوة زوجاتكم لأوضح لهن لماذا وجب عليكم البقاء» .

واتصل شوارتزكوبف بعد ذلك هاتفياً بمساعده الجنرال روجرز Rogers في القيادة المركزية ، وأخبره بأنهم سيستعملون القوات البرية . وأمره أن يطلب من رؤساء الأركان

في الهيئة المشتركة بإعطاء الأمر بنقل الوحدة الأولى للواء المستنفر في الفرقة (٨٢) المحمولة جواً في قاعدة فورت براغ Fort Bragg .

وبعد مقابلة الأمير سلطان بن عبد العزيز ، وزير الدفاع والطيران السعودي صباح يوم ٧ آب ١٩٩٠ ، غادر تشيني وشوارتزكوبف الرياض إلى الاسكندرية ؛ لإبلاغ الرئيس مبارك بنشر القوات الأمريكية في الخليج ، وطلب مساعدته . استقبل مبارك المبعوثين الأمريكيين في شرفة قصره في الاسكندرية المطل على البحر المتوسط . وبعد الاستماع إلى ما قلنا له ، وافق دون تردد . ولما قال له شوارتزكوبف : «نود أيضاً استعمال مصر كقاعدة لطائرتنا الحربية ، سأل : من أي نوع؟» أجاب شوارتزكوبف : «ربما نحتاج طائرات B-52» . أبدى مبارك دهشته ، وقال : «لا أعتقد أنه من الضروري أن نتخذ قراراً بذلك الآن» .

وبعد أن اجتاز المبعوثان الأمريكيان ، في ذلك المساء ، البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي ، أبلغهم البيت الأبيض أن مهمتهما لم تنته بعد ، ويجب أن يعودا إلى المغرب . فقد أدركت وزارة الخارجية متأخرة نوعا ما ، بعد مقابلة الملك فهد والرئيس مبارك ، أن لا بد من إخبار الحسن الثاني ملك المغرب وطلب دعمه . وصل المبعوثان الأمريكيان متأخرين ليلاً إلى قصره في الدار البيضاء ، وبقيا في غرفة خانقة لمدة ساعة . واستقبلهما الملك بود وترحاب . ووعد بالمساعدة .

غادر المبعوثان الدار البيضاء ، وبعد سبع ساعات من الطيران هبطت بهما الطائرة في قاعدة أندروز Andrews الجوية قرب واشنطن . كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل . وعاد كل منهما إلى منزله . بوصول شوارتزكوبف إلى مقر القيادة المركزية في تامبا صباح يوم ١٩٩٠/٨/٨ ، كانت أولى الطائرات التي تحمل الجنود الأمريكيين تهبط في قاعدة الظهران الجوية السعودية .

في الساعة التاسعة من ذلك اليوم ، أعلن الرئيس بوش أن الولايات المتحدة ستقف في وجه العدوان العراقي على الكويت . وكان شوارتزكوبف يخشى من حرب برية في هذه المرحلة ، لإدراكه أن باستطاعة العراقيين غزو المنطقة النفطية السعودية في مدى أسبوع واحد .

كان نقل القوات الأمريكية إلى العربية السعودية مهمة معقدة جداً . مثلاً العدد الكامل للفرقة (٢٤) من المشاة الآلية-أول وحدة مدرعة من القيادة المركزية ، التي كان قد تقرر نقلها تشمل أربع كتائب من الدبابات ، وخمس كتائب من المشاة

الآلية ، وثلاث كتائب مدفعية ، وكتائب مساندة من النقل ، وكتائب طبية ، وكتائب للاتصالات ، وأسراباً من الطائرات العمودية . كل واحدة من هذه الوحدات تطرح مشاكل خاصة بالنقل .

وعلى القيادة المركزية نقل ثلاث فرق من الجيش البري ، يضاف إليها وحدات من السلاح الجوي وفيلقان من مشاة البحرية . كان السؤال الأول الذي طرحه مخطط النقل : ما هي الأولويات؟ أجاب شوارتزكوبف : الوحدات المقاتلة ، والطائرات ، والطائرات العمودية المضادة للدبابات . وبعد ذلك يضع المخططون ، بالتعاون مع الأسلحة المختلفة ، قائمة طويلة بالقوات الواجب نقلها ، وإبلاغ قيادة النقل العسكري في الولايات المتحدة U.S. Transportation Command المكلفة بتنفيذ النقل الجوي والبحري . وهي التي ترسل طائراتها العملاقة للشحن إلى القواعد المعنية . وعلم شوارتزكوبف أن أول وحدة هبطت على الأرض السعودية كانت هيئة أركان فيلق محمول جواً ، مما أثار دهشته واستغرابه .

كان هدف الأسبوع الأول نقل لواء محمول جواً ، غير أن هذا الهدف لم يتحقق ، بينما وصلت ستة أسراب من طائرات F-15 ، F-16 ، المقاتلة إلى العربية السعودية ، وهي ضرورية لحماية القوات البرية ، وصد أي هجوم عراقي جوي ، وضرب طوابير الدبابات التي قد تغزو العربية السعودية . يتألف كل سرب من (٢٤) طائرة . وهذه الأسراب تحتاج (١٥٠٠) ميكانيكي وفني ومصلح أسلحة . وتم نقلهم مع معداتهم على عشر طائرات . يقول شوارتزكوبف : «لم أشهد بحياتي كلها مهمة بهذا التعقيد . ولم أتخذ قط قرارات حاسمة بهذا العدد» .

ويقول أيضاً : «كان من أوائل أوامري منع تناول الكحول وحمل صور الدعارة . في الأسبوع الأول من وصول القوات الأمريكية إلى العربية السعودية طلب الضباط السعوديون وضع القوات الأمريكية تحت قيادتهم ، ولكن لم يستجب لطلبهم ، وظلت القيادة أمريكية مستقلة» .

ويضيف شوارتزكوبف : «وجد السعوديون أنفسهم في المواقع الأمامية أمام تسع فرق عسكرية عراقية تشمل (١٣٠) ألف جندي ، و(١٢٠٠) دبابة ، و(٨٠٠) قطعة مدفعية . ونحن نحتاج إلى خمسة أسابيع حتى نوفر القوة اللازمة للدفاع . وكان ما يرعبني أن يقوم العراقيون بالهجوم علينا قبل الانتهاء من استعداداتنا» .

في ١٩٩٠/٨/٩ ، أمر صدام حسين بإغلاق الحدود العراقية والكويتية ، وأخذ

أكثر من (١٣) ألف عربي وأجنبي رهائن . وكان أخذ الرهائن الأمريكيين يمكن اعتباره ذريعة لإعلان الحرب على العراق .

في صباح ١٩٩٠/٨/١٠ ، اتصل شوارتزكوبف بكولن باول ، وطلب منه أن يعد مخططو سلاح الجو حملة قصف جوي استراتيجي تستهدف القوات المسلحة العراقية والمنشآت العسكرية . وقد أعد هؤلاء خطة سموها «الرعد الفوري Instant Thunder» بحيث تكون المرحلة الأولى من عملية عاصفة الصحراء «Operation Desert Storm» وفي هذه الأثناء فرّ ضابط عراقي إلى مصر ، حاملاً معه خطة غزو للعربية السعودية ، ولكن لم يجد الأمريكيون في الخطة ما يثبت أنها أصلية .

يقول شوارتزكوبف : «حينما وصل كولن باول إلى مقر القيادة المركزية في تامبا ، بعد أسبوع من بدء «عملية درع الصحراء «Operation Desert Shield» أي في ١٩٩٠/٨/١٤ ، كظمت غيظي . والآن بعد أن نظمت مسألة النقل الجوي والبحري ، أسرعت في الذهاب إلى الرياض . واكتشفت أن لا بد من العودة إلى تامبا والإقامة أسبوعاً فيها ، ريثما يتم إنشاء نظام اتصالات لي هناك . وكان باستطاعتي من خلال كمبيوتري الشخصي في تامبا الاتصال بقادة الوحدات العسكرية ، وأية وحدة عسكرية في القيادة المركزية ، بما في ذلك الطائرات في الجو ، والبوارج في البحار ، والوحدات البرية في منطقة الشرق الأوسط . اما في العربية السعودية فالارسال اللاسلكي لدى القوات الأمريكية كان ناقصاً ، ولا بد من إنشاء نظام اتصالات بالأقمار الصناعية محكم يلبي جميع الحاجات .

يثير شوارتزكوبف سؤالاً مهماً أثاره قبله كولن باول : إلى ماذا تهدف هذه العملية العسكرية؟ وقد سأل كولن باول : «مادمنا ننتظر هجوم صدام على العربية السعوية ، نحن متأكدون من مقدرتنا على الدفاع عنها . ولكن إذا لم يحدث هذا الهجوم؟ إنني لا أستطيع تصور أن الولايات المتحدة ستسحب قواتها ما دام صدام يحتل الكويت . ولا فائدة من الانتظار سنة أو أكثر حتى تأخذ الضغوط الدبلوماسية أو الاقتصادية مداها لإقناع صدام بالانسحاب . فأهالي جنودنا لن يقبلوا بالتأكيد أن ينشوي أبناؤهم وبناتهم في الشمس خلال شهور طويلة» . . . قلت لباول : البديل الوحيد شن الهجوم . . . إن خياراً كهذا يحتاج إلى نشر قوات أكثر عدداً وعدة مما هو موجود حالياً . قال لي باول بأنه قلق مثلي على مستقبل «درع الصحراء» ، ولكن البيت الأبيض لم يتخذ بعد أي قرار جديد . وبعد مغادرته ، قلت لنفسي : على الأقل نحن متفقون على الجوهري» .

الخلاف بين المحافظين الجدد والقيادة العسكرية

دعي شوارتزكوبف إلى البنتاجون في ١٩٩٠/٨/١٦ لمساعدة هيئة رؤساء الأركان المشتركة في تقديم إيجاز للرئيس بوش حول التقدم في عملية درع الصحراء. عقد الاجتماع في غرفة الإيجاز التابعة للهيئة المذكورة، بحضور الرئيس بوش ووزير الدفاع تشيني وكولن باول. وبعد إنتهاء الاجتماع سأل باول شوارتزكوبف: «لو وجب عليك طرد العراقيين من الكويت اليوم، فكيف تتصرف؟» أجاب شوارتزكوبف: «كيف؟ لن أفعل ذلك. لن أكون قادراً على ذلك! لقد أفهمت الجميع أننا لا ننشر أعداداً كافية لذلك». ثم سأل: «ولكن افترض أن أحداً أعطاك الأمر». يقول شوارتزكوبف: «ضجرت، والواقع أنني طلبت من المخططين لديّ لتصور هجوم باستعمال قوات درع الصحراء فقط. قالوا لي بعد أن درسوا المشكلة: ليس ذلك ممكناً، والإمكانية الوحيدة التي تصوروها هي مهاجمة الكويت من الجبهة، من أجل قطع خطوط الامداد العراقية. ولكنها ستكون عملية عالية الخطورة، قد تكلف حياة آلاف الأمريكيين. قلت لباول: سوف أريك، بلهجة حزينة، وعلى طرف ورقة رسمت خريطة الكويت، مبيناً عليها محور الهجوم، وقلت: باستطاعتنا السيطرة على مفترق الطرق الحيوي القريب من الجهرة في شمال مدينة الكويت، وبذلك نمنع العراقيين من التزود بالمؤن والمساندة لخطوطهم الأمامية. وإذا استطعنا الحفاظ عليه سيضطرون إلى الانسحاب. ولكن هذا عمل أحمق لأننا سنفقد كل قواتنا. هز رأسه، ثم انتقل إلى موضوعات أخرى. ولما نهضت للمغادرة سألني: هل يزعجك أن أحتفظ بالمخطط؟ وبعد عشرين دقيقة هاتفني من مكتبه ليقول لي بأنه شاهد بوش وتشيني وعرض عليهما خطتي. لقد صعقت وقلت: لحظة يا إلهي لم أوص بهذا قط. في النظام التسلسلي كان باول صلتي بالرئيس، وخشيت أن يورطني في عملية لن تسفر إلا عن كارثة. ولكنه حرص على تطميني بقوله: «لا تقلق يا نورمان، انحصر دوري في الإيضاح».

يقول شوارتزكوبف: «كنت وباول نعتقد أن مظاهرة القوة الأمريكية في العربية السعودية قد تجعل العراق يتراجع، وتفترض أيضاً تسوية. كرر باول قوله: لا أرى بأننا سندخل في حرب بسبب الكويت. من أجل العربية السعودية، نعم، ولكن ليس من أجل الكويت. وكنت أشاركه هذا الرأي».

في ١٩٩٠/٨/١٦، ألقى الرئيس بوش خطاباً، بعد انتهاء الإيجاز العسكري في البنتاجون. وطالب في خطابه «بالانسحاب الفوري والشامل وغير المشروط لجميع

القوات العراقية في الكويت» . ووصف صدام حسين بالكذاب وشبهه بهتلر . يقول شوارتزكوبف الذي كان إلى جانب باول : «التفتّ إلى باول وقلت : هذه ليست لغة قائد مستعد لتسوية ، فأيد ملاحظتي هذه . ومنذئذ أخذ موقف الولايات المتحدة ينتقل إلى شاشة التلفزيون» .

ويضيف شوارتزكوبف : «كنت رغم أنفي مستفزاً بكلمات الرئيس . . فهو يؤكد أن الأمر ليس حماية منابع النفط والممتلكات وإنما ضمان حرية الشعوب . لقد قال : «لا يوجد من يحل محل القيادة الأمريكية ، ولا يمكن للقيادة الأمريكية أن تكون فعالة في غياب القوة الأمريكية» . وبينما كان يستعد الرئيس بوش لدخول سيارته ، عاد وصافح شوارتزكوبف وقال له : «نورمان ، نحن معك حتى النهاية» رد نورمان بقوله : «أنا فخور أن تكون قائدنا الأعلى» .

في ١٩٩٠/٨/٢١ صباحاً حذرت القيادة المركزية الجنرال هورنر في الرياض أن أبا نضال قد وعد العراق بضرب أهداف أمريكية في العربية السعودية . وطلب شوارتزكوبف إخلاء الأمريكيين من الفنادق في العاصمة السعودية والتحقق من خطورة الوضع . ومن جهة أخرى رد صدام حسين على خطاب الرئيس بوش بخطاب تفجيري . قال : «أنت يارئيس الولايات المتحدة كذبت على شعبك ، وسوف تهزم . وآلاف الأمريكيين الذين دفعتهم في هذا النفق المظلم سيعودون محملين بأكفان حزينة» .

كان شوارتزكوبف ما زال يخشى هجوماً برياً عراقياً . وفي ١٦ آب جاء إليه الكولونيل جون واردن John Warden ومجموعة من ضباط سلاح الجو من واشنطن ، ليعرضوا عليه خطتهم للهجوم الجوي على العراق المعروفة «الرعد الفوري» وهي المرحلة الأولى للرد على هجوم عراقي مفترض . وضع واردن إستراتيجية تهدف إلى شل العراق عسكرياً دون تدميره . وكانت الأهداف العراقية لهذه المرحلة قتل صدام حسين ، وتدمير منشآت الاتصالات ، ومحطات الإرسال الإذاعي والتلفزيوني ، وإسكات الدفاعات الجوية ، وتدمير المطارات ومنصات الصواريخ ومصانع الذخيرة والمختبرات العسكرية ومصافي النفط والجسور والسكك الحديدية . وتساءل شوارتزكوبف : كم يحتاج سلاح الجو من الوقت لتنفيذ هذا القصف؟ أجاب واردن : ستة أيام ، إذا توافر للقيادة المركزية (٣٥) سرباً من الطائرات ، أي ضعف ما لديهم آنذاك .

سجل شوارتزكوبف ملاحظاته على خطة واردن وقسمها إلى أربع مراحل هي :
١- الرعد الفوري .
٢- تدمير الدفاعات الجوية العراقية في الكويت .
٣- تدمير ٥٠٪ من القوات العراقية .
٤- الهجوم البري الأمريكي .

في نهاية الاجتماع ، طلب شوارتزكوبف من واردن وفريقه الذهاب إلى الرياض لبحث خطته مع الجنرال هورنر . ولما علم الأخير بالأمر ، اتصل بشوارتزكوبف وقال له : «سيدي الجنرال ، لا نريد فيتناماً جديدة ، تخطط فيها واشنطن الأهداف . هذه المهمة من اختصاص قيادة قواتك الجوية» لم يأبه شوارتزكوبف لما قاله هورنر . واتفق الأول مع واردن وفريقه على تسمية هذه الخطة «عملية عاصفة الصحراء Operation Desert Storm» .

في صباح اليوم التالي ، أبلغ شوارتزكوبف كولن باول بأنه وجد فكرة لحملة الهجوم على أربع مراحل . وبعد بضعة أيام من خطاب بوش في ١٩٩٠/٨/٢١ قرر البيت الأبيض فرض حصار بحري على العراق والكويت ، قبل أن يتخذ مجلس الأمن الدولي قراراً بفرض الحصار بالوسائل العسكرية . فالحصار يعد عملاً حربياً . وفي مساء اليوم التالي بدأت القوات الأمريكية باستهداف السفن العراقية في الخليج . ولكن هذا القرار لم ينفذ .

بعد ذلك قرر الرئيس بوش استدعاء الاحتياط للقوات المسلحة . ولديه الصلاحية باستدعاء مئتي ألف جندي من الاحتياط خلال مئة وثمانين يوماً كحد أقصى ، دون الرجوع إلى الكونغرس لأخذ موافقته . وكان شوارتزكوبف محبذاً لهذا الإجراء ، لاعتقاده بأن من أسوأ الأخطاء التي ارتكبت في حرب فيتنام عدم تعبئة الاحتياط . وقد أحدثت تعبئة الاحتياط إرباكاً في البنتاجون . فقد اختلف قادة الجيش البري والأسطول وسلاح الجو ومشاة البحرية والحرس الوطني حول أي وحدات من الاحتياط سترسل إلى منطقة الخليج . والواقع أنه لم ينجز حتى ذلك الوقت ، من خطة القيادة المركزية سوى نصفها ، ولم يتم تعيين وحدات الاحتياط الخاصة . وبعث كولن باول إلى شوارتزكوبف يقول : «أصبحت الجيوش بعيدة عن السيطرة ، وعليك أن تختار ، ولن أصادق إلا على الوحدات التي تطلبها» .

كان شوارتزكوبف يعرف جيداً ما يحتاج : سائقين للشاحنات ، وحمالين في

السفن ، وعمال مخازن للذخيرة ، ومركبي الخطوط الهاتفية ، وميكانيكيين ، وبايجاز العمال الذين يكلفون بمهام شاقة ضرورية لنشر القوات في منطقة العمليات .

كانت قوات الاحتياط بحاجة لأشهر من التدريب قبل أن تكون مستعدة للصعود إلى الميدان . وصل في أيلول ١٩٩٠ لواء من جورجيا إلى المركز الوطني للتدريب في صحراء موجاف Mojave .

في ٢٣ آب ١٩٩٠ استكمل بناء شبكة الاتصالات في العربية السعودية ، وكان على شوارتزكوبف الانتقال إلى الرياض ، وإبقاء الجنرال بك روجرز Buck Rogers مساعد القائد الأعلى للقيادة المركزية في تامبا ، للإشراف على استمرار وصول القوات إلى العربية السعودية دون مشاكل .

بصفته القائد الأعلى للقوات الأمريكية في العربية السعودية ، وضع شوارتزكوبف مباشرة تحت إمرة وزير الدفاع ديك تشيني ، وعملياً كان كولن باول صلته مع واشنطن . قال له باول : «عملي يتكون من إعلام الرئيس بانتظام والبيت الأبيض ووزير الدفاع . اهتم بمسرح عملياتك . وساعتني بواشنطن» . يقول شوارتزكوبف : «منذ الجنرال جورج مارشال أثناء الحرب العالمية الثانية ، لم يحظ ضابط بمدخل مباشر إلى كبار المسؤولين في البيت الأبيض وبثقة الرئيس مثل باول» .

لما اتصل شوارتزكوبف بباول ليبلغه باستعداده للمغادرة إلى الرياض ، طلب منه أن يقدم إيجازاً كاملاً عن خطته للحملة الهجومية الجوية والبرية قبل سفره . اغتاظ شوارتزكوبف من هذا الطلب ، وقال : «لقد قدمت خطة دفاعية للرئيس . سوف أنفذ أوامره التي تشمل نشر قوات دفاعية . وفجأة طلبت مني واشنطن إعداد هجوم باستعمال القوات الدفاعية . هذا غير ممكن . باستطاعتي تقديم تحليل فكري . ولكن هذا منفصل تماماً عن الهجوم الجوي للمرحلة الأولى . ولا يعني أية عملية أوصي بها ، أو أننا قد أعددناها فعلياً ، أو أنني سأكون مستعداً لتحقيقها . أخشى أن شخصاً ما لا يدرك هذا يقول لي فجأة : عفواً ، هذا هجومي؟» قال باول بتعجب : «يانورمان ، ثق بي . يجب أن تثق بي . هل تتخيل أنني سأترك شيئاً مماثلاً يحدث؟ مشكلتي ، هؤلاء الصقور في مجلس الأمن القومي ، الذين لا يتوقفون عن القول إنه يجب علينا دون تأخير إخراج صدام من الكويت ، يجب إعطاؤهم شيئاً ما لتهدئتهم» .

يبدو أن رهان باول كان في الظاهر ، إذا كان في استطاعته إقناع البيت الأبيض أن العسكريين يسيطرون على الأزمة ، ويعدون خطط العمليات بهمة لمواجهة كل

احتمال . وفي صباح ٢٥ آب عرض شوارتزكوبف على باول الصيغة الأخيرة من خطته للقصف الاستراتيجي . وبيّن له كيف أن حملة جوية كهذه ستكون مدخلاً لهجوم بري . وأكد له بشدة أن الفكرة بدفع القوات البرية الموجودة حالياً في السعودية إلى الهجوم على الكويت ، ما زالت أيضاً حمقاء .

علاقة القوات الأمريكية بالسلطات السعودية

فوجئ شوارتزكوبف عند هبوط طائرته في مطار الرياض العسكري ، وخروجه منها ، بارتفاع درجة الحرارة في الظل إلى (٤٥) درجة صباحاً . فهو يقول : «كانت حرارة الصحراء قد خنقتني» وكان في استقباله رفاقه : تشوك هورنر ، وجون يوسوك ، والأمير خالد بن سلطان ، قائد القوات الجوية السعودية ، الذي تعرف عليه لأول مرة . وقد عينه الملك فهد صلة الوصل به .

يقول شوارتزكوبف : التزم الملك فهد بتزويد القوات الأمريكية بالوقود والماء ووسائل النقل الضرورية . وقبل تعيين الأمير خالد ، كان الجنرالات السعوديون يقولون : «ليس مطلوباً منا سوى مساعدتكم ، أما إنفاق المال عليكم فلسنا مفوضين به» .

بعد عشرة أيام من هذا الوضع المحبط ، طلب هورنر ويوسوك مقابلة الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع والطيران ، وعرضا الأمر عليه . استشار سلطان شقيقه الملك ، وقررا دعوة الأمير خالد الابن الأكبر لسلطان . وكان اختيارهما له مثالياً . فقد تخرج خالد في كلية ساندهيرست Sandhurst البريطانية ، وكلية الحرب في سلاح الجو الأمريكي ، في قاعدة ماكسويل Maxwell في ولاية ألباما ، وحصل على بكالوريوس في العلوم السياسية من جامعة أوبورن Auburn الأمريكية . وهو الأمير الأعلى رتبة في القوات المسلحة السعودية . ولما كانت السلطة كلها في أيدي العائلة المالكة ، فقد كان لدى الأمير خالد صلاحية توقيع الشيكات . ومنذ تعيينه بدأت القوات الأمريكية تتلقى الماء والوقود .

يقول شوارتزكوبف : «كان الأمير خالد ، من خلال أسئلته لا يثق بنا . وقال هورنر ويوسوك أنه يخشى إنه يحمل رتبة أعلى وخبرة أطول في القيادة مني . وإنني أحاول تخجيله أو إعطاءه الأوامر . لم يكن لدي أي نية من هذا القبيل . وبعد أسبوع أصبحنا صديقين ، وتعاونا بصورة فعالة .

أعـد الـسـعـوديون لشـوارتزكـوبف مكتـبـاً في الطابق الأول من وزارة الدفـاع ، وخصصوا له قصراً للإقامة فيه ، ولكنه رفضه بأدب ، واختار جناحاً في «فندق حياة» الواقع مقـابل وزارة الدفاع ، وبقي فيه تسعة أشهر . أما مقر قيادته فكان في الطابق الخامس تحت الأرض في مبنى وزارة الدفاع السعودية . وكان هذا الطابق يحتوي على صـالة واسعة مليئة بالمكاتب والضـباط ، تضم ضبـاط اتصـال سعوديين وأمريكيين يعملون معاً . وهم من كل الأسلحة والتخصصات : الطيارون مع الطيارين ، وحرس الـسـواحل مع حرس الـسـواحل ، والمختـصـون في الدفـاع الجوي مع أقـرانهم وهكذا دواليك . وعلى المستوى الأرفع يوجد المقر العام بانتظار اليد الأخيرة للفنيين لمركز القيادة والتحكم المجهز تجهيزاً كاملاً . وفي المستوى نفسه يقع المقر العام على مثال المقر العام للقيادة المركزية في تامبا ، مع مكتب للاستخبارات ، ومركز للاتصالات ، ومكاتب للموظفين ، ومدرج من أربعين مقعداً للإيجاز ، وكمبيوتر شخصي عام لقيادة عملية درع الصحراء إذا اندلعت الحرب .

تعرف شوارتزكوبف على العقداء السعوديين والأمريكيين المسؤولين عن مكتب التنسيق . ولما سألهم : أين تنتشر قواتنا؟ نبهوه إلى خريطة ضخمة مثبتة على الحائط خلفه مباشرة ، تعكس الخطة الدفاعية الأولية التي أعدها الجنرال هورنر والأمير خالد وأركـانهـمـا ، من أجل وضع القـوات الـسـعـودية والأمـريكيـة على الحـدود الـسعودية-الكويتية . يقول شوارتزكوبف : « إن نظرة مني إليها (الخريطة) تكفي لأرى أن هناك مشكلة مهمة . لقد بعثنا إليهم الخطة بالفاكس . وهي خطة الهجوم العراقي التي قـدمها لنا أحد الضباط العراقيين الفارين قبل (١٥) يوماً . وتقوم الخطة على هجوم عام على ثلاثة محاور ، ولكن بسبب العدد غير الكافي ، تركوا دون دفاع إحدى طرق الاقتراب . فالطريق السـاحلي الذي يربط الكويت بجبيل مدافع عنها مثل الطريق بين البلدين . وفي المحور الثالث الذي خططه العراقيون توجد فتحة فارغة خالية من الدفاع طولها ستون كيلومتراً ، باستطاعة صدام حسين تحريك ألف دبابة على هذا المحور ، دون أن يلاحظه أحد قبل التوغل في الأراضي السعودية . ففضلت عدم الكشف عن فضيحة أمام زملائنا من السعوديين ، واكتفيت بالقول : «هذه بداية طيبة» . ومع ابتعادنا عن الخريطة بهدوء ، تمتمت للكولونيل بيل : «لا تنس أخذ صورة لهذه الخريطة واحتفظ بها . هذه ستذكّرنا من أين انطلقنا» .

في تقديره للموقف العسكري عند وصوله إلى الرياض ، يقول شوارتزكوبف :

«باستطاعة صدام شن هجوم الآن وفي كل لحظة ، فلديه (١٥٠) ألف جندي و(١٢٠٠) دبابة . كنت أخشى أن يلقيني في البحر ، وأن تكون خسائري وآلافاً من الضحايا . كانت أولويتي المطلقة تجاوز هذه المخاطرة بأسرع وقت ممكن .

وحول علاقته مع السعوديين يقول : «في مواجهة السعوديين ، كنت مضطراً لعدم نفاذ صبري . فقد ذعرت من أن اهتمامهم الرئيسي لم يكن التهديد العراقي ولا المشروع العسكري الضخم الذي نقوم به ، وإنما الأزمة الثقافية الناجمة عن وصول الأعداد الكبيرة من الأمريكيين فجأة إلى بلادهم . لقد بذلنا ما في وسعنا لتجنب المشاكل : الكحول والمجلات كانت ممنوعة ، وكنا قد وزعنا على القوات تعليمات «مدخل إلى الثقافة العربية» كتبت على عجل من أركان القيادة المركزية . وتبدأ كما يلي : «على الرجال والنساء أن لا يتصافحوا في الأماكن العامة . أما الاتصالات الجسدية بين الأفراد من الجنس نفسه فأمر مباح» . غير أن كل جهودنا كانت عاجزة عن إزالة الصدمة الثقافية . فمثلاً ذعر بعض التجار في وسط الظهران لما رأوا المجندات يدخلن متاجرهم . الجنود لا ينفصلون عن أسلحتهم في منطقة عمليات عسكرية . هؤلاء المجندات يحملن أسلحتهن على أكتافهن . في مخازننا التي استأجرناها ، قامت المجندات بنزع الجاكيت والعمل بقمصان نصف كم . وقيل لنا إن لباسهن غير محتشم ، فالنساء السعوديات لا يبرزن أذرعهن في الأماكن العامة . معظم هذه الحوادث جرت في القاعدة الجوية وفي مدينة الظهران ، حيث عدد الأجانب كثير . ولكن خشيت من ردود فعل أسوأ في الرياض ، التي تعد مدينة مغلقة على الأجانب حتى نهاية السبعينات (من القرن العشرين) . فحتى سنة ١٩٨٨ ، كان المسؤول عن بعثتنا للتدريب العسكري مسموح له الدخول إلى الرياض نهاراً ، ولكن يجب عليه مغادرتها إلى الظهران قبل مغيب الشمس . والآن العديد من الجنود والضباط يقيمون في الرياض» .

يواصل شوارتزكوبف حديثه في هذا الموضوع فيقول : «لا يوجد ضابط غيري يستطيع أن يضمن للسعوديين أن لا تنزل بنات دلاس أو غيرها ويفسدن المملكة التي تعد حامية المدينتين المقدستين في الإسلام : مكة والمدينة . وجب عليّ كل مساء على الساعة العاشرة الذهاب إلى مكتب الأمير خالد في وزارة الدفاع ، والحديث طويلاً إلى وقت متأخر جداً . وهذا أمر طبيعي في العربية السعودية . فالملك فهد نفسه يعمل طوال الليل حتى صلاة الصبح . أجلس مع الأمير خالد ونتحدث طويلاً ،

بينما يقدم لنا مرافقه العصائر والقهوة أو الكابتشينو . وعليّ التسلح بالصبر . والقرارات التي تحتاج إلى ربع ساعة في تامبا أو واشنطن تحتاج إلى ثلاثة ساعات من الحديث والنقاش في الرياض . . . والثقافة السعودية لا تشجع على الصراحة الزائدة . في مساء أحد الأيام قدم لي خالد كيساً قائلاً : «في مخازنكم يبيع البعض قمصان نصف كم التي تصدمنا كثيراً . هذا كيس مليء بها . أرجو أن لا تشتري قواتكم منها . آي ، قلت لنفسي متذكراً ما رأيناه في الولايات المتحدة مكتوباً عليها . تخيلت ما هو مكتوب عليها من كلمات بذيئة وقصص سكر ونباتات الحشيشة ، ورددت على الأمير خالد : لا توجد مشكلة ، سوف أعطي ببساطة الأمر بعدم بيع هذه القمصان ، وبعد ساعتين ، من عودتي إلى مكتبي شاهدت القمصان ووجدت عليها صوراً لطيفة : على أحدها نخلة وجملاً ودبابة . عدت فوراً إلى خالد وقلت : ما الذي يصدم في هذه الصور؟ قال : نحن لا نريد أن نرى صورة دبابة في صحرائنا . وقلت : ولكن صحراءكم ملأى بالدبابات!! أجاب : بالتأكيد ، ولكن لا نريد أن نري ذلك لشعبنا . أخرجت بعد ذلك قميصاً آخر عليه خريطة العربية السعودية مع المدن الرئيسية ، فرد خالد : مكان مدننا سر . قلت : ولكن في كل الأطالس توجد خرائط بلدكم . أجاب خالد : ولكن استيرادها ممنوع في العربية السعودية .

تبين لي أن القمصان نصف كم ممنوع بيعها في مخازن الجيش الأمريكي ، ولكنه مسموح بيعها في محلات الباكستانيين في السوق ، قلت لخالد : «إذا أردتم أن تباع هذه القمصان في بلادكم يجب منع تجاركم من بيعها» .

يعتقد شوارتزكوبف أن هذه القصص يثيرها الإسلاميون المتطرفون ، الذين حاولوا أن يجدوا في الحضور الأمريكي ذريعة لإضعاف سلطة الملك .

أثر القوات الأمريكية في العربية السعودية

يذكر نورمان شوارتزكوبف أن أكثر المشاكل حساسية في علاقات قواته في العربية السعودية ، هي تلك المتصلة بالدين . يقول في مذكراته : «بعد أيام قليلة من وصولي ، اتصل بي الأمير خالد مذعوراً وقال : هل جئتم لنا بحاخام لأول مرة في التاريخ ، يزمّر بقرن الثور في أرض إسلامية؟ وانتهينا باكتشاف أن الحاخام موضوع الاحتجاج لا صلة له بالقيادة المركزية ، ولا يوجد في الشرق الأوسط . وإنما هنالك كاهن عسكري في مكان ما في الولايات المتحدة نقلت عنه صحيفة إسرائيلية

تصريحاً ، قص أحدهم تصريحه من الصحيفة وبعث به إلى الملك» .

وقد استعمل العراقيون الوجود العسكري الأمريكي من أجل إثارة مخاوف السعوديين . أعلنت إذاعة بغداد أن الأمريكيين دنسوا المساجد السعودية ، وأن العديد منهم ذهبوا إلى مكة ، ودخلوا الكعبة ثملين من البيرة . ومن الحالات المثيرة يذكر شوارتزكوبف أن طائفة دينية في ولاية كارولينا الشمالية تدعى السماريتان بورس Samaritan Purse رأت أن تبعث إلى القوات الأمريكية نسخاً من العهد الجديد باللغة العربية مع هذه الملاحظة «هذا هو العهد الجديد باللغة العربية ، يستطيع صديق سعودي أن يساعدك في قراءته» قدم الأمير خالد نسخة منه في يوم من الأيام لشوارتزكوبف وسأله : «ماذا يعني هذا؟» اعترف السعوديون أنه من المستحيل رفض حق القوات الأمريكية في ممارسة دينها ، شريطة أن يقوموا به سراً . وبعد نقاش مستفيض للموضوع مع الأمير خالد ، دعا شوارتزكوبف الكهنة الأمريكيين وقال لهم : «نريد جميعاً أن يكون جنودنا أحراراً في ممارسة دينهم . ولكن لهذه الغاية يجب ممارسته بشيء من السرية . أنتم الكهنة الذين زرتم الرياض وغيرها من المدن السعودية لا تجهلون مدى حساسية السكان تجاه هذا الأمر . إن مجرد رؤية الصليب تصدمهم . أطلب منكم في المدينة أن تزيلوا جميع العلامات والرموز الدينية المسيحية واليهودية عن ملابسكم ، أو تحملوها بصورة لا ترى . أما الكهنة الذين يرافقون الوحدات المقاتلة على الأرض فسوف يستمرون في حمل شاراتهم . أعرف أن هذا لا يسر بعضكم ، ولكن يبدو لي أن هذا مجرد تضحية بسيطة . إذا كنتم تقدّرون شيئاً ما بصفتكم كهنة ، فإن جنودكم يعرفونكم ، فأنتم لستم بحاجة لشارات» . سنواصل الاحتفال بالصلوات كما نفعل دوماً . ولكن من العبث إثارة المتدينين المتطرفين ، وبالتالي لا إعلانات ، ولا دعاية ولا تصوير أفلام . يجب أن لا ترى البلاد الإسلامية هذا على شاشة التلفزيون . يجب أن لا ندفع السعوديين إلى القول : محظور إقامة الصلوات . سيكون ذلك أمراً غير مقبول لدينا ولدى جنودنا ولدى الشعب الأمريكي . توقعت احتجاجات وخاصة في موضوع الشارات ، ولكني فوجئت بقبول الكهنة كل ما طلبته منهم . وذهبوا بعيداً إذ سموا أنفسهم (ضباط المعنويات Morale Officers) .

أما بشأن جلب المغنين والفنانين من الجنس اللطيف ، ففي مساء أحد الأيام ، بعد مرور أسبوعين على وصول شوارتزكوبف إلى الرياض ، اتصل به الأمير خالد هاتفياً وقال : «يجب أن أراك فوراً» . توقع شوارتزكوبف هجوماً برياً قد وقع . ولكن

خالد قال له : «جئت براقصات من Music Hall إلى الظهران من أجل الترفيه عن جنودك . هذا ما شوهد على شاشة CNN» . رد شوارتزكوبف : «ولكن ليس لدينا راقصات ، عماذا تتكلم؟» قال خالد بانفعال : «لقد جئتم ببنات إلى بلادنا» . رد شوارتزكوبف : «أستطيع أن أضمن لك أننا لم نأت بأي راقصة أو مغنية» . رد خالد : «على أي حال ، هذه الصور عرضت على التلفزيون . يجب أن تعطي الأمر بعدم عرضها» .

بعد أن قدم شوارتزكوبف للأمير خالد درساً في حرية الصحافة ، دق جرس الهاتف ، رد خالد وأصغى لحظة ثم أصفر وجهه : كان جلالته (الملك فهد) إنهم يحاولون عرضه عليه من جديد . عاد شوارتزكوبف إلى مكتبه وطلب المسؤول عن العلاقات الخارجية في قيادته وسأله : «هل باستطاعتك أن تعلمني عن هذه المهزلة ، وتزويدي بتسجيل لما أذيع؟» جيء له بشريط فيديو اتضح فيه أن المشاهد سجلت كفيلم بحيث تظهر أناساً يغنون بصراخ وانفعال كالمجانين . لم يتصور شوارتزكوبف أسوأ مما رأى . وقد نقلته محطة CNN للعالم كله . أمر المسؤول : «أريد أن أعرف من أين جاء هذا؟» تبين من التحقيق أن الموظفين في شركة أرامكو Aramco (شركة النفط العربية-الأمريكية) في الظهران وأسرهم هم الذين احتفلوا ، وصور الفيلم الذي بثته محطة CNN .

يقول شوارتزكوبف : «بعد هذا الحادث جمعت القادة الرئيسيين ، واغتنمت حادث الأرامكو لأبيّن ما يجب تجنبه قطعياً : اسمعوا جيداً . أولاً : من وجهة نظر ثقافية لا يمكن عمل هذا . ثانياً : القنصلية الأمريكية هي التي جاءت بالتلفزيون . هذا غباء ، وثالثاً : أنتم أغبياء للذهاب إلى هناك . وما إن أنهيت حديثي حتى انفجر القادة بالضحك . ثم قرأت لهم بعد ذلك مقتبسات من كتاب الصحفي ديفيد لامب David Lamb «العرب The Arabs» . وشرحت لهم أن للشرق الأوسط ثقافة قديمة تعود لآلاف السنين . . . اعترض أحد القادة على منعي المجلات الجنسية ، مؤكداً أن للجنود الحق الدستوري في القراءة ، كما في الولايات المتحدة . رددت عليه بقولي : «آمل أن تعي أن دستور الولايات المتحدة لا يطبق إلا على أرض الولايات المتحدة . وليس لنا أي حق دستوري في العربية السعودية ، فالقانون المطبق هنا هو القانون السعودي فقط . ومثلما نطلب في الولايات المتحدة ، هم يطيعون قوانيننا ، لهم الحق المطلق في أن يطلبوا هنا تطبيق قوانينهم ، وعلينا إطاعتهم» . ووضعنا برنامجاً

للعلاقات العامة مماثلاً لذاك الذي استعملناه في أوروبا . وفي كل مدينة يجب أن يكون الضابط الأعلى رتبة هو المسؤول عنه .

وقال شوارتزكوبف لقادته : «جاوروا السعوديين ، تعرفوا على الرؤساء المدنيين والعسكريين في مدينتكم . ألفوا مجلساً واجتمعوا بهم بانتظام من أجل حل المشاكل متى تظهر . وبدا النظام فعالاً . فقد تقلص عدد المشاكل التي تصل إلى القصر الملكي وإلى الأمير خالد ، بعد إنشاء المجالس ، على الرغم من التدفق المتواصل للقوات الأمريكية» .

وأشغلت بال شوارتزكوبف مسألة إسكان القوات المسلحة في فنادق الرياض . وبحث المسألة مع الأمير خالد ، الذي اقترح عليه إسكانهم في «قرية الإسكان» . التي بنيت على بعد (٢٥) كيلومتراً من الرياض . وهي مؤلفة من بنايات مشمسة أرضها من الرخام ، وتحتوي على مكيفات هوائية وكل وسائل الراحة الحديثة ، ومعزولة عن العالم الخارجي بأسوار عالية . كانت الحكومة السعودية قد أسكنت البدو فيها . ولكن هؤلاء غادروها بعد أسبوع قائلين : لا نريد العيش تحت سقف فوق رؤوسنا ، وسارعوا بالعودة إلى الصحراء . وافق شواتزكوبف على إسكان قواته التي تعمل في الرياض في هذه القرية . وكانت الحافلات تنقلهم كل صباح للمدينة للعمل أو لقضاء حاجاتهم . ارتاح السعوديون لهذا الترتيب لأن الأجانب لا يقيمون في الرياض إقامة دائمة وبنسبة عالية . وارتاح الجنود الأمريكيون لأنه في داخل الأسوار العالية بإمكانهم أن يتصرفوا كما لو كانوا في بلادهم .

يقول شوارتزكوبف : «لم أنجح دوماً في إشعار السعوديين بخطورة الوضع العسكري . وهو ما كان يشغل بالي كثيراً . والواقع أن بإمكان العراقيين الهجوم غداً . ولكن السعوديين لم يعتقدوا في أعماقهم أن بلادهم ستهاجم ، لأن هذا لم يحدث منذ مئتي سنة . وعلى الرغم مما حدث في الكويت ، لم يتصوروا قط غزواً لبلادهم . لما طلبوا منا المجيء ، أدرك الملك فهد بالطبع هذه الخطورة ، غير أن قراره لم يكن كافياً لإيقاظ الشعب وأعضاء الحكومة . لقد أذهلهم عدد الطائرات المقاتلة والطائرات العمودية والبوارج الحربية التي جئنا بها إلى بلادهم . وظنوا أنه في مواجهة نشر قوات كهذه لا يجرؤ أحد على الهجوم . وتجاهلوا القوة العسكرية للعراق» .

طلب شوارتزكوبف من الأمير خالد بناء ملاجئ من أكياس الرمل لحماية وزارة الدفاع والوزارات الأخرى في العاصمة ، خوفاً من إنزال مظلي عراقي . لم يقبل

الفكرة أول الأمر لأن ذلك يبعث الخوف بين السكان . ولكنه ما لبث أن نفذها ببناء ملاجئ من الأسمنت المسلح وراء مبنى وزارة الدفاع ، ووضع الحرس الوطني السيارات المصفحة المسلحة بالرشاشات الثقيلة في الشوارع المجاورة .

عملية نشر القوات الأمريكية في الصحراء السعودية

يتناول شوارتزكوبف في مذكراته المسائل العسكرية في مسرح العمليات في العربية السعودية . يقول في هذا الصدد : «كان من السهل جداً عسكرياً دمج القوات الجوية السعودية بقواتنا . ولم يكن في ذلك ما يستغرب ، لأننا بعنا السعوديين جزءاً من طائراتهم ، وساهمنا في تدريب طياريهم وقياداتهم ومراقبيهم الجويين . ولكن جيشهم الصغير المؤلف من سبعين ألف مقاتل مسألة أخرى . كان الأمير خالد صريحاً من البداية حين قال : «بالنسبة إلى قواتي البرية أحتاج لمساعدتكم ، إنها في حالة يرثى لها» . كانت رواتبها جيدة وأغذيتها جيدة ومجهزة جيدة بدبابات ومدافع وسيارات مصفحة حديثة مصنعة في أمريكا وبريطانيا وفرنسا . كانت القوات السعودية سجينة قواعدها بسبب تنظيمها الذي يؤمن تزويدها على الأرض بالمؤن . إن فرقة مثالية من الجيش البري الأمريكي يصحبها دوماً مئات الميكانيكيين والفنيين والسائقين للشاحنات وأطباء وممرضين وطباخين . . . أما الجيش السعودي فكان يعمل كجمعية مدنية للمملكة ، ويطلب من المؤسسات الخارجية القيام بالأعمال اليدوية . لما اشترى الدبابات مثلاً أبرم عقد صيانة إذا تعطلت كل دبابة فإن الجنود لا يذهبون إلى حجرة المحرك للقيام بالإصلاح ، وإنما يطلبون ذلك من شركة جنرال موترز General Motors . يعمل هذا النظام جيداً داخل القاعدة العسكرية حيث يوجد الفنيون المدنيون ، ولكن مصلحة التصليح لن تأتي إلى ميدان المعركة لإصلاح الدبابة المعطوبة .

بالنسبة إلى عملية درع الصحراء ، خلق هذا الوضع مصاعب بسرعة . فقائد كتيبة على الحدود الكويتية يشكو قائلاً : (باعنا الأمريكيون مواد غير صالحة . جميع دباباتي تكسرت) فوجئت بهذا القول ، لأن ذلك يعني دبابة M-60 وهي دبابة متوسطة جيدة يتسلح بها مشاة البحرية . أرسلنا فريقاً من الخبراء إلى المواقع فحلوا المشكلة بسرعة . كانت مصافي الهواء قد توسخت . في دبابة M-60 حينما تتوسخ المصافي الهوائية يبدأ المحرك بارتفاع حرارته ، ينزل السائق يغير المصافي ويغادر . اما

السعوديون فيتوقفون ولا يعرفون ماذا يفعلون . كان قد تعطل من دبابات الكتيبة البالغة (٢٨) دبابة (٢٤) دبابة» .

ويضيف شوارتزكوبف : «في بداية أيلول ١٩٩٠ سألني الأمير خالد : أين نستطيع شراء مطابخ متحركة . بذلنا كل ما في وسعنا لمساعدته . ولكن من المستحيل إنشاء أنظمة صيانة خلال (٢٤) ساعة» .

يقول شوارتزكوبف : «وعد السعوديون بتزويدنا بالوقود والماء ووسائل النقل ، ولكنهم لم يحققوا ما التزموا به . هذا ولم يتصوروا إسكان قواتنا . وصل الأمريكيون بعشرات الآلاف ، ولكننا لم نعرف أن مضيفينا لا يدرون أين يسكنونهم ، حتى اليوم الذي عرف فيه الجنرال غوس باغوينس Gus Pagonis المسؤول عن الشؤون اللوجستية لقوات درع الصحراء ، أن لدى المملكة احتياطياً من الخيم كبير من مخزونهم لغايات الحج . وقد أنشأ قرى مؤلفة من سلسلة طويلة من الخيم لمقعدين أو أربعة مقاعد ، وخيم كبيرة تتسع لعشرين وثلاثين شخصاً . وللقيام بعمليات الإيجاز جيء بخيم من ألمانيا تستعمل في أعياد البيرة عندهم .

قادني باغونيس بالسيارة إلى ركن بعيد عن القاعدة العسكرية ، حيث جمع عشرات العمال الأجانب صفائح معدنية لبناء غرف للحمامات والمراحيض المتنقلة ، مشابهة لتلك التي كنا نستعملها في فيتنام . وقال لي بفخر : إن الجنود سيحصلون على الماء الساخن حسب رغبتهم . فالشمس تسخن خزانات الماء الموجود فوق الغرف المعدنية حتى درجة الغليان ، وعلى الجنود إنتظار الليل حتى يتمكنوا من الاستحمام .

وقد أعد باغونيس مكاتب بريد ومستوصفات ريفية وغرفاً هاتفية لقواتنا لتمكينها من الاتصال بالولايات المتحدة . كما أعد غرفاً للألعاب وأخرى لبيع شطائر الهمبرغر . فقد كان تحت إمرته (٩٤) وحدة من الاحتياط والحرس الوطني الأمريكي .

في أول لقاء له مع الصحفيين ، يذكر شوارتزكوبف أنه اعتمد القواعد الأربع التالية في جميع لقاءاته الصحفية وهي أولاً : أنه يعرف عن الوضع العسكري أكثر منهم بكثير . وثانياً : لا يوجد قانون يجبرك على الإجابة عن كل الأسئلة ، وثالثاً : لا ترد على أي سؤال قد يخدم العدو ، ورابعاً : لا تكذب أبداً على الشعب الأمريكي .

قام شوارتزكوبف بزيارة لأمير قطر صباح ١٩٩٠/٩/١٥ . قال أمير قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني إنه معجب بسرعة رد الفعل الأمريكي ، وأكد أن أولئك

الذين ساعدوا أصدقاءهم في هذه الأزمة لن ينسوا في المستقبل . وتحدث عن صورة الأمريكيين عند العرب . ورد عليه القائد الأمريكي : إن ثمانين بالمئة من الأمريكيين يدعمون جهدنا في الخليج .

وفي مجال الاستعداد للحرب ، يذكر شوارتزكوبف أن الجنرال تشوك هورنر قائد القوات الجوية في عملية درع الصحراء كان يدرب قواته يومياً في (٢١) قاعدة جوية مجهزة بشكل تام ، وكان بعضها مجرد مدرج للإقلاع فقط . كانت طائرات F-15 وF-16 وA-10 تشكل ستاراً حديدياً ضد هجمات الطائرات العراقية إذا غامرت بدخول الأراضي السعودية . وكانت طائرات الرقابة AWACS التي تطير على ارتفاع عال فوق الأراضي السعودية تراقب كل ما يطير على الطرفين من الحدود .

ولما أعلن العراقيون في منتصف أيلول ١٩٩٠ أنهم اتخذوا الموقف الدفاعي ارتاح شوارتزكوبف ، واتصل بباول هاتفياً وقال له : «ليس لدينا ما نقلق من هجوم . وليس لديهم أي فرصة للسيطرة على حقول النفط» .

وأجرى شوارتزكوبف في الساعة ١٣,٤٥ من بعد ظهر يوم ١٩٩٠/٩/١٩ ، محادثات مع وزير الدفاع الكويتي الشيخ نواف الأحمد الجابر الصباح . سأل الوزير : متى يتم تحرير الكويت ، أجاب القائد الأمريكي : إن أوامره فقط لردع العراقيين والدفاع عن العربية السعودية .

وقبل نهاية شهر أيلول ارتفعت وتيرة التوتر من جديد ، حينما هدد صدام حسين بشن هجوم وقائي ضد إسرائيل . وأصدر مجلس الوزراء العراقي بياناً موجهاً للشعب العراقي كي يستعد لخوض «أم المعارك» . وقام شوارتزكوبف بالتفتيش على منطقة الحدود السعودية الشمالية في الساعة التاسعة من صباح ١٩٩٠/٩/٢٧ .

يقول شوارتزكوبف : «بعد وصولي بقليل إلى الرياض ، زرت عدداً من دول الخليج التي فتحت حدودها للقوات الأمريكية : البحرين وقطر وعمان والإمارات العربية المتحدة ، وقمت بشكر قادتها شخصياً لتزويدنا بموانئ وقواعد جوية ثمينة . ولتطميني بأنهم لا يشعرون بأنهم يتعرضون لغزو من هذا التدفق الضخم للقوات الأمريكية . فالبحرين جزيرة صغيرة ومجموع طائرات سلاحها الجوي (١٨) طائرة . والآن مئات الطائرات الحربية تستعمل مدرجاتها ، وعشرات البوارج الحربية الأمريكية تحرس مياهها الإقليمية .

ما عرفته فاجأني كثيراً . فعرب الخليج عادة ليس لديهم الحماسة الحربية . ولكن

جميع القادة الذين قابلتهم يودون تدمير العراق والهجوم عليه لأنه احتل الكويت . قال الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة ، ولي عهد البحرين : «بدأت حربنا على العراق» . وقد ترددت هذه العبارة من أدنى الخليج إلى أقصاه . لا أحد يذرف دمعاً على مصير آل صباح الحزن ، سواء كان ذلك خطأ أو صحيحاً ، فقد كان جيرانهم الكويتيون الأثرياء متغطرسين ، والعرب يكرهون الكبرياء . ولكن دون أي استفزاز . لقد هاجم صدام دولة عربية أخرى ، وهو يهدد بلادهم بهجوم عائل . ولا يتسامح واحد منهم بهذا . وقد أقلقني هذا لسببين : أولاً لم يبد على السعوديين أنفسهم ميل للانتقال إلى الهجوم . . . قال لي الأمير خالد : «لا نستطيع أن نتركه ينسحب هكذا» . ولكنه أضاف : «ولكن لا نستطيع الهجوم على إخواننا العرب» .

في رأي شوارتزكوبف أن تسوية لإخراج العراقيين من الكويت بالتفاوض ، تعد في نظر عرب الخليج كارثة حقيقية ، لأن صدام سيبقى في مكانه بترسانته الحربية ، بانتظار فرصة أخرى مواتية لدفع جيرانه ثمن تعاونهم مع الغرب . كان عرب الخليج يعون جيداً أن واشنطن لم تدرك بعد ، من الناحية الاستراتيجية أن كل حل غير النصر على العراقيين في الكويت سيكون في نهاية التحليل هزيمة لهم .

التخطيط لتحرير الكويت

وضع البريجيدير جنرال بستر غلوسون Buster Glosson مساعد الجنرال تشوك هورنر أفضل خطة لهجوم جوي على العراق تضمنت مجموعة خيارات واسعة ، ويمكن تنفيذها كعملية مستقلة أو في إطار حملة واسعة النطاق . اتصل شوارتزكوبف بالجنرال كولن باول هاتفياً وقال له : «لدينا الآن خطة ممتازة للقصف الجوي ، إذا أردت شن هجوم جوي فقط ، نحن مستعدون» . لم تكن دول الخليج العربية وحدها ترغب بطرد العراقيين من الكويت ، وإنما كانت واشنطن تنتظر بفارغ الصبر أن تقدم لها القيادة المركزية خياراً هجومياً . يقول شوارتزكوبف : «كنت وهيئة أركاني في اضطراب ، كان علينا أن نحك أدمغتنا . لا توجد ، على ما يبدو ، وسيلة لتنفيذ هجوم ناجح بالقوات المتوافرة لدينا . وفي بداية أيلول طلبت من الجيش فريقاً جديداً من المخططين . أرسل لي أربعة من خريجي «معهد الدراسات العسكرية العليا School of Advanced Military Studies وهو فرع في كلية القيادة والأركان Command and General Staff College» التي مدة الدراسة فيها سنة واحدة تركز فيها على التخطيط

العملياتي . بعد حصولهم على النتائج التي توصلنا إليها ، أعطيتهم التعليمات التالية : افترضوا أن الحملة الجوية يجب أن يعقبها هجوم بري ، ودرسوا الأرض وانتشار العدو ، وأعطوني أفضل وسيلة لطرد العراقيين من الكويت مع قواتهم الموجودة حالياً هناك . أعطيتهم خمسة عشر يوماً لإعداد الخطة المطلوبة» .

وبناء على طلب السفير الأمريكي في الرياض تشاس فريمان ، توجه شوارتزكوبف إلى السفارة . كان فريمان من الأشخاص القلة الذين يعرفون منذ البداية أننا نعد لهجوم على القوات العراقية . ولدى لقائه بشوارتزكوبف قال له : «مشروعك للهجوم يقلقني . قبل أن تذهب بعيداً في هذا الطريق يجب أن أسألك إذا كنت متأكداً تماماً بأنك فهمت الاستراتيجية التي نحاول تطبيقها» . رد شوارتزكوبف : «ليست هذه هي المسألة . أنا أعمل في ظلام مطلق ، أوامري الوحيدة هي الردع والدفاع . وأفترض أن الهدف للهجوم المقبل هو تحرير الكويت وتدمير قدرة العراق على تهديد دول الخليج . لم يقل لي أحد ما هي نيتنا» . قال فريمان : إذا دخلت الولايات المتحدة في حرب ضد العراق سيكون لذلك مضاعفات خطيرة في العالم العربي كله . وأنا أتساءل : إذا كان هناك أحد في واشنطن يفكر حقاً بعمق . رد شوارتزكوبف : «في هذه الحالة سيأتي الوقت للتفكير في المسألة» .

أثار فريمان مشكلة كانت تقلق شوارتزكوبف منذ وصوله إلى الرياض ، وهي أنه أراد التأكد من أنه إذا هاجمهم صدام سيكونون المنتصرين ، ليس في ميدان المعركة وحسب وإنما أيضاً في كتب التاريخ ، بما في ذلك كتب التاريخ العربية . وهذه ليست مشكلة عسكرية ، وهم لا يريدون إعطاء الانطباع أن المستعمرين الغربيين قد فرضوا إرادتهم على سكان المنطقة . ولأجل هذه الغاية نظمت القيادة المركزية حلقة بحث Seminar حول ردود الفعل العربية على عملية تحرير الكويت ، ضمت عشرة من الخبراء الأمريكيين في السفارة في الرياض ، والقيادة المركزية ، ودبلوماسيين وضباطاً من الجيش البري ومشاة البحرية وسلاح الجو ، الذين لهم تجربة طويلة في البلاد العربية . وكان يدير النقاش غوردن براون Gordon Brown المستشار السياسي للقيادة المركزية . وقد ناقش الحضور قائمة طويلة من الأعمال العسكرية التي بإمكان الولايات المتحدة القيام بها ضد العراق ، لتقرير أيها سيكون مقبولاً لدى الحكومات والشعوب العربية . لو قامت الولايات المتحدة وحدها بهجوم جوي على نطاق واسع ، فهل ستحافظ دول الخليج على علاقاتها مع الولايات المتحدة والقيادة المركزية؟ أم أن إدانة

الرأي العام العربي سيجبر الحكومات العربية على الابتعاد عنهما؟ وماذا سيحدث في حالة هجوم بري أمريكي يجبر العراق على الانسحاب من الكويت دون تدمير قوته العسكرية؟

دام النقاش أربع ساعات، وتناول مختلف الخيارات، رأى شوارتزكوبف أن المسألة قد طرحت بصورة سيئة؛ إذ لا يمكن لأي هجوم أن يكون مقبولاً من الناحية الفعلية، إلا بتحقيق شرطين هما: وجوب قتال قوات عربية إلى جانب القوات الأمريكية، والسيطرة عليه أمريكياً. في الذاكرة الجماعية ستكون حرباً ضد صدام حسين من الدول الغربية والدول العربية. ولذا أصر الأمريكيون على مبدأ أساسي في تخطيطهم للحرب؛ وهو وجوب تحرير مدينة الكويت بقوات عربية.

قدم المخططون العسكريون في ١٩٩٠/١٠/٦ خطتهم العملياتية لتحرير الكويت. تضمنت الهجوم على الكويت في الجبهة للسيطرة على ملتقى الطرق الحيوي في شمال غربي العاصمة الكويتية. سر شوارتزكوبف من الخطة. وقدر فريق معهد الدراسات العسكرية المتقدمة الخسائر الأمريكية بألفي قتيل وثمانية آلاف جريح. وتبيّن لشوارتزكوبف أن الهجوم الجبهوي على وسط الدفاعات العراقية يفتقر إلى أي عنصر من عناصر المفاجأة، حتى لو جرى كل شيء على ما يرام، وأن الخسائر الأمريكية ستكون كبيرة. وتصور المخططون ستة سيناريوهات محتملة لشن الهجوم. ولكن إذا وجدت فرقة عسكرية نفسها في صعوبة مثلاً فمن المستحيل مساعدتها، لأن الخطة تعبئ كل الوحدات المدرعة الأمريكية والحليفة دون الاحتفاظ باحتياطي. وحتى لو نجح المهاجمون في السيطرة على ملتقى الطرق، فبإمكان العراقيين أن يشنوا هجوماً مضاداً كبيراً، مستعملين جيشهم المرابط في الشمال. وهذا قد يوصل الجميع إلى حرب استنزاف لصالح العراق بسبب تفوقه العددي. يضاف إلى هذا أن شوارتزكوبف لم يكن متأكداً من أن قوات الحلفاء ستصل إلى مواقعها في الوقت المحدد لها، ولا موافقة الحكومات على مشاركتها في الهجوم. فاللواء المدرع البريطاني المعروف باسم «فئران الصحراء The Desert Rats» لن يصل قبل منتصف تشرين الثاني، والفرقة الفرنسية بدباباتها الخفيفة وصلت ولكنها لم تنتشر بعد، والفرقة الآلية الثالثة المصرية وصلت ولكن لم ينتشر سوى نصفها، والفرقة المدرعة الرابعة المصرية لم تغادر مصر بعد، وأخيراً الفرقة المدرعة التاسعة السورية كانت في طريقها إلى العربية السعودية.

بعد ظهر ذلك اليوم (١٩٩٠/١٠/٦) طلب كولن باول من شوارتزكوبف إرسال فريق إليه ليقدم لهيئة رؤساء الأركان المشتركة ووزير الدفاع وربما للرئيس بوش ، تقريراً عن خطة تحرير الكويت ، التي عرفت باسم «عملية عاصفة الصحراء Operation Desert Storm» . حذره شوارتزكوبف فوراً بقوله : «فيما يتعلق بالهجوم البري ليس لدينا شيء ، كما تعرف» . رد باول : «على أي حال ، خطتك للهجوم الجوي جيدة جداً ، وأريد إعلامهم بها ، ولكن لا تستطيع الاقتصار على الخطة الجوية . يجب أيضاً تقديم خطة هجوم بري» . كان شوارتزكوبف يخشى أن يؤمر بالهجوم بالقوات المتوافرة لديه . ولذا رغب في أن يقدم التقرير شخصياً . ولكن باول رفض ذلك وقال له : «مجيئك إلى واشنطن يثير العديد من الشائعات» . عندها طلب من باول إرسال رئيس أركانه الجنرال بوب جونستون فقبل بذلك .

تألف الفريق الذي سيذهب إلى واشنطن لتقديم تقرير عن عملية عاصفة الصحراء من الجنرال جونستون رئيساً للفريق ، ومن البريجيدير جنرال بستر غلوسون الذي سيقدم الهجوم البري . وحذرهم شوارتزكوبف بقوله : «لا تقولوا أبداً للرئيس إن باستطاعتنا عمل كذا وكذا ، إذا كنا لا نستطيع ذلك . لا تعطوا آراءكم الشخصية ، وعندما تجيبون عن الأسئلة ، لا تقدموا فرضيات . . إذا علمت أن أحدكم فعل هذا سوف يفصل من عمله ويعود إلى منزله» . سلم شوارتزكوبف نص صورة شفافة أعدها بنفسه هو التالي :

«استنتاجات قائد القيادة المركزية»

«مشروع الهجوم البري ليس متيناً . ليس لدينا الآن القدرات الضرورية لهجوم بري . نحن بحاجة إلى قوات ثقيلة إضافية لضمان النجاح .

خطة الدفاع متينة . كما وعدت الرئيس في بداية آب ، القوات العسكرية للولايات المتحدة هي الآن في حالة دفاع عن العربية السعودية ، وتنفذ سلسلة واسعة من أعمال الرد على العراق» .

وأعطى شوارتزكوبف بيرفس التعليمات التالية : «لما ينته بيرفس من عرض خطة الهجوم البري ، أريد منك أن تنهض من أجل إنهاء الإيجاز بعرض الصور الشفافة هذه» . ولما اعترض على أن يرفض ما عرضه زميله ، قال له شوارتزكوبف : «باستطاعتك أن تقول لهم إن الجنرال شوارتزكوبف قد طلب أن لا تقدم هذه الخطة» .

تعديل عملية عاصفة الصحراء

قدم فريق القيادة المركزية تقريره إلى الرئيس بوش بعد ظهر ١٩٩٠/١٠/١١ ، وعلى أثر ذلك اتصل كولن باول بشوارتزكوبف هاتفياً في الرياض قائلاً : «قدم فريقكم عملاً جيداً . والبيت الأبيض يحبذ جداً خطة الهجوم الجوي . تساءل اثنان أو ثلاثة : لماذا لم تجدوا شيئاً أكثر تخيلاً؟» . قال شوارتزكوبف : «قلت لك منذ البداية بأنني لا أمتلك القوات الكافية لشن حرب برية» . وسأل باول : «كم تحتاج بالضبط لجعل ذلك جيداً؟» رد شوارتزكوبف : «نحتاج فيلقاً من الجيش المدرع بالإضافة إلى ما لدي . ولكن يفضل إجراء تحليل معمق» . واتفق الاثنان على أن تدرس هيئة أركان القيادة المركزية الموضوع . وطلب باول منه : «بيّن لي الحد الأدنى من أعداد القوات التي تحتاجها للدفاع عن العربية السعودية» .

عاد فريق القيادة المركزية في اليوم التالي إلى الرياض ، وأبلغ الجنرال جونستون تفاصيل لقاء الفريق في البيت الأبيض . فكان إلى جانب الرئيس بوش نائبه كويل ، ووزير الخارجية جيمس بيكر ، ووزير الدفاع ديك تشيني ، وجون سنونو والجنرال سكوكروفت وبوب غيتس . وقال جونستون : «قد لا تصدق أنه حينما عرضت الورقة الشفافة الأخيرة التي تقول بأننا بحاجة إلى فيلق من الجيش إضافي ، قال أحد مستشاري الرئيس : يا إلهي! لديه جميع القوات التي يحتاجها ، لماذا لا يريد الهجوم؟» . فأثار بذلك غضب شوارتزكوبف .

في تقديره للوضع الميداني في ١٢ تشرين الأول ١٩٩٠ يقول شوارتزكوبف : «لم يتوقف صدام حسين عن نقل وحداته وتحريكها من أجل إبقائنا في حالة من الشك والريبة . ولكن على مسرح العمليات الكويتية ، لم تتغير مواقع قواته منذ شهر . بقيت فرق المشاة مرابطة على طول الحدود الجنوبية وعلى ساحل الخليج . وكانت الفرق المدرعة خلفها مباشرة في مواقع المساندة . وانتشر الحرس الجمهوري في الشمال على الحدود الإيرانية-الكويتية . كانت القوات العراقية في وضع مستعد لمجابهة كل هجوم قادم من الجنوب أو من الشرق . وهي في ذلك اليوم ثلاثة أضعاف عدد قواتنا وضعف عدد دباباتنا» .

يقول شوارتزكوبف : «التكتيك التقليدي للنصر على جيش كهذا يقوم على تجميده بقوة هجوم جبهوي مع قوات مساندة تقوم بتطويقه وقذفه في البحر . نظرت إلى الملصقات الحمراء التي تمثل الجيش الذي يحتل الكويت على جناحه الغربي ؛

فوجدت قطاعاً من الأرض العراقية يمتد على مدى يعادل ثلاثة أضعاف طول الكويت ، باستثناء بضع تجمعات وقواعد جوية والباقي صحراء . ولا يحتوي هذا الجناح على دفاعات . تصورنا فيما مضى إمكانية شن هجوم بوحدات مدرعة في هذا القطاع . ولكنا أغفلنا هذه الفكرة لأن قواتنا كانت موزعة كثيراً ومتفرقة . ولم نكن متأكدين من إمكانية تزويدها بالذخيرة والوقود على مسافات طويلة . ولما تبيّن أن واشنطن مستعدة لإرسال فرق جديدة ، تغير كل شيء . من المؤكد أن هذه ستكون أهم عملية انتشار للدبابات في الصحراء في التاريخ العسكري للولايات المتحدة . وربما تكون هذه أفضل طريقة لقيادة حملة برية حاسمة وسريعة . في ١٥ تشرين الأول قلت لمخططي القيادة المركزية أن يفترضوا أننا نملك فيلقاً مدرعاً مسانداً ، وتطوير فكرة مناورة التفاف من الجناح الغربي للجيش العراقي» .

في صباح ١٩٩٠/١٠/٢٠ قال الجنرال ستارلنغ Starling المسؤول عن الأعمال اللوجستية لشوارتزكوبف : «لا يدفع السعوديون فواتيرنا ، قال الأخير : «الملك فهد والأمير سلطان والأمير خالد التزموا رسمياً بذلك» . رد ستارلنغ : «نعم سيدي الجنرال ، أعرف ذلك ، ولكن هذا لم يغير شيئاً كما يبدو» . ذهب شوارتزكوبف إلى السفير فريمان لبحث الموضوع معه دون التوصل إلى حل . يقول شوارتزكوبف : «كان من موضوعات محادثاتي الأولى مع الأمير خالد السيارات المستأجرة في الرياض . لما وصلت القوات الجوية في آب ١٩٩٠ ، استأجرت كل وحدة السيارات التي تحتاجها من وكالات محلية موجودة في الرياض . وخلال بضعة أسابيع احتكرت القوات الأمريكية كل سيارات الأجرة الموجودة في الرياض . . . ذهبت إلى خالد وقلت : وعدنا الملك بدفع نقلنا ، كما تعرف ، واستئجار السيارات هي من تكاليف النقل . رد علي بقوله : لا تخف سوف ندفعها . وقلت : لمن تقدم الفواتير؟ رفع حاجبيه بضجر وقال : لا ، لا ، لا أريد فواتير . أعطني قائمة بما يجب وسيجد معاوني شركة موثوقة أعقد معها صفقة . وسيكلف المقر العام لقيادتي إدارة هذا كله . حاولت أن أوضح له أن هذا غير ممكن . فضباط اللوجستيك في الوحدات العملياتية لا يقبلون عملية قرار بطيئة مركزية . لكل وحدة عسكرية مسؤول عن هذه الأمور مثل غوس باغونيس ، يشرف على القوات وعلى كل ما تحتاجه . . في الرياض مثلاً طلب المسؤول عن الأمور اللوجستية من شركة سعودية للمياه كميات ضخمة من مياه البحر النقية ، وفي جبيل وقع المسؤول عن الأمور اللوجستية في مشاة البحرية عقداً بعشرة ملايين دولار لإسكان قواته .

كان الأمير خالد يقول لي كل مرة : وجدت لك الشيء نفسه بخمسة ملايين دولار . أوقف توقيع العقود . ولكن شبابنا يقولون لنا : نحن مجبرون على توقيع هذه العقود . فالقوات لا تتوقف عن الوصول ويجب وضعها في مكان ما . قال خالد : الحل الوحيد الفعال هو تعيين ضباط يستطيعون العمل معنا وتوقيع هذه العقود على الأرض . وجد خالد أن هذه فكرة جيدة . ولكن بمضايقته كثيراً لم يستطع أن يحرك كسل قيادته العامة . حتى لما أمر خدماته اللوجستية دفع الفواتير التي قدمها ستارلنغ لم يتخذوا الإجراءات الضرورية ولم يصل إيدينا دولار واحد» .

يضيف شوارتزكوبف في بيان الأزمة المالية التي واجهها آنذاك : «لم تكن بيروقراطية واشنطن أقل مركزية وأقل جموداً . . . فوزارة الدفاع تخضع لقاعدة مطلقة : ما عدا في حالة الطوارئ القومية ، كل إنفاق أكثر من مئتي ألف دولار يجب أن يوافق عليه الكونغرس . . . وبدون مساعدة اليابانيين كانت عملية درع الصحراء ستفلس منذ آب ١٩٩٠ . . . فقد دفعت السفارة اليابانية في الرياض سراً عشرات الملايين من الدولارات لحساب القيادة المركزية . وقد أتاح لنا هذا مواجهة نفقاتنا اليومية . . . وانشغلت إدارة ستارلنغ بتصنيف الوحدات والفواتير لما وعد السعوديون بدفعها عن المدة بين ١٥ آب و١٥ تشرين الأول ١٩٩٠ . بلغ إنفاق القوات الأمريكية (٧٦) مليون دولار . وجاء الميجور جنرال بيل راي Bill Ray في ١٩٩٠/١٠/٩ بفاتورة من وزارة الدفاع الأمريكية أجور النقل الجوي والبحري للقوات الأمريكية التي بلغت (١,٩) مليار دولار .

طلب نواف أحمد الجابر في لقائه مع شوارتزكوبف مساء يوم ١٩٩٠/١٠/٢٠ مساعدته في تجهيز ألوية خفيفة من المشاة للمشاركة في عملية تحرير الكويت وطلب منه تدريبها . وافق القائد الأمريكي على طلب الشيخ نواف بحماسة .

وصل كولن باول الرياض في ١٩٩٠/١٠/٢٢ للاطلاع على الحاجة الحقيقية من القوات الأمريكية للقيام بعملية عاصفة الصحراء . وقد حدد شوارتزكوبف هذه الحاجة بفيلق واحد من الدبابات . وسأله : كم من الوقت يستغرق نقل القوات المدرعة التي يطلبونها؟ فأجابه شوارتزكوبف : ثلاثة أشهر .

في ١٩٩٠/١٠/٢٩ طلب شوارتزكوبف من الاستخبارات العسكرية دراسة تفصيلية لأثر الظروف والأحوال الجوية على العمليات العسكرية في مسرح العمليات ، ولا سيما على حال خطوط الاتصالات في الكويت وشمال شرق

العراق . أراد أن يعرف كل شيء ، عن الأمطار والعواصف الرملية والحرارة وغيرها لفترة تمتد إلى آذار ونيسان ١٩٩٠ .

تدخل وزير الدفاع ديك تشيني وحاول أن يقدم خطة جديدة للحملة البرية أثارت غضب شوارتزكوبف وباول . واضطر الأول إلى دراستها ونقدها وبيان استحالة تطبيقها . وفي ١٩٩٠/١٠/٣١ وجه شوارتزكوبف مذكرة إلى كولن باول جاء فيها ما يلي : «نبذل جهدنا دوماً للتخطيط للعمليات الهجومية ، ولكن حتى أكون صريحاً تماماً نحن نعمل في فراغ كامل ، لنقص التوجيهات ، وانطلاقاً من افتراضات تتغير كل مرة تكون لدى أحدهم في واشنطن فكرة لامعة . والنتيجة أن لدينا هيئة أركان تبذل جهوداً ضخمة وقد أنجزت عملاً باهراً . ولكونها تخضع لضغوط متزايدة وباحترام التأخيرات المتواصلة ، حتى بلغت حد الشعور بالإحباط الشديد ، مع تشجيعات قليلة تأتي من الخارج . ربما كان الحال دوماً هكذا ، ولكنني لا أتذكر في لحظة في التاريخ العسكري ، حيث يوجد قائد مسرح عمليات ، يطلب منه إعداد خطة هجوم لقوات تضم (٣٠٠) ألف أو (٤٠٠) ألف مقاتل-في ثلاثة أو أربعة أيام دون توجيهات إستراتيجية . وأخيراً للدفاع عن هذه الخطة بالتفصيل . أعرف أن هذا العالم ليس مثالياً ، وفي القيادة المركزية نواصل العمل الذي يطلب منا . ولكن في ظروف بهذه الخطورة حيث نحن في خطر ليس على حياة آلاف الجنود الأمريكيين رجالاً ونساءً فحسب ، وإنما أيضاً على سمعة الولايات المتحدة ومستقبل العالم الحر في الشرق الأوسط ، يجب علينا ، على الأقل ، أن تتوافر لدينا إمكانية عمل الأشياء بصورة صحيحة» .

بعد الانتهاء من طباعة المذكرة بوقت قليل ، اتصل كولن باول بشوارتزكوبف هاتفياً وقال له : «اتخذ الرئيس قراراً . في نهاية الأسبوع القادم سيطلب وزير الخارجية بيكر من الملك فهد ومن بقية حلفائنا الموافقة على عملية هجوم . سوف نقدم بعد ذلك هذا المشروع إلى الأمم المتحدة ، ونطلب منها إنذاراً يطلب من العراقيين الانسحاب من الكويت . كن مستعداً لتعزيز قواتنا والدخول في حرب» . سأل شوارتزكوبف : «تعزيزها في أي مدى؟» رد باول : «بمدى واسع ، سوف تحصل على كل ما طلبت وأكثر» . وذكر باول أنه تقرر مضاعفة عدد القوات الأمريكية الموجودة في الخليج .

في ذلك المساء استلم شوارتزكوبف شيكاً بمبلغ (٧٦٠) مليون دولار مسحوباً على

Morgan Guaranty Trust لأمر حكومة الولايات المتحدة بتوقيع الأمير خالد بن سلطان . ونقل الشيك بطائرة خاصة إلى باريس ، ومن باريس إلى نيويورك لإيداعه قبل إغلاق البنوك .

زيارة بيكر وبوش للعربية السعودية في تشرين الثاني ١٩٩٠

اتصل كولن باول بالجنرال شوارتزكوبف هاتفياً في الأول من تشرين الثاني ١٩٩٠ ، وأبلغه أن الرئيس بوش سيزور العربية السعودية في عيد الشكر Thanksgiving Day . وسوف يصل إلى جدة في ١٩٩٠/١١/٢١ ويزور الظهران في اليوم التالي ، حيث سيقضي النهار في تفتيش الوحدات العسكرية المختلفة ، ومشاركة القوات في وجبات عيد الشكر .

وفي الثاني من تشرين الثاني وصل وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر إلى جدة ؛ للطلب من الملك فهد الموافقة على إرسال قوات أمريكية جديدة . ذهب شوارتزكوبف إلى جدة لتزويد الوزير بالمعلومات الضرورية ، ولم يذهب مع الوزير بيكر والسفير فريمان لمقابلة الملك . لما أوضح بيكر للملك أن الولايات المتحدة تتمنى الإعداد لهجوم من الأراضي السعودية ، كان الملك ينتظر بفارغ الصبر هذا الطلب . ولم يتردد في القول : «مع أننا كنا نأمل دوماً في السلام ، إذا كان من الواجب الدخول في حرب ، فالقوات المسلحة السعودية ستقاتل إلى جانبكم» . بيّن بيكر للملك ، بعد ذلك أن لا بد من نقل (١٤٠) ألف جندي إضافي من أجل ذلك . أجاب الملك بهدوء : «لم أفرض قط حداً على عدد القوات» . ثم أثار بيكر ضرورة إبلاغ الدول العربية الأخرى ، فوعد الملك بأن تساعد حكومته في الحصول على موافقتها .

أثار بيكر مسألة احتمال مشاركة إسرائيل في الحرب بالسؤال التالي : «ماذا سيحصل لو جرّت إسرائيل إلى هذه الحرب في أعقاب هجوم عراقي؟» شرح الملك فهد مطولاً المشكلات التي قد يسببها دخول إسرائيل في الحرب في العالم العربي وقال : «من الأفضل للجميع أن تبقى إسرائيل جانباً . وتحت أي ظرف لن تقبل القوات العربية اعتبارها حليفة لإسرائيل» . وأضاف الملك فهد بأنه لا يستطيع الانتظار من إسرائيل أن لا ترد إذا هوجمت . وإذا وجب على إسرائيل الدفاع عن نفسها ، فالقوات السعودية ستواصل قتالها إلى جانبكم» . وكان هذا القول مفاجئاً

لبيكر وفريمان . كما اعتبراه شهادة استثنائية على شجاعة الملك فهد وحسه السياسي .

وأثار بيكر ، بعد ذلك ، موضوعين مهمين : الأول المال : «نريد أن نعرف بصورة واضحة ودقيقة ما الذي ستلتزم العربية السعودية بدفعه؟ ووافق الملك على ما طلبه بيكر . والموضوع الثاني هو : من سيقود الهجوم على العراق؟ تريد واشنطن عبارة تنص على أن الولايات المتحدة هي التي ستقود الحرب . وكان بيكر قد اتفق مع شوارتزكوبف على أن تبقى القيادة مشتركة ، كما هي على أرض الواقع ، على أن تكون للقوات الأمريكية صلاحية الموافقة في نهاية المطاف على جميع العمليات العسكرية . ويستمر الأمير خالد ونورمان شوارتزكوبف متساويين ، شريطة تنفيذ الخطط العسكرية الأمريكية . وقد كتب هذا على ورقة قرأها بيكر للملك فهد مع هذه الملاحظة : «هذه هي العلاقة بين قيادتينا التي تتمناها الولايات المتحدة» . قال الملك فهد : «أعطني هذه الورقة من فضلك ، وسيتم الأمر كما جاء فيها» .

يبدو أن هذه الاتفاقية بين بيكر والملك فهد لم ترض الأمير سلطان وزير الدفاع والطيران ، ففي اجتماع ضمه والأمير خالد وشوارتزكوبف سأل سلطان الأخير بخصوص الورقة التي سلمها الوزير بيكر للملك فهد : «ماذا تعني هذه؟» يقول شوارتزكوبف : «باستطاعتي الرد هكذا : هذه تعني أنه لم يتغير شيء . تبقى قيادتنا المشتركة كما هي على أرض الواقع . ومهما يكن ، وفي ضوء خبرتي في أمور تخطيط العمليات الهجومية ، ترى حكومتي أن أتخذ أنا القرارات النهائية بشأن هذه الخطط» . وبتبني أسلوب الحديث العربي أضفت : «أنا صديقكم وأوكد لكم بأن لا أفعل شيئاً دون موافقتكم وموافقة خالد . سوف نناقش كل شيء وسأستمر في العمل معكم كما كنا نعمل دوماً بالمشاورات المعمقة قبل كل قرار» . ابتهج الأمير سلطان وقال : «هذا تمام ، أنت صديق حقيقي للعربية السعودية» يعقب شوارتزكوبف على ذلك بقوله : «حصل الآن كل فريق على ما يريد . وبعد قليل عيّن الأمير خالد قائداً لمسرح العمليات والقوات الحليفة ، المعادل السعودي للقائد الأعلى للقوات الأمريكية وقوات الائتلاف» .

في تقرير قدمه قسم الاستخبارات العسكرية في ١٩٩٠/١١/٧ عن حال الحركة في الكويت وجنوب شرقي العراق ، وعن حال الأرض والطرق والأحوال الجوية ، بما في ذلك المطر والريح والإضاءة خلال أشهر الخريف والشتاء ، تبين أن منتصف شباط

هو الوقت المناسب لهجوم القوات الأمريكية . وفي نهاية تشرين الثاني أصبحت الصحراء مقبولة ، فقد بلغت درجة الحرارة (٣٨) مئوية . ولكن في المعسكرات المعزولة ظل الجنود يعانون من الرمال والذباب ويلبسون أحذية رديئة ويأكلون طعاماً لا يطاق ، ويتساءلون : هل هناك حرب أم سنعود إلى الوطن؟

في ١٩٩٠/١١/٨ أمر الرئيس بوش بارسال تعزيزات من القوات الأمريكية إلى الخليج . كان شوارتزكوبف قد طلب فرقتين من المدرعات ؛ فبعثت واشنطن له ثلاث فرق مدرعة ولواء واحداً مجهزين بأحدث الدبابات في الجيش البري من نوع M1 A1 . ولحق بهذه القوات أيضاً فرقة ولواء من مشاة البحرية ، وحاملتا طائرات مع حرسهما من البوارج والدارعات البحرية وثلاث مئة طائرة أخرى . لقد ضاعف الرئيس بوش القوات البرية الموجودة آنذاك في الخليج ، وضاعف عدد الدبابات ثلاث مرات ، وزاد القوات الجوية بنسبة ٣٠٪ ، وضاعف عدد القوات البحرية .

وفي اليوم نفسه صدرت تعليمات عن وزير الدفاع الأمريكي بوقف تبادل الجنود خلال العمليات ، مما أغضب بعضهم . وتأكد لدى الجنود وقادتهم أن المعركة قادمة . وفي ١٩٩٠/١١/١١ طلب من شوارتزكوبف أن يدلي برأيه حول ضرورة الحصول على قرار من الكونغرس لإعلان الحرب ، فأجاب : إن السياسة ليست من مهامه ، ولكنه حذر من إعلان الحرب قبل مدة من بدئها ، ويجب أن لا تعلن الحرب قبل أربعة أسابيع .

وصل الرئيس بوش في الموعد المضروب ، واستقبله الملك فهد في مطار جدة . وبدأت زيارته بعشاء رسمي . وقام في اليوم التالي (١٩٩٠/١١/٢٢) بالتفتيش على وحدات الجيش والأسطول وسلاح الجو ومشاة البحرية . نزل في مطار الظهران العسكري يرافقه الجنرال شوارتزكوبف . شكا الرئيس من المعارضة في الكونغرس للحرب وقال : «لا أفهم حقاً أن باستطاعة أحدهم أن يعارض لموقف تبنيناه» . وتحدث عن أحاديث لصدام حسين مع مراسلين من محطات تلفزيونية بريطانية وأمريكية . وقال : شاهد هذا . هل يمكن لشخص أن يقابل هتلر خلال الحرب العالمية الثانية ، كما يحدث اليوم مع صدام؟ وقارن بين الغزو العراقي للكويت وغزو ألمانيا النازية لتشيكوسلوفاكيا . يقول شوارتزكوبف : «وقد توترت لما قال : إذا استطعنا سحق العراقيين في ثلاثة وأربعة أسابيع ، سوف يتغير هذا النقد لنا فجأة» . وأكد أنه لا يخشى نتائج الاستطلاع ولا معارضة الكونغرس . وأنه يعرف دستورياً أنه ليس

بحاجة إلى موافقة الكونغرس لإعلان الحرب . وهو مقتنع أن الولايات المتحدة تسير في طريق عادل وأخلاقي ، وان العالم المتمدن يشاركه هذا الرأي .

زار الرئيس بوش وحدة من الفيلق الثامن عشر المحمول جواً وألقى كلمة قصيرة فيها ، وتناول قطعة من لحم الديك الرومي والبطاطا المطحونة ، واختلط مع الجنود . وعلى بعد (١٢٠) كيلومتراً شارك الرئيس في قداس ديني على البارجة الحربية ناساو Nassau الأمريكية التي كانت راسية خارج المياه الإقليمية السعودية . وكانت المحطة الأخيرة لجولة الرئيس التفتيشية موقعاً متقدماً لفيلق مشاة البحرية على بعد مئة كيلومتر من حدود الكويت المحتلة ، ووحدة من الفرقة المدرعة الأولى البريطانية (فئران الصحراء) . وألقى الرئيس فيهم خطاباً حماسياً قال فيه : «لن نعمل الأشياء دون إكمالها . لسنا هنا من أجل القيام بالمناورات . لن نغادر قبل أن يغادر الغازي الكويت» .

رفعت زيارة الرئيس بوش من معنويات الجنود . ولكن دعم الشعب الأمريكي لهم كان أعظم بكثير في فترة أعياد الميلاد . فقد كان يصل بالبريد يومياً (٣٠٠) طن ، ما عدا الرسائل والطرود المرسلة من الأهل وأصدقاء الجنود . كانت الهدايا ترسل إلى «جندي» من أناس عاديين ومن مدارس ونقابات ومكاتب وكنائس وجماعات مدنية .

خطة تحرير الكويت التفصيلية

بعد إعلان الرئيس بوش عن إرسال تعزيزات للقوات الأمريكية في الخليج ، اجتمع القائد الأعلى لهذه القوات الجنرال نورمان شوراتزكوبف مع قادة قواته الرئيسيين في فندق الصحراء في الظهران في ١٩٩٠/١١/١٤, وكان عددهم (٢٢) جنرالاً وأميرالاً ، منهم : تشوك هورنر Chuck Horner ، وجويوسوك Joe Yoesock ، وولت بومر Walt Boomer ، وهانك موز Hank Mauz ، وغاري لوك Gary Luck قائد الفيلق الثامن عشر المحمول جواً ، وباري ماك كافري Barry Mc Caffrey ، وبني بيي Binney Peay ، وجيم جونستون Jim Johnston ، وجون تيليلي John H. Tilelli Jr . ومايك ميات Mike Myatt ، ورويال مور Royal Moore ، قائد فرقة مشاة البحرية الأولى ، وفريد فرانكس Fred Famks قائد الفيلق السابع من الجيش البري ، ورونالد غريفيث Ronald Griffith ، وبول فونك Paul E. (Butch) Funk ، وتوم رام Tom

Rhame قائد فرقة المشاة الأولى ، وغوس باغونيس Gus Pagonis . وتولى الكونيل بيل كتابة محضر الاجتماع .

يعتبر شوارتزكوبف هذا الاجتماع أهم اجتماع في حرب تحرير الكويت . قال لهم في هذا الاجتماع : «بدأت بتأكيد الحاجة لحفظ السر المطلق عن كل ما نقوله . ذكرّتهم أن الصحفيين سوف يقصفونهم بالأسئلة . وقلت : لا أريد منكم أن تتكلموا عن العمليات العسكرية . ولا أريد منكم أن تتحدثوا عن قدراتنا العسكرية . ويجب عليكم أن تبلغوا ضباطكم بهذه القواعد . أحذركم بأنني سأتصرف بوحشية مع من يفشي معلومات سرية . كنت قاسياً . ولكن كنت متأكداً أن صحفنا ومحطات تلفزيوناتنا أصبحت أفضل مصدر للمعلومات العسكرية عن العراق . ثم سردت قصة النضال الطويل للقيادة المركزية من أجل دفع واشنطن إلى الاعتراف بأن التعزيزات العسكرية ضرورية لإخراج العراقيين من الكويت . والآن مع وصول الفيلق السابع إلى هنا قلت : الأوامر المكتوبة التي تلقيتها من واشنطن هي دوماً ردع العراق عن الهجوم على العربية السعودية . ولكن ، مما لا شك فيه ، أننا نستعد للانتقال للهجوم . ولهذا نجتمع اليوم . انسوا كل الحماقات التاريخية عن الدفاع . نحن نتحدث الآن عن الهجوم . سوف نواصل الحديث بعبارات الهجوم حتى اليوم الذي نعود فيه إلى بلادنا» .

ويواصل شوارتزكوبف سرده لما دار في هذا الاجتماع : «لخصت لهم تحليلي للقوات العراقية وقواتنا ، مع الإشارة بإيجاز إلى ما يجب أن نعمله في مواجهة ذلك : هم كثر (٤٥٠) ألف مقاتل في هذه اللحظة حتى في المسرح الكويتي ، أي ما يعادل (٢٦) فرقة عسكرية ، وفرقهم معادلة في عددها لفرقنا . نحن وإياهم متساوون في العدد تقريباً . ولصالحهم السلاح الكيمياوي المحتمل استعماله . وقد استعملوه في الماضي . ولا أشك في أنهم سيستعملونه ضدنا . وأشرت أيضاً إلى نقاط الضعف لدى العراقيين . وذكرت القادة بقدراتهم العسكرية . وعرضت في النهاية أهداف حملتنا : الأمر الأول الذي يجب عمله الهجوم على قيادتهم العليا ، مستهدفين قدرتهم على القيادة والسيطرة . وفي المقام الثاني يجب تحقيق التفوق الجوي والحفاظ عليه . وثالثاً : يجب أن نقطع كلياً خطوط إمدادات العدو . ويجب أيضاً تدمير قدرته الكيمياوية والجرثومية والنووية . وأخيراً يجب عليكم تدمير الحرس الجمهوري ، وليس الهجوم عليه ولا إضعافه ولا تطويقه . ولما تنتهون من ذلك لا أريد أن تبقى في العراق

أي قوة مقاتلة فعالة . أريد أن لا يوجد فيه أي تنظيم عسكري ، يجب أن لا نسمح للعراقيين بالانسحاب من الكويت سالمين . سوف ندمر الحرس الجمهوري . إذا تلقينا الأمر بالهجوم سوف نستعمل كل قدراتنا العسكرية ونتابع العمليات على الأرض العراقية .

وصفت لهم المراحل الأربع لعملية عاصفة الصحراء : أولاً القصف الاستراتيجي ، ثم السيطرة على سماء الكويت ، وقصف مواقع المدفعية العراقية ، وشبكة الخنادق والقوات البرية العراقية . وفي النهاية صيغة مطورة كلياً لمناورة تطويق الجيش العراقي التي اقترحتها على باول قبل ثلاثة أسابيع . وعلى الخريطة بيّنت للقادة إلى أين يجب قيادة قواتهم . فالخطة تغطي منطقة واسعة جداً . ومن أجل التأكد من إملاء سير الحملة ، قمنا بدفع حدود منطقة العمليات نحو الغرب ، بحيث تغطي الآن مستطيلاً يعادل مساحة ولاية بنسلفانيا . كانت قوات صدام مركزة في الطرف الشرقي وفي الكويت والمناطق المجاورة لها . أما قوات درع الصحراء فيجب عليها أن تمنع القوات العراقية من التحرك جنوباً . ويوجد شرق القوات العراقية حد طبيعي هو مياه الخليج . ويشكل نهر الفرات عقبة طبيعية عندما تدمر الطائرات الأمريكية الجسور الواقعة عليه . أما في الغرب حيث تمتد مئات الكيلومترات من الصحراء فستكون محورنا الرئيسي للهجوم البري .

بيّنت لهم بأنني أرى هجوماً في اتجاهات أربعة : على الحدود بين العربية السعودية والكويت قرب الخليج ، يجب أن تنفذ فرقتان من مشاة البحرية الأمريكية ومجموعة سعودية خرقاً نحو الكويت بهدف شل قوات صدام ، وبالتالي تطويق مدينة الكويت . والتفت نحو بومر وقلت : أترك لوالت بومر مهمة قرار كيف يعمل ذلك . ولكن لديه أيضاً إمكانية الهجوم من البحر بقواته البرمائية . واحتفظت بممر ثان في الجزء الغربي من الكويت من أجل هجوم مواز تقوم به القوات العربية المؤلفة من فرقتين مصريتين ومجموعة أخرى سعودية . هدفي هو ملتقى الطرق الواقع شمال غربي مدينة الكويت ، الذي يسيطر على خطوط التموين العراقية . وعليه بعد ذلك أخذ مدينة الكويت وقتال العراقيين فيها من منزل إلى آخر .

وفي هذه الأثناء يستعد الجيش الأمريكي في الغرب للقيام بضربة حاسمة . توجهت إلى غاري لوك وأشرت إلى قطاع الحدود العراقية على مسافة أكثر من (٥٠٠) كيلومتر داخل الأراضي العراقية وقلت : سوف أرسل بلا شك الفيلق الثامن المحمول

جواً بعيداً جداً ، بحيث تتوغل فرقه نحو نهر الفرات لقطع الخط الأخير لتراجع الحرس الجمهوري . حالما يصبح متأكداً من السيطرة على هذا القطاع يجب تحريك قواته نحو الشرق للالتقاء بالهجوم على القوات العراقية . وفي النهاية نظرت إلى فريد فرانكس وقلت : افترض طبيعة مهمتك واضحة ، مشيراً إلى قطاع من الصحراء غربي الكويت : هاجم هنا ودمر الحرس الجمهوري . يجب دفعه إلى البحر وإغراقه ثم الانتقال إلى الهجوم وإبادته . وحينما يتحطم استعد للتوغل في العراق نحو بغداد ، ولن تجد من يمنعك من ذلك . وقد بيّنت أنه من غير المجدي الاستيلاء على بغداد ، لأنه في هذه المرحلة تكون الحرب قد انتهت» .

كان المعترض الوحيد على الخطة الجنرال فريد فرانكس الذي قال : «الخطة تبدو لي جيدة ، ولكن ليس لدي قوات كافية لإنجاز المهمة» . طلب فرقة الفرسان الأولى التي أبقيت كقوات احتياط . وقد أبلغ شوارتزكوبف قادته أن يوم الهجوم سيكون حوالي منتصف شهر شباط ١٩٩١ . وعندها قالوا له إن هذا يطرح تحديات لوجستية كبيرة ، أولها أن معظم دباباتهم ما زالت في ألمانيا والولايات المتحدة . ويجب إحضار ما يربو على ثلاث فرق إلى منطقة الخليج ، وإعطاء القوات الوقت الكافي للتكيف ثم نقلها مع موادها مئات الكيلومترات إلى الشمال على الحدود السعودية . وثاني هذه التحديات ناجم عن انتظار بدء الحملة الجوية لانتشار القوات البرية . وكان القصد من ذلك تجنب علم العراقيين بخطة المعركة ، وبذلك يعدلون من مواقعهم الدفاعية . فحالما تقوم القوات الجوية بإنهاء طيران الاستطلاع العراقي سيصبح الجيش العراقي أعمى ، وحتى لو اكتشف الخطة فإن الطائرات الأمريكية ستمنعه من نقل قوات كافية لمواجهة القوات الأمريكية البرية . ولذا أصر شوارتزكوبف على إبقاء قوات فيلق الجيش بقيادة الجنرال فرانكس والجنرال لوك في مناطق تجمع قريبة من الكويت ، على أساس أن تتحرك إلى الغرب حالما تبدأ الحملة الجوية . ولا شك أن تحريك فيلقين من الجيش البري مع تجهيزاتهما ومعداتهما وذخيرتهما لمسافة تربو على (٣٠٠) كيلو متر في الصحراء مشروع عملاق .

وبعد الانتهاء من الرد على الأسئلة التي أثارها القادة العسكريون ، قال لهم شوارتزكوبف : «يجب على جميع قادتنا أن تكون لديهم غريزة القتل . ما أود قوله إنه حينما يضرب مشاة البحرية هنا والجيش البري هناك ، لا يوجد مجال للترهات مثل : سنحاول جس نبض العدو قليلاً ونرى ما سيحدث . في الخط الأول يجب ان يكون

لدينا قادة لديهم الاقتناع المطلق الشامل بأنهم سيتقدمون . وإذا تقدموا لن يتوقفوا لمناقشة الوضع . سيستمرون حتى يسحقوا الحرس الجمهوري . ولا أسمح لنفسي أن أرى قادة لا يدركون في كل خطوة أن هناك مسألة وحيدة هي الهجوم والهجوم والهجوم والتدمير . إذا كان لديكم شخص لا يدرك هذا فإنني أنصحكم بشدة سحبه من القيادة ، وإبدال شخص آخر به ، قادر على القيام بالمهمة . هذا لأننا لا نعيش في أوهام . ما هو في خطر سمعة القوات المسلحة الأمريكية ، وأكثر من ذلك سمعة الولايات المتحدة نفسها هي بين أيدينا . ولا نستطيع أن نعتمد إلا على أنفسنا ، ولن توجد تعزيزات أخرى . يجب القيام بالمهمة بكل ما لدينا . لن نسمح لأنفسنا ولبلادنا بالفشل ، ولا نستطيع الفشل ، ولن نفشل . إذا كان بيننا من لا يدرك هذا عليه أن يخرج من الباب . لا أسئلة؟ تماماً ، حظاً سعيداً للجميع . أنتم تعرفون ما ستفعلون» .

توزيع المهام على قوات الائتلاف في عملية عاصفة الصحراء

قدم الجنرال شوارتزكوبف تقريراً إلى الأمير خالد عن اجتماعه بقادته العسكريين ، الذي عقد في فندق الصحراء في الظهران في ١٩٠/١١/١٤ ، يقول شوارتزكوبف «حينما علم (خالد) بأننا نود التوغل بعمق في الأراضي العراقية أصيب بصدمة أول الأمر ، ولكنه ما لبث أن أبدى حماسته لخطتنا . لم أترك شيئاً للصدفة : طالما كنت أسمع كثيراً التعبير عن الأمنية في تحرير الكويت بالقوات السعودية ، فقد وزعنا هذه القوات على محورين للهجوم على الكويت . تقرر أن يقوم لواءان مدرعان سعوديان بالهجوم من الغرب إلى جانب القوات السورية والمصرية ، وأن يشارك لواءان سعوديان آخران في هجوم مشاة البحرية الأمريكية بقيادة الجنرال بومر على الطريق الساحلي باتجاه مدينة الكويت . كان يقلق خالد الأعمال الدفاعية العراقية : حواجز عالية من الرمل وحقول ألغام وشبكة أسلاك وعقبات أخرى . أكدت له أن المستشارين الأمريكيين علمّوا القوات السعودية على التكتيكات الضرورية لخرق هذه المدفاعات . وهذا يحتاج إلى حفارات مدرعة وكاسحات ألغام ومواد خاصة أخرى» .

قدمت الولايات المتحدة ثلثي عدد القوات البرية المشاركة في عملية عاصفة الصحراء . ولكن حتى تنجح العملية كان شوارتزكوبف بحاجة إلى وحدات مقاتلة من جميع دول الائتلاف . أعلن العراق في ١٩٩٠/١١/١٩ عن إرسال (٢٥٠) ألف جندي إضافي لغايات دفاعية في جنوب العراق في ولايتي الكويت والبصرة . إذا

أرسل صدام حقاً كل تعزيزاته فسوف تبلغ قواته على مسرح العمليات ، حسب تقدير شوارتزكوبف ، (٥٤٥) ألف جندي .

في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٩٠ أبلغ شوارتزكوبف أن جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (الشرطة الدينية السعودية) قامت بغارة على حفل استقبال أقامه بعض أعضاء السفارة الفرنسية لقادة الوحدات العسكرية الفرنسية المشاركة في عملية عاصفة الصحراء . اتصل شوارتزكوبف بالأمير خالد ، مؤكداً له أن لن يتسامح مع عمل من هذا النوع . أكد خالد له أنه إذا حدث مثل هذا الحادث ستتخذ الإجراءات الفورية .

وعن علاقة شوارتزكوبف بالقوات البريطانية المشاركة في عملية عاصفة الصحراء يقول : «بعد عيد الشكر بقليل عرضت خطة المعركة على اللفتنانت جنرال السير بيتردو لابيليير Sir Peter de la Billière قائد القوات البريطانية في الخليج . وهو جندي ومغامر أسطوري ، وقائد سابق للقوات الجوية الخاصة . كما أنه الضابط الذي يحمل أكثر أوسمة في القوات المسلحة البريطانية . لم يكن صدفة أن أذهب لمقابلته أولاً ، فبريطانيا أفضل حلفائنا الغربيين في هذه الأزمة ، دون أن ننسى أن السير بيتر وأنا أصبحنا صديقين . لدي ثقة كبيرة في استخباراته وتقديره ، بحيث كنت أطلب نصيحته في المسائل العسكرية المعقدة . طلبت منه أن تهاجم فرقته المدرعة الأولى (فئران الصحراء) الكويت مع مشاة البحرية الأمريكية بقيادة الجنرال بومر . أصغى إلي دولا بيليير بإيحاء الموافقة بينما كنت أشرح بالتفصيل خطة الهجوم البري . ثم أبدى فجأة ملاحظة بأن الناخبين البريطانيين لا يحبذون أن يقتصر عمل قواتهم على هجوم مساند : فهل أستطيع إشراكهم في الهجوم الرئيسي إلى جانب الفيلق الأمريكي السابع؟» استجاب شوارتزكوبف لطلب القائد البريطاني وعلق على ذلك بقوله : «لا أرى كيف يرفض مثل هذا النوع من الطلبات من حليف مقرب ، حتى ولو كان ذا طبيعة سياسية وليس عسكرية» .

وكانت الحكومة البريطانية قد طلبت من وزير الدفاع الأمريكي ديك تشيني معرفة الأهداف الاستراتيجية والسياسية للائتلاف . ولما تحدث وزير الدفاع البريطاني توم كنغ Tom King مع شوارتزكوبف حول هذا الطلب ، أثناء مروره بالرياض ، طلب الأخير من الجنرال دان شارب Dan Sharp المسؤول عن الخطط والمسائل السياسية في قيادته ، إعداد توجيه إستراتيجي يمكن التوصية به إلى الجنرال كولن باول إذا طلبه .

قدم شارب توجيهاً إستراتيجياً من ثلاث صفحات مضروباً على الآلة الكاتبة ، مستوحى من الأمر التاريخي ليوم الهجوم D Day الذي أعطاه الجنرال دوايت أيزنهاور Dwight Eisenhower في شباط ,١٩٤٤ ولما كانت واشنطن لم ترد رسمياً على طلب لندن ، فقد أعطى شوارتزكوبف نسخة من توجيه شارب للجنرال دولا بيليير مع تعليق منه بهذه العبارة : «سيعطيك هذا على الأقل فكرة بما نفكر بوجوب إعداده» .

قام وزير الطاقة الأمريكي جيمس واتكنز James Watkins بزيارة الرياض في ١٩٩٠/١٢/٢ والتقى بشوارتزكوبف . كان الهدف من الزيارة التأكد من أن هجوماً على العربية السعودية لن يؤدي إلى تدمير منشآتها النفطية ، وأن اندلاع الحرب لن يرفع أسعار النفط كثيراً .

في حديثه عن المشاركة العربية في عملية عاصفة الصحراء ، يقول شوارتزكوبف : «العالم العربي كله ينتظر أن يرى إذا كانت القاهرة ستنضم إلى الهجوم . وموقف الرئيس مبارك العلني هو أن مصر مستعدة للقتال من أجل تحرير الكويت ، ولكنه لا يريد أن يهاجم جيشه الأراضي العراقية . اعتقدت بأني وجدت وسيلة لتطمين مصر بأن العرب سيقاتلون في الكويت ، بينما الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا تقاتل في العراق . ولكن لم أكن متأكداً بأن مبارك مقتنع بذلك» .

قام شوارتزكوبف في ١٩٩٠/١٢/٨ ، بزيارة القاهرة ، بذريعة زيارة مصنع أمريكي-مصري لإنتاج دبابات M-1 . والتقى بثلاثة من كبار المسؤولين العسكريين المصريين هم الجنرالات : يوسف صبري أبو طالب وزير الدفاع ، وأبو شنف رئيس هيئة أركان القوات المسلحة المصرية ، وعمر سليمان ، مدير الاستخبارات العسكرية . شرح القائد الأمريكي لهم خطة الهجوم الجوي والبري المعروفة بعملية عاصفة الصحراء . ووعد وزير الدفاع بالتوصية إلى الرئيس مبارك بقبول الخطة .

في أواخر كانون الأول ١٩٩٠ ، اتصل الجنرال موريس شميت ، قائد القوات الفرنسية من باريس بالجنرال شوارتزكوبف يتمنى أن تشارك قواته في الهجوم ، بحيث تقوم بحماية الجناح الغربي للقوات الأمريكية ، لأن دبابات قواته الخفيفة لا تستطيع مجابهة الدبابات العراقية الثقيلة السوفياتية الصنع . قبل القائد الأمريكي العرض الفرنسي .

أما السوريون فقد وصلت فرقة مدرعة منهم إلى العربية السعودية حوالي منتصف كانون الأول ١٩٩٠ ، ووضعت تحت إمرة الأمير خالد بن سلطان ، وتحددت مهمتها

في المشاركة في الهجوم المصري على الكويت . يقول شوارتزكوبف إن سوريا الدولة الوحيدة المشاركة في الائتلاف التي لم يستشرها في التخطيط لعملية عاصفة الصحراء . ولم يتصل بقائد القوات السورية المشاركة مباشرة ، وإنما كان اتصاله من خلال الأمير خالد .

في ١٩٩٠/١٢/٢٢ كان عمال شحن البواخر والمطارات في العربية السعودية ينزلون المواد والذخيرة والمؤن الأمريكية التي يجب نقلها إلى الجبهة . وشهدت الطرق الصحراوية ازدحاماً لم تشهد مثله من قبل . وأطلق الجنرال غوس باغونيس على هذه العملية «قافلة النور» . وبلغ عدد القوات الأمريكية في منطقة الخليج (٣٠٠) ألف جندي . وبدأت التعزيزات القادمة من ألمانيا بالوصول . كانت الطائرات المقاتلة والقاذفة للائتلاف تمارس يومياً ألف طلعة تدريب . وكان جنود الهندسة يبنون شبكة خنادق مماثلة للخنادق العراقية . وفي ١٩٩٠/١١/١٥ كان قد وصل الجنرال كال وولر Cal Waller إلى الرياض ليصبح مساعداً لشوارتزكوبف في قيادة القوات الأمريكية في الخليج .

اتصل الجنرال باول بشوارتزكوبف في ١٩٩٠/١٢/١١ ، هاتفياً وقال له : «تحدثنا بالأمس في البيت الأبيض عن تاريخ يوم الهجوم . لما ذكرت كموعد محتمل بين ١٠ و٢٠ شباط تجهم الحضور . إذا لم تحل الأزمة قبل ١٥ كانون الثاني ١٩٩١ قد نواجه ضغوطاً قوية للبدء بالهجوم دون تأخير» . رد شوارتزكوبف : «في هذه الحال يجب البدء بالهجوم الجوي والاستمرار في القصف حتى يصبح الهجوم البري جاهزاً» .

وصل وزير الدفاع الأمريكي تشيني إلى الرياض بعد ظهر يوم ١٩٩٠/١٢/١٩ ، يرافقه كولن باول ، في مهمة ليريا إلى أين وصلت استعدادات القوات الأمريكية والحليفة ، لتقديم تقرير للرئيس . وخلال وجودهما في اليومين التاليين استمعا إلى إيجازات عديدة حول تفاصيل عملية عاصفة الصحراء . وعند مغادرة تشيني قال لشوارتزكوبف : «ضخامة هذا المشروع تشرّف جميع ضباطك وجنودك . نحن فخورون بما قمتم به ، ونعرف أنكم مستعدون لعمل الضروري في المستقبل» .

احتفالات عيد الميلاد في الصحراء السعودية

في ١٩٩٠/١٢/٢٣ اتصل شوارتزكوبف بالسفير الأمريكي في الرياض تشاس فريمان هاتفياً ، وأبلغه بالخلاف بين الفرنسيين والسعوديين ، بسبب رفض الأخيرين

السماح لفرقة روك من الموسيقيين ترافقهم راقصات للترويح عن جنودهم . يقول شوارتزكوبف : «كان عليّ التخطيط لعيد الميلاد في منطقة العمليات . وهو تحد مهم في مملكة مسلمة متشددة . بدأ الأمير خالد ، قبل ذلك بشهر ، بالتساؤل عن المبالغات المحتملة في الدين . وقال لي حوالي ١٥ تشرين الثاني : يجب أن تتوقف محطات إذاعتكم عن الإرسال . ولكن ما كدنا أن نبنيها! إين المشكلة؟ قال خالد : المشكلة في إذاعة أغاني عيد الميلاد . قلت له : أستطيع بسهولة حل المشكلة . قال : كيف؟ قلت : أغاني وتراتيل عيد الميلاد توجد على شكلين ، شكل مغنىّ وشكل آلي فقط . سوف نذيع فقط الموسيقى دون كلام . شعر خالد بالارتياح . ووعدته أيضاً بأن تبقى صلواتنا الدينية سرية مثل الماضي : لا إعلان ولا إرسال إذاعياً للصلوات ، ولا عرض رموز دينية ولا مهد (منذود) في الهواء الطلق .

هدأت هذه الوعود الأمير خالد ، ولكن بعض المتعصبين دينياً ما زالوا يشكون . وبناء على تدخلاتهم ، حاولت الرقابة السعودية منع وصول بطاقات عيد الميلاد إلى القوات الأمريكية . وحل الإشكال بإطلاعهم على أطنان من البريد الواصل يومياً . وقد رفض شوارتزكوبف أن تقوم وسائل الإعلام الأمريكية وغيرها بتصوير احتفالات عيد الميلاد على الأرض السعودية .

وصل الفنان الأمريكي بوب هوب Bob Hope مع فرقته ، إلى العربية السعودية في ١٩٩٠/١٢/٢٤ ، تحدث شوارتزكوبف معه في مكتبه في الرياض قبل أن يرافقه إلى قرية الإسكان التي وضعت تحت تصرف القيادة العسكرية الأمريكية ، حيث ستبدأ جولته ليومين في المنطقة . جلس شوارتزكوبف بين صفوف المتفرجين وعددهم (٩٠٠) جندي أمريكي من سلاح الجو . كان بوب هوب وجوني بنش Johnny Bench يرويان قصصاً . وغنّى آرون تيبين Aaron Tippin أغاني ريفية . وقامت زوجة بوب هوب وغنّى الجنود معها أغنية «عيد ميلاد أبيض White Christmas» كان عرض بوب هوب مسلياً . وقد قدمه في عدة قواعد عسكرية في العربية السعودية . ثم واصلت فرقته مع آن جيليان Ann Jillian وماري أوسموند Marie Osmond والأخوات بوينتر Pointer Sisters جولاتها في البحرين لدى الآلاف الثمانية من الطيارين والبحارة ومشاة البحرية الأمريكيين فيها .

بعد عودة شوارتزكوبف إلى مسكنه ، واستمع إلى تراتيل عيد الميلاد ، تلقى اتصالاً هاتفياً من الرئيس جورج بوش الذي قال له : «لم أستطع أن يمر هذا اليوم دون

أن أتمنى عيد ميلاد سعيد لك ولجميع الرجال والنساء تحت قيادتك . أعرف أنك بعيد عمن تحبهم ، وأود أن أؤكد لك بأن أفكارنا وصلواتنا معك . أنت تعرف على أي طريق نسير . صلواتنا تصاحبكم في الأيام القادمة» . شكره شوارتزكوبف باسم القيادة المركزية .

في يوم عيد الميلاد ١٩٩٠/١٢/٢٥ ، زار شوارتزكوبف الوحدات العسكرية طوال النهار يهنئهم بعيد الميلاد . وفي اليوم التالي أبلغ قادة وحداته العسكرية أن الرئيس بوش وافق على خطتهم العسكرية كاملة . وكان يسعى يومياً إلى تذكيرهم بضرورة إعداد جنودهم نفسياً وعاطفياً بأنهم على أبوب الحرب ، وأن يستعدوا ويفكروا بالغارات الجوية وصواريخ العدو وهجمات المغاوير العراقيين . وكان شوارتزكوبف قلقاً لأن السعوديين لا يقلقون ، فكلما اقتربوا من الحرب بدوا أقل تردداً . ولذا بذل جهداً لدفع القيادة العامة السعودية لإدراك خطورة الوضع ، ولا سيما بعد أن قال له أحدهم بأن قادة الوحدات العسكرية العربية القتالية لم يستلموا بعد المعلومات التي يحتاجونها عن خططهم للهجوم .

يقول شوارتزكوبف إنه عشية عيد القديس سلفيستر Saint Sylvester (31/12/1990) أبلغه الأمير خالد أن القوات السورية لن تشارك في الهجوم . ويعقب على ذلك بقوله : «كانت هذه مشكلته . كلما فكرت في هذا الأمر ازددت غضباً ، ليس لأن رفض السوريين للقتال يهدد بشكل خطير تماسك الائتلاف فحسب ، وإنما أيضاً لأنه يثير الشك في خطة العمليات كلها التي هي مسؤوليتي . وبدون دعم الدبابات السورية يخاطر المصريون الذين يهاجمون الكويت بأن يواجهوا قوة نار متفوقة عليهم . وحوالي الظهر واجهت صدمة أخرى . أعلمني بول شوارز Paul Schwars رئيس مركز التنسيق في القيادة العامة أن الأمير خالد قد أعلن أن أفضل تكتيك هو هجوم يشن من تركيا على العراق . وهذا يؤكد بالتأكيد قلق السعوديين وشعورهم بالذنب تجاه فكرة الهجوم على إخوانهم العرب . . . لم يكن خالد في مكتبه . تركت له رسالة تقول بأنني أريد رؤيته للضرورة القصوى . بعد حوالي ساعة ظهر الأمير أمام مكتبي . طلبت من معاوني الخروج . وواجهته بالكلمات التالية : ماهي قصة الهجوم من تركيا؟ من اخترع هذه؟ كيف استطعت أن تعمل تصريحاً علنياً كهذا ، ما دام الملك شخصياً قبل أن تكون الأراضي السعودية منطلق الهجوم؟ لماذا تعتقد أننا حشدنا كل هذه القوات هنا؟ ولماذا تعتقد أننا جلبنا كل هذه التعزيزات منذ شهرين؟

انقطع نفس خالد . قال : «لا يخاطب أحد بهذه اللهجة أميراً سعودياً» . أجبت : أعرف ذلك جيداً . وأضفت : زد على ذلك قد يكون من المفيد الحديث عن السوريين . كيف تتسامح بأن لا يشارك السوريون في الهجوم؟ بدأ يصف لي ما جرى في الكواليس : كانت لدي النية بإعلامك بالتطورات الأخيرة . كان من المفروض أن يزور الأمير سعود الفيصل ، وزير الخارجية السعودي ، دمشق من أجل الحديث مع الرئيس الأسد . استشطت غضباً من دفعي إلى الاهتمام بهذه المناورات السياسية . وقاطعته بقسوة وقلت : «في نظري ، ما جرى واضح تماماً . السوريون منذ ثلاثين سنة أعداء للعراقيين ، والآن جاءت اللحظة ليقولوا ليس لديهم المزاج للقتال ، ربما لأنهم جبناء أو لأنهم يفضلون أن يقوم الآخرون بالعمل القذر مكانهم» .

غضب الأمير خالد وقال : لقد أهنت الإخوة العرب ، ولا أود سماع هذا . قبل أن يخرج من المكتب . لم يتحدث أحدنا إلى الآخر خلال أربع وعشرين ساعة . ولكن بعد إيجاز المساء في اليوم الأول من السنة الجديدة ، التفت نحوي خالد وقال : يجب أن نتحدث . تبعته إلى مكتبه . وتحدثنا وشربنا قهوة الكابتشينو ، وقضينا نصف ساعة نتبادل الاعتذارات للمصالحة . أكد لي خالد أن حكومته ستراعي الخطة المقررة لعملية عاصفة الصحراء ، ثم تحدثنا عن السوريين . قلت له : «فكرت في المسألة . ماذا تقول في حل يسمح للسوريين بالهجوم دون أن يهاجموا ، ينتقلون إلى الهجوم دون أن يهاجموا فعلاً؟ قال : كيف ستأخذ هذا؟ قلت : هذا ما ستقترحه حكومتك عليهم . أنت الجنرال خالد ، قائد القوات العربية تتمنى أن يكون السوريون احتياطاً لك . حالما يقوم المصريون بالاختراق يتبعهم السوريون ، وبذلك يشارك السوريون في الهجوم ، دون أن يقاتلوا إلا إذا كان لدى المصريين مشاكل . إنهم لا يقاتلون إخوة عرباً وإنما يأتون لمساعدة الإخوة العرب الآخرين . تحمس خالد لهذا الحل . ولما قدمت العربية السعودية هذه الخطة للسوريين قبلوا بها» .

بعد أيام من المصالحة بين شوارتزكوبف والأمير خالد ، ذهب الملك فهد إلى الصحراء للتفتيش على قوات الائتلاف . كان لهذه الزيارة أهمية رمزية كبرى . بدأت جولة الملك بمدينة الملك خالد العسكرية ، حيث تجتمع عناصر تمثل مجموع القوات الأمريكية . غطى السعوديون جزءاً من المدرج بسجادة شرقية فخمة ، وفي مواجهة الرصيف عرض الأمريكيون مجموعة من طائرات أباتشي العمودية وتشكيلاً من ألف جندي . وكان قد فتش عليهم شوارتزكوبف قبل مجيء الملك ، وبين لهم أهمية هذه

الزيارة الملكية ، فالملك فهد يجيء ليحييهم ويشكرهم على مجيئهم للدفاع عن العربية السعودية ولما يصل إلى هنا حيّوه وكونوا فخورين بأنفسكم .

لما وصل الملك فهد ونزل على السجادة الحمراء تقدم إليه شوارتزكوبف وحيّاه بهذه العبارات : «أهلاً بجلالة الملك . قواتي مستعدة» . ثم ذهب معه إلى الرصيف حيث عزف النشيدان الوطني السعودي والوطني الأمريكي . ولما كان من المتعذر على الملك فهد أن يفتش القوات ماشياً ، صعد إلى سيارة جيب ومرت ببطء أمام التشكيل وخلفه الجنرال شوارتزكوبف . وبعد التفتيش شكر الملك القوة الأمريكية بالإنكليزية . وانتقل الملك بعد ذلك إلى تشكيل من القوات المتعددة الجنسيات على بعد ثلاثين كيلومتراً ، يرافقه الأمير خالد ، وقف الجنود من العربية السعودية وسوريا ومصر والكويت والمغرب وعمان وقطر ونيجريا وباكستان والسنغال وبريطانيا وفرنسا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا ، بينما جلس الملك في خيمة كبيرة . حيّا الأمير خالد الملك فهد قائلاً : «جميع قواتي مستعدة للخدمة» . ألقى الملك خطاباً طويلاً بالعربية بيّن فيه مشكلات صدام حسين في المنطقة ، وسبب وجود قوات الائتلاف في العربية السعودية . وكان إلى جانب الملك الأمير سلطان وزير الدفاع والطيران . وبعد ذلك انتقل الملك وقادة القوات المتحالفة إلى مكان قريب من مدينة الملك خالد العسكرية ، حيث قدم طعام الغداء . وكان على مائدة الملك الجنرال شوارتزكوبف والجنرال دولا بيليير قائد القوات البريطانية والجنرال ميشيل روكجوفر Michel Roquejeoffre قائد القوات الفرنسية . وانتهى الاحتفال بتناول الغداء .

تعيين يوم الهجوم الجوي وساعته

في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الثامن من كانون الثاني ١٩٩١ ، أبلغ الجنرال كولن باول هاتفياً الجنرال نورمان شوارتزكوبف القائد الأعلى للقوات الأمريكية في الخليج ببدء الهجوم الجوي على القوات العراقية ، في الساعة الثالثة من صباح ١٧ كانون الثاني ١٩٩١ بتوقيت العربية السعودية . عقد شوارتزكوبف اجتماعاً في الظهران في الساعة الثانية بعد ظهر يوم ١٩٩١/١/٩ ، لكبار قادة وحداته العسكرية وأبلغهم بيوم الهجوم وساعته . وفي مساء اليوم نفسه انتهت محادثات وزير الخارجية العراقي طارق عزيز ووزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر بالفشل . وأدرك شوارتزكوبف حتمية الحرب .

بحث شوارتزكوبف مع القيادة في واشنطن أفضل السبل لإبلاغ المشاركين في الائتلاف بيوم الهجوم الجوي وساعته ، دون أن تصل هذه المعلومة إلى العراق . وتقرر إبلاغ الأمير بندر قبل موعد الهجوم بساعات . كما يبلغ قادة بقية الدول المشاركة قواتهم في القتال في الوقت نفسه . كان لدى العراق على ميدان المعركة (٥٤٥) ألف جندي يؤلفون (٣٨) فرقة ، ولديهم (٤٣٠٠) دبابة ، و(٣١٠٠) مدفع . وبنى العراقيون دفاعاتهم الأرضية من حقول ألغام وخنادق مضادة للدبابات ، وحواجز رملية عالية وأسلاك شائكة وحفر وتحصينات طولها (٢٨٠) كيلومتراً . وقد أطلق عليه ضباط الاستخبارات الأمريكية «خط صدام» . وقد أنشئ على فرضية أن الهجوم الأمريكي سيأتي من الجنوب والشرق .

في الساعة الثالثة والنصف من بعد ظهر يوم ١٩٩١/١/١٥ اصطحب شوارتزكوبف الأمير خالد لزيارة الأمير سلطان وزير الدفاع . أعرب الأمير سلطان عن أمله في أن ينسحب العراقيون . وسأل شوارتزكوبف إذا كانت الصواريخ العراقية تصل إلى الرياض . رد القائد الأمريكي أن بإمكان الصواريخ العراقية الوصول إلى الرياض ولكن إصاباتها غير دقيقة ، ومن غير المحتمل أن تصيب هدفاً مهماً . وذكّر الأمير سلطان ان المدينة محصنة بصواريخ باتريوت Patriot الأمريكية . وسأل سلطان إذا كان قصر الملك فهد محمياً بصواريخ باترويت ، رد شوارتزكوبف : أنا متأكد تقريباً من ذلك . أعرب الأمير سلطان عن أمله في أن «نكون أول الضاربين دون ترك المبادرة لصدام» .

وفي الساعة ٢٣,٣٠ من اليوم نفسه أبلغ الجنرال شوارتزكوبف بأنه ووزير الدفاع تشيني قد وقعا أمر تنفيذ قرار الرئيس بوش بأن يبدأ الهجوم الجوي في الساعة الثالثة من صباح ١٩٩١/١/١٧ بتوقيت العربية السعودية . وأن نسخة من الأمر سترسل إليه بالفاكس . قلة محدودة من الضباط في القيادة المركزية كانت تعرف موعد الهجوم الجوي .

يصف شوارتزكوبف مشاعره في هذه اللحظات التي سبقت بدء المعركة : «جلست وفعلت كما يفعل الجنود الذاهبون إلى الحرب . كتبت إلى أهلي لأقول لهم كم أنا أحبهم . نزلت ، بعد أن كتبت رسالة إلى زوجتي وأولادي . وتأكدت من إرسالها بواسطة مرافقي بالبريد ، إلى حيث يجتمع حوالي ثلاثين من الجنرالات والكولونيلات في القيادة العامة . وعند وصولي قال لي أحدهم : أيها السادة : القائد

الأعلى . اتخذ كلهم حالة التهيؤ . تقدمت نحو خريطة كبيرة للعراق والكويت والعربية السعودية ، وواجهتهم قائلاً : أود أن تقرأوا رسالة أرسلتها إلى رجال ونساء القيادة المركزية . وهذا نصها :

«أيها الجنود والبحارة والطيارون ومشاة البحرية في القيادة المركزية للولايات المتحدة ، تبدأ في الساعة الثالثة من هذا الصباح عملية عاصفة الصحراء ، بحملة جوية هجومية تستهدف الالتزام بقرارات الأمم المتحدة ، التي تطلب من العراق إيقاف الغزو والنهب لجارته الأضعف وسحب قواته من الكويت . يقدم الرئيس والكونغرس والشعب الأمريكي والعالم كله دعمهم الكامل لعملكم . أنتم تنتمون إلى أقوى قوة لبلادكم في ائتلاف مع حلفائنا ، تجتمع في مسرح وحيد للعمليات لمواجهة معتد كهذا . أنتم مندفعون دون توقف من أجل هذه المعركة ، وأنتم مستعدون لها . شاهدت ، خلال جولاتي التفتيشية ، في نظراتكم العزيمة المضطرمة للوصول حتى النهاية في هذه المهمة ، والعودة ظافرين بسرعة من أجل العودة إلى بلادنا العظيمة . لي ثقة بكم . قضيتنا عادلة! ستكونون رعد عاصفة الصحراء وبروقها . الله معكم ومع الذين يحبونكم ومع بلادنا . التوقيع : نورمان شوارتزكوبف . القائد الأعلى للقيادة المركزية» .

طلب شوارتزكوبف من الكاهن ديف بيترسون Dave Peterson أن يصلي . وبعد ذلك قدم الكولونيل بيل Bell أغنية لي غرينود Lee Greenwood : «فليبارك الله الولايات المتحدة God Bless The U.S.A» وقف أعضاء هيئة الأركان والدموع في مآقيهم . كانت الساعة ٢,٣٠ أي قبل موعد الهجوم بنصف ساعة .

انضم إلى شوارتزكوبف وهيئة أركانه الأمير خالد والجنرال بيتردو لابيليير والجنرال ميشيل روكجوفر . يجب أن تطلق الطلقات الأولى لعاصفة الصحراء الساعة ٢,٤٠ تماماً . عشر من الطائرات العمودية للجيش البري وسلاح الجو مجهزة خصيصاً للعمليات الخاصة ، يجب أن تقوم بالضربات الأولى . تطير في ظلام دامس على ارتفاع عشرة أمتار فقط فوق الرمال ، مهمتها تدمير محطتي رادار لهما أهمية كبرى تقعان على الحدود العراقية-السعودية . وبعد ذلك يجب على ثماني طائرات مقاتلات-قاذفات من نوع F-15 تتسلل عبر الفضاء الجوي العراقي لتدمير أقرب مركز تنسيق للدفاعات المضادة للطائرات . القصد من هذه العملية فتح ممر تعبر منه مئات الطائرات نحو الأهداف المعينة لها على الأرض العراقية . وفي الوقت نفسه تبدأ

الطائرات المقاتلة من نوع F-117 غاراتها على بغداد .

في الساعة ٢,٤٧ اتصل الكولونيل جيس جوسون قائد قوات العمليات الخاصة في القيادة المركزية من مقر قيادته القريب من الظهران ليعلن تدمير محطتي رادار عراقيتين ، وبعد ذلك بقليل أعاد الاتصال ليعلن أن جميع الطائرات العمودية قد عادت إلى قواعدها سالمة . وذكر الجنرال جاك لايد Jack Leide الذي يتابع ضباطه إرسال الإذاعات والتلفزات الغربية في الساعة ٣,١٠ أن معظم المراسلين في بغداد لم يذكروا أي إمارة على الحياة ، مما يدل على أن محطة إرسال الهواتف في العاصمة العراقية قد دمرت . وبعد ساعة ساد الظلام بغداد ، فصواريخ توماهوك من مشاة البحرية أصابت محطات المولدات الكهربائية . وفي هذا الوقت قامت المقاتلات-القاذفات البريطانية من نوع تورنادو Tornado بقصف المطارات العراقية . وشرعت الطائرات الفرنسية والإيطالية بتدمير قواعد إطلاق الصواريخ ومنصاتها .

كان الهدف في الساعات الثماني والأربعين الأولى أن لا يعطى العراقيون لحظة توقف لتعظيم الصدمة التي يسببها القصف المتواصل . وبعد ظهر اليوم الأول للهجوم الجوي ، أبلغ شوارتزكوف الجنرال كولن باول أن الحصيلة حتى بداية بعد الظهر كانت (٨٥٠) طلعة للطائرات ، ومهاجمة (٢٤٠) هدفاً من الأهداف المسجلة ومنها : قصر صدام على بحيرة بغداد ، ومبنى الاتصالات السلكية واللاسلكية في وسط بغداد ، وقاعدتان لإطلاق صواريخ سكود في غرب العراق ، والمخازن الرئيسية التي تحتوي أسلحة بيولوجية ونووية حسب معلومات الاستخبارات الأمريكية . وكانت خسائر اليوم في الجانب الأمريكي طائرتين ، بينما كانوا يتوقعون (٧٥) طائرة .

صواريخ سكود العراقية وإسرائيل

في اليوم الثاني من الهجوم الجوي على العراق ، أطلقت القوات العراقية سبعة صواريخ سكود من غرب العراق على إسرائيل . أرسل سلاح الجو الأمريكي فوراً طائرات F-15 لضرب منصات هذه الصواريخ . وصلت تقارير إلى القيادة المركزية في الرياض بانفجارات في تل أبيب . اتصل الجنرال كولن باول بالقائد الأعلى للقوات الأمريكية في الخليج هاتفياً يبلغه بأن واشنطن تتوقع في كل لحظة اشتراك إسرائيل في القتال . وشاهد الناس على شاشات التلفزيون في الساعة التاسعة صباحاً سكان إسرائيل يلبسون الكمامات الواقية من الغازات السامة في تل أبيب . وبعد نحو ساعة

أطلق الجيش أربعة صواريخ باتريوت من بطاريات مثبتة حول قاعدة الظهران الجوية فأصابت صاروخ سكود . وحوالي الساعة الخامسة صباحاً انطلقت عشرات الطائرات الإسرائيلية من قواعدها مهددة بالغارة على غرب العراق . وانتهت الليلة دون هجمات جديدة لصواريخ سكود . وفي صباح اليوم الثالث من بدء القتال الجوي أبلغ باول شوارتزكوبف بأن واشنطن نجحت في إقناع إسرائيل بإعادة طائراتها إلى قواعدها .

يقول شوراتزكوبف : «صاروخ سكود في الأصل صاروخ ثقيل وغير مستعمل سوفياتياً ، قادر على نقل حمولة نصف طن من المتفجرات لمسافة (٣٠٠) كيلومتر مع دقة في الإصابة لمسافة (٨٠٠) متر . وبالإمكان تركيب رأس نووي عليه . نجح العراقيون في مضاعفة مداه بربط صاروخين مع بعضهما وبإضافة قسم على حساب الحمولة الجدية . وبذلك أصبح مداه حوالي (٥٠٠) كيلومتر بدقة مداها ثلاثة كيلومترات . وبحمولة مجدية مقدارها (٧٥) كيلوغراماً . من وجهة النظر العسكرية يعادل طائرة تحمل قنبلة واحدة صغيرة . ولا شك أنه مرعب لمن يقع تحته . ولكن في الاطار العام للحرب لا قيمة له . وهو سلاح نفسي يرهب السكان المدنيين . وقد أطلق على طهران خلال الحرب العراقية-الإيرانية» .

ويضيف أيضاً : «أسكتت طائراتنا كل منصات صواريخ سكود في غرب العراق مدمرة (٣٦) منصة ثابتة وعشر منصات متنقلة . وكنت أعرف أن المنصات المتحركة الباقية تطرح علينا مشكلة كبيرة .

ضربت ثلاثة صواريخ سكود إسرائيل من جديد (اثنان على تل أبيب وواحد على القدس) صباح السبت . تسلم شوارتزكوبف رسالة من هيئة رؤساء الأركان في واشنطن تقول : يريد الإسرائيليون القيام بهجوم مضاد كبير على غرب العراق ، قوامه مئة طائرة صباح الغد ومئة طائرة بعد الظهر ، تتبعه هجمات طائرات أباتشي العمودية خلال الليل وغارات كوماندوس ، وذلك من خلال اختراق إسرائيل للفضاء السعودي . اتصل شوارتزكوبف فوراً بباول هاتفياً وقال له : «لن يقبل السعوديون ذلك . ومن المستحيل عمل ذلك بدون موافقتهم . لديهم رجال في طائراتنا الـ AWACS التي ستراهم» .

وبناء على طلب الحكومة الأمريكية اتصل الأمير بندر بالملك فهد حول السماح للإسرائيليين بهجومهم الجوي . رد الملك فوراً : «مستحيل» . وعلى أثر ذلك إتصل

الرئيس بوش برئيس وزراء إسرائيل إسحق شامير لإقناعه بالتخلي عن مشروعهم . وقدم له ثلاث حجج : أولها أن القوات الجوية الأمريكية أسكتت جميع منصات سكود المعروفة . وثانيها أن القوات الأمريكية تواصل هجماتها بمزيد من الطائرات وبقوة نارية كبرى مثل التي لدى الإسرائيليين . وثالثها أن تدخلاً إسرائيلياً سيضعف إن لم يفكك الائتلاف الذي بذلت الولايات المتحدة جهداً كبيراً لبنائه .

يقول شوارتزكوبف : «لقد شعرنا مباشرة بالضغوط التي مارستها إسرائيل على واشنطن . لأن واشنطن حولتهم علينا . في البداية اقترحت هيئة رؤساء الأركان المشتركة أن يأتي المخططون الإسرائيليون إلى المقر العام للقيادة المركزية في الرياض لتحديد الأهداف لقواتنا الجوية . رددت أن هذه فكرة حمقاء : كيف نستطيع تصور أن الإسرائيليين لديهم استخبارات أفضل من استخباراتنا عن أهداف محتملة لسلاحنا الجوي؟ لقد سبرنا هذا الجزء من العراق بتكنولوجيا الأبحاث الاستخبارية المعقدة جداً التي لا توجد لدى أحد غيرنا» . كما أنه يرى أن وجود ضباط إسرائيليين في الرياض دون علم السعوديين سيدمر مصداقية القيادة المركزية لديهم ولدى العرب بعامة .

ثم تلقت القيادة المركزية في الرياض أمراً من هيئة رؤساء الأركان المشتركة في واشنطن بقصف الأهداف الموجودة على قائمة أعدها الإسرائيليون وقدموها لوزير الدفاع ديك تشيني . معظم هذه الأهداف قد ضربتها طائرات الائتلاف . وهاجمت الأخرى ، فلم تجد شيئاً في الأهداف التي ذكرها الإسرائيليون . أما قائد سلاح الجو الأمريكي في القيادة المركزية الجنرال هورنر فقد قال لشوارتزكوبف : «هذه حماقة ، يا سيدي الجنرال . من غير المعقول أن يقول لنا هؤلاء الإسرائيليون الذين إذا استمر هذا سنضع حياة طيارينا في خطر» . اتصل شوارتزكوبف بباول وقال له : «سنفعل ما قلته لنا . ولكن إلقاء القنابل من السماء ببساطة تحد للمنطق العسكري» .

يواصل شوارتزكوبف حديثه في هذا الصدد : «في أعقاب هذه الضغوط ، خصصنا لاقتناص منصات سكود أقل من ثلث ألفي طلعة متتالية لطائراتنا ، ودعم مبرمج يومي للحملة الاستراتيجية . وقامت طائرات F-15 وF-16 عدة مرات باجتياز سد من صواريخ أرض جو لقصف غرب العراق ، بحثاً عن المخازن التي تحتوي على صواريخ سكود والمواقع التي تحمي منصاتها . وفي ١٩ كانون الثاني ، وجدت طلعة من طائراتنا ضد صواريخ سكود في مواجهة أربع طائرات ميغ MIG وطائرة ميراج عراقية .

وقد أسقطتها طائراتنا جميعاً ، لقد أرسلنا إلى قلب العراق مجموعات من وحدات العمليات الخاصة للكشف عن الطرق وتحديد منصات إطلاق صواريخ سكود . هذه المهام كانت صعبة جداً وخطرة . وقد جبنا العراق من أدناه إلى أقصاه بحثاً عن منصات سكود» .

في الساعة ٢٠,٥٠ من يوم ١٩٩١/١/١٩ طلب الأمير خالد من شوارتزكوبف تزويده بالخرائط والبيانات التي تدل على الأهداف العراقية التي ضربت لعرضها على الأمير سلطان ، ولكن القائد الأمريكي رفض ذلك قائلاً : «نحن نبلغهم ولكن لا نعمل لديهم» .

بعد منتصف الليل بقليل من يوم ٢١ كانون الثاني قصفت الرياض بصواريخ سكود . سقط بعضها قريباً من وزارة الدفاع السعودية ولم تسفر عن قتلى أو جرحى . وبلغ عدد الصواريخ أحد عشر صاروخاً . وقد دعا الملك فهد شوارتزكوبف إلى قصره وسأله : متى ينتهي هجومكم؟ شرح القائد الأمريكي للملك أن صواريخ سكود لا تشكل خطراً . وبينما كان يقول هذا القول سقط صاروخ سكود على مدينة الرياض ، عندها نصح الأمير خالد الملك فهد بالنزول إلى الملجأ وأيده شوارتزكوبف في ذلك قائلاً : على سبيل الاحتياط وجب على جلالته النزول إلى ملجأ مضاد للطيران . لا أعتقد بأقل خطر ، ولكن ليس مستبعداً أن تصيب قنبلة القصر» .

يقول شوارتزكوبف : «خفت وتيرة طلقات صواريخ سكود . فقد تلقى الإسرائيليون منها (٣٥) صاروخاً في الأسبوع الأول من عملية عاصفة الصحراء ، و(١٨) صاروخاً في الاسبوع الثاني ، ثم خفت الوتيرة إلى صاروخ واحد يومياً . لقد كانت طائراتنا المقاتلة والقاذفة تجوب غرب العراق ليل نهار لمدة (٢٤) ساعة للكشف عن مواقع منصات تلك الصواريخ» . نفذت القوات الجوية للائتلاف ثلاثين ألف طلعة . زعم العراقيون أنهم أسقطوا (١٨٠) طائرة ، ولكن الرقم الحقيقي هو (١٨) طائرة» .

في الأسبوع الأخير من كانون الثاني ١٩٩١ سيطرت طائرات الائتلاف على سماء العراق ، وشلت البنية العسكرية للعراق .

شنت الفرقة الميكانيكية الخامسة العراقية هجوماً مساء ٢٩ كانون الثاني على ثلاث نقاط على الحدود السعودية-الكويتية . وقد صدت مشاة البحرية الأمريكية أحد الطوابير العراقية ، بينما تقدم الطابوران الآخران نحو الخفجي ، وهي مركز نفطي على

الساحل السعودي على بعد (١٣) كيلومتراً جنوب الكويت . ولما كانت الخفجي التجمع السكاني الوحيد الذي تحت مدى المدفعية العراقية ، فقد غدت مدينة أشباح . هرب سكانها البالغ عددهم عشرين ألف نسمة منذ الليلة الأولى لبدء الحرب .

وفي صباح ١٩٩١/١/٣٠ قامت كتيبة دبابات سعودية بتطويق الخفجي من الشمال لمنع المهاجمين العراقيين ، ولكنها اصطدمت بقوات مدرعة عراقية أكثر عدداً منها . وتقدمت الفرقة العراقية الآلية الخامسة على طريق الساحل نحو الخفجي ، عند ذلك تراجع السعوديون . ولكن الفرقة العراقية تعرضت لقصف جوي من القوات الأمريكية أعطب معظم آلياتها . ومع ذلك الخفجي ظلت في أيدي العراقيين . وقد أثار ذلك حفيظة القيادة السعودية التي طلبت من شوارتزكوبف تدمير الخفجي ، فرفض الاستجابة لهذا الطلب . وفي صباح اليوم التالي قام لواء مدرع سعودي وعناصر من الحرس الوطني السعودي ووحدة عسكرية قطرية باسترداد الخفجي من القوات العراقية .

الإعداد لبدء الهجوم البري لتحرير الكويت

واصلت قوات الائتلاف معركتها الجوية ضد القوات العراقية . وفي الساعة ١٨,٣٠ من يوم ١٩٩١/١/٣١ ، أبلغ شوارتزكوبف الجنرال كولن باول أن جنديين (رجل وامرأة) من سرية نقل الفيلق الثامن عشر الأمريكي المحمول جواً قد اختفيا . ويبدو أن شاحنتين ثقيلتين على طريق التابلاين قد تاهتا عند مفترق طرق ، واتجهتا شمالاً باتجاه الحدود الكويتية . وبعد أن تبين لهما أنهما اقتربتا من حدود العراق عادت شاحنة إلى نقطة مراقبة لمشاة البحرية الأمريكية تطلب المساعدة بينما انسلت الأخرى . وبقيت الشاحنة الأولى لدى نقطة مراقبة مشاة البحرية . ولكن الجنديين اختفيا ، والبحث عنهما جار . وهذه أول امرأة مظلية تختفي . ومن الجدير بالذكر أن إذاعة بغداد قد ذكرت أن القوات العراقية أسرت العديد من النساء أثناء اختراق قواتها للخفجي .

وفي غارة جوية قامت بها طائرة B-52 على غابة كويتية في الجنوب الساعة ٢,٥٠ من يوم ١٩٩١/٢/١ ، حيث كانت آليات عراقية قد لجأت إليها ، سجلت طائرات A-10 الأمريكية أن الخسائر العراقية كانت : عشرين دبابة وإحدى عشرة ناقلة جنود مصفحة وثلاث منصات صواريخ .

عارضت الصحف الأمريكية الحرب ، وقالت إن محطة تلفزيون CNN تعطي أخباراً كاذبة ساعية إلى السبق الصحفي . وقد أبلغ شوارتزكوبف الجنرال باول بذلك مساء يوم ١٩٩١/٢/٤ .

ووصل وزير الدفاع الأمريكي تشيني ورئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة الجنرال كولن باول إلى الرياض في ١٩٩١/٢/٨ كممثلين للرئيس بوش ؛ لتقرير إذا كانت القوات الحليفة مستعدة لشن الهجوم البري . كان الجنرال شوارتزكوبف في استقبالهما في القاعدة الجوية العسكرية في الرياض . وبدأت الإيجازات لهما . قام بها الجنرالات هورنر ويوسوك ووالت بومر ونائب الأميرال ستان آرثر Stan Arthur الذي خلف الأميرال هانك موز على رأس القوات البحرية الأمريكية . وأكد جميعهم استعدادهم للهجوم . أما الجنرال بيرت مور Burt Moore المسؤول عن العمليات في القيادة المركزية فقد قال إن الجيش البري بحاجة إلى إثني عشر يوماً حتى يضع قواته في حالة هجوم ، وتنفيذ الاستطلاعات في العراق والتحقق من الممرات عبر حقول الألغام وغيرها من العقبات . وقال : «إذا أعطيتمونا الضوء الأخضر اليوم سنكون مستعدين للهجوم ليس قبل ٢١ شباط» . وبينما كانت الإيجازات تتواصل كان تشيني يزداد اندهاشاً . وعرض الجنرال باغونيس كيف حقق النقل العملاق للقوات إلى الجناح الغربي للقوات العراقية في مدة ثلاثة أسابيع . ثم عرض كل من الجنرال فرانكس والجنرال غريفيث دور الفرقة المدرعة الأولى ، وعرض الجنرال ماك كافري دور فرقة المشاة الآلية ٢٤ ، وكيف أنجزتا مهامهما .

أراد تشيني أن يجتمع بباول وشوارتزكوبف ، فالتقوا في مكتب صغير مجاور وقال : «استمعت إلى ما قاله رجالك يا نورمان . والآن أعطني توصياتك» . قال شوارتزكوبف : «أعتقد أن علينا أن نشن الهجوم البري دون تأخير . ولن نكون أفضل استعداداً مما نحن عليه . شبابنا مدربون تدريباً رائعاً . إذا انتظرنا أكثر سيفقدون الحماسة ، دون أن ننسى انه وفقاً لإيقاع استعمالنا للذخيرة أتساءل : في أي مدى زمني نستطيع مواصلة الحملة الجوية . على فرض أن قصفنا سيضعف العدو في المدى الضروري ، فاللحظة العظمى هي في منتصف شباط» .

نظر تشيني إلى شوارتزكوبف وسأل : «في رأيك متى يجب أن نهاجم؟ أجاب شوارتزكوبف : في الحادي والعشرين من شباط ، مع توقع ثلاثة أو أربعة أيام تأخير ، لأننا نحتاج إلى رؤية جيدة في بداية الحملة» . وكرر الحجة التي قالها بومر قبل

قليل : «ظروف جوية جيدة ضرورية للمشاة البحرية الذين ليس لديهم مدفعية ثقيلة ، وسيعتمدون إلى حد كبير على المساندة الجوية» .

قال تشيني : «ابدأوا استعداداتكم ، سوف أنقل هذه المواعيد للرئيس» . عاد الثلاثة إلى المدرج حيث يجلس القادة في القيادة المركزية . قال تشيني لهم : «في كل تاريخ الأمة لم تحقق الولايات المتحدة عملية بهذا النجاح المهني» . وكرر الفكرة باول قبل أن يضيف : «أنا مبهور بالاندفاع في هذه الأزمة وردة فعلنا عليها . والفخر الذي أعطته لبلادنا باعتبارها الدولة الوحيدة الأعظم في العالم» .

اتصل كولن باول بشوارتزكوبف في ١٢ شباط بعد عودته إلى واشنطن ، ليخبره أن الرئيس بوش قبل الموعد المقترح للهجوم البري . وقال له : عليكم أن تقرروا الموعد الدقيق لبدء الهجوم . واتصل في الساعة السادسة من مساء اليوم التالي ليبلغ شوارتزكوبف أن وسائل الإعلام بدأت اهتماماً بقصف موقع قيادة وسيطرة تحت الأرض في بغداد الليلة الماضية . ويبدو أنه كان مليئاً بالمدنيين . والمقصود بذلك قصف ملجأ العامرية في بغداد .

وبسبب تأخر الجنرال بومر في نقل قواته إلى الجناح الغربي ، طلب شوارتزكوبف من باول تأجيل الهجوم إلى ٢٤ شباط . أبدى باول تذمره وقال : «أكره الانتظار طويلاً ، فالرئيس يرغب في الانتقال للعمل» .

قدمت الاستخبارات العسكرية الأمريكية تقريراً عن أسرى الحرب العراقيين : معظمهم من مقاتلي الحرب العراقية-الإيرانية وغير متحمسين للحرب . وقد أعطوا الاستخبارات معلومات مهمة عن وحداتهم ، وأماكن حقول الألغام ، والتحصينات ، والدمار الذي لحق بالعراق . يقول شوارتزكوبف : «لقد دمرنا ٣٥٪ من دبابات الجيش العراقي و٣١٪ من آلياته المصفحة ، وحوالي ٤٠٪ من مدفعيته . أما الوحدات المقاتلة فقد فقدت ٥٠٪ من قوتها في الخطوط الأمامية ، و٢٥٪ من هذه الوحدات التي في الخطوط الدفاعية الثانية» .

اتصل باول بشوارتزكوبف في ١٨ شباط هاتفياً وقال : «مجلس الأمن القومي يقدّر أنه من الضروري الهجوم مبكراً قبل الموعد المقرر . هل تستطيع إعلامي غداً ما يمكنكم التوصل إليه؟» طلب شوارتزكوبف من قادة الفرق والفيالق دراسة إمكانية تقديم موعد الهجوم يومين . رفض القادة هذا الاقتراح ، وأصروا على ٢٤ شباط . وأبلغ شوارتزكوبف باول بذلك .

أبلغ باول شوارتزكوبف بمبادرة سلام جدية يوم ١٩ شباط . حمل طارق عزيز إلى بغداد مبادرة سوفياتية بانسحاب عراقي من الكويت فوراً وبلا شروط . يبدأ الانسحاب بعد يوم واحد من دخول وقف إطلاق النار حيز التنفيذ . ويحصل العراقيون على ضمانة بعدم إطلاق النار عليهم أثناء الانسحاب ، وعلى أن يتم الانسحاب كاملاً في وقت محدد . وقد قالت واشنطن للسوفيات إن خطتهم بناءة ولكنها لا تلبي شروط الأمم المتحدة ، ولا سيما إلغاء ضم الكويت للعراق . وفي رأي باول أن موقف وزارة الخارجية الأمريكية متشدد وتريد استسلاماً بلا شروط . وقال شوارتزكوبف لباول : «إن حلفاءنا العرب لن يقبلوا بالخطة السوفياتية . وسوف يقبلون بأي انسحاب مذل لصدام» . قال باول : «المسألة في نهاية المطاف حياة البشر ، لقد أوقعنا مئة ألف قتيل في العراق مقابل مئة قتيل من جانبنا» . كان باول يرى أن انسحاب العراقيين من الكويت نصر للولايات المتحدة . وكان شوارتزكوبف من هذا الرأي .

تلقى شوارتزكوبف تنبؤات جوية عن سوء الأحوال يومي ٢٤و٢٥ شباط وطقس جيد يوم ٢٦ شباط . ولذا فضل قادة الوحدات العسكرية الأمريكية البدء في الهجوم يوم ٢٦ شباط . إتصل شوارتزكوبف بباول ليبلغه ذلك . قال باول : «لقد قلت للرئيس عن ٢٤ شباط فكيف تريدني الآن تأجيله إلى ٢٦؟ أنت لا تأخذ في الاعتبار الضغوط التي تمارس عليّ . الرئيس يريد بدء القتال بالسرعة الممكنة ووزير الدفاع كذلك» . وحدثت مشادة كلامية بين الاثنين انتهت بقبول باول لاقتراح شوارتزكوبف . ولكن خبراء الطقس غيروا رأيهم ، واتضح أن يومي ٢٤ و٢٥ شباط سيكون الطقس مناسباً للهجوم . عندها اتصل شوارتكزوبف بباول وقال له : «لقد تغير الطقس ، قل لجميع المسؤولين لديك إن يوم ٢٤ شباط هو المناسب» .

نشرت المبادرة السوفياتية يوم ٢١ شباط . وقد نصت على وقف فوري لإطلاق النار ، ورفع العقوبات المفروضة على العراق من الأمم المتحدة ، وانسحاب ثلثي القوات العراقية التي تحتل الكويت ، ومنح العراق ستة أسابيع لإكمال انسحابه . وقد بعث باول بنسخة منها بالفاكس إلى شوارتزكوبف الساعة الثانية من صباح ٢٢ شباط . قدم شوارتزكوبف وباول توصية إلى مجلس الأمن القومي الأمريكي : «على الولايات المتحدة اقتراح وقف إطلاق نار لأسبوع واحد ، هذا يكفي لصدام لسحب قواته وليس معداته ولا أجهزته التي كان معظمها مطموراً أو معطوباً . وبعد خروج القوات العراقية

تدخل قواتنا إلى الكويت وتسيطر على الأسلحة العراقية وتدمرها» .

وفي مساء اليوم نفسه (الجمعة ٢٢ شباط ١٩٩١) ألقى الرئيس بوش خطاباً من التلفزيون تضمن توجيه إنذار إلى صدام حسين : «السبت ظهراً ، على العراق أن يبدأ سحباً كثيفاً وبلا شروط لقواته الموجودة في الكويت ، أو أنه يتعرض لحرب برية» .

وفي يوم ٢٣ شباط ، كان آلاف الدبابات والسيارات المصفحة الأمريكية والعربية والبريطانية والفرنسية في تشكيلات هجومية على الحدود .

بدء الهجوم البري لتحرير الكويت

في الساعة الرابعة من صباح يوم ٢٤ شباط ١٩٩١ بتوقيت العربية السعودية بدأ الهجوم البري لقوات الائتلاف الدولي لتحرير الكويت . كان القادة العسكريون الأمريكيون التالية أسماؤهم قد حضروا إلى مقر القيادة العامة للقيادة المركزية في وزارة الدفاع السعودية في الرياض : الجنرال نورمان شوارتزكوبف ، القائد الأعلى للقوات الأمريكية في الخليج ومساعده ورئيس هيئة أركانه ، والميجور جنرال مور والبريجادير جنرال لايد ، والميجور جنرال ستارلنغ والبريجادير جنرال نيل Neal ، والمستشار السياسي للقيادة المركزية غوردون براون Gordon Brown . يصف شوارتزكوبف بدء العمليات كما يلي :

«تحت المطر البارد ، والظلام الدامس ، ونيران مدافع (١٥٥) ميلميتراً ، اخترق مشاة البحرية القوات العراقية مندفعين نحو الكويت . وتتالت دبابات M-60 وطائرات كوبرا Cobra العمودية ، يتبعها آلاف الجنود في سيارات مصفحه وفي سيارات همفي Humvee التي حلت منذ سنة ١٩٨٥ محل سيارات جيب Jeep . ولبس الجنود كمامات ضد الغازات السامة على الحزام للحماية من الأسلحة الكيمياوية . وفي الساعة السادسة صباحاً بتوقيت العربية السعودية ، أعلن الرئيس بوش أن تحرير الكويت دخل مرحلته النهائية . ومع اختراق مشاة البحرية الخطوط الدفاعية الأولى الحدودية ، لحق بهم لواءان من الجيش السعودي ، ولواء مختلط من بلدان الخليج العربية-الوحدات نفسها التي أخرجت العراقيين من الخفجي-مجتازة الحدود ، متجهة نحو الشمال على الطريق الساحلي باتجاه مدينة الكويت .

وعلى بعد (٤٥٠) كيلومتراً إلى الغرب ، اجتازت آليات الفرقة السادسة المدرعة الخفيفة الفرنسية أربعين كيلومتراً من الصحراء الكثيرة الحصى التي تفصلها عن

العراق . ووجب عليها مع لواء من المظليين من الفرقة (٨٢) الأمريكية المحمولة جواً ، السيطرة على قاعدة السلمان الجوية العراقية والقطاع المحيط بها . من هناك كانت صواريخ سكود تطلق على الرياض . وهي أيضاً الهدف الغربي لهجومنا . وعلى بعد (٤٥) كيلومتراً إلى الشرق من الفرنسيين والفرقة (٨٢) المحمولة جواً ، كانت الفرقة (١٠١) المؤلفة من الطائرات العمودية ، التي تأخرت بسبب المطر والضباب ، تستعد لشن أكبر هجوم بالطائرات العمودية في التاريخ . أكثر من (٣٠٠) طائرة عمودية من أنواع أباتشي Apache وكوبرا Cobra وبلاك هوك Black Hawk وهوي Huey وشينوك Chinook يقودها طيارون فرنسيون ، وتنقل لواء كاملاً مع سياراتهم الهمفي ومدافعهم ، وأطناناً من الذخيرة والوقود في الأراضي العراقية . إنهم يؤلفون قاعدة عملاقة لإطلاق النار تستطيع منها الطائرات العمودية ضرب المواقع العراقية على نهر الفرات .

وفي مقر القيادة العامة في الرياض ، بعيدين عن مسرح العمليات ، كنا نعرف فقط أن قواتنا قد اجتازت الحدود . وقد نحتاج للنهار كله حتى نكوّن فكرة دقيقة إلى حد ما عن تقدم الأمور . . . اقتصر عملي على البقاء تحت الأرض محاطاً بأجهزة الراديو والتلفزة لمتابعة سير الهجوم ، وتوجيه قادة الفيالق والفرق عن تقدم الوحدات الأخرى ، من أجل تحقيق أهدافنا الاستراتيجية الثلاثة : طرد العراقيين من الكويت ، ومساعدة حلفائنا العرب على تحرير مدينة الكويت ، وسحق قوات الغزو حتى لا يتمكن صدام من إعادته» .

يواصل القائد الأمريكي وصفه لليوم الأول من الهجوم البري : «لما بدأت التقارير بالوصول ، كانت أفضل بكثير مما كنا نتمنى . باجتياز الخط الأول من المعوقات لم يقع مشاة البحرية في حقل من الألغام ، وحاجز من النيران ، ولا سد من الغاز المميت ، وإنما واجهوا مقاومة ضعيفة . لقد أحسن بومر اختيار نقطة الهجوم . وبينما كانت قواته تتوغل شمالاً نحو الخط الدفاعي الثاني ، لم تتبادل النار إلا في حالات قليلة ، أصيب فيها بعض الجنود بجراح . وفي المقابل ، ما إن انتصف الصباح حتى أسروا المئات من الجنود العراقيين . فقد خرج العراقيون من خنادقهم بعد إطلاق بعض الرصاصات ثم سلموا أنفسهم . ومن جانبهم أخذ السعوديون طريق الساحل وتقدموا بسرعة وقطعوا الكيلومترات من الخنادق والتحصينات المهجورة ، قبل أن يصطدموا بمقاومة لا تذكر . وأسروا مئات العراقيين الذين رفعوا الأعلام البيضاء . وفي أقصى

الغرب ، تقدمت القوات الفرنسية والأمريكية ، أثناء ذلك ، كما رسم لها دون أن تجد أية مقاومة .

. . . معظم دباباتنا الثقيلة (١٦٠٠ دبابة) تنتظر على الحدود السعودية لشن الهجوم الرئيسي . لها ثلاثة أهداف أساسية : تحرير مدينة الكويت (مهمة الوحدات العربية التي تشمل مصريين وسوريين وسعوديين وكويتيين وغيرهم) ، والضرب من الخلف وسحق الحرس الجمهوري (مهمة الفيلق السابع الأمريكي) وإغلاق طرق التراجع على العراقيين نحو الفرات (مهمة فرقة ماك كافري من الفيلق الثامن عشر المحمول جواً) . خطتي للمعركة تتطلب أن لا يحدث هذا الهجوم إلا عند الفجر في اليوم الثاني من أجل إعطاء بومر (٢٤) ساعة لاختراق السدود ومجابهة الدفاعات الحدودية . ولكن يبدو أن المقاومة العراقية قد انهارت . . .

وصل إلينا قبل الظهر الخبر التالي : تقول المقاومة الكويتية بالإذاعة إن العراقيين قد فجروا معمل تنقية المياه في مدينة الكويت . ولما كانت العاصمة الكويتية لا ماء لديها صالحاً للشرب ، فإن هذا يدل على أن العراقيين على وشك الخروج منها» .

في ضوء ما تحقق في اليوم الأول من الهجوم البري ، قرر شوارتزكوبف ، بالتشاور مع الأمير خالد وقادة الوحدات العسكرية الأمريكية ، تقديم موعد الهجوم البري الكبير ليبدأ في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم الثاني من الهجوم . وقد استطاع الفيلق الثامن المحمول جواً تحقيق أهدافه كلها في اليوم الأول . وقبيل المغيب طوق الفرنسيون والفرقة (٨٢) الأمريكية قاعدة السلمان الجوية . ووضعت الفرقة (١٠١) الأمريكية قاعدتها لإطلاق النار ، وأحرقت طائراتها الأباتشي الشاحنات العراقية على الطريق الرئيسي رقم (٨) المتصلة بوادي الفرات . وتقدمت الفرقة (٢٤) من المشاة الآلية الأمريكية خمسين كيلومتراً في الأراضي العراقية . وإلى الشرق منها كان الفيلق السابع الأمريكي ينقل تشكيلات ضخمة من الفرقتين المدرعتين الأولى والثالثة لمسافة (٢٥) كيلومتراً داخل الأراضي العراقية .

وعلى الجانب الثاني من وادي حفر الباطن ، الذي يشكل حدود الكويت الغربية وصلت القوات العربية ، إلى خط التحصينات العراقية . وفي نهاية النهار اصطدم مشاة البحرية بمقاومة أشد من العراقيين دامت ساعة شاركت فيها الدبابات على خط الدفاع الثاني . وقبل هبوط الليل سيطرت على قاعدة الجابر الجوية ، المقر العام للفيلق الرابع العراقي . وكانت خسائر قوات الائتلاف (١٥) قتيلاً . وفي اليوم الثاني بلغت

خسائرها ثمانية قتلى و(٢٧) جريحاً . وفي المقابل بلغ عدد الأسرى العراقيين (١٣) ألف أسير .

يقول شوارتزكوبف : «في اليوم الثاني من الهجوم البري بحثت مع الجنرال خالد موقف القوات العربية ، وقلت له : إذا لم يتحركوا فمشاة البحرية يطالبون بالسماح لهم بتحرير مدينة الكويت . ولا أستطيع منعهم من ذلك طويلاً . كان خالد يدرك أنني أناور . لقد كنا على اتفاق بأن الائتلاف العربي هو الذي سوف يستولي على مدينة الكويت . وبعد ساعة علمنا أن صاروخ سكود سقط في الظهران على ثكنة عسكرية أمريكية أسفر عن قتل (٢٨) جندياً وجرح كثيرين» .

وفي الساعة الثانية من صباح اليوم الثالث من الهجوم البري ، ذكرت إذاعة بغداد أن الأوامر صدرت إلى القوات العراقية بمغادرة الكويت ، ولم يمض على الهجوم البري سوى (٤٦) ساعة . وقد أبلغ شوارتزكوبف الجنرال باول بذلك فأمره بمواصلة الهجوم .

وفي اليوم الثالث من الهجوم البري ، قرر الحرس الجمهوري الانسحاب ، مستغلاً الطقس السيء بحيث تبقى فرقة «توكلنا» في الموقع لتأخير تقدم القوات الأمريكية ، بينما تنسحب فرقتا «المدينة المنورة» و«حمورابي» على مراحل نحو البصرة . وحاولت وحدات من الفيالق العراقية الثاني والثالث والرابع والسابع الوصول إلى البصرة ، غير أن الجسور على الفرات كانت قد دمرتها طائرات قوات الائتلاف . يقول شوارتزكوبف : «ما دمنا لم نقض على الحرس الجمهوري فإننا لم ننجز عملنا إلا نصفه» .

في ٢٦ شباط ، أعلن أمير الكويت تعيين ولي عهده حاكماً عسكرياً على الكويت ، وأن تعمل جميع القوات الصديقة على الأرض الكويتية تحت إمرته . ودخلت القوات العربية مدينة الكويت في صباح اليوم التالي . ونزل أهل الكويت إلى الشوارع يرحبون ويحيون القوات الكويتية والعربية لما دخلت إلى المدينة مع انبلاج الفجر .

نهاية عملية عاصفة الصحراء

يقول نورمان شوارتزكوبف في مذكراته : «كنا ندفع بقوات العدو نحو جيب بين نهر الفرات والبصرة ، سماه سلاحنا الجوي (الفخ المميت) ، كنا نقصف دون رحمة

كل القوافل التي نجدها أمامنا . وكنا نقول لهم بالمذياع من طائراتنا العمودية : (أخرجوا من آلياتكم ، تخلوا عنها ولا تموتوا فيها) باللغة العربية . . . من الفرق العراقية التي بلغت (٤٢) فرقة عند بدء القتال ، دمّر منها (٢٧) فرقة ، وغدت ست منها غير صالحة للقتال . . . قطعت الاتصالات كلها بين البصرة وبغداد ، ومع القوات الموجودة على الأرض . بلغ عدد الأسرى العراقيين (٣٨) ألف أسير . وبلغ عدد قتلانا (٢٨) قتيلاً و(٨٩) جريحاً وخمسة مفقودين» .

في ٢٧ شباط ١٩٩١ اتصل الجنرال باول بشوارتزكوبف هاتفياً وقال : «يجب اقتراح وقف إطلاق النار . . . التقارير الصحفية تعطي الانطباع بمذبحة حقيقية» . طلب شوارتزكوبف من باول يوماً آخر لتدمير بقية الجيش العراقي الذي لم يتمكن بعد من اجتياز نهر الفرات والوصول إلى البصرة . واتفقا على إعلان وقف إطلاق النار مساء ١٩٩١/١٢/٢٨ .

في الساعة ١٠,٣٠ اتصل باول ثانية بشوارتزكوبف قائلاً : «أنا في البيت الأبيض . لقد تداولنا فكرتك بإنهاء الحرب خلال خمسة أيام . ينوي الرئيس الحديث على التلفزيون هذا المساء الساعة التاسعة بتوقيت واشنطن إعلان وقف إطلاق النار . هل يسبب لك هذا مشكلة؟» . رد شوارتزكوبف : «التاسعة في واشنطن تعني الخامسة صباحاً في الرياض . أي أمامنا (٦,٥) ساعة . ليس لدي أية مشكلة . لقد نجحنا في تحقيق أهدافنا عملياً» . قال باول : «سيطلب الرئيس وقف إطلاق النار ، وإنهاء القتال وهجمات صواريخ سكود من الجانب العراقي ، وتحرير أسرى الحرب فوراً والرهائن الكويتيين ، واحترام جميع قرارات الأمم المتحدة ، وغير ذلك من الشروط» . واتصل باول بشوارتزكوبف ثانية ليؤكد له : «إننا سنوقف العمليات الهجومية فقط ، وسيعلن الرئيس ذلك الساعة التاسعة مساءً . وعندها ستكون حرب المئة ساعة» .

اتصل الرئيس بوش ووزير الدفاع تشيني بشوراتزكوبف لتهنئته بالنصر ، واتصل به باول ليقول : «حسناً ، وقف إطلاق النار غداً صباحاً الساعة الثامنة بالتوقيت المحلي» . أبلغ شوراتزكوبف هيئة أركانه بقرار الرئيس .

بعد إعلان وقف إطلاق النار ، بحث شوارتزكوبف مع باول على الهاتف يوم ١٩٩١/٢/٢٨ محادثات وقف إطلاق النار . واقترح عليه أن تتم على ظهر الطراد ميسوري ، الذي تم على ظهره استسلام اليابانيين للجنرال دوغلاس ماك آرثر Douglas Mac Arthur سنة ١٩٤٥ ، ليعرف العالم كله بوضوح أن هذا اللقاء هو احتفال

باستسلام . ولكن باول أبلغه أن ليس أمامه سوى (٤٨) ساعة للبدء بالمحادثات ، مما يجعل تنفيذ اقتراحه مستحيلاً . وكان اقتراح شوارتزكوبف أن تتم المحادثات في قاعدة جليبة الجوية العراقية الواقعة على بعد (١٥٠) كيلومتراً داخل الأراضي العراقية ، وقد احتلها الفيلق الأمريكي الثامن عشر المحمول جواً في اليوم الثالث من الهجوم البري . وافق باول على هذا الاقتراح ، شريطة موافقة البيت الأبيض ووزارة الخارجية عليه . ولكن الجنرال غاري لوك أبلغ شوارتزكوبف أن قاعدة جليبة غير مناسبة ؛ فاتصل بباول يقترح موقع صفوان ، حيث يوجد مدرج لهبوط الطائرات الحربية على بعد (٢٥) كيلومتراً من التقاطع الذي يسيطر عليه الفيلق السابع الأمريكي . ولذا طلب شوارتزكوبف من قواته احتلال هذا الموقع قبل البدء بالمحادثات ، فتم ذلك مساء ١٩٩١/٢/٢٨ . وأعد الأمريكيون المكان للاجتماع .

كان على الوفد العراقي أن يصل إلى صفوان يوم الأحد ١٩٩١/٣/٤ الساعة الحادية عشرة صباحاً . ويضم الجنرال سلطان هاشم أحمد ، رئيس هيئة الأركان ، والجنرال صلاح عبود محمود قائد الفيلق الثالث . وضم وفد الائتلاف الدولي الأمير خالد بن سلطان وشوارتزكوبف ، بالإضافة إلى عدد من المراقبين من البلاد العربية .

أبلغ الأمير خالد شوارتزكوبف في ١٩٩١/٣/١ بأن حكومته توافق على رئاسة الأخير لوفد الائتلاف المفاوض بينما يتولى هو المسائل العربية . واتصل شوارتزكوبف بباول في اليوم التالي ليقول له بأنه ذاهب إلى صفوان ، وسوف تقتصر المحادثات على الأمور العسكرية . وفي ١٩٩١/٣/٣ وافق العراق رسمياً على المشاركة في الاجتماع . وسافر شوارتزكوبف في اليوم التالي بطائرته ومعه قائد القوات الفرنسية ميشيل روكجوفر وستة من هيئة أركان القيادة المركزية الأمريكية . هبطت الطائرة في مدرج صفوان الساعة ٩,٣٠ صباحاً . يقول شوارتزكوبف : «طلبنا أن يأتي العراقيون بطريق البصرة حتى مفترق الطرق رافعين أعلاماً بيضاء إشارة إلى الاستسلام . ثم تستقبلهم قواتنا ويمتطون سياراتنا الهمفي التي يقودها جنودنا الأمريكيون مباشرة إلى مدرج الطيران . ويمرون أمام عشرات الطائرات العمودية من نوع أباتشي على صفين على طرفي المدرج على مسافة (٢٠٠) متر ، رافعة مدافعها (٣٠) ميلمتر وصواريخ هيلفاير Hellfire المضادة للدبابات» .

ضم المكان المعد للتفاوض في صفوان مجموعة من الخيام : واحدة لتفتيش المراقبين من الائتلاف والمترجمين عند وصولهم ، وواحدة لاستقبالهم قبل عقد

الاجتماع ، وثالثة مجهزة بنظام هاتفي للاتصالات مثل مقر عام ، ومنطقة لانتظار الصحفيين ، ومنصة في الهواء الطلق على طرفيها علم أمريكي وعلم سعودي للمؤتمر الصحفي الذي سيعقب الاجتماع . وأخيراً خيمة الاجتماع بارتفاع أربعة أمتار بلون أخضر زيتوني . وفي وسط الخيمة طاولة مستطيلة من الخشب مع ثلاثة كراسي من كل جانب ، لأعضاء الوفدين والمترجمين الاثنين . وهناك صف من المقاعد للوفد العراقي المرافق وآخر أوسع للمراقبين من الائتلاف .

لما وصل الوفد العراقي ، حسب ما طلب الأمريكيون ، طلب منه أن يخضع للتفتيش ، رفض رئيس الوفد ذلك إلا إذا خضع شوارتزكوبف للتفتيش أيضاً . قامت الشرطة العسكرية الأمريكية بتفتيش شوارتزكوبف أولاً ثم فتشت الوفد العراقي .

جلس الوفدان على طاولة الاجتماع وخلف كل منهما المراقبون القادمون من طرفه . بدأ شوارتزكوبف الكلام بتذكير العراقيين أن الهدف من الاجتماع تحديد الشروط العسكرية لوقف إطلاق النار ، وأن المحادثات ستسجل بحيث يحصل كل فريق على نسخة منها . وقال أيضاً : أول مسألة نود بحثها هي مسألة أسرى الحرب ، وعلى الصليب الأحمر أن يحصل على إذن بالاتصال الفوري بأسرى الحرب الموجودين في العراق . وقال رئيس الوفد العراقي : سوف ينفذ هذا . وسأل شوارتزكوبف ثانية : هذا سوف ينفذ؟ أجاب رئيس الوفد العراقي : نعم .

قال شوارتزكوبف : «نريد بحث مسألة تحرير أسرى الحرب . أكد الجنرال أحمد (رئيس الوفد العراقي) ذلك بقوله : نحن مستعدون لتسليم جميع أسرى الحرب حسب الإجراء المناسب للصليب الأحمر . ثم عرض القائد الأمريكي بقية شروطه : التعرف على المفقودين من قوات الائتلاف ، وعودة جثامين جنودهم القتلى ، وتحديد حقول الألغام ومخازن الأسلحة غير التقليدية في الكويت . قبل العراقيون بكل هذه المطالب . ولما طلب الأمير خالد أن يعامل آلاف المدنيين الكويتيين المنفيين في العراق رغم أنفهم معاملة أسرى الحرب تماماً ، أنكر أحمد وجود مختطفين كويتيين . ولما قال خالد : لدينا أسماء الكويتيين الذين اقتيدوا بالقوة ، رد أحمد : نحن لم نقتد أحداً رغم أنفه . وأنكر وجود مدنيين معتقلين في العراق . ووعد بأن يكون لكل شخص وصل إلى العراق منذ غزو الكويت الحرية في الاتصال بالصليب الأحمر والمغادرة فوراً إذا رغب في ذلك» .

أثار شوارتزكوبف مسألة خطة وقف إطلاق النار . يبدو أنه كان لدى الوفد

العراقي تعليمات بعدم التنازل عن شبر واحد من الأراضي العراقية . ولما قدم شوارتزكوبف خريطة لوقف إطلاق النار ، قال أحمد : نحن موافقون . هذا ليس خطاً نهائياً ، ولا علاقة له بالحدود . هذا إجراء بسيط للأمن . يقول شوارتزكوبف : «ليس لدينا النية لترك قواتنا دوماً في الأراضي العراقية بعد وقف إطلاق النار» .

قال رئيس الوفد العراقي : لدينا (٤١) أسيراً من دول الائتلاف (١٧ أمريكياً وإيطاليان و١٢ بريطانيا وكويتي واحد وتسعة سعوديين) . ونريد أن نعرف عدد أسرانا . قال شوارتزكوبف : حتى هذه الليلة ستون ألفاً أو أكثر قليلاً ، من الصعب إعطاء رقم دقيق . في نهاية الاجتماع سلم الكولونيل بيل Bell نسخة من تسجيل الاجتماع للفريق العراقي . غادر الوفد العراقي بالطريقة التي جاء بها .

يقول شوارتزكوبف : «استلمنا أسرانا ، وسلمنا العراقيين أسراهم ، ونظمنا مخيماً كبيراً لاستقبال اللاجئين العراقيين في الأراضي السعودية . وأعدنا إلى الوطن حوالي نصف عدد قواتنا حتى ١٩٩١/٣/١٦ ، وأجري احتفال بالنصر في واشنطن بعرض عسكري» .

الفصل الخامس

حرب تحرير الكويت
في مذكرات ريتشارد هاس

ريتشارد هاس وحرب الضرورة

كان ريتشارد هاس Richard Haass المساعد الخاص للرئيس جورج بوش (الأب) والمدير الأعلى لمجلس الأمن القومي الأمريكي من سنة ١٩٨٩ إلى سنة ١٩٩٣ . كما عمل مديراً للتخطيط السياسي في وزارة الخارجية الأمريكية ومبعوثاً للولايات المتحدة إلى عملية السلام في شمال إيرلندا ، ومنسقاً أمريكياً لمستقبل السياسة الأمريكية في أفغانستان في عهد الرئيس جورج بوش (الابن) . وهو حالياً رئيس مجلس العلاقات الخارجية في الولايات المتحدة الأمريكية ، الذي يعد مؤسسة مستقلة غير حزبية مكرسة للتفكير في دور الولايات المتحدة الأمريكية في العالم .

في مذكراته «حرب الضرورة وحرب الاختيار : مذكرات حربي العراق War of Necessity ، War of Choice: A Memoir of Two Iraqi Wars» الصادرة عن دار النشر Simon & Schuster Paperback في نيويورك ولندن وتورنتو وسيدني سنة ٢٠١٠ ، يتناول حرب تحرير الكويت سنة ١٩٩٠-١٩٩١ ، والغزو الأمريكي-البريطاني للعراق سنة ٢٠٠٣ في (٣٣٦) صفحة .

يميز هاس في مقدمة الطبعة الثانية من مذكراته التي نشرت لأول مرة سنة ٢٠٠٩ بين حرب الضرورة وحرب الاختيار . فحرب الضرورة ، في نظره ، تتضمن المصالح الحيوية وعدم القدرة على حمايتها بوسائل غير القوة العسكرية . ويرى أن غزو العراق للكويت في آب ١٩٩٠ والحرب الأمريكية لتحريرها حرب ضرورة . كانت المصالح الأمريكية في خطر بسبب سيطرة معادية على نفط الكويت تمنعه عن الولايات المتحدة ، وتضع سابقة بناءة في العلاقات الدولية بعد نهاية الحرب الباردة . وليس بإمكان الدبلوماسية والعقوبات ولا أي وسيلة أخرى سوى اللجوء إلى القوة

لحمايتها . ويؤكدها هاس أن النفط هو الدافع الأساسي لحرب تحرير الكويت .

أما حرب الاختيار ، في نظر هاس ، فهي التي تتضمن استعمال القوة العسكرية إما نيابة عن مصالح أقل (حيث يوجد خيار عدم القيام بأي عمل) أو حين توافر سياسات بديلة (مثل أن تكون القوة العسكرية ليست المقاربة المفضلة) . فغزو العراق الذي بدأه الرئيس جورج بوش (الابن) في آذار ٢٠٠٣ كان حرب اختيار . لم يكن هناك تهديد جدي أو ملح على مصالح الولايات المتحدة ، وكان هناك عدد من البدائل السياسية متوافر مع عقوبات مفروضة على العراق . ويرى أيضاً أن على حروب الاختيار أن تحقق معيارين : أحدهما مطلق وثانيهما نسبي حتى تصبح مبررة . الأول هو أن الفوائد المحتملة لاستعمال القوة يجب أن تتجاوز في وزنها التكاليف المقدرة للحرب ، والثاني أن تكون نسبة الفوائد والتكاليف أعلى مما يمكن توقعه من السياسات الأخرى . ويبين هاس في مذكراته هذه معارضته للغزو الأمريكي للعراق سنة ٢٠٠٣ .

في حديثه عن غزو العراق للكويت ، يذكر هاس أن الهيئات الاستخبارية الأمريكية كانت تراقب عن كثب التعبئة التدريجية للقوات المسلحة العراقية على حدود العراق الجنوبية مع الكويت . وكان الرأي السائد داخل إدارة الرئيس بوش (الأب) أن النشاط العسكري العراقي مجرد محاولة لتهديد الكويت . وقد صدر عن وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) تحذير يتوقع هجوماً حتمياً .

في اجتماع عقد في يوم ١٩٩٠/٨/١ ضم نواب الوزراء ومديري الوكالات المعنية بالسياسة الخارجية والدفاعية (وزارة الخارجية والدفاع ، ومستشار الأمن القومي والوكالات الاستخبارية) ، وكلف هاس بإقناع الرئيس بوش (الأب) بالاتصال بصدام حسين لردعه عن القيام بأي عمل عسكري ضد الكويت . إتجه هاس إلى مكتب برنت سكوكروفت Brent Scowcroft ، مساعد الرئيس لشؤون الأمن القومي (المستشار رسمياً) ، وعرض عليه الموضوع فوافق . اتصل برنت هاتفياً بالرئيس الذي وافق على استقبالهما فوراً . عرض هاس الفكرة . وشك الرئيس في إمكانية إنجاز أي شيء والوقت متأخرا ليلاً في بغداد . بدأ الثلاثة محاولاتهم للاتصال بصدام ، من خلال السفارة الأمريكية في بغداد ، التي كان يرئسها القائم بالأعمال جو ويلسون Joe Wilson ، أو من خلال السفارة العراقية في واشنطن . وفي هذه الأثناء اتصل بوب كيميت Bob Kimmitt من السفارة الأمريكية في الكويت الذي قال بأنه سمع إطلاق نار كثيف في شوارع الكويت . وبذلك تجاوزت الأحداث الاتصال بصدام .

يستعرض هاس بدايات اهتمام الولايات المتحدة بمنطقة الخليج منذ انسحاب القوات البريطانية من منطقة شرقي قناة السويس في نهاية الستينات من القرن العشرين . ويذكر أن هنري كيسنجر Henry Kissinger والرئيس المنتخب الجديد ريتشارد نيكسون Richard Nixon قد التقيا بأمير الكويت في كانون الأول ١٩٦٨ . وأراد الأمير في هذا اللقاء أن يعرف خطط الإدارة الأمريكية الجديدة في منطقة الخليج بعد انسحاب بريطانيا من المنطقة . وما هي النوايا الأمريكية إذا هاجم العراق الكويت؟ رد نيكسون على سؤال الأمير بأنه سوف يدرس المسألة ، وأكد أن الولايات المتحدة معنية بالحفاظ على سلامة أراضي جميع الدول في المنطقة .

وفي تموز ١٩٦٩ طلب كيسنجر إعداد دراسة حول السياسة الأمريكية في المنطقة بعد الانسحاب البريطاني . أعدت لهذه الغاية مذكرة دراسة مجلس الأمن القومي رقم (٦٦) بعنوان «سياسة الولايات المتحدة المستقبلية في الخليج الفارسي Future U.S. Policy in the Persian Gulf» تقوم هذه السياسية على «الدعامتين التوأمين» وهما إيران والعربية السعودية ، بحيث يتمكنان من توفير الاستقرار في المنطقة الغنية بالنفط . وقد بيعت الأسلحة التقليدية المتطورة إلى البلدين بمليارات الدولارات ، من أجل إستيعاب البترودولارات التي تراكمت لديهما بعد ارتفاع أسعار النفط بعد الحرب العربية-الإسرائيلية سنة ١٩٧٣ ، ومن أجل أن يعادلا القوة المتنامية للعراق الذي وقع معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٧٢ . ونجحت سياسة الدعامتين التوأمين في منطقة الخليج لعقد من الزمن ، بعد الانسحاب البريطاني من المنطقة في عهود الرؤساء نيكسون وجيرالد فورد وبداية سنوات جيمي كارتر .

في كانون الثاني ١٩٧٩ ، استسلم الشاه وهرب من البلاد ، فسقطت إحدى الدعامتين التوأمين في السياسة الأمريكية . ولم يكن زبجنيو برجنسكي Zbigniew Brezezinski مبالغاً حين وصف هذا السقوط بأنه أكبر هزيمة للإدارة الأمريكية . وتلا هذا السقوط احتجاز الدبلوماسيين الأمريكيين في طهران في تشرين الثاني ١٩٧٩ ، وغزو السوفيات لأفغانستان في كانون الأول من السنة نفسها . دفعت هذه الأحداث الثلاثة الرئيس كارتر إلى صياغة مبدأ جديد في كانون الثاني ١٩٨٠ في خطابه عن حال الاتحاد ، قال فيه : «دعنا نجعل موقفنا واضحاً تماماً : كل محاولة من قبل قوة خارجية للسيطرة على منطقة الخليج الفارسي سوف تعد هجوماً على المصالح الحيوية

للولايات المتحدة الأمريكية، وسوف يصد مثل هذا الهجوم بأي وسيلة بما في ذلك القوة العسكرية».

كانت آسيا وأوروبا المسرحين الكبيرين اللذين يشدان اهتمام صناع السياسة في الولايات المتحدة، طوال الحربين العالميتين وخلال الحرب الباردة. ولكن أحداث سنة ١٩٧٩ أبرزت الخليج الفارسي مسرحاً ثالثاً للاهتمام الاستراتيجي الأمريكي. كتب ألكسندر هيغ Alexander Haig أول وزير خارجية للرئيس رونالد ريغان، سنة ١٩٨١: «الخليج الفارسي مهدد حالياً من قبل نظام حكم ديني (ثيوقراطي) في طهران، يبدو أنه قد تخلى عن العقل، ويتساءل العرب المعتدلون من سيحميهم إذا سيطر السوفيات على الحركة الأصولية».

يرى هاس أن الخطر الحقيقي على منطقة الخليج محلي ويتمثل بإيران والعراق. ويقول: «لم يكن لي دور في صناعة القرار في هذه الأحداث، لأني انضممت إلى وزارة الدفاع بوظيفة صغيرة في أيلول ١٩٧٩. وكانت وظيفتي الرسمية العمل مع دانيال ميرفي Daniel Murphy الأميرال المتقاعد، نائب مساعد وزير الدفاع لمراجعة السياسة Deputy Undersecretary of Defense for Policy Review. وكنت أعمل مباشرة مع رئيس مورفي وكيل وزارة الدفاع روبرت كومر Robert Komer. وكان لكومر دور بارز في إنشاء قوة التدخل السريع Rapid Deployment Force في قاعدة ماك ديل Mac Dill لسلاح الجو الأمريكي في مدينة تامبا Tampa في ولاية فلوريدا. وتحولت بعد سنوات إلى «القيادة المركزية Central Command» المنظمة العسكرية التي أشرفت وقامت بحربين على العراق وبغزو أفغانستان.

قضى هاس الأشهر الثمانية عشر الأولى من إدارة ريغان رئيساً لمكتب الشؤون العسكرية الإقليمية التابع لمكتب الشؤون السياسية العسكرية في وزارة الخارجية. في عهد وزير الخارجية ألكسندر هيغ. ثم أمضى ثلاث سنوات في مكتب الشؤون الأوروبية في الوزارة نفسها، في عهد وزير الخارجية جورج شولتز George Shultz.

لقد لخص هاس موقف الولايات المتحدة من الحرب العراقية-الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨) بكلمات جورج شولتز التالية: «بينما تلتزم الولايات المتحدة بسياسة عدم تزويد الأسلحة لأي من الطرفين، فإن دعمنا للعراق ازداد مع ازدياد النجاحات العسكرية الإيرانية بوضوح وبساطة. فالولايات المتحدة ملتزمة بشكل محدود

بسياسة توازن القوى . ولا تستطيع ببساطة أن تقف متفرجة وتراقب ثورة الخميني زاحفة إلى الأمام» .

وأعادت الولايات المتحدة علاقاتها الدبلوماسية مع العراق سنة ١٩٨٤ بعد قطعها مدة (١٧) سنة . وكان أهم مظهر للانحياز الأمريكي للعراق ، في نظر هاس ، الرد على طلب كويتي في نهاية سنة ١٩٨٦ لحماية ناقلات النفط الكويتية من التهديد الإيراني . بعد أشهر من الاتصالات الدبلوماسية والأخذ والعطاء ، بما في ذلك طلب الكويت من الاتحاد السوفياتي أن يقوم بدور رئيسي في ردع الهجمات الإيرانية على الشحن البحري المحلي ، وافقت الولايات المتحدة على رفع العلم الأمريكي على إحدى عشرة ناقلة نفط كويتية . وواصلت إدارة ريغان رفع العلم الأمريكي على ناقلات النفط الكويتية تحت إسم «عملية إرنست ويل Operation Ernest Will» في أيار ١٩٨٧ ، بعد أشهر من النقاش ومعارضة مهمة من الكونغرس .

وفي ١٧ أيار ١٩٨٧ ضربت البارجة الأمريكية ستارك Stark بصاروخين عراقيين ، وقتل ما يربو على ثلاثين بحاراً أمريكياً نتيجة لذلك . إعتذر العراقيون ، ودفعوا بعد سنوات تعويضات . وتلا هذا الهجوم هجمات إيرانية على الشحن البحري . وردت الولايات المتحدة بقوة بتحميل قارب ألغام وإغراق عدد من القوارب الحربية الإيرانية وتدمير ناقلة نفط إيرانية . وأسقط صاروخ بحري أمريكي من نوع كروز من البارجة الحربية الأمريكية فينسان Vincennes طائرة مدنية إيرانية فقتل (٢٩٠) مدنياً على ظهرها .

وساهمت الولايات المتحدة في دعم العراق اقتصادياً ببرنامجين . الأول يشمل ضمانات هيئة تسهيل الاعتماد Commodity Credit Corporation لتشجيع بيع المنتجات الزراعية الأمريكية للعراق . وتمت الموافقة على نحو أربعة مليارات دولار كضمانات اعتماد من قبل وزارة الزراعة الأمريكية خلال إدارة ريغان . والبرنامج الثاني الذي تقرر في عهد ريغان أيضاً تضمن السماح ببيع المواد ذات الاستعمال المزدوج (المدني والعسكري) للعراق . وشمل السيارات الشاحنة وطائرات النقل وأنظمة الاتصالات . وتمت الموافقة على نحو (١,٥) مليار من الصادرات الأمريكية للعراق من هذا النوع المزدوج قبل سنة ١٩٨٩ ، غير أنه لم يصدر منها إلا أقل من (٥٠٠) مليون دولار .

وفي عهد ريغان ، زودت الولايات المتحدة إيران بالأسلحة بما عرف بفضيحة (Iran-Contra) . وتم تزويد الأسلحة من خلال إسرائيل مقابل الإفراج عن الرهائن الأمريكيين في لبنان .

العلاقات العراقية-الأمريكية في السنتين الأوليين من إدارة جورج بوش (الأب) ١٩٨٩-١٩٩٠

احتفل بجورج بوش (الأب) باعتباره الرئيس الحادي والأربعين للولايات المتحدة الأمريكية في ١٩٨٩/١/٢٠ لم يكن يتوقع أحد أنه في مدى السنوات القليلة القادمة سيشهد العالم نهاية الحرب الباردة ، وتوحيد ألمانيا في إطار حلف شمالي الأطلسي ، ونهاية حكم الفصل العنصري في جنوب أفريقيا ، واندلاع حرب كبرى مع العراق ، وعقد مؤتمر يجمع العرب والإسرائيليين وجهاً لوجه للتفاوض حول السلام .

يقول ريتشارد هاس في مذكراته «كان دوري في إدارة بوش (الأب) دوراً مؤكداً . فقد انشغلت بحملة بوش الرئاسية سنة ١٩٨٨ ، بصفتي مستشاراً للسياسة الخارجية بعد أن أنهيت صلتي بحملة بوب دول Bob Dole في نيوهامبشاير . وقسمت عملي في معهد كينيدي للإدارة الحكومية في جامعة هارفرد ، حيث كنت أدرّس السياسة الحكومية والشؤون الدولية ، وفي الحملة حيث كنت أكتب دراسات وأعد الخطب ، وأناقش زملائي الأساتذة الذين كانوا يقومون بعمل مماثل للمرشح الديمقراطي حاكم ولاية ماساشوستس ، مايكل دوكاكيس Michael Dukakis» .

ولما فاز بوش في الانتخابات الرئاسية ، كان هاس مستعداً لترك الحياة الأكاديمية ، ومتحمساً لمزيد من الخبرة الحكومية . وعين مساعداً خاصاً للرئيس ومديراً أعلى لدائرة الشرق الأوسط وجنوب آسيا في مجلس الأمن القومي . وبدأ عمله هذا في ١٩٨٩/١/٣٠ . وكان مسؤولاً عن الدول الواقعة بين المغرب وبنغلادش . كان برنت سكوكروفت مستشار الرئيس للأمن القومي ورئيس هاس في موقعه الجديد . وكان بوب غيتس Bob Gates نائباً لسكوكروفت . وكان الكاتب الصحفي رولاند إيفانز Roland Evans قد اتصل بغيتس بعد تعيين هاس بقليل ، يقول إن هاس غير مؤهل لهذه الوظيفة باعتباره صهيونياً متطرفاً ويهودياً متعاطفاً مع إسرائيل . واستشهد إيفانز بمقال كتبه هاس في مجلة Commentary ، وبمقال آخر كتبه في مجلة أكاديمية هي Survival . ومع ذلك لم يعر غيتس ولا سكوكروفت لهذه المعلومة اهتماماً .

يقول هاس : «راجعت إدارة بوش (الأب) سياستها نحو العراق وإيران والخليج الفارسي ، مثلما راجعت العديد من سياساتها . وهذا التقييم الشامل أمر تقليدي في الإدارات الجديدة ، لأنه يتيح للموظفين النظر في المسائل بسرعة ، ويقدم للموظفين فرصة ليعرف أحدهم الآخر بصورة أفضل ، وليتعلم العمل مع الآخر أيضاً . وقعت مسؤولية كتابة المراجعة نفسها على إدارتي في مجلس الأمن القومي . قمت ومساعدتي ساندي تشارلز Sandy Charles بإعداد الصياغة التي ستخضع لمراجعة داخل وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) . . . تمت مراجعة السياسة الأمريكية نحو إيران والعراق في حزيران ١٩٨٩ . . وبقيت في درج الرئيس عدة أشهر حتى وقعها في ١٩٨٩/١٠/٢ ، وصدر توجيه الأمن القومي رقم (٢٦) «سياسة الولايات المتحدة نحو الخليج الفارسي U.S. Policy Towards the Persian Gulf» الذي بدأ بوضع الخطوط العريضة لسياسة الولايات المتحدة نحو المنطقة» . وقد جاء في هذا التوجيه ما يلي :

«إن الوصول إلى نفط الخليج الفارسي وأمن الدول الصديقة الرئيسية في المنطقة أمور حيوية للأمن القومي للولايات المتحدة . تبقى الولايات المتحدة ملتزمة بالدفاع عن مصالحها الحيوية في المنطقة ، عند الضرورة ، وكما يجب من خلال استعمال القوة العسكرية للولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفياتي أو أي قوة إقليمية أخرى لها مصالح معادية لمصالحنا . وتبقى الولايات المتحدة أيضاً ملتزمة بدعم الدفاع الفردي والجماعي عن النفس للبلدان الصديقة في المنطقة ؛ لتمكينها من القيام بدور أكثر فاعلية في دفاعها الذاتي ، وبتقليل ضرورة التدخل العسكري المنفرد للولايات المتحدة . وسوف تشجع الولايات المتحدة الدعم الفعال ومشاركة الحلفاء الغربيين واليابان لتطوير مصالحنا المشتركة في منطقة الخليج الفارسي» .

وتحتوي الوثيقة على توجيه خاص بشأن العراق . وما قيل في هذا الصدد يتفق تماماً مع السياسة الموروثة من إدارة ريغان . والمقصود أنها دعت إلى محاولة محدودة لقيام علاقة أكثر من عادية مع العراق ، في مسعى إلى صياغة السياسة الخارجية العراقية ، وتحديث سلوك العراق مع الولايات المتحدة . وجاء في الوثيقة :

«ستخدم العلاقات العادية بين الولايات المتحدة والعراق مصالحنا على المدى الطويل ، وتشجع الاستقرار في كل من الخليج والشرق الأوسط . وعلى حكومة الولايات المتحدة أن تقترح حوافز اقتصادية وسياسية للعراق لجعل سلوكه معتدلاً ، ولزيادة نفوذنا في العراق . وفي الوقت نفسه ، يجب أن تدرك القيادة العراقية أن أي

استعمال غير مشروع للأسلحة الكيمياوية و/أو البيولوجية سوف يؤدي إلى عقوبات اقتصادية وسياسية ، وسوف نسعى إلى كسب أوسع تأييد من حلفائنا وأصدقائنا . وأي خرق من جانب العراق لحماية الوكالة الدولية للطاقة الذرية ، كلب الحراسة التابع للأمم المتحدة في هذه المنطقة ، في برنامجها النووي ، سينتج عنه رد فعل مماثل . وسوف تستمر اعتبارات حقوق الإنسان في أن تكون عنصراً مهماً في سياستنا نحو العراق . يضاف إلى ذلك أنه يجب حث العراق على التوقف عن التدخل في الشؤون الخارجية مثل لبنان ، وتشجيعه على القيام بدور بنّاء في التفاوض على تسوية مع إيران ، والتعاون في عملية سلام الشرق الأوسط .

ويجب أن نواصل السعي إلى توفير الفرص لشركات الولايات المتحدة للمشاركة في إعادة بناء الاقتصاد العراقي ، وبخاصة في حقل الطاقة ، حيث لا يتعارض ذلك مع عدم انتشارها والأهداف المهمة الأخرى ، وكوسيلة لتطوير الدخول إلى المؤسسة الدفاعية العراقية والتأثير فيها ، يجب على الولايات المتحدة اعتبار مبيعات المساعدة العسكرية مثل التدريبات والتبادل الطبي ، على قاعدة دراسة كل حالة لوحدها» .

يرى هاس أن العراق ، بعد نهاية حربه مع إيران ، بدا في نظر الولايات المتحدة ، أقل تطرفاً ، لأنه ابتعد عن الاتحاد السوفياتي ، وابتعد عن دعم الإرهاب ، ونأى عن كتلة الرفض المتطرفة العربية ، التي بذلت كل ما في وسعها لإحباط التطبيع العربي-الإسرائيلي ، وانضم العراق إلى مصر والأردن واليمن في مجلس التعاون العربي . وهو ائتلاف من الدول العربية المعتدلة الموالية للغرب . ويؤكد هاس عدم وجود أوهام عن العراق لدى المسؤولين الأمريكيين ، ويقول في هذا الصدد : «كان صدام رجلاً سيئاً ، والعراق بدأ الحرب مع إيران ، واستعمل الأسلحة الكيمياوية ضد إيران وضد مواطنيه الأكراد . . . وكان هناك أيضاً الاقتناع بأن المزيد من حركة المجابهة مع العراق ستفشل ، لأنه لا الدول العربية ولا الدول الأوروبية مستعدة لتأييد مقاربة كهذه» .

استمر برنامج ضمانات الاعتماد للمصدرين الأمريكيين للعراق لتسهيل شراء المنتجات الزراعية الأمريكية في عهد إدارة بوش (الأب) طوال سنة ١٩٨٩ ، وحتى شباط ١٩٩٠ ، حينما هدد صدام الحكومات العربية الأخرى في مؤتمر قمة مجلس التعاون العربية في عمّان ، لإعفاء العراق من ديونها عليه ، ودعوته الأسطول

الأمريكي لمغادرة المنطقة . وفي آذار اتهم العراق الصحفي البريطاني فرزاد بازوفت Farzad Bazoft بالتجسس ، وحكم عليه بالإعدام ونفذ الحكم به ، على الرغم من النداءات الدولية للعفو عنه . وبعد أسابيع قبضت سلطات الجمارك في مطار لندن (Heathrow) على أجهزة إلكترونية مرسلة إلى العراق لاستعمالها كمفجر لأسلحة نووية . وفي نيسان أوقفت سلطات الجمارك البريطانية شحنة أخرى غير قانونية للعراق . وظهرت قصة المدفع العملاق . وساءت الأمور في الولايات المتحدة بخطاب صدام حسين ، الذي هدد فيه إسرائيل باستعمال الأسلحة الكيمياوية إذا هاجمت العراق .

وفي هذا الوقت ، وصل وفد من مجلس الشيوخ الأمريكي إلى بغداد برئاسة الجمهوري البارز روبرت دول Robert Dole وضم الديمقراطي هوارد متزنباوم Howard Metzenbaum من ولاية أوهايو . استمع الوفد إلى صدام ، الذي رأى أن هناك مؤامرة دولية ضده . بذل الوفد ما في وسعه ليؤكد لصدام المصلحة الأمريكية في إقامة علاقة ثنائية واسعة مع العراق . ومع ذلك أوقفت وزارة الزراعة الأمريكية القسط الثاني من ضمانات الاعتماد للعراق البالغ (٥٠٠) مليون دولار . وجمّد المبلغ .

كلف ريتشارد هاس بالذهاب إلى بغداد لدراسة الوضع هناك ، فوصل إليها في أواخر أيار ١٩٩٠ . وبقي في منزل السفيرة أبريل غلاسبي April Glaspie . وكان مضيفه في بغداد نزار حمدون ، سفير العراق السابق في واشنطن وكيل وزارة الخارجية العراقية . وقابل عدداً من الوزراء العراقيين ، ولا سيما وزير الخارجية طارق عزيز . ودام لقاء هاس مع عزيز ساعتين في وزارة الخارجية العراقية . شكا العراقيون من سلوك الولايات المتحدة ضد العراق . يقول هاس : «عدت إلى واشنطن معتقداً أنه يجب أن لا نقطع علاقاتنا التجارية مع العراق ، إلا إذا ظهر دليل بأن العراق قد أخل بالشروط التي تزود بموجبها البضائع والخدمات الأمريكية . . . لم أرد زيادة الشكوك لدى القادة في بغداد الذين يرون مؤامرة ضدهم . كما لم أرد أن أستسلم لمحاولة بناء علاقة مع العراق على أمل تعديل سلوكه . وكنت مرتاباً بجدوى العقوبات الأمريكية من جانب واحد» .

ووصلت معلومة إلى مجلس الأمن القومي الأمريكي بأن شركة كونسارك Consarc في نيوجيرزي تحاول تصدير أفران عالية الحرارة إلى العراق ، بحجة المساعدة في إنتاج معدن التيتانيوم Titanium ومعادن أخرى لإنتاج الأذرع الصناعية . شكّت

وكالات الاستخبارات الأمريكية في أنها من أجل صنع صواريخ جو وأجزاء من الأسلحة النووية . اتخذ هاس قراراً بإيقاف الشحنة قبل وضعها على ظهر الباخرة المتجهة إلى العراق .

في اجتماع الجامعة العربية ، الذي عقد في بغداد في أواخر أيار ١٩٩٠ ، اتهم صدام الكويتيين بسرقة النفط من حقول عراقية ، وطلب منهم إعفاء العراق من ديونهم عليه . وفي منتصف تموز بدأ العراق تهديداته بالأعمال . وفي ٢٥ تموز قابلت سفيرة الولايات المتحدة الرئيس العراقي بناء على طلبه . وسرد هاس تفاصيل تطور العلاقات بين الولايات المتحدة والعراق ، التي وردت في مذكرات جيمس بيكر وديك تشيني حتى بداية غزو العراق للكويت .

الجديد فيما قاله ريتشارد هاس عن عملية درع الصحراء

لقد تناول جيمس بيكر وديك تشيني وكولن باول ونورمان شوارتزكوبف عملية درع الصحراء ، بتفاصيلها السياسية والدبلوماسية والعسكرية ، غير أن ريتشارد هاس أضاف إليها معلومات ومواقف في إدارة الرئيس بوش (الأب) لم يذكرها الآخرون ، وجدير بأن يطلع عليها القارئ العربي .

يذكر هاس أن الارتجال كان سائداً لدى القيادة العليا الأمريكية في اليوم الأول لغزو العراق للكويت . ولم يكن لديها دليل للعمل ولا خطة طوارئ للتعامل مع هذا الحدث . ولذا تم الاتفاق على تجميد أرصدة العراق والكويت في الولايات المتحدة ، وتقرر الذهاب فوراً إلى الأمم المتحدة لاتخاذ قرار من مجلس الأمن يدعو إلى سحب جميع القوات العراقية من الكويت . وصدر القرار (٦٦٠) في ١٩٩٠/٨/٢ بإجماع أعضاء مجلس الأمن باستثناء اليمن . ووقفت روسيا والصين مع الولايات المتحدة .

قال هاس إن خلافاً ظهر في أول اجتماع لمجلس الأمن القومي لمناقشة غزو العراق للكويت ، بين الداعين إلى الخيار العسكري والداعين إلى الخيار الدبلوماسي . وإنه كان من الفريق الأول . ولذا أبدى امتعاضه من الفريق الثاني بقوله : «وما ضايقني الاستعداد الواضح لدى بعضهم في الغرفة للموافقة على ما حدث . وذهبوا إلى القول بأننا لا نستطيع عمل شيء ، ويجب أن تركز سياسة الولايات المتحدة على التأكد من أن لا يذهب صدام إلى أبعد من ذلك ويغزو العربية السعودية مثلما فعل في الكويت . . . خرجت من الغرفة ، وعبرت عن عدم سعادتي لبرنت عن الاجتماع وما

دار فيه . وافق على ذلك ، وقال بأنه سيبحث الموضوع مع الرئيس في الطائرة (التي تقله إلى أسبن) . وطلب مني أن أكتب شيئاً يمكن تقديمه للرئيس عند عودته . لخصت في المذكرة ما سوف نحتاجه لإخراج العراق من الكويت وعدم تشجيعه على التحرك ضد العربية السعودية» .

في الاجتماع الثاني لمجلس الأمن القومي ، الذي كان برئاسة الرئيس بوش في ١٩٩٠/٨/٣ ، يقول هاس : «قبل الدخول إلى الغرفة تجمعنا في المكتب البيضاوي ، حيث أقنع برنت سكوكروفت لاري إيغلبرغر Larry Eagleberger أن يتأخر في الحديث ، خوفاً من أنه بعد حديثه لا يكون أحد مستعداً للنقاش في اتجاه مختلف . وتقرر أن يبدأ برنت بالحديث ، الذي يتضمن الدعوة إلى المقاومة وردع العدوان العراقي . وهذا ما فعله . بدأ برنت بقوله : (رأيي الشخصي هو أن المخاطر في هذا العدوان على الولايات المتحدة هي في ترضية العراق . يجب أن لا يكون خياراً سياسياً) . وكرر لاري ما أكده برنت قائلاً : «إن ردنا سوف يسم المرحلة ، والسماح لصدام بالاحتفاظ بالكويت سوف يعطيه الفرصة للسيطرة على العربية السعودية ، وعلى منظمة الدول المصدرة للنفط (OPEC) وإسرائيل» . وردد وزير الدفاع ديك تشيني ما قاله لاري . وبذلك هيمن دعاة الحل العسكري على الموقف منذ البداية .

وسيطر دعاة الحل العسكري على الاجتماع الثالث لمجلس الأمن القومي ، الذي عقد في ١٩٩٠/٨/٤ ، يقول هاس : «سار الاجتماع بيسر تماماً . خياراتنا العسكرية كانت أفضل من المتوقع . وكان كولن باول ، رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة ، فعالاً ومؤكداً لضعف العراق : مستوى متدن من القوات ، وخطوط اتصال هشة ، وتفوق الولايات المتحدة في القوة الجوية . . . قدّر باول أن مئة ألف جندي وبعض الاحتياط ودعم الدول المضيفة يكفي لصد هجوم عراقي على العربية السعودية» .

ويذكر هاس أن ديك تشيني كان من اليائسين من الحصول على موافقة السعوديين على استقبال قوات أمريكية على أراضيهم . وكان مستعداً للهجوم على العراق بدون موافقة الرياض واشتراكها . وأهم ما دار في الاجتماع الثالث لمجلس الأمن القومي البدء بنقاش أولي للتخطيط العسكري .

يقول هاس إنه وسكوكرفت وسنونو رتبوا اللقاء بالسفير السعودي الأمير بندر بن سلطان صباح الأحد ١٩٩٠/٨/٥ ، ويذكر تفصيلات عن هذا اللقاء لم ترد في مذكرات الساسة الأمريكيين . يقول في هذا الصدد : «تلقى بندر تعليمات بإرسال

مبعوث أمريكي لزيارة المملكة لبحث ما يمكن عمله . قال برنت كلا ، لن يرسل مبعوث ما لم نعرف أن السعوديين مستعدون للعمل معنا والوقوف في وجه العراق . سعى بندر إلى جعل الأمور مفتوحة . كان يعكس التوتر العصبي السعودي . بعضه نشأ من الشكوك في المصداقية الأمريكية . . . وفي مدى عدة اجتماعات ومحادثات هاتفية بينت وبرنت لبندر بأننا لن نتزحزح : لا التزام سعودياً ، لا مبعوث أمريكياً ، لا إنتشار لقوات أمريكية . تراجع بندر لما أدرك أخيراً أنه لا مساومة من جانبنا ، وأن على السعوديين أن يقرروا الآن . واقتنع أن يمسك بالهاتف ويتحدث مع عمه الملك من مكتب برنت . . . وبعد بضع دقائق أخبرنا بندر أن عمه والحكومة السعودية على استعداد لقبول وفد تشيني ، وأنهم يذكرون أن هذا يعني أنهم قبلوا التعاون العسكري معنا . طلبوا فقط أن يبقى ذلك سراً حتى التوصل إلى قرار نتيجة بعثة تشيني» .

تتناقض رواية هاس هذه مع روايتي ديك تشيني ونورمان شوارتزكوبف في مذكراتهما . فهاس يؤكد أن الموقف السعودي من نشر القوات الأمريكية على أرض المملكة قد تأكد قبل سفر الوفد الرسمي الأمريكي برئاسة تشيني ، بينما يعزو تشيني ذلك إلى قدرته على إقناع العاهل السعودي عند لقائه به في الرياض .

يذكر هاس في مذكراته أيضاً أن صدام حسين استدعى القائم بأعمال السفارة الأمريكية في بغداد جو ويلسون في ١٩٩٠/٨/٦ ، وأبلغه أن الكويت أصبحت جزءاً دائماً من العراق ، وأنه لا ينوي مهاجمة العربية السعودية ، وأن أي عمل عسكري من الولايات المتحدة سيكون مكلفاً ودون جدوى . وأضاف : «سوف أخبركم كيف ستهزمون وأنتم دولة عظمى ، وأعرف أن بإمكانكم إيذاءنا ، ولكنكم ستخسرون المنطقة كلها . لن تركعونا ولن نستسلم» .

وقام هاس في ١٩٩٠/٨/٨ بإعداد خطاب الرئيس بوش (الأب) عن غزو العراق على الكويت . وأرسله إلى كتّاب الخطابات في البيت الأبيض ، الذين أعادوه له بعد ساعتين . وقد تتبعه مع سكوكروفت سطراً سطراً وكلمة كلمة . وقد أكد الخطاب أربعة مبادئ في السياسة الأمريكية : انسحاب كامل وفوري وغير مشروط من الكويت ، وعودة الحكومة الكويت الشرعية ، والتزام الولايات المتحدة بأمن المنطقة واستقرارها ، والعربية السعودية بخاصة ، وعزم الولايات المتحدة على حماية أرواح المواطنين الأمريكيين في الخارج .

يورد هاس تفاصيل عن زيارة الملك حسين ، عاهل الأردن ، لواشنطن أثناء الأزمة

في ١٦/٨/١٩٩٠ ، فهو يقول : «نشأت بسرعة مشكلة مع حسين ملك الأردن ، الذي أراد أن يأتي بزيارة من غير مهلة كافية . من الصعب القول لا لملك ، لا سيما من شخص كالرئيس . ومع ذلك كان الملك حسين خيبة أمل كبرى في هذه الأزمة . لقد ألقى بمصيره إلى جانب صدام ، سواء خوفاً من صدام ، أو من الولاءات لصدام لدى معظم الفلسطينيين من شعبه ، أو أملاً في مكاسب سياسية واقتصادية . بدا كما لو أنه يحمل رسالة ما من صدام ، شيء ليس لنا اهتمام به . كان إصرارنا على أن لا نقبل أقل من التنفيذ الكامل لمطلب الأمم المتحدة من العراق بمغادرة الكويت ، واستعادة سيادتها» .

وبرزت عقدة حينما طلب السعوديون إرسال مبعوثين (وزير الخارجية سعود الفيصل وبندر بن سلطان) لمقابلة الرئيس . وهكذا قررنا دعوتهم جميعاً إلى كينيبونكبورت Kennebunkport في مين Maine ، الوفد الأردني للغداء ، والوفد السعودي لتناول الشاي في ١٦/٨/١٩٩٠ .

لم نكن نعرف ما في جعبة الملك حسين ، وعلى الرغم من لقاء رئيس ديوانه مع برنت في الليلة السابقة لم يتضح شيء . التقى الملك وبوش وبرنت ورئيس الديوان الملكي الأردني لمدة ساعة . وعادوا لتناول العشاء مع بقية الوفدين الأردني والأمريكي . كان الملك حسين مرهقاً ومتشائماً ، يبدو أن الأحداث قد طغت عليه . شعر من الضروري أن يخبرنا عن مقدار ما فعله لتجنب الحرب ، وكيف كان قريباً من النجاح . لم يصدّق أي منا هذا ، ولكن لا يوجد سبب لتحديه ، ولم نفعل ذلك .

اعتقدت أنه كان من الواجب الضغط عليه بصورة أقسى ، بسبب رفض الأردن الانصياع لعقوبات الأمم المتحدة التي تستهدف معاقبة صدام لاحتلاله الكويت ، وإجباره على الانسحاب منها . فضلت صفقة : انصياع أردني كامل مقابل تعويضات مالية عن أية خسارة في التجارة والأمن العراقي . وأردت أيضاً من الرئيس أن لا يكون دبلوماسياً بل مباشراً في تسجيل بعض العلامات على سلوك الأردنيين نحو العراق . كنت أخشى أن يتحالف حسين مع العراق ، وبذلك يرتكب الخطأ الثاني في حياته . كان الأول قراره سنة ١٩٦٧ بدخول الحرب ضد إسرائيل ، وهو قرار كلفه فقدان نصف مملكته ، حينما خرجت إسرائيل من الحرب بالسيطرة على الضفة الغربية والقدس . لكن الرئيس كان غير مرتاح ليكون قاسياً جداً مع الملك . فقد أحب العاهل المتواضع والمهذب والمحترم دوماً . حصل الاجتماع دون أن يزيل فقدان الثقة في

العلاقة بين البلدين . . . استمر الملك حسين في عدم مساعدة نفسه بالقول إننا بالغنا في تهديد العراق للعربية السعودية ، وقد أزال ميله لصدام ما كان يتمتع به من شعبية في الولايات المتحدة» .

يقول هاس إن الوفد السعودي جاء برسالة واضحة : «تقديرنا أن تحرير الكويت يقتضي أكثر من العقوبات الاقتصادية ، ما أرادوه منا أن نعمل ماهو ضروري لتحرير الكويت بالقوة . ويفضل تحت رعاية الأمم المتحدة ، في عملية تدمير لآلة الحرب العراقية ، بحيث لا يستطيعون الاستمرار في العيش في خوف ، وفي ظل صدام . وإذا انسحب صدام من الكويت مع قواته سليمة ، يريدون نوعاً من قوة حفظ سلام دائمة على الحدود العراقية-الكويتية» .

دور هاس في الإسراع في الحل العسكري لإخراج العراق من الكويت

يتناول هاس في مذكراته زيارة ديفيد إيفري David Ivry الموظف الكبير في وزارة الدفاع الإسرائيلية ، الذي خطط في بداية الثمانينات من القرن العشرين للهجوم على المفاعل النووي العراقي ، لواشنطن على رأس وفد إسرائيلي لبحث سيناريوهات الحل العسكري لإخراج العراق من الكويت . يقول هاس في هذا الصدد : «قابلته مع بول ولفوويتز . قلنا له إننا أنجزنا صفقة عظيمة بجمع ائتلاف دولي من عشرات الدول ، ومنها دول عربية . وقلت إن على إسرائيل أن لا تتولى بنفسها العمل المنفرد حتى ولو هددت بالصواريخ العراقية أو عدم الاستقرار في الأردن . لم يكن إيفري مستعداً لقبول هذا الرأي ، مع أن الحديث لم يذهب هباءً . . . كان لدى الوفد الإسرائيلي قلق واضح يشبه القلق السعودي من أي احتواء لتهديد العراق ، باعتباره أمراً ليس بالإمكان الحفاظ عليه» .

يبرز هاس دوره في إعداد البيان المشترك الأمريكي-السوفياتي في قمة هلسنكي ، بالتعاون مع دنيس روس Dennis Ross ، الذي صدر في ١٩٩٠/٩/٩ ، وأكد اتفاق الدولتين على عدم التسامح مع الغزو العراقي للكويت .

يقول هاس : «كانت المسألة الصعبة هي إلى أي مدى يمكن التمسك بالعقوبات ، وكيف نقنع الناس بأن الوقت قد حان لاستعمال القوة العسكرية . أردنا تجنب الانطباع بأننا نحن الذين نقوم بالتصعيد . . . كان شاغلي الرئيسي في تشرين الأول (١٩٩٠) كيف ننقل إستراتيجية الولايات المتحدة نحو العراق والكويت من الاحتواء

إلى التحرير . قضيت كثيراً من الوقت أعمل على مذكرة تناقش أولاً ضمن مجموعة صغيرة من لجنة النواب التي كوّناها ، لمعالجة الجوانب الأكثر حساسية في الأزمة . كان فيها ستة أعضاء هم : بوب كيميت Bob Kimmitt ممثل لوزارة الخارجية ، وبول ولفوويتز ممثل لوزارة الدفاع ، والأميرال ديفيد جيرمياه David Jermiah ممثل هيئة رؤساء الأركان المشتركة ، وديك كير Dick Kerr ممثل للمجتمع الاستخباري ، وريتشارد هاس ممثل مجلس الأمن القومي ، ويرأس المجموعة بوب غيتس . وكلف هاس بكتابة محضر الاجتماعات .

كانت هذه المجموعة الصغيرة مؤهلة للتخطيط السياسي السليم . لقد لخصت بتفصيل واسع الخيارات الأساسية الثلاثة المتاحة لنا : التمسك بالعقوبات على أمل أن تضغط على صدام لإخلاء الكويت ، أو توجيه إنذار (مدعوم من الأمم المتحدة) للعراق لمغادرة الكويت في موعد معين ، أو أنه سيكره على ذلك ، أو الانتظار حتى يقوم صدام بشيء جديد واستغلاله كتحريض لطرده من الكويت .

يقول هاس إن اللجنة ناقشت هذه الخيارات ووجدت أن الإنذار هو أفضل الخيارات ، لأنه يترك فرصة لصدام لكي ينسحب من الكويت . ولكن الكونغرس ووسائل الإعلام والرأي العام العالمي يفضلون العقوبات الاقتصادية والسياسية على اللجوء إلى القوة العسكرية .

يصف هاس الوضع الداخلي في الولايات المتحدة كما يلي : «عدنا إلى الوطن في أواخر تشرين الثاني ١٩٩٠ إلى مشهد سياسي محلي أسوأ بكثير مما تركناه . في الصفحة الأولى من جريدة New York Times عنوان عريض «انهيار الائتلاف The Collapse of the Coalition» وعنوان فرعي «الصقور والحمائم تجتمع على نقد بوش Hawks and Doves Join in Criticism of Bush» وكتب الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر إلى رؤساء الدول الأخرى الأعضاء في مجلس الأمن الدولي ، ناصحاً إياهم أن لا يؤيدونا . وكان الشيخ سام نون Sam Nunn الذي يعد من الصقور في مسائل الحرب والسلام ، يعقد جلسات استماع عن الأزمة ، شهد فيها الشاهد بعد الآخر أمام «لجنة الخدمات المسلحة في مجلس الشيوخ Senate Armed Services Committee» تؤكد أن سياسية إدارة بوش المضللة قد تؤدي إلى خسارات كبيرة في الأرواح ، ورفع أسعار النفط . كان الشهود وأعضاء مجلس الشيوخ يفضلون إعطاء العقوبات وقتاً أطول لتأخذ مفعولها . وتحرك الرئيس ليوجه خطاباً إلى الشعب

الأمريكي بعنوان «لماذا نحن في الخليج Why We Are in the Gulf» لنيل التأييد المحلي للسياسة الأمريكية» .

يعبر هاس عن قلقه وقلق الداعين إلى الإسراع باستعمال القوة لإخراج القوات العراقية من الكويت ، حينما أعلن الرئيس بوش عن استعداده لإرسال جيمس بيكر للقاء بصدام حسين . ويقول : «سبب القلق الإعلان المفاجئ من البيت الأبيض بأن وزير الخارجية سيكون مستعداً مرة أو أكثر للقاء بطارق عزيز ، وزير خارجية العراق في آخر محاولة للسلام . كانت مفاجأة لي طبخها الرئيس وجون سنونو . شاركني برنت الرأي أنها فكرة سيئة ، لأنها بدت كما لو أننا نسعى إلى إعطاء صدام سبيلاً للخروج دون الانصياع التام لقرارات الأمم المتحدة . وبدت أيضاً كما لو كنّا نتعامى عن مرور قرار يقول إن الولايات المتحدة ودولاً أخرى مفوضة باستعمال كل الوسائل الضرورية-القوة العسكرية-لإخراج العراقيين وتجهيزاتهم من الكويت سالمين . كان السعوديون مستائين من فحوى البيان ، ولعدم إعلامهم به مقدماً» .

يعلق هاس على اجتماع بيكر مع طارق عزيز في جنيف في ١٩٩١/١/٩ بقوله : «خشيت أن نزعة الدبلوماسي الطبيعية لعقد صفقة قد تدفع بيكر إلى أن يكون مرناً جداً . وكانت الطبيعة البشرية في الرغبة في النجاح دافعاً آخر . لم يكن أحد أفضل من جيم بيكر لمنع عقد صفقة . وكان من نتيجة ذلك بعض الخوف في البيت الأبيض على اجتماع جنيف» .

وأبدى هاس انزعاجه أيضاً من «مفاجأة أخرى بعد أسبوع ، حينما أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية أننا سوف نسحب دبلوماسيينا من الكويت ، حالما يتم عن الإفراج عن جميع الرهائن . ظننت أن تلك فكرة سيئة ، لأنها قد تبدو تنازلاً للعراق ، وأننا قد تنازلنا عن استقلال الكويت . وما جعلها أسوأ افتقارها إلى التشاور بين الوكالات الرسمية وحلفائنا ، ومع البريطانيين بخاصة ، الذين شعروا بأنهم خدعوا لأننا طلبنا منهم الابتعاد بينما نعمل ما نريد . بدت أشهر الأزمة تلقي بثقلها ، لأن الناس المراهقين مالوا إلى الدعوة لاتخاذ قرارات ضعيفة وطبقت بصورة رديئة» .

في هذه الظروف جاءت زيارة رئيس وزراء إسرائيل ، إسحق شامير ، لواشنطن . يقول هاس عن دوره في هذه الزيارة : «قدمت إيجازاً للرئيس ، مؤكداً أهمية التأكيد لشامير بأننا لم نكن لنضحي بمصالح إسرائيل من أجل الحفاظ على تماسك الائتلاف . وقد ضغط عليه الرئيس بوش للحديث معنا قبل القيام بأي عمل

عسكري ، إذا هدد العراق إسرائيل أو هاجمها . ووعد بوش بإعطاء شامير علماً مقدماً قبل هجومنا على العراق . وبالإجمال كان الاجتماع جيداً ، لأن شامير احتاج المساعدة الاقتصادية الأمريكية لاستيعاب المهاجرين اليهود السوفيات الذين وصلوا إلى إسرائيل» .

وعن صلاته بالمنظمات اليهودية الرئيسية الأمريكية يقول هاس : «التقيت بمؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الرئيسية الأمريكية في نيويورك ، الذي هو بمثابة نوع من «الاتحاد الأمريكي للعمل ومؤتمر المنظمات الصناعية American Federation of Labor and Congress of Industrial Organisations (AFL-CIO)» للقيادة اليهودية . وبخلاف هذا الاتحاد ، فقد نشأت محافظة تماماً وملتزمة كثيراً بتفكير أولئك الإسرائيليين ، الذين يميلون إلى اتخاذ خط متصلب من التسوية من أجل السلام . وكان التركيز كثيراً حول كيف أن الإدارة لم تعمل ما يكفي لتلبية حاجات إسرائيل وحماية مصالحها .

كرر هاس في مذكراته الحجج التي ساقتها إدارة بوش (الأب) لتدمير العراق وقوته العسكرية ، فهو يقول : «إن صدّاماً يسيطر على الكويت سوف يسيطر على الشرق الأوسط الغني بالنفط ، أخذين في الاعتبار قيمة نفط الكويت ، واحتمال أن تخشى دول عربية أخرى الوقوف في وجهه وإلا لقيت مصير الكويت . وفي مدى زمني قصير ، قد يحصل على السلاح النووي ، ويتعرض أمن إسرائيل للخطر . ولا شك أن حالات قليلة في تاريخ العقوبات أثبتت نجاعتها ، ولذا يشك في أن تساهم العقوبات في الضغط لإجبار صدام على تغيير سياسته . ولم يكن لدينا سبب يدعونا إلى الاستنتاج بأن الوقت كان إلى جانبنا» .

لا جديد فيما كتبه هاس عن حرب تحرير الكويت أو عملية عاصفة الصحراء ، ولكنه كان هو الذي كتب خطاب الرئيس بوش الذي أنهى به حرب تحرير الكويت في ١٩٩١/٢/٢٧ ، ومثلما بدأ أول اجتماع لمجلس الأمن القومي أو عصابة الثمانية ، كما يسميها موظفو البيت الأبيض ، باختلاف في الرأي حول ما يجب عمله في مواجهة غزو العراق للكويت ، انتهى آخر اجتماع للمجلس المذكور باختلاف في الرأي في كيفية إنهاء حرب تحرير الكويت . فقد كان جيمس بيكر من أنصار الإسراع في إنهاء الحرب ، خوفاً من انحلال الائتلاف الدولي ، بينما كان ديك تشيني وسكوكروفت وهاس يرون إنهاء الحرب بعد استسلام العراق ، والقضاء التام على

القوات المسلحة العراقية . وأخيراً تم التوصل إلى تسوية : الطلب من صدام الإعلان رسمياً أنه يؤيد قرارات الأمم المتحدة ، وأن يلقي العراقيون أسلحتهم . وهذا ما أعلنه العراق يوم ١٩٩١/٣/٢٨ .

الفصل السادس

غزو العراق للكويت في مذكرات الساسة والعسكريين البريطانيين: مارغريت تاتشر، وجون ميجور، ودوغلاس هيرد، وإدوارد هيث، والجنرال السير بيتر دولا بيليير

تاتشر تحرص على إخراج العراقيين بالقوة من الكويت

خصصت مارغريت تاتشر Margaret Thatcher ، رئيسة وزراء بريطانيا ، ثلاث عشرة صفحة من مذكراتها «سنوات دوانغ ستريت The Downing Street Years» الصادرة في لندن ، عن دار نشر Harper Collins Publishers سنة ١٩٩٣ ، لغزو العراق للكويت . كانت تاتشر أكثر الساسة الغربيين حماسة لإخراج العراقيين بالقوة العسكرية من الكويت منذ بداية الغزو . وقد حرضت الرئيس الأمريكي جورج بوش (الأب) على ذلك .

تقول تاتشر في مذكراتها : «انطلقت طائرة VC-10 من مطار هيثرو صباح الأربعاء الأول من آب ١٩٩٠ ومعي على متنها الحاشية نحو مدينة آسبن Aspen في ولاية كولورادو الأمريكية . كان من المقرر أن يفتتح الرئيس جورج بوش مؤتمر معهد آسبن Aspen Institute Conference يوم الخميس . وكان من المقرر أن ينتهي يوم الأحد (٦ آب) . ذهبت مبكراً حتى أكون حاضرة لخطابه . عند مغادرتي علمت أن العراقيين أرسلوا قوات إلى الحدود مع الكويت . فالمفاوضات التي بدأت بين العراق والكويت في جدة قطعت ذلك اليوم . وفهمنا أنها سوف تستأنف . وعلمنا بعد قليل أن الأمر ليس كذلك . في الساعة الثانية صباحاً بتوقيت الكويت من يوم الخميس الثاني من آب ، نفذ العراقيون غزواً عسكرياً على نطاق واسع ، وزعموا أن انقلاباً داخلياً قد حصل واستولى على السلطة في البلاد» .

في بداية مساء الأربعاء بتوقيت كولورادو ، اتصل سكرتيرها الخاص تشارلز باول Charles Powell من فندقه ليخبر تاتشر هذه الأنباء . وقررت حالاً إرسال البارجتين

الحربيتين البريطانيتين بينانغ Penang ومباسه Mombasa إلى الخليج العربي ، هذا مع العلم أنه كان لبريطانيا بارجة في حرس أرميلا Armilla في الخليج هي بارجة يورك York في دبي . تقول تاتشر : «في الصباح التالي علمت أولاً بمذكرة من تشارلز عن آخر المعلومات . اضطربت حكومات عربية . وفشل اجتماع وزراء الخارجية العرب في القاهرة في الاتفاق على إصدار بيان . كان الملك حسين يحاول إيجاد عذر للعمل العراقي ، على أساس أن الكويتيين يبدون تشدداً غير ضروري . دب الرعب في الأسر الحاكمة في الخليج . وبدعم قوي بريطاني قرر مجلس الأمن الدولي إدانة العراق ، ودعاه إلى الانسحاب الشامل والتفاوض المباشر . وفي لندن قرر وزير الخارجية دوغلاس هيرد Douglas Hurd تجميد الأرصدة الكويتية في بريطانيا . ولم يكن للعراقيين سوى الديون لحسن حظهم . وكان السؤال الفوري : هل سيجتاز صدام حسين الحدود ويسيطر على حقول النفط السعودية؟ كان هذا مهماً ، ولكنني كنت مقتنعة من البداية أنه يجب أن لا يحوّل أنظارنا عن الحاجة إلى إخراج صدام حسين من الأراضي ، التي يسيطر عليها بعمل عدواني غير مشروع» .

وأضافت : «كنت مقيمة في ضيافة السفير هنري كاتو Henry Catto في مزرعته . قرأت مذكرة تشارلز ، واستمعت للأخبار ، ثم ذهبت للسير وحدي للتفكير جيداً . ولما عدت كان تشارلز وسفيرنا السير أنتوني أكلاند Sir Antony Acland ينتظرانني . علمت من البيت الأبيض أن الرئيس بوش سيأتي ويصل صباحاً . بدأت بمناقشة الأمر ، وتبين لي بعد التحليل وجود نقطتين . . كانت الأمور واضحة لي بما يجب أن نفعله : أولاً يجب أن لا يكافأ المعتدون ، وقد تعلمنا ذلك على حسابنا في ثلاثينات القرن العشرين . ثانياً : إذا كان صدام قد اجتاز الحدود إلى العربية السعودية فقد يستمر في النزول إلى الخليج خلال أيام . وسوف يسيطر على ٦٥٪ من احتياطي النفط في العالم ، وسوف يبتزنا جميعاً . لن نتحرك لإيقاف العدوان فحسب وإنما يجب إيقافه بسرعة . بتقديم هاتين النقطتين شعرت أن الخبرة والغريزة ساعدتاني للثقة بتقديري للأمور . . . أصغى الرئيس بوش لما قلته . ثم أخبرني أنه تحدث مع الرئيس مبارك والملك حسين ، اللذين نصحاه بأن تبقى الولايات المتحدة هادئة ، وإعطاء الفرصة لحل عربي . قال ذلك فليكن ، ولكن يجب أن يشمل الانسحاب العراقي عودة الحكومة الكويتية الشرعية . وكان الرئيس بوش قد قرر مقاطعة المنتجات العراقية ، وإيقاف القروض ، وتجميد أرصدة العراق والكويت ، وأمر سفن الأسطول

الأمريكي بالتوجه من المحيط الهندي إلى الخليج» .

هذا وقد اقترحت تاتشر على بوش إصدار قرار من مجلس الأمن الدولي بفرض حظر تجاري على العراق ، وإغلاق أنابيب النفط العراقي عبر تركيا والعربية السعودية ، وإرسال قوات إلى العربية السعودية لحمايتها ، بطلب خاص من الملك . اتصل بوش برئيس جمهورية تركيا تورغوت أوزال ، الذي وعده بإيقاف تدفق النفط العراقي إلى تركيا . تقول تاتشر في هذا الصدد : «لم أفاجأ ، ففي زيارتي الاثنتين لتركيا أعجبت جداً بقوة الرئيس . وقد أدهشني أهمية البلاد الاستراتيجية . وبها كدولة علمانية معظم سكانها من المسلمين ، وبجيشها الكبير ، وبتطلعها نحو أوروبا ، وهي على أطراف الشرق الأوسط . وقد تصبح تركيا حصناً حيوياً ضد الأصولية الإسلامية العدوانية أو أي أنواع أخرى من القومية العربية ، مثل تلك التي ينادي بها صدام حسين» .

تحدثت تاتشر في هذه الأثناء مع الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران هاتفياً ، الذي اتخذ موقفاً متشدداً من العراق . وكانت فرنسا وبريطانيا الدولتين الوحيدتين اللتين أبديتا الرغبة في القتال لإخراج القوات العراقية من الكويت .

قالت تاتشر في خطابها الذي ألقته في مؤتمر معهد آسبن : «يتحدى العراق في غزوه للكويت كل مبدأ تقف إلى جانبه الأمم المتحدة . إذا سمحنا له بالنجاح ، لن تستطيع أية دولة صغيرة الشعور بالأمن ثانية . وإن شريعة الغاب ستطغى على كل قانون . يجب أن تؤكد الأمم المتحدة سلطتها وتفرض حظراً اقتصادياً شاملاً ، إلا إذا إنسحب العراق بلا تأخير . تؤيد الولايات المتحدة وأوروبا هذا ، ولكن حتى يكون فعالاً تماماً يحتاج إلى دعم خارجي من جميع الدول الأعضاء في الأمم المتحدة . يجب أن تقف إلى جانبه ، لأن مبدءاً حيوياً في خطر : يجب أن لا يسمح للمعتدي بالمرور دون عقاب» .

سعت تاتشر إلى اتخاذ خطوات عملية لمعاقبة العراق والضغط عليه . فقد وافقت دول الجماعة الاقتصادية الأوروبية على فرض حظر اقتصادي وتجاري كامل على العراق . وأمرت وزارة الخارجية البريطانية بإعداد خطط لتطبيق حصار بحري في شمال شرقي البحر المتوسط والبحر الأحمر وشمال الخليج ، لاعتراض ناقلات النفط العراقي والكويتي . وانتقلت من آسبن إلى واشنطن لاستئناف محادثاتها مع الرئيس بوش يوم ١٩٩٠/٨/٦ . وقضت ساعتين بعد ظهر ذلك اليوم في البيت الأبيض ، كان

في بدايته مع الرئيس بوش ثم انضم إليهما برنت سكوكروفت Brent Scowcroft مستشار الرئيس للأمن القومي ، ودان كويل Dan Quayle نائب الرئيس ، وجيمس بيكر James Baker وزير الخارجية ، وجون سنونو John Sununu رئيس موظفي البيت الأبيض ، من الجانب الأمريكي ، وتشارلز باول من المرافقين لرئيسة الوزراء البريطانية ، والسكرتير العام لحلف شمال الأطلسي . تقول تاتشر تعقيباً على هذا الاجتماع : «كان الرئيس بوش حازماً وبارد الأعصاب ، مبدياً الحسم باعتباره القائد الأعلى لأقوى دولة في العالم» .

تزعم تاتشر أن صدام حسين قد أقسم إنه إذا دخلت القوات الأمريكية إلى العربية السعودية سوف يحرر المملكة من الأسرة المالكة السعودية . وتقول إن الرئيس بوش وزع على المجتمعين في مكتبه صوراً واضحة تبيّن أن الدبابات العراقية تحركت نحو الحدود مع العربية السعودية . وكانت تخشى أن يهاجم العراق العربية السعودية ، قبل أن يطلب ملكها رسمياً المساعدة من الولايات المتحدة . وأثناء وجودها في مكتب الرئيس بوش ، اتصل به وزير الدفاع ديك تشيني من الرياض ، وأعلمه أن الملك فهد وافق على نشر قوات أمريكية على أرض بلاده ، شريطة أن لا يعلن عن ذلك إلا بعد وصول هذه القوات . وكانت ترى ضرورة استعمال القوة دون اللجوء إلى مجلس الأمن الدولي ؛ لأن المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة تبيح للدول الغربية إخراج العراقيين من الكويت بالقوة العسكرية .

وقد وصفت دورها في هذه الأزمة الدولية كما يلي : «استمرت المحادثات بيني وبين الرئيس بوش في واشنطن . وقد أكدت أهمية الإعداد للرد على أي استعمال عراقي للأسلحة الكيمياوية . وأكدت أن علينا محاربة الدعاية الحربية التي كانت في أوجها . كان هذا عملاً دفاعياً من الغرب للحفاظ عن سلامة العربية السعودية . وأي شيء يعقد ذلك أو يجعله غامضاً يجب تجنبه . ويجب أن نعمل كل شيء لجعل الإسرائيليين خارج النزاع . ووعدت باستعمال اتصالاتي مع حكام الشرق الأوسط ؛ لمحاولة زيادة الدعم للعمل الأمريكي في الدفاع عن العربية السعودية ، وتشديد الضغط على العراق» .

عادت تاتشر إلى لندن يوم ١٩٩٠/٨/٧ ، وكان لها حديث هاتفي لمدة ساعة من الزمن مع الملك فهد في اليوم التالي ، حول العدوان العراقي على الكويت ومواقف القادة العرب منه .

المشاركة العسكرية البريطانية في تحرير الكويت

تقول مارغريت تاتشر في مذكراتها إن حزب المحافظين البريطاني لم يسمح لها «بمواصلة الحملة لإخراج صدام حسين من الكويت» . وإنها في الأشهر الأربعة التي قضتها في الحكم أثناء غزو العراق للكويت ، «كونت لجنة فرعية من الوزراء ضمت دوغلاس هيرد Douglas Hurd (وزير الخارجية) ، وتوم كنغ Tom King (وزير الدفاع) ، وجون ويكهام John Wakeham (وزير الطاقة) ، وباتريك ميهيو Patrick Mayhew (وزير العدل) ، ووليم والدغريف William Waldgrave (وزير الدولة في وزارة الخارجية) ، وأرتشي هاملتون Archie Hamilton (وزير الدولة للقوات المسلحة ، ورئيس هيئة أركان الدفاع) ، لاتخاذ القرارات الرئيسية بشأن الغزو العراقي للكويت ، بدلاً من مجلس الوزراء» .

أعلن وزير الدفاع توم كنغ في ٩ آب ١٩٩٠ إرسال سربين من الطائرات : واحد من طائرات تورنيدو إف-٣ Tornado F-3 المقاتلة الدفاعية ، والثاني من طائرات جاغوار Jaguar الهجومية ، في مجموعهما (٢٤) طائرة . وكانت في مواقعها بعد يومين جاهزة للعمل . وأرسلت إلى الخليج طائرات استطلاعات نمرود Nimroud البحرية ، وعدد من طائرات حاملات الوقود من نوع VC-10 . وعززت في نهاية آب بسرب آخر من طائرات تورنيدو .

بقيت تاتشر على إتصال مستمر بالرئيس بوش بالهاتف . وكانت تطمئنه أنه كان يسير في الاتجاه الصحيح ، وأن حكومتها استجابت للطلبات العسكرية الأمريكية . وكانت قد تأكدت أن صدام حسين لن يهاجم العربية السعودية ، حالما وطئت القوات الأمريكية الأرض السعودية . وكتبت مذكرة إلى وزير الدفاع توم كنغ في ١٢ آب تقول إن صدام حسين لا يمكن التنبؤ بما سيفعله . تقول تاتشر : «كانت تلك أسابيع من دبلوماسية الهاتف المرهقة . شجعت تركيا في معارضتها الثابتة للعراق . لقد تضرر الاقتصاد التركي كثيراً-لأنه بخلاف الأردن-كانت تركيا تطبق عقوبات الأمم المتحدة بفاعلية . تحدثت إلى الرئيس أوزال عن هذا هاتفياً يوم الجمعة ٢٤ آب . لقد واساني بما وصفه استغلال صدام حسين المؤذي للرهائن البريطانيين تلفزيونياً . وكان يرى أن ما فعله صدام كان ضده ، وأظهر أي نوع من الرجال كان . لم أتردد في تذكير السعوديين وحكومات دول الخليج كم هم مدينون لتركيا ، وحثتهم على تقديم تعويض مالي سخي لها» .

وفي عرضها لموقف سوريا تقول تاتشر : «كانت سوريا حليفاً ضد صدام حسين أقل مقاماً . لم تكن لنا معها علاقات دبلوماسية . كنت أكره نظام الحكم فيها . ولم يكن لدي وهم حول رغبتها المستمرة في استعمال الإرهاب والعنف بما يتفق وأهدافها . ولكن بقيت الحقيقة وهي أن التنافس بين سوريا والعراق أعطانا فرصة يجب أن لا نضيعها . كما أنه ليس معقولاً أن نترك قواتنا تقاتل إلى جانب السوريين ، إذا لم يكن لدينا قنوات دبلوماسية للتحدث معهم . وافقت مكرهة على إعادة العلاقات الدبلوماسية مع دمشق ، مع أن الاعلان الرسمي جاء بعد ذلك بعدة أيام من خروجي من الوزارة في تشرين الثاني ١٩٩٠» .

في اتصال هاتفي للرئيس بوش مع تاتشر مساء ٢٦ آب ، عبرت تاتشر عن سرورها بقرار مجلس الأمن الدولي رقم ٦٦٥ الذي صدر في اليوم السابق للاتصال ، وتضمن فرض الحظر التجاري على العراق بقوة السلاح . وقد أبدى الرئيس الأمريكي انزعاجه من ميناء العقبة في الأردن ؛ لعدم التزامه بالحظر التجاري المفروض على العراق . وقالت له تاتشر بأنها ستثير الموضوع عند لقائها بالملك حسين في الأيام القليلة القادمة .

تحدثت بحزن وألم عن موقف الملك حسين من الأزمة العراقية-الكويتية : «في حالة سوريا عدو عدوي أصبح صديقي . ولكن حزنت لأن أحد أصدقاء بريطانيا الثابتين ظهر إلى جانب العدو . كنت في أحسن حالات الود مع الملك حسين ، عاهل الأردن . ولكن لم يكن بالإمكان السماح له بتجاوز العقوبات وتبرير الغزو العراقي . ولما جاء لمقابلتي على غداء يوم الجمعة ٣١ آب ، لم أستطع إخفاء مشاعري . كان من الواضح أنه قلق من الخط الذي انتهجه . بدأ ببيان مدته أربعون دقيقة مبرراً ما فعله العراقيون . قلت : إنني مندهش من عرضه الذي كان في الحقيقة عملاً عدوانياً واضحاً . العراق بلد استعمل الأسلحة الكيمياوية ليس في الحرب فحسب وإنما ضد شعبه . ليس صدام حسين قاطع طريق دولي فحسب ، وإنما هو أيضاً خاسر أضرّ كثيراً بالقضية الفلسطينية ، وأساء للعرب ، وخلال ما يربو على ثماني سنوات ألقى بصورة عبثية موجة تلو الموجة من الشباب العراقي في أتون الحرب ضد إيران . وقلت للملك يجب أن لا يحاول التفاوض نيابة عن العراق ، وإنما عليه أن يطبق العقوبات ضده . ولم أكن مباشرة أكثر من هذا معه . ولكن يبدو أن الضغط مهما كبر لن يغير حسابات الملك بأنه لا يستطيع أن يظهر علنا ضد صدام حسين ويبقى في الحكم» .

دعي مجلس العموم البريطاني إلى مناقشة الوضع في الخليج يوم الخميس ٦ أيلول ١٩٩٠ . أيد المجلس الموقف الذي اتخذته حكومة تاتشر . وكان الاقتراع في اليوم التالي ، فقد أيدها (٤٣٧) نائباً وعارضها (٣٥) نائباً . وقد وجهت تاتشر اهتماماً نحو الحملة العسكرية ؛ لاعتقادها بضرورة القتال لإخراج العراقيين من الكويت . وبحثت الموضوع مع دوغلاس هيرد وزير الخارجية بعد ظهر ذلك اليوم ، الذي كان أكثر ميلاً للتفاؤل معتقداً أن العقوبات قد تنجح إذا اقتنع صدام بأنه سيهزم عسكرياً إذا بقي في الكويت . ووافقت تاتشر على إعطاء العقوبات وقتاً أطول حتى يظهر مفعولها . ولكنها قالت لوزير خارجيتها : «يجب أن لا نفقد رؤية الخطر في ترك قواتنا مدة طويلة في الصحراء ، وترك العرب والجبهة الدولية تتقوض . لم أرد تحديد موعد نهائي ، ولكن يجب أن نبدأ النظر في المواعيد التي تقرّب خيارات العمل العسكري . يجب أن لا نكون تحت أي وهم إذا لم يكن للعقوبات على العراق مفعولها ، وفشلت القوة الأمريكية والمتعددة الجنسيات في القيام بأي عمل ، فقد تضرب إسرائيل وحدها» .

وحول القوة العسكرية العراقية ، تقول تاتشر : «كان من الصعب جداً معرفة فاعلية الجيش العراقي . كان لدي بعض الشكوك حول الروح المعنوية لجنودهم ، مبنية على تقييم تفضيلهم لاستعمال المدفعية الكثيفة والأسلحة الكيمياوية بدلاً من قتال المشاة في حربهم مع إيران . ويعتقد أن الحرس الجمهوري أفضل كفاءة . كان الأمريكيون حذرين جداً يريدون كميات كبيرة من الدبابات في الخليج قبل الاستعداد للحركة . وفي المقابل اعتقد بعض جيران العراق أنهم قد ينهارون بسرعة . وكانوا على حق في ذلك» .

وعن المشاركة البريطانية في حرب تحرير الكويت ، تقول : «كنت مصممة على تأمين قواتنا بأفضل التجهيزات وبكميات وافرة منها . أراد الأمريكيون منا تعزيز قواتنا في الخليج ، واقترحوا أن نرسل لواء من المدرعات من نوع تشالنجر واحد Challenger-1 للانضمام إلى القوات الحليفة هناك . . ودعوت إلى اجتماع في يوم الخميس ١٣ أيلول ضم توم كنغ ، وزير الدفاع ، ورئيس أركان الدفاع ، ورئيس هيئة الأركان العامة ، وممثلين عن فيكرز Vickers . وسألتهم حول كل نقاط الضعف الممكنة . . . وبعد نقاش مستفيض أقنعوني (باستعمال تشالنجر) شريطة أن يأخذوا جميع قطع الغيار التي قد يحتاجونها معهم ، دون انتظار وصول المزيد منها . . . وطلبت أن يكون قائد قواتنا هناك السير بيتر دولا بيليير Sir Peter de la Billiere .

كان توم كنغ غير راغب في تعيينه لأنه بقي أسبوع واحد لتقاعده . . . أردت جنرالاً مقاتلاً . وأعرف مزايا السير بيتر من قيادته القوات الجوية للعمليات الخاصة (SAS)... وأعرف أنه يتكلم العربية» .

اتصلت تاتشر بالرئيس بوش في صباح اليوم التالي (١٤/٩/١٩٩٠) وقالت له : «إنني على وشك إعلان قرار إرسال اللواء المدرع السابع إلى الخليج ، وهو مؤلف من كتيبتين مدرعتين ب (١٢٠) دبابة ، وكتيبة مدفعية ميدان ، وسرية مدرعة من المشاة ، وطائرات عمودية ضد الدبابات ، والمساندة الضرورية لها . وستكون قوة مدعومة ذاتياً يبلغ تعدادها نحو (٧٥٠٠) جندي هم خلفاء «فئران الصحراء Desert Rats في معركة العلمين» . قال الرئيس بوش : «يا إلهي ، هذا التزام رائع ، هذا شيء مهم» .

قابلت تاتشر الرئيس بوش ثانية في نيويورك مساء الأحد ٣٠/٩/١٩٩٠ ، عند حضورها قمة الأطفال في الأمم المتحدة . وبحثت معه رغبة جيمس بيكر ، وزير الخارجية الأمريكي ، في الحصول على قرار من مجلس الأمن الدولي بالموافقة على استعمال القوة لإكراه العراق على الانسحاب من الكويت . وكانت تعارض هذا التوجه ، وتكتفي بالاستناد إلى المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة .

ولما جاء المبعوث الخاص للرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشيف السيد يفغيني بريماكوف Yevgeny Primakov إلى لندن ، لبحث حل لخروج القوات العراقية من الكويت ، استقبلته تاتشر في منتجع تشكرز Checkers بعد ظهر يوم الأحد ٢٠/١٠/١٩٩٠ . ولما حاول إيجاد صلة بين ازمة الخليج والنزاع العربي-الإسرائيلي ؛ لحماية وجه صدام . قالت له : «إن صدام دكتاتور يجب أن ينظر إلى أفعاله دون الإصغاء لأقواله . ولا يمكن عقد صفقة مع رجل كهذا . بالطبع علينا جميعاً واجب العودة لإيجاد حل للنزاع العربي-الإسرائيلي ، ولكن هذا الواجب مستقل عن غزو صدام حسين للكويت» .

اجتمعت تاتشر بوزير الدفاع توم كنغ ووزير الخارجية دوغلاس هيرد مساء ٢٣/١٠/١٩٩٠ لتحديد الأهداف الاستراتيجية للحرب القادمة لتحرير الكويت . وقد أوجزتها تاتشر بما يلي : «يجب على صدام حسين مغادرة الكويت ، وعودة الحكومة الشرعية لها ، والإفراج عن جميع الرهائن ، ودفع العراق تعويضات ، وتقديم المسؤولين عن هذه الجرائم إلى محكمة دولية ، والقضاء على قدرات العراق النووية والبيولوجية والكيمياوية ، ولتحقيق ذلك يجب الإبقاء على أوسع تحالف ممكن مع الحكومات

العربية ضد العراق ، وتجنب تورط إسرائيل ، وإقامة نظام أمني جديد في المنطقة ؛ للحد من نفوذ العراق في المستقبل .

ناقشت تاتشر مع جيمس بيكر مسألة الاستناد إلى المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة ، أثناء لقائهما في لندن في ١٩٩٠/١١/٩ دون أن تقنعه بذلك . ولكنها اضطرت إلى الاستقالة كرئيسة للوزراء في ١٩٩٠/١١/٢٢ ، وفي ذلك اليوم أعلنت قرارها بمضاعفة عدد القوات البريطانية ، ونشر لواء آخر في الخليج . وبذلك أصبح لدى بريطانيا فرقة مدرعة في الخليج ، أي ما يربو على ثلاثين ألف جندي .

الدور البريطاني في الإعداد لتحرير الكويت

أفرد جون ميجور John Major خليفة مارغريت تاتشر في رئاسة الحكومة البريطانية (٤٢) صفحة من مذكراته «السيرة الذاتية The Autobiography» الصادرة في نيويورك ، عن دار النشر Harper Collins Publishers سنة ١٩٩٩ البالغة (٧٧٤) صفحة ، لغزو العراق للكويت ، وموقف حكومته من هذا الغزو .

حينما ألف جون ميجور حكومته في أعقاب استقالة مارغريت تاتشر في ١٩٩٠/١١/٢٢ ، حدد أولوياته وهي : مكافحة التضخم والبطالة ، وتحسين الإدارة والخدمات العامة ، وحل مشكلة إيرلندا الشمالية . وأبقى دوغلاس هيرد في منصبه وزيراً للخارجية ، فقد كان معجباً به وموضع ثقته ، وبحاجة ماسة إليه . يقول في هذا الصدد : «إنه برنامج كاف ، ولكنه ليس قائمة حصرية بالمطالب المباشرة التي واجهتني . فخلال أسابيع من انتخابي رئيساً للوزراء واجهنا التزاماً لا محيد عنه قزّم جميع الاهتمامات المحلية . ذهبنا إلى الحرب في الخليج» .

يصف ميجور الغزو العراقي للكويت بالعبارات التالية : «كان هجوماً بلا تحريض ، نفذ بفاعلية وحشية ، وفرض بالإرهاب . كانت هناك فظائع مخيفة ، فقد عذبت القوات العراقية وقتلت مئات الكويتيين ، ومارست الاغتصاب ، واعتقل الآلاف وشوه العديد . وانخفض السكان إلى الثلثين خلال خمسة أشهر . كانت محاولة من دكتاتور لمحو دولة كاملة من الخريطة» .

يؤكد ميجور أن هم صدام حسين السيطرة على احتياطي النفط في الشرق الأوسط . وخلال أيام بدأت الولايات المتحدة وبريطانيا تحركات دبلوماسية وعسكرية لتكوين ائتلاف عسكري لمقاومته . وأرسلت الطائرات الحربية البريطانية لحماية شمال

شرقي العربية السعودية . يقول ميجور عن سلفه تاتشر : «لم تكن مارغريت كسولة ، لقد أدركت الأهمية الاستراتيجية للخليج ، وكانت تكره الدكتاتوريين . كان أول امتحان لصدق العزيمة الغربية في فترة ما بعد الحرب الباردة . وكان ضرورياً أن لا يسمح للعراق بضم أرض كما يريد وحينما يريد» .

كان آخر اجتماع لمجلس الوزراء البريطاني برئاسة مارغريت تاتشر ، بعد أن أعلنت عزمها على الاستقالة ، قد حضره رئيس هيئة الدفاع السير ديفيد كريغ Sir David Craig ، وتقرر فيه إرسال (١٦) ألف جندي من القوات البريطانية الإضافية إلى الخليج . . وبذلك بلغ عدد القوات البريطانية التي شاركت في تحرير الكويت ، والتي أطلقوا عليها «عملية غرانبي Granby Operation» (٤٥) ألف جندي .

يقول ميجور : «في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٩٠ ، بعد يومين من تولي رئاسة الوزراء ، حدد مجلس الأمن الدولي بقراره رقم (٦٧٨) يوم ١٥ كانون الثاني ١٩٩١ موعداً نهائياً للعراقيين للانسحاب من الكويت ، وفوض باستعمال كل الوسائل الضرورية لاجبارهم على الانسحاب . (وكل الوسائل الضرورية) تعني الحرب . كانت مارغريت قد شكلت لجنة دفاع ما وراء البحار Overseas Defence للخليج . وهي لجنة في مجلس الوزراء للنظر في الأزمة . وقد اجتمعت لأول مرة برئاستي يوم الأربعاء ١٩٩٠/١٢/٥ ، وكان من أعضائها الأساسيين : دوغلاس هيرد ، وزير الخارجية ، وجون ويكهام ، ووزير الدفاع ، وباتريك ميهيو ، وزير الطاقة ، والنائب العام (وزير العدل) وماريشال الجو السير ديفيد كريغ رئيس هيئة أركان الدفاع . وانضم إلينا السير بيرسي غرادوك Sir Percy Gradock مستشار في السياسة الخارجية ، وسكرتير مجلس الوزراء السير روبن بتلر Sir Robin Butler ، ولين أبليار Len Appleyard من مكتب مجلس الوزراء ، وتشارلز باول Charles Powell سكرتيري الخاص للشؤون الخارجية ، وغوس أودونيل Gus O`Donnell سكرتيري الصحفي الرئيسي . كان فريقاً رائعاً . وكان على (مجلس الحرب) هذا أن يجتمع (٢٦) مرة خلال الأسابيع القادمة» .

ويذكر ميجور التدابير والإجراءات التي اتخذها المجلس المذكور : «بدأنا بالإعداد للحرب . واتفقنا على الأهداف الاستراتيجية والعسكرية ، واتخذنا الترتيبات لنقل موظفي السفارة والمواطنين البريطانيين إلى الوطن . وأعدت الخطط للحفاظ على الوحدة الوطنية التي نالت اهتماماً خاصاً لدى دوغلاس هيرد . وطرد العراقيون غير

المرغوب فيهم من بريطانيا ، مع أنه تبيّن لنا فيما بعد أن أخطاء ارتكبت في هذا الصدد . وتباحثنا في كل المعلومات المتوافرة عن قوة القوات المسلحة العراقية وقدراتها . وأخذنا في الاعتبار تهديدها لإسرائيل وكيف سترد إذا هوجمت . ولما هدد صدام حسين بأن العراق قد يلجأ إلى الإرهاب كجزء من حرب الخليج ، أدخلنا تدابير في الشرق الأوسط وفي المملكة المتحدة لحماية الأرصدة والأشخاص الواقعين تحت الخطر . واتخذت التدابير اللازمة للتجهيزات العسكرية والتشريع لإدخال صلاحيات الطوارئ . واتخذت ترتيبات للمعالجة الطبية في الميدان ونقل المصابين إلى بريطانيا . . . وتطوع الأطباء والممرضون للذهاب إلى الخليج . وتمت الموافقة على حماية المستشفيات .

وقد هيمن على استعدادتنا خوفان : «أولهما إلى أي مدى القوات العراقية جيدة؟ نعرف أن للعراق جيشاً ضخماً ومزوداً بتجهيزات جيدة . والعديد من قواتهم لهم خبرة قتالية من الحرب الإيرانية-العراقية ، والقوة التي يفخر بها الحرس الجمهوري ذو السمعة المخيفة» . والخوف الثاني الذي يثير قلقاً أكثر إزعاجاً هو : «هل يجرؤ صدام حسين على استعمال الأسلحة الكيمياوية والبيولوجية في ميدان المعركة؟ . . . ولم نجرؤ على استبعاد استعمال الأسلحة الكيمياوية كأداة للإرهاب في المراكز السكنية في المملكة المتحدة-حتى قبل بدء الحرب-كانت المرة الأولى التي نواجه فيها تهديداً كهذا ، وقد بينت هشاشة المجتمعات الغربية . وكنا نعرف أن العراقيين لديهم أسلحة كيمياوية وبيولوجية متطورة ، ولكننا ظننا أنه ليس لديهم رؤوس حربية قادرة على نقلها ، وأنهم لم يتقنوا التقنية التفجيرية الجوية . كان هذا مطمئناً ، ولكن الأقل راحة كانت معرفتنا أنهم استعملوا الجمرة الخبيثة Anthrax والطاعون الدبلي bubonic plague بقنابل تلقى جواً ذات قشرة ناعمة أو بخزانات رذاذة محمولة جواً . كان هذا توقعاً مرعباً لقواتنا . فالجمرة الخبيثة قاضية إذا استنشقت بالرئتين ، بينما سم (BTX) يسبب تشنج العضلات المؤدي إلى الموت من الاختناق . ومع أن جراثيم الطاعون المطورة من قبل العراقيين يمكن معالجتها بالمضادات الحيوية ، فقد تؤدي إلى نوع من فراغ الهواء بنسبة عالية من الوفيات . وبناء على هذه المعلومات تقرر تطعيم القوات البريطانية طوعياً . وتصرفت الولايات المتحدة بصورة مماثلة لحماية قواتها» .

ومن الجدير بالذكر أن صدام حسين تلقى تحذيراً سرياً واضحاً من النتائج المباشرة والمدمرة للعراق ، في حالة قيامه بأية هجمات كهذه على المدنيين . وخلال كانون

الأول ١٩٩٠ رفع العراق القيود عن سفر الأجانب الرهائن في بغداد، وأصبح بإمكانهم العودة إلى أوطانهم. يقول ميجور: «في بريطانيا كنا نأمل في تجنب الحرب. بعث إلي دوغلاس هيرد بمذكرة يقترح فيها أن نبلغ صدام بأنه إذا إنسحب من الكويت لن يهزم. وقد شعر مستشاري العسكريون أنه لا يوجد أحد على شاطئ الأطلسي يميل إلى حل عسكري . . . أردت الحصول على أوسع تأييد شعبي وبرلماني للالتزام الغامض القادم. وستكون حرباً مختلفة عن غيرها من الحروب . . . سعيت إلى إجماع من الحزب، وعزمت على إبقاء زعيمي المعارضة نيل كينوك Neil Kinnock وبادي أشداون Paddy Ashdown على اطلاع تام بما يجري.

يروي ميجور قصة سرقة الوثائق السرية الخاصة بالخطط الحربية لتحرير الكويت كما يلي: «سرقت ثلاث حقائب تحتوي على وثائق سرية جداً، تتعلق بخططنا للحرب، وكمبيوتر محمول (Laptop) كان يستعمل خلال التلخيصات صباح ذلك اليوم، من صندوق سيارة حكومية في الطريق إلى مقر القيادة في سترايك وايكومب Strike Wycombe. ومن الغريب أن الضابط المسؤول وسائقه تركا السيارة معاً لزيارة معرض سيارات. وقام اللص بالسرقة أثناء غيابهما. كان هذا مصيبة. ليس لدينا فكرة إذا كانت السرقة مجرد نذالة انتهازية أو أنها عملية استخبارية عراقية جريئة. استعيدت الأوراق بسرعة، ولكن جهودنا لإيجاد الكمبيوتر باءت بالفشل. فهل كانت الخطط العسكرية محمية؟ جاء عيد الميلاد وذهب. اتفقنا على أنه إذا كشفت الأوراق للعراقيين، لن نبلغ الولايات المتحدة بالحادث حتى نعرف المزيد عن محتويات الكمبيوتر. في ٢٩ كانون الأول علمنا أن صحيفة Mail on Sunday كانت على وشك نشر القصة وإبلاغ الولايات المتحدة فوراً. وبعد بضعة أيام سمعنا من اللص أين نستعيد الكمبيوتر في موقف للسيارات في سانت جونز وود St. John`s Wood وجدناه مع رسالة في مغلف بني بتوقيع إدوارد Edward. وجاء فيه أننا كنا محظوظين لوقوعها في يد لص وطني. شعرنا بأن لا جواب على ذلك، فالكمبيوتر محميٌ من القرص. أعيد إلى وزارة الدفاع حيث أخبرت بأنه بقي لعدة أيام في غرفة البريد على المقعد الأمامي، دون أن يدرك أحد أنه الشيء الذي نبحث عنه جميعاً».

قبل عيد الميلاد زار جون ميجور وزوجته نورما Norma واشنطن لتوثيق العلاقة الشخصية مع الرئيس بوش بعد مغادرة تاتشر الحكم. وقد التقى ميجور وسكرتيره الشخصي تشارلز باول بالرئيس بوش ومستشاره للأمن القومي برنت سكوكروفت في

منتجع كامب ديفيد . وقد أخبر بوش رئيس الوزراء البريطاني أن موعد معركة تحرير الكويت هو ١٦ كانون الثاني ١٩٩١ . وقد اتفقا على أن الحل العسكري لا محيد عنه . وبحثا لوجستيات العمل العسكري (نقل الجنود وتوفير الغذاء لهم) ، وظروف القصف الجوي . يعقب ميجور على هذه المقابلة بقوله : «كانت حرب الخليج حرباً بقيادة أمريكية مع المملكة المتحدة بقيادة الجنرال نورمان شوارتزكوبف كقائد أعلى لقوات الائتلاف . وكان التعاون على الصعيد العسكري بين قواتنا ممتازاً . كان ديفيد كريغ والجنرال كولن باول رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة على اتصال يومياً» .

القوات البريطانية في عملية عاصفة الصحراء

أشاد جون ميجور بالرئيس الأمريكي جورج بوش (الأب) بعد لقائه به قبيل عيد الميلاد سنة ١٩٩٠ ، فهو يقول : «لجورج بوش خبرة في الحرب ، وله سجل مميز فيها ، ولكنه لم يكن عسكرياً بالعاطفة . لم يمجد الحرب أو القوة العسكرية للولايات المتحدة . . . هذا الافتقار إلى الزهو ساعده على أن يجمع ائتلافاً كان من الاتساع بحيث أحبط مساعي روسيا والصين لمعارضته . كانت دبلوماسية رفيعة المستوى من رئيس من الطرز الأول» . ويبلغ مستوى التزلف والنفاق في وصف مشاعر بوش الإنسانية الرقيقة بقوله : «عشية الحرب (لتحرير الكويت) كتب جورج بوش إلى أولاده جورج وجيب Jeb ونيل Neal ومارفن Marvin ودورو Doro رسالة كشفت طبيعة الرجل الذي تعرفت عليه . جاء فيها : كل حياة إنسان ثمينة . وحينما يطرح السؤال : كم عدد الذين ستضحي بهم؟ يتمزق قلبي ، فالجواب هو بالطبع ولا واحد أبداً . لقد انتظرنا إعطاء فرصة للعقوبات ونقلنا قوة ضخمة للتقليل من المخاطر على كل جندي أمريكي ، إذا استعملت القوة ، ولكن مسألة فقدان الحياة ما تزال ترهق القلب وتعذبه» .

وفي المقابل هاجم إدوارد هيث Edward Heath ، هو رئيس وزراء بريطاني سابق ؛ لأنه سافر إلى بغداد في مهمة إنسانية للإفراج عن الرهائن البريطانيين ونجح في مهمته ، واعتبر هذه الزيارة غلطة ، وإساءة إلى سمعته .

زار ميجور الخليج في مطلع كانون الثاني ١٩٩١ للقاء بالقوات البريطانية وبحلفائه العرب . وقد وصفها بالعبارات التالية : «كانت جولة محمومة ومزدحمة . وصلت إلى الطائف في العربية السعودية متأخراً في ٦ كانون الثاني ، وقابلت أمير الكويت وولي

عهده رئيس الوزراء مبكراً في الصباح التالي . كانا متشائمين ومحبطين باغتصاب بلادهما . كان واضحاً أنهما خائفان من أن يقوم صدام بانسحاب جزئي من الكويت . ولكنهما ابتهجا حينما قلت لهما بأنه لن يسمح له بذلك . كانا قلقين أيضاً من أن ينسحب العراقيون بدون قتال ، وتبقى الكويت هشة لجار معاد بقواته وأسلحته الجاهزة . . . وأصبحت أكثر اقتناعاً من أي وقت مضى أن الحل العسكري سيكون أكثر دواماً من الحصيلة الدبلوماسية» .

غادر ميجور الطائف بعد ظهر اليوم نفسه (١٩٩١/١/٧) إلى الرياض للقاء بالقوات البريطانية . وقد أبلغ قائدها بيتر دولا بيليير Peter de la Billière أن اليوم المحتمل للهجوم على القوات العراقية هو ١٦ كانون الثاني . والتقى ميجور بالملك فهد في الساعة ١٠,٣٠ مساءً بعد حفل عشاء على شرفه حضره أفراد الأسرة المالكة السعودية . وقد أبلغه الملك فهد أن المملكة العربية السعودية سوف تتحمل نفقات القوات المسلحة البريطانية المرابطة في الخليج .

قام ميجور في اليوم التالي بجولة على وحدات الفرقة المدرعة الأولى المنتشرة في الصحراء بين جبيل والحدود الكويتية . وارتقى دبابة تشالنجر Challenger وتحدث إلى الجنود ، مبيناً لهم لماذا دخلت بريطانيا الحرب . والتقى في جبيل كتيبة من سلاح البحرية الملكي بعد ذلك .

وبعد ذلك زار سلطان عمان الذي سأل ميجور عما سيحدث بعد تحرير الكويت . وفي طريق عودته إلى لندن قابل الرئيس المصري حسني مبارك في القاهرة ، الذي حث ميجور على الإسراع في شن الحرب .

قبل يومين من نهاية موعد الأمم المتحدة لانسحاب العراق من الكويت ، قابل ميجور الرئيس فرانسوا ميتران في باريس . لم يذكر الرئيس الفرنسي أية مبادرة دبلوماسية أطلقها الفرنسيون في نيويورك بعد اللقاء ببضع ساعات ، مما أغضب ميجور الذي اتهم فرنسا بالسعي إلى الحفاظ على علاقاتها التجارية مع العراق .

سعى ميجور إلى كسب رئيس أساقفة كانتربري Canterbury روبرت رونسي Robert Runcie والكاردينال باسيل هيوم Basil Hume . فدعاهما إلى مكتبه في مجلس الوزراء لتأمين دعمهما للحرب التي ستبدأ بعد بضعة أيام . اعترف رجلا الكنيسة بأن الضربة العسكرية أصبحت لا مفر منها . ولكنهما كانا يخشيان الخسارة الكبيرة في الأرواح . ووعدا رئيس الوزراء بمساندتهما له .

وفي اليوم التالي ، افتتحت مناقشة مجلس العموم حول أزمة الخليج . كانت المناقشة مثيرة عاطفياً ومتوترة ومفعمة بالحيوية من قبل المتظاهرين المعارضين للحرب . وفي نهاية النقاش اقترع (٥٣٤) نائباً من جميع الأحزاب لصالح العمل العسكري .

مع إعلان نتائج التصويت ، تلقى ميجور مكالمة هاتفية من الرئيس بوش ، الذي أكد له أن العمل العسكري في يوم ١٦ كانون الثاني . وطلب منه أن يستعمل سلاح الجو الأمريكي القاعدة الجوية البريطانية في جزيرة دييجو غارسيا Diego Garcia في المحيط الهندي ، فوافق على طلبه .

أما الذين لهم علم مسبق بموعد بدء عملية عاصفة الصحراء من المسؤولين البريطانيين فهم ، بالاضافة إلى جون ميجور ، السير ديفيد كريغ وتوم كنغ وتشارلز باول والسير بيتر دولا بيليير . أما وزير الخارجية فقد أبلغ بالموعد قبل ساعة فقط من بدء الهجوم .

في الساعة السابعة من صباح ١٨ كانون الثاني ١٩٩١ اجتمع المجلس الحربي في لندن ، وتلقى تقريراً عن عمل الليلة الماضية . يحاول ميجور تسويغ هذه الحرب بالعبارات التالية : «في هذه الحرب لم يقاتلوا من أجل الوطن والمأوى كما في الحربين العظميين ، ولم يقاتلوا من أجل استعادة ممتلكات بريطانية كما في حرب فولكلاند . كانوا يقاتلون لشيء ليس محسوساً ، وهو حماية القانون الدولي ، كانوا يقاتلون لمنع دكتاتور من مد سلطته ، وتوريط جزء كبير من العالم في حرب أوسع» .

خلال الحرب كان مجلس الوزراء البريطاني يستمع إلى تقرير هيئة الأركان يومياً على الساعة الرابعة صباحاً . وتجتمع لجنة الاستخبارات المشتركة Joint Intelligence Committee في الساعة السادسة صباحاً لإعداد شرح موجز للوزراء .

قام سلاح الجو البريطاني بمهام تنطوي على أقصى مخاطرة ، القصف على ارتفاع منخفض . ولذا فقدت ست طائرات من نوع تورنيدو ، منها اثنتان في الساعات الأربع والعشرين الأولى . واستعملت طائرات التورنيدو البريطانية قنابل معقدة ومكلفة لتدمير مدرجات المطارات هي JP-233 . ومع انقضاء شهر كانون الثاني ، كانت التقارير اليومية تشير إلى التقدم في القصف الجوي . وقام سلاح الجو الملكي البريطاني بدور كبير . فطائرات التورنيدو أسقطت قنابل الألف باوند ، وطائرات تورنيدو F3 كانت تحمي المقاتلات المدعومة بالدبابات ، بينما تقوم طائرات جاغوار Jaguar وطائرات الحراسة البحرية نمرود Nimrod بالرقابة . وفي البحر استولت القوات البحرية

البريطانية على زارعات الألغام وكاسحاتها العراقية .

في السابع من شباط ١٩٩١ ناقش مجلس الوزراء البريطاني إعادة بناء الكويت ، وكلفة الحرب ، وشروط وقف إطلاق النار ، وأثناء اجتماع المجلس انفجرت قنبلة خارج نوافذ ١٠ دواننغ ستريت . تكسر زجاج النوافذ ، ونزل الوزراء إلى قاعة تحت الأرض لمواصلة اجتماعهم . كانت القنبلة من إعداد الجيش الجمهوري الإيرلندي .

ولما بدأ الهجوم البري للائتلاف على القوات العراقية في ١٩٩١/٢/٢٤ حدث أن قامت طائرة أمريكية من نوع A-10 بمهاجمة مصفحتين من اللواء المدرع الرابع البريطاني ، فقتلت تسعة جنود من الكتيبة الملكية الثالثة للرماة وجرحت أحد عشر آخرين . حدث هذا عن طريق الخطأ .

كانت خسائر بريطانيا في هذه الحرب ، كما جاءت في مذكرات ميجور ، (٤٧) قتيلاً .

قدم أمير الكويت سيفاً لجون ميجور بمناسبة نهاية حرب تحرير الكويت . يقول ميجور عن مقابلته للملك فهد بعد نهاية الحرب : «حينما قابلت الملك فهد تبادلنا الآراء . قال الملك إنه يعتبر لندن وطنه الثاني ، وإنه يحب أن افكر بالعربية السعودية بالطريقة نفسها . وقال إنه يملك منزلاً فيها بينما لا أملك منزلاً في الرياض . وأجاب ميجور : ليس لي منزل في لندن» . أشاد الملك فهد بشجاعة القوات البريطانية وتصميمها . يقول ميجور أيضاً : «يتساءل بعض الناس : هل حققت حرب الخليج أي شيء؟ نعم ،لقد حررت الكويت ، وحمت بقية دول الخليج من تهديد متنام ، وأضعفت دكتاتوراً ، وحذرت العالم من احتمال ماقد يسببه من أذى . ووضعت نمطاً من حفظ السلام ، وأتاحت للأمم المتحدة البدء ببرنامج تفتيش عن الأسلحة الذي حد كثيراً من قدرة العراق على إنتاج الأسلحة الكيمياوية والبيولوجية ، وعززت من قوة الولايات المتحدة باعتبارها القوة العسكرية الأولى في العالم» .

انطباعات هيرد عن الثوريين والمحافظين العرب

في مذكرات دوغلاس هيرد Douglas Hurd ، وزير الخارجية البريطاني في حكومتي مارغريت تاتشر وجون ميجور ، بعنوان «مذكرات Memoirs» الصادرة في لندن عن دار النشر Little Brown سنة ٢٠٠٣ ، يحتل غزو العراق للكويت وتحريرها (١٢) صفحة من مجموع صفحات المذكرات البالغة (٥٣٤) صفحة .

في الصفحات السبع الأولى يصف هيرد انطباعاته عن زيارتين قام بهما إلى بغداد وقابل صدام حسين . في الزيارة الأولى التي تمت في ١٩٨٠/٧/١٢ يقول عنها : «كان تقريري إلى وزير الخارجية بيتر كارنغتون Peter Carrington عن أولى هاتين الزيارتين في ١٩٨٠/٧/١٢ له نكهة خاصة . جرت الاحتفالات السنوية بالثورة في بغداد والحرارة (١١٥) فهرنهايت (٤٦) مئوية في الظل ، لا يوصى بها للمتعة ، ولكنها تبين تماماً طبيعة نظام حكم كريه وقوي . الوزراء قلة والثوريون كثر ، تجمعوا من جميع أنحاء العالم . وأقاموا في فندق فخم ، وتغذوا وتثقفوا ، ودعوا لتناول العشاء مع الرئيس في حديقة قصر واسع بني للملك فيصل . كانت المجموعات الثورية جماعات غريبة من البشر (بورتوريكيون وأفارقة وغيرهم) جاء معظمهم ، كما أتخيل ، ليشكروا الرئيس على آخر شيك استلموه السنة الماضية ، ويفاوضوا على شيك السنة القادمة . ج . نكومو J. Nkomo (من جبهة روديسيا الوطنية) كان موجوداً يمضغ بصمت تحت نخلات . كان صدام يبدو بصحة جيدة ، ولكن له ابتسامة قاتل ، والقتل مستمر ليصبح أحد أساليب الحكومة الرئيسية . نظام الحكم في أساسه بغيض . وأعتقد أنه يجب علينا أن لا نلاحقه .

ولكن من المعقول أن نبقى على اتصال به . بعد سنة أجريت حديثاً أكثر رسمية مع صدام حسين . أخبرني أن مجلس قيادة الثورة قد قرر حديثاً ضرورة تحسين العلاقات مع بريطانيا . فكرت في سبب ذلك ، وفي الفرص المتزايدة للتجارة المدنية . كان العراق آنذاك في حرب مع إيران . مع أنني وجدت في تلك الزيارة أن غاية ما يأمله العراقيون هو الحفاظ على الأراضي التي في أيديهم . وخلافاً للأسطورة التالية لم نأمل نحن أو نعمل من أجل نصر عراقي . بالنسبة إلينا ، كان العراق وإيران يداران بأنظمة حكم بغيضة وخطيرة . النصر الشامل لأي منهما سيزيد من الخطر . وكنت في لندن أتناقش مع بيتر كارنغتون حول الحذر من تزويد الطرفين بالأسلحة . سمحت الحكومة البريطانية وشجعت التجارة مع العراق ، ودار نقاش حولها في وزارتي التجارة والخارجية» .

بصراحة تامة عبر هيرد عن حقيقة مشاعره نحو حكم البعث في العراق ، الذي جرد بريطانيا من كل الامتيازات التي تمتعت بها في العراق منذ احتلاله سنة ١٩١٧ وحتى سنة ١٩٥٨ . وبيّن بشاعة الثوار والثوريين في عباراته الآنفة الذكر .

ولكن ماذا عن العرب الآخرين حلفاء بريطانيا الثابتين . فلنقرأ ما كتبه هيرد عن

قادة العربية السعودية ودول الخليج الأخرى : «كانت العربية السعودية بالأهمية ذاتها بالنسبة إلينا كقائدة لدول الخليج العربية . لما كان أمراء تلك الدول ووزراؤها يزورون لندن ، ويرتدون الألبسة الأوروبية ، كانوا أناساً عاديين غير مثيرين للاهتمام . ولكن في بلادهم ، وهم يرتدون الأثواب البيضاء ، ووجوههم مخفية جزئياً ، يحيط بهم رجال الحاشية والموظفون بكلامهم الناعم ، يعملون في قصور حديثة فخمة ، يعطون انطباع السلطة وليس الحكمة في معظم الحالات . تعلّم الزوار التصرف كما لو كانوا مسلمين مأخوذين جداً بالسجاد الواسع والنافورات وأقواس الرخام الأبيض العالية والثريات المذهلة ، والسبحات المطقطقة ، وأنواع العصير وفناجين القهوة المرة الصغيرة . أعترف بأنني استمتعت بتلك الزيارات والمثاقفة الفكرية البطيئة مع الحكام والوزراء التي كانت مبررهم . لم يكن هؤلاء بأي المقاييس ديموقراطيين . بدأ آباؤهم أو أجدادهم ، وفي بعض الحالات هم أنفسهم ، حياتهم شيوخاً في الصحراء ، يتنازعون على إبلهم أو على بعض الواحات الصغيرة المزروعة بأشجار النخيل . وقد أصبحوا الآن ، بفضل النفط ، من أغنى الرجال في العالم . تنبأ علماء الغرب باستمرار بأنهم سوف يزولون بضغوط الحياة الحديثة . ومع ذلك ما زالوا هناك باقين ، ودوماً هناك ، مفارقة تاريخية : محكومين دوماً بالإخفاق . ومع ذلك يتفوقون على رعاياهم المسالمين في سنوات ١٩٧٠و ١٩٨٠ و١٩٩٠و ٢٠٠٠ . وقد عاشوا حياة أطول من منتقديهم . يتغيرون دون أن يبدو أنهم يتغيرون ، ويمارسون مهارات قيادية يجدها الغربيون محيرة .

من هؤلاء ، السعوديون أكثرهم حيرة للغربيين ، بسبب خصوصيتهم . يحدث بين الفينة والأخرى ، في وسائل الإعلام الغربية ، إظهار مدى الحساسية عند السعوديين . في نيسان ١٩٨٠ ، عرضت شركة التلفزة البريطانية ATV برنامجاً بعنوان «موت أميرة Death of a Princess» . وصف الفيلم بتفاصيل مثيرة حياة الشباب في الأسرة المالكة السعودية ، وتنفيذ حكم الاعدام بأميرة لارتكابها الزنا . ارتعب السعوديون . بيّنت وزارة الخارجية البريطانية أن الحرية البريطانية حق مكفول ، بما في ذلك حق المواطنين البريطانيين في التعبير والكتابة والنشر لأشياء مرعبة حول أصدقائنا وحول أعدائنا على السواء . مثل هذه الأقوال ليست من سياسة الحكومة في شيء ، وليس بإمكان الحكومة إيقافها . كان السعوديون غير مقتنعين بما قلنا . وهددوا بقطع علاقاتهم معنا . وأجبر سفيرنا جيمس كريغ James Craig على مغادرة العربية السعودية . لم يكن بإمكاننا الاعتذار عن عرض تلفزيوني لا علاقة لنا به . ومن جهة أخرى ، لا نستطيع

الانتظار وعلاقاتنا بالعربية السعودية تتدهور . ولذا تقرر أن أذهب إلى هناك ، مقلداً يوحنا المعمدان لتمهيد الطريق لزيارة بيتر كارنغتون . إذا فشلت فسيكون أمراً مزعجاً بالنسبة إلى الحكومة البريطانية ، ولكن ليس كارثة .

سافرت إلى العربية السعودية على طائرة ترايستار Tristar سعودية ، تقدم الكحول في ١٩٨٠/٧/٢٦ ، وحينما نظرت من نافذة الطائرة إلى مطار جدة ، شاهدت حرساً من الشرطة بخوذهم في حالة استعداد ، وشخصية رسمية بثوب أبيض واقفاً على البساط . بدا هذا فألاً حسناً ، ولكني لم أكن متأكداً تماماً مما ينتظرني . في اليوم التالي امتطيت الطائرة إلى الطائف ، ونزلت في فندق إنتركونتيننتال Intercontinental الضخم ، حيث تلقيت رسالة تقول إن الأمير سعود ، وزير الخارجية ، قد يستقبلني بعد الظهر . وجناحي في الفندق مليء بعلب التمر والشكولاته والمكسرات من مختلف الأنواع . كانت الطائرة ساخنة ، وكنت بحاجة لتصليح هندامي . وحالما تناولت الحمام سمعت قرعاً على زجاج الباب ، وقيل لي إن وزير الخارجية بانتظاري حالاً . خرجت مهرولاً من الحمام لأرتدي ملابسي . ولما شددت سحاب بنطالي انقطع . وكانت حقيبتي التي تحتوي على بذلة ثانية قد أبقيتها في جدة . لم يكن لدي الوقت لإصلاح السحاب . وأجريت محادثة مهمة وأنا في وضع مهين ، كما يرى في العالم العربي ، وأنا أضع رجلاً فوق رجل . وبدا لي أن الوضع سيكون مهيناً أكثر لو لم أفعل ذلك .

بدا لي أن الأمير سعود لم يرغب في الحديث عن الفيلم المؤذي . ولم أسأل عن شيء . ليس بالإمكان اعطاؤه أي اعتذار . فقد أقنع الملك أن يوقف الخلاف وأن يبدأ بإصلاح ما حصل . واتفق على عودة جيمس كريغ إلى السفارة وعودة التجارة إلى ما كانت عليه . واتضح لي أن الأمير سعود أراد شيئاً لنفسه من هذا النزاع ، أي نوعاً من المشاورات على مستوى عال مع بيتر كارنغتون حول جميع قضايا الشرق الأوسط . كان ذلك سهلاً ، هدية مرحباً بها من العاطي والمتلقي . تناولت ، ذلك المساء ، أول عشاء من عشاءاتي العديدة مع الأمير سعود في بيته في الطائف . فالأمير سعود ، طويل القامة ممشوقها ومهيب دوماً . تبدو عليه علامات الإمارة . فهو ابن ملك . وما زال وزيراً للخارجية ، وأنا أكتب هذه المذكرات . فهو أحكم وأكثر وزراء العالم العربي خبرة . تتراكم عليه الواجبات الأخرى من وقت لآخر ، ولم أفهم كيف يستطيع التغلب عليها ، في ضوء الطرق الملتوية المستهلكة للوقت ، التي يتخذ بها السعوديون

قراراتهم . وحتى بعد استقالتي التي سنة ١٩٩٥ ، رحب بي كما لو أن لديه وقتاً غير محدود للثرثرة مع صديق قديم . لا أعتقد أنني سمعته يقول شيئاً سخيفاً» .

النشاط الدبلوماسي البريطاني في الأزمة العراقية-الكويتية

يقول دوغلاس هيرد في مذكراته إنه فوجئ بغزو العراق للكويت ، مع أنه كان المسؤول عن وكالتي الاستخبارات البريطانية MI-6 وGCHQ . وكان قبل الغزو بيوم واحد قد أنهى عمله الروتيني استعداداً لإجازته الصيفية . وعلم بالغزو صباح الثاني من آب ١٩٩٠ من خلال المذياع . ويذكر في هذا الصدد أحداث اليوم الأول من حيث ردود الفعل البريطانية : «كانت رئيسة الوزراء (مارغريت تاتشر) في آسبن بولاية كولورادو مع الرئيس بوش (الأب) . عدت إلى لندن مع جفري هاو Geoffrey Howe وعملنا الضروري . جمدت أرصدة الكويت المالية قبل أن يتمكن العراقيون من وضع أيديهم عليها . وتمت الموافقة على خطة لفرض عقوبات على العراق . في الثالث من آب اتصلت هاتفياً بمارغريت تاتشر في كولورادو . أثنت على المعالجة السريعة للوضع ، وقالت بأنها باقية عاجزة عن العمل . والواقع أنها قامت بمهمة ممتازة . لم تدّع قط أنها صنعت سياسة جورج بوش نحو العراق في تلك الأيام ، ولكنها زادت في سرعة اتخاذ القرارات حينما قررت وأعلنت أن عدوان العراق يجب أن لا يستمر . كان ذلك مرشدنا للأشهر الستة القادمة» .

يواصل هيرد تسجيل الأحداث : «لا بد من تحرير الكويت بكل السبل . قبل أربعين سنة قاتلنا في حرب كوريا لإيقاف العدوان . واستناداً إلى المبدأ نفسه وبصورة أوضح نحن هنا على المحك . تأثرنا بالطبع أيضاً بصداقتنا مع الكويتيين ، وبالأهمية الاقتصادية للخليج بالنسبة إلى الغرب . ولكنها لم تكن حرباً من أجل النفط . لو كنا نحن والأمريكيون مهتمين بالنفط فقط لتوصلنا بسرعة إلى تسوية مع صدام حسين ، ولما بدأنا حرباً تركت حقول النفط تشتعل بالنيران . كانت هذه جملة مبدأية جعلتها سياسياً مستساغة لأن من قام بها صديق . كانت أفضل الطرق هي الطريقة السلمية ، من خلال الضغط الدبلوماسي المدعوم بعقوبات إقتصادية . وفي حال فشل هذا المسعى سنحتاج للإعداد للقوة بدءاً بالضربات الجوية ، والتحرك عند الضرورة بالقوات البرية .

عند مراجعة جميع هذه الاجتماعات التي عقدت في مجلس الوزراء المصغر برئاسة مارغريت تاتشر وجون ميجور ، أتذكر قرارات عديدة صعبة في جوانب

سياسية خاصة . ولكن ليس بينها واحد حول الجوانب الفكرية والأخلاقية التي سيطرت على سياستنا في البوسنة فيما بعد . في الخليج كنا نعمل وفق الضرورة العادية لمقاومة العدوان ورده من دولة على أخرى . لقد قمنا بمخاطرة كبرى في حرب الخليج ، ولكني لا أتذكر أننا اتخذنا قراراً رئيسياً خلافياً بيننا أو لديّ شخصياً . بدا كل قرار يمر دون إعاقة من البداية حتى النهاية بتحرير الكويت . . . كان لدينا قلق كبير على مواطنينا الذين احتجزوا في العراق والكويت . وقد أتاح لي اجتماع في قيادة حلف شمال الأطلسي ، في منتصف هذه الفترة ، الفرصة لبحث كيفية تكوين ائتلاف من الراغبين ضد العراق مع جيمس بيكر بحيث يضم معظم الدول العربية . وبقيت لأشهر مع جيمس بيكر في المحادثات (٤+٢) حول ألمانيا ، التي لم تنته . وقد احترمت الثقة التي كان يتكلم بها ، وبراعته في القطع ، دون فظاظة ، في التعقيدات الدبلوماسية للوصول إلى النتيجة الضرورية ، والمطرزة عادة بعبارات تكساسية مالحة . ومنذ هذا الوقت عملنا معاً بثقة تامة كصديقين . وخلال التهام الشطائر في بروكسل ، حاولت أن أشد انتباهه إلى موقف الأردن الذي تحول ضدنا . كان على الملك أن يختار طريقه بين شعبه وأصدقائه ، وليس في الأمر هزل» .

وحول موقف مارغريت تاتشر من نظام الحكم في العراق ، يقول هيرد : «قالت تاتشر لي في ١٣/٨/١٩٩٠ : إن هدفنا يجب أن يكون مقاومة العدوان على الكويت ، وليس الإطاحة بصدام حسين وإقامة حكومة جديدة في بغداد . ثم غيرت رأيها فيما بعد ، ونسيت أنها قالت هذا الرأي» .

وبيّن المهام التي قام بها على الصعيد الدبلوماسي : «كانت مهمتي التالية بذل ما أستطيع لكسب الدول العربية للائتلاف . وهذا يعني القيام بجولة في الخليج . في الأول من أيلول اتصلت هاتفياً بالشيخ زايد حاكم أبو ظبي لمدة ساعة وثلاثة أرباع الساعة . كان موقفه شديداً ضد الملك حسين ، وقال إن عرفات قد انتهى . ولم يكن هذا أول ولا آخر تنبؤ له . ومن حسن الحظ أنه لم يتغير شيء في دول الخليج ، منذ أن عرفتهم كوزير دولة قبل عشر سنوات . كان سلطان عمان هادئاً ومحللاً عندما التقيت به في صلالة ، وقدم لي غالوناً من عطر الليمون المعد بطريقة خاصة . لم أقابل رئيس اليمن من قبل . كان مؤيداً للعراق . وحدث بيننا نقاش حاد كان أحدّ نقاش أجريته مع عربي . كان أمير الكويت في منفى في فندق شيراتون على تلة في الطائف في العربية السعودية .

وكالعادة انتظرت لساعات في جدة للقاء بالملك فهد عاهل العربية السعودية . ومرة أخرى ، كالعادة ، جاء اللقاء في آخر الليل لما بدأت في اليأس من اللقاء . تحدث الملك لمدة ثمانين دقيقة دون توقف إلا للترجمة . شعر السعوديون ، مثل بقية حكام الخليج ، بالرعب وبخيانة صدام لهم . وأرادوا إنهاء حكمه ، ولكن بأقل ما يمكن من الجلبة .

كان الملك حسين في عمان في اليوم التالي ، يسعى عبثاً إلى إيجاد حل وسط . قال حسين لصدام «إنه ضد ضم العراق للكويت . ولكنه شعر بضرورة حصول العراق على ممر إلى الخليج» .

ويبين هيرد أن نشاطه الدبلوماسي السابق الذكر لقي استحساناً في بريطانيا ؛ إذ رحب به النواب من حزب المحافظين في مجلس العموم في ٦ أيلول ١٩٩٠ عند لقائه بهم . وتعاطفت معه الصحف البريطانية . وشعر بأنه بلغ الأوج . وبعدها زار القاهرة وتل أبيب . ولكنه يقول : «كان ذهني مركزاً على الخليج . لا بد لصدام حسين ، بطريقة أو بأخرى ، من تسليم الكويت . وكنت حريصاً على إعطاء الوقت الكافي للعقوبات والضغوط السلمية لأنها جزء من إجراءات قد تغريه بالانسحاب ، كما أن الائتلاف وإرادته ستكون أكثر فاعلية في الحرب ، إذا رأت الحكومات والرأي العام أن الحرب غدت الملاذ الأخير .

وحول موقف رئيسة الوزراء تاتشر يقول هيرد : «وعلى نقيض ذلك كانت رئيسة الوزراء متغيرة المزاج منذ آب ، وتميل إلى القيام بحملة عسكرية بأسرع ما يمكن . كانت تحتقر المحادثات في الأمم المتحدة ، بشكل خاص ، وأدى هذا إلى آخر خلاف لي مع مارغريت تاتشر ، ومع العديد من الأمريكيين الذين كانوا يجادلون أن المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة ، التي تقر الدفاع عن النفس ، تعطينا تغطية تامة وكافية لتلبية طلب الكويت للمساعدة في إستعادة إستقلالها . كان هذا صحيحاً قانونياً ولكنه غير كاف سياسياً . في تذكرنا لحرب السويس شعرت أن من الخطأ أن ترتكب القوات البريطانية حرباً مدانة من المعارضة الرسمية . فوزير الخارجية في حكومة الظل جيرالد كوفمان Gerald Kaufman الذي كان متعاوناً طوال الأزمة ، أوضح بجلاء أن تأييد حزب العمال يعتمد على قرار خاص من مجلس الأمن يفوض باستعمال القوة . وكان هذا رأي فرنسا وحكومات أوروبية أخرى . وكان هذا الأساس الحاسم الذي اعتمد عليه الرئيس بوش لمراجعة الأسس في وزارة الخارجية البريطانية في

٩/١١/١٩٩٠ ، قبل أن آخذه للقاء برئيسة الوزراء . كان بيكر محامياً قوياً وصديقاً موثوقاً به . لا شك أني وإياه قد تآمرنا معاً . وبعد ساعة ونيف من النقاش معها فوضنا بتأمين قرار من مجلس الأمن الدولي في هذا الصدد . كانت حجة تاتشر في تلك الأسابيع وجود فيتو سوفياتي وخطر أكبر من تعديل قرار مجلس الأمن بالتفويض ، واختلاط الأمور على يد دبلوماسيين محترفين تعوزهم الحماسة في نيويورك . ولكن دبلوماسيينا قاموا بمهامهم على خير وجه . وقد شنت حرب الخليج الأولى على أسس أوضح وأسلم قانونياً وسياسياً . ولكن بين دبلوماسية الخليج وحرب الخليج عشنا دراما خاصة بنا في السياسة البريطانية» .

تغيرت رئيسة الوزراء في ٢٢/١١/١٩٩٠ ، وجاء جون ميجور رئيساً لوزراء بريطانيا . يؤكد هيرد أن هذا التغيير لم يكن له أي تأثير على السياسة البريطانية في التحرك نحو الحرب . يقول هيرد في هذا الصدد : «كان جون ميجور مصمماً مثل مارغريت تاتشر على ضرورة تحرير الكويت . وقد انضممت إليه في ٢٧/١٢/١٩٩٠ لبحث الوضع في الخليج في أول نهاية أسبوع له كرئيس للوزراء في منزله الصيفي في تشكرز Chequers . حتى ذلك التاريخ اعتقدت أن الأمريكيين يريدون الحرب . . .» .

في جولة هيرد الثانية على الدول العربية في مطلع سنة ١٩٩١ مع اقتراب موعد الحرب يقول : «لم يسع أي منا لإقناع الملك حسين عاهل الأردن لتغيير رفضه المشاركة في الائتلاف الذي أنشأناه ضد العراق . ولذا كان لي لقاء معه في عمان في كانون الثاني . . بحثت المسألة ، أول الأمر ، مع ولي العهد الأمير حسن ووزير الخارجية طاهر المصري . كان حسن حاداً إلى حد ما ، ويناقش نقاطاً قليلة الأهمية مع مشاكل حقيقية تتصل بالنفط واللاجئين الذين ستسفر الحرب عنهم . . . ثم توجهنا لتناول الغداء مع جلالة الملك . وكالعادة كان الملك مجاملاً بصورة مدهشة ، ولكن دون أن يتحرك عن موقفه ، راغباً في الحديث عن المستقبل الزاهر وليس عن الأزمة . وقد تبادل الأدوار مع أخيه ، إذ كان الملك حالماً وولي العهد واقعياً . ولكننا حصلنا على عدم التزام الأردنيين في الطريق الخاطئ ، دون أن نتمكن من جذبهم ليكونوا حلفاء لنا» .

وبشأن تمويل المشاركة البريطانية في حرب تحرير الكويت ، زار هيرد الرياض في ١٠/٢/١٩٩١ وطلب من الملك فهد تمويل الحملة البريطانية فوعد بالمساعدة . وفي لقاء مع أمير الكويت في الطائف حصل هيرد على شيك ب (٦٠٠) مليون جنيه

استرليني . وكان قد حصل من المستشار الألماني هلموت كول Helmut Khol على (٨٠٠) مليون مارك ألماني .

وحول نهاية الحرب يقول هيرد إنه التقى بالرئيس بوش في ١٩٩١/٢/٢٨ أي في اليوم الذي أعلن الرئيس بوش وقف إطلاق النار . وعاد إلى لندن واتجه إلى مقر رئاسة الوزراء ،حيث وجد وزير الدفاع ومستشار رئيس الوزراء للشؤون الأمنية بيرسي كرادوك Percy Cradock اللذين فوجئا بوقف إطلاق النار . وكانا يتمنيان استمرار القتال حتى «تتمكن طائراتنا من إعطاب مزيد من الدبابات العراقية وإعاقة الحرس الجمهوري الحامي لنظام صدام حسين» .

وساطة ادوارد هيث لدى صدام حسين

في فصل بعنوان «بعثات الرحمة : العراق والخليج ١٩٩٠-١٩٩٧ ، Missions of Mercy: Iraq and the Gulf 1990-1997» من مذكرات إدوارد هيث Edward Heath وعنوانها «مسيرة حياتي : سيرتي الذاتية The Course of My Life: My Autobiography» الصادرة في لندن عن دار النشر Hodder and Stoughton سنة ١٩٩٨ ، يتحدث رئيس وزراء بريطانيا السابق عن رأيه في غزو العراق للكويت والموقف البريطاني منه ، وعن دوره في الإفراج عن الرهائن البريطانيين .

يعرض هيث التدابير والإجراءات التي اتخذتها الولايات المتحدة وبريطانيا فور احتلال العراق للكويت ، ورد فعل العراق عليها . يقول في هذا الصدد : «كانت خطوة صدام حسين التالية أخذ عدد من المواطنين الأجانب في الكويت والعراق رهائن . ثم نقلوا إلى نقاط إستراتيجية في البلاد على أمل أن هذا سوف يردع قوات الأمم المتحدة من مهاجمة الكويت والعراق . وكان عدد الرهائن البريطانيين ما يربو على ألف شخص . وبعضهم كان في حالة صحية خطيرة . . وقد أثار هذا التكتيك اشمئزازاً دولياً» .

وبيّن رأيه في حل الأزمة : «كان رأيي في سنة ١٩٩٠ ، منذ البداية ، أن الحلول الدبلوماسية والحلول العسكرية يجب تجريبها . كانت بياناتي عن أزمة الخليج قد فسرت من اليمين البريطاني بأنها مماثلة لإرضاء هتلر في نهاية الثلاثينات» . وقد عبر هيث عن موقفه من الأزمة في لقاء تلفزيوني أثار حفيظة أنصار الحرب . يقول هيث : «أدى لقائي مع والدن Walden في التلفزيون إثارة هجوم عدواني عليّ ، وبخاصة من

المؤرخ اليميني نورمان ستون Norman Stone الأستاذ في جامعة أكسفورد . فقد اتهمني ظلماً بالانحياز لصدام حسين . وكتب أن دور هيث في السياسة البريطانية كان ضاراً . . . فقد اعتنق عبادة القوة والنقود الورقية . رددت عليه بسرعة وبشدة ، مبيناً أن ملاحظات ستون في غير محلها ومشوهة المعلومات . . . لم يفهم الحجج في بياني حول الخليج . . . لقد صدمت بالمدى الذي شوه به بعض الحقائق وتجاهل بعضها الآخر . . . وقد أظهر عدوانية وافتقاراً للموضوعية . . . وهي بالتأكيد لا يسمح بها لأستاذ في التاريخ . . ولا بد أن العديد من أباء الطلبة في أوكسفورد يروعهم ويثير اشمئزازهم أن يبقى التعليم العالي لأبنائنا في أيدي مثل هذا الرجل» .

ثم يتناول الأسباب التي دفعته إلى التدخل للإفراج عن الرهائن البريطانيين :

«لما كان رأيي العمل على تجنب الحرب قد أصبح معروفاً على نطاق واسع ، بدأت بتلقي رسائل من أقارب الرهائن في العراق تطالب بضرورة القيام بعمل من الحكومة لتأمين إطلاق سراحهم . وكان هناك تأييد شعبي قوي لمطالب هذه الأسر بضرورة تكثيف الجهود الدبلوماسية . وقد زودت الجهات الحكومية العادية بها . لم أسمع شيئاً منها خلال الأسابيع القليلة الأولى ، ولكن مع نهاية أيلول بدأت الحكومة في الاستجابة للنداءات بضرورة إرسال شخص ما إلى بغداد للإفراج عن المعتقلين الذين صحتهم هشة ، ولا سيما أولئك الذين يعانون من الحساسية ومشاكل القلب والتهاب المفاصل والدوالي الحادة .

اتصل بي هاتفياً وليام والدجريف William Waldegrave وزير الدولة في وزارة الخارجية آنذاك في ٢٨ أيلول ١٩٩٠ ، وقال لي : إن وزارة الخارجية قد وافقت على هكذا مهمة ، ولديها ثلاثة مرشحين ، فهل لدي استعداد للذهاب إذا طلب مني ذلك؟ أجبت : بالطبع . وعلمت فيما بعد أن المرشحين الآخرين هما جيمس كالاهان James Callaghan وديفيد أون David Owen . ثم اتصل بي آخر النهار وليام ليقول إنه تقرر ذهابي ، وأن الحكومة ستتخذ كل الترتيبات الضرورية لزيارتي ، بما في ذلك الأمن وتغطية نفقاتها . أخبرت فوراً أقارب المعتقلين بذلك . وطلبت من الفريق العامل معي اتخاذ الترتيبات الضرورية .

كان دوغلاس هيرد وزير الخارجية آنذاك قد ذهب مع السيدة تاتشر إلى نيويورك لاجتماع الأمم المتحدة . حينما أبلغ رئيسة الوزراء عما تم ترتيبه ظهر عليها الغضب الشديد . وحسب رواية الحضور إنفجرت . وبعد ذلك بيومين تلقيت مكالمة هاتفية من

وليام والدغريف يقول : إن موقف الحكومة قد تغير كلياً . ولا ترغب في أن يذهب أحد للقيام بهذه العملية . وأضاف : بالطبع لم يكن باستطاعة الحكومة إيقافي إذا أردت الاستمرار في مهمتي . ولكنها لن تكون مسؤولة عن الترتيبات ، ولا سيما الحماية الأمنية ونفقات السفر والإقامة . أبلغته أنني قد أعلمت الأقارب بأنني بدأت المحادثات مع السفير العراقي حول الترتيبات ، وأنه ليس باستطاعتي إلغاء الزيارة بدون إيضاح معقول . القول بأن دوغلاس هيرد قد استجاب لغضب السيدة تاتشر ليس تبريراً في نظر الأقارب القلقين جداً على حياة أحبائهم .

اقترحت بغداد أنه يجب أن أصل إليها يوم السبت التالي ١٣/١٠/١٩٩٠ ، فوافقت على ذلك . وفي هذه الأثناء كان مؤتمر حزب المحافظين قد بدأ في مدينة بورنماوث Bournemouth . وكنت أذهب إليه يومياً من سالزبري Salisbury . كان من الضروري إصدار تصريح قبل تسرب الخبر . قررت أن أفعل ذلك في مؤتمر الحزب ، حيث تتجمع كل الصحف السياسية . رتب مدير مكتبي الأمور مع المكتب الصحفي للإدارة المركزية للحزب . تحدثت إلى وسائل الإعلام الساعة ٤,١٥ بعد ظهر الخميس ١١ تشرين الأول من شرفة مركز المؤتمرات ، مبيناً لماذا أنا ذاهب بمهمة شخصية . كانت معظم وسائل الإعلام في مؤتمري هذا تاركة توم كنغ وزير الدفاع يلقي خطابه في القاعة . . . وفي مساء اليوم نفسه هاجمني مايكل هزلتاين Hichael Heseltine ، وانتقد زيارتي . وتلقيت مكالمة هاتفية من بغداد في الليلة نفسها تطلب مني تأجيل زيارتي أسبوعاً . وقد رحب منتقدي بها باعتبارها إهانة شخصية مقصودة من صدام حسين . والحقيقة أن وزير الخارجية العراقي طارق عزيز قد دعي إلى مؤتمر عربي في المغرب ، وفضلت الحكومة العراقية أن يكون حاضراً عند زيارتي . كما أردت أن يكون طارق عزيز حاضراً . وكوزير خارجية كان من المعروف أنه ذو نفوذ قوي ، وكمسيحي باستطاعته أن يبدي رأياً مختلفاً عن رأي وزير مسلم . كما أنه يتحدث بلغة إنكليزية ممتازة ، ولديه خبرة واسعة كدبلوماسي ، فقد كان سفيراً للعراق في واشنطن ، ومندوباً دائماً للعراق في الأمم المتحدة . وبناء على ذلك كله قبلت التأجيل .

وبسبب رحلتي المقترحة ، كان علي تحمل ما جاء في عناوين الصحف : «هيث يسترضي صدام» في Daily Express ، و«تيد الخائن» في Sun ، و«غضب على تيد الخائن» في Daily Star ، و«هيث معزول وخاطئ» في Sunday Times . كل هذا الانتباه دون أن أرتكب أنا والعاملون معي أي خطأ . ولم يكن مؤتمرنا الصحفي ضربة

لمؤتمر الحزب أو للسيدة تاتشر» . وكشفت صحيفة Observer حقيقة ما جرى له مع وزارة الخارجية . وفي الشهر نفسه أجرى معهد غالوب Gallup استطلاعاً للرأي العام ، أظهر أن ٨٥٪ من الجمهور وافقوا على أن هيث كان محقاً في الذهاب إلى بغداد لتأمين الإفراج عن الرهائن البريطانيين . وكان هذا مشجعاً له للقيام بزيارته لبغداد .

يصف هيث رحلته إلى بغداد كما يلي : «في يوم الجمعة ١٩ تشرين الأول سافرت ومعي رئيس مكتبي الخاص روبرت فودري Robert Vaudry وطبيبي الشخصي جفري إيستون Geffrey Easton على طائرة الملكية الأردنية من لندن إلى عمان . وقد استقبلنا السفير البريطاني في عمان أنتوني ريف Anthony Reeve ، وقضيت الليلة في قصر الملك حسين في عمان . تناولت العشاء مع الملك وشقيقه وزوجتيهما ورئيس الوزراء الأردني وآخرين . كان بيننا حديث مثير حول الوضع في الشرق الأوسط وتطوره ، دون أن يستطيع أحد اقتراح سبيل للخروج من هذا المأزق» .

سافر هيث في اليوم التالي بالطائرة العراقية إلى بغداد ، حيث استقبله في المطار صديقه السفير البريطاني هارولد ووكر Harold Walker ومندوبون عراقيون ، وانتقل إلى فندق الرشيد ، نقل بعد بضع ساعات إلى دار ضيافة حديثة جداً ، بينما بقي الصحفيون الذين رافقوه في فندق الرشيد . التقى في اليوم نفسه بطارق عزيز وبحث معه أسباب النزاع . وتناول طعام العشاء على مائدة طارق عزيز ، وفي صباح اليوم التالي تناول الفطور مع السفير البريطاني ، ثم زار السفارة البريطانية ، ومستشفى على الطراز الغربي تملكه خطوط Aer Lingus وفيه ممرضات بريطانيات وإيرلنديات . تم ترتيب لقاء هيث مع الرئيس صدام حسين في صباح اليوم التالي . وكان عليه الذهاب وحده . دعنا نترك هيث يصف هذا اللقاء : «كان (صدام) يلبس لباساً عسكرياً وإلى جانبه طارق عزيز . استقبلني صدام على باب مكتبه وقادني إلى مقعدي . كان في المكتب مترجمان مع مصور فوتوغرافي ومصور تلفزيوني ، انسحبا بعد أن جلسنا .

حياني الرئيس صدام ، وبدأ بتقديم لمحة عن تاريخ العراق وعلاقاته مع جيرانه ، مبيناً أنه مع أن العراق دولة حديثة في وضعها الحالي ، فهي في الواقع من أقدم المناطق الحضارية في الشرق الأوسط . ذكرت له أن الخزف من العراق الذي رأيته في المتاحف الغربية أقدم من الخزف الإيراني . وكانت هذه المعلومة جديدة لديه . وأخيراً

تحولنا إلى موضوع الحرب الأخيرة بين العراق وإيران . وقد بيّن أنه حتى وقت قريب كانت الدول الغربية تدعمه وبلاده ضد إيران الثورية . وأكد خطر سياسات الكويت النفطية على بلاده . وقال إن بحث هذه المشاكل قد رتب مؤخراً من قبل الرئيس المصري مع قادة الأردن والكويت على أمل تفادي أي صدام . لم يسفر هذا الاجتماع المستوحى من مصر عن أي نتيجة . ورتب اجتماع ثان في العربية السعودية . قدم صدام حسين تعهداً بأن لا يحدث أي شيء حتى تتم محاولة أخرى لحل المشكلة . وعلى أي حال ، لما علم بأن الكويتيين قرروا أن لا يحضروا الاجتماع في جدة في الأول من آب ، ورفضوا المحادثات ، شعر أن العراق ليس لديه أي بديل سوى غزو الكويت . وقد تبيّن فيما بعد أن الكويتيين قد قاطعوا اجتماع الأول من آب لأنهم أساؤوا فهم رسالة من الرئيس المصري بأن صدام حسين قد تخلى نهائياً عن عدوان عراقي على الكويت . ومع وقت ذهابي إلى العراق ، كانت وسائل الإعلام الغربية قد اعتادت على وصف صدام حسين بأنه رجل مجنون . ومهما قيل فالرجل ليس أحمقَ على الأقل . . . إنه شخص داهية ورجل ماهر . . أساء التقدير بشأن الكويت ، وأنا متأكد بأنه يعرف الآن أنها كانت سوء تقدير .

أخبرت صدام أنني أعتقد أنه إذا لم ينسحب فإن العمل الدولي ضده لا مفر منه ، وأن هذا سيكون مدمراً للعراق وله شخصياً . يجب أن يأمر قواته بالخروج من الكويت ، وبعد ذلك يطلب من الجامعة العربية أن تضع قواتها المشتركة على الحدود بين العراق والدول العربية ، كما حدث سنة ١٩٦١ . سيعني هذا أن أي عدوان خارجي ضده سوف يجابه من قوات الجامعة العربية والعراق ، وسوف يؤدي إلى سحب قواته من الكويت . ولكن صدام لم يوافق على هذا الاقتراح ولم يرفضه .

بعد حوالي ساعتين ، أعطيت الفرصة لإثارة مسألة المواطنين البريطانيين . بدأت بإعلام صدام أن احتفاظه بالرهائن الذين وصفهم العراقيون بالضيوف قد آذاه أكثر مما أفاده . وأنني أحضرت معي قائمة ب (٣٣) فرداً من المرضى ، وفي حالات قريبة من الموت ، وأتمنى أن يعودوا معي إلى وطنهم . وهناك مسلمان من شمال انكلترا محصوران في بغداد وهما يرغبان في العودة أيضاً . قال : طبعاً ، ثم اضفت : أتمنى طلب حالتين خاصتين : واحدة هي ألكس دونكان Alex Duncan طالب من كليتي في أوكسفورد ، ومدير معهد باليول Baliol قابلني قبل مغادرتي وقال لي إن الفصل الدراسي قد بدأ ولم يحضر ألكس مما أثار قلقه . وقد فهمت أنه مع أخيه الأصغر

روري Rory الذي من المفروض أن يعود إلى مدرسته أيضاً . قال صدام حسين : خذهم معك .

ثم تابعت القول بأن هناك حوالي سبعين عامل بناء بريطاني في بغداد ، يقومون ببناء قصر للرئيس ، كما فهمت ، من المفروض أن ينتهي بناؤه خلال ثلاثة أسابيع . وحالما ينتهي عملهم أتمنى أن يعودوا أيضاً . التفت صدام إلى طارق عزيز . وقال : أنا لا أفهم هذا . ليس لي قصر جديد قيد البناء . أعتقد أنه يشير إلى دار الضيافة ، قال طارق عزيز ، ولكن ليسوا عمالاً بريطانيين ، إنهم حالة خاصة ، هم إيرلنديون . رددت : إنهم في الحقيقة من إيرلندا الشمالية وهي جزء من المملكة المتحدة . أجاب صدام : أدرك ذلك ، وبإمكانهم العودة حالما ينهون عملهم . تم تنفيذ هذه الترتيبات . انتهى اجتماعنا بعد ثلاث ساعات في مناخ هادئ بسيط كما بدأ» .

بعد دراسة القائمة التي يحملها هيث وتصحيح الأسماء ، يقول الأخير : «خلال يوم واحد استطعنا التعرف على جميع المسجلين في قائمتنا ، وقد تجمعوا من جميع أنحاء العراق في فندقنا ببغداد . ونقلتهم طائرة بوينغ٧٤٧ . Boeing 747 من بغداد إلى مطار غاتويك Gatwick في بريطانيا بتبرع من ريتشارد برانسون Richard Branson . وكان على متنها نحو مئة من الرهائن البريطانيين .

مشاركة القوات البريطانية في عملية درع الصحراء

أفرد الجنرال السير بيتردو لا بيليير Sir Peter de la Billière فصلاً في مذكراته بعنوان «حرب الخليج ١٩٩٠-١٩٩١- The Gulf War 1990-1991» احتل (٢٦) صفحة من مجموع صفحات مذكراته : البحث عن المتاعب : من المجموعة الجوية الخاصة إلى قيادة الخليج ، السيرة الذاتية Looking for Trouble: SAS to Gulf Command ، The Autobiography» الصادرة في لندن عن دار النشر Harper Collins Publishers سنة ١٩٩٥ ، البالغة (٤٤٩) صفحة .

يقول الجنرال البريطاني دولا بيليير الذي عهدت إليه قيادة القوات البريطانية التي شاركت في عملية تحرير الكويت : «حرب الخليج معروفة لدى معظم القراء . بدأت بالنسبة إلينا باسم عملية غرانبي Operation Granby وبالنسبة إلى الأمريكيين بعملية درع الصحراء Operation Desert Shield . كان هدف الائتلاف الذي بدأ يتكون ضد القوات العراقية في أيلول ١٩٩٠ ردع صدام حسين عن الإقدام على مزيد

من العدوان . ومع مضي الوقت تغير موقفنا من موقف دفاعي إلى موقف هجومي ، من السعي إلى احتواء العراقيين إلى إخراجهم من الكويت ، أولاً بالتهديد وأخيراً باستعمال القوة . ومع نهاية سنة ١٩٩٠ ، جاء في تقاريرنا الاستخبارية أن لدى صدام جيشاً تعداده نصف مليون جندي يحتل مواقع قبالة العربية السعودية . وتوقعنا ، زيادة على ذلك ، أنه قد يستعمل الأسلحة الكيمياوية والبيولوجية التي اعتقدنا أن ترسانته تحتويها . ولذلك كانت إستراتيجيتنا أن نعبئ قواتنا البرية إلى مستوى نعتبره مناسباً قبل شن هجوم جوي شامل ، وأن لا نشتبك مع القوات العراقية على الأرض ، إلا بعد أن تضعف القوة الجوية للحلفاء فعاليتها إلى النصف على الأقل .

والواقع أن هذه الاستراتيجية أثبتت نجاعتها الفائقة . فبعد حوالي أربعة أشهر من التجمع والإعداد ، انطلقت الحرب الجوية في الساعة الثالثة من صباح يوم ١٧ كانون الثاني ١٩٩١ ، حسب التوقيت المحلي لمدينة بغداد . واستمرت بلا توقف ، ليل نهار ، حوالي خمسة أسابيع ، تحطمت خلالها قوة صدام الجوية أو تفرقت ، وتدنت اتصالاته جداً ، ودمرت مراكز قياداته ، وتعطلت مصانع إنتاج أسلحته الكيمياوية والبيولوجية ، وقضي على أسطوله البحري ، وسيق جنوده في الصحراء إلى حد الإنهاك من خلال القصف المتواصل . وفي الساعة الرابعة من صباح ١٩٩١/٢/٢٤ بدأنا شن هجومنا البري . وقامت القوات المدرعة الحليفة بإضعاف العدو إلى الحد الأدنى من المقاومة . وخلال مئة ساعة تقريباً انتهت الحرب التي أسفرت عن ضحايا خفيفة جداً» .

بعد هذا العرض الموجز جداً لعمليتي درع الصحراء وعاصفة الصحراء ، يتحدث دولا بيليير عن دوره ودور قواته في هذه الحرب : «بالعودة إلى الأشهر الستة التي شكلت ذروة حياتي المهنية ، وجدت نفسي محظوظاً جداً لوجودي في المكان المناسب واللحظة المناسبة . كانت مجرد ضربة حظ أن أحظى في نهاية خدمتي العسكرية بممارسة كل مهاراتي القيادية التي كونتها عبر السنين ، من خلال أكبر عملية شاركت فيها بحياتي . وأرى أيضاً خلال هذا الحشد للحرب كان دوري فيه دور الدبلوماسي أكثر منه دور العسكري . هكذا كانت التعقيدات السياسية لعملية الحلفاء التي احتاجت لجهود كبيرة لجمع الدول الأربع والثلاثين في الائتلاف وإعطائها هدفاً مشتركاً .

بوصولي إلى الرياض في الساعات الأولى من يوم ١٩٩٠/١٠/٧ ، وجدت أن القائد المؤقت هو نائب ماريشال الجو ساندي ويلسون Sandy Wilson ، الذي بدأ بداية

نشيطة بإنشاء مقر للقيادة في طابق من مبنى مكاتب حديثة ، والباقي منه استعمل قاعدة خليفة لمشاة البحرية الأمريكية . أقمت خلال الأيام القليلة الأولى في فندق شيراتون . ثم استأجر مساعدي العسكري الكابتن مارك تشابمان Mark Chapman فيلا من طابقين في أحد مجمعات المباني للغرباء على أطراف العاصمة السعودية . وأصبح هذا منزلي طوال مدة الحملة . كان الوضع فريداً ومريحاً للأعصاب . وهكذا كنا مقيمين في أحدث مدينة عربية بأبنية جميلة جديدة وحركة سير سريعة ، ساعين إلى تكوين قوة متعددة الجنسيات . . من أجل صد مجرم مزاجي كان جيشه الضخم قد ثبت أقدامه على طول حدود مئتي ميل تقريباً في الشمال .

كان الأمريكيون في الائتلاف هم المهيمنون منذ البداية ، والشخصية المركزية التي لا تخطئها العين هو الجنرال نورمان شوارتزكوبف Norman Schwarzkopf القائد الأعلى . وهو رجل ضخم الجثة ، وذو سلوك رائع وحياة مهنية مميزة . كان في بريطانيا قلق من أن يؤدي الاختلاف في أسلوب القيادة بين الأمريكيين والبريطانيين إلى خلاف بيني وبين شوارتزكوبف . ولحسن الحظ فهم كل منا الآخر من البداية . واتفقنا على الاشتراك في المعلومات السرية جداً بحرية . وأصبحنا أيضاً صديقين ودودين ، وبقينا كذلك منذئذ . في عملي مع نورمان احترمت جداً مقدرته كقائد ، فقد تحمل ضغطاً هائلاً تجاوز قدرته الجسدية . كان طوله ستة أقدام وثلاث بوصات وسبعة عشر حجراً . وكان يفحص خططه بوضوح واستمتاع ، وثبات على الهدف الذي يتجاهله بعض السياسيين في واشنطن .

والشخصية الأخرى في الائتلاف هو الأمير خالد بن سلطان بن عبد العزيز ، الذي أصبح أيضاً صديقاً دائماً . فهو ابن أخ الملك فهد عاهل العربية السعودية . وكان في البداية قائد سلاح الجو السعودي ، والضابط السعودي الذي وجدت فيه قوات الائتلاف سهولة التعامل . وعين أثناء الإعداد للمعركة قائداً عاماً لقوات التحالف ما دامت على الأرض السعودية ، مع أنه كان مفهوماً بأن شوارتزكوبف سيقود أي هجوم على القوات العراقية خارج حدود العربية السعودية . كان رجلاً ذا بنية متينة ، جميل المظهر ، في الأربعينات من عمره ، يتكلم الإنكليزية بطلاقة . وكان منفتح الذهن بما يكفي لإدراك وجهات نظر الآخرين .

من خلال تجربتي في شبه جزيرة العرب ، عرفت أن الملك فهد عاهل العربية السعودية كان على درجة عالية من الشجاعة ليطلب قوات من الكفار على أرض

إسلامية . مجرد عمل كهذا ، قد عرضه لهجوم من العناصر التقليدية في المجتمع السعودي وهدد بقاء المملكة . ولهذا السبب وحده كان من الضروري أن تبذل قوات الائتلاف كل مافي وسعها لاحترام المعتقدات والممارسات الدينية العربية . وقد نشرت هذه الرسالة خلال قيادتي . وأثناء أيامي القليلة الأولى في مسرح العمليات ، لم أزر الأمير سلطان فحسب ، باعتباره شقيق الملك ووزير الدفاع ، وإنما أيضاً الشيخ عيسى أمير البحرين ، والشيخ زايد حاكم أبو ظبي ، مؤكداً لجميع هؤلاء الأصدقاء بأن دعمنا لهم لن يهتز .

كانت حاجتي الرئيسية التعرف على قيادتي الجديدة . فقد انتشرت القوات البريطانية بسرعة على مساحة واسعة من الأرض من تبوك ، المطار الموجود في الشمال الغربي ، إلى ما وراء مدخل الخليج الفارسي في الجنوب الشرقي ، أي على مسافة تربو على (١٥٠٠) كيلومتر . والطريقة الوحيدة لتغطية مسافات كهذه هي بواسطة الجو . ولحسن الحظ كان تحت تصرفي طائرة هوكر Hawker من نوع Siddeley HS-125 نفاثة بسبعة مقاعد ، مع طاقمها الكامل . والواقع أن طائرتي الخاصة كانت وسيلة قيادة لا غنى عنها ، فهي لم تساعدني مثلاً على قطع مسافة (٥٠٠) كيلومتر من الرياض إلى جبيل الميناء على الساحل الشرقي ، الذي دخل منه اللواء المدرع السابع البريطاني في ساعة واحدة ، وإنما أيضاً استعملت كمكتب طائر محصن ، كنت أستطيع منه التحدث بأمان والعمل على الأوراق السرية بعيداً عن تسلط الهاتف .

في الرياض نفسها ، سرعان ما أصبح السفير البريطاني السير ألان مونرو Sir Alan Munro حليفاً قوياً ، فهو رجل قصير القامة ممتلئ يعج بالحيوية . أدرك حاجاتنا بصورة استثنائية ، وبذل كل ما في استطاعته لمساعدتنا . وفي جبيل أثار إعجابي الكولونيل مارتن وايت Martin White المسؤول عن الدعم اللوجستي ، بقدرته ، بحيث إنني قررت ترقيته إلى رتبة بريجادير في أول فرصة . وكان يتولى قيادة منطقة قوة الصيانة Maintenance Force التي خرج منها اللواء المدرع السابع حالما نزل إلى الشاطئ . كما كان في الواقع مسؤولاً عن العملية الكاملة لتزويد اللواء بما يحتاج من طعام وماء ووقود وذخيرة وقطع غيار . . . وكان عليه أن يرتجل مع استمراره في العمل .

وكان البريجادير باتريك كوردنجلي Patrick Cordingley قائد اللواء المدرع السابع

من الأشخاص الذين يوحون بالثقة العالية . قابلته ، لوقت قصير ، في ألمانيا قبل الانتقال . فهو بسلوكه المنفتح الودود يبعث على الإعجاب . وبدأ بالتعرف على رجاله الذين قضوا حياتهم يتدربون على الحرب في شمال أوروبا ، وانتقلوا الآن إلى الصحراء . كان هذا اللواء قد انتشر ، أول الأمر ، مسانداً لقوات المشاة البحرية الأمريكية في القطاع الشرقي لجبهة الائتلاف جنوب الكويت مباشرة . وكان باتريك ملحقاً باللفتنانت جنرال والت بومر Walt Boomer قائد مشاة البحرية الأمريكية .

ومن بين أولوياتي في الرياض إنشاء قيادة ثلاثية كاملة . وهي مهمة لم تكن سهلة ، بعد أن وجدت أن الأسطول الملكي وسلاح الجو الملكي كانا يتذمران ، في البداية ، من العمل بالطريقة التي اخترتها : فقد اعتاد كلاهما على إدارة أمورهما مستقلين . والواقع أن الأسطول الملكي كان فعالاً في الخليج لعشر سنوات ، يراقب مداخل مضيق هرمز بواسطة دورية حراسة أرميلا Armilla Patrol . وكلاهما كان على اتصال مباشر بقيادتيهما في بريطانيا . وكان علي الآن أن أكسب ولاء القادة الأعلين . وأجعلهم يرون أنني بحاجة إلى دعمهم الفعال . وأبيّن لهم أنني أنا وليس قادتهم في انكلترا هو الذي يصدر إليهم الأوامر خلال هذه الحملة . كانت هذه مهمة صعبة . ولكن خبرتي في حرب الفولكلاند كانت مفيدة جداً لي في هذا المجال .

المشاركة البريطانية في الهجوم الجوي على العراق

بعد أن وصف قائد القوات البريطانية في الخليج الجنرال بيتر دولا بيليير كيف نظم قواته البرية والجوية البحرية ، تناول علاقته مع قيادته العليا في بريطانيا . يقول في هذا الصدد : «كنت محظوظاً جداً أن يكون رئيسي المباشر ماريشال الجو السير باتريك هاين Air Chief Marshal Sir Patrick Hine القائد المشارك في عملية غرانبي في المملكة المتحدة . وهو طيار مقاتل ذو مقدرة وذكاء فريدين . فقد أدرك مشكلاتي وساندني بكل مشاعره ، من خلال عمله في هاي وايكومب High Wycombe ، ورفع عن كاهلي عبئاً ثقيلاً بالوقوف بثبات بيني وبين السياسيين والموظفين المدنيين في لندن . وكان يأتي إلينا كل ثلاثة أسابيع لقضاء يومين أو ثلاثة أيام في مسرح العمليات ومناقشة التقدم في عملنا مباشرة .

كان دوره كوسيط لا مبالغة فيه ، لأن علاقتي بوزير الدفاع توم كنغ Tom King لم تكن دوماً سهلة . فقبل الانتشار أخبرني كنغ أنه يحب كثيراً أن أكون تحت إمرته

المباشرة ، وأنه في حال الحرب يود أن يكون له اتصال مباشر بي في ميدان القتال . بذلت ما في وسعي لإقناعه أن على السياسيين أن لا يتدخلوا في أي قيادة عسكرية . ومع أنه أخذ بوجهة نظري ، عرفت أنه وجد من الصعب عليه أن لا يكون شخصياً على اتصال بقرار كل يوم . لذلك كان من المهم بالنسبة إلي أن يكون باتريك هاين أول خط دفاعي عني في المملكة المتحدة . في هذه البنية القيادية لدينا ميزة مهمة على الأمريكيين . فنورمان شوارتزكوبف عمل مباشرة مع كولن باول رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة الأمريكية دون وسيط . وكان الجميع خاضعين لاندفاعات البيت الأبيض .

كان تعلم العمل مع قادتي شيئاً والتنسيق مع الأمريكيين والسعوديين وبقية أعضاء الائتلاف شيئاً آخر ، يتطلب براعة وسرعة خاطر . كان لتفاهمي الوثيق مع نورمان شوارتزكوبف نتائجه الواجب دفعها حالاً . خلال الأسابيع الثلاثة التي سبقت مطلع تشرين الثاني ، شرعت في الضغط على الحكومة البريطانية لزيادة ملموسة في عدد قواتنا البرية . وكان شوارتزكوبف قد طلب تعزيزات من الولايات المتحدة . ووجدت أنه إذا لم نزد في عدد قواتنا فإن مشاركتنا ستبدو هزيلة بجانب الأمريكيين . يضاف إلى ذلك أنني أدركت أنه إذا وضعنا فرقة كاملة مدرعة في الصحراء بدلاً من لواء مدرع ، سوف يكون لدينا استقلال أكبر في المناورة في المعركة ، لأن وجود فرقة ، وإن كانت في نطاق القوات الأمريكية ، فإنها ستوضع في قطاع تمارس فيه الحركة بحرية .

لحسن حظي ، حينما قدمت هذا الطلب من خلال باتريك هاين وتوم كنغ ، كانت مارغريت تاتشر ما تزال رئيسة للوزراء ، ولذا أيدت حجتنا في البرلمان . وخلال أيام أعلن توم كنغ أن حملتنا ستزداد عدداً بحيث تصبح بمستوى فرقة عسكرية ، بإرسال اللواء المدرع الرابع ومساندة لوجستية هندسية . ولكن فجأة علمنا في ٢٢ تشرين الثاني أن تمرداً جرى في مجلس الوزراء أدى إلى إحلال جون ميجور محل السيدة تاتشر . وقد سببت هذه الأنباء توتراً في مسرح العمليات ، ليس بين القوات البريطانية فحسب ، وإنما أيضاً بين القوات الأمريكية والسعودية ، التي كانت جميعها معجبة بقيادتها وقوة شخصيتها . وتعجب السعوديون من تغيير قائد في دولة ديمقراطية بدون إجراء انتخابات عامة .

في بداية انتشار القوات البريطانية تم الاتفاق في رئاسة الوزراء على أنه إذا

اندلعت الحرب فإن السيطرة التكتيكية اليومية على اللواء المدرع السابع ستنقل إلى والت بومر ، شريطة أن أكون راضياً عن الدور والمهام التي يعينها الأمريكيون لنا . وقد قمت في الوقت المناسب بتسليم القيادة للأمريكيين . قد يرى الإنسان العادي أني تخليت عن مسؤوليتي تجاه قواتي . الواقع أنه لما كان الأمريكيون يفوقوننا عدداً (١٠ إلى ١) فقد كان ذلك السبيل العملي الوحيد للعمليات العسكرية . وعلى أي حال فقد احتفظت بالسيطرة المطلقة ، من خلال ما يعرف بالبطاقة الصفراء ، أي حقي في استرجاع اللواء تحت قيادتي إذا تبيّن لي أن الأمور لا تسير في الاتجاه الصحيح . وظلت سيطرتي على ميدان المعركة وتكتيكاته بيدي .

سعدت بعلمي أن قائد الفرقة البريطانية المعين هو الميجور جنرال روبرت سميث Rupert Smith الذي يتمتع بأصالة استثنائية ، ويشاركني في النزعة إلى البحث عن حلول غير تقليدية للمشكلات ، وفي ميله إلى إعطاء الأوامر وتنفيذها دون الرجوع إلى رئيسه المباشر . وإلى جانبه وجد الكومودور كريس كريغ Commodore Chris Craig الذي تولى في ١٩٩٠/١٢/١ ، وهو رجل متين البنية أسود الشعر ذو سلطة طبيعية واضحة . وحصل على وسام DSC لمهارته القيادية للفرقاطة الاكريتي Alacrity في حرب الفولكلاند ، وجاء بسمعة عسكرية رائعة . أما القائد الثالث فهو نائبي نائب ماريشال الجو بيل راتن Air Vice Marshal Bill Wratten الذي يتمتع بالشدة والفعالية . كان طياراً مقاتلاً قاد سلاح الجو الملكي البريطاني بعد حرب الفولكلاند مباشرة . مع وجود هؤلاء القادة الثلاثة المحترفين في مسرح العمليات ، كانت لدي الثقة بأن قواتنا سوف تتميز عند بدء القتال» .

يلوم الجنرال دولا بيليير صدام حسين ، ويتهمه بالإجرام وباللاعقلانية وبفكره الاستراتيجي والتكتيكي السيء ، وبالغباء ، لأنه قعد ينتظر بينما يواجه قوات الائتلاف المحتشدة بازدياد . وكان بإمكانه أن ينسحب جزئياً من الكويت والاحتفاظ بجزيرة بوبيان وحقل الروضتين النفطي في شمال الكويت ، لإضعاف قيمة قرار مجلس الأمن الداعي إلى انسحاب قواته ، ولجعل الائتلاف الدولي في وضع حرج . كما كان بإمكانه أن يشن هجوماً استباقياً بالجو أو بصواريخ سكود ، قبل أن تنظم قوات الائتلاف نفسها ، وبذلك يعطل استعداداتها بصورة خطيرة . ولكنه لم يفعل شيئاً سوى دفع المزيد من قواته إلى منطقة الحدود .

وبعد أن يلخص دولا بيليير خطة الهجوم الجوية والبرية الأمريكية على القوات

العراقية ، يذكر تدخله لدى القائد الأعلى للقوات الأمريكية الجنرال شوارتزكوبف لتعديل خطته البرية ، بحيث تشارك القوات المدرعة البريطانية في الهجوم الرئيسي في الجزء الغربي من الجبهة . وقد قبل القائد الأمريكي هذا الطلب بعد تردد وممانعة دامت أسابيع .

يقول القائد البريطاني عن الهجوم البري : «في أوج الحملة كان لدينا في مسرح العمليات (٤٥) ألف جندي ، وهي أكبر عملية انتشار لقوات بريطانية خارج أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية . وكان عليّ أن أظهر بينهم ، سواء كانوا في الصحراء أو على ظهر البوارج الحربية في الخليج» .

يعتبر دولا بيليير وسائل الإعلام في هذه الحرب سلاحاً مهماً ، من أجل كسب تأييد السياسيين والجمهور في العالم الحر ، ونقل الأخبار فوراً إلى الوطن . ويذكر أن زيارة الأمير تشارلز Charles ولي عهد بريطانيا قبيل عيد الميلاد وزيارة جون ميجور في بداية كانون الثاني ١٩٩١ قد رفعتا من معنويات القوات البريطانية ، وهو الذي ابلغ قائد القوات البريطانية بأن القصف الجوي قد يبدأ يوم ١٩٩١/١/١٦ .

يذكر القائد البريطاني أن الهجوم الجوي الذي بدأ يوم ١٩٩١/١/١٧ قد أسفر في الساعات الأربع والعشرين الأولى عن (٣٠٠٠) طلعة ، ويذكر أيضاً أنه كان لبريطانيا دور في ردع الإسرائيليين عن الاشتراك في الهجوم الجوي على العراق .

وبالحاح من القائد البريطاني ، قبل شوارتزكوبف مشاركة المجموعة الجوية الخاصة SAS البريطانية في القيام بعمليات وراء الخطوط القتالية العراقية في ١٩٩١/١/٢٢ . وتولت قطع الاتصالات بين القوات العراقية وضرب منصات صواريخ سكود في غرب العراق .

وحول المشاركة البريطانية في الهجوم الجوي يقول : «أظهر بدء الحرب الجوية تميز سلاح الجو الملكي . فقد واصل طيارونا القتال والطيران لأسابيع . وطلب فجأة من طواقم طائرات تورنيدو تسليم أسلحتهم بعد أن استعملوا قنابل JP 333 المصنعة لتدمير مدرجات المطارات وأثبتت فاعليتها . ولما كان من الواجب إطلاقها من ارتفاع منخفض جداً ، وفي مواجهة نيران كثيفة من المضادات الأرضية العراقية ، بحيث فقدنا في أسبوع واحد خمس طائرات ، قرر نائبي بيل راتن ، بتأييدي التام ، وقف الهجمات الجوية على ارتفاع منخفض» . كان الهجوم الجوي ما زال مستمراً . وأسقطت طائراتنا التورنيدو قنابل وزن الواحدة منها ألف ليبرة من ارتفاع متوسط . وقد

قاومت مع هاين وراتن محاولات قيادة سلاح الجو الملكي في لندن بالعودة إلى الغارات الجوية على ارتفاع منخفض . لقد أنفقت ملايين الجنيهات على تطوير قنبلة JP 333 ، والتخلي عنها في هذه الحرب يعني أنها فاشلة . كانت هذه حجة قيادة سلاح الجو الملكي . والواقع أنها لم تكن فاشلة ، وإنما كانت أقل فاعلية في مدرجات المطارات العراقية الضيقة ، بينما صنعت من أجل مطارات دول أوروبا الشرقية الواسعة المدرجات . تعززت قواتنا الجوية بوصول جناحين من طائرات بوكانيرز Buccaneers المجهزة بأشعة الليزر . كانت طائرات تورنيدو دقيقة في إصاباتها مثل الطائرات الأمريكية ، وخاصة في قصفها للجسور ومواقع القيادة والمصافي النفطية وغيرها من الأهداف المهمة . وعلى الرغم من دقة القنابل والصواريخ الموجهة فقد ابتعد بعضها عن الهدف . ومع ذلك تعرضنا لنقد متزايد من الأمريكيين بأننا كنا نقتل المدنيين» . وحجة القائد البريطاني لا تختلف عن حجة القادة الأمريكيين في قتل المدنيين ، وهي أن صدام حسين كان يضع قياداته العسكرية في المدارس والمستشفيات وقرب المساجد . وهذا اتهام لا دليل عليه .

دور القوات البريطانية في الهجوم البري لتحرير الكويت

يقول قائد القوات البريطانية في الخليج الجنرال دولا بيليير في مذكراته ، إن الجنرال شوارتزكوبف القائد الأعلى لقوات الائتلاف طلب منه أن تكون الفرقة المدرعة البريطانية جاهزة للهجوم يوم ١٩٩١/١/٣١ ، وقد أعدها الجنرال روبرت سميث لهذه الغاية . كان عليها الانتقال إلى مواقعها الجديدة على الجبهة الغربية مسافة (٣٠٠) كيلومتر . وتولى مارتن وايت وفريقه تأمين المساندة اللوجستية والصيانة لها على طول الطريق . وقد بلغت ذخيرتها (٢٤) ألف طن نقلت عبر هذه المسافة واحتلت مساحة (١٠×٧) كيلومترات في الصحراء الغربية .

وقامت مجموعة الأسطول الملكي في الخليج بالتحرك شمالاً نحو رأس الخليج بقيادة كريس كريغ . ومهمتها فتح طريق عبر الألغام البحرية حتى تتحرك البوارج الحربية الأمريكية لتكون قريبة من المواقع العراقية لقصفها ، ولتعزيز الاعتقاد بأن الهجوم البري لتحرير الكويت قادم من الشرق . أراد الأمريكيون الاعتماد كلياً على كاسحات الألغام الخمس البريطانية من نوع MCMV التي لم يفهموا أساليبها في العمل . وكانوا يرون إدخال هذه الكاسحات إلى الشاطئ حتى تصبح في مرمى

صواريخ سيلكورم Silkwarm العراقية ، بينما كان قائد الأسطول البريطاني يعارض ذلك . تحرك الأسطولان الأمريكي والبريطاني ، باتفاق بين قيادتيهما ، شمالاً في ١٩٩١/٢/١٤ ، وبدءا بتنظيف قناة لدخول البوارج الأمريكية . وفي الساعة ٤,٣٠ من صباح ١٨ شباط اصطدمت البارجة الأمريكية تريبولي Tripoli بلغم فتح ثقباً واسعاً في جانبها دون أي خسائر في الأرواح . كما تعرضت البارجة الأمريكية برنستون Princeton لانفجار لغم في قعرها أحدث دماراً كبيراً فيها . بعد هذين الحادثين تجمعت السفن الحربية وأخذت طريقها بحذر إلى الساحل الكويتي تقودها كاسحات الألغام البريطانية ، حتى أصبحت البوارج الأمريكية في وضع يمكنها من إصابة أهدافها بدقة على بعد (٢٠) كيلومتراً فقط .

يتحدث القائد البريطاني عن دوره الشخصي في إدارة الحرب البرية فيقول إنه قام على «التشجيع والحض بألطف الوسائل على قيادة دفة سفينة كانت تبحر بهدوء . كان دوري في نشر القوات البريطانية قد اكتمل . وكانت مهمتي توقع الأحداث ، والعمل على تعدي الخطط إذا كان ضرورياً نتيجة للرد العراقي . في ١٩٩١/٢/١٣ زرت كاسحات الألغام في الأسطول الملكي مع بداية عملها في الخليج . وفي ١٧ شباط قمت بزيارة المستشفيين ٢٢ و٢٣ في الصحراء قرب الحدود . وفي ٢١ شباط قمت بزيارتي الأخيرة لقيادة فرقتنا وقائدي اللوائين اللذين جمعا قواتهما في منطقة (راي) مقابل النقطة التي ستخترق منها الدفاعات العراقية .

ويواصل وصفه للهجوم البري بقوله : «شن نورمان شوارتزكوبف عملية (سيف الصحراء Desert Sabre) الساعة الرابعة من صباح ١٩٩١/٢/٢٤ ، وجد العراقيون أنفسهم يواجهون هجوماً مفاجئاً على طول جبهتهم ، وبقصف من السفن الحربية الأمريكية في أقصى الشرق الذي كان جزءاً من الخدعة الحربية ، بينما كانت القوة الضاربة الرئيسية في أقصى الغرب . وفي الوسط كانت القوات المسلحة بقيادة السعوديين والمصريين قد اخترقت الدفاعات العراقية الرئيسية على الحدود الكويتية بعزم وتصميم .

كان دور الفرقة البريطانية حماية الجناح الأيمن لقوات الجنرال فريد فرانكس ، التي قامت بعملية الالتفاف على شكل خطاف على وحدات الحرس الجمهوري . . وبعد ظهر يوم ٢٥ شباط أخذت دبابات تشالنجر للواء المدرع السابع طريقها بين حقول الألغام . وكانت المدفعية الثقيلة المعززة بالمدافع والصواريخ الأمريكية تقوم بمساندة

مباشرة للواثين المدرعين . . . والهدف ضرب دروع العراقيين ومدفعيتهم والضغط عليهم للتقدم . . . وخلال الليل كانت الدبابات والمدافع العراقية واضحة للجنود الأمريكيين والبريطانيين ، الذين استعملوا المناظير المشعة TOGS ولذلك كانت سرعة تقدمهم فوق التوقع بكثير» .

وعلى الرغم من ضرب طائرة أمريكية من نوع A-10 لدبابات من كتيبة الرماة الملكية البريطانية بعد ظهر ٢٦ شباط ، خطأ ، وأسفر الحادث عن قتل تسعة جنود وأحد عشر جريحاً ، فقد استمر القتال . وفي صباح ٢٨ شباط قام اللواء المدرع السابع بمهمته الأخيرة ، بالاتجاه شرقاً عبر الصحراء بسرعة أربعين كيلومتراً في الساعة حتى بلغ هدفه (كبرى Cobra) على مفترق الطريق الرئيسي إلى البصرة ، قبيل إعلان وقف إطلاق النار في الساعة الثامنة صباحاً . وأسرت القوات البريطانية سبعة آلاف أسير عراقي .

وفي ذلك المساء عقد دولار بيليير مؤتمراً صحفياً في الرياض حيا فيه انتصار الائتلاف ، وأثنى على نورمان شوارتزكوبف وسماه «رجل المعركة» ، وأثنى على الأمير خالد والدور الذي قام به السعوديون . وحث الشعب البريطاني على قرع أجراس النصر في الكنائس .

توجه القائد البريطاني في صباح اليوم التالي بالطائرة إلى مدينة الكويت . وشاهد الدخان المتصاعد من احتراق آبار النفط . وفي ١٩٩١/٣/٣ شارك كمراقب في محادثات وقف إطلاق النار في صفوان .

في تعقيبه على حرب تحرير الكويت يقول دولار بيليير : «السؤال الذي يطرح : هل كان من الواجب علينا أن نستمر في الحرب واحتلال بغداد ، ما دامت الفرصة متاحة لنا؟ من المؤكد أنه من المخيب للآمال والمحزن أنه وأنا أكتب هذه المذكرات بعد ثلاث سنوات من نهاية الحرب ، ما زال صدام في السلطة ، وما زال يقتل شعبه . كنت أعتقد آنذاك وما زلت حتى اليوم أن الجواب عن هذا السؤال الرئيسي هو كلا .

من الناحية العملية البحتة ، كان من السهل جداً الوصول إلى العاصمة العراقية . لدينا الوقود وبإمكان دباباتنا الوصول خلال بضع ساعات . وباستطاعتنا بسهولة أيضاً ذبح عشرات الآلاف من العراقيين ، بعد أن تجمعوا في عنق الزجاجة مع تدمير الجسور ، ولكن لم يرد أي منا التورط فيما سماه الأمريكيون (صيد ديك الحبش) .

وماذا كان بإمكاننا عمله لو وصلنا إلى بغداد؟ فصدام لن يجلس وينتظرنا هناك أو أن يخرج من خندقه رافعاً يديه للتسليم . إن هذا الشيطان سوف يختفي إما في الصحراء أو يلجأ إلى دولة صديقة مثل ليبيا ، حيث يمكن أن يشكل حكومة في المنفى ويصبح شهيداً في عيون العرب ، الذين رأوا فيه قائداً قومياً عربياً . سوف نرث نحن المنتصرين على الورق بلداً مدمراً مع جسوره واتصالاته مدمرة ، ولا يوجد من يحكمها . يضاف إلى ذلك إذا ذهبنا إلى بغداد فقد نقسّم الائتلاف ، ولن تأتي معنا أية دولة عربية . ولن تضع أية قوات عربية أقدامها على الأرض العراقية إلا بمحادثات صفوان . كان علينا نحن القوى الغربية التي ستنتشر قواتها الضخمة في الصحراء العراقية ، لو ذهبنا وحدنا إلى العاصمة العراقية ، سنبدو معتدين . ليس لدينا إذن من الأمم المتحدة لغزو العراق ، مهمتنا كانت مجرد تحرير الكويت .

لكل هذه الأسباب ، أعتقد أننا كنا مصيبين في وقف الحرب كما فعلنا . وأعتقد أن الخطأ الذي ارتكبناه هو عدم طلبنا استسلام صدام حسين نفسه . فلو احتللنا البصرة والأهوار الجنوبية ، ورفضنا الانسحاب حتى يأتي الدكتاتور شخصياً للتفاوض لأجبرناه على الأقل على توقيع معاهدة سلام تعطي سلطة فعالة لمفتشي الأمم المتحدة في زيارات مقبلة» .

مع انتهاء الحرب زار وزير الدفاع البريطاني توم كنغ القوات البريطانية وامتدح دور قائد القوات البريطانية في تحقيق النصر فاضطر الأخير إلى الكتابة إلى بريطانيا ، كما يقول في مذكراته : «يجب أن أقول سراً بأنني لا أشعر بأنني فعلت الكثير . إنها معركة نورمان ، وأشعر بصورة ما أدراجي بزعمي أخذ المجد منه» . وفي ١٩٩١/٣/٦ زار جون ميجور القوات البريطانية فكان أول زعيم غربي يصل إلى مسرح العمليات ، والأول الذي يصل إلى الكويت المحررة ، حيث قابل ولي العهد الشيخ سعد العبد الله السالم الصباح . وحلت بعده لجنة الدفاع في مجلس العموم البريطاني التي ضمت تسعة أعضاء .

في ١٩٩١/٣/١١ قرر بيتر دولا بيليير إحالة نفسه إلى التقاعد لتجاوزه سن التقاعد . وفي ١٧ آذار تلقى ترقية إلى رتبة جنرال . وزيد في خدمته سنة واحدة عمل خلالها مستشاراً لوزير الدفاع توم كنغ والحكومة البريطانية .

الفصل السابع

غزو العراق للكويت
في مذكرات جاك أوكونيل وجان بيير شفنمان

حرب لا حاجة لإضرامها

جاك أوكونيل Jack O'Connell موظف سابق في وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) الأمريكية ، وحاصل على شهادة الدكتوراة في القانون الدولي من جامعة جورجتاون في واشنطن ، وماجستير في الشريعة الإسلامية من جامعة بنجاب في لاهور بباكستان . عمل رئيساً لمحطة وكالة الاستخبارات المركزية في العاصمة الأردنية في عمان بين سنتي ١٩٦٣ و١٩٧١ . وفي مطلع التسعينات من القرن العشرين عينه الملك حسين ، عاهل الأردن ، ليبحث له عن كاتب يكتب له قصة كفاحه من أجل السلام في الشرق الأوسط . وظل قريباً منه لسنوات عديدة . كتب أوكونيل مذكراته بالتعاون مع فيرنون لويب Vernon Loeb بعنوان «مستشار الملك : مذكرات حرب وتجسس ودبلوماسية في الشرق الأوسط King`s Counsel: A Memoir of War ، Espionage and Diplomacy in the Middle East» التي صدرت في نيويورك ولندن عن دار النشر W.W. Norton and Co . سنة ٢٠١١ .

تناول أوكونيل غزو العراق للكويت في مذكراته هذه ، وقال : «المكائد التي تلت غزو العراق للكويت فاقت الاستهلال المحموم للحرب العربية-الإسرائيلية سنة ١٩٦٧ . اتصل الملك فهد ، عاهل العربية السعودية ، هاتفياً بصدام ، حالما تلقى الأنباء بالغزو العراقي ، ليحثه على قصر حركة قواته على منطقة الحدود المتنازع عليها . كما أنه اتصل هاتفياً بالملك حسين ، عاهل الأردن ، وطلب منه أن يكرر طلبه إلى صدام . لم يتمكن الملك حسين من الاتصال بصدام إلا بعد الظهر ، حينما تم ذلك أخبره صدام بأن يرتاح . وقال له بأن غايته تعليم الكويتيين درساً وليس السيطرة على بلادهم .

بالصدفة كان من المقرر عقد مجلس وزراء الخارجية العرب في القاهرة في اليوم التالي . سافر الملك حسين ووزير خارجية الأردن مروان القاسم بالطائرة إلى الاسكندرية فوراً للتشاور مع الرئيس المصري حسني مبارك . وقررا وجوب سفر الملك حسين بالطائرة في اليوم التالي إلى بغداد ، لإقناع صدام بسحب قواته من الكويت . واتصلا هاتفياً بالملك فهد الذي أيد الرحلة . كما اتصل حسين ومبارك هاتفياً بالرئيس جورج بوش (الأب) الذي أعطى الملك حسين (٤٨) ساعة لإنجاز مهمته .

كان مبارك يخشى إقدام وزراء الخارجية العرب المجتمعين في القاهرة على ارتكاب حماقة حول الوضع في العراق ، ولذا قدّم لوزير الخارجية الأردني مروان القاسم طائرته الخاصة للطيران إلى القاهرة لمنعهم من اتخاذ أي قرار في هذا الشأن . عاد الملك حسين بالطائرة إلى عمان في اليوم نفسه .

طار الملك حسين في اليوم التالي إلى بغداد وقابل صدام . وافق صدام على الانسحاب من الكويت في خلال أربعة أيام شريطة أن لا يلوم وزراء الخارجية العرب المجتمعون في القاهرة العراق على غزوه للكويت ، وأن لا يهدده أحد بإخراجه من الكويت بالقوة . عاد الملك إلى عمان مبتهجاً ، وطلب مبارك عدة مرات حتى تمكن من الاتصال به ، وأخبره بالنبأ المفرح . قال مبارك : إنه إنجاز قليل ومتأخر جداً . فقد كان تحت ضغوط داخلية وخارجية شديدة لإدانة صدام ، ولا بديل عن انسحاب غير مشروط . كان الملك مشدوهاً .

أبلغ مروان القاسم وزارة الخارجية المصرية بذلك في اليوم التالي بعد وصوله إلى القاهرة ، وطلب اللقاء بأسامة الباز ، مستشار الرئيس مبارك للشؤون الخارجية . وأبلغ القاسم أن الباز خارج البلاد . وجد القاسم أن هذا التصرف ملفت للنظر في اجتماع وزراء الخارجية العرب في اليوم نفسه . سأل القاسم إذا كان الباز قد سافر إلى الولايات المتحدة . قال موظف في وزارة الخارجية : كلا غادر بطائرة صغيرة . افترض القاسم أن الباز غادر إلى إسرائيل .

في تلك الليلة ، اتخذ مؤتمر وزراء الخارجية العرب قراراً بإدانة صدام ، والطلب من العراق الانسحاب الفوري من الكويت . امتنع عدد من الدول العربية عن التصويت بما في ذلك الأردن . وجدت نسخة من القرار على مكتب كل وزير خارجية عربي حينما وصل إلى الاجتماع . لم يحدث نقاش . كان تصويتاً على القرار بنعم أو لا . النص العربي للقرار ، حسب العديد ممن حضروا الاجتماع ، ترجمة واضحة عن

الإنكليزية . ولما عاد مروان القاسم في اليوم التالي شاهد الباز عائداً وهو يغادر مطار القاهرة .

بعد يومين ، عاد الرئيس بوش من كامب ديفيد إلى البيت الأبيض في واشنطن . ولما مر أمام الجمهور الذي حياه في مرج البيت الأبيض ، صاح مراسل صحفي : ما الجديد حول العراق؟ قال الرئيس : قبل أيام قليلة أعطيت زعيماً عربياً صديقاً (٤٨) ساعة لإقناع صدام بالانسحاب من الكويت ، ولكنه فشل في ذلك .

من الواضح أنه لم يعط أحد الرئيس بوش تقريراً صادقاً عن اجتماع الملك حسين مع صدام . والواقع أن صدام سحب قوات بعد أربعة أيام من وعده للملك حسين ، على الرغم من أن شرطي صدام لم يتم الوفاء بهما وهما : أن لا يدين مجلس وزراء خارجية الدول العربية العراق لمعاقبته الكويت ، وعدم تهديد العراق باستخدام القوة . أقدمت الولايات المتحدة على تنظيم ائتلاف غربي-عربي ، ونقلت قوات وتجهيزات إلى العربية السعودية والخليج للإعداد لإخراج القوات العراقية من الكويت .

ولكن قبل بدء الحشد العسكري أحرج توماس بيكرينغ Thomas Pickering عبد الله صلاح ، مندوب الأردن الدائم لدى الأمم المتحدة ، واقترح إجراءات يمكن اتخاذها للرد على شكاوى العراق من الكويت ، مقابل انسحاب سلمي عراقي مجدول من الكويت . وفي هذا الصدد ، اعتقد بيكرينغ في وسط آب أن الولايات المتحدة بإمكانها تجميع منظمات وجهات كافية لتنفيذ الإجراءات المتعددة المقصودة . اقتبس خمس طرق لتخفيف الشكاوى العراقية : (١) تخفيف أو إلغاء ديون الكويت على العراق ، (٢) إيقاف التنقيب الخفيف عن النفط في حقول النفط العراقية ، وتعويض العراقيين عما فقدوه ، (٣) فرض الحصة التي تقررها منظمة الدول المصدرة للنفط (OPEC) على الكويت ، (٤) ترتيب تأجير جزيرتين كويتيتين في شط العرب للعراق ، (٥) بإمكان الولايات المتحدة أن تدعم تغييراً في نظام الحكم في الكويت .

اتصل عبد الله صلاح هاتفياً بالشريف زيد بن شاكر في القصر الملكي بعمان ونقل إليه الرسالة . عاد الشريف زيد إلى الاتصال بصلاح ليسأله : إذا كان ذلك حديث من بيكرينغ أو من حكومة الولايات المتحدة . سأل صلاح بيكرينغ السؤال نفسه في مكتبه . اتصل بيكرينغ هاتفياً بحضور صلاح مع وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر ، الذي كان في وايومنغ Wyoming عائداً من رحلة إلى الاتحاد السوفياتي . أخبر بيكرينغ أنه سوف يعاود الاتصال به خلال دقائق . كان هناك بعض

الشك لدى صلاح وبيكرينغ بأن بيكر يتفحص الأمر مع الرئيس بوش . لم يرد بيكر على أحد . عاود الاتصال ، وقال لبيكرينغ : يمكنك التكيف مع ذلك . نقل صلاح الرسالة إلى الشريف زيد في عمان أنه حديث الحكومة الأمريكية . وتريد أن ينقل الملك حسين الرسالة إلى صدام .

كنت في ماربيّا Marbella في إسبانيا حين جرت هذه المحادثات في الأمم المتحدة . كان عليّ أن أقابل ديك فيتس Dick Viets في روما في طريقي إلى عمّان . كان بيكرينغ يعرف مواعيدنا . وكان فيتس ، في الوقت نفسه يعمل مستشاراً سياسياً ودبلوماسياً للأردن بعقد نظمته له . وهو دور قام به من سنة ١٩٨٨ حتى سنة ١٩٩٤ . اتصل بيكرينغ هاتفياً بفيتس في واشنطن لإبلاغه باللقاء مع السفير صلاح . وطلب من فيتس أن نكرر الطلب من الملك حسين لنقل الرسالة إلى صدام حسين حين وصولنا إلى عمان . أخذ فيتس ملاحظة بحديث بيكرينغ الهاتفي .

لما وصلت وفيتس إلى عمان ، وقبل أن نفتح حقائبنا في الفندق ، تلقينا دعوة إلى اجتماع في القصر الملكي . ولما وصلنا أخذنا إلى غرفة كان فيها الملك يقدم إيجازاً عن زيارته لصدام في بغداد لكبار موظفي القصر والحكومة . ومع اقتراب نهاية الاجتماع سأل فيتس الملك عن رسالة بيكرينغ حول اقتراح الولايات المتحدة بشأن التعامل مع شكاوى العراق ضد الكويت كتمهيد لانسحاب العراق من الكويت . لم يعرف الملك عما كان ديك يتكلم . نظرت إلى الغرفة ، كان معظم مستشاري الملك ينظرون في السقف بمن فيهم الشريف زيد . تبيّن لي ولديك أنه لم ينقل أي أردني الرسالة للملك .

كان من الصعب معرفة ما كان يجري بدقة . ولكن الملك وبعض مستشاريه كانت لديهم أجندات مختلفة . بعض هؤلاء المستشارين كانوا يزودون العراق بأسلحة ، وكانوا يراهنون على أن الولايات المتحدة لن تخاطر بحياة أبنائها من أجل إخراج العراق من الكويت . كانوا ضد توسط الولايات المتحدة بالتفاوض . الجنرال علي شكري ، سكرتير الملك ، الذي كان قريباً من هذه المكائد ، لم يصدق أن الشريف زيد الذي اتصل به صلاح في القصر اتخذ أية قرارات سياسية . كان بإمكانه أن ينقل المسألة إلى رئيس الوزراء مضر بدران الذي كان رئيس الجماعة المؤيدة لصدام . وكان يراهن على فوز صدام . واذا كان ذلك صحيحاً ، فستكون مساهمة في حرب لا حاجة لإضرامها» .

تحول موقف الرئيس بوش (الأب) من التفاوض إلى استعمال القوة

يواصل جاك أوكونيل روايته لما جرى بين الملك حسين والرئيس الأمريكي جورج بوش (الأب)، بادئاً بلقاء الملك مع كبار المسؤولين الأردنيين في القصر الملكي ويقول: «كسر الملك الصمت في اجتماع القصر بقوله: سنذهب إلى مين Main للاجتماع بالرئيس بوش. أراد الملك من فيتس ومني مقابلتهم في المطار والانضمام إليهم في الرحلة. ووعدوا بإرسال سيارة إلى الفندق لنقلنا إليه. لم تصل السيارة، فقد سافر الملك وجماعته بدوننا.

قابلت وفيتس الأمير حسن الذي كان نائباً للملك في غيابه، لإعلامه بالقصة. قال الأمير: لم يريدوكما معهم حتى لا تخبرا الملك بالقصة. ورتبنا السفر بطائرة أخرى تصل إلى واشنطن قبل وصول الملك وحاشيته الذين قضوا ليلة هناك قبل المغادرة إلى مين. كان باستطاعتي الاجتماع بمروان القاسم، وزير الخارجية، في واشنطن لأسأله عما كان يجري. قال مروان إن الوقت قد مضى على الاقتراح. رافقت الجماعة الوزير بيكر بالطائرة إلى كينيبونكفورت في اليوم التالي. وقد أعلمهم بيكر بما قد يحدث في منزل الرئيس بوش في ١٦ آب. لم يكن الأمر سهلاً. كان الملك ما زال مهتماً بمتابعة إستراتيجيات التفاوض مع صدام. أما بوش فقد تغير اهتمامه وحل موقف متشدد نهائي محل التسوية التفاوضية. كان مهتماً فقط بانسحاب عراقي من الكويت بدون شروط وعودة أمير الكويت إلى الحكم.

بعد هذا توترت العلاقات بين بوش والملك بصورة سيئة. ومن المحتمل جداً أن يعود ذلك إلى أن الاثنين كانا وثيقي الصلة حتى تلك اللحظة. شعر بوش شخصياً أنه خدع باقتراح الملك بأن حلاً سلمياً ممكن مع صدام. وشعر الملك بامتعاض الرئيس، وبأنه عومل برداءة. وأعجب إذا كان بوش حتى يعرف برغبة صدام في الانسحاب، التي جاء بها الملك في اجتماعه الأول مع الزعيم العراقي، خلال الساعات الثماني والأربعين الأولى من غزو الكويت. فهل وقع بوش والملك ضحيتين لمساعديهما الذين أخبروهما فقط بما شعروا بحاجة كل منهما لما يعرف؟ من الواضح أن بعض أعوان الملك اتخذوا موقفاً يكسبون من صداقتهم لصدام. كما أن بعض أعوان بوش المتشددين رأوا صدام طاغية وتهديداً لإسرائيل، وأرادوا الدخول معه في معركة وليس في مفاوضات.

بعد الاجتماع سلم السفير الأمريكي الجديد في عمان روجر هاريسون Roger

Harrison رسالة للملك تقول : إن فكرة التحالف العراقي-الأردني قد دمرت سمعة الأردن في الولايات المتحدة وغيرها . وبينما بقي الأردن فنياً على الحياد خلال الحرب ، دفع الملك ثمناً غالياً في الولايات المتحدة ، لرفضه الانضمام إلى الائتلاف ، ولرغبته في الاستمرار في التعامل مع صدام . وفي هذه النقطة كان الزعيم العربي الوحيد الذي ما زال راغباً في ذلك . تم جمع الائتلاف الذي ضم (٣٤) دولة في خريف ١٩٩٠ بعد قرارات لمجلس الأمن الدولي التي حددت ١٩٩١/١/١٥ موعداً نهائياً لانسحاب العراق من الكويت ، وفوضت باستعمال كل الوسائل الضرورية لردع العدوان العراقي . بلغ عدد قوات الائتلاف (٩٥٠) ألف جندي ، ثلاثة أرباعهم من الأمريكيين ، ومعظم الباقي من العربية السعودية ومصر وبريطانيا . وفي المقابل شعر فيتس بدعم الملك لصدام ورفضه الانضمام للائتلاف ، فتألم أكثر مني بكثير . قال فيتس لي : أعتقد أنه تعرض لعقوبة مريعة ، لأنه فعل ما اعتقد أنه كان الطريق الصحيح للعب الأوراق . غير أنه استطاع في أواخر حياته أن يستعيد تكيفه . ومرت فترة طويلة بعد تلك الحرب لم يعطه الناس الوقت الكافي . ولكن مهما كلفه هذا الموقف فقد كان الملك على حق . كان بإمكان الولايات المتحدة بل من واجبها التفاوض على انسحاب عراقي من الكويت . لو أعطينا صدام الاحترام الذي التمسه لتم التوصل إلى تسوية بشروط أفضل من عقد من الزمن من العقوبات ، وفرض منطقة محظورة الطيران ، وتصعيد العداء ، والتفتيش على الأسلحة ، وأخيراً الحرب العراقية سنة ٢٠٠٣ غير الضرورية .

أراد الملك تجنب الحرب وإقناع صدام بالانسحاب من الكويت قبل أن يطرد منها . كان صوتاً في البرية تردد صداه دورياً على يد بيكرينغ أو بيكر . ولكن ريتشارد بيرل Richard N. Perle والمحافظين الجدد الأمريكيين لا يرغبون في التفاوض ، دون أن نقول شيئاً عن الإسرائيليين الذين تعاملوا مع المشكلة العراقية بمهارة أكثر من تعاملهم مع المشكلة الفلسطينية . ومن المفارقة كان صانع السلام الدائم هو الملك حسين ، الذي عوقب من الولايات المتحدة لعدم انضمامه للائتلاف العسكري الأمريكي . وعشية الحرب قال بوش لبيكر بأنه سيرسله إلى بغداد للتفاوض مع صدام . قالت مجموعة المتشددين بقيادة بيرل ، مساعد وزير الدفاع في إدارة ريغان ، لبوش إن صدام سوف يأخذ بيكر رهينة . نعرف من رحلة رمسفيلد لبغداد سنة ١٩٨٣ أن زيارة لبيكر من مستوى رفيع هي أفضل وسيلة للتعامل مع صدام . بدلاً من

ذلك ، سلم بيكر رسالة مهينة بصورة علنية في جنيف لطارق عزيز وزير خارجية العراق . كان القصد منها أن يرفضها عزيز . وهذا ما فعله . ثم قرأ بيكر ملاحظات مكتوبة تتضمن الرفض .

شن الائتلاف ، بقيادة الولايات المتحدة ، عملية عاصفة الصحراء في ١٩٩١/١/١٧ طارداً القوات العراقية من الكويت ، وقاضياً عليها في ميدان المعارك في جنوب العراق . دامت الحرب (٤٣) يوماً كان معظمها هجوماً جوياً مذهلاً مؤلفاً من أسراب من الطائرات المقاتلة والقاذفة من نوع ستيلث Stealth الخفية ، والقنابل الموجهة بالليزر ، وصواريخ كروز Cruise التي تطلق من الجو ، ومن بوارج الأسطول الأمريكي في الخليج الفارسي . قرر بوش عدم احتلال العراق فكان قراراً حكيماً . ذلك أن إسقاط صدام لم يكن من تفويض مجلس الأمن الدولي بالحرب . لم يكن ابنه بحكمته . شجعت الولايات المتحدة المقاومة العراقية والكردية ضد صدام بعد نهاية القتال ، وعجزت عن دعمها ، مما أدى إلى ضحايا عراقيين غير ضروريين . بقي صدام ليخوض حرباً أخرى .

حالما انتهت الحرب حاولت وفيتس أن تجد ماذا كان يجري داخل إدارة بوش (الأب) في أعقاب غزو صدام للكويت في آب ١٩٩٠ . دعا فيتس توم بيكرينغ للغداء ، وجلب معه المذكرات التفصيلية حول محادثته بشأن الخطوات الخمس من أجل حل الأزمة سلمياً ، بما في ذلك النظر في دعم قادة جدد في الكويت . قال بيكرينغ إنه لا يتذكر جيداً المحادثة . عاد فيتس من الغداء وأخبرني أن بيكرينغ قال إنه لا يتذكر جيداً المحادثة . وأنكر أنه قال أشياء كتبها فيتس . دعوت فيما بعد بيكرينغ للغداء . فهو صديق قديم ، وأقدر وأشرف من قابلت في واشنطن . وسألته : توم ، يجب أن تتذكر ما قلته لفيتس . أما أن تقول أن ذلك لم يحدث فهذا ليس أنت . فهل أنت تحت القسم بعدم إخبار أحد أي شيء؟ أجاب : كلا ، أنت على حق ، أجريت هذه المحادثة مع ديك . حسناً ، ثم كانت هنالك سياستان ، أليس كذلك؟ واحدة لصنع السلام مع صدام والأخرى لإطاحته . من كان وراء كل منهما؟ ولماذا نجحت واحدة منهما؟ قال : لم تكونا سياستين متعارضتين . كانتا سياستين بديلتين . لدينا واحدة للسلام وواحدة للحرب ، وجربناهما معاً في الوقت نفسه . قلت : توم ، قد يكون ذلك ما كنت تفكر به ، ولكن صدام لم يعرف أياً منهما في أي وقت . وهكذا لم يعرف ماذا يفعل . كل ما كنتم تفعلونه مشوش بالنسبة إليه . وهذه ليست سياسة .

تلقيت أثناء الحرب حديثاً هاتفياً من موظف في وزارة الخارجية الأمريكية . قال : لن تدعى الملكة نور إلى البيت الأبيض ثانية بعد أن ألقت خطاباً اعتقدت السيدة الأمريكية الأولى برباره بوش Barbara Bush أنه معاد للولايات المتحدة . أشارت نور إلى هذا في مذكراتها «Leap of Faith» بقولها : «سأستمر في الكلام بعد بدء الحرب حول النتائج الإنسانية للحرب ، ومعاناة الشعب العراقي التي أغضبت بوضوح السيدة بوش ، بحيث إنها بعثت برسالة عبر موظف أمريكي بأنها اعتبرتني خائنة . أتخيل أن القصد من الرسالة إيقافي عن الكلام حول المسائل المزعجة لإدارة بوش» .

وجدت نور أن هذا التحول في الأحداث محبط ، لأن برباره وجورج بوش كانا صديقين قديمين زارا الملك حسين ونور مراراً . وذكرت كيف أن بوش كنائب لرئيس الجمهورية لعب مع أولادنا في بركة السباحة في العقبة . كتب جورج بوش في نهاية رسالة عاطفية للملك حسين ، بعد إنتخابه رئيساً سنة ١٩٨٨ : (وعلى الصعيد الشخصي فإن برباره تبعث بمحبتها للملكة نور وجميع أفراد العائلة . إنني أثمن صداقتنا فعلاً) .

انطباعات وزير الدفاع الفرنسي بيير شفنمان عن العالم الإسلامي

جان بيير شفينمان Jean-Pierre Chevènement من قادة الحزب الاشتراكي الفرنسي ، تولى وزارة الدفاع الفرنسية أثناء الغزو العراقي للكويت ، خصص (٦٨) صفحة من مذكراته «فكرة معينة عن الجمهورية قادتني إلى Une Certain idée de la République m'amené à» الصادرة في باريس عن دار النشر Albin Michel سنة ١٩٩٢ ، والبالغ عدد صفحاتها ٣٠٩ صفحات .

يقول عن بداية علاقاته بالمشرق العربي : «كثيراً ما ترددت على الشرقين الأدنى والأوسط للتعرف على ما هو أخطر في لعبة المختصين والمتنبئين . ومنذ سنة ١٩٨٩ ، بدأت القومية العربية التي قدم لها الاتحاد السوفياتي دعمه أيام الكولونيل عبد الناصر تعرب عن قلقها من نتائج البيريسترويكا Perestroika التي أطلقها غورباتشيف Mikhail Gorbatchev ، ومن تأثيرها في توازن القوى في المنطقة . غير أن حدة الشمس واللامبالاة الممتزجة بمشاعر الخلود أعطت أولئك الذين قابلتهم من صحفيين وسياسيين في القاهرة أو في غيرها ، الوهم بأن الزمن قد توقف . لقد تجولت في العالم العربي الإسلامي منذ شبابي في الجزائر كوكيل ضابط في الجيش استدعي

للخدمة . وحالما وطئت قدماي الشاطئ الآخر من البحر المتوسط ، اعترفت بوجود شعب جزائري هو كان كذلك في نظر الجزائريين أنفسهم . الاندماج مع فرنسا قد يحقق رغباتي لو كانت تلك إرادتهم . إن استقلال أمة شقيقة ، ما دام ذلك اختيار الجزائريين بدا لي متفقاً مع مصالح فرنسا . آمنت ، منذ البداية بالفكرة الديجولية القائمة على التعاون . ولكن لم يكن بالإمكان العمل دون معرفة الآخر . ولهذا طبقت منذ تلك السنوات هذه القاعدة . كنت محباً للاطلاع ومعرفة كل بلاد الإسلام من مراكش إلى إندونيسيا . ولدت زوجتي في القاهرة . وقد ساعدتني على فهم أفضل لروح تلك البلاد . وزرت معها المغرب العربي وتركيا ومصر وأفغانستان والعراق وسوريا ولبنان . . كنت أحب دوماً السفر . . واكتشفت جاك بيرك Jacques Berque في بداية الستينات قبل أن أتعرف عليه شخصياً فيما بعد . وفضلت أولاً الكاتب الذي عرف تحريك روح الشرق عبر ثنايا لغة فرنسية كلاسيكية متكلفة ومتينة مثله .

ولما اتجهت إلى سفارة فرنسا في جاكرتا ، وجدت مكتبة استشراقية لم أنته من قراءتها . وهناك قابلت فنسان مونتوي Vincent Monteil ، الضابط السابق في لجنة فرنسا الحرة ، الذي كان يحمل ، كما يعتقد ، رأي الجنرال ديجول في أقدم جامعات إندونيسيا (بهاسا إندونيسيا) . قضيت سنتين في الجزائر هيجتا مشاعري ، فقد شعرت بالعنف في كل مكان ، وفي إندونيسيا غداة قمع الشيوعيين ، وفي مصر بعد انفصال السادات عن السوفيات الذي أعد خلال حرب أكتوبر سبل سلام تضمنه أمريكا ، وفي لبنان أو سوريا حيث اكتشفت ، بمؤشرات غير محسوسة ، الهاوية مفتوحة تحت الأقدام ، وفي أفغانستان ، حيث الأمير داود ومشهد البوزكاشيين لم يخف البؤس واحتقار الإنسان . . .

أخذت رحلاتي إلى الشرق طابعاً آخر لما دخلت الحكومة : في وزارة الصناعة أو التعليم الوطني أو الدفاع . كان من الواجب تجاوز حاجز الأعمال الرسمية . وقد فعلت ذلك ، كما أعتقد ، دون جهد كبير ، ولفعل هذا بصورة أفضل وجب علي الغوص في ليالي الزمن . ولم أكن قد اجتزت المناطق الزمنية وإنما القرون الزمنية في رحلتي إلى الشرق . أعدت ساعتي خمسة قرون إلى الخلف كما يجب ، ممضياً كثيراً من الوقت لإعداد خطب وردية مثل أغاني الملاحم من أجل الوصول إلى الغاية . بينما كان معاوني النشيطون منهمكين في الأجنحة الفخمة لإنضاج الأمور في الوقت المناسب .

كانت الكويت رحلتي الأولى كوزير للدفاع . . استقبلني الأمير جابر في أيلول ١٩٨٨ . كانت حرب الخليج الأولى قد انتهت قبل قليل . طلبت رؤية ثروات البلاد ، فزرت متجراً ضخماً (سوبرماركت) يحتوي على كل شيء حتى على الخبز الفرنسي . وكان عليّ أن أقابل الأمير جابر في باريس أثناء زيارته الرسمية في السنة التالية . كان الأمير جابر قلقاً على أمن الكويت ، ورغب في تزويده بصواريخ أرض-أرض بمدى متوسط . لم يكن ذلك متفقاً مع سياستنا . قلت له ذلك وبعثت إليه الجنرال سولنييه Saulnier رئيس هيئة الأركان السابق للجيوش الفرنسية ، لدراسة أمن الإمارة والاقتراح عليه شراء صواريخ جو-أرض . ولكن السلطات الكويتية بعد بعثات ثلاث متتالية في الأول من سنة ١٩٩٠ ، لم ترد على هذه المقترحات .

والواقع أن الكويت اختارت الطائرات الأمريكية ولم تتوجه نحو فرنسا ، كما يبدو ، إلا للحصول على التكميلات لهذه الطائرات التي رفض الكونغرس الأمريكي تزويدها بها . وزرت العربية السعودية وعمان والإمارات العربية المتحدة-ولا سيما الإمارتين الأكثر أهمية بينها : أبو ظبي ودبي - واليمن أخيراً . هذه الرحلات المنتظمة جعلتني أدخل أكثر في أسرار السياسة الشرق أوسطية ، والعلاقات المعقدة مع إيران ، الدولة المهيمنة في المنطقة ، وقد انهكت حربها مع العراق حماستها الدينية ، والبلبلة اللبنانية حول مصير الفلسطينيين ، والنزاعات المحتملة حول مسيرة العربية السعودية ، دون إثارة التهديد العراقي إطلاقاً ، مع أن ظله فاق غيره في مذكراتي ، ولكن دون أن تذكره شفاه أصحاب السمو .

كان الشيخ زايد رئيس اتحاد الإمارات ، وهو بدوي عجوز داهية . امتدح أمامي فرنسا وسياستها العادلة مقارنة مع السياسة الأمريكية ، رمز البربرية والظلم الذي ألحقته بالعرب . وقد جعلني الشيخ زايد ، حسب العادة العربية محلياً ، أنتظر طوال بعد الظهر ، واستقبلني على الساعة التاسعة مساءً بعد سباق للهجن . تكلم ثلاث ساعات ، بينما كان السفير الفرنسي الذي دعيت للعشاء في منزله مع المسؤولين الفرنسيين ينظرون إلى ساعاتهم بقلق وضجر . كان ذلك في كانون الأول ١٩٨٩ في العيد الوطني للإمارات . ولم يكن من المدعويين الرسميين الغربيين سوى اثنين أنا والجنرال شوارتزكوبف ، الذي قابلته بعد الغداء في الصحراء في رحلة صيد للصقور . تحدث إلي الشيخ محمد بن زايد الذي كسبت ثقته ، فيما بعد ، وقال عن صدام حسين : «هو رجل ذكي ولكنه لا يستطيع العيش إلا على شفا الهاوية» .

أما الأمير سلطان بن عبد العزيز العميد التاريخي لوزراء الدفاع ليس في العربية السعودية فحسب ، وإنما أيضاً في العالم كله ، تولى وزارته وعمره (٢٥) سنة ، وأطاح بأبطالنا القوميين مثل لوفوا Louvois الذي بلغت مدته (١٤) سنة ، وتلاه بيير مسمير Pierre Messmer الذي بلغت مدته (٩) سنوات . والأمير سلطان ، بطل بكل المعايير ، رجل معقول ، وكجميع وزراء الدفاع الذين عرفتهم ، يكره استعمال القوة إذا كان بالإمكان تحقيق الهدف بالوسائل السلمية . وأستثني في هذا المقام زميلي الانكلوساكسونيين (الأمريكي والبريطاني) اللذين قامت سياسة حكومتيهما تماماً على إظهار قوتهما العسكرية . يحب الأمير سلطان الحياة ولكنه لا يحب الشيوعيين . وفي يوم ما عند استقبالي له في باريس ، أجبت عن أحد أسئلته عن غورباتشيف بالقول : (هذه نهاية الشيوعية) . وقاطعني بحماسة قائلاً : (الشيوعيون الحقيقيون ليسوا في الاتحاد السوفياتي وإنما في إسرائيل) . وكان آخر مرة رأيته فيها في نهاية كانون الثاني ١٩٩٠ ، وذلك من أجل المصالحة معه بعد حادث كونسرت إدي ميتشل Eddy Mitchell ، ووجب علي إلغاء الغداء الذي قدمه لي . كان متفائلاً دوماً . قال لي : إن صدام حسين سوف ينسحب في الأسبوع التالي من الكويت ولم يخطئ إلا بشهر واحد .

سعيت في كل بلد إلى كسب ثقة زميلي في وزارة الدفاع أو مع وزير الخارجية . قدم لي عبد الكريم الارياني في صنعاء أفكاراً حادة بقوله : إذا كان لا بد في يوم ما من بيت مشترك في أوروبا فسيكون بيتاً ألمانياً . وقدم لي نصائح حكيمة قبل زيارتي لجيبوتي . فقد كان مهتماً باستقرار المنطقة ، وبخلافة حسن جوليد أكثر من اهتمام السلطات الفرنسية به .

وأقمت علاقات مودة مع وزير الدفاع صفوت جيراي في تركيا ، ومع رئيس هيئة أركان الجيوش الجنرال تورومتاي . وهو شخصية قوية في بلد عهد كمال أتاتورك إلى الجيش مهمة الحفاظ على ميراثه . وقد استقال كلاهما في خريف ١٩٩١ لأسباب مبدئية ، قبل أن تعير تركيا قواعدها العسكرية لسلاح الجو الأمريكي للإغارة على الأراضي العراقية .

بعد أن عرض بيير شفنمان انطباعاته عن العالم الإسلامي ، تناول زيارته للعراق والعلاقة الفرنسية-العراقية . يقول في هذا الصدد : «كان العراق البلد الأخير الذي زرته في نهاية كانون الثاني ١٩٩٠ ، بناء على طلب رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء الفرنسيين لحل الخلاف المالي بين الدولتين . كان على العراق دين بلغ (٢٥) مليار فرنك لم يدفعه . التقيت بصدام حسين لمدة ساعتين ، ورد رداً سياسياً على ملاحظاتي . كانت اهتماماته الحقيقية خارج هذا الموضوع : تطور سعر النفط ، والتطبيع السريع جداً لعلاقات الغرب مع إيران ، التي لم تزل روح الانتقام لديها قط ، وأخيراً انهيار الاتحاد السوفياتي ومخاطر العزلة التي سيواجهها العراق إذا لم يجد في أوروبا أو في اليابان شركاء جدداً . وتناول مسألة التوازن في تعاوننا من أجل إعادة بناء الاقتصاد العراقي ، والتعاون العسكري : أما الموارد المالية العراقية فكانت محدودة حتى تتم دفعات الأقساط حسب المطلوب .

بدا أن العراقيين يرغبون في تجنب هذا القيد الحديدي ، والذهاب إلى إثارة شراء النفط العراقي من قبل فرنسا على أرضه . وهذا بالنسبة إلى دولة أممت شركة نفط العراق قبل أقل من عشرين سنة يشهد على براغماتية عظيمة خلال كل المحادثة . أبدى صدام حسين اهتماماً دائماً وشعوراً حاداً بالنقاش ، مصراً على حاجات العراق التي كررها . وأعرب عن أمله في أن تلبيها فرنسا التي ، كما قال ، خصص لها معاملة متميزة بسبب سياستها المستقلة . ونصحنا في الوقت نفسه بتوثيق صلاتنا مع العربية السعودية التي اتجهت ، في نظره ، إلى الولايات المتحدة .

كانت لهجته ودية ، وفي لحظات معينة بمحبة زائدة . قال : وحدها فرنسا فهمتنا في مواجهتنا مع إيران ، لأن لها تجربة مع التعصب والحروب الدينية ، بينما قامت أمريكا ، التي لا تاريخ لها ولا ذاكرة ، بلعبة مزدوجة . بلدانا يفهم أحدهما الآخر لأنهما يستندان إلى آلاف السنين من التاريخ . ولم تشتد اللهجة إلا في نهاية الحديث : بعد أن أخذني جانباً مع المترجم . شكا صدام أن مبعوثه الخاص إلى باريس في الشهر الماضي ، سعدون حمادي ، لم يستقبل على المستوى الذي يستحقه لما رفض الروس فتح مركز ثقافي عراقي في موسكو ، قال لي إنه أغلق مركزهم الثقافي في بغداد . هل لم نبد أية مجاملة تجاه مبعوث الرئيس أو الحكومة الفرنسية؟ لقد ألغى النزول في القاهرة لمقابلة الرئيس مبارك لنصف يوم من أجل استقبالي» .

يعرض شفنمان تاريخ العلاقات العراقية-الفرنسية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ، حينما كان لفرنسا ٢٣,٧٥٪ من أسهم شركة النفط التركية التي أصبحت شركة نفط العراق . وقد أنشأت فرنسا سنة ١٩٢٦ الشركة الفرنسية للبترول (CEP) La Compagnie Française des Pétroles التي أصبحت اليوم تحمل اسم توتال Total . ولأن فرنسا اختلفت عن الانكلوساكسون ، بعد تأميم شركة نفط العراق سنة ١٩٧٢ ، برفض تطبيق الحظر على حمولات النفط العراقي ، تمتعت بمعاملة تفضيلية . وفي المقابل أقامت الحكومات الفرنسية في تلك الفترة تعاوناً عسكرياً ومدنياً مميزاً مع العراق . كان هذا التعاون مثالاً يحتذى . يقول شفنمان : «انطلق العراق في تقدمه ، فلم يشهد قطر عربي تعليماً وتحرراً للمرأة مماثلاً لما حصل في العراق . من المؤكد أن نظام الحكم لم يكن ديمقراطياً . ولكن بهذا المعيار ، كم عدد الدول الديمقراطية في المنطقة؟ وكم عدد الذي أصبح ديمقراطياً؟»

ويواصل حديثه : «جاءت الحرب العراقية-الإيرانية ، وتعرض صدام لثلاث محاولات اغتيال شيعية خمينية ، كما قال لي سفير سابق ، فكانت السبب المباشر لاندلاع الحرب . ومن المعروف ضم إيران للجزء العربي من أرض العراق (خوزستان) . أراد العراق فتح منفذ له على البحر ، فذهبت جهوده عبثاً . لم تر إمارات النفط في الخليج ، بعد حادثة مكة سنة ١٩٧٩ ، وما عاناه الغربيون من مسألة رهائن السفارة الأمريكية في طهران ، سبيلاً إلا دعم العراق الذي كان مضطراً للدفاع عن نفسه . ومضت ثماني سنوات من الحرب حتى قبلت إيران قرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨ الصادر سنة ١٩٨٧ . واستتب السلام بعد هذه الحرب الخليجية الأولى .

لم تتوقف المعونة الفرنسية للعراق طوال هذه الفترة . ورأينا طائرات سوبر إتندار Super-Etendard من البحرية الوطنية مسلحة بصواريخ اكزوسيت Exocet تعار للعراق في أكثر اللحظات حراجة في خريف ١٩٨٣ . وتوالت عقود البيع العسكرية الكبرى : ١٩٧٤و١٩٧٧و١٩٨٢و١٩٨٥و١٩٨٧ . ووقع (٢٨) ملحقاً لهذه العقود حتى كانون الثاني ١٩٨٨ وعلى هذا الأساس نفذت جميع الشحنات حتى ١٩٩٠/٨/٢ ، ومن الجدير بالذكر أنه لم يزود العراق بأي سلاح بالستي منذ سنة ١٩٨١ .

إن تحالفاً واقعياً حميماً مثل ذاك الذي وجد خلال ست عشرة سنة بين فرنسا والعراق ما كان بإمكانه أن ينمو إلا باعتبارات تجارية ، وبقليل من الرؤية السياسية . يبقى أيضاً بالنسبة إليّ موضوع فضيحة ، وهو فكرة العلاقات الدولية التي تتفق

والدور الذي اخترته لفرنسا . وأنا أكتب ذلك بكثير من الشفافية بأنه لا توجد اتفاقيات فرنسية-عراقية لم يظهر عليها توقيعي .

فترت العلاقة الفرنسية-العراقية منذ نهاية الحرب العراقية-الإيرانية سنة ١٩٨٨ ، مع إعادة النظر في علاقاتنا مع إيران ، ومع الخلاف المالي الذي تضخم كثيراً بين البلدين . كان سفيرنا السيد كوراج Courage الذي له من اسمه نصيب ، قد عمل عكس التيار حتى سنة ١٩٩٠ ، من أجل إثراء العلاقات الفرنسية-العراقية . ودافعت ، بعد زيارتي لبغداد في كانون الثاني ١٩٩٠ ، من أجل أن تمارس فرنسا مزيداً من النفوذ الذي يعطيها اتساعاً وقدماً في علاقاتنا مع العراق ، ومنذ ما قبل غزو الكويت كان هناك كما يقال بالفرنسية «ماء في الغاز» في باريس .

ولا بد من العودة إلى قلب المنطقة حيث يوجد النفط . هناك حيث يوجد النفط ، الإنسان نادر ، إذا استثنينا إيران والعراق على مستوى أقل . ليس من قبيل الصدفة أن يتم تقسيم الحدود بمعرفة جيدة . فشبه الجزيرة العربية ، على مدى المسافات الشاسعة قليلة السكان . ويؤلف الأجانب فيها أكثرية السكان ، وكلهم يعملون فيها . وحامي الحرمين الشريفين الذي رأيته لأول مرة في المدينة المنورة في قصر غريب يقع على قمة جبل يمكن الوصول إليه بطريق مروحي الشكل مقطوع في الصخر ، يجب أن يتحاشى منطقتين مسكونتين بالناس : في الشمال الهلال الخصيب ، وفي الجنوب اليمن ، وفي الشرق إيران التي تشكل تهديداً له أخطر من إسرائيل بكثير . ويحيط بشبه الجزيرة شريان دائري يحدد النهايات النفطية في قلب الخليج وقناة السويس ، مروراً بخليج هرمز وباب المندب . في هرمز واصلت بريطانيا دورها في الرقابة . فالضباط البريطانيون على عتبة الصخور القمرية وضعوا راداراتهم الموجهة نحو بندر عباس . وعلى باب المندب تقوم طائرات الميراج الفرنسية بحراسة اليمن ، بجبالها المقطعة إلى مصاطب ، من خلال عمل متواصل عبر آلاف السنين ، وإثيوبيا والصومال البلد الذي تختلط فيه القوة بالتمرد .

لا يوجد في المنطقة سوى ثلاث قوى كبرى سكانياً قريبة من (٦٠) مليون نسمة كل منها : واحدة منها فقط عربية هي مصر ، وواحدة منها فيها نفط هي إيران ، والدولتان الأخريان مصر وتركيا لا تملكان سوى الديون ، ومع ذلك لهما ثقلهما في المنطقة ، ويحظيان بمساعدة واشنطن .

قابلت الرئيس مبارك لأول مرة سنة ١٩٨٢ . ولاحظت آنذاك السخط العميق

الذي يشعر به تجاه الإمارات النفطية التي تموله خوفاً ومن أجل دفع رسوم الشبكات والأنظمة الإرهابية ، كما قالي لي . حدث الانقلاب الكبير في الثروة في الخليج منذ سنة ١٩٧٣ . وقد شعرت شعوب البحر المتوسط بظلم تاريخي باعتبارها مهد حضارتنا . الخمسة والخمسون مليون مصري اللطفاء المتدينون والمتسولون والمتغطرسون في الوقت نفسه يتركزون على أرض واسعة كبلجيكا ، ويعزيهم أنهم ليسوا هناك كما كانوا سابقاً في قلب العالم العربي ، ولكنهم يحيطون بالأمراء القادمين للتسلية على ضفاف النيل ، مثلما يحيطون بالإخوة العراقيين . لما حاول القذافي الوساطة من أجل حل عربي للأزمة العراقية-الكويتية بعث إليه مبارك فجأة شخصاً يسأله : لماذا لم يجد من الطبيعي أن تقوم مصر بضم ليبيا ونفطها انطلاقاً من المبدأ نفسه؟ وقد سألت الأمراء حول أسلوبهم في مشاركة أو عدم مشاركة مصر في السلة النفطية . ولما اقترحت على هؤلاء الأمراء الأثرياء يوماً مشروعاً ثلاثي الأبعاد : تكنولوجيا فرنسية ومال عربي ومصانع مصرية ، لم أتلق رداً واحداً إلا صخباً من الضحك . وقيل لي يومها : ولكن هذه المصانع لن تكون عندنا .

أما تركيا فترى نفسها جزءاً من أوروبا . ولكن أوروبا لا تريدها أن تكون منها . يفكر تورغوت أوزال أن باستطاعتها يوماً أن تقوم بدور الشرطي في هذه المنطقة الاستراتيجية جداً ، لحساب أوروبا ، مجدداً تقليد الباب العالي . هذا ما بدا لي مفتاح العودة إلى سياسة الحياد وحسن الجوار الممارس منذ عهد كمال أتاتورك . كيف نفهم بخلاف ذلك استعمال قاعدة أنجرليك من قبل سلاح الجو الأمريكي ، من أجل الهجوم على العراق ، ولا سيما الإصرار التركي على جلب طائرات ألفاجت Alphajet الألمانية باسم التضامن الأطلسي؟ لم يتخيل تورغوت أوزال أن الحرب ستعيد فتح المسألة الكردية ، هذا الجرح المفتوح في خاصرة تركيا .

هذا هو الديكور في المنطقة : طغاة أثرياء ، وعبيد عصريون مستوردون من آسيا ، ومتسولون ومرتزقة ومهربون وقصور فخمة انبثقت في الصحراء .

كلمة أخرى حول مبيعات الأسلحة : للمنطقة دوماً مشكلة أمنية ، والسبب مبيعات الأسلحة التي تضمن إعادة تدوير البترودولارات لصالح أمريكا ، ولعدد من أسر الأمراء نمط من الحياة تستحقه ، بفضل نظام عمولة خاص وحصين .

أما الفعالية العسكرية لهذه الأسلحة فمسألة مختلفة . لم تبرهن حرب الخليج (غزو الكويت) عن فائدة هذه المشتريات الباهظة الثمن . فلا الأسلحة العراقية ولا

الأسلحة السعودية هي التي تقرر الأمور ، وإنما الغرب هو المسؤول عن إضعاف قيمة رأس المال أو إتلافه . هكذا كان يسير الناس في الشرق ، أو هكذا كان يمشي الشرق الهوينا حتى غزو الكويت .

العلاقة بين العرب والغرب

يتناول بيير شفنمان في مذكراته العلاقة بين العرب والغرب ، ويقول : « لم تضع الجيوش الغربية أقدامها هناك منذ مغادرة القوات الفرنسية والبريطانية غداة الحرب العالمية الثانية ، إذا استثنينا حملة السويس الحمقاء وإنزال القوة المتعددة الجنسيات في لبنان سنة ١٩٨٤ . سار التوازن منذئذ على وقع الهزات الحربية والنفطية .

بقي المشرق العربي متأرجحاً منذ محمد علي بين محاولات التحديث والانكفاء على القيم الإسلامية ، وأسيئت معاملته من الغرب . وقد أوجد التدهور العربي والهيمنة التركية ثم الاستعمار الفرنسي والبريطاني منذ قرن تخلفاً غدا جريمة . وأصبح من المغري أن لا نفسر فشل العرب إلا بغياب الديمقراطية ، وبالشمولية الدينية ، ووضع المرأة المتردي ، والعجز عن العمل . وفي كل مرة رغب العرب فيها تجاوز تخلفهم ، أو إنجاز وحدتهم ، وجدوا الغرب في طريقهم من أجل الإطباق عليهم ، كما جرى في أعقاب الحرب العالمية الأولى في الحدود المصطنعة التي خلقوها أو في إلقائهم في الماضي بقوة السلاح . لم ير الغرب في العالم العربي إلا ممراً-طريقاً إلى الهند- ثم عملاً شاقاً- والمسألة الشرقية في عصر (الرجل المريض في أوروبا) وأخيراً النفط والخزانة الفولاذية .

وإذا استثنينا بعض المختصين ، فإن رؤية الدوائر الرسمية الغربية بدت لي دوماً رؤية خالية من الإنسانية وقصيرة النظر . وأخذت أسطورة لا معقولية الشرق طريقها إلى الانتشار . كانت هذه المنطقة الواقعة تحت الهيمنة الغربية تفتقر إلى العدالة ؛ إذ لم تتورع الدول الكبرى عن تطبيق مبدأ (فرق تسد) على أنقاض الدولة العثمانية . منذ اتفاقية سايكس بيكو حتى اقتسام مناطق النفوذ أولاً بين فرنسا وانكلترا ، ثم بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، والحدود المصطنعة ، والاستقلالات الزائفة ، وضياع فلسطين ، وتجزئة لبنان : عهد العنف البذيء ، كل هذه مشاكل حدثت في ظل لا مبالاة المجتمع الدولي ، وترك مصير المنطقة لآلهة ولدوا فيها .

الموضة السائدة في الغرب اليوم هي ترك العرب على نذالتهم . إنهم يشكون من

الإهانة . ولا يستطيعون سوى إلقاء المسؤولية على تأخرهم الطبيعي ، وعلى رفضهم لكل تحديث يعني العلمانية ، ووضع المرأة أو قيم العمل . وينسى الغرب أنه كلما تظاهر نظام عربي أو مسلم بالانفتاح على الحداثة كان الغرب نفسه يسد الطريق أمامه أو يقطع أوصاله . بالأمس محمد علي وخديوات مصر أو السلاطين المجددون ، وقريباً عبد الناصر . لن أثير موضوع مصدق في إيران . منذ عهد الجنرال ديجول ، ادعت فرنسا أنها تصغي لصوت تفتقر إليه حقاً : هو صوت الدخول إلى الحداثة في إطار العدالة والحق . وبعد انهيار الكتلة السوفياتية الذي أخل بتوازن القوى القائم ، هل ما زالت تحبذ هذه المقاربة؟ لن يكون هذا سوى دور أوروبا على حساب بعض التوترات مع الولايات المتحدة . لن تبقى نهاية الامبراطورية السوفياتية دون نتائج في الشرق الأوسط . كل أنظمة الحكم المسماة خطأ أو صحيحاً (تقدمية) اعتمدت على الاتحاد السوفياتي من عبد الناصر إلى صدام حسين ، مروراً ببومدين وحافظ الأسد وعلي صالح في اليمن وبالطبع ياسر عرفات . بينما ساندت أمريكا الأنظمة المسماة (معتدلة) ، وأولها العروش في المغرب والعربية السعودية . وقامت فرنسا بدور هامشي ، ساعية إلى إسماع خلافها في العالم العربي ، أحياناً بصراحة كما كان الحال في عهد الجنرال ديجول ، وأحياناً أخرى على أنغام الناي .

ولنلاحظ تبدل التحالفات في سنتي ١٩٧٢و ١٩٧٣ ، فقد انحازت مصر إلى المعسكر الأمريكي . وفي سنة ١٩٩٠ انحازت سوريا إلى المعسكر الأمريكي . وبالعكس اختارت إيران سنة ١٩٧٩ الانسحاب قبل أن تعود تدريجياً إلى الصف . مع انهيار الكتلة السوفياتية وجدت الأنظمة التقدمية نفسها أمام خيار بسيط : إما التحالف بدهاء مع أمريكا مثل سوريا أو الهزيمة إلى الأمام . هذا ما فعله العراق اعتقاداً منه أنه أخذ ضمانات . كان ذلك تقليلاً من قيمة الحقد والتصميم الانكلوساكسوني المدفوع سنة ١٩٥٨ وسنة ١٩٧٢ عندما أمم بعث العراق شركة النفط العراقية .

من المؤكد أن صدام حسين لم يسع إلا إلى قيادة إقليمية في الخليج أكثر منه في الشرق الأدنى ، لم يأمل في النهاية أكثر من التوصل إلى اتفاق مع الولايات المتحدة . لم تكن فلسطين أولى اهتماماته . من المؤكد أن إسرائيل رأت في وصول مئات الألوف من اليهود السوفيات الوسيلة لقلب التوازن السكاني في فلسطين . أتذكر أنه في سنة ١٩٨٦ حين ذهبت لافتتاح معهد الاليانس الفرنسي Alliance Francaise في القدس ، قال لي شيمون بيريس إنه سيكون في أرض إسرائيل الكبرى في عام

٢٠٠٠ عرب أكثر من اليهود . . .

هل ترجم انهيار الكتلة السوفياتية في الشرق الأوسط بامتداد للسلام الأمريكي؟ في النصف الأول من سنة ١٩٩٠ أوقفت الولايات المتحدة مفاوضاتها مع منظمة التحرير الفلسطينية . ووضع العراق نفسه في عزلة خطيرة . فصدام حسين بتصريحاته الاستفزازية جمع العواصف فوق رأسه . ونشأت هوة داخل العالم العربي بين مجلس التعاون العربي الذي يضم العراق والأردن واليمن ومصر ، والأنظمة المعتدلة الدائرة في الفلك الأمريكي بقيادة العربية السعودية وتضم دول مجلس التعاون الخليجي . واندمجت سوريا بعد موافقة الجامعة العربية على اتفاق الطائف حول مستقبل لبنان ، بمهارة في اللعبة ، على الرغم من التحدي الذي أطلقه الجنرال عون . وأحدثت الانتفاضة الفلسطينية صخباً منذ ثلاث سنوات . ولم يظهر أي حل لنزاعات المنطقة . وتغلب التطرف في كل مكان . وبدت أبواب المستقبل مغلقة والحدس بالحرب قد طاف . هذه هي اللحظة التي اختار فيها صدام حسين تعديل الميزان الحرج غير المستقر في المنطقة بغزو الكويت» .

في حديثه عن غزو العراق للكويت ، يصر شفنمان على قول رأيه فيها بصراحة ، وعلى إزالة الجانب المعتم من أحداثها أو إلقاء الضوء عليه ، دون أن يسعى إلى الإساءة إلى رئيس الجمهورية الفرنسية فرانسوا ميتران رفيق دربه في النضال داخل الحزب الاشتراكي الفرنسي طوال خمس وعشرين سنة . وهو يبرز في مذكراته خلافه مع الرئيس ميتران وينشر ثلاث رسائل وجهها إليه أثناء توليه وزارة الدفاع تهم الجمهور الفرنسي وقراء هذه المذكرات .

يصف شفنمان حالته النفسية في بداية الأزمة العراقية-الكويتية ، من خلال المؤتمر الصحفي الذي عقده في «معهد الدراسات العليا للدفاع الوطني Institut des Hautes Etudes de la Défense National» في ١٩٩٠/٥/١٨ الذي قال فيه : «في الشرقين الأدنى والأوسط مشكلات كثيرة تركت منذ زمن طويل دون حل – وأقصد المشكلة الإسرائيلية – الفلسطينية ، وهي تخاطر بتغذية تصاعد الأصولية المتطرفة . بين إسرائيل والعراق سباق على التسلح بالأسلحة التقليدية وغير التقليدية ، قد يصل إلى توازن الرعب . ونحن لا نستطيع التظاهر بتجاهل أن العديد من هذه الدول في هذا الجنوب المضطرب من المحتمل ان تمتلك في السنوات القادمة أسلحة نووية وحتى بدائية» .

وصرح شفنمان لصحيفة لوموند Le Monde الباريسية في ١٣/٧/١٩٩٠ ما يلي : «بالإضافة إلى التهديدات العسكرية المباشرة ، يجب علينا أن نكون واعين لاختلال التوازنات في عالمنا الكبير لمنعها ، ما دام لدينا الوقت لذلك . فلننظر إلى الجنوب : كيف لا نصدم بالاختلالات الهائلة التي تتجمع في الأفق؟ يجب أن لا يقودنا هذا إلى معالجة علاقاتنا مع الجنوب عبر الرأي المشوه للمسائل العسكرية . فالأسلوب الذي سنشرك به هذه البلدان في تنمية سوق أوروبية كبرى ، سيكون حاسماً في السنوات القادمة . وهو استمرار لنموذج التقدم عندهم وعندنا ، يتعارض مع الإغواء في التراجع المظلم . إن فشل التنمية والبؤس والإحباطات بإمكانها أن تؤدي ببعض البلدان إلى تراجع أصولي ، الذي بسبب ما يبعثه من خيبة أمل حتمية ، قد يوجد عبر البحر المتوسط هزات أخشى منها أن تهدد التوازن القائم في المجتمع الفرنسي ونعجز عن مقاومتها . هناك لغم يجب أن نعرف كيف نفككه مع الزمن . ومن هنا تبرز الحاجة الملحة لمبادرة متوسطية كبيرة اقتصادية ، وسياسية ، بحيث تنظم تعاوناً تنموياً حقيقياً ، تحول دون الشرخ الكبير في المجابهة في المستقبل» . بعد ذلك بثلاثة أسابيع غزت القوات العراقية الكويت في ٢/٨/١٩٩٠ .

شفنمان يعارض سياسة الرئيس ميتران

يقول بيير شفنمان في مذكراته إن اجتماعاً قد عقد لمجلس الوزراء الفرنسي المصغر في ٩ آب ، أي بعد غزو العراق للكويت بسبعة أيام ، والمعلومات التي تجمعت لدي أن الأمريكيين عازمون على تمزيق العراق ، وربما حتى المساهمة في إيقاعه في الشرك . أستطيع أن ألخص حجتي التي اعتمدتها في هذه الجلسة كما يلي : خرق القانون الدولي له خصائصه ، وفرنسا لا تستطيع التخلي عن الجوهر السياسي والإيديولوجي للنزاع : تحالف تام وبسيط بين الولايات المتحدة وإسرائيل يهدد علاقاتنا مع العالم العربي ، حيث مصالحنا التاريخية ضخمة جداً . طريق المجابهة المباشرة قد تورطنا في لعبة نخسر فيها كل الضربات : سواء ربح صدام أو ربح الأصوليون من هزيمته . وسعر النفط في عالم ما بعد الحرب الباردة غدا عاملاً متغيراً أساسياً في التنافس الدولي . هذه مسألة مهمة مالياً ، لأنها أصل الأزمة : صدام حسين بحاجة للعائدات النفطية لإعادة بناء العراق وتحديثه . ومشكلة دين الكويت على العراق ليست سوى جانب من المسألة . الحزم والتضامن يجب أن يوجها سياستنا ، ولكن

يجب علينا إيجاد حل سياسي في إطار عربي ، وتجنب الدخول في التزام آلي بقواتنا ، بأي ثمن ، لأن أهدافنا السياسية تختلف عن أهداف الولايات المتحدة وإسرائيل» .

وكان الرئيس ميتران قد أخذ قراراً بإرسال البارجة الحربية كليمنصو Clenemceau حاملة الطائرات العامودية كمساهمة في الرد على فرضية هجوم بري عراقي على العربية السعودية . لم يفكر شفنمان بذلك . ولكن الملحق الدفاعي الأمريكي في السفارة الأمريكية في باريس هو الذي قال إن هجوماً كهذا كان محتملاً في الأسبوع التالي لغزو الكويت . والواقع أنه منذ اليوم الأول للغزو العراقي للكويت «عبّر الرئيس ميتران عن موقف لم يدع مجالاً للنقاش إذ قال : لن تكون فرنسا محايدة . لا يمكن أن تكون لنا سياستان في آن معاً . وإذا كان لا بد من ذلك ، فعلى فرنسا أن تعلن الحرب على صدام مهما كانت المضايقات . والرأي العام لا يقبل بخطوة فاترة وغير مؤكدة» . يقول شفنمان : «من هذا التصميم الأولي انبثقت سياسة فرنسا نحو النزاع . أما في نظري فلا شك أن هذا النزاع مناسبة كبرى ، من الناحية التاريخية ، للسيطرة على الرأي العام طوال مدة الأزمة والحرب . . . هذا الانقلاب في سياستنا بدا لي من القسوة جداً الحفاظ عليه ، إذا كان المشهد ، كما كنت آمل لا بد أن ينكشف .

منذ بداية آب تحركت الأجهزة التي مهمتها وضع فرضية أن الولايات المتحدة قد قررت فقء (دملة صدام حسين) بسبب الخطر المتطور الكبير الذي يمثله نظام الحكم العراقي على استقرار الشرق الأوسط وعلى سوق النفط وأمن إسرائيل . وحسب المصادر نفسها ، لم يكن مستبعداً أن تكون الولايات المتحدة قد حرضت صدام حسين على (تجاوز الخط الأحمر) . واستناداً إلى هذه الفرضية ، فإن الحملة المكثفة على العراق التي شنت منذ بضعة أشهر ضد (هتلر الصغير) : مسألة المدفع العملاق ثم الصاعقات النووية ، واستفزاز الكويتيين في المحادثات الثنائية ، وتحول ردود الفعل الأمريكية بعد الغزو .

هنالك عاملان ساهما في إيجاد مخرج عنيف للأزمة هما :

- إرادة الولايات المتحدة في المرور بأقصر الطرق إلى الأمم المتحدة بإنشاء قوة متعددة الجنسيات تحت قيادتها .

- التفاهم مع العربية السعودية لنشر قوات أمريكية على أرضها . وهو تفاهم ما كان بالإمكان تحقيقه إلا على أساس مشروع القضاء على نظام الحكم العراقي .

ولعدم وجود أسانيد من المعلومات الحقيقية ، فإن هذه الحجج لا تبدو لي غير ملائمة . وبعد اثني عشر يوماً ، وقع في يدي تقرير يستنتج : أن الحرب هي عملياً المخرج الوحيد للنزاع ، كما هو متوقع . وانتشرت معلومات بعد الحرب تقول : سيكون الأردن أرض الفلسطينيين . وحدود إسرائيل هل ستقف على ضفاف نهر الأردن؟ والهيمنة السورية ستكون في شمالي لبنان والمنطقة الأمنية لإسرائيل في جنوبه .

المنتصرون الكبار في هذه الفرضية هم : إيران التي زادت من عائداتها النفطية وساهمت في تقسيم العالم العربي ، وسوريا التي أصبحت زعيمة العالم العربي ، وإسرائيل التي ستزيل في سنوات معينة كل الأخطار التي تهددها من دولة عسكرية إقليمية واحدة قادرة على إثارة قلقها ، وتستريح داخل حدودها ، وطرد السكان الفلسطينيين خارجها . ومن هذه الحسابات المتداولة بين الدوائر الرسمية والأجهزة السرية الغربية ، سيطرة فكرة البيئة . . فوزارة الخارجية الفرنسية لمّحت الطريقة التي سيسوى بها النزاع مع العراق ، بحيث يغدو أنموذجاً يقتدى في أزمات مماثلة» .

يقول شفنمان لم يحتفظ مجلس الوزراء الفرنسي المصغر بالسرية ، فقد أثارت الصحيفة الفرنسية Le Canard Enchainé ومجلتها الشهرية Globe منذ الأيام الأولى شهر آب ١٩٩٠ مشكلة شفنمان في مجلس الوزراء ، وغذت حملة المعادين له . وتعرض لهجمات اليمين الأطلسي والمتطرفين من مؤيدي إسرائيل الكبرى ، وتخلى عنه أصدقاؤه ، فوجد نفسه معزولاً .

في ٢١ آب ، في ختام مؤتمر صحفي في منظمة الاتحاد الأوروبي UEO ، فقد شفنمان الثقة في أجهزة الدولة . فقد أكد أنه حتى ينجح الحظر المفروض على العراق ، يجب أن لا يتخلله هجوم قبل أوانه . ولكن وكالة الصحافة الفرنسية نقلته كخبر وليس كموقف رسمي دون ذكر اسمه ، وإنما قالت عنه «مسؤول حكومي رفيع المستوى طلب عدم ذكر اسمه» . وعقد بعد ظهر اليوم نفسه اجتماع لمجلس الوزراء المصغر برئاسة رئيس الجمهورية ، الذي أعرب عن أسفه لإعطاء الانطباع بالتردد بين الحظر والحصار . وقال : «لقد قطعت مسألة الرهائن بصورة نهائية الجسور بين فرنسا والعراق ، جاعلة من الأصدقاء القدامى أعداء لدودين . لا نستطيع القبول بالاستهزاء بالقانون الدولي ، خاصة في هذه المنطقة حيث تتركز مخاطر حرب مقبلة . وتقدمت مرة أخرى بالقول : لم تجر محاولة أي تفاوض حقيقي ، إن حرباً على العراق تبدو لي نزاعاً بين الشمال والجنوب ، وستكون عامل عدم استقرار للعالم العربي-الإسلامي

واستشهدت بقول سون-تزو Sun-Tzo : إذا أردت من خصمك أن لا يؤذيك كثيراً ، اترك جسراً مفتوحاً خلفه . وأصررت على فعالية الحظر المفروض على العراق وفعاليته المؤكدة : ليس لدى العراق سوى تسع سفن حمولتها تزيد على مئة ألف طن لتصدير النفط . وذهبت حتى إلى اقتراح مبادرة من فرنسا ، في إطار الأمم المتحدة مدعومة من السوفيات ، لإيجاد مخرج دبلوماسي للنزاع .

لم أتوهم قط في الاعتماد على الدعم الأوروبي . فالأوروبيون لم يكونوا متحمسين للحرب ، ولكن وزراء منظمة الاتحاد الأوروبي الذين تلقوا جميعاً ليلة أمس كتابا من زميلهم الأمريكي ديك تشيني Dick Cheney مبيناً لهم أولويات التشدد : وسائل النقل وكاسحات الألغام ، امتثلوا دون أية صعوبة للطلب الأمريكي . من المؤكد أن ألمانيا سوف تختبئ خلف دستورها . وتقدم وزير خارجيتها هانز دتيريش غينشر Hans Dietrich Genscher بطلب إحالة صدام حسين إلى محكمة نورمبرغ جديدة . وكانت الدول اللاتينية الأقل سرعة في ارتقاء المرمى . وقد خفف نفوذ البابا من حماستهم . وإذا اتخذت فرنسا موقفاً سريعاً بحل تفاوضي فسوف تتبعها هذه الدول بفتور همة .

يبدو لي أن الضغط الفرنسي-السوفياتي وحده باستطاعته أن يجعل العراق يتراجع قبل أن يغلق الأمريكيون الطريق إلى التفاوض . لو أن فرنسا أخذت المبادرة بالتعاون مع الاتحاد السوفياتي والصين على موقف معقول ، والحفاظ على موقف دفاعي للقوات العسكرية التي سوف تنتشر في المنطقة ، لاستطاعت ، في نظري ، أن تقوم بدور الوساطة لخدمة السلام الذي ستجني منه فوائد جمة . ولكني تقدمت كثيراً . ذلك أن الخبر الذي نقلته وكالة الصحافة الفرنسية قد جعل حجتي معروفة وكذلك معارضتي للحرب وللحظر .

سألني رئيس الجمهورية في اليوم التالي (٢٢ آب) إذا كنت مستعداً لتغيير موقعي في الحكومة . لم أفاجئه بقولي : لا مجال لهذا الأمر ، عضو في الحكومة ، مهما كانت ميوله ، هو بالتحديد متضامن مع سياستها حول مسألة بهذه الأهمية . وأضفت : إن وزير الدفاع ، في نظري ، هو كلياً بين يدي رئيس الجمهورية . وأنا سأتفهم جيداً جداً أن يعين خليفة لي . وفي اليوم نفسه قدم لي ميشيل روكار Michel Rocard ، رئيس الوزراء وزارة التجهيزات . ولكني بقيت وزيراً للدفاع .

اعتمدت على الرأي العام وعلى الدبلوماسية في محاولتي عكس مجرى الأمور .

كانت اللعبة شاقة . أعلنت إذاعة إسرائيل في ٢٣ آب عزلي من منصبي . وفي اليوم نفسه تجرأت صحيفة لوموند بقلم ل . غريلسامر L. Greilsamer بالايحاء بأن «مركز الدراسات والبحوث والتربية الاشتراكية de recherches et d ، Centre d Etudes Education Sociale (CERES) الذي أسسه بيير شفنمان والآن غوميز Alain Gomez وديديه موتشان Didier Motchane سنة ١٩٦٦ كتيب في الحزب الاشتراكي الفرنسي ، أفاد من عوائد معينة للتوابل من طرف بغداد (وهذا اتهام صريح بالرشوة من العراق) ما العمل في حالة كهذه؟ ومنذ ٢٤ آب أشرت إلى صحيفة L'Est républicain ، أنا في وضع جيد كوزير للدفاع من أجل تقدير أضرار حرب بتقنية عالية ومدمرة بصورة مرعبة ، ومن حظر فعال ربما يمكن تجنبه لدفع العراق إلى الرجوع عن غيه . وقد أوضحت سياستنا العربية كما يلي : كل سياسي فرنسي عليه أن يحدد موقفه بالنسبة إلى مصلحة فرنسا قبل كل شيء . فالصداقة والتعاون مع العالم العربي من المغرب إلى الخليج الفارسي تلبيان المصلحة القومية . هكذا كانت سياسة جميع حكوماتنا بعد دراما تصفية الاستعمار . والحفاظ على حيوية هذه العلاقة ، هو الآن في ساعة إعادة توحيد ألمانيا ، الفرصة الوحيدة للحفاظ على بلادنا في المستقبل كدولة كبرى أوروبية وعالمية . وأخيراً أقول لمنتقدي : إن شرف المنصب التي أشغله هو خدمة بلادي ، بمقاومة جماعات الضغط Lobies كواجب . صدقوني : أقول هذا بروح رياضية» .

الهجوم على وزير الدفاع الفرنسي

واصلت الأوساط اليمينية واليهودية الصهيونية في فرنسا هجومها على بيير شفنمان ، وزير الدفاع في حكومة ميشيل روكار . واستغلت كل مناسبة وكل موقع احتله الوزير الفرنسي لتشويه سمعته واغتيال شخصيته ، بسبب دعوته إلى حل عربي سلمي لإخراج العراقيين من الكويت ، ومعارضته لسياسة رئيس الجمهورية فرانسوا ميتران المعروف بتعاطفه مع إسرائيل منذ عقود من الزمن ، في استجابته للمطالب الأمريكية وتبني وجهة النظر الأمريكية ، بضرورة إخراج العراقيين من الكويت بقوة السلاح .

يقول شفنمان في مذكراته : «جمعية الصداقة الفرنسية-العراقية التي يرئسها الأستاذ المستعرب جاك بيرك Jacques Berque انضممت إليها سنة ١٩٨٤ ، لأنني

شعرت بغلبة الجانب التجاري المبالغ فيه في العلاقة القائمة بين فرنسا والعراق منذ عشر سنوات ، وبضرورة إعطائها فحوى سياسية وثقافية . وكانت عضويتي في الجمعية موضوعاً مناسباً لمنتقدي لتوجيه سهام هجومهم علي . ومع أنني لم أحضر اجتماعات هذه الجمعية فقد غدوت في نظرهم الرئيس المؤسس لها .

لقد رددت الهجوم عليّ بهجوم مضاد طوال شهر أيلول ١٩٩٠ . وأجبت عن سؤال الصحفي جان بيير الكبّاش Jean-Pierre Elkabbach في ٤ أيلول حول أهداف الحرب : هل هو الانسحاب من الكويت أم التدمير المحتمل للعراق؟ وأكدت في الصحيفة الأسبوعية Paris Socialiste في ١٤ أيلول على أهمية فكرة التوازن الإقليمي بين العراق (١٧ مليون نسمة) وإيران وتركيا ومصر (٥٥ مليون نسمة لكل منهما) . لقد طوّرت ، كما فعلت قبل الحرب ، نظرية الاستراتيجية غير المباشرة التي تقول لا يمكن الحفاظ على التوازن إلا بأسلوب غير مباشر ، واستعمال القوة يجب دوماً معايرته عملياً بتحليل سياسي يأخذ في الحسبان مجمل العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدبلوماسية والعسكرية .

ودافعت في مجلة Le Nouvel Observateur الصادرة في ١٣ أيلول عن فعالية الحظر : المهم الاعتماد على الوقت دون تركه يتدافع . والحجج الجيدة موجودة : إن الحصار الجغرافي للعراق واعتماده على ٩٨٪ من عائداته النفطية سوف يجبرانه على الإذعان . فالمجتمع الدولي لم يشن حرباً على روديسيا وبولندا وجنوب أفريقيا ، الاستراتيجية غير المباشرة خدمت الديمقراطية بصورة أفضل .

وقد ضاعفت هذه المقالات من غضب منتقدي وسخطهم . وطغى طوفان من القرف . وكان عليّ أن أشكل جبهة خلال أسابيع ، لدفع تلاطم النذالات . وبدأت أدرك معنى التعبير (الإعدام بلا حكم وسيط) . وجاء الضوء الساطع ليجلو لي لمرة واحدة طبيعة بشرية معينة وعمل الإعلام . كانت هذه الخساسة دافعاً رئيسياً لي بأن لا أستقيل من الحكومة مع أن مؤشرات التضامن معي لم تكن ذات بال .

في ١٤ أيلول ، علمت ، وأنا في الطائرة التي نقلتني إلى جدة ، عقد اجتماع لمجلس الوزراء المصغر في اليوم التالي والقرار الذي سيصدر عنه : إرسال لواء من القوات البرية إلى العربية السعودية . كانت طيارتي فوق جزيرة كريت . وكان رئيس أركان الجيوش الفرنسية الجنرال موريس شميت Maurice Schmitt بصحبتي . كان عليّ أن أقابل الملك فهد ، وكان عليه أن يقابل القائد الأمريكي نورمان شوارتزكوبف ،

وبعد نصف ساعة من التفكير قررت مواصلة الطريق .

سألت الرئيس ميتران الذي حادثته صباح اليوم التالي بهاتف محمي إذا كان قد قدّر جيداً ماذا يعني قرار كهذا ، وفي أي ظروف قد يضعنا . كان جوابه واضحاً ؛ إذ أكد لي بأنه لا يحقق شيئاً عشية التقهقر . في مساومة طويلة مع فرانسوا ميتران تعلمت الاعتراف باللحظات التي أستطيع فيها زنة الأمور . وهذه لم تكن من هذه اللحظات .

استقبلت في اليوم التالي من قبل الملك فهد ، الذي لم أقاطعه طوال حديثه الذي دام تسعين دقيقة . طلبت منه الحصول على قاعدة جوية خاصة تنطلق منها طائرتنا للقيام بمهامها وهي مساندة قواتنا البرية . قبل الملك طلبي وكان على عجل لإنهاء أجندة زيارته الأولى لفرنسا . جيش من الناسخين سجلوا الكلمة الملكية . وضعت تحت تصرفنا قاعدة الإحساء شرقي الرياض . استطاع الملك أن ينهي طرفته . ولا بد من روايتها . كان ذلك في نهاية الستينات . أدخل الأمير فهد إلى مكتب الجنرال ديجول . بعد دعوته للجلوس بقي الأمير مسمراً أمام المكتب الرئاسي . نظر الجنرال نظرة تعجب وقال : ألا تريد الجلوس؟ كلا رد الأمير ، لأني أود التأمل في بطل فرنسا العظيم . فوجئ الجنرال وقال له : فلنذهب إلى العلم! وبعد أن وصلا إليه قال له : لسوء الحظ لا نستطيع رفع كأس من الشمبانيا . وبنظرة ماكرة وابتسامة عريضة قال فهد : إن عصير البرتقال يكفيني . ضغط الجنرال ديجول فوراً على الجرس لتلبية رغبة بريئة ومشروعة . هذه القصة قصد منها بيان اتساع وقدم الصداقة التي بين بلدينا . كانت ساعة صباحية وانتهت المقابلة الملكية .

وزرت بعد ساعات مدينة ينبع ، حيث توجد مفرزة استطلاع من الكتيبة الثالثة من الطائرات العمودية المقاتلة . والتزمت بعد ذلك بالحفاظ على أن تكون مهمة قواتنا المسلحة ، منذ نزولها ، بعد خمسة عشر يوماً ، دفاعية تماماً» .

يصف وزير الدفاع الفرنسي بعد ذلك وضعه الحرج ومشاعره المتناقضة : «وجدت نفسي قد وضعت في وضع متناقض : الإعداد دون وهن لحرب أراها تكبر في الأفق ، ومصلحة بلادي ، في نظري ، هي في تجنبها مهما كان الثمن . وأملت في الدبلوماسية ، وأن وجود قوات فرنسية في المنطقة قد يتيح لنا قول كلمتنا . وبدا لقاء بوش-غورباتشيف في هلسنكي في ١٩٩٠/٩/٩ أنه يلطف من منطق الحرب . وبدا لي خطاب الرئيس ميتران في الأمم المتحدة في ٢٤ أيلول أنه يزودنا بقاعدة معقولة

لتسوية سلمية . صحيح أنه في اليوم التالي صوتت فرنسا في مجلس الأمن الدولي على قرار فرض الحظر الجوي على العراق . كان على رولان دوما Roland Dumas (وزير الخارجية الفرنسية) أن يتمتع بكثير من المهارة لتخفيف عدم ثقة حلفائنا الأنكلوساكسون بنا . بقي خطاب الرئيس ميتران مجرد خطاب . إن التضامن مع حلفائنا هؤلاء قد حشرنا في سباق مع الجمود .

وعلى أي حال بدا أن الرأي العام قد سيطر ثانية ، وأخذت العدوانية تلهث . واستطعت تطوير حججي في (ساعة الحقيقة) في ٢٣ تشرين الأول ١٩٩٠ في جو أكثر صفاء .

استقبلت ديك تشيني في باريس في ١٩٩٠/١٠/١٩ ، شرحت له بصراحة الأسباب التي تقتضي ، في نظري ، الصبر . هشاشة التوازن في المنطقة ، حيث لا يعادل العراق قوة إسرائيل فحسب ، وإنما أيضاً قوة إيران . ومخاطر عدم الاستقرار قد تلقي السكان في أحضان الأصولية . . . وقلت له إن العراق قد وقع على معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية (TNP) بينما رفضت إسرائيل ذلك . أصغى إلي تشيني باهتمام ، وأعطاني الانطباع بأن قرار الولايات المتحدة لم يتخذ بعد . وفي اليوم التالي استقبل رئيس الجمهورية ديك تشيني ، وقال له بجلافة إن الرأي العام الفرنسي يرى أن لبنان أهم ألف مرة من الكويت .

سربت الدبلوماسية الأمريكية معلومات بأنه تكفي المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة للتدخل عسكرياً ، ولذا لا حاجة لقرار جديد من مجلس الأمن الدولي . وحول هذا الموضوع تبلورت المناقشات الأمريكية-الفرنسية . واقترحت فرنسا تغطية التفويض بقرار جديد من مجلس الأمن الدولي . من الصعب تصديق الأمريكيين ، يتفقون معك على رأي ثم ما يلبثون بعد ذلك أن يغتبطوا به . لقد اقترحت عبثاً إرسال رسالة فرنسية إلى بغداد قبل مجيء جيمس بيكر إلى باريس في ٨ تشرين الثاني ١٩٩٠ .

بحث مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي (CSCE) من ٢٠ إلى ٢٢ تشرين الثاني ١٩٩٠ في كواليسه الإعداد للحرب في الخليج . وقرر الأمريكيون نقل حوالي نصف مليون جندي مع تجهيزاتهم ، قاطعين بذلك كل طريق للتراجع نحو الحل السلمي . وبعد ذلك بأسبوع واحد صدر قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٦٧٨ ، وكانت فرنسا عراباً له» .

لما شعر شفنمان أن الحرب قادمة لا محالة قدم استقالته في ١٩٩٠/١٢/٧ ، ولم يكن رئيس الجمهورية على عجل في قبولها . فقد استقبله في اليوم التالي وقال له بأنه لا يجد صعوبة في قبولها من حيث المبدأ . ولذا ترك له شفنمان اختيار تاريخ قبولها .

في ١٩ كانون الأول ، أكد ميتران في مجلس الوزراء المصغر المخصص لإعلام الرأي العام بضرورة الحرب ، وجوب الإبقاء على موقف التفاوض ، بما في ذلك بعد اندلاع القتال المحتمل ، مذكراً أن الهدف الوحيد للحرب هو تحرير الكويت .

أعدت وزارة الخارجية الفرنسية مشروعاً لتسوية سياسية للأزمة ، إذا أعلن العراق قبل ١٩٩١/١/١٥ عزمه على الانسحاب من الكويت . يقول شفنمان : «بدا لي أن الرئيس عازم على عمل شيء من أجل تحبيذ التفاوض ، كما لو أنه أدرك منذ أربعة أشهر المخاطر والآثار التي تلقي بثقلها على فرنسا في العالم . تدخلت ببضع كلمات لأقترح إعادة إطلاق مشروع ٢٤ أيلول ١٩٩٠ . بينت معارضتي لخطة الغزو الجوي الأمريكية في ١٩٩١/١/١ . . . حصلت على حديث مع الرئيس ميتران في ٤ كانون الثاني صباحاً وامتدت اتصالاتنا حتى يوم الاثنين ١٩٩١/١/٧ ، وقد أبلغته برغبتي في المغادرة . . . بعد أن تسلمت تعليمات الرئيس في ٥ كانون الثاني ، وقعت بعد يومين أوامر الخطة العملية لرئيس هيئة أركان الجيوش ، الذي مددت خدمته لثلاثة أشهر بعد انتهائها لبلوغ سن التقاعد ، بناء على اقتراحي . . . بدا لي أن البقاء في الحكومة يتيح لي إمكانية التأثير في مجرى الأمور» .

وافق البرلمان الفرنسي على إعلان الحرب في ١٩٩١/١/١٦ حوالي الساعة ١٨٠٠ . وبعد ثلاثة أيام زرت الاحساء ثم الرياض . وقابلت الجنرال شوارتزكوبف في الرياض في ١٩٩١/١/٢١ . . . وأصبح الهدف المعلن للحرب تدمير قدرات العراق .

تقييم شفنمان لحرب تحرير الكويت

في تقييمه للحرب الأمريكية من أجل تحرير الكويت يقول شفنمان : «شعرت بعمق طابع هذه الحرب المتفاوت في القدرات والقوات ، والتي لم تبذل الولايات المتحدة جهداً لتجنبها ، بل بالعكس سعت إليها . ولما عشت هذا من الداخل طوال ستة أشهر ، فقد كان من المستحيل أن لا نعترف بالطابع الكاسح لهذه القضية . إن توسيع العمليات لتشمل مقدرات العراق ، لا صلة له بقرارات مجلس الأمن الدولي .

فهذا المجلس الذي أدان قبل عشر سنوات تدمير المفاعل النووي العراقي (تموز) بالطائرات الإسرائيلية ، غطى عملية تجاوزت تدمير تموز إلى تدمير البنى التحتية لبلد عصري .

اعتقد بيريز دو كويار Perez de Cuellar ، الأمين العام للأمم المتحدة ، أنه ملزم بالقول إن الحرب كانت مفوضة من الأمم المتحدة ، وليست حرب الأمم المتحدة .

أما فرنسا فقد تطورت أهدافها الحربية مع تطوير الحرب نفسها . وأصبح وضعي داخل الحكومة لا يطاق . إن قصر أهدافنا على تحرير أرض الكويت الواضح ، منذ الأيام الأولى للحرب ، غذى الجدل السياسي لدى اليمين الفرنسي المتطرف . والذين شجعوا في مطلع السبعينات على التحالف العراقي-الفرنسي أرادوا الآن مشاركة فرنسا في غنائم الحرب» .

واشتد الهجوم على شفنمان لأنه قال الحرب ليست لعبة فيديو . يقول في هذا الصدد : «رددت الهجوم ضدي في ١٩٩١/١/٢٤ . . خساسات الهجمات أذهلتني . أين كان منطق هؤلاء الناس الذين كانوا يعبرون عن إعجابهم في رحلاتهم إلى بغداد؟ إني أرى جيداً جبنهم ، أو إلى أي درجة كانت الدوافع التجارية تقود خطاهم . وبدا لي أن علاقة فرنسا مع العالم العربي ، في نظر من يعتبرون أنفسهم ورثة الجنرال ديجول ، تقوم على الانتهازية الحقيرة .

بإهانتي على يد قادة اليمين دون مساندة من اليسار ، تركت لاتهام غبي من الأحزاب المنتمية للخارج ، وجدت نفسي عملياً مجرداً من صلاحياتي في الواقع ولدى الرأي العام . . . أما مهمة إيضاح سياستنا لدى الرأي العام فقد كلف بها الجنرالات الذين يتمتعون بمواهب بالتأكيد ولكن هذه ليست مهمتهم . وكان هذا التخلي عن مهمة وزير مكلف أكبر إهانة ودافعاً للإصرار على قبول استقالتي . وكان هذا القرار النهاية المنطقية لستة أشهر من الخلاف . كان بعضهم يرى أنه جاء متأخراً جداً . ولكن هؤلاء أنفسهم لم يقولوا بأنني سأعزز موقف صدام حسين لو أنني استقلت عشية الحرب؟ بالتأكيد كان بإمكاني ذلك ، لو فعلتها لغذيت أوهامه واتهمت بتعريض فرص السلام الهشة للخطر . وأولئك في اليمين الذين كانوا يطالبون باستقالتي بصخب قبل ذلك بأيام ، صرخوا فوراً ، كما توقعت ، مطالبين بالانسحاب من الحزب . وكما في حالات مماثلة تكتشف النفوس ذاتها . ولكن لم يكن ذلك بالنسبة إلي اكتشافاً . فالمعادون الساخطون اعتقدوا منذ الأيام الأولى أن

ساعة اقتسام الغنائم قد حلت . وقد أيد اختياري الآلاف بشهاداتهم التي تثير الانفعال . وجعلوني أشعر أن في بلادي قلوباً ونفوساً نقية .

بمغادرتي منصبي اتجه تفكيري نحو جنودنا المرابطين في العربية السعودية ، الذين قلما اعتادوا على التمييز بين الواجب العسكري والواجب السياسي . وتعلمت معرفة وتقدير هؤلاء الرجال الذين أظهروا سيطرة تامة على فنهم . وأنهيت الرسالة التي وجهتها إليهم في ١٩٩١/١/٣٠ بهذه العبارة : «من خلالكم تذهب ثقتي أيضاً إلى فرنسا التي اخترتم خدمتها في مهنة الجندية . وفيما يتعلق بي ، سوف أواصل الخدمة حسب مبدأي : في الجمهورية على السياسيين أن يقرروا اختيارهم بشرط أن لا ينسوا التضامن معكم» .

ولما كنت في وضع أتحدى فيه كل السلطات ، لم أستطع الاعتماد على موافقتها . وببساطة لم أعترف أن بالإمكان التضحية بمئة ألف من البشر من أجل نتيجة موضع خلاف وهي تدمير العراق . والفكر السياسي السليم يؤكد أن الحرب تعقد المشكلة بدلاً من حلها . إن الانسحاب السلمي من الكويت ، الذي كان بالإمكان الحصول عليه بشيء من المرونة الدبلوماسية . وعندها يكون نصراً للحق ويشكل سابقة .

لا شك أن بعضهم ، من خلال ذكريات شبابهم ، يتأثرون من معادلة صدام يساوي هتلر ، أكثر بالطبع من جيلي الذي شهد حربي السويس والجزائر وتصفية الاستعمار ، وسعى إلى إعطاء روح للتعاون بين فرنسا والعالم العربي ، وتمتعوا بعكس ذلك بالتفاهم والحوار والدبلوماسية . كيف يمكن الخلط بين دكتاتور محلي مماثل لآخرين مثله في بلد صغير خارج من التخلف مع هتلر وألمانيا النازية أكبر قوة سكانية وصناعية وعسكرية في أوروبا؟ وغوصاً في العمق ، باستطاعتي فهم أن أولئك الذين عرفوا الإمبراطورية الاستعمارية والاتحاد الفرنسي ، وعاشوا الحرب العالمية الثانية ، لم تكن ردة فعلهم مثل أولئك الذين كانت تصفية الاستعمار شهادة ميلادهم في الحياة السياسية . لكل منهما ذاكرته . .

صداقة فرنسا للعالم العربي كانت بالنسبة إلي مبدءاً . لا أستطيع الاعتراف بأن العلاقة التي نسجت خلال ثلاثين سنة لم تكن سوى نتاج مظهر لتوازن القوى على الصعيد العالمي : القطبية الثنائية للشرق والغرب . ألوم أولئك الذين في دبلوماسيتنا نظروا إلى العلاقة العراقية-الفرنسية واعتبروها جزءاً من علاقة أوسع ، وإنما اعتبروها نتاجاً فرعياً للعلاقة العراقية-السوفياتية . حتى ولو كانت هذه هي الحقيقة ، وهي

تبعث على السخرية ، فإنني لا أجد نفسي في هذه السخرية . ينبغي أن لا تغدو العلاقة الفرنسية-العربية ثانية علاقة غير متوازنة . نحن لم نعد إلى زمن الاستعمار ، العصر الذي تجاوز فيه العديد من ذوي العقول النيرة هذه الرؤية الدنيئة .

حياة الشعوب طويلة وذاكرتها خالدة . آمل أن يشهد عملي ، بالنسبة إلى فرنسا والى المستقبل علاقة أكثر إنسانية بين شاطئينا . لقد قمنا بالحرب من أجل الجلوس على مائدة المفاوضات . لم يكن مؤكداً وجود التفاوض ولكن هناك مائدة لم يجلس عليها أحد .

والحجة القائلة بأن الحق يمكن أن يكون وسيلة لتغطية تصميم الرئيس بوش بعباءة قرارات مجلس الأمن الدولي ، من أجل الحفاظ على مستقبل نفوذ فرنسا في مجلس الأمن ، بدت لي أكثر تمويهاً وخداعاً من كون الأمم المتحدة أقصر الطرق . والحجة القائلة بأن على فرنسا أن تبدأ بعد استعمال حق الفيتو في مجلس الأمن لم يقنعني أبداً . ولا أرى انسجاماً في سياسة خارجية كانت تدعم دوماً حق الفلسطينيين في وطنهم تبدأ بتهميشه .

سيقول التاريخ إذا كانت مشاركتنا في حرب الخليج لم تكن سوى إحدى النتائج البعيدة لتوحيد ألمانيا ، والتوزيع الجديد للعب الأوراق الدولي ، والتضامن مع حلفاء الحرب العالمية الثانية ، على خطى الهوية الأوروبية ، التي وجدت في أزمة الخليج فرصة أصيلة حقاً للظهور . لا تعتمد فرنسا اليوم من هذه النقطة على الولايات المتحدة في أمنها ، وكما أنهم فقد أعطتها ضمانة مماثلة . وإذا كان للاستقلال معنى ، أليست هذه الفرصة الأفضل لتأكيده؟»

ويشيد شفنمان بالبابا الذي أدان حرب الخليج قبل اندلاع القتال وقبل عيد الفصح ، لفتح عيون الكاثوليك الطيبين ودعوتهم إلى التخلي عن العنف في هذا الجزء من العالم ، مذكراً بأن السلام المتحقق بالأسلحة لا يمكن إلا أن يعد لأعمال عنف جديدة . يقول شفنمان : «بين البابا الذي أدان هذه الحرب في يوم عيد الفصح سنة ١٩٩١ ، والسكرتير الأول للحزب الاشتراكي الذي أعلن بعد ثمانية أيام عن مباركتها ، اخترت حتماً موقف البابا» .

الدروس المستفادة من حرب تحرير الكويت في نظر شفنمان

يرى وزير الدفاع الفرنسي السابق جان بيير شفنمان أن حرب الخليج الثانية المعروفة بحرب تحرير الكويت ، قد أسفرت عن قتل ما بين مئة ألف ومئتي ألف من البشر . وأن هذه العملية للبوليس الدولي درس افتتاحي لنظام عالمي جديد ، عزم الرئيس جورج بوش بإنشائه على إعادة تأسيس الهيمنة الأمريكية بعد الخروج من الحرب الباردة . وكان على ألمانيا واليابان المنتصرتين في الحرب الاقتصادية أن تدفعا ، بالرضا أو بالرفض ، نصيبهما من تكاليف الحرب . ما هي نتائج هذه الحرب؟

«دمر العراق ، وأعيد خمسين سنة إلى الوراء ، إلى عصر ما قبل الصناعة . وغدا ضحية حرب أهلية وما رافقها من قمع ، والكويت قد تحررت بالتأكيد وعرش الأمير عاد إليه ، ولكن الديمقراطية أجلت حتى الثلاثين من شباط ، والفلسطينيون واليمنيون طردوا بمئات الألوف ، والمشكلة الكردية عادت ثانية لتصبح قضية الساعة . ولكن على حساب معاناة كبيرة ، ودون أن يظهر بوضوح حل دائم للمنطقة ، ووقع لبنان تحت الحماية السورية ، وأصبحت إيران آيات الله الدولة المهيمنة ، وانتعشت الأصولية الإسلامية بمقدار الهوة والهزيمة الحادة التي لحقت بالقومية العربية ، منافستها التاريخية ، والانهيار الأخلاقي لمنظمة الأمم المتحدة . هذه هي الوقائع التي لا يمكن إخفاؤها لمستقبل هش : افتتاح مؤتمر مدريد ، ومحادثات واشنطن تحت الرعاية الوحيدة للولايات المتحدة وليس في إطار الأمم المتحدة . وذكرت حرب الخليج ، بخاصة اليابان وأوروبا ، بأشياء لا تنساها وهي أن أمريكا هي الحائزة على احتكار الإكراه العسكري لمسافات بعيدة عن عالم ما بعد يالطا ، والتي لا تتردد في وضعه في خدمتها . في المجابهة بين الشرق والغرب لن تكون حرب الخليج هذه إلا مجرد حادث من أحداثها ، والنزاع العربي–الإسرائيلي ليس سوى مجرد لحظة في تاريخ هذه المجابهة . ولكنه أدخل فيها بعداً مأساوياً له جذوره في ثقافتنا» . بهذه العبارات لخص شفنمان نتائج حرب تحرير الكويت .

وعاد يستعرض تاريخ العلاقة بين العرب والغرب لإيضاح وجهة نظره . يعد شفنمان هزيمة عبد الناصر سنة ١٩٦٧ أول تراجع ، تلاها انقسام العالم العربي في مواجهة عملية كامب ديفيد ، الذي رجح الثروة والقوة في الخليج بعد الصدمة النفطية الأولى ، وانهيار لبنان واجتياحه ، وسحق الفلسطينيين ، واستيلاء الأصولية الشيعية على السلطة في إيران سنة ١٩٧٩ ، كاشفاً احتمال العداء للغرب دون الاتفاق على

ذلك مع القومية العربية . كانت هذه والحرب العراقية-الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨) قد أصبحت الدرع الواقي للممالك النفطية . يقول الوزير الفرنسي :

«يضاف إلى هذا الوضع الذي يحمل في طياته المخاطر الكبيرة على النظم التقليدية في شبه الجزيرة العربية ، وانهيار الاتحاد السوفياتي سنة ١٩٩٠ ، أعطى الولايات المتحدة الفرصة لوضع حد لهذه المخاطر . كان هذا العامل الرئيس الذي لاحظه اللاعبون جميعاً قبل اندلاع الأزمة .

اعتقد العراق أنه ضحية مؤامرة تستهدف القضاء عليه ، واختار الهزيمة إلى الأمام في غزوه للكويت . كانت الكويت كما أوضح ميشيل فوزيل Michel Vauselle ، بعد عودته من بغداد ، مجرد رهينة قبل إعادة ترتيب التوازن في المنطقة .

كل هذا لم يكن سيئاً ، وأبعد منه ، يوجد الدين الكويتي على العراق ، واستغلال حقل الرميلة النفطي ، واستئجار جزيرتين في مدخل الخليج في الملف العراقي قبل الثاني من آب ١٩٩٠ . فالعراق الذي دافع عن ممالك النفط في الخليج ضد الأصولية الشيعية ، شعر أن لديه المبرر لطلب ثمن الدم الذي أراقه . وإذا كان صدام حسين قد ارتكب خطأً كبيراً في تقديره لعزم الولايات المتحدة على مجابهته ، وفي هذه الحال ، على تحطيمه ، فقد انتهى هذا بلا شك إلى الاعتقاد بأن الغرب قد شعر بغموض بأنه مدان له على دوره كعامل استقرار في مواجهة الخميني خلال سنوات ثمان . واعتزازاً بنفسه قلل من قيمة انهيار الاتحاد السوفياتي ، وبالغ في تقدير هامشه في اللعبة الدولية .

إن مطلب العراق من الكويت هو مطلب قديم قدم العراق نفسه ، تحدث بيير روسي Pierre Rossi في كتابه «عراق الثورات Irak des révoltes» الصادر عن دار النشر Le Seuil بباريس سنة ١٩٦٣ ، بعد فشل المحاولة الأولى لضم الكويت للعراق من قبل عبد الكريم قاسم ، عن (حقوق العراق غير القابلة للتقادم بالكويت) . وهذا يعتمد على نظرية كون بغداد عاصمة لدولة كبرى أو مجرد المدينة الأولى في بلاد ما بين النهرين . يشير بيير روسي إلى المساومات بين نوري السعيد والانكلو ساكسون ، التي أنهتها ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ . وأضاف : من يستطيع ضمان أن ظروف تفاهم أنكلو-عراقي جديد لا تنشأ غداً ، وألا يحصل قاسم أو غيره على ما كان يمكن لنوري السعيد الحصول على نصفه؟

أراد العراق ، في الحقيقة ، السيطرة على الخليج . ولم تكن فلسطين سوى دفع

بالغيبة ، كما يقول القانونيون ، بدءاً من ١٢ آب ١٩٩٠ . فالموقف العراقي من الصراع العربي-الإسرائيلي قد تطور خلال الثمانينات . والعراق الذي نشط بعد اتفاقيات كامب ديفيد ضد المنافس الأبدي المصري ، بقيام جبهة الرفض ، بدأ التحرك تدريجياً إلى وضع أكثر اعتدالاً ، مؤكداً مراراً عديدة استعداده للموافقة على حل يقبل به الفلسطينيون ومنظمة التحرير الفلسطينية .

هل كان بإمكان الولايات المتحدة القبول بأن يصبح العراق ، بضمه الكويت ، قوة كبرى؟ بالتأكيد لا ، في ظروف ما بعد الحرب الباردة . وحول ما قالته السفيرة الأمريكية السيدة غلاسبي Glaspie لصدام حسين في ٢٥ تموز ١٩٩٠ ، لي رأي في ذلك (ليس لنا رأي في النزاعات بين العرب ، مثل خلافكم على الأرض مع الكويت) هذا ما قالته السفيرة . وجب الانتظار حتى ٢٠ آذار ١٩٩١ ، أي أكثر من ستة أشهر بعد ذلك ، حتى تصحح السيدة غلاسبي ما قالته أمام لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي : فقد أشارت إلى حياد الولايات المتحدة ، ولكن مع الإصرار على أن لا يسوى النزاع بالتهديد والتخويف وبالعدوان .

هذا النفي المتأخر لم يزل شيئاً من حادثة جوهرية ، هي أن السيدة غلاسبي اعترفت أن الدبلوماسية الأمريكية أملت ، قبل الأزمة ، بتربية الرئيس العراقي . وهكذا وجدت علاقة غامضة بين بغداد وواشنطن ، جعلت صدام حسين يأمل بأن تعترف له الولايات المتحدة بالقيادة الإقليمية ، بينما كانت تأمل الولايات المتحدة في الحد من طموحاته ، إن لم يكن تربيته حقيقة .

والحجة نفسها تسوقها أمريكية أخرى هي فيب مار Phebe Marr في مقال ظهر في صيف ١٩٩٠ في مجلة Politique Internationale وهي مجلة باتريك واجسمان Patrick Wajsman الذي لا يمكن اعتباره معادياً للولايات المتحدة . عنوان المقال : «أيجب عزل العراق؟» وينتهي المقال بالدعوة إلى ضرورة الإبقاء على الاتصال به . لم يدرك صدام حسين المقطوع عن العالم الخارجي ، والوحيد المستهدف من بين العراقيين المحصورين بين النهرين ، أن الرئيس بوش قد اتخذ قراره .

وبدلاً من أن يأخذ المبادرة في انسحاب من الكويت يعد تراجعاً ، فضل صدام حسين الانتظار لحلول الفرصة المناسبة ، بما في ذلك أثناء الحرب نفسها . كان ذلك خطأً مأساوياً ، وفي المقام الأول بالنسبة إلى الشعب العراقي سيء الحظ .

لقد أبديت شخصياً ملاحظة في مؤتمر صحفي في الرياض في ١٩٩١/١٢/٢٥

أن الإعلان عن انسحاب العراق من الكويت ، قد يتيح مغادرة أولئك الذين داخل الائتلاف يتمنون الالتزام بتحرير الكويت ، وأولئك الذين يريدون تدمير العراق . هذا ما كان عليه في تلك الفترة موقف رئيس الجمهورية الفرنسية المؤكد ، الذي شجب في ١٩٩٠/١٢/٢٢ الخطط السود التي تختبئ في مؤخرة رؤوس بعض القادة .

لا شك أن صدام حسين أدرك منذ بداية آب ، بأنه لا خيار لديه إلا بالاستسلام دون شروط والمهين بجلاء ، وحسب البيان الرسمي الأمريكي (الذنب بين الرجلين) والحرب . ارتكب صدام حسين في ٢ آب ١٩٩٠ أكثر من جريمة بغزوه الكويت . لقد ارتكب خطأ . فقد أساء تقدير إرادة الولايات المتحدة وقدرتها على النصر دون خسائر تذكر في حرب على العراق . واعتمد على وساطة عربية ثم على المساعدة التي توقعها من الاتحاد السوفياتي ، إن لم يكن من فرنسا ، من أجل البدء في التفاوض مع واشنطن ، دون أن يعلم أن تفاوضاً معه هو ما لم ترده الولايات المتحدة والرئيس بوش بخاصة . هل فكر طويلاً في دور لأوروبا واليابان؟ إن انضمامهما السريع إلى الولايات المتحدة وجب عليه إزالة شكوكه . أو أنه فكر في وساطة الأمم المتحدة؟ إن لهجة قرارات الأمم المتحدة المتتالية ، وخاصة فحواها ليست بحالة إلى نقاش . فالأمين العام للأمم المتحدة ، الذي سمعته يقول في باريس في كانون الأول ١٩٨٨ : (هناك لوم لا نستطيع توجيهه للثوار الفرنسيين ، وهو عدم استعمال الحرية ، هذه الحرية التي نامت عليها آذان معاصرينا بدافع عدم ممارستها) هذه الحرية لم يمارسها هو نفسه . قصر السيد دولا كويار مهامه على التقيد الصارم بقرارات الأمم المتحدة ، كما لو أصابه كزاز من الولايات المتحدة ، فقدّم لها دوماً الوجه الأسف لعجز يبدو أنه أذعن له .

اعتمد صدام حسين على الرأي العام العربي ، ولم يسع إلى التأثير في الرأي العام الأمريكي . فتصويت مجلس الشيوخ الأمريكي (٥٣ مقابل ٤٧ صوتاً) كان اللحظة التي يخشاها الرئيس بوش ويسعى إلى تجنبها . ولم يكن لقاء بيكر طارق عزيز في جنيف سوى فرصة لتسليم العراقيين رسالة بلهجة مهينة جداً ، سعى فرانسوا ميتران ورولان دوماً عبثاً لإقناع جورج بوش بتلطيفها» .

نتائج حرب تحرير الكويت على أمريكا وإسرائيل

يقول شفنمان في مذكراته إنه منذ تشرين الأول ١٩٩٠ ، أبلغ صدام حسين بريماكوف Primakov مبعوث الرئيس السوفياتي ميخائيل غورباتشيف ، أنه مستعد للانسحاب من

الكويت ، إذا قدم له عضو أو عضوان من الدول الأعضاء الدائمة في مجلس الأمن الدولي خطة تحفظ ماء وجهه . غير أن العامل الحاسم في الأمر كان الرفض الأمريكي للربط بين الانسحاب من الكويت وأية مشكلة أخرى ، ولا سيما التوازن الإقليمي في الشرق الأوسط ، الذي كان الشاغل الحقيقي للقادة في بغداد . ومن المعروف أن المشروع الفرنسي في ١٩٩١/١/١٤ لم يقدم لمجلس الأمن الدولي ، بسبب معارضة الولايات المتحدة وبريطانيا له . ولذا عقد العراق آماله النهائية على الاتحاد السوفياتي ، دون أن يدرك إلى أي مدى غيرت الدبلوماسية السوفياتية مسارها : من معاهدة صداقة وتحالف مع العراق مبرمة سنة ١٩٧٢ ، تتضمن النجدة المادية إلى موقف متحفظ للرئيس غورباتشيف ، الذي كان يشغله في المقام الأول إقامة علاقة جديدة مع الولايات المتحدة ونيل ثقتها . وكان شفردنادزه Chevardnadze قد قدم استقالته من منصب وزير الخارجية في كانون الأول ١٩٩٠ . والواقع أن المحاولة الأخيرة جاءت من موسكو في منتصف شباط لتجنب الحرب الجوية ، بتقصير مداها من (٣٨) يوماً إلى (١٥) يوماً والحيلولة دون الحرب البرية . ولكن الولايات المتحدة شعرت بقوتها وأفشلتها .

والحقيقة أن صدام حسين قد أبدى في النهاية عمى وتطرفاً مماثلين لعمى وتطرف جورج بوش . لقد أراد الأخير استسلاماً كاملاً وبلا شروط لصدام حسين ، مثل الذي طلبه الحلفاء من ألمانيا بدءاً من سنة ١٩٤٣ . كان ذلك لعدم معرفة أو ربما لمعرفة جيدة بالاعتزاز العظيم الذي لدى سيد بغداد . لم يكن لدى الأخير الوسائل لحماية تصلبه ، ولم يكن لديه الذكاء السياسي للخروج من البديل الذي حصره فيه الأمريكيون . وانتظر حتى النهاية تسوية لم يقدمها الأمريكيون له . لا شك أنه اعتقد أن بإمكانه تحويل الهزيمة العسكرية إلى نصر سياسي ، كما فعل عبد الناصر سنة ١٩٥٦ ، والسادات سنة ١٩٧٣ على قناة السويس . كان ذلك جهلاً بتوازن القوى الجديد في العالم . أقدم صدام حسين على مخاطرة لا حدود لها بالنسبة إلى شعبه وإلى جيشه ، واستخف كلياً بقدرة الاستراتيجية الجوية على إلحاق خسائر لا حدود لها به من قبل قوات الائتلاف .

لو توقفت الحرب بعد وصول الأمريكيين إلى نهر الفرات ، فهذا الأقل في نظري ، لأن قرارات الأمم المتحدة لا تعطيهم التفويض بتجاوز ذلك ، إلا لسبب مختلف وهو الذهاب إلى بغداد ، وعندها قد يخاطر الأمريكيون بالغوص في الرمال الذي لا يريدونه بأي ثمن . (لن تكون فيتنامَ ثانية) كما أعلن مقدما الرئيس بوش .

فهو لا يريد المخاطرة حفاظاً على (حياة الأمريكيين الغالية) . وقد رأينا بعد فشل التمرد الشيعي والكردي كيف بقي الجنود الأمريكيون على استعداد للتدخل . ولم يفعلوا شيئاً إلا بتردد حين قاموا بعملية بسيطة لحماية الأكراد على الحدود التركية» .

يقول شفنمان عن موقف إسرائيل من هذه الحرب : «كما أن الضعف السوفياتي قد حسم مقدماً قدرة العراق على البقاء في الكويت ، مثلما رأت إسرائيل فرصة تاريخية في التشكل الجديد لتوازن القوى العالمية . وهي فرصة مناسبة لاستئناف العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي ، الذي كان من أوائل الدول التي اعترفت بها . ولا سيما مع توقع وصول كثيف من المهاجرين اليهود من أصول سوفياتية ، بحيث يغدو استعمار الأراضي المحتلة في نظر قادة الليكود مشروعاً قابلاً للتحقيق . وهذا من نتائج حرب الأيام الستة ، التي أتاحت رؤية حلم إسرائيل الكبرى بضم اليهودية والسامرة ، يتحقق أمام أعينهم . وقام وزير الإسكان الجديد أرييل شارون بالاندفاع لبناء قرى الاستعمار .

لقد أعجبت شخصياً خلال الحرب بضبط النفس والدم البارد الذي اتسم به موقف إسرائيل ، في مواجهة صواريخ سكود العراقية . ولكن الذكرى التي لا تمحى للمحرقة (الهولوكوست) النازية يجب أن لا تدفعهم إلى فقدان القدرة على زنة الأمور . قد تسبب صواريخ سكود العراقية أذى ، والواقع لم تسبب سوى مقتل اثنين . غير أن الشحنة الرمزية كانت في النهاية أقوى من الشحنة العسكرية . والحقيقة أن إسرائيل كان لها كل المصلحة في عدم التدخل في القتال ، حيث استطاعت الولايات المتحدة جر مصر والعربية السعودية وراءها وحتى سوريا أيضاً ، وقامت بالمهمة نيابة عن إسرائيل . فهل يجب أن نعزو لجماعة الضغط المؤيدة لإسرائيل مسؤولية هذه الحرب؟ من المؤكد أن العديد من الصحفيين والكتاب ، في الولايات المتحدة وفرنسا ، قد عينوا للكتابة في منازلهم لهذه الغاية (حسب قول ألان فنكيلكراوت Alain Finkielkraut) .

إن قصف إسرائيل بصواريخ سكود العراقية يبيّن جنون العظمة المهيمن على نظام الحكم في بغداد ، إزاء ما اعتبره مؤامرة إمبريالية-صهيونية . واختيار إسرائيل عدم الرد يشكل نقطة تحول في علاقاتها مع الولايات المتحدة . فقد غدا واضحاً أن إسرائيل ، في نهاية المطاف ، اعتمدت على الولايات المتحدة أكثر من اعتماد الأخيرة عليها» .

ويحلل شفنمان الدور الأمريكي في هذه الحرب كما يلي : «لقد اتخذت

الولايات المتحدة قراراً بإرسال مئتي ألف مقاتل إلى المنطقة منذ بداية آب . وكان المبرر لهذا القرار آنذاك أنه نابع من الرغبة في الحفاظ على كل الخيارات العسكرية . ونعرف اليوم أن الرئيس بوش وحده قد اتخذ هذا القرار ، معارضاً رأي رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة الجنرال كولن باول . وكما يقال في لغة الطيارين : أغلق هدفه على راداره ولم يتخل عنه .

باستطاعة الرئيس بوش أن يتباهى بأنه عزز القيادة الأمريكية للعالم ، ونجح بما اعتقد أنه امتحان مرور للانتخابات الرئاسية القادمة . فقد أفادت الولايات المتحدة من ضعف الاتحاد السوفياتي ، وغدت السيدة الوحيدة في المنطقة ، والمسيطرة الوحيدة على النفط . وهذا مكسب حاسم في تنافسها مع اليابان وأوروبا . فسعر برميل النفط بلغ (٣٠) دولاراً أو أكثر في السنوات القادمة لتمويل الديون الأمريكية والممالك النفطية ، التي لا تطلب أكثر من ذلك . والولايات المتحدة تضمن للعربية السعودية وللبحرين وعمان حماية آبار النفط في الشرق الأوسط ، حيث يوجد ما يربو على نصف احتياطي العالم من الذهب الأسود لمدة جيل على الأقل . بقي أن نعرف إذا كانت دولة لا تستطيع القيام بالحرب إلا بشرط أن تكون نتيجتها عدداً محدوداً من القتلى ، هل باستطاعتها السيطرة على منطقة ، من البحر والجو ، يختلط فيها الدين مع الحقد على الغرب ، وتصر فيها إيران آيات الله على أن تكون لها الكلمة الأخيرة؟

إن تدمير القدرة العسكرية والنووية العراقية ، الذي لم يظهر قط في أهداف الأمم المتحدة ، يخلّص إسرائيل من القوة الوحيدة التي باستطاعتها أن تشكل ثقلاً موازياً لها في المنطقة . هذا دون السعي أو التدخل المسبق لأي اتفاق للسيطرة على التسلح فيها . لقد أوجد تدمير العراق ، على يد الولايات المتحدة ، شعوراً قوياً لديها بواجب قيادة العالم . فمؤتمر مدريد هو الطباق الموسيقي الإجباري لحرب الخليج .

ما زلت أعتقد أن جميع الأهداف لدولة عظمى كالولايات المتحدة يمكن أن تقولها بصورة مشروعة في هذه اللحظة التاريخية كما يلي : رفض ضم الكويت ، والوصول الحر لنفط الشرق الأوسط ، والسيطرة على التسلح في المنطقة ، وفتح حوار بين الإسرائيليين والفلسطينيين . وبالإمكان تحقيقها بدون حرب تكون نتيجتها تدمير بلد عربي بدأ في التخلص من التخلف . وبالإمكان صيانة المصالح الحيوية الأمريكية سلمياً . ولكن إغراء الحرب هو الذي فاز . ولم يكن الأسلوب الأفضل لإعداد مصالحة بين سكان المنطقة والغرب . يخاطر العالم العربي بشدة في أن لا يرى في هذه الحرب

سوى مؤامرة تستهدفه لفرض حل عليه بالقوة» .

يبيّن الوزير الفرنسي رأيه في الوضع الداخلي في العراق كما يلي : «إن شيطنة صدام ، مثل شيطنة عبد الناصر بالأمس ، بدت الوسيلة الوحيدة في أيدي القادة اليوم ، في نظام للرأي ، من أجل إضفاء الشرعية على حرب هجومية . ولكن لها آثارها الشريرة» .

للإجابة المناسبة عن السؤال : كيف يمكن إضعاف العراق دون تهديد وحدة أراضيه؟ هو انتظار الرئيس بوش لإجراء تغيير في رأس نظام الحكم في العراق . كان نظام البعث قادراً على تماسك هذا الموزاييك من الشعوب والاثنيات والديانات في العراق . وليس بإمكان الديمقراطية أن تتمأسس بمرسوم . إن الشيعة والسنة والأكراد والأقليات المسيحية تجد في العلمانية المعلنة لنظام حكم حماية لممارسة عقائدها . إن القبضة الحديدية وحدها القادرة على حفظ التوازن بين هذه الفئات .

ولنمر على المشروعات البدائية لأولئك الذين يعتقدون أنه يكفي لإسقاط دكتاتور بضربات الصواريخ وطائرات B-52 ، حتى تطلع شمس حقوق الإنسان . لا يستطيع خبراء الشرق الأوسط والخبراء في شؤون العراق من الغربيين تغذية الأوهام (الكريمة) والخطيرة .

ربما يؤدي الحصار القاسي والحماية المفروضة من الأمم المتحدة على العراق ، إلى إجبار صدام حسين على الاستقالة . والبقاء على البعث بدون صدام ، خطة عميقة في الحقيقة ، دون الحديث عن المخاطر المستقبلية لعدم الاستقرار المرتبط بتمرد جديد للأكراد والشيعة ، يفرض على الشعب العراقي رعب الحرب الخارجية والأهلية والمجاعة ، من أجل تغيير صدام! والحصار الذي يجعل شعباً رهينة قادته ، يرمي بثقله على الفقراء المعرضين لسوء التغذية والمرض والموت في بلد يباع فيه كل شيء ، ويسوده عدم الاستقرار» .

النتائج الأولية لاستمرار فرض الحصار على العراق بعد تحرير الكويت

يتناول جان بيير شفنمان في مذكراته ما أسفرت عنه حرب تحرير الكويت من عقوبات على العراق استمرت بعد انتهاء الحرب . يقول في هذا الصدد : «إن الابقاء على فرض الحصار على العراق بعد نهاية الحرب والانسحاب من الكويت أصبح الوسيلة لفرض وصاية لم يشهد مثلها عصر المستعمرات في الصين ومصر وتركيا أو

مراكش . الحصار الذي كان الهدف الأول منه الانسحاب من الكويت وجد طريقاً لتبريرات جديدة» .

يتحدث وزير الدفاع الفرنسي السابق عن أقوال خبراء الأمم المتحدة الذين كلفوا بالتحقيق والتفتيش في العراق عن أسلحة الدمار الشامل . فقد تشكلت بعثة الخبراء الأولى برئاسة ديفيد كاي David Kay من عدد من الخبراء نصفهم من الأمريكيين . وجمعت كمية ضخمة من الوثائق باللغة العربية ، أرسلت إلى خارج العراق لترجمتها إلى الانكليزية . وأعلن كاي أنه وجد معلومات مهمة جداً تستدعي الإبراق إلى الولايات المتحدة والى الأمم المتحدة ، مما دعا وزير الخارجية الفرنسية إلى إرسال احتجاج أفلاطوني . وبعد بضعة أسابيع كشف ديفيد كاي ومدير الوكالة الدولية للطاقة النووية هانس بليكس Hans Blix في مؤتمر صحفي في ١٩٩١/١٠/٨ أن العراق يملك كمية قليلة من الليثيوم-٦ (Lithium-6) المادة المستعملة خصيصاً في صناعة القنابل الهيدروجينية ، وأن لديه خطة طموحة جداً لإنتاج العديد منها . وعلى أثر ذلك قرر مجلس الأمن الدولي وضع الصناعات العسكرية العراقية تحت الرقابة . كان القصد من ذلك إعطاء الشرعية للإبقاء على الحصار المفروض على العراق وفرض الوصاية عليه .

لم يكن لحصار العراق هدف سياسي ، مثل حصار كوبا أو فيتنام ، وهو تغيير نظام الحكم بالإكراه ، ولكنه يستجيب لضرورة أيديولوجية . إنه يعني القضاء على كل نقد لحرب الخليج تحت ثقل الانفراج الدنيء ، أي تجنبه جيداً بالاستعادة . يرى شفنمان أن لأمريكا حساباً مع العراق . كان سيبقى قوة إقليمية مقبولة . وفي وزارة الخارجية الأمريكية ربما تغلب الحمائم على الصقور ، وبقيت السفيرة الأمريكية في موقعها . تثير حرب تحرير الكويت سؤالاً حول الرقابة على انتشار الأسلحة النووية . أليس التفاوض الدولي أفضل بكثير دوماً من اللجوء إلى الحرب الوقائية؟ يقول شفنمان : «بالإجمال ، درس حرب الخليج بسيط : العالم المتطور ليس بحاجة إلى العالم الثالث ، لا حاجة إلا لنفطه . وليس لبلدان العالم الثالث إلا الحفاظ على نفسها . . . ليست حرب الخليج فقط العصا الغليظة المستعملة على مستوى لم نره بعد . إنها أيضاً انبعاث في العلاقات الدولية للنفاق الفيكتوري للمؤسسة العالمية باسم حقوق الإنسان ، بانحرافها الوقح ، غدا (واجب التدخل) بسرعة الحق الأقوى للتدخل ، حيث توجد المصالح-أي النفط-وأصبح تعريف الجريمة من مهام منفذ

العقوبة . أول أمس غرانادا ، وبالأمس بناما ، واليوم العراق . أما آن لهذه الفكرة الموروثة من ثيودور روزفلت Theodore Roosevelt أن تتوقف؟

لا تستطيع الأمم المتحدة القبول بغزو الكويت ، ولكن قراراتها ، سواء أخذنا بها أو تركناها ، لم يتح لها أصغر هامش للتفاوض ، وكانت تعكس هيمنة الولايات المتحدة عليها . والانتقال من الحصار إلى التدخل العسكري تم خارج إطار ميثاق الأمم المتحدة . وخطط استعمال القوة أعدها الجنرال شوارتزكوبف وليس مجلس الأمن بمساعدة لجنة هيئة الأركان .

يشير الميثاق إلى استعمال القوة بتصويت من الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن . وفي ضوء ذلك يعتبر قرار مجلس الأمن رقم (٦٧٨) غير شرعي ، لأن الصين غابت عنه . فالمادة (٤٢) من الميثاق تقول إن اللجوء إلى القوة لا يمكن التفويض به إلا إذا ثبت أن إجراءات الحصار الواردة في المادة (٤١) غير كافية . ولم تكن حال العراق هكذا .

وكما كتب موريس أليس Maurice Allais : على الرغم من كل لبوس ريائي ، تحولت حرب الخليج إلى حرب مفروضة ومدارة من قبل الولايات المتحدة ، وفق نظرتها الاستراتيجية الخاصة ، ووجد مجلس الأمن الدولي نفسه مجرداً تماماً من كل سلطة . والأمم المتحدة كانت كذلك مجردة من كل سلطة . إن وضعاً كهذا لا يتفق مع نص الميثاق ولا مع روحه .

وحتى بعد نهاية الحرب ، تولى مجلس الأمن الدولي ، بالتصويت على عدد من القرارات بالإكراه ، تغطية سياسة أمريكية تهدف إلى تدمير العراق وتفكيكه ، موحياً بأن هذا هو الهدف الحقيقي للحرب . من المفهوم جيداً أن استعمالاً كهذا للأمم المتحدة ما كان بالإمكان تحقيقه إلا بالحياد التام لكل من الاتحاد السوفياتي والصين ، وبالتحالف مع بريطانيا وفرنسا مع الولايات المتحدة في مجلس الأمن . بغياب صوت الحق بين الدول الكبرى ، غدت الأمم المتحدة هيئة تافهة ولازمة موسيقية حقاً . لم نر قط ، لا في لبنان ، ولا في فلسطين ، ولا في قبرص ، أن طبقت قرارات الأمم المتحدة بتصميم عنيف كهذا .

وأثيرت حقوق الإنسان بصورة انتقائية لتبرير التدخل العسكري في كردستان مثلاً ، وباتجاه واحد ضد العراق وليس ضد تركيا . بينما أمكن السخرية منها في كل مكان ، دون أن يبدي المجتمع الدولي حراكاً» .

يقترح شفنمان بعد ذلك إنشاء قضاء دولي غير منحاز، للتحقيق في قضايا حقوق الإنسان والحكم في مخالفاتها . ثم يعهد إلى الأمم المتحدة بتنفيذ الإجراءات الخاصة لوضع حد لها . وهو يرى أن الديمقراطية لا تصدَّر بالعصا ولا برؤوس الصواريخ ولا بهمجية عالمية .

يرى هذا المفكر الفرنسي أن جوهر العلاقات الجديدة بين العالم الأبيض والجنوب الملون يقوم على استعمال القوة التدميرية، التي تمثلت في ضرب هيروشيما وناغازاكي وتدمير العراق . ويستبعد أن تتكرر الظروف التي أدت إلى حرب تحرير الكويت . ولكن المهم بالنسبة للولايات المتحدة أن يتعظ العالم الثالث ويحفظ الدرس الافتتاحي للنظام العالمي الجديد .

ويؤكد أيضاً أن التلاعب بالمعلومات وتشويهها لم يبلغ مستوى ما بلغته وسائل الإعلام الغربية قبل حرب الخليج وأثناءها . ويعد هذا النسق الإعلامي تدنياً فكرياً وأخلاقياً ألحق الإهانة حتى بالذين لم يشاركوا فيه . يقول في هذا الصدد : «لقد كشفت حرب الخليج عن تدن في الفكر وفي السلوك بصورة غير مقصودة ولا سابق لها على الصعيد العالمي، بإرادة سياسية فريدة، وبجهاز تلفزيوني موحد . إن إرادة سياسية وحيدة في العالم هي إرادة جورج بوش فرضت على فهد ومبارك ثم على كل الآخرين . وفرضت على جميع محطات التلفزة، الصور نفسها، وكلها تقريباً أمريكية، والرسالة نفسها في كل مكان : هستيريا مباشرة، تحول الشرق الأوسط إلى الغرب الأمريكي، وتحولت الحرب إلى لعبة فيديو، واختزلت الشعارات، وتضخمت المدمجات، وغدا الخداع سيد الموقف .

وفي باريس حصلت الردة لدى جميع أولئك كانوا قد دافعوا عن سياسة فرنسا العربية، ونادوا بالاستقلال الوطني، وبالحوار بين الشمال والجنوب، التي غدت ترهات عصر آخر . جاء منطق الحرب بكل شيء، من التدخل الرئاسي الأول، يذكّر بحتمية الماضي : لفرنسا علاقات ودية منذ سنوات مع العراق . وتم التوصل إلى هذا التأكيد بصورة استعادية : (لو لم تحدث هذه الحرب اليوم فإنها ستحدث حتماً في مدى ثلاث أو أربع سنوات قادمة) . وتطورت أقوال فرنسا بالانزلاق من الحظر إلى الحصار، ومن الحرب الدفاعية إلى الحرب الهجومية، ومن العقوبات الاقتصادية إلى التهديد بالتنفيذ، ومن الاقتصار على أهدافنا في الكويت إلى تدمير القدرة العسكرية والصناعية العراقية .

كانت هذه الحرب حقاً بمنطق ثابت . . . في حضارة يهودية-مسيحية كحضارتنا ، من الطبيعي أن تبدو الأحداث البعيدة مشوهة باستذكار توراتي غامض ، لا يحبذ بالتأكيد فهم الآخر . بالأمس ظهر عبد الناصر بشخصية فرعون المبيد ، واليوم أخذ صدام بسهولة صفات نبوخذ نصر الذي أنعش الذاكرة . . . استعمل صانعو الرأي العام ردود الفعل أكثر من استعمال التأمل . وفعل الرأي العام الشيء نفسه» .

يقول شفنمان بين جميع السياسيين الفرنسيين كان له ولميشيل جوبير Michel Jobert وكلود شيسون Claude Cheysson وأندريه جيرو André Giraud صوت مختلف . وانضم إليهم موريس كوف دومورفيل Maurice Couve de Murville وجورج غورس Georges Gorse العارف الكبير بالشرق الأوسط والعالم العربي ، والذي كان في فترة من التاريخ «صوت فرنسا» .

ويشير إلى الجهود التي بذلت لخداع الرأي العام الفرنسي ، وإبراز الحرب على العراق وكأنها حرب مقدسة .

لقد عبر شفنمان بحق عن مشاعره الشخصية ، وعن رأيه في هذه الحرب بصراحة وشفافية ، وبصدق قل نظيره بين السياسيين الغربيين خلال النصف الثاني من القرن العشرين .

ملاحظات حول حرب تحرير الكويت

يلاحظ في مذكرات الساسة والعسكريين الأمريكيين تماثلاً في مواقفهم من احتلال العراق للكويت ، وتأييدهم للموقف الذي اتخذه الرئيس الأمريكي جورج بوش (الأب) منذ بداية الغزو باللجوء إلى القوة لإخراج القوات العراقية من الكويت ، ورفض التفاوض من أجل تحقيق الغاية نفسها . ولذا شرعت إدارة بوش بتكوين الائتلاف الدولي ضد العراق . وحصلت على موافقة العربية السعودية ودول الخليج العربية الأخرى لإنزال القوات المسلحة الأمريكية في أراضيها ، تمهيداً للقيام بحرب تحرير الكويت . وساعد الولايات المتحدة على نجاح خطتها هذه موقف الاتحاد السوفياتي بقيادة الرئيس ميخائيل غورباتشيف ، ووزير خارجيته إدوارد شفردنادزه المتعاون مع الإدارة الأمريكية ، وموقف الصين الحيادي والمتردد ، واندفاع بريطانيا في عهد مارغريت تاتشر وخليفتها جون ميجور ، نحو الإسراع للحل العسكري للأزمة .

وعلى الصعيد العربي ، كان لموقف مصر في عهد حسني مبارك ، والعربية

السعودية في عهد الملك فهد بن عبد العزيز ، والمغرب في عهد الملك الحسن الثاني ، وسوريا في عهد الرئيس حافظ الأسد ، الأثر الأكبر في تكوين حلف عربي ضم جميع الدول العربية ، باستثناء الأردن في عهد الملك حسين ، واليمن في عهد الرئيس علي عبد الله صالح ، تعاون مع الائتلاف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية . ورفض الحلف العربي الحل الدبلوماسي الذي اقترحه الأردن لانسحاب القوات العراقية من الكويت وتمسك بالحل العسكري الأمريكي .

سعت الولايات المتحدة ، في تكوينها للائتلاف الدولي ، إلى السيطرة أولاً على مجلس الأمن الدولي ، الذي لم يتردد أعضاؤه في إصدار العقوبات القاسية على العراق ، وفرض حصار اقتصادي ومالي وعزلة سياسية تامة عليه . وأشترت الإدارة الأمريكية تعاون الدول الأعضاء في مجلس الأمن بالمال الذي دفعته العربية السعودية والكويت وألمانيا واليابان . وكان من نصيب الاتحاد السوفياتي أربعة مليارات دولار ، وحصلت تركيا على ثلاثة مليارات دولار ونيف . وقد جاء في مذكرات جيمس بيكر وجون ميجور أن ما دفعته العربية السعودية والكويت نقداً ثلاثين مليار دولار ، يضاف إليها تعهد العربية السعودية بدفع تكاليف نقل القوات الأمريكية والبريطانية ، وثمن الوقود الذي استهلكته آلياتها العسكرية ، والمياه والمواد الغذائية التي استهلكتها ، وما دفعته العربية السعودية للولايات المتحدة وبريطانيا .

ورد في مذكرات القادة السياسيين والعسكريين الأمريكيين أن القادة العرب أكدوا لهم ، منذ بداية الأزمة العراقية-الكويتية ، أن العراق لن يعتدي على الكويت ، بينما كانوا هم يتوقعون هذا العدوان ، وهذا ما جعل كثيراً من المحللين السياسيين يرون أن الولايات المتحدة أوقعت العراق في فخ العدوان على الكويت ؛ لضربه والقضاء على قدراته العسكرية والاقتصادية . وجاء في هذه المذكرات أيضاً أنه حينما غزا العراق الكويت ، أكد القادة العرب من أصدقاء الولايات المتحدة ، أن بالإمكان سحب القوات العراقية من خلال حل عربي . وهذا غير صحيح . ولعل الملك حسين والرئيس اليمني علي عبد الله صالح هما الوحيدان اللذان تبنيا الحل الدبلوماسي ، الذي أفشلته الولايات المتحدة وأصدقاؤها العرب . ولعل القصد من تأكيد هذه النقطة في المذكرات بيان أن القادة العرب لا يمكن الثقة بآرائهم وبتقديراتهم للأوضاع السياسية في المنطقة العربية ، وعجزهم عن إيجاد الحلول المناسبة لمشكلاتها ، بسبب ضعف قدراتهم الذهنية وخلافاتهم المستعصية ، وأن القادة الأمريكيين أقدر من حكام

المنطقة العرب في فهم أحوالها ومشكلاتها، وفي إيجاد الحلول المناسبة لها.

ركز الساسة والعسكريون الأمريكيون والبريطانيون في مذكراتهم على صدام حسين، ووصفوه بأنه رجل شرير ودكتاتور متعطش للدماء، ومحب للقتال. وذهب الرئيس بوش (الأب) إلى القول بأن صدام كذاب، وشبهه بهتلر. ولم يستسغ الجنرالان كولن باول ونورمان شوارتزكوبف هذه الألفاظ البذيئة من رئيس الولايات المتحدة، كما استنكر وزير الدفاع الفرنسي جان-بيير شفنمان تشبيه صدام بهتلر، مبيناً الفارق الكبير بينهما.

كان الجنرال كولن باول، رئيس هيئة رؤساء أركان الجيوش الأمريكية، والجنرال نورمان شوارتزكوبف، القائد الأعلى للقيادة المركزية الأمريكية، لا يريان ضرورة لخوض حرب من أجل تحرير الكويت، مخالفين بذلك قرار الرئيس بوش ووزير دفاعه ديك تشيني، والمحافظين الجدد في الإدارة الأمريكية. وكان هذان الجنرالان يريان أن تحل الأزمة بالطرق الدبلوماسية أو بالعقوبات التي يجب أن تأخذ مداها ليظهر مفعولها. ولأنهما عسكريان التزما بقرار الرئيس بوش.

أكد جميع الساسة والعسكريين الأمريكيين والبريطانيين أن حكام الخليج العرب يريدون تدمير القوات العراقية، حتى تصبح عاجزة عن تهديدهم في المستقبل.

حرصت الإدارة الأمريكية، منذ بداية الإعداد للحل العسكري لإخراج القوات العراقية من الكويت، على إشراك قوات عسكرية عربية في الهجوم على العراق، كي تبدو الحرب ضد صدام حسين شخصياً ونظام حكمه، وليست حرباً أمريكية-بريطانية على بلد عربي.

يلاحظ في مذكرات القادة العسكريين الأمريكيين التقليل من أهمية الدور الذي قامت به القوات العسكرية العربية في تحرير الكويت.

تؤكد مذكرات تاتشر واجتماعات مجلس الأمن القومي الأمريكي أن الدافع الأول لحرب تحرير الكويت سيطرة العراق على نفط الكويت، واحتمال سيطرته على نفط العربية السعودية، بينما ينكر العديد من الساسة الأمريكيين والبريطانيين ذلك، ويحاولون أن يعطوا للحرب مسوغات قانونية دولية ومبررات أخلاقية ودوافع إنسانية.

كان جون ميجور أكثر الساسة الغربيين نفاقاً في تمجيده لجورج بوش (الأب)، والإشادة بمناقبه ومشاعره الإنسانية، وهو يشن حرباً لقتل آلاف العراقيين من مدنيين وعسكريين. وبرر المشاركة البريطانية في حرب تحرير الكويت بالدفاع عن القانون

الدولي ، ومكافحة الاستبداد السياسي والحكم الدكتاتوري .

وعبر دوغلاس هيرد في مذكراته عن كراهيته واحتقاره للعرب الثوريين المعادين لبريطانيا ولماضيها الاستعماري ، وللعرب المحافظين أصدقاء بريطانيا على حد سواء . وتحدث عنهم بسخرية لاذعة تنم عن حقد عنصري واضح .

لقد كان جان بيير شفنمان ، وزير الدفاع ، في عهد الرئيس فرنسوا ميتران ، صادقاً وأميناً في تحليل الأزمة العراقية-الكويتية ، وفي بيان عدوانية الإدارة الأمريكية وحكومتي تاتشر وميجور منذ بداية الأزمة . كما كان صريحاً في عرض موقف رئيسه ميتران وانسياقه وراء الإدارة الأمريكية . وأوضح موقف القوى الصهيونية في فرنسا والفئات المؤيدة لها والسائرة في ركابها . وما تعرض له من أذى وإهانة وهجوم بذيء بسبب موقفه الوطني المعارض للحل العسكري ، والمطالب بحل تفاوضي لإخراج القوات العراقية من الكويت . واضطر بعد أن عجز عن تغيير موقف حكومته إلى الاستقالة من منصبه ، احتجاجاً على ذلك .

يفخر الساسة والقادة العسكريون بأن حرب تحرير الكويت لم تسفر عن أعداد كبيرة من القتلى بين القوات الأمريكية والبريطانية والحليفة ، وينسون آلاف المدنيين والعسكريين من القتلى والجرحى العراقيين ، وكأنهم لا يحسبون من البشر .

الباب الثالث

الاحتلال الأمريكي-البريطاني للعراق

٢٠٠٣-٢٠١١

التمهيد لغزو العراق واحتلاله:
النفط مقابل الغذاء

أصدر مجلس الأمن الدولي مجموعة من القرارات لمعاقبة العراق على احتلاله للكويت، لم يفرض مثلها على أية دولة عضو في الأمم المتحدة منذ أربعة أيام من صدور أول قراراته الرقم (٦٦٠) في ٢ آب ١٩٩٠، المستند إلى الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، صدر في ٦ آب القرار رقم (٦٦١) القاضي بفرض عقوبات دولية على العراق، قبل أن يتمكن من الرد على القرار (٦٦٠) أو الاستجابة له. وكان للتدخل الأمريكي-البريطاني دوره في إصدار هذه القرارات، كما تشير إلى ذلك محاضر مجلس الأمن الدولي. وفوتت هذه القرارات المتتابعة جميع الفرص المتاحة لحل عربي إقليمي لسحب القوات العراقية من الكويت. وجاء في القرار (٦٦١) منع جميع الدول «من استيراد أي من السلع والمنتجات التي مصدرها العراق أو الكويت»، و«من أي نشاطات يقوم بها رعايا أو تتم في أقاليمها ويكون من شأنها تعزيز، أو يقصد بها تعزيز، التصدير أو الشحن العابر لأي سلع أو منتجات من العراق أو الكويت» و«أي عمليات بيع أو توريد يقوم بها رعاياها أو تتم من أقاليمها أو باستخدام السفن التي ترفع علمها»، و«من جميع الدول من توفير أي أموال أو أي موارد مالية أو اقتصادية أخرى لحكومة العراق، أو لأي مشاريع تجارية أو صناعية أو لأي مشاريع للمرافق العامة في العراق أو الكويت». وألف المجلس بموجب هذا القرار لجنة من أعضائه لمتابعة تنفيذه وتقديم تقارير إلى المجلس، وطلب من الأمين العام للأمم المتحدة أن يقدم التقرير الأول خلال ثلاثين يوماً عن التقدم في تنفيذ هذا القرار.

ولجأ مجلس الأمن إلى إجراءات عسكرية بإصداره القرار (٦٦٥) في ٢٥ آب ١٩٩٠، الذي منح قوات التحالف الأمريكية والبريطانية المرابطة في الخليج الحق في متابعة تطبيق القرار (٦٦١) بتفتيش السفن للتحقق من عدم شحنها مواد إلى العراق. وأكمل مجلس الأمن الحصار الجوي بإصداره القرار (٦٧٠) في ٢٥ أيلول

١٩٩٠ . وبذلك تحولت العقوبات المفروضة على العراق إلى حصار بحري وجوي . وبعد انتهاء العمليات العسكرية وانسحاب القوات العراقية من الكويت في ١٩٩١/٢/٢٦ ، وإعلان وقف إطلاق النار في ١٩٩١/٢/٢٨ ، كان من المفروض أن يلغي مجلس الأمن قراره (٦٦١) الذي كان الهدف منه جلاء القوات العراقية عن الكويت . ولكن مجلس الأمن أصدر القرار رقم (٦٨٧) في ١٩٩١/٤/٣ بفرض عقوبات جديدة أشد على العراق .

احتوت ديباجة القرار الجديد على (٢٦) فقرة ، كما احتوى القرار على (٣٤) فقرة للعقوبات ؛ إذ أكد عدم امتثال العراق لقرار مجلس الأمن (٦٦٠) لسنة ١٩٩٠ ، وقرر سريان العقوبات التي تضمنتها قراراته السابقة بشأن العراق ، مع استثناء حظر بيع أو توريد سلع أساسية أو منتجات غير الأدوية والإمدادات الصحية للعراق ، وحظر المعاملات المالية المتصلة بها ، وأن يعيد النظر كل ستين يوماً ، في ضوء سياسات حكومة العراق وممارستها ، بما في ذلك تنفيذ جميع قرارات المجلس . وبهذا القرار يخول المجلس «لجنة العقوبات» الموافقة على استثناءات لحظر استيراد السلع الأساسية والمنتجات التي مصدرها العراق ، عندما تكون لازمة . وحظر القرار المطالبة بأي تعويض ناجم عن الأضرار التي نجمت عن تطبيق القرار (٦٦١) .

كان مجلس الأمن قد ألف في ١٩٩١/١/٣٠ ثلاثة أفرقة : الأول لنزع أسلحة العراق ، والثاني للحالة الإنسانية (حقوق الإنسان في العراق) ، والثالث لبحث موضوع الأسرى الكويتيين . وقد أوضح الفريق الثاني في تقرير ٣٠ آذار بشأن الحالة الإنسانية في العراق أن النفط يشكل (٦٠) بالمئة من الدخل القومي الاجمالي في العراق و(٩٥) بالمئة من صادراته ، وأن نسبة تصدير العراق لنفطه تساهم في تعديل الأسعار العالمية للنفط . وبضغط من الولايات المتحدة وبريطانيا ، استهدفت قرارات مجلس الأمن تحويل النفط العراقي من وسيلة لضمان الموارد الكافية لتمتع شعبه بحقوق الإنسان الأساسية إلى وسيلة ابتزاز سياسية ، ومصدر لتغطية نفقات الأمم المتحدة ، وتغذية صندوق التعويضات الذي فرض على العراق . وبناء على ذلك أصدر مجلس الأمن الدولي القرار (٧٠٦) في ١٩٩١/٨/١٥ الذي أباح بيع العراق كميات من النفط لتمويل شراء المواد الغذائية والأدوية والمواد والإمدادات لتلبية الحاجات الإنسانية ، بحيث لا تتجاوز قيمة ما يباع منه (٦,١) مليار دولار . وأصدر المجلس القرار (٧١٢) في ١٩٩١/٩/١٩ القاضي بأن يتمتع النفط الخاضع لهذا القرار

بالحصانة إزاء الإجراءات القانونية ، وأن لا يكون خاضعاً لأي شكل من أشكال الحجز أو المصادرة أو الحراسة ، وأن تكفل الدول عدم تحول حصيلة البيع عن الأغراض المحددة في القرار (٧٠٦) .

استمرت الأوضاع الإنسانية في التدهور في العراق بسبب عدم اتفاق حكومته والأمم المتحدة على تطبيق قراري مجلس الأمن (٧٠٦) و(٧١٢) ، واعتراض الحكومة العراقية على أن هذين القرارين يمسان حق العراق في السيطرة على موارده الطبيعية ، الذي يشكل جزءاً من سيادته على ثرواته . ولما كان العراق يشتري المواد الغذائية بموجب عقود تقبل الجهات المزودة لها باستيفاء قيمتها من أموال العراق المجمدة في مصارف خارج العراق ، فقد عمدت الولايات المتحدة وبريطانيا إلى إصدار قرار جديد من مجلس الأمن للحيلولة دون ذلك ، فأصدر المجلس في ١٩٩٢/١٠/٢ قراره رقم (٧٧٨) الذي طلب من الدول التي فيها أموال مجمدة للحكومة العراقية بتحويل تلك الأموال إلى حساب الضمان المعلق Escrow Account المنصوص عليه في القرارين (٧٠٦) و(٧١٢) لسنة ١٩٩١ . وبموجب ذلك يحول (٣٠) بالمئة من هذه الأموال إلى صندوق التعويضات ، ويستعمل الباقي لتغطية تكاليف نشاطات الأمم المتحدة في ما يتعلق بإزالة أسلحة الدمار الشامل ، وتوفير الإغاثة الإنسانية في العراق .

وزاد مجلس الأمن في تشدده بأن أصدر في ١٩٩٥/٤/١٤ قراره رقم (٩٨٦) القاضي بتطوير أحكام قراره (٧٠٦) لسنة ١٩٩١ ، بحيث يأذن للدول باستيراد النفط العراقي بمعدل سنوي لا تتجاوز قيمته أربعة مليارات دولار ، تستخدم كما يلي :

١- تمويل شراء الأدوية ، واللوازم الصحية ، والمواد الغذائية ، والإمدادات اللازمة لحاجات العراق المدنية الأساسية .
٢- توفير ما بين (١٣٠) مليون و(١٥٠) مليون دولار كل (٩٠) يوماً لبرنامج الأمم المتحدة الإنساني في محافظات العراق الشمالية الثلاث .
٣- تحويل (٣٠) بالمئة إلى صندوق التعويضات بموجب قرار مجلس الأمن رقم (٧٠٥) لسنة ١٩٩١.
٤- تغطية التكاليف التي تتحملها الأمم المتحدة للنشاطات المرتبطة بتنفيذ هذا القرار .
٥- تغطية التكاليف الجارية لعمل اللجنة الخاصة بتنفيذ القرار .
٦- تغطية أية نفقات معقولة تقر لجنة العقوبات صرفها لشراء قطع غيار ومعدات .

٧- توفير مبلغ عشرة ملايين دولار كل (٩٠) يوماً لتغطية ما جاء في قرار مجلس الأمن (٧٧٨) لسنة ١٩٩٢ .

تأخرت الحكومة العراقية في تنفيذ هذا القرار ، حتى وقعت مذكرة تفاهم مع الأمم المتحدة في ١٩٩٦/٥/٢٠ ، ولم يبدأ تنفيذها فعلياً إلا في ١٩٩٦/١٢/١٠ ، واستمر برنامج النفط مقابل الغذاء هذا منذئذ وحتى الاحتلال الأمريكي-البريطاني للعراق سنة ٢٠٠٣ .

وفيما يلي تلخيص لما تم وفق هذا البرنامج بين ١٩٩٦/١٢/١٠و ٢٠٠٣/٤/٣٠ :

أ- بلغت قيمة النفط العراقي المبيع طوال هذه المدة (٣٧,٣٣) مليار دولار و٢٨,٨ مليار يورو .

ب- بلغ مجموع ما رصد للمواد الإنسانية في العراق (١٩,٧) مليار دولار و١٦,٣٧ مليار يورو .

ج- حوّل إلى لجنة التعويضات مبلغ (١٧,٩) مليار دولار .

د- تمت تغطية نفقات الأمم المتحدة الإدارية والعملية بمبلغ (١١,١) مليار دولار .

هـ- تمت تغطية نفقات اللجنة الخاصة بالتفتيش عن الأسلحة ولجنة الرصد والتحقق التي خلفتها بمبلغ (٤٦٨,٩) مليون دولار .

و- حوّل إلى الحساب المعلق مبلغ (٢٠٩,٥) ملايين دولار .

يتضح من هذه المعلومات أن ما أنفق على لجنة التعويضات والنفقات الإدارية والعملية واللجنة الخاصة بالتفتيش والأمم المتحدة ، قد بلغ (٣٩,٤٦٨) مليار دولار ، أي ما يعادل المبلغ الذي رصد للمواد الإنسانية في العراق ، وهو مبلغ يزيد على (٥٠) بالمئة من مبيعات النفط العراقي مقابل الغذاء .

قرارات الأمم المتحدة بنزع أسلحة العراق

أصدر مجلس الأمن الدولي تسعة قرارات رئيسية تتصل بنزع أسلحة العراق ، وعدداً من القرارات التي تدين العراق لعدم تعاون حكومته مع فرق التفتيش عن الأسلحة . كان أول هذه القرارات التسعة القرار رقم (٦٨٧) لسنة ١٩٩١ ، الذي اعتبر بمثابة معاهدة استسلام فرضت على العراق . وآخر هذه القرارات هو القرار (١٤٤١) لسنة ٢٠٠٢ الذي كشف عن النوايا الحقيقية للاحتلال الأمريكي للعراق .

وقد أكد القرار الأول وجوب التزام العراق بحظر استعمال الأسلحة الكيماوية

والبيولوجية ، وطلب المجلس في هذا القرار من العراق قبول القيام بتدمير الأسلحة التالية تحت إشراف دولي : جميع الأسلحة الكيماوية والبيولوجية ، وجميع مخزونات العناصر الكيماوية وما يتصل بها من منظومات فرعية ، وجميع مرافق البحث والتطوير والدعم والتصنيع ، وجميع القذائف الباليستيه (الموجهة) التي يزيد مداها على (٥٠) كيلو متراً ، وما يتصل بها من قطع ومرافق .

وعلى العراق أن يقدم في غضون (١٥) يوماً بياناً إلى الأمين العام للأمم المتحدة بمواقع جميع المواد الآنفة الذكر ، وبكمياتها وأنواعها ، ويوافق على تفتيش عاجل في مواقعها . ونص القرار أيضاً على أن يضع الأمين العام ، بالتشاور مع المدير العام لمنظمة الصحة العالمية ، في غضون (٤٥) يوماً ، خطة تتضمن تشكيل لجنة خاصة للقيام بأعمال تفتيش مواقع الأسلحة البيولوجية والكيماوية ، وما يتعلق منها بالقذائف ، بالتعاون مع السلطات العراقية . كما نص القرار على تعهد العراق بعدم استعمال أو استحداث أو بناء أو حيازة المواد المذكورة سابقاً ، والتزامه بمعاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية المؤرخة في ١٩٦٨/٧/١ ، وتعهده بعدم إنتاج أو حيازة أسلحة نووية أو أي مرافق بحث أو تطوير أو دعم أو تصنيع تتصل بها ، وأن يقدم إلى الأمين العام والمدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية في غضون (١٥) يوماً إعلاناً بمواقع هذه المواد وكمياتها وأنواعها ، وأن يخضعها للرقابة الحصرية للوكالة ، وأن يقبل بتفتيش عاجل عن مواقعها . ويطلب القرار من المدير العام لوكالة الطاقة الذرية وضع خطة لتنفيذ ذلك في غضون (٤٥) يوماً .

ولتنفيذ القرار (٦٨٧) لسنة ١٩٩١ ، أصدر المجلس القرار (٦٩٩) في ١٩٩١/٦/١٧ ، الذي وافق فيه على خطتي الأمين العام للأمم المتحدة والمدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية ، وعلى أن تغطي الحكومة العراقية تكاليف تنفيذ هذه الخطة .

ثم أصدر المجلس قراره رقم (٧٠٧) في ١٩٩١/٨/١٥ الذي طالب العراق بالكشف عن برامجه لتطوير أسلحة الدمار الشامل والقذائف الموجهة ، والسماح بتفتيش المناطق والمنشئات والسجلات والمعدات ووسائط النقل . وأتبع ذلك بالقرار (٧١٥) الصادر في ١٩٩١/١٠/١١ بالموافقة على خطة الأمين العام للأمم المتحدة ، والمدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية للرصد والتحقق المستمرين . وأصدر المجلس في ١٩٩٦/٣/٢٧ القرار (١٠٥١) الذي تضمن آلية رصد صادرات العراق ووارداته من

الأصناف المشمولة بخط الرصد والتحقق المستمرين ، الواردة في القرار (٧١٥) لسنة ١٩٩١ .

ولما طلبت اللجنة الخاصة تفتيش المواقع الرئاسية في العراق في شباط ١٩٩٨ . رفضت الحكومة العراقية ذلك . عندها زار الأمين العام للأمم المتحدة بغداد ، ووقع في ٢٣ شباط مذكرة تفاهم مع طارق عزيز ، نائب رئيس الوزراء العراقي ، وأصدر مجلس الأمن القرار (١١٥٤) في ١٩٩٨/٣/٢ الذي أقر مذكرة التفاهم الآنفة الذكر . ثم أصدر المجلس القرار (١٢٨٤) في ١٩٩٩/١٢/١٧ بإبدال «لجنة الأمم المتحدة للرصد والتحقيق والتفتيش أو أنموفيك UNMOVIC» باللجنة الخاصة بالتفتيش . وكانت اللجنة الخاصة قد قدمت (٢٦) تقريراً إلى مجلس الأمن الدولي حول الأسلحة في العراق . وأصدر المجلس القرارات الستة التالية بإدانة العراق لعدم تعاونه مع اللجنة الخاصة : القرار (١٠٦٠) الصادر في ١٩٩٦/٦/١٢ . والقرار (١١١٥) الصادر في ١٩٩٧/٦/٢ . والقرار (١١٣٤) الصادر في ١٩٩٧/١٠/٢٣ . والقرار (١١٣٧) الصادر في ١٩٩٧/١١/١٢ . والقرار (١١٩٤) الصادر في ١٩٩٨/٩/٩ . والقرار (١٢٠٥) الصادر في ١٩٩٨/١١/٥ .

وبناء على قرار مجلس الأمن (١٢٨٤) لسنة ١٩٩٩ . تألفت لجنة الأمم المتحدة للرصد والتحقيق والتفتيش برئيس تنفيذي هو السويدي هانس بليكس Hans Blix الذي بقي رئيساً للجنة من ٢٠٠٢/٣/١ . وفي ٢٠٠٢/١١/٨ أصدر مجلس الأمن القرار (١٤٤١) قدم بعده بليكس تقريرين : الأول في ٢٠٠٢/١١/٢٧ والثاني في ٢٠٠٣/٢/٢٨ .

لم تكتف الولايات المتحدة وبريطانيا بقرارات مجلس الأمن السابقة الذكر ، والحصار الذي فرضتاه على العراق ، وإنما أعلنتا مع فرنسا في حزيران ١٩٩١ منطقة حظر جوي تشمل الأراضي العراقية الواقعة شمال خط العرض ٣٦ . وفرضت في ١٩٩٢/٨/٢٧ منطقة حظر الطيران في جنوب العراق جنوبي خط عرض ٣٢ . وزعمت الدول الثلاث أن هذا الحظر يدخل في إطار تنفيذ قرار مجلس الأمن (٦٨٨) لسنة ١٩٩١ . هذا وقد تخلت فرنسا عن المشاركة في فرض منطقة الحظر الجوي ، وقررت عدم المشاركة في طلعات طائراتها الحربية سنة ١٩٩٦ . أي بعد خمس سنوات من ممارسة هذه الطلعات . لم تكتف الدول الثلاث بفرض الحظر الجوي ، وإنما قامت بقصف جنوب العراق في ١٩٩٣/١/١٩ . هذا وقد نفذت الطائرات الأمريكية

والبـريطانيـة (١٥٠) ألف طلعـة سنة ١٩٩٧ وحـدها . وقـصـفت هذه الطائرات في ١٩٩٨/٢/١٦ عشرين راداراً ومراكز قيادة عسكرية في العراق . وتكرر هذا العدوان في ١٩٩٨/١٢/١٧ في عملية «ثعلب الصحراء» التي استهدفت مواقع عسكرية ومدنية عراقية خاضعة للرصد من اللجنة الخاصة التابعة للأمم المتحدة . وتعرضت بغداد مساء ٢٠٠١/٢/١٦ لغارة جوية أمريكية - بريطانية . وأعلن الرئيس بوش (الابن) أنها عملية روتينية .

اعترض العراق رسمياً لدى الأمين العام للأمم المتحدة على القرار الأمريكي والبريطاني بفرض الحظر الجوي على أجزاء من العراق مراراً ، وحاول الأمين العام التملص من المسؤولية .

كان للحصار الاقتصادي الذي فرض على العراق نتائج مريعة . فقد قلت المواد الغذائية الأساسية ، ولم تعد تكفي السكان ، وتدهور الوضع ، بسوء التغذية والوضع الصحي الخطر ، وماء الشرب الملوث ، والاقتصاد المنهار . مات(١١) ألف إنسان جوعاً و(١٤) ألف طفل بسبب شح الأدوية في سنة ١٩٩١ وحدها . وتطور النظام الدولي الذي أقره مجلس الأمن ليصبح أداة إبادة جماعية تديره لجنة العقوبات على العراق التابعة للأمم المتحدة . فقد رفضت هذه اللجنة ، التي يسيطر عليها أميركيون وبريطانيون ، تزويد العراق بمواد كيماوية لتعقيم المياه ، ورفضت في ١٩٩٣/٧/٢٤ تزويده بالقطن المعقم للأغراض الطبية .

ومهدت الإدارة الأمريكية في عهد الرئيس بيل كلينتون Bill Clinton (1993-2001) لغزو العراق بإصدار عدد من القوانين المحلية ، إذ أصدر الكونغرس «قانون تحرير العراق ١٩٩٨ Iraq Liberation Act» في ١٩٩٨/١٠/٣١ استهدف هذا القانون تغيير نظام الحكم في العراق برئاسة صدام حسين ، وقيام حكم ديمقراطي يحل محله . ونص على تخصيص مساعدة عسكرية خصص لها (٩٧) مليون دولار . والمبلغ الأخير يدفع لقوى المعارضة العراقية التي تساهم في تحقيق الهدف من هذا القانون . ونص توجيه الرئيس الأمريكي جورج بوش (الابن) إلى وزير الدفاع تخصيص (٩٢) مليون دولار للمنظمات العراقية التالية : الوفاق الوطني العراقي ، والمؤتمر الوطني العراقي ، والحزب الديمقراطي الكردستاني ، والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق . ويوزع مليونا دولار سنوياً على المنظمات العراقية التالية : حركة الأشوريين الديمقراطيين ، وحركة الضباط والمدنيين الأحرار ، والجبهة الوطنية

العراقية ، والحركة الوطنية العراقية ، والجبهة التركمانية ، والتوافق الإسلامي للعراق . وقد وردت هذه المعلومات في كتاب المؤلف الأمريكي بوب ود ورد Bob Woodward «خطة الهجوم Plan of Attack» الصادرة في لندن ونيويورك وتورنتو وسدني ، وعن دار النشر Simon and Schusterسنة ٢٠٠٦ (ص ١٠) .

الفصل الأول

الغزو الأمريكي-البريطاني للعراق في مذكرات جورج بوش (الابن)

حجج بوش الابن لغزو العراق واحتلاله

في مذكرات الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش (الابن) George W Bush . الذي تولى الرئاسة الأمريكية بين سنتي ٢٠٠١ و٢٠٠٩ . وهي بعنوان «نقاط القرار Decision Points» الصادرة في الولايات المتحدة عن دار النشر Virgin Book سنة ٢٠١٠ ، يخصص (٨٩) صفحة من مجموع صفحاتها البالغة (٤٩٧) صفحة للحديث عن الغزو والاحتلال الأمريكي للعراق .

واصل بوش الابن سياسة والده وسلفه بيل كلينتون في تدمير العراق سياسياً واقتصادياً وعسكرياً ، من خلال الاستمرار في فرض الحصار الشامل عليه ، ومتابعة الحظر الجوي على شماله وجنوبه ، وقصف بنيته التحتيه وقواعده العسكرية ، وتجويع شعبه وحرمانه من الأدوية الضرورية والمياه النقية . فبعد أقل من شهر على توليه رئاسة الإدارة الأمريكية ، وأثناء زيارة رسمية لرئيس المكسيك فيسنت فوكس Vicente Fox في مدينة سان كرستوبال San Cristobal ، وهي الزيارة الأولى له خارج الولايات المتحدة بصفته رئيساً ، يقول : «لسوء الحظ دخلت أخبار العراق عنوة . وبينما كنا نبدي إعجابنا بالسيرة الصافية لمزرعة فيسنت ، كانت القاذفات من سلاح الجو الأمريكي تقصف النظام الدفاعي الجوي العراقي . كانت مهمة روتينية نسبياً لفرض مناطق محظورة الطيران أنشئت بعد أن ذبح صدام الآلاف من الشيعة والأكراد الأبرياء في أعقاب حرب الخليج (تحرير الكويت) . أطلق صدام سداً من النيران أضاءت سماء بغداد ، وشدت انتباه محطة تلفزيون CNN . كما خرجت وفيسنت من منزله لعقد مؤتمر صحفي . بدأ مراسل صحفي مكسيكي بالقول : لدي سؤال للرئيس بوش . . .هل هذه بداية حرب جديدة؟»

يسرد بوش الابن رواية حرب تحرير الكويت وما تلاها من إجراءات أمريكية من منظوره الخاص كما يلي : «اندلاع النار (في بغداد) كان تذكيراً بالوضع المتدهور الذي واجهته أمريكا في العراق . قبل أكثر من عقد من الزمن في آب ١٩٩٠ اجتازت دبابات صدام حسين الحدود إلى الكويت . أعلن والدي أن عدوان صدام غير المبرر لن يستمر ، ووجه إليه إنذاراً للانسحاب من الكويت . ولما تحدى الدكتاتور مطالبه ، جمع والدي ائتلافاً من (٣٤) دولة بما في ذلك دول عربية لتنفيذه .

كان قرار إرسال قوات أمريكية إلى الكويت يعذب والدي ، ومحبطاً له في تنفيذه . صوّت مجلس الشيوخ على تفويضه بالقوة المسلحة بهامش صغير (٥٢ إلى ٤٧ صوتاً) . قدمت مجموعة من المشرعين القانونيين رسالة إلى والدي توقعت أن يكون عدد القتلى في هذه الحرب بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً من الأمريكيين . وحث الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر مجلس الأمن الدولي على معارضة الحرب ، ولكن مجلس الأمن أيد الحرب ، على أية حال .

أثبتت عملية عاصفة الصحراء نجاحاً مذهلاً . دفعت قوات الائتلاف الجيش العراقي للإنسحاب من الكويت بأقل من مئة ساعة . وقتل من الأمريكيين (١٤٩) فقط . كنت فخوراً بتصميم والدي . وتعجبت لماذا لم يرسل القوات لبغداد . فقد كانت لديه فرصة لتخليص العالم من صدام مرة واحدة وإلى الأبد ، ولكنه اقتصر على تحرير الكويت . كان هذا ما حدد للمهمة . وكان هذا ما صوّت الكونغرس من أجله وما اتفق عليه الائتلاف . إنني أفهم تماماً هذا المنطق .

اقتضى قرار مجلس الأمن الدولي رقم (٦٨٧) من صدام حسين تدمير أسلحته للدمار الشامل والصواريخ التي يتجاوز مداها تسعين ميلاً ، كشرط لإنهاء القتال في حرب الخليج - وحظر القرار على العراق امتلاك أسلحة بيولوجية وكيماوية أو وسائل إنتاجها ، ولضمان الإذعان طلب من صدام أن يقدم إلى الأمم المتحدة نظاماً يحقق إرسال ذلك .

في البداية زعم صدام أن لديه كمية محدودة من الأسلحة الكيماوية وصواريخ سكود . واكتشف مفتشو الأمم المتحدة ، مع الزمن ، ترسانة ضخمة مثيرة . لقد عبأ صدام آلاف القنابل والقذائف والرؤوس الحربية بمواد كيماوية سامة . وكان لديه برنامج نووي ، كان أمامه سنتان لإنتاج قنبلة نووية ، أقرب مما قدرته وكالة الاستخبارات المركزية CIA من ثماني إلى عشر سنوات قبل الحرب . ولما هرب صهره

سنة ١٩٩٥ ، اعترف صدام أن نظام الحكم كان يخفي برنامج أسلحة بيولوجية يشمل الانثراكس Anthrax والبوتولينوم Botulinum من المواد السامة .

ولإبقاء صدام تحت الرقابة ، فرض مجلس الأمن الدولي عليه عقوبات اقتصادية مشددة . ومع اختفاء الغضب على غزو العراق للكويت ، تحول انتباه العالم . حوّل صدام حوالي ملياري دولار من برنامج النفط مقابل الغذاء الذي أنشأته الأمم المتحدة لتزويد العراق بالحاجات الأساسية الإنسانية للعراقيين الأبرياء ، لإغناء حاشيته ، وإعادة بناء قوته العسكرية ، بما في ذلك برامج متصلة لأسلحة الدمار الشامل . ومع جوع الأطفال شنَّ حملة دعائية ينسب فيها المعاناة إلى العقوبات .

مع حلول سنة ١٩٩٨ . أقنع صدام الشركاء التجاريين الرئيسيين مثل روسيا وفرنسا بضرورة إقناع أعضاء مجلس الأمن الدولي بتخفيف العقوبات . ثم أجبر مفتشي الأمم المتحدة عن الأسلحة على مغادرة البلاد . كانت المشكلة واضحة : لم يتحقق صدام من أنه دمر كل أسلحته من حرب الخليج . مع مغادرة المفتشين كان العالم لا يعرف إذا كان قد استأنف برامجه . ردت إدارة كلنتون بشن «عملية ثعلب الصحراء Operation Desert Fox» وهي حملة من القصف الجوي لأربعة أيام قامت بها مع بريطانيا ، واستهدفت إضعاف قدرات صدام في أسلحة الدمار الشامل . في البداية وجه كلنتون من المكتب البيضاوي في كانون الأول ١٩٩٨ البيان التالي : (الحقيقة المرة أنه ما دام صدام في السلطة فإنه يهدد سعادة شعبه والسلام في المنطقة وأمن العالم . وأفضل طريقة لإنهاء هذا التهديد مرة واحدة وإلى الأبد هو بحكم عراقي جديد – حكم مستعد للعيش بسلام مع جيرانه ، حكم يحترم حقوق شعبه ، مهما كانت تكاليف العمل ثقيلة يجب أن توزن بثمن عدم العمل . إذا كان صدام يتحدى العالم ولا نرد عليه فإننا سنواجه تهديداً أعظم بكثير في المستقبل . سوف يضرب صدام جيرانه ثانية . وسوف يشن حرباً على شعبه . وانتبهوا إلى كلماتي ، سوف يطوّر أسلحة الدمار الشامل ، وسوف ينشرها ويستعملها) .

أقر الكونغرس في السنة نفسها بالإجماع قانون تحرير العراق الذي وقعه الرئيس كلنتون . وقد تضمن القانون سياسة رسمية جديدة للولايات المتحدة ، من أجل دعم الجهود لإزالة نظام الحكم الذي يرئسه صدام حسين في العراق ، وتشجيع قيام حكم ديمقراطي .

في مطلع سنة ٢٠٠١ شن صدام حسين حرباً على مستوى متدن على الولايات

المتحدة . وفي سنتي ١٩٩٩ و٢٠٠٠ أطلقت قواته النار على طيارينا الذين كانوا يحرسون مناطق الحظر الجوي .»

وعن دوره في التمهيد لغزو العراق وتبرير الغزو ، يقول بوش : «خلال الأشهر الثمانية الأولى من رئاستي تركزت سياستي على تشديد العقوبات ، أو كما وضعها كولن باول «حفظ صدام في صندوقه» . ثم جاءت ضربة الحادي عشر من أيلول (٢٠٠١) . وكان علينا أن ننظر نظرة جديدة إلى كل تهديد في العالم . كان هنالك دول تمول الإرهاب . وكان لأمريكا أعداء لدودون . وكانت هنالك دول تهدد جيرانها ، ودول خرقت المطالب الدولية . وكان هنالك دكتاتوريون قمعوا شعوبهم ، وأنظمة حكم واصلت إنتاج أسلحة الدمار الشامل . كان العراق يجمع كل هذه التهديدات .

لم يتعاطف صدام حسين مع الإرهابيين فحسب ، وإنما تبرع بالمال لأسر الانتحاريين الفلسطينيين ، ووفر ملجأ للإرهابيين مثل أبو نضال الذي شنّ هجمات وقتل تسعة عشر شخصاً في مكاتب بيع التذاكر للخطوط الجوية الإسرائيلية في روما وفينا ، وأبو عباس الذي اختطف الباخرة الإيطالية اكيلي لاورو Achille Lauro ، وقتل عجوزاً أمريكياً على كرسي متحرك . لم يكن صدام مجرد عدو لأمريكا وإنما أطلق النار على طائراتنا ، وأصدر بياناً امتدح فيه من قام بتفجيرات ٩/١١ ، وقام بمحاولة اغتيال رئيس أمريكي سابق هو والدي .

لم يهدد صدام حسين جيرانه فحسب وإنما غزا اثنين منهم : إيران في الثمانينات ، والكويت في التسعينات من القرن العشرين . لم يخرق صدام حسين المطالب الدولية فحسب وإنما تحدى ستة عشر قراراً للأمم المتحدة تعود إلى حرب الخليج . لم يحكم صدام حسين بوحشية فحسب ، وإنما قام ورجاله المخلصون بتعذيب الأبرياء ، واغتصبوا معارضيهم السياسيين أمام أسرهم ، وحرق المنشقين بالحامض ، وألقى بعشرات الألوف من العراقيين بقبور جماعية . فأصدرت حكومة صدام سنة ٢٠٠٠ مرسوماً بقطع لسان من ينتقد الرئيس أو عائلته . وفي أواخر ذلك العام قطع رأس طبيبة عراقية بتهم الدعارة . وجريمتها أنها تكلمت علناً عن الفساد في وزارة الصحة العراقية .

لم يواصل صدام حسين إنتاج أسلحة الدمار الشامل فحسب وإنما استعملها ، فقد استعمل غاز الخردل وغازات الأعصاب ضد الإيرانيين ، وقتل ما يربو على خمسة آلاف مدني بريء في الهجوم الكيماوي سنة ١٩٨٨ على قرية حلبجة

الكردية . ولا يعرف أحد ماذا فعل صدام بمخزونه من الأسلحة البيولوجية والكيماوية ، وخاصة بعد أن طرد المفتشين من العراق . ولكن بعد مراجعة المعلومة والواقع أن كل وكالة استخبارية في العالم توصلت إلى النتيجة نفسها : لدى صدام أسلحة دمار شامل في ترسانته ، ولديه القدرة على إنتاج المزيد منها . لقد لخص أحد هذه التقارير الاستخبارية المشكلة بما يلي : منذ نهاية التفتيش في سنة ١٩٩٨ . حافظ صدام على مجهوده في الأسلحة الكيماوية وفعّل برنامجه الصاروخي ، ووظف استثماراً أكبر في الأسلحة البيولوجية ، وبدأ محاولة التقدم في البرنامج النووي .»

أجمل بوش كل هذه الحجج والأسباب ليبرر بها قراره بغزو العراق واحتلاله .

أحداث ٢٠٠١/٩/١١ والعراق

يبين جورج بوش (الابن) في مذكراته أثر أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ على موقفه وموقف إدارته من العراق ، فيقول : «كان صدام قبل ٩/١١ مشكلة باستطاعة أمريكا تدبرها . تغيرت نظرتي (إلى العراق) بعد ٩/١١ في إطار نظرتي إلى العالم . لقد شهدت على التو الدمار الذي سببه تسعة عشر متعصباً مسلحين بالسكاكين . وباستطاعتي تخيل الدمار الممكن لو أن دكتاتوراً نقل أسلحة الدمار الشامل إلى إرهابيين فقط . مع التهديدات التي تدفقت على المكتب البيضاوي يومياً ، والتي دار معظمها حول الأسلحة الكيماوية والبيولوجية والنووية ، بدت كما لو كانت احتمالا حقيقياً مرعباً . كانت المخاطر عالية جداً للثقة بكلمة دكتاتور مقابل الإثبات والإجماع العالمي . كان درس ٩/١١ هو أننا إذا انتظرنا بلوغ الخطر مرحلة التأثير فإننا نكون أطلنا مدة الانتظار . توصلت إلى قرار : سنجابه التهديد من العراق بطريقة أو بأخرى .

كان خياري الأول اللجوء إلى الدبلوماسية . ولسوء الحظ كان سجلنا مع العراق في هذا الصدد غير مشجع . حافظنا على علاقات ثنائية مع بغداد في الثمانينات من القرن العشرين . وحصلنا على قرارت من مجلس الأمن الدولي في التسعينات . وعلى الرغم من التزامنا أصبح صدام أكثر عداءً لنا . لو أن الدبلوماسية قد أحرزت نجاحاً لاحتجنا لمقاربة مختلفة جذرياً . اعتقدنا أن ضعف صدام كان في حبه للسلطة ، وأنه سيفعل كل شيء في سبيل الاحتفاظ بها . لو استطعنا إقناعه بأننا جادون في إزاحته عن الحكم ، لكانت هناك فرصة للتخلص من أسلحته للدمار

الشامل ودعمه للإرهاب ، والتوقف عن تهديد جيرانه ، ومع الزمن احترام حقوق الإنسان لشعبه . وكانت فرص النجاح كثيرة . ولكن مع وجود البديل الذي يستحق بذل الجهد ، فقد سميت المقاربة (الدبلوماسية القسرية Coercive Diplomacy) . اشتملت الدبلوماسية القسرية مع العراق على نهجين : أولهما تجميع ائتلاف من الدول لبيان أن استخفاف صدام بالتزاماته الدولية كان غير مقبول ، وثانيهما تطوير خيار عسكري ذي مصداقية يمكن استعماله إذا رفض الانصياع . هذان النهجان سارا جنباً إلى جنب أول الأمر . ومع تزايد الخيار العسكري وضوحاً وتقدماً افترق النهجان . جاءت فعاليتنا القصوى قبل أن يتقاطعا . كانت لحظة القرار . وفي النهاية كان القرار قرار صدام» .

وحول دور بريطانيا في غزو العراق وتعاونها مع الإدارة الأمريكية يقول جورج بوش (الابن) : «في خريف ٢٠٠١ ، جاء رئيس وزراء بريطانيا توني بلير Tony Blair وزوجته شيري Cherie لزيارتي وزوجتي لورا Laura في منتجع كامب ديفيد . كان توني أول زعيم أجنبي دعوته ، وفاء للصداقة الخاصة بين الولايات المتحدة وبريطانيا .

لم أكن متأكداً مما أتوقعه من توني . كنت أعرف أنه رئيس وزراء لحزب العمال من يسار الوسط ، وصديق حميم لبيل كلنتون وأسرته . وجدت بسرعة أنه صريح وودود وملتزم . ويخلو توني وشيري من ضيق الأفق . قررنا بعد العشاء أن نشاهد فيلماً سينمائياً . ولما وافقا على مشاهدة «قابل الوالدين Meet the Parents» وهي ملهاة مثيرة لروبرت دي نيرو Robert De Niro وبن ستيلر Ben Stiller ، عرفت ولورا أننا سنستمر في صداقتنا .

تحدثت وتوني عن قضايا الساعة الرئيسية . قدم لي موجزاً عن السياسات في أوروبا . وبحثنا أهدافنا المشتركة في توسيع التجارة الحرة ، وتخفيف المعاناة في أفريقيا ، ومجابهة العنف في الديار المقدسة . ولم نقض وقتاً طويلاً في تناول القضايا الاجتماعية ، فقد تركت لشيري ولي .

في صيف ٢٠٠١ ، دعاني بلير مع زوجتي لورا إلى منتجع رئيس الوزارة البريطاني في تشكرز Chequers ، وهو منزل واسع مليء بأثاث عتيق مريح وصور لرؤساء الوزراء السابقين . أعد بلير ، دون استقبال رسمي ، عشاء أسرياً مريحاً مع أطفالهم الأربعة ، بمن فيهم ليو Leo الصغير البالغ من العمر (١٤) شهراً .

وفي منتصف تناولنا للوجبة وردت عقوبة الإعدام في حديثنا . أوضحت شيري

أنها لا توافق على موقفي . بدا توني غير مرتاح . أصغيت لوجهة نظرها ، ودافعت عن وجهة نظري . قلت لها : إن عقوبة الإعدام عند السيطرة عليها بالوجه المناسب يمكن أن تنقذ أرواحاً بردع الجريمة .

ولما كانت شيري محامية موهوبة بدأت أحترمها ، فقد ردت على حجتي . وأصغيت ولورا لما قاله يوان Euan ابن بلير البالغ من العمر (١٧) سنة ، الذي قال : أعط الرجل وقتاً يا أمي .

كلما قضينا وقتاً أطول مع أسرة بلير ازددت إحتراما لبلير . ومع السنين غدا أقرب شريك ، وأفضل صديق لي على الصعيد العالمي . جاء إلى الولايات المتحدة لاجتماعات أكثر من ثلاثين مرة خلال فترة رئاستي . زرته مع لورا في شمال إيرلندا وسكوتلندا ولندن . في تشرين الثاني ٢٠٠٣ ، دعاني توني وشيري لمنزلهما في تريمدون كوليري Trimdon Colliery ، وهي منطقة مناجم قديمة في الريف . قدما لنا الشاي في منزلهما الفيكتوري المبني من الطوب الأحمر . وأخذنا إلى بار المدينة Dun Cow Inn . أكلنا وجبة سمك وبطاطا Fish and Chips وفاصوليا بالفطر التي شربت معها كأسا من Bithurger غير الكحولي . وزرنا بعد الغداء مدرسة محلية . وشاهدنا لعبة كرة القدم Soccer . كان الناس لطفاء ومرحين باستثناء أزمة مكتوب عليها «مرض راعي البقر الأحمق Mad Cowboy disease» .

كان لتوني ضحكة سريعة وذكاء حاد . سأل مراسل صحفي بريطاني ، بعد لقائنا الأول : ما هو المشترك بينكما؟ أجبت : كلانا يستعمل معجون أسنان كولجيت Colgate . ورد توني سوف يتعجبون كيف عرفت ذلك يا جورج . ولما خاطب جلسة مشتركة للكونغرس سنة ٢٠٠٣ ، تحدث توني عن حرب ١٨١٢ ، حينما أحرقت القوات البريطانية البيت الأبيض ، وقال : أعرف أن هذا نوع من الأسف المتأخر .

بخلاف العديد من السياسيين ، كان توني مفكراً إستراتيجياً يستطيع أن يرى ما وراء الأفق . وكما عرفت فيما بعد ، كنت وهو روحين شقيقين في إيماننا بالقوة التحويلية للحرية . في الأسبوع الأخير من رئاستي ، كنت فخوراً بأنه كان من الزعماء القلائل الذين منحوا (ميدالية الرئيس للحرية Presidential Medal Of Freedom) .

وفوق كل ذلك لدى بلير الشجاعة . ولم تظهر هذه الشجاعة في قضية بوضوح مثلما ظهرت في العراق . فقد اعتبر توني مثلي ، صدام تهديداً للعالم لا يمكن التسامح معه بعد أحداث ٩/١١ . كان البريطانيون هدفاً للمتطرفين ، وكان لديهم

معلومات استخبارية كثيفة عن صدام . وقد أدركوا بطريقة شخصية ، التهديد الذي كان يمثله . كان صدام يطلق النار على طياريهم أيضاً .

إذا كان علينا أن نزيل صدام من السلطة ، كان علي وعلى توني التزام بمساعدة العراق على إبدال الديمقراطية بطغيان صدام . وسيكون لهذا التحول أثره خارج حدود العراق . كان الشرق الأوسط مركز الصراع الأيديولوجي في العالم . فمن جهة ، كان هناك أناس طيبون يريدون العيش بكرامة وسلام ، ومن جهة أخرى ، هناك متطرفون يريدون فرض آرائهم المتطرفة من خلال العنف والتخويف . لقد استغلوا ظروف اليأس والاضطهاد للتجنيد ونشر أيديولوجيتهم . وكانت أفضل طريقة لحماية البلدان ، على المدى البعيد ، الرد على رؤيتهم السوداء ببديل أكثر جاذبية .

هذا البديل هو الحرية ، حيث يستطيع الناس اختيار قادتهم في صناديق الاقتراع ، ويغدو من غير المحتمل اللجوء إلى العنف . وسوف لا يبحث الشباب الناشئون ، مع الأمل في مستقبل زاهر ، عن معنى في أيديولوجية الإرهاب . وحالما تلقي الحرية جذورها في مجتمع تنتقل إلى آخر .

زارني توني بلير ولورا في كروفورد Crowford في نيسان ٢٠٠٢ . تحدثت مع توني حول الدبلوماسية القسرية كأسلوب لمجابهة التهديدات من العراق . اقترح توني أن نسعى للحصول على قرار من مجلس الأمن الدولي يضع صدام أمام إنذار واضح : اسمح لمفتشي الأسلحة بالعودة إلى العراق ، أو واجه النتائج الخطيرة المترتبة على ذلك . ليس لدي شيء من الإيمان بالأمم المتحدة ، فمجلس الأمن قد أصدر ستة عشر قراراً ضد صدام دون جدوى . ولكنني وافقت على النظر في الفكرة .»

شركاء بوش في غزو العراق

بعد أن اطمأن جورج بوش الابن إلى تحالف توني بلير ، رئيس وزراء بريطانيا معه في غزو العراق ، سعى إلى كسب قادة العالم الغربي . يقول في هذا الصدد : « بحثت موضوع العراق مع زعماء آخرين في العالم خلال سنة ٢٠٠٢ . شاركني العديد منهم تقييمي للتهديد ، بمن فيهم جون هوارد John Howard رئيس وزراء أستراليا ، وخوزيه ماريا أزنار Jose Maria Aznar رئيس وزراء إسبانيا ، وجونوشيرو كويزومي Junichiro Koizumi رئيس وزراء اليابان ، ويان بيتر بالكيننذي Jan Peter Balkenende رئيس وزراء هولندا ، وأندرس فوغ راسموسن Andres Fogh

Aleksander رئيس وزراء الدغارك ، وألكسندر كـفـاسنيـفـسكي Rasmussen Kwasniewski رئيس وزراء بولندا ، وزعـمـاء آخـرون في أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية . ومن المثير للانتباه أن بعض أقوى دعاة المجابهة مع صدام كانوا أولئك الذين ما زالت لديهم ذكريات حية عن الطغيان . قال رئيس وزراء إستونيا ، الجمهورية السابقة في الاتحاد السوفياتي سيم كالاس Siim Kallas : في أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين ، ترددت الديمقراطيات الغربية في مواجهة الخطر ، وكانت النتيجة أن وقعنا تحت دكتاتوريات وفقدنا حياة العديد من الناس . العمل ضروري ضد صدام .

كان لزعماء آخرين وجهة نظر أخرى مختلفة . ففلاديمير بوتين Vadimir Putin لم يعتبر صدام تهديداً . بدا لي أن جزءاً من السبب هو أن بوتين لم يرغب في تعريض عقود النفط المربحة للخطر . ولفرنسا أيضا مصالح اقتصادية في العراق . ولذا لم أفاجأ حينما أخبرني جاك شيراك Jacques Chirac بأنه سوف يدعم التفتيش عن الأسلحة ، ولكنه يتحفظ على التهديد باستعمال القوة العسكرية ، المشكلة مع المنطقة هو أنه بدون تهديد ذي مصداقية باستعمال القوة ، ستكون الدبلوماسية بدون أسنان مرة أخرى .

أحد الزعماء الأشد هو المستشار الألماني غيرهارد شرودر Gerhard Schroeder ، التقيت به خمس مرات سنة ٢٠٠١ ، كان مرتاحاً ودمثاً ومهتماً بتقوية العلاقات الثنائية . وقدرّت قيادته في أفغانستان ، ولا سيما رغبته في عقد اجتماع المجلس الأعلى Loya Jirga في بون . بحثت مسألة العراق مع غيرهارد أثناء زيارته للبيت الأبيض في ٢٠٠٢/١/٣١ . وفي خطابي عن حالة الاتحاد الذي ألقيته بعد ذلك بيومين ، لخصت التهديدات التي يشكلها العراق وإيران وكوريا الشمالية ، وقلت : إن دولاً مثل هذه وحلفاءها الإرهابيين يكونون محور الشر Axis of evil ، مسلحة لتهديد السلم العالمي . وقد ركزت وسائل الإعلام على مصطلح محور الشر ، وأتخذت هذه الوسائل اتجاها يقول إن هذه الدول الثلاث تؤلف تحالفاً . وهذا غير صحيح ، وليس المقصود في خطابي ذلك . المحور الذي أشرت اليه هو الصلة بين الحكومات التي تواصل إنتاج أسلحة الدمار الشامل والإرهابيين الذين قد يستعملون هذه الأسلحة . كانت هناك نقطة أكبر في الخطاب لا تغيب عن أحد : كنت جدياً في التعامل مع العراق .

في اجتماع صغير في المكتب البيضاوي ضم كوندي رايس Condi Rice وأندي كارد Andy Card أبلغت المستشار الألماني بأنني عازم على أن تأخذ الدبلوماسية

دورها . وأعربت عن أملي في أن يساعدنا . وأكدت له أن كلماتنا لن تكون فارغة من معناها . فالخيار العسكري كان خيارنا الأخير ، وسوف ألجأ إليه عند الضرورة . وقد قال المستشار : ما هو صحيح في أفغانستان صحيح عن العراق والدول التي تدعم الإرهاب ، يجب أن تواجه النتائج . لو جعلته سريعاً وحاسماً سأكون معك .

اعتبرت هذا القول دعماً لي . ولكن لما جاءت الانتخابات الألمانية في أواخر تلك السنة اتخذ شرودر موقفاً مختلفاً . لقد أدان إمكانية استعمال القوة ضد العراق . قال وزير عدليته : (يريد بوش تحويل الانتباه عن المشاكل السياسية المحلية . . . . . وقد فعل ذلك هتلر) . صدمت بهذا التصريح ، وثرت غضباً : من الصعب التفكير بأي شيء أكثر إهانة من المقارنة مع هتلر من قبل موظف ألماني . واصلت العمل مع غيرهارد شرودر في مجالات المصلحة المتبادلة . ولكن كشخص يقدر الدبلوماسية الشخصية ، ركزت كثيراً على الثقة . حالما تفقد الثقة من الصعب استعادة علاقة بناءة .»

بعد شهرين من ٢٠٠١/٩/١١ طلب بوش من دونالد رمسفيلد Donald Rumsfeld وزير الدفاع ، مراجعة خطط المعركة مع العراق . يقول بوش « فقد احتجنا إلى تطوير النصف القسري من الدبلوماسية القسرية . وكلف دون الجنرال تومي فرانكس Tommy Franks الذي أصبح القائد الأعلى للقيادة المركزية المسؤولة عن الشرق الأوسط ، بعد عيد الميلاد سنة ٢٠٠١ ، جاء تومي إلى كروفورد ليوجز لي خطط المعركة في العراق . فالخطة الموضوعة على الرف تحتاج إلى ستة أشهر من التعبئة وأربع مئة ألف جندي . وتجربة أفغانستان كانت ما تزال حية في الذهن . بفضل التكنولوجيا الجديدة والتخطيط المبدع دمرنا طالبان ، وأغلقنا معسكرات القاعدة باستعمال قوات أقل عدداً ، ولم ينظر إلينا كمحتلين من قبل الشعب الأفغاني .

قال تومي لفريق الأمن القومي إنه كان يعمل على تطبيق الفكرة نفسها بوطء أخف على العراق . وتخيل غزواً سريعاً من الكويت في الجنوب ، ومن العربية السعودية والأردن في الغرب ، ومن تركيا في الشمال . وقال : إذا كان لدينا قوات متعددة ذات مهارات عالية في العمليات الخاصة محددة الأهداف وبذخيرة موجهة بدقة ، فسوف نحتاج لعدد أقل من القوات البرية التقليدية . هذا درس تعلمناه من أفغانستان .

كان لدّي كثير من المخاوف . أردت أن أعرف بأي سرعة يمكن لقواتنا التحرك ، وأي نوع من القواعد العسكرية نحتاج . وكما في أفغانستان ، كنت أخشى المجاعة بين السكان المحليين . وسألت عما يمكن أن نفعل لحماية حياة الأبرياء . وقلقت من إحراق صدام لآبار النفط أو إطلاق صواريخه على إسرائيل . وكان خوفي الأكبر من استعماله الأسلحة البيولوجية والكيماوية ضد قواتنا وضد حلفائنا أو المدنيين العراقيين .

طلبت من الفريق أن يواصل عمله على الخطة . وقلت : يجب أن نبقى متفائلين بأن الدبلوماسية والضغط الدولي سينجحان في تجريد النظام من السلاح . قلت هذا في نهاية الاجتماع . وأردفت : ولكن لا نستطيع أن نسمح لأسلحة الدمار الشامل أن تقع في أيدي الإرهابيين . لن نسمح بذلك .

بين كانون الأول ٢٠٠١ و آب ٢٠٠٢ . قابلت تومي وتحدثت معه ما يربو على اثنتي عشرة مرة . كانت الخطة قد أصبحت أفضل . ولكني لم أكن راضياً . أردت التأكد من أننا قد بحثنا مرات حالات الطوارىء . سألت تومي وبعد أسئلة كثيرة كانت تبدأ ب : ماذا لو قرر صدام أن . . . . . .؟ مشهد كنت أكرره دوماً حول تعزيز صدام لقواته في بغداد ، والدخول مع قواتنا في معركة دموية داخل المدينة . تذكرت المعركة في الصومال سنة ١٩٩٣ . ولم أرد أن أراها تتكرر ثانية في العراق . لم يكن لدى تومي وفريقه كل الأجوبة فوراً ، ولم أتوقع منهم ذلك . ولكنهم كانوا يعملون بجد لتحسين الخطة . وكل تكرار جاؤوا به إلي كان تحسيناً على الصيغة السابقة .

الخطة المحدّثة التي قدمها تومي في (غرفة الموقع) في ٢٠٠٢/٨/٥ حلّت العديد من المخاوف الرئيسية . فقد خططنا القواعد وأذونات الطيران فوق الأراضي من القادة في الخليج . وضع تومي خطة للعمليات الخاصة لضمان مواقع أسلحة الدمار الشامل المشكوك فيها ، وحقول نفط العراق في الجنوب ، وقواعد إطلاق صواريخ سكود . كما صمم قصفاً جوياً شاملاً ، بحيث يجعل مكلفا على وحدات النخبة من الحرس الجمهوري البقاء في العاصمة ، معطلاً فرص مشهد بغداد القلعة . قال تومي بلهجته التكساسية : السيد الرئيس ستكون هذه الخطة صدمة ورعباً .

كانت هناك مشاكل كثيرة تحتاج إلى حل . كلنا خشينا إمكانية قيام صدام بشن هجوم بيولوجي أو كيماوي على قواتنا ، وهكذا كان العسكريون يعملون على الحصول على ملابس واقية . لقد زدنا تدريجياً مستوى القوات وتجهيزاتها في الكويت ، تحت

غطاء التدريب وتمارين روتينية أخرى ، مما يجعل بالإمكان البدء بعمليات قتالية بسرعة ، إذا أعطيت الأمر بإعلان الحرب . وتكلم رئيس الأركان المشتركة الجنرال ديك مايرز Dick Myers عن أهمية إقناع تركيا لفتح أراضيها ، بحيث نستطيع إقامة جبهة شمالية . أثار جورج تنيت Geroge Tenet مدير وكالة الاستخبارات المركزية CIA ، الخوف من قيام حرب إقليمية أوسع تهاجم فيها سوريا إسرائيل ، أو أن توجه إيران جماعتها الإرهابية بالوكالة (حزب الله) لإثارة عدم الاستقرار . بيّن دون رمسفيلد أن حرباً قد تبعث عدم الاستقرار في الأردن والعربية السعودية ، بحيث تقع أمريكا في قنص بشري لصالح صدام ، وأن بإمكان العراق أن يتشظى بعد التحرير .

هذه السيناريوهات المحتملة كانت واقعية . وكانت كذلك الإيجازات التي كنا نتلقاها .

اللجوء إلى مجلس الأمن لتبرير العدوان على العراق

يروي جورج بوش (الابن) في مذكراته التقارير الاستخبارية التي كانت تؤكد تطوير العراق لأسلحة الدمار الشامل : «جاء في تقرير مؤرخ في تموز ٢٠٠٢ أن العراق قد أعد لتطوير البنية التحتية أسلحة الدمار الشامل . وحذرنا إيجاز (عسكري) آخر من أن نظام صدام كان على وشك إنتاج العامل المسبب للانثراكس مع سموم البوتولينوم والافلاكستوتين والريسين . وجاء فيه أيضاً ان الأليات الجوية المجردة الخالية من الرجال تعطي بغداد وسائل أكثر تدميراً للتزود بالأسلحة البيولوجية . وتظهر التجربة أن صدام ينتج أسلحة الدمار الشامل للاستعمال وليس لمجرد الردع .

تلقيت في صيف ٢٠٠٢ نبأ مروعاً ، وهو أن أبا مصعب الزرقاوي ، أحد الإرهابيين المرتبط بالقاعدة الذي خبر الأسلحة البيولوجية في أفغانستان ، كان يعمل مختبراً في شمال شرقي العراق . والمختبر المشكوك فيه في هذه المنطقة قد ينتج سموماً للاستعمال الإرهابي . والزرقاوي مخطط إرهابي نشيط ، استهدف المصالح الأمريكية والإسرائيلية . وتقارير حساسة من مصلحة سرية تشير إلى أن الزرقاوي كان يقوم بجهود لتهريب مادة كيميائية غير معروفة من شمال العراق إلى الولايات المتحدة .

لم نستطع القول بالتأكيد إذا كان صدام يعرف أن الزرقاوي في العراق . وليس لدينا معلومات استخبارية تشير إلى أن الزرقاوي قد قضى شهرين في بغداد يتلقى العلاج الطبي ، وأن عدداً من العاملين في القاعدة قد دخلوا إلى العراق . عملت

وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) مع جهاز مخابرات عربي رئيسي لدفع صدام على إخراج الزرقاوي من العراق . رفض صدام ذلك . وكان السؤال إذا كان بالإمكان قصف مختبر السموم في صيف ٢٠٠٢ .عقدنا سلسلة من الاجتماعات لمجلس الأمن القومي على أعلى مستوى .

تحدث الجنرال مايرز ، رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة عن الخيارات : صواريخ توما هوك أو ضربة جوية من طائرة B52 القاذفة أو غارة برية سرية . رأى ديك تشيني ودون رمسفليلد في الزرقاوي تهديداً واضحاً ، وأن إخراجه سيعزز مبدأ أن أمريكا لا تتسامح بوجود آمن للإرهاب . شعر كولن باول وكوندي رايس أن قصف المختبر قد يخلق عاصفة نارية دولية ، ويقطع جهودنا لبناء ائتلاف لمواجهة صدام - خاصة في محاولتنا لتجنيد تركيا ، التي كانت في غاية الحساسية حول أي نشاط في شمال شرقي العراق . قال كولن : قد ينظر إلى هذا كبداية من طرف واحد لبدء الحرب في العراق .

واجهت معضلة إذا ضربت أمريكا بهجوم بيولوجي من العراق سأكون مسؤولاً ، لأنني لم آخذ التهديد مأخذ الجد حيث توافرت الفرصة . ومن جهة أخرى فإن قصف المعسكر قد يضعف الدبلوماسية ويؤدي إلى نشوب قتال عسكري . قلت لأجهزة الاستخبارات أن تراقب هذا المختبر . قررت في الوقت الراهن الاستمرار في النهج الدبلوماسي . ولكن شيئاً واحداً كان واضحاً لي : العراق تهديد خطير تزداد خطورته يومياً . قضيت وقتاً طويلاً في كروفورد ، فهو مكان طيب للتأمل والتفكير في القرار التالي الذي أواجهه : كيف التحرك إلى الأمام على المسار الدبلوماسي . كان أحد الخيارات الحصول على قرار من الأمم المتحدة يدعو صدام لإعادة مفتشي الأسلحة . والآخر كان إصدار إنذار يطلب منه نزع السلاح- وجمع ائتلاف دولي لإزاحته إذا لم يذعن .»

من وجهة نظر قانونية ،لم ير بوش القرار ضرورياً . فقبل ثلاث سنوات أزال الرئيس كلنتون وحلفاؤه في حلف شمال الأطلسي الدكتاتور سلوبودان ميلوسوفيتش Slobadan Milosovic عن السلطة في صربيا ، بدون قرار واضح من الأمم المتحدة . جادل تشيني ورمسفيلد بأن لا حاجة لقرار من أجل غزو العراق أيضاً ، وفي النهاية لدينا ستة عشر قراراً من مجلس الأمن ضد العراق . واعتقد الاثنان أن الذهاب إلى الامم المتحدة قد يبدأ بعملية بيروقراطية طويلة تجعل من صدام أكثر خطورة . وقد

شاركتهما الرأي . ومن جهة أخرى ، كل حليف استشرته- حتى الداعين الأشداء لمجابهة صدام مثل رئيس الوزراء الأسترالي جون هوارد - قال لي إن قراراً من الأمم المتحدة ضروري لكسب دعم الشعوب في بلدانهم .

وافق كولن باول على ذلك . وطلبت منه مقابلتي في اليوم السابق لمغادرتي إلى كروفورد ، في غرفة المعاهدة Treaty Room لوحدنا في البيت الأبيض . كان كولن عاطفياً أكثر من أي مرة رأيته في اجتماع لمجلس الأمن القومي . وأخبرني أن قراراً من الأمم المتحدة هو الوسيلة الوحيدة للحصول على تأييد ودعم من بقية العالم . وذهب إلى القول إنه إذا أخرجنا صدام حسين فإن الضربة العسكرية ستكون الجزء السهل . وكما وضعها كولن : بعدها ستمتلك أمريكا العراق . وسنكون مسؤولين عن مساعدة بلد مجزأ لإعادة بنائه . أصغيت بانتباه وشاركت كولن اهتمامه . كان ذلك سبباً آخر لأملي في أن يكون للدبلوماسية فعلها .

في ذلك الصيف كان احتمال الحرب قد أصبح قصة أخبار مستهلكة في واشنطن . فقد كان المراسلون الصحفيون يسألون في الغالب إذا كان لدي خطة حربية على مكتبي . في آب ٢٠٠٢ فتحت صحيفة Wall Street Journal لأجد عموداً لبرنت سكوكروفت Brent Scowcroft ، مستشار والدي للأمن القومي بعنوان «لا تهاجموا صدام D'ont Attack Saddam» كانت حجة برنت أن الحرب على العراق قد تصرفنا عن الحرب على الإرهاب ، وقد تطلق حرب أرماجدون Armageddon التي هي المعركة الاخيرة بين قوى الخير وقوى الشر (كما وردت في العهد الجديد من الكتاب المقدس) في الشرق الأوسط . وكان استنتاجه : يجب علينا الضغط على مجلس الأمن الدولي للإصرار على نظام تفتيش عن الأسلحة في العراق بدون سابق إنذار . كانت تلك توصية عادلة . ولكني غضبت لأن برنت نشر نصيحة في الصحيفة بدلاً من قولها لي . اتصلت هاتفياً بوالدي الذي أكد لي : يا ابني ، برنت صديق . هذا قد يكون صحيحاً ولكن النقاد قد يستغلون فيما بعد مقالة برنت إذ فشل المسار الدبلوماسي .

أشاع بعضهم أن مقال برنت كان طريقة والدي بإرسال رسالة لي حول العراق . كان ذلك مثيراً للهزء . كان والدي من بين جميع الناس يدرك المخاطر ، ولو اعتقد أنني كنت أعالج أمور العراق بطريقة خاطئة لأخبرني بذلك شخصياً .»

عقد بوش الابن اجتماعاً لمجلس الأمن القومي في كامب ديفيد في ٢٠٠٢/٩/٧

لاتخاذ القرار النهائي بشأن قرار مجلس الأمن الدولي . يقول في هذا الصدد : «قبل ذلك بواحد وخمسين أسبوعاً اجتمعنا في لوريل لودج Laurel lodge للتخطيط للحرب في أفغانستان ، والآن نجتمع في الغرفة نفسها ، محاولين إيجاد سبيل لإزالة التهديد العراقي بدون حرب .

أعطيت كل واحد في الفريق الفرصة لتقديم حججه . أوصى ديك تشيني بأن نعيد القرار بشأن صدام ، ونعطيه (٣٠) إلى (٦٠) يوماً ليثبت براءته . ثم نجرده من السلاح بالقوة إذا رفض الإذعان . وأضاف : لقد حان وقت العمل . باستطاعتنا التأخير لسنة أخرى . . . إن نظام تفتيش لا يحل مشكلتنا .

دافع كولن باول عن قرار مجلس الامن بقوله : إذا أخذنا القضية إلى مجلس الأمن حصلنا بصورة منفردة ، ولن نحصل على الدعم الدولي الذي نحتاجه لتنفيذ الخطة العسكرية .

بعد الاستماع إلى الخيارات للمرة الأخيرة ، قررت الحصول على قرار من مجلس الأمن ، وقلت : يوجد غموض في نظرة المجتمع الدولي لصدام ، ونحتاج إلى جلائها . فإما أن يأتي نظيفاً بشأن الأسلحة وإما أن تقوم الحرب . قلت للفريق سوف أقدم هذه الرسالة في خطابي إلى الأمم المتحدة في الأسبوع التالي . وسوف أذكر الأمم المتحدة بأن استخفاف صدام بقراراتها تهديد لمصادقية المنظمة . فإما أن تنفذ قرارات مجلس الأمن أو أن الأمم المتحدة موجودة فقط كهيئة دولية عديمة الفائدة مثل عصبة الأمم .»

وتحدث عن لقائه بتوني بلير ، رئيس وزراء بريطانيا في تلك الليلة : «جاء توني بلير للعشاء تلك الليلة في كامب ديفيد . سر عندما أخبرته بأنني عازم على الطلب من الأمم المتحدة باتخاذ القرار . وقال : يتمنى معارضون عديدون أن نكون لوحدنا . . . أدرك كلانا ماذا يعني القرار . حالما نضع موقفنا في الأمم المتحدة فعلينا أن نبدي الرغبة في المتابعة ، مع ما يترتب على ذلك من نتائج . وإذا فشلت الدبلوماسية فسيبقى أمامنا خيار آخر . قلت لتوني : لا أريد الذهاب إلى حرب ولكني سأفعلها . وافق توني . وبعد الاجتماع أخبرت ألاستير كامبل Alastair Campbell أحد مساعدي توني السامين : أنا لست متأكداً كيف ترجمة ذلك لمن في ١٠ داوننغ ستريت (مقر رئاسة الوزراء البريطاني) . ولكن لأي كان من تكساس المعنى واضح .»

وجه بوش خطاباً إلى المندوبين في الأمم المتحدة في ٢٠٠٢/٩/١٢ جاء فيه : «يواجه العالم كله الآن اختباراً والأمم المتحدة تواجه لحظة صعبة وأيضاً حية . هل

يجب احترام قرارات مجلس الأمن وتنفيذها أو رميها جانباً دون أي نتيجة؟ وهل ستؤدي الأمم المتحدة الغرض من تأسيسها أو أنها ستكون غير معنية؟»

يقول بوش عن خطابه هذا : «إلقاء الخطاب كان تجربة سوريالية . جلس المندوبون صامتين وجامدين تقريباً في أماكنهم . كان مثل الحديث إلى متحف الشمع : رد الفعل خارج القاعدة كان مشجعاً . شكرني الحلفاء على احترام الأمم المتحدة ، وقبول نصيحتهم في الحصول على قرار . وقدر العديد في الوطن أنني تحديت الأمم المتحدة . جاء في المقال الافتتاحي لصحيفة واشنطن بوست Washington Post : إذا بقيت الأمم المتحدة سلبية في وجه هذا الخرق الطويل الأمد الفاضح لسلطتها ، في مسألة تشمل أسلحة الدمار الشامل ، فإنها بالتأكيد ستخاطر بعدم علاقتها بالأمر ، كما حذر السيد بوش» .

تفويض بوش من قبل الكونغرس ومجلس الأمن الدولي بشن الحرب على العراق

بينما كان النقاش محتدماً في مجلس الأمن الدولي حول الطلب الأمريكي لتبرير العدوان على العراق ، لجأ بوش الابن إلى الكونغرس الأمريكي للحصول على تفويض منه لشن الحرب على العراق . وكجزء من النقاش في الكونغرس ، طلب زعماء الأحزاب من الأجهزة الاستخبارية إعداد تقييم استخباري قومي يحلل برامج صدام لأسلحة الدمار الشامل . يقول بوش في هذا المقام : «جمعت وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) التقييم القومي الاستخباري ، باستعمال الكثير من المعلومات التي عرضتها عليّ خلال الشهور الثمانية عشر الماضية في جملة مختصرة رفعت عنها السرية فيما بعد . فقد انتهى التقييم الاستخباري القومي إلى ما يلي : «لدى بغداد أسلحة كيماوية وبيولوجية وصواريخ بمدى يتجاوز ما حددته الأمم المتحدة . وإذا تركت دون رقابة فمن المحتمل أن تمتلك سلاحاً نووياً خلال هذا العقد من الزمن .» . . .

كان للاستخبارات تأثيرها على أعضاء الكونغرس . قال الشيخ جون كيري John Kerry : «حينما أقترع لأعطي رئيس الولايات المتحدة التفويض باستعمال القوة عند الضرورة لنزع سلاح صدام حسين ، ذلك لأنني أعتقد أن ترسانة من أسلحة الدمار الشامل المميتة في يديه هي تهديد وتهديد خطير .» وتلاه الشيخ جاي روكفلر

Jay Rockfeller ، وهو ديمقراطي في لجنة الاستخبارات ، فقال : «تشكل قدرات صدام الحالية من الأسلحة البيولوجية والكيماوية تهديدات حقيقية لأمريكا اليوم وغداً . . وبإمكانه أن يجعل هذه الأسلحة متاحة للعديد من المجموعات الإرهابية ، كطرف ثالث لها علاقة مع حكومته . تلك المجموعات باستطاعتها في المقابل أن تجلب هذه الأسلحة إلى الولايات المتحدة ، وتشن هجوماً ضد مواطنينا ، إنني أخشى ذلك كثيراً .» وأيد الشيخ تشوك هاجل Chuck Hagel الجمهوري من ولاية نبراسكا قرار التفويض وقال : «إن مخاطر الامتناع عن العمل عالية جداً . لقد انتخبنا لحل المشكلات وليس مناقشتها . وحان الوقت لرسم طريق جديدة في العراق والشرق الأوسط .»

اقترع مجلس الشيوخ في ٢٠٠٢/١٠/١١ على قرار التفويض بـ(٧٧) صوتاً مقابل (٢٣) صوتاً ضده . أما مجلس النواب الأمريكي فقد أصدر القرار بـ(٢٩٦) صوتاً مقابل (١٣٣) صوتاً ضده . كان الهامشان أوسع من هامشي قرار التفويض من المجلسين في حرب تحرير الكويت . وحصل القرار هذا على أصوات من الحزب الديمقراطي ، مثل زعيم الأقلية في مجلس النواب ديك جيفاردت Dick Gephardt ، ورئيس الأكثرية في مجلس الشيوخ توم داشل Tom Daschle والشيوخ هيلاري كلنتون Hillary Clinton وجو بايدن Joe Biden ، وجون كيري John Kerry ، وجون إدواردز John Edwards وهاري ريد Harry Reid .

زعم بعض أعضاء الكونغرس أنهم لم يقترعوا على التفويض بالحرب وإنما على الاستمرار بالدبلوماسية . لكن القرار كان واضحاً : «الرئيس مفوض باستعمال القوات المسلحة للولايات المتحدة ، حينما يقرر أنها ضرورية ومناسبة من أجل الدفاع عن الأمن القومي للولايات المتحدة ضد التهديد المتواصل الذي يشكله العراق ، وتطبيق جميع قرارات مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ذات الصلة بالعراق .»

جاء التصويت الحاسم على قرار مجلس الأمن الدولي ٢٠٠٢/١١/٨ ، كان كولن باول ، وزير الخارجية ، يفاوض على مسائل صغيرة . ولكنه بقي متشدداً في موقفه من محتويات القرار المتعلقة بصدام حسين . يصف بوش في مذكراته الجهود الأمريكية للتصويت على القرار : احتجنا إلى تسعة أصوات من (١٥) صوتاً ، هم جميع أعضاء المجلس ، بدون حق نقض (فيتو) من فرنسا أو روسيا أو الصين . لقد أحرقنا خطوط الهاتف محاولين الاتصال بكل شخص له علاقة بالتصويت . بعد

تصويت المجلس بقليل دق جرس الهاتف في المكتب البيضاوي ، قال كولن : لقد حصلنا على ما نريد . كان التصويت بالإجماع (١٥) إلى صفر . لم تصوت فرنسا مع القرار فحسب وإنما أيضاً صوتت له روسيا والصين وسوريا . أصبح العالم الآن متفقاً . لدى صدام فرصة أخيرة للإذعان بالتزامه بالكشف عن أسلحته ونزعها . وإذا لم يفعل ذلك فسيواجه نتائج خطيرة .»

صدر قرار مجلس الأمن رقم (١٤٤١) ، والذي أعطى العراق ثلاثين يوماً لتقديم بيان دقيق حديث وشامل وكامل عن برامج أسلحة الدمار الشامل . جعل القرار عبء الاثبات واضحاً على العراق وليس على المفتشين الدوليين . لما جاء الموعد النهائي في ٢٠٠٢/١٢/٧ قدم العراق تقريره . يعرض بوش رأيه في التقرير كما يلي : «إذا جاء التقرير باعترافات نزيهة ، فإنه يعني إشارة إلى أنه فهم الرسالة التي بعث إليه بها العالم . وبدلاً من ذلك ، قدم مواعين من الورق لا صلة لها بالموضوع ، وبقصد واضح هو الخداع والتضليل . وقد سماه فيما بعد هانس بليكس Hans Blix الدبلوماسي السويسري الطيب الخلق الذي رأس فريق التفتيش من الأمم المتحدة : (ضخم الحجم فقير بالمعلومات) . وكان جو ليبرمان Joe Liberman أبرع في الإيجاز إذ قال : (كان البيان (١٢) ألف صفحة وبوزن مئة باوند) .

إذا استمر صدام في أنموذج خداعه فالطريقة الوحيدة للإبقاء على الضغط على العراق هي أن نقدم نحن الإثبات . سألت جورج تنيت (مدير وكالة الاستخبارات المركزية) ونائبه القدير جون ماكلولين John Mclaughlin ليوجزا لي ما يمكن كشفه من المعلومات الاستخبارية ، لايضاح برامج العراق لأسلحة الدمار الشامل . قبل أيام قليلة من عيد الميلاد أطلعني جون على جهدهما الأول . لم يكن مقنعاً جداً . فكرت بالعودة إلى إيجازات وكالة الاستخبارات المركزية التي تلقيتها ، والتقييم الاستخباري القومي الذي انتهى إلى أن صدام لديه أسلحة بيولوجية وكيماوية ، والمعلومات التي زودتني بها وكالة الاستخبارات المركزية ، من أجل إعداد خطابي في أيلول . قلت : بالتأكيد باستطاعتنا أن نقدم أفضل شرح لإثبات وجود الأسلحة ضد صدام . وقد وافقني على ذلك جورج تنيت وقال : إنها ضربة مدوية .

صدقته . كنت أستلم تقارير استخبارية عن العراق لمدة سنتين تقريباً . الاستنتاج بأن لدى صدام أسلحة دمار شامل كان عليه إجماع عالمي . والرئيس الأمريكي الذي سبقني صدق ذلك ، وصدقه الجمهوريون والديمقراطيون في الكونغرس ، وصدقته

أجهزة الاستخبارات في ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وروسيا والصين ومصر .

وكما وضعها فيما بعد السفير الألماني لدى الولايات المتحدة ، وهو من غير المؤيدين للحرب : (أعتقد أن جميع حكوماتنا تعتقد أن العراق ينتج أسلحة دمار شامل ، وأن علينا أن نعلم أنه ما زال يملك أسلحة الدمار الشامل) . وإذا كنا قلقين على أي شيء فهو أن وكالة الاستخبارات المركزية كانت تقلل من أهمية صدام ، كما كانت تفعل قبل حرب الخليج (تحرير الكويت) . . . وقد سألت نفسي : إذا لم يكن لدى صدام حسين أسلحة دمار شامل ، لماذا يخضع نفسه لحرب سيخسرها بالتأكيد؟»

يواصل بوش حديثه عن العراق فيقول : «خلال احتفالات عيد الميلاد سنة ٢٠٠٢ ، تحدثت إلى والدي حول العراق . لم أسع في معظم الحديث إلى نصيحة والدي حول قضايا رئيسية . فقد كنا ندرك أن لديّ حرية وصول إلى معلومات أكثر وأفضل مما لديه . كان معظم حديثنا يدور حول ما كنت أفعله جيداً ، وكان يعبر عن ثقته بي وحبه لي . كان العراق مسألة وددت أن أعرف ماذا يفكر فيها . قلت لوالدي : إنني كنت أصلي من أجل أن نتعامل سلمياً مع صدام ، ولكن كنا نعد البديل . وقد أطلعته على الاستراتيجية الدبلوماسية والدعم القوي من بلير وهوارد وأزنار ، والشك بشيراك وشرودر ، وجهودي لجمع السعوديين والأردنيين والأتراك وآخرين في الشرق الأوسط . شاركني في الأمل بأن تنجح الدبلوماسية . وقال : ابني ، أنت تعرف شدة الحرب وعليك أن تحاول كل شيء في استطاعتك لتجنبها . ولكن إذا لم يذعن الرجل فليس لديك خيار آخر» . .

قدم هانس بليكس تقريراً رسمياً إلى الأمم المتحدة في ٢٠٠٣/١/١٧ . اكتشف فريقه التفتيشي رؤوساً حربية لم يذكرها صدام حسين في بيانه ولم يدمرها . ومؤشرات إلى وجود غاز (VX) الشديد السمومية ، ومواد كيماوية يشتق منها غاز الخردل . وتحدت الحكومة العراقية عملية التفتيش . يقول بوش : «خرق نظام الحكم العراقي قرار مجلس الأمن (١٤٤١) بمنع طائرات U-2 ، وإخفاء (٣٠٠٠) وثيقة في منزل موظف نووي عراقي . قال بليكس : يبدو أن العراق لم يأت إلى قبول صحيح لنزع السلاح المطلوب .

أستطيع أن أرى ما كان يحدث : كان صدام يحاول نقل عبء الإثبات منه إلينا . وقد ذكرت شركاءنا أن قرار الأمم المتحدة قد بيّن بجلاء أن من مسؤولية صدام أن

يذعن . وكما بين محمد البرادعي ، مدير الوكالة الدولية للطاقة ، في أواخر كانون الثاني ٢٠٠٣ : الكرة في ساحة العراق كلياً . . . وعلى العراق الآن أن يثبت براءته . . عليهم أن يأخذوا طريقهم لإثبات بأي الوسائل الممكنة بأنه ليس لديهم أسلحة دمار شامل .»

من المطالبة بإزالة أسلحة الدمار الشامل إلى تحرير العراق

في أواخر كانون الثاني ٢٠٠٣ ، جاء توني بلير إلى واشنطن للاتفاق مع جورج بوش على خطة نهائية لغزو العراق . يقول بوش : «اتفقنا على أن صدام قد خرق قرار مجلس الأمن الدولي (١٤٤١) بتقديم بيان مزور . لدينا المبرر الكافي لفرض النتائج الخطيرة . ولكن توني بلير أراد أن نعود ثانية إلى الأمم المتحدة للحصول على قرار ثان يبيّن أن العراق قد رفض أخذ الفرصة الأخيرة المقدمة له . قال توني : ليس لأننا نحتاج إليه ، إن قراراً ثانياً يعطينا حماية عسكرية وسياسية .

فزعت من فكرة الخوض ثانية في الأمم المتحدة . كان تشيني ورمسفيلد ورايس يعارضون ذلك . قال كولن باول إننا لا نحتاج قراراً آخر ، وربما لا نستطيع الحصول عليه . ولكن إذا أراد توني قراراً ثانياً فسوف نحاول ذلك . وقلت : كما أرى الأمر ، فإن مسألة قرار ثان هو كيف يمكن مساعدة أصدقائنا بأفضل السبل .

إن أفضل طريقة للحصول على قرار ثان هو تقديم الإثبات ضد صدام . طلبت من كولن أن يتقدم بطلب إلى الأمم المتحدة . لقد عرف بمصداقيته كدبلوماسي يحظى باحترام عال بسبب تذمره من احتمال الحرب . عرفت أنه سيقوم بالمهمة بعناية . قضى كولن في مطلع شباط ٢٠٠٣ أربعة أيام وأربع ليال في وكالة الاستخبارات المركزية شخصياً ؛ لمراجعة المعلومات الاستخبارية لضمان أنه كان مرتاحاً لكل كلمة في خطابه في ٥ شباط أمام مجلس الأمن . قال كولن : تشير الحقائق عن سلوك العراق إلى أن صدام حسين ونظامه لم يبذل جهداً لنزع السلاح ، كما طلب منه المجتمع الدولي . حقاً إن الحقائق وسلوك العراق تظهر أن صدام حسين ونظامه يخفون جهودهم لإنتاج المزيد من أسلحة الدمار الشامل .

كان عرض كولن شاملاً وبليغاً ومقنعاً ، ولمجابهة استخفاف صدام بمفتشي الأسلحة ، كان للخطاب تأثير عميق في النقاش العام . وقد أثبت العديد من التأكيدات في خطاب كولن ، فيما بعد ، عدم دقتها . وعكست كلماته ، في الوقت

نفسه ، تقدير وكالات الاستخبارات المعتبر في الولايات المتحدة وفي العالم .

قال لي جاك شيراك : كان رجل أخلاقي . وبعد خطاب كولن أصبحنا نرى الأمور بصورة مختلفة أخلاقياً . رددت عليه بأدب وقلت لنفسي : إذا كان دكتاتور يعذب شعبه ويقتله بالغازات السامة غير أخلاقي ، فمن هو إذن؟ بعد ثلاثة أيام ، تقدم شيراك أمام الكاميرات وقال : لا شيء اليوم يبرر الحرب . وأصدر هو وغيرهارد شرودر وفلاديمير بوتين بياناً مشتركاً يعارضون فيه الحرب . جلس ثلاثتهم في مجلس الأمن . وبدت الخلافات على إصدار قرار ثان مكشوفة .

حثني توني على الاستمرار في جهودنا . وكتب إلي في ١٩ شباط : من الواضح لي من قمة الاتحاد الأوروبي أن فرنسا تريد أن تجعل من هذا اختياراً حاسماً : هل أوروبا شريك لأمريكا أم منافس لها؟ وذكرّني بأننا نحظى بدعم من ائتلاف أوروبي قوي يشمل إسبانيا وإيطاليا والدنمارك وهولندا والبرتغال وجميع دول أوروبا الشرقية . في تصويت حديث في حلف شمال الأطلسي ، أيد خمسة وعشرون من أعضاء الحلف العمل العسكري في العراق ، بينما وقفت بلجيكا ولكسمبورغ مع ألمانيا وفرنسا . تحدث رئيس وزراء البرتغال خوزيه باروسو José Barroso باسم العديد من القادة الأوروبيين حينما سأل متشككاً : نحن نواجه الاختيار بين أمريكا والعراق ، فهل سنختار العراق؟

وافقت وتوني على الاستراتيجية التالية : سوف نقدم مشروع قرار الأمم المتحدة ، ومعنا قائد إسبانيا ذو البصيرة رئيس الوزراء خوزيه ماريا أزنار ، إذا استطعنا جمع أصوات مؤيدة لنا فقد نتمكن من إقناع فرنسا وروسيا بالامتناع عن التصويت . إذا لم نتمكن من ذلك ، فسوف نسحب مشروع القرار ، وسيكون واضحاً بأنهم قد أوقفوا الجهد الدبلوماسي الأخير .

كان القرار الثاني الذي تقدمنا به في ٢٠٠٣/٢/٢٤ مهماً لسبب آخر . كان بلير يواجه ضغطاً داخلياً حول مسألة العراق . وكان مهماً بالنسبة إليه لإظهار أنه استنفذ كل بديل ممكن للقوة العسكرية . فقد تمرد فريق من حزب العمال البريطاني ضده . ومع مطلع آذار لم يكن واضحاً إذا كان بإمكان الحكومة أن تستمر في السلطة . اتصلت هاتفياً بتوني وعبرت له عن قلقي . وقلت له إنني أفضل أن يخرج من الائتلاف والحفاظ على حكومته على محاولة البقاء فيه وفقدان الحكومة . رد توني : قلت أنا معك ، وعرضت وجهة نظري ثانية . ورد علي : أنا أفهم ذلك ، وهذا طيب

منك أن تقوله . أنا أومن بصورة مطلقة بهذا . وسوف أواصل ذلك حتى النهاية . . .

بناء على رغبة توني بذلت آخر جهد لإقناع المكسيك وتشيلي العضوين في مجلس الأمن المترددين لتأييد القرار الثاني . كان اتصالي الهاتفي الأول بصديقي الرئيس فيسنت فوكس ، وانتهت المحادثة إلى بداية مشؤومة . حين أخبرت إذا كان لي أن أقدم نصيحة يجب أن لا ينظر إلى إنه يتعاون مع الفرنسيين . وأضاف أنه سوف يفكر في ذلك ويعيد الاتصال بي . . . وحديثي مع الرئيس التشيلي ريكاردو لاغوس Richardo Lagos لم يسفر عن نتيجة أفضل . فهو رجل أكاديمي مميز وزعيم نشيط . . . ولكن الرأي العام في تشيلي كان ضد الحرب . ولذا رفض الاستجابة لطلبي . . .

وبتحول العملية الدبلوماسية ، تصاعد الضغط من أجل العمل العسكري . ففي مطلع سنة ٢٠٠٣ أخبرني رئيس البنك الاحتياطي Federal Reserve Chairman آلان غرينسبان Alan Greenspan أن التردد مؤذ للاقتصاد . وجاء الأمير بندر من العربية السعودية ، سفير المملكة في واشنطن ، وهو صديق لي منذ رئاسة والدي . جاء إلى المكتب البيضاوي ، وأخبرني أن حلفاءنا في الشرق الأوسط يريدون قراراً . حينما سمعت بعضهم يزعم بأننا كنا مسرعين إلى الحرب ، عدت بتفكيري إلى هذه الفترة . مضى ما يربو على عقد من الزمن منذ قرار حرب الخليج . ومضت أربع سنوات على طلب نزع سلاح صدام منذ أن طرد مفتشي الأسلحة ، كما مضت ستة أشهر على إنذاري إلى الأمم المتحدة ، وأربعة أشهر على القرار (١٤٤١) الذي منح صدام الفرصة الأخيرة ، وثلاثة أشهر على الموعد النهائي للكشف كلياً عن أسلحة الدمار الشامل . . . كان الشعور بأن الدبلوماسية مفتوحة إلى الأبد .

وفي أثناء ذلك ، استمرت التهديدات . أخبر الرئيس المصري حسني مبارك الجنرال توني فرانكس أن لدى العراق أسلحة بيولوجية ، وأنه متأكد من استعمالها ضد قواتنا . ورفض أن يوجه الاتهام علناً خوفاً من إثارة الشارع العربي . ولكن المعلومات من زعيم شرق أوسطي يعرف صدام جيداً لديه الانطباع كما لديّ . وتوجد مخاطر في العمل العسكري كما توجد مخاطر في عدم الإقدام عليه أيضاً . صدام بسلاح بيولوجي تهديد خطير لنا جميعاً .

في شتاء ٢٠٠٣ سعيت إلى الحصول على آراء حول العراق من مصادر متنوعة . طلبت النصيحة من أكاديميين ومن عراقيين منشقين عن النظام يعيشون في المنفى ، ومن آخرين خارج إدارتنا . كان أكثر الناس سحراً إيلي فيزل Elie Wiesel الناجي من

المحرقة اليهودية ، والحائز على جائزة نوبل للسلام . فايلي رجل مهذب وراق . ولكن كان فيه حماسة عاطفية في عمره البالغ (٧٤) سنة . فقد قارن وحشية صدام بالمجزرة النازية وقال : السيد الرئيس ، عليك واجب أخلاقي للعمل ضد الشر . إن قوة اقتناعه أثرت فيّ بعمق . لدينا رجل كرس حياته للسلام يحثني على التدخل في العراق .

كان كثير من أولئك الذين تظاهروا ضد العمل العسكري في العراق قد نذروا أنفسهم للدفاع عن حقوق الإنسان . ومع ذلك أدانوني لاستعمال القوة من أجل إزالة رجل قصف الأكراد بقنابل الغاز السام ، وقضى على تمرد الشيعة بقذائف الطائرات العمودية ، وذبح عرب الأهوار ، ودفن عشرات الآلاف في مقابر جماعية . إنني أدرك لماذا يختلف الناس معي على التهديد الذي يشكله صدام حسين على الولايات المتحدة . ولكنني لا أرى كيف لأي كان أن ينكر أن تحرير العراق يساهم في تقدم حقوق الإنسان .

مع تداعي الدبلوماسية ، ركزت اجتماعات التخطيط العسكري المتزايدة على ما قد يحدث في العراق بعد إزاحة صدام . في السنوات الأخيرة اتهم بعض النقاد بأننا فشلنا في الإعداد لفترة ما بعد الحرب . وهذا ليس بالتأكيد الحال كما أتذكر .

وضعت مجموعة يقودها نائب مستشار الأمن القومي ستيف هادلي Steve Hadley في خريف ٢٠٠٢ ، خططاً تفصيلية لما بعد صدام . كان أعظم اهتماماتنا المجاعة واللاجئين . كان (٦٠٪) من العراقيين يعتمدون على الحكومة كمصدر للغذاء . والتقديرات تقول إن مليوني عراقي قد يتركون مساكنهم بسبب الحرب وأثناءها .

في ٢٠٠٣/١/١٥ قدم إليوت أبرامز Elliot Abrams ، وهو موظف كبير في مجلس الأمن القومي ، إيجازاً تفصيلياً عن استعداداتنا من خطط للطعام الجاهز وللأغطية ، والأدوية والخيام ومواد الإغاثة الأخرى . وقد وضعنا خرائط للأمكنة التي سيلجأ إليها السكان . ووزعنا خبراء في الإغاثة الإنسانية لدخول العراق مع تقدم قواتنا . وقد حددنا مواقع معظم نقاط توزيع الأغذية الخمس والخمسين في العراق . ووضعنا ترتيبات مع منظمات دولية بما في ذلك برنامج الغذاء العالمي World Food Programme للتأكد من وجود كميات طعام كافية .

وطورنا خططا لإعادة بناء العراق على المدى الطويل . وركزنا على عشرة مجالات : تعليمية وصحية ومياه وطبابة وكهرباء ومأوى ونقل والحوكمة وحكم

القانون والزراعة والاتصالات والسياسة الاقتصادية . وجمعنا معلومات عن كل منها ، ووضعنا إستراتيجية ، وعيّنا أهدافاً محددة . مثلاً قدّرت منظمة المعونة الأمريكية USAID أن في العراق (٢٥٠) مستشفى عاماً غير عسكري ، و(٢٠) مستشفى عسكرياً ، وخمسة مستشفيات تابعة لكليات طب ، و(٩٩٥) مركزاً صحياً مدنياً ، وشملت خطتنا توفير مواد العمليات الجراحية في البلاد ، والعمل على تجنيد أطباء وممرضات من العراقيين والعراقيات الذين يعيشون في الخارج والعودة إلى البلاد ، وتدريب موظفين جدد للمهن الطبية ، وفي نهاية المطاف تسليم ذلك كله إلى وزارة صحة جديدة عراقية .

الاستعدادات الأخيرة لغزو العراق

يقول جورج بوش الابن في مذكراته إن من أصعب المسائل التي واجهته كيفية التخطيط لنظام سياسي بعد صدام حسين . «فقد توقعت بعض تقارير الاستخبارات أن معظم جيش صدام وشرطته سوف تبتعد عنه حالما يذهب نظام الحكم . أما القادة الكبار-أولئك الذين تلوثت أيديهم بدماء الأبرياء-لن يدعوا إلى العودة إلى الجيش أو الشرطة . ولكن قد ندعو بقية القوات في عهد صدام لتكوين أساس الجيش والشرطة العراقيين الجديدين» . وهذا يعني أنه كان من المقرر حل الجيش العراقي وقوى الأمن الداخلي قبل بدء الغزو الأمريكي للعراق .

يقول بوش : «في كانون الثاني ٢٠٠٣ ، أصدرت الأمر الرئاسي رقم NSPD24 بإنشاء (مكتب إعادة الإعمار والمعونة الإنسانية Office of Reconstruction and Humanitarian Assistance (ORHA)) الذي عهد إليه بتحويل خططنا الفكرية إلى عمل ملموس . ووضعنا المكتب في البنتاجون بحيث تنفذ جهودنا المدنية في العراق من خلال القناة نفسها مثل عملياتنا العسكرية . وقد عين دونالد رمسفيلد لرئاسة المكتب الجنرال المتقاعد جاي غارنر Jay Garner الذي كان قد تولى تنسيق جهود الإغاثة العسكرية في شمال العراق سنة ١٩٩١ . وجند طاقماً من الخبراء المدنيين من الحكومة بحيث يكونون جاهزين للانتشار في بغداد .

بإعداد خططنا وكوادرنا قبل الحرب ، شعرت أننا على أتم الاستعداد ، مع إدارك لحدود إمكانياتنا . كانت قدرات بناء أمتنا محدودة . لم يكن أحد متأكداً من الحاجات التي قد تظهر . كان لدى العسكريين مثل قديم يقول : لا تصمد أية خطة

للمعركة عند الاتصال الأول بالعدو . وما يمكن أن نتعلمه من العراق صحيح لخطة ما بعد الحرب» .

وبشأن المعركة العسكرية يقول بوش : «مع بداية آذار ۲۰۰۳ كانت خطة المعركة جاهزة ، بعد ما يربو على سنة من التمرين والأسئلة . طوّر تومي فرانكس وفريقه عملية كنت واثقاً من أنها ستطيح بصدام حسين بسرعة وبصورة حاسمة ، بأقل الخسائر من الأمريكيين والعراقيين . الشيء الوحيد الذي ظل مثاراً للشك هو دور تركيا . فلأشهر ونحن نضغط على الأتراك ليعطونا إذنا باستعمال أرضهم بحيث نستطيع إرسال (١٥) ألف جندي من فرقة المشاة الرابعة لدخول العراق من الشمال . ووعدنا بتقديم معونة اقتصادية وعسكرية في المقابل ومساعدة حصول تركيا على برامج رئيسية من صندوق النقد الدولي ، والحفاظ على دعمنا القوي لقبول تركيا في الاتحاد الأوروبي .

في لحظة ما بدا كأننا حصلنا على الإذن . وافقت حكومة عبد الله جول على طلبنا ، ولكن البرلمان التركي عقد جلسة تصويت نهائي في ۲۰۰۳/۳/۱ حالت دون ذلك ، محبطاً وفاقداً للأمل ، في واحد من أهم طلباتنا من تركيا ، رفض حليفنا في معاهدة حلف شمال الأطلسي الاستجابة .

أبقى رمسفيلد وفرانكس فرقة المشاة الرابعة في شرق البحر المتوسط ، حيث بالإمكان نقلها عبر تركيا ، إذا غيرت الحكومة رأيها أو الانضمام إلى الغزو من الكويت . وخططنا أيضاً لنشر ألف من المظليين من الفرقة (۱۷۳) المحمولة جواً إلى المنطقة الكردية في شمال العراق . ولم يكن هذا خيارنا الأول وإنما الحصول على موطئ قدم لجبهة شمالية على الأقل .

كان لدينا في الجنوب (١٥٠) ألف جندي أمريكي على حدود العراق مع (٩٠) ألفاً مرابطين في منطقة الخليج . لقد أوضحت بجلاء إمكانية استعمالهم عند الضرورة . فالدبلوماسية القسرية قد دفعتنا إلى الحد الأقصى من التعبئة . لقد افترق المساران العسكري والدبلوماسي تماماً . وأصبح الخيار بين الحرب والسلام لدى صدام حسين وحده .

كان مجلس الأمن القومي يجتمع يومياً ولأشهر لبحث المسألة العراقية . أعرف مواقف جميع مستشاري . كان ديك تشيني قلقاً من بطء العملية الدبلوماسية ، ويحذر من أن يستعمل صدام حسين الوقت لإنتاج الأسلحة وتخبئتها أو شن هجوم .

في أحد غداءاتنا الأسبوعية في ذلك الشتاء سألني تشيني مباشرة : هل أنت ذاهب إلى التخلص من هذا الرجل أم لا؟ كانت هذه طريقته في التفكير ، بعد أن أعطينا الدبلوماسية وقتاً كافياً قدّرت نصيحة ديك الفظة . قلت له إنني لست مستعداً بعد للتحرك . قال : حسناً ، السيد الرئيس ، بانتظار هاتفك .

لم يكن دون رمسفيلد واضحاً . أكد لي أن العسكريين سيكونون مستعدين إذا أعطيت الأمر . وقال بأننا لا نستطيع إبقاء (١٥٠) ألف جندي على حدود العراق إلى ما لا نهاية . كان الضغط اللوجستي لمساندة هذه القوات العديدة ضخماً . وفي وقت معين ستفقد هذه التعبئة المتزايدة قيمتها القسرية ، لأن صدام قد يستنتج أننا لم نكن جديين بإرسال قوات إلى هناك .

كانت كوندي رايس حريصة على البقاء على الحياد في اجتماعات مجلس الأمن القومي ، ولكنها أعطتني رأيها فيما بيننا . كانت مؤيدة قوية للتفتيش . ولكن بعد الاجتماع مع بليكس وفريقه اقتنعت أن صدام لن يفعل شيئاً سوى الحيلة . واستنتجت بتذمر أن الطريقة الوحيدة لفرض قرار مجلس الأمن الدولي هو اللجوء إلى الخيار العسكري .

كان لدى كولن باول أعمق التحفظات . في اجتماع بيني وبينه في مطلع ٢٠٠٣ أخبرني أنه يعتقد أن بإمكاننا معالجة تهديد العراق دبلوماسياً . وأخبرني أيضاً أنه لم يكن مرتاحاً للخطط الحربية . ولم يفاجئني بذلك . العملية التي تخيلها تومي فرانكس سوف تستعمل حوالي ثلث القوات التي كانت لدينا في حرب الخليج .

سررت حينما أخبرني أنه شارك تومي إهتمامه بالخطة . كان كولن رئيس هيئة الأركان المشتركة خلال عملية عاصفة الصحراء . وكنت واثقاً من أن تومي سيأخذ رأيه مأخذ الجد . وبينما كنت ما أزال مؤملاً بفاعلية الدبلوماسية ، أخبرت كولن أنه من الممكن أن نصل إلى نقطة تصبح فيها الحرب الخيار الوحيد أمامنا . . . وسألته إذا كان سيؤيد عملاً عسكرياً في نهاية الأمر . قال : إذا كان هذا ما يجب أن نفعله ، أنا معك أيها السيد الرئيس» .

في صباح يوم ٢٠٠٣/٣/١٦ اتجه بوش بطائرة الرئيس رقم (١) إلى جزر الأزور التابعة للبرتغال لحضور ما سماها «قمة الدقيقة الأخيرة» حول إستراتيجية الدبلوماسية مع توني بلير وخوزيه ماريا أزنار وخوزيه باروسو . . . وقد وافقنا جميعاً على أن المسار الدبلوماسي قد بلغ نهايته ، آخذين بعين الاعتبار مواقف فرنسا وألمانيا

وروسيا والمكسيك وتشيلي المعارضة للحرب وللتفويض بها . يقول بوش : «في ذلك المساء كان علي أن أعطي صدام حسين وأولاده (٤٨) ساعة لمغادرة البلاد ، وهي الفرصة الأخيرة لتجنب الحرب» .

كان توني بلير ينتظر موافقة البرلمان البريطاني ، بعد يومين في ٢٠٠٣/٣/١٧ سحب السفير الأمريكي لدى الأمم المتحدة جون نيجروبونتي John Negroponte مشروع القرار بالتفويض باستعمال القوة من مجلس الأمن الدولي . ووجه بوش خطابا إلى الشعب الأمريكي تضمن إنذاراً إلى العراق جاء فيه : «لم يسلك (صدام حسين) وفق مسؤولياته ، وهكذا سننهض بمسؤولياتنا . . . على صدام حسين وأبنائه أن يغادروا العراق خلال ثمان وأربعين ساعة . رفضهم لذلك سينجم عنه نزاع عسكري سيبدأ في وقت نختاره نحن» .

يقول بوش : «كان وقع اليومين التاليين عليّ كما لو كانا أسبوعاً . حصلنا على أنباء جيدة يوم الثلاثاء (٢٠٠٣/٣/١٨) . فقد حصل توني بلير على موافقة البرلمان البريطاني بهامش قوي . ستكون بريطانيا إلى جانبنا .

جعلني جورج تنيت وكولن باول على معرفة بآخر التطورات في العراق . كان آخر آمالنا موافقة صدام على أن يعيش في المنفى . في وقت ما كان هنالك عرض من حكومة شرق أوسطية لإرسال صدام إلى روسيا البيضاء مع مليار إلى ملياري دولار ، قد يشد الانتباه . . .

في صباح الأربعاء دعوت مجلس الأمن القومي إلى الاجتماع ، حيث أعطيت الأمر بشن عملية الحرية العراقية Operation Iraqi Freedom . وبعد ذلك بست ساعات ، تلقيت مكالمة هاتفية غير متوقعة من دون رمسفيلد قال إن لديه أمراً رئيسياً يجب بحثه معي . كان هو وجورج تنيت في طريقهما إلى المكتب البيضاوي . سألت : ماذا جرى؟ قال جورج : «السيد الرئيس نعتقد أن لدينا فرصة لقتل صدام حسين» . يقول بوش : «إن شبكة من مصادر الاستخبارات في العراق نقلت إلينا أن صدام وبعض أفراد عائلته من المحتمل أن يقضوا الليلة في مسكن خارج بغداد في مزرعة دورة . إذا قصفنا الموقع فقد نتمكن من قتل رأس النظام . كنت أشك في ذلك ومع ذلك ، أعطيت الأمر بقصفها . وتبين فيما بعد أن الاستخبارات مخطئة .

في يوم الأربعاء ٢٠٠٣/٣/١٩ دخلت إلى اجتماع أملت أنه غير ضروري . اجتمع مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض ، وعلى شاشة الفيديو الآمنة ظهر

الجنرال تومي فرانكس جالساً مع نوابه في قاعدة الأمير سلطان الجوية في العربية السعودية . وفي الشاشات الخمس الأخرى كان قادة جيشنا وأسطولنا وجنود بحريتنا وقواتنا الجوية وقادة العمليات الخاصة . وانضم إليهم أقرانهم من القوات المسلحة البريطانية وقوات الدفاع الاسترالية .

سألت كل رجل سؤالين : هل لديك ما تحتاجه للنصر؟ وهل أنت مرتاح للاستراتيجية؟ وأجاب كل منهم بالإيجاب . كان تومي آخر المتحدثين ، قال القائد الأعلى للقوات في الخليج : السيد الرئيس هذه القوات جاهزة . التفت إلى دون رمسفيلد وقلت : السيد الوزير ، من أجل سلام العالم ولصالح الشعب العراقي وحريته أعطي الأمر بتنفيذ عملية الحرية العراقية ، بارك الله في القوات المسلحة . أدى تومي التحية العسكرية وقال : السيد الرئيس ، بارك الله أمريكا» .

احتلال العراق والفوضى الذي رافقته

يصف الرئيس جورج بوش (الابن) مشاعره بعد اتخاذه القرار بغزو العراق بهذه العبارات : «احتجت لبعض الوقت لاستيعاب مشاعر اللحظة . غادرت غرفة الموقع (Situation) ، وصعدت الدرج ، ودخلت إلى المكتب البيضاوي ، ومنه دلفت ببطء وهدوء بدورة حول المرج الجنوبي للبيت الأبيض . صليت من أجل قواتنا ، ومن أجل أمن البلاد ، ومن أجل القوة في الأيام القادمة . وفجأة ظهرت أمامي كلبة الصيد الوثابة من البيت الأبيض متوجهة نحوي . كنت مرتاحاً لرؤية صديقة ، سعادتها تناقضت مع الثقل الملقى على قلبي . كان هناك شخص واحد يفهم ما كنت أشعر به ، جلست على مكتبي في غرفة المعاهدة Treaty Room وكتبت الرسالة التالية :

عزيزي الوالد ،

في الساعة ٩,٣٠ صباحاً ، أعطيت الأمر لوزير الدفاع لتنفيذ خطة الحرب لعملية الحرية العراقية . ومع أنني قررت استعمال القوة قبل أشهر قليلة ، إذا اقتضت الحاجة ، لتحرير العراق وتخليص البلاد من أسلحة الدمار الشامل ، فقد كان القرار عاطفياً .

أعرف أنني اتخذت القرار الصحيح ، وأضرع إلى الله أن يقلل عدد الضحايا ، فالعراق سيكون حراً ، والعالم سيكون أكثر أمناً . لقد مرت مشاعر اللحظة والآن أنتظر كلمة لتغطية العمل الذي سيحدث . أعرف ما ذهبت إليه .

محبك : جورج

وبعد ساعات قليلة جاء الجواب على هذه الرسالة عبر الفاكس :

عزيزي جورج ،

مذكرتك الخطية التي استلمتها الآن لمست شغاف قلبي . أنت تفعل الشيء الصحيح . قرارك الذي اتخذته قبل قليل أقسى قرار كان عليك اتخاذه حتى الآن . ولكنك اتخذته بقوة ورحمة . من حقك أن تقلق على خسارة الحياة البريئة سواء أكانت عراقية أم أمريكية . ولكنك فعلت ذلك ، وهو ما كان عليك أن تفعله .

قد يساعدك قليلاً أنك تواجه جملة من المشاكل الأقسى التي واجهها رئيس مثل لينكولن . إنك تحمل العبء بقوة ورحمة . تذكر كلمات روبين Robin : أحبك أكثر مما يستطيع اللسان أن يقول . حسناً وأنا أفعل ذلك .

المخلص : والدك

في اليوم التالي لقصف مزارع دورة ، بدأ نشاط عسكري محموم . فقد شرع الفيلق الخامس وقوة حملة مشاة البحرية First Marine Expeditionary Force القيام بمهامه من الحدود الجنوبية للعراق مع الكويت باتجاه بغداد . وفي الوقت نفسه كانت قواتنا الجوية تقصف العاصمة العراقية . أطلقنا في الضربة الأولى ما يربو على (٣٠٠) صاروخ كروز ، تلاها قاذفات ستيلث Stealth الخفية ، وتركزت على مقرات القيادة العسكرية والحكومية . . . لم تكن مجرد صدمة ورعب فحسب وإنما كانت أكثر الغارات الجوية دقة في التاريخ .

وانتشر مشاة البحرية في جنوب العراق لحماية حقول النفط الرئيسية . كما قامت القوات الخاصة البولندية وقوات البحرية الأمريكية SEAL بحماية البنية التحتية لتصدير النفط . احتلت فرقة مدرعة بريطانية مدينة البصرة وميناء أم قصر الحيوي . وفي شمال العراق ، قام المظليون الأمريكيون بالاستيلاء على نقاط عبور ، وساعدوا في بناء جسر جوي للتزود بالمعونة الإنسانية . وبدعم من القوات الكردية تم تدمير معسكر مصعب الزرقاوي . وفي غرب العراق ، قامت القوات الأمريكية والبريطانية والأسترالية الخاصة بمراقبة الصحراء بحثاً عن صواريخ سكود ، و«التأكد من أن العراق لن تكون له الفرصة لمهاجمة العربية السعودية والأردن وإسرائيل أو أي حلفاء في المنطقة» .

يقول بوش في مذكراته : «مع نهاية الأسبوع الثاني وصلت قواتنا أطراف بغداد . وتحملت عواصف الرمل المؤذية للعيون والحرارة العالية والمعدات الثقيلة للحماية من

هجوم بيولوجي أو كيمياوي كنا نخشاه . وواجهت مقاومة شرسة من قوات صدام المخلصة له ، التي هاجمت من سيارات مدنية واختفت خلف حواجز بشرية . ومع ذلك حققت قواتنا أسرع تقدم في تاريخ الحروب .

في ٤ نيسان كان الرقيب بول راي سميث Paul Ray Smith ورجاله يستولون على ساحة قرب مطار بغداد . وقد وقعوا في كمين نصبه لهم الحرس الجمهوري ، وأوقعوا بهم إصابات بالغة . وقاتل الرقيب سميث حتى قتل . وقد كشف تقرير أنه قتل خمسين من القوات العراقية وأنقذ حياة مئة جندي أمريكي .

في اليوم التالي دخلت فرقة المشاة الثالثة الأمريكية مدينة بغداد . ووصلت فرقة مشاة البحرية الأولى بعد ذلك بيومين . وفي صباح ٩ نيسان ، أثناء اجتماع لمجلس الأمن القومي ، نقل إلينا تومي فرانكس أن العاصمة العراقية قد تسقط في أية لحظة . . . لما انتهى الاجتماع ، أخبرني دان بارتليت Dan Bartlett أنه وجب عليّ أن أشاهد التلفزيون . لم يكن لي تلفزيون في المكتب البيضاوي ، ولذا ذهبت إلى خارجه حيث كان يجلس مساعدي . رأيت جمهوراً من العراقيين في ميدان الفردوس ببغداد فرحين ، بينما كانت آلية لمشاة البحرية تجر تمثالاً لصدام حسين طوله أربعون قدماً .

لعشرين يوماً كنت أشعر بالقلق ، والآن أشعر بالارتياح والاعتزاز . . . ما زالت قوات صدام تسيطر على أجزاء من شمال العراق ، بما في ذلك مسقط رأسه تكريت . وما زالت جيوب المقاومة من المقاتلين البعثيين من (فدائيي صدام) . كان صدام وأولاده تحت الملاحقة . . قررت أن أدلي بخطاب من على ظهر البارجة الأمريكية أبراهام لنكولن Abraham Lincoln التي عادت إلى الوطن بعد عشرة أشهر في البحر» .

انتهى حكم صدام ، وكان على الأمريكيين أن ينفذوا مخططهم في العراق . يقول بوش : «مع ذهاب صدام من السلطة ، أصبح هدفنا المركزي مساعدة العراقيين على تطوير ديمقراطية تحكم نفسها وتحافظ على نفسها وتدافع عن نفسها ، وتقوم بدور الحليف في الحرب على الإرهاب . كان الهدف طموحاً ولكنني كنت متفائلاً . العديد من الصدف النادرة خططنا لها وقلقنا عليها قبل الحرب قد مرت . لم يكن هناك (بغداد القلعة) ، ولا حريق حقول النفط الشامل ، ولا المجاعة الواسعة النطاق ، ولا مذابح المدنيين على يد صدام ، ولا هجوم بأسلحة الدمار الشامل على قواتنا ، ولا هجوم إرهابي على أمريكا وحلفائها .

كانت هناك صدفة مهمة جداً لم نستعد لها بما يكفي . في الأسابيع التي تلت

التحرير ، تحولت بغداد إلى مدينة بلا أمن . روعت برؤية اللصوص يحملون الذخائر الثمينة من المتحف الوطني العراقي ، وقراءة تقارير عن الاختطاف والقتل والاغتصاب . جزء من تفسير هذا كان أن صدام قد أطلق سراح آلاف المجرمين قبيل الحرب . ولكن المشكلة كانت أعمق من ذلك . . . سألت خلال اجتماع لمجلس الأمن القومي في أواخر نيسان : ماذا يحدث؟ لماذا لا يوقف أحد هؤلاء اللصوص؟

كان الجواب القصير : يوجد نقص في أعداد القوات في بغداد . لقد انحلت الشرطة العراقية مع سقوط النظام ، واختفى الجيش العراقي . وبسبب القرار التركي ، طلب من القوات الأمريكية التي حررت بغداد الاستمرار في التحرك نحو الشمال لتحرير بقية البلاد . خلق الدمار الذي تم في تلك الأيام الأولى مشكلات لبثت دون حل لسنين قادمة . كان العراقيون يتطلعون لمن يحميهم . وبعجزنا عن حماية بغداد ، فقدنا أول فرصة لنا لإثبات قدرتنا .

رافق الفراغ الأمني فراغ سياسي . قررت تعيين إداري أمريكي لتأمين النظام . . . بدأت الفكرة في السلطة المؤقتة للائتلاف التي فوضت بقرار من مجلس الأمن الدولي . وتولى قيادتها موظف في وزارة الخارجية وخبير في مكافحة الإرهاب السفير بول بريمر L. Paul Bremer . لقد أثار جري Jerry (بول) إعجابي منذ البداية . كان قائداً عدوانياً أيدني في أن العراقيين قادرون على ممارسة الديمقراطية» .

حل الجيش العراقي اجتثاث البعث

وصل بول بريمر ، الحاكم الأمريكي الأول للعراق في ٢٠٠٣/٥/١٣ . وكان أبرز مهماته تعيين مجلس حكم عراقي يتولى المسؤولية من خلال وزارات رئيسية ، والإعداد لعودة رسمية للسيادة العراقية . يقول بوش الابن في مذكراته : «كان التعامل مع السياسات القبلية والدينية والاثنية معقداً جداً . ولكن بول وفريقه قاموا بمهامهم على خير وجه . بدأ مجلس الحكم العراقي في تموز ٢٠٠٣ ، بعد أربعة أشهر من التحرير . وضم (٢٥) عراقياً من جميع الخلفيات . كان أمام العراقيين طريق طويل ، ولكنهم خطوا الخطوة الأولى نحو حكم تمثيلي .

كان تشكيل مجلس الحكم طريقة مهمة لبيان أن طغيان صدام قد ولّى إلى الأبد . وأصدر بول أمرين بعيد وصوله إلى بغداد بقليل : أحدهما حرم البعثيين من المشاركة في الحكومة الجديدة في العراق ، والثاني حل الجيش العراقي رسمياً ، بعد

أن اختفى من تلقاء نفسه . وقد حقق الأمران أهدافهما ، فقد رحب شيعة العراق وأكراده- الذين يؤلفون أكثرية السكان-بالتخلص من صدام . وكان للقرارين آثارهما النفسية التي لم أتوقعها . لقد اعتبرهما العديد من السنة بأن لا مكان لهم في عراق المستقبل . كان هذا خطيراً وبخاصة في حالة الجيش . فقد أبلغ آلاف المسلحين بأن لا حاجة لهم ، وبدلاً من التقدم إلى الجيش الجديد انضم العديد منهم إلى المتمردين (المقاومة) .

وفي المقابل كان من الواجب عليّ الإصرار على مزيد من النقاش حول أوامر بريمر ، وخاصة حول حل الجيش ، وكم عدد السنة الذي سيلحق بهم أذى من اجتثاث البعث . إن اجتثاث البعث الذي نادى به أحمد جلبي قد أسفر عن قطع أعمق مما توقعنا ، بما في ذلك أعضاء الحزب في المستوى المتوسط ، مثل المعلمين . . . وكان هنالك نداءات متشددة . . . ولو استنتج الشيعة بأننا لم نكن جادين بإنهاء عهد البعث لانقبلوا على الائتلاف ، ورفضوا أهدافاً ديمقراطية موحدة ، وتحالفوا مع إيران . ليس هنالك سبيل للتأكد مما قد يحدث . ولكن النقاش بإمكانه أن يعدنا بصورة أفضل لما تلا ذلك .

استمر الوضع الأمني في التدهور في صيف ٢٠٠٣ ، وغدا العراق مركز جذب للمتطرفين : بعثيين متمردين ، وفدائيي صدام ، وإرهابيين أجانب منتسبين للقاعدة ، وفيما بعد مناضلين شيعة وعملاء لإيران . هذه المجموعة لها أيديولوجيات متباينة ، ولكنها تشترك في هدف مباشر : إخراج الأمريكيين من العراق . كانوا يعرفون أنهم لن يحرزوا نصراً في قتال مباشر ضد قواتنا . ولهذا نشروا المتفجرات على جوانب الطرق ، وهاجموا اهدافاً غير عسكرية مثل السفارة الأردنية ، ومبنى الأمم المتحدة في بغداد . ولجأوا إلى تكتيك آخر باختطاف عمال إعادة الإعمار وإعدامهم وعرضهم على فيديو الانترنت . كانت استراتيجيتهم تقديم صورة عن العراق كحالة لا أمل فيها ، ولا يمكن تحقيق النصر فيها لدى الرأي العام الأمريكي المتردد في موقفه من الحرب ، وإكراهنا على الانسحاب ، كما حدث في فيتنام . وقد نجحوا إلى حد ما . كان من الصعب على الأمريكي العادي أن يفرّق بين الإرهابيين المنحرفين وملايين العراقيين العاديين ، الذين كانوا ممتنين لتحرير بلادهم . حاولنا الحصول على الأنباء الطيبة-الهدوء النسبي في الشمال الكردي والجنوب الشيعي ، وإعادة بناء المدارس والمستشفيات وتدريب الجيش العراقي الجديد . . .

في مطلع تموز ٢٠٠٣ ، سألني مراسل صحفي عن الهجمات على قواتنا ، فقلت : هناك من يشعرون كما لو أنهم إذا هاجمونا فقد نقرر مغادرة العراق نهائياً . . في أي وقت تحدثت فيه عن العراق كان المستمعون ثلاثة أصناف لكل منهم تصور مختلف : الجمهور الأول هم الشعب الأمريكي ، الذين يعد دعمهم أساسياً لتمويل الحرب وتزويدها بالمقاتلين . اعتقدت أن معظم الأمريكيين يريدون أن ننتصر في العراق . ولكن إذا بدا الثمن عالياً جداً أو النصر بعيداً جداً فقد يعتريهم السأم . ومن المهم لي أن أؤكد أهمية القضية وعزمنا على النصر . والجمهور الثاني هو قواتنا . لقد تطوعوا للخدمة ، وخاطروا بأرواحهم بعيداً عن الوطن ، واحتاجوا وعائلاتهم أن يعرفوا أنني أومن بهم ، وأقف بثبات خلف مهمتهم ، ولا أتخذ قرارات عسكرية تقوم على السياسات . والجمهور الثالث هو الشعب العراقي . يريد بعضهم مغادرتنا . ولكن كنت مقتنعاً أن الأكثرية الساحقة من العراقيين يريدون منا أن نبقى مدة كافية للمساعدة في قيام مجتمع ديمقراطي . ومن المهم أن أنقل إليهم تصميمي على إتمام العمل الذي بدأنا به» .

مع نهاية سنة ٢٠٠٣ ، كانت قوات الائتلاف الدولي في العراق مكونة من قوات برية لثلاثين دولة ، بما فيها فرقتان متعددة الجنسيات بقيادة بريطانيا وبولندا ومساندة لوجستية من آخرين عديدين . . . لم تجد هذه القوات مخازن للأسلحة البيولوجية والكيمياوية ، التي اعتقدت كل وكالة استخبارات في العالم (الغربي) أنها لدى صدام . يقول بوش حول هذا الموضوع الذي كان المبرر الوحيد المعلن لغزو العراق واحتلاله : «لما لم نكتشف أي شيء تضايقت . كان الصحفيون يثيرون باستمرار هذا السؤال : أين أسلحة الدمار الشامل؟ كنت أسأل السؤال نفسه . لقد أكد لي العسكريون والاستخبارات أنهم كانوا يبحثون عن ذلك دوماً . لقد فتشوا مواقع مخفية استعملها صدام خلال حرب الخليج ، وجمعوا معلومات . وفي وقت معين سمعت وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) أن صناديق كبيرة قد اكتشفت عند جسر فوق نهر الفرات . وانتشر الضفادع البشرية للأسطول في المكان دون أن يجدوا شيئاً . أحضر أحد كبار الموظفين في الإمارات العربية المتحدة خرائط لنفق اعتقد ان صدام استعمله لإخفاء أسلحته . حفرنا في الأرض دون أن نجد شيئاً .

جند جورج تنيت (مدير وكالة الاستخبارات المركزية) ديفيد كاي David Kay رئيس مفتشي الأمم المتحدة عن الأسلحة في العراق سنة ١٩٩١ ليقود فريقاً جديداً

من المفتشين . قام كاي ببحث واسع في العراق . ووجد دليلاً لا يدحض أن صدام قد كذب على العالم ، وخرق قرار مجلس الأمن الدولي رقم (١٤٤١) . وجاء في تقريره للكونغرس في تشرين الأول ٢٠٠٣ : (مضى على برنامج أسلحة الدمار الشامل العراقي أكثر من عقدين من الزمن ، واحتوى على آلاف العاملين فيه ، وبلايين الدولارات ، وتمت حمايتها بعمليات أمنية وخداع استمرت إلى ما بعد نهاية عملية الحرية العراقية . ولكن كان هناك شيء واحد لم يجده كاي : مخازن أسلحة الدمار الشامل التي توقعها كل واحد» .

حاول بوش الدفاع عن نفسه ، بعد فقدان المبرر الوحيد لغزو العراق واحتلاله بقوله : «هرول اليسار إلى تهمة جديدة : كذب بوش ومات الناس . كانت التهمة غير منطقية . لو أردت تضليل البلاد لدخول الحرب فلماذا أختار ادعاءً من المؤكد عدم إثباته علناً بعد غزو البلاد بقليل؟ كانت التهمة غير شريفة . لقد قرأ أعضاء الإدارة السابقة جون كيري وجون إدواردز والأغلبية الساحقة من الكونغرس التقرير الاستخباري نفسه الذي قرأته أنا ، وانتهى بأن لدى العراق أسلحة دمار شامل . وكذلك كان رأي وكالات الاستخبارات في العالم . لم يكذب أحد . كنا جميعاً على خطأ . عدم وجود مخازن لأسلحة الدمار الشامل لم يغير من حقيقة أن صدام كان تهديداً . في كانون الثاني ٢٠٠٤ قال ديفيد كاي : (كان منطقياً أن نستنتج أن العراق يشكل تهديداً وشيكاً . . . ما علمناه خلال التفتيش جعل العراق أخطر مكان محتمل من الحقيقة التي فكرنا بها حتى بعد الحرب) .

وما زلت أعتقد أن الفشل في إيجاد أسلحة الدمار الشامل قد يحول فكرة الجمهور عن الحرب . ومع أن العالم أصبح بلا شك أكثر أمناً مع زوال صدام ، تبقى الحقيقة أنني أرسلت القوات الأمريكية إلى معركة مبنية على تقارير استخبارية ثبت عدم صحتها . كانت تلك ضربة قوية لمصداقيتنا-ولمصداقيتي-التي قد تهز ثقة الشعب الأمريكي .

لم يكن أحد مصدوماً أو غاضباً أكثر مما كنت ، لمّا لم نجد الأسلحة . انتابني شعور بالمرض كل مرة فكرت بذلك ، وما زلت أشعر به . بينما كان القتال أصعب مما توقعت في العراق ، بقيت متفائلاً . وقد شجعني مئة ألف من العراقيين الذين تطوعوا في الانضمام إلى القوات الأمنية . وتقدم زعماء ليحلوا محل أعضاء في المجلس الحاكم اغتيلوا ، ومن قبل أناس عاديين مشتاقين للحرية» .

يشيد بوش بالقوات الأمريكية وبدورها البطولي في احتلال العراق فيقول : «كانت ثقتي بقواتنا فقط . بفضلهم ألقي القبض على معظم رجال نظام حكم صدام ، وقتلوا في نهاية سنة ٢٠٠٣ . في تموز ٢٠٠٣ ، وصلت إلينا معلومة أن ولدي صدام موجودان في منطقة الموصل شمال العراق . حاصر اللواء المحمول جواً (١٠١) بعد انضمام القوات الخاصة إليه بقيادة الجنرال ديفيد بيترايوس David Petraeus المبنى الذي يختبئ فيه ولدا صدام : عدي وقصي . بعد قتال دام ست ساعات تم قتل الاثنين . ثم تلقينا فيما بعد معلومة استخبارية أن صدام قد قرر قتل بربارة وجينا مقابل قتل ولديه» .

إلقاء القبض على صدام حسين ونتائجه

يقول بوش (الابن) في مذكراته إن كاندي كارد Candy Card عرض عليه في أواخر سنة ٢٠٠٣ زيارة العراق لشكر القوات المحتلة ، فقبل العرض . ولما كانت المخاطرة عاليــة في هــذه الزيــارة ، فقد حاول نائب رئيس هيئة الأركان الجنرال جو هاغن Joe Hagin ، الذي يعمل مع الجهاز السري والمكتب العسكري في البيت الأبيض ، إلغـاءها . ولكنه أصر على الزيارة ، واصطحب كـونـدوليـســا رايس في هذه الرحلة . انطلقت طائرة الرئيس من قاعدة سلاح الجو أندروز إلى بغداد . وكان في استقباله في المطار بول بريمر والجنرال ريكاردو سـانشيـز Ricardo Sanchez القـائد الأعلى للقوات الأمريكية في العراق . يصف بوش زيارته بهذه العبارات :

«ذهبنا إلى قاعدة الطعام حيث اجتمع (٦٠٠) جندي لوجبة عيد الشكر . كان من المفروض أن يكون بريمر ضيف الشرف . قال للجنود لديه رسالة العيد للرئيس : دعنا نرى شخصاً أعلى هنا . . . خرجت من خلف ستارة ، وتقدمت إلى المنصة في القاعة المزدحمة . تردد بعض الجنود المذهولين لثانية ثم صرخوا وصفّروا . اغرورقت عيون بعضهم بالدموع وسالت على وجوههم . وقد أخذت بالعاطفة . هذه هي الأرواح التي حررت العراق قبل ثمانية أشهر بأوامري . شاهد العديد منهم القتال ، ورأى بعضهم أصدقاءهم يسقطون . أخذت نفساً عميقاً وقلت : جئت برسالة ، نيابة عن أمريكا . نحن نشكركم على خدمتكم ، نحن فخورون بكم ، وأمريكا تقف بثبات خلفكم» .

تناول الرئيس بوش العشاء مع الجنود . ثم التقى بأربعة من أعضاء مجلس الحكم

وأمين بغداد وأعضاء المجلس البلدي . وفي الليلة نفسها عاد إلى واشنطن . يقول بوش بعد عودته : «في يوم السبت الموافق ٢٠٠٣/١٢/١٣ اتصل بي دون رمسفيلد هاتفياً . وكان قد تحدث إلى الجنرال جون أبي زيد John Abizaid الذي حل محل الجنرال تومي فرانكس بعد تقاعد الأخير في تموز . كان جون مفكراً لبنانياً أمريكياً يتكلم العربية ويفهم الشرق الأوسط . اعتقد جون أننا ألقينا القبض على صدام حسين . وقبل أن نعلن عن ذلك للعالم أردنا أن نتأكد من ذلك مئة بالمئة . في صباح اليوم التالي ، اتصلت بي كوندي لتأكيد التقرير . إنه صدام ، على رسغه وشم أسود ثلاثي . ابتهجت بذلك . الإمساك بصدام رفع لمعنويات قواتنا ولمعنويات الشعب الأمريكي . وسيكون له تأثير نفسي على الشعب العراقي الذي كان يخشى عودته . لقد اتضح الآن أن عهد الدكتاتور قد ولى إلى الأبد .

بعد عدة أشهر جاء أربعة رجال لمقابلتي في البيت الأبيض . هم أعضاء فريق دلتا الذي قبض على صدام . أخبروني قصة اصطياده . فقد أبلغتهم الاستخبارات عن مزرعة قرب بلدة صدام تكريت . وبينما كان الجنود يمشطون الأرض ، اكتشف أحدهم حفرة . دخلها وأخرج منها رجلاً أشعث الشعر غاضباً . قال الرجل : اسمي صدام حسين ، أنا رئيس العراق ، وأريد التفاوض . رد الجندي : إحترامات من الرئيس بوش . كان مع صدام ثلاث قطع من الأسلحة بما فيها مسدس قدمه لي الرجال الأربعة في صندوق زجاجي . قلت لهم سوف أعرض الهدية في خزانتي الخاصة في المكتب البيضاوي ، وفي يوم ما في مكتبة الرئيس» .

يروي بوش النتائج التي ترتبت على إلقاء القبض على الرئيس العراقي : «وكما أملنا كان لتحرير العراق أثر تجاوز حدوده . فبعد ستة أيام من إلقاء القبض على صدام ، اعترف معمر القذافي ، عدو أمريكا لزمن طويل ، وممول الإرهاب ، علناً ، بأنه كان يطور أسلحة كيمياوية ونووية . ووعد بالكشف عن برامجه لأسلحة الدمار الشامل مع الصواريخ المتصلة بها تحت إشراف دولي شديد . ربما كان التوقيت صدفة ، ولكني لا أعتقد ذلك» .

ثم يذكر الأخطاء التي ارتكبتها إدارته في العراق فيقول : «أدت الحرب إلى نتائج لم نقصدها . قضيت ، عبر السنين ، وقتاً طويلاً في التفكير عما كان خاطئاً في العراق ولماذا . واستنتجت أننا ارتكبنا خطأين سببا العديد من العقبات التي واجهتنا . أولها أننا لم نستجب بسرعة أكثر أو بصورة أشد حينما بدأ الوضع الأمني في التدهور ، بعد

سقوط نظام صدام حسين . ففي الأشهر العشرة التي تلت الغزو ، خفضنا عدد القوات من (١٩٢) ألف جندي إلى (١٠٩) آلاف جندي . وركزنا العديد من القوات الباقية على تدريب الجيش والشرطة العراقية ، وليس على حماية الشعب العراقي . خشينا أن نخلق تذمراً بين السكان بالظهور في مظهر المحتلين . اعتقدنا أن باستطاعتنا تدريب قوات الأمن العراقية لتتولى قيادة القتال . واعتقدنا أن التقدم نحو الديمقراطية التمثيلية ، بإعطاء العراقيين من مختلف الأصول ، مشاركة في إدارة بلادهم ، هي أفضل سبيل لأمن دائم .

وبينما كان هذا المنطق يتردد فإن رغبة الشعب العراقي في الأمن بزّت كراهيتهم للاحتلال . ومن مفارقات الحرب أننا كنا ننتقد بقسوة من قبل اليسار ومن البعض في المجتمع الدولي ، بأننا نريد بناء إمبراطورية في العراق ، لم نسع قط لذلك . في الواقع كنا نكره بشدة أي شيء يشبه إمبراطورية تجعل مهمتنا صعبة أكثر . بتقليص عدد قواتنا والتركيز على تدريب العراقيين ، سمحنا للتمرد بأن يشتد زخمه . ثم تجمع مقاتلو القاعدة في العراق بحثاً عن ملجأ جديد آمن ، مما جعل مهمتنا أصعب وأخطر .

إنقاص عدد قواتنا بسرعة جداً كان أكبر فشل لنا في الإدارة أثناء الحرب . وفي النهاية كيفنا إستراتيجيتنا وحددنا المشكلات ، على الرغم من الضغط الدولي للتخلي عن العراق . واقتضى ذلك مرور أربع سنوات مؤلمة ومكلفة لعمل ذلك . وكان التقدم بطيئاً في الوقت نفسه . . . إذا نجح العراق في تحقيق ديمقراطية عملية خلال خمسين سنة من الآن فسوف تبدو السنوات الأربع الصعبة مختلفة تماماً .

الخطأ الثاني هو الفشل الاستخباري عن أسلحة الدمار الشامل في العراق . بعد عقد من الزمن تقريباً ، من الصعب وصف كيف انتشر على نطاق واسع ، الزعم بأن لدى صدام أسلحة دمار شامل ، اعتقد المؤيدون للحرب والمعارضون لها بذلك . وحتى أعضاء في نظام حكم صدام اعتقدوا بذلك . كنا كلنا نعرف أن الاستخبارات لا يمكن أن تكون مئة بالمئة مؤكدة ، هذه طبيعة عملها . ولكني إعتقدت بأن المعلومات الاستخبارية عن أسلحة الدمار الشامل في العراق كانت ثابتة . إن لم يكن لدى صدام أسلحة دمار شامل فلماذا لا يبرهن على ذلك لدى المفتشين؟ كل تقرير نفسي عن صدام أخبرني أنه متعلق بالسلطة . فإذا كان كذلك ، ولديه الرغبة في البقاء في السلطة ، فلماذا يقامر بنظام حكمه بالتظاهر بأن لديه أسلحة دمار شامل؟

جزء من التفسير جاء بعد اعتقال صدام، حينما حقق معه المكتب الفيدرالي للتحقيقات (FBI). فقد أخبر وكلاء المكتب بأنه كان يخشى الظهور بمظهر الضعيف أمام إيران أكثر من إزاحته من قبل الائتلاف. ولم يفكر قط أن الولايات المتحدة سوف تندفع لتحقيق وعودها بنزع سلاحه بالقوة. لست متأكداً مما فعلته أكثر لأبين لصدام أنني أعني ما قلت. لقد سميته جزءاً من محور الشر في خطابي حول حال الاتحاد. وتحدثت إلى غرفة مزدحمة بالناس في الأمم المتحدة، ووعدت بنزع سلاحه بالقوة إذا فشلت الدبلوماسية. وقدمنا له قراراً بالإجماع في مجلس الأمن الدولي. وسعينا إلى دعم من الحزبين في الكونغرس الأمريكي، وحصلنا على دعم قوي منه، ونشرنا (١٥٠) ألف جندي على حدود بلاده، وأعطيته إنذاراً نهائياً مدته (٤٨) ساعة بأننا على وشك غزو بلاده. وهل بالإمكان أن أكون أوضح من ذلك؟

صحيح أن صدام كان قد تلقى إشارات مضللة من فرنسا وألمانيا وروسيا، ومن المظاهرات المعادية للحرب حول العالم، وهذه لم تساعده. ولكن الحرب ليست غلطتهم. كان هنالك شخص واحد بيده السلطة لتجنب الحرب، واختار أن لا يستعملها. وبالنسبة إلى خداعه للعالم، فإن صدام في نهاية الأمر خدع نفسه».

وحول المعلومات الاستخبارية الخاطئة يروي بوش كيف عالجها: «قررت مبكراً أن لا أنتقد الوطنيين المجتهدين في وكالة الاستخبارات المركزية على المعلومات الاستخبارية الخاطئة عن العراق. لم أرد أن أكرر التحقيقات المقرفة التي دمرت معنويات المجتمع الاستخباري في السبعينات. ولكنني أردت أن أعرف لماذا كانت المعلومات التي تلقيتها خاطئة، وكيف نستطيع الحيلولة دون ارتكاب خطأ في المستقبل. عينت لجنة حزبية يتولى رئاستها القاضي لاري سلبرمان Larry Silberman والشيخ الديمقراطي السابق تشوك روب Chuck Robb لدراسة القضية. أدى تحقيقهما إلى توصيات قيمة- مثل زيادة التنسيق بين الوكالات، ونشر آراء معارضة-تجعل المعلومات الاستخبارية أكثر مصداقية بالنسبة إلى رؤساء المستقبل، دون التقليل من أهمية قدرة المجتمع الاستخباري على القيام بمهمته».

شدة المقاومة العراقية للاحتلال الأمريكي

يقول الرئيس بوش (الابن) في مذكراته إنه في أيلول ٢٠٠٦، مع اقتراب موعد الانتخابات النصفية جاء إليه صديقه ميتش ماك كونيل Mitch McConnell، وهو

الشيخ العالي المقام من ولاية كنتكي Kentucky زعيم الجمهوريين في مجلس الشيوخ الأمريكي . وقال له : «السيد الرئيس ، إن عدم شعبيتك ستكلفنا فقدان السيطرة على الكونغرس» . يعقب بوش على هذا القول : «الميتش رأي صائب ، لقد تعب العديد من الأمريكيين من رئاستي . ولكن هذا لم يكن السبب الوحيد لكون حزبنا يواجه المتاعب . كنت قد قطعت الطريق على أعضاء الكونغرس الجمهوريين ، وأرسلت بعضهم إلى السجن لتلقيهم رشى ، وبعضهم طالتهم فضائح جنسية أو تورطوا في تحقيقات التأثير على أعضاء في الكونغرس . ثم كان الإنفاق التبذيري ، والعلاقات المميزة لمشاريع «برميل الخنزير» . وفشلنا في إصلاح الضمان الاجتماعي ، على الرغم من حصولنا على الأكثرية في مجلس الكونغرس .

سألت ميتش : حسناً يا ميتش ، ماذا تريدني أن أفعل؟ قال : السيد الرئيس ، ارجع بعض القوات من العراق . لم يكن الوحيد الذي طلب ذلك مع تصاعد العنف في العراق ، طلب أعضاء من الحزبين مني سحب قواتنا . قلت : ياميتش ، أعتقد أن وجودنا في العراق ضروري لحماية أمريكا ، ولن أسحب قواتنا إلا بضمانة شروط عسكرية . وقد بينت له أنني سأضع حداً لعدد القوات لإحراز النصر في العراق وليس النصر في الانتخابات . ما لم أقله له هو أنني كنت أعيد النظر جدياً في نقيض توصياته . فبدلاً من سحب القوات كنت على وشك اتخاذ أقسى قرار في رئاستي وأكثرها عدم شعبية : نشر عشرة آلاف جندي زيادة في العراق ، ضمن استراتيجية جديدة ، بقائد جديد وبمهمة لحماية الشعب العراقي ، والمساعدة في ظهور الديمقراطية في قلب الشرق الأوسط» .

يعرض بوش ما جرى على الساحة العراقية في ظل الاحتلال الأمريكي من تطورات : «جاء تشاؤم أيلول ٢٠٠٦ مناقضاً للأمل الذي شعر به عديدون بعد تحرير العراق . وأعدنا بناء المدارس والعيادات الصحية ، وأنشأنا مجلس الحكم الممثل لأغلبية المجموعات الاثنية والطائفية . وبينما كان الانفلات الأمني والعنف يتجاوزان توقعاتنا ، بدا معظم العراقيين عازمين على بناء مجتمع حر . توصل مجلس الحكم في ٢٠٠٤/٣/٨ إلى اتفاق على القانون الإداري الانتقالي . دعت هذه الوثيقة المتميزة إلى عودة السيادة في حزيران . وتلاها انتخابات لجمعية وطنية ، وصياغة دستور ، وجولة انتخابية ثانية لانتخاب حكومة ديمقراطية .

وجهت خارطة الطريق هذه استراتيجيتنا لثلاث سنوات تقريباً . اعتقدنا أن

مساعدة العراقيين على مجابهة هذه المعالم أفضل سبيل لنظهر للشيعة والسنة والأكراد أن أمامهم رهان في بلاد حرة ومسالمة . وحالما يندمج العراقيون في العملية الديمقراطية أملنا في أن يحلوا خلافاتهم في صناديق الاقتراع . وبذلك نهمش أعداء العراق الحر . وباختصار ، اعتقدنا أن التقدم السياسي هو السبيل إلى الأمن ، وفي النهاية السبيل إلى الوطن .

ركزت إستراتيجيتنا العسكرية على ملاحقة المتطرفين ، وفي الوقت نفسه ندرب قوات الأمن العراقية . وقد ننتقل ، مع الزمن ، إلى موقع قدم عسكري للرد على التصور بأننا محتلون ، ونعزز شرعية القادة العراقيين . لخصت الاستراتيجية : بينما ينهض العراقيون ننسحب نحن . وكما قال دون رمسفيلد : علينا أن نرفع يدنا عن مقود الدراجة الهوائية .

درست تاريخ ألمانيا واليابان وكوريا الجنوبية بعد الحرب . احتاج كل منها عدة سنوات ، وجوداً عسكرياً أمريكياً لإكمال التحول من دمار الحرب إلى الديمقراطية المستقرة . ولكن حالما يفعلون ذلك يدركون أن تأثيرهم التحويلي يستحق الكلفة . ظهرت ألمانيا الغربية كماكنة الرخاء الأوروبي ومنارة حيوية للحرية طوال الحرب الباردة . ونمت اليابان حتى غدت ثاني أوسع اقتصاد في العالم وعماد الأمن في المحيط الهادي . وأصبحت كوريا الجنوبية أحد أكبر شركائنا التجاريين والحصن الاستراتيجي ضد جارتها الشمالية .

استفادت جميع هذه البلدان من شعوبها المتجانسة نسبياً ومن مناخات ما بعد الحرب السلمية . ستكون المسيرة في العراق أصعب . لقد مني العراق بالتوترات الاثنية والطائفية ، منذ أن أنشأ البريطانيون الدولة من تركة الامبراطورية العثمانية . والخوف وعدم الثقة اللذان ولدا من صدام حسين جعلا من الصعب على العراقيين المصالحة . وكان للهجمات الوحشية التي قام بها المتطرفون دورها أيضاً . وعلى الرغم من العنف ، ما زال هنالك أمل . فلدى العراق شعب شاب متعلم ، وثقافة نابضة بالحياة ، ومؤسسات حكومية عاملة . ولديه إمكانية اقتصادية قوية بفضل موارده الطبيعية . وقدم مواطنوه تضحيات للتغلب على المتمردين والعيش بحرية . وتكونت لدي الثقة مع الزمن والدعم الأمريكي الثابت بأن الديمقراطية في العراق ستنجح .

وقد جربت تلك الثقة يومياً . في كل صباح تلقيت موجزاً عن الوضع في تلك

الليلة من (غرفة الموقع) مطبوعاً على ورق أزرق اللون . وتضمن قسم من التقرير قائمة بالعدد والمكان وسبب الإصابات الأمريكية في أفغانستان والعراق .

وارتفعت الضريبة من الزمن . فقدت أمريكا (٥٢) جندياً في العراق في آذار ٢٠٠٤ ، وفقدنا (١٣٥) جندياً في نيسان ، و(٨٠) جندياً في أيار ، و(٤٢) جندياً في حزيران ، و(٥٤) جندياً في تموز ، و(٦٦) جندياً في آب ، و(٨٠) جندياً في أيلول ، و(٦٤) جندياً في تشرين الأول ، و(١٣٧) جندياً في تشرين الثاني ، حينما شنت قواتنا هجوماً كبيراً على المتمردين في الفلوجة .

شعرت بالكرب من ارتفاع عدد الموتى . لما كنت أتلقى النشرة الزرقاء كنت أضع دائرة بقلمي حول عدد الإصابات ، وأتوقف قليلاً ، وأفكر في خسارة كل فرد . كنت أواسي أعضاء الأسرة المصابة بقدر ما أستطيع . . . قابلت خلال مدة رئاستي نحو (٥٥٠) أسرة مصابة . . . لما زرت فورت لويس Fort Lewis في ولاية واشنطن في حزيران ٢٠٠٤ ، قابلت أماً فقدت ابنها في العراق . كانت غاضبة جداً ، حاولت تهدئتها . قالت : «أنت إرهابي كبير مثل أسامة بن لادن . لم يكن لدي الكثير لقوله رداً على ذلك . لقد فقدت ابنها ولها الحق في التعبير عما تشعر به أمام رجل أرسله إلى المعركة . . .»

يتناول بوش القوى العراقية التي قاومت الاحتلال الأمريكي بقوله : «لما فقدت القاعدة ملجأها الأمن في أفغانستان ، بحث الارهابيون عن ملجأ في العراق . كان العراق مرغوباً لديهم أكثر من أفغانستان . ففيه ثروات نفطية وجذور عربية . وانخفض مع الوقت عدد المتطرفين المنتمين للقاعدة في أفغانستان ، بينما ارتفع عددهم في العراق إلى عشرة آلاف مقاتل .

كان هنالك متطرفون آخرون في العراق : البعثيون السابقون ، والمتمردون السنة ، والمتطرفون الشيعة المدعومون من إيران . ولكن لم يبلغ أي منهم وحشية القاعدة . يقول النقاد إن وجود القاعدة في العراق أثبت أننا حرضنا الإرهابيين بتحريرنا العراق . لم أقبل قط هذا المنطق . كانت القاعدة ثائرة في ٢٠٠١/٩/١١ حينما لم يوجد جندي أجنبي واحد في العراق ، فهل يصدق أحد أن الرجال الذين يقطعون رؤوس الناس الأبرياء من الأسرى أو يفجرون أنفسهم في الأسواق سوف يصبحون مسالمين ، لو تركنا صدام حسين وحيداً؟ لو لم يحاول أولئك المتعصبون قتل الأمريكيين في العراق فسوف يحاولون قتلهم في أي مكان آخر . ولو تركناهم يدفعوننا للخروج من

العراق لما اكتفوا بالتوقف هناك ، وسوف يلاحقوننا إلى بيوتنا .

على الرغم من كل الجنود الذين قتلوهم ، فشل أعداؤنا في إيقافنا عن تحقيق أي هدف من أهدافنا الاستراتيجية . هدد في ربيع ٢٠٠٤ ، أبو مصعب الزرقاوي الذي عينه فيما بعد ابن لادن أميراً للقاعدة في العراق ، بإيقاف الانتقال إلى السيادة المقرر في ٣٠ حزيران . قام انتحاري في أيار بقتل رئيس مجلس الحكم عز الدين سالم . وبعد ذلك ببضعة أسابيع أدت هجمات منسقة على الشرطة العراقية والمباني الحكومية إلى قتل ما يربو على مئة إنسان ، بمن فيهم ثلاثة جنود أمريكيين . ولتعطيل الخطط الرامية إلى مزيد من الهجمات الرئيسية ، قررنا تنفيذ الانتقال إلى السيادة قبل الموعد المقرر بيومين .

كنت في قمة حلف شمال الأطلسي في إسطنبول في ٢٠٠٤/٦/٢٨ حينما شعرت بيد دون رمسفيلد فوق كتفي . أعطاني قصاصة من الورق بخط كوندي رايس : (السيد الرئيس ، أصبح العراق سيداً ، دع الحرية تسود) . وقد أعلن ذلك بول بريمر في الساعة ١٠ .٢٦ صباحاً بتوقيت العراق . . .»

الارتباك الأمريكي في معالجة الحرب الطائفية وعنف المقاومة العراقية

في كانون الثاني ٢٠٠٥ أجريت الانتخابات في العراق لاختيار جمعية وطنية مؤقتة . وكانت المقاومة العراقية قد شنت حملة للحيلولة دون الانتخابات . يصف الرئيس بوش (الابن) المعارضة لهذه الانتخابات في الولايات المتحدة : «في الوطن ارتفع الضغط عليّ . في افتتاحية لصحيفة Los Angeles Times اعتبرت الانتخابات خدعة واقترحت تأجيلها . واعتبرت الصحيفة التأخير تشجيعاً للعدو وسبباً في تشكيك العراقيين بالتزامنا بالديمقراطية . في نظري إجراء الانتخابات سيظهر الإيمان بالعراقيين ويعرض المتمردين كأعداء للحرية . ولذا لا بد من التقدم إلى الانتخابات . وقلت لفريق مجلس الأمن القومي : ستكون هذه لحظة وضوح بالنسبة إلى العالم .

في الساعة ٥,٥١ من صباح ٢٠٠٥/١/٣٠ ، طلبت الضابط المناوب في غرفة الموقع في البيت الأبيض للحصول على أول قراءة . أخبرني أن سفارتنا في بغداد قد أبلغت بوجود إقبال واسع ، على الرغم من مقاطعة العديد من السنة . وبينما كان الإرهابيون يهددون ، أظهرت الإذاعات ومحطات التلفزة عبر العالم العراقيين وهم يغمسون أصابعهم بالحبر في الهواء بفرح . . .

أسفرت الانتخابات عن جمعية وطنية عينت لجنة لصياغة الدستور . توصل العراقيون في آب إلى الاتفاق على دستور يعد الأكثر تقدماً في العالم العربي . وثيقة تضمن الحقوق المتساوية للجميع ، وتحمي حرية الدين والاجتماع والتعبير . لما ذهب الناخبون إلى صناديق الاقتراع في ١٥ تشرين الأول ، كان الإقبال أوسع مما كان في انتخابات كانون الثاني ٢٠٠٥ . وكان العنف أخف ، وقد صودق على الدستور ب (٧٩) صوتاً مقابل (٢١) صوتاً من الحضور .

وأجريت الانتخابات الثالثة في كانون الأول ٢٠٠٥ ، لإحلال مجلس نيابي محل الجمعية الوطنية المؤقتة . تحدى العراقيون ، مرة أخرى ، التهديدات الارهابية . من نحو اثني عشر مليون نسمة من السكان ، أقبل أكثر من ٧٠٪ وأدلو بأصواتهم . وفي هذه المرة شارك السنة بأعداد كبيرة . . .

كنت فخوراً بقواتنا ومنفعلاً من أجل العراقيين . وبإجراء الانتخابات الثلاثة في سنة ٢٠٠٥ ، أنجزت علامة رئيسية على الطريق إلى الديمقراطية» .

يتحدث بوش (الابن) عن الصراع الطائفي في العراق ، والذي أشعل نارة تنظيم القاعدة بقيادة أبو مصعب الزرقاوي . ويذكر تدمير مقام الإمام العسكري في سامراء الذي يحتوي على قبري الإمامين والد وجد الإمام المنتظر (الثاني عشر) عند الشيعة في ٢٠٠٦/٢/٢٢ . ورد الشيعة على ذلك وبلغ الصراع أشده .

يقول بوش : «مع تصاعد العنف احتاج العراق لقائد قوي . وجهت كوندي رايس والسفير زال خليل زاد Zal Khalilzad الذي نقل من كابل إلى بغداد للضغط على العراقيين لاختيار رئيس وزراء . بعد أربعة أشهر من الانتخابات قاموا باختيار مفاجئ لنوري المالكي . فهو منشق ، حكم عليه بالإعدام في عهد صدام . عاش المالكي في المنفى في سوريا . اتصلت به هاتفياً في اليوم الذي اختير فيه . ولما لم يكن لديه هاتف مضمون السرية ، جاء إلى السفارة الأمريكية . قال زال : السيد الرئيس هذا رئيس الوزراء الجديد . قلت له : شكراً ، ابق على الهاتف مدة أطول بحيث يعرف رئيس الوزراء مدى قربه منك ومني . قلت : تهاني السيد رئيس الوزراء . أردت منك أن تعرف أن الولايات المتحدة ملتزمة كلياً بالديمقراطية في العراق . سوف نعمل معاً على هزيمة الإرهابيين ودعم الشعب العراقي بثقة .

كان المالكي ودوداً ومخلصاً ، ولكنه كان جديداً على السياسة . أوضحت له رغبتي في صداقة شخصية وثيقة . وكذلك فعل هو . كثيراً ما تحدثنا في الأشهر

التالية هاتفياً ومن خلال الفيديو كونفرانس Video Conference . كنت حذراً أن لا أستأسد عليه أو أجور عليه . أردته أن يعدني شريكاً وربما معلماً . كان يتعرض لضغوط كثيرة من الآخرين . كان يحصل مني على النصيحة والتفهم . وحالما حصلت على ثقته أصبحت في وضع أفضل على مساعدته في اتخاذ قرارات صلبة . أملت أن يؤدي تأليف حكومة المالكي إلى توقف للعنف . ولكن ذلك لم يحصل . كثرت التقارير عن القتل الطائفي بشيء من الرعب . قامت فرق الموت بخطف وقح . وزودت إيران المقاتلين بالمال والتدريب ، وبالقذائف الشديدة الانفجار لقتل جنودنا . تراجع العراقيون إلى جحورهم الطائفية متوقعين الحماية حيثما وجدوا .

كان قائد قواتنا على الأرض في العراق الجنرال جورج كيزي George Casey جنرالاً بأربع نجوم ، ذا خبرة ، قاد قواتنا في البوسنة ، وخدم كنائب لرئيس هيئة أركان الجيش . وقد أوصى به دون رمسفيلد لقيادة قواتنا في العراق ، حينما تخلى الجنرال ريكاردو سانشيز عن موقعه في صيف ٢٠٠٤ .

قبل نقل جورج إلى بغداد ، دعوته ولورا مع زوجته شيلا Sheila لتناول طعام العشاء في البيت الأبيض . وانضم إلينا سفيرنا في بغداد جون نيجروبونتي John Negroponte ، وهو دبلوماسي خبير وماهر تطوع لهذه الوظيفة وزوجته ديانا . قدم لي جورج سيرة حياة مدرب كرة القدم الأسطوري فنس لومباردي Vince Lombardi . كان جورج قد عمل مدير تجهيز لفريق Washington Redskins خلال آخر موسم للومباردي . كانت الهدية تنبئ عن نفسها . ومثل مدرب كرة القدم المعجب به لم يكن جورج لامعاً ومشهوراً . كان قائداً صلباً ومستقيماً كقطعة من الغرانيت كما كان لومباردي .

كان الجنرال كيزي-مثل الجنرال أبي زيد ودون رمسفيلد-مقتنعاً بأن قواتنا قد خلقت شعوراً بالاحتلال ألهب العنف وغذى التمرد . دعمت لعامين ونصف العام إستراتيجية الانسحاب لقواتنا حالما يتمكن العراقيون من الحلول محلها . ولكن في الأشهر التي تلت تفجيرات سامراء بدأت أتساءل إذا كانت مقاربتنا تتفق مع الواقع على الأرض . لم يتوقف العنف الطائفي ، لأن مواقع أقدامنا كانت كبيرة جداً . . .

كل واحد في فريق الأمن القومي شاركني القلق على الأحوال المتدهورة ، ولكن مستشاري للأمن القومي ستيف هادلي Steve Hadley هو أول من ساعدني على إيجاد حل . شد ستيف انتباهي خلال الحملة الانتخابية سنة ٢٠٠٠ ، حينما كان في الفريق الاستشاري للسياسة الخارجية الذي جمعته كوندي رايس . كان ستيف

شخصية عامة متذمرة . ولما وضع أمام الكاميرا ، حمل سلوكه العلمي وعرضه المنطقي مصداقية عظيمة . وخلف الأضواء كان مفكراً وثابتاً . كان يصغي ويحلل ويتأمل دون أن يطيل التفكير . وكان يرتب خياراته بوضوح . . .

كنت ألتقي ستيف يومياً تقريباً مدة رئاستي الثانية . بعد يوم مرهق في ربيع ٢٠٠٦ كنا نراجع النشرة الزرقاء . . . كنت أهز رأسي وأقول : هذه لا تحقق الهدف من عملها ، نحن نحتاج إلى نظرة أخرى على الإستراتيجية كلها . أحتاج إلى خيارات جديدة . رد ستيف : السيد الرئيس ، أخشى أن تكون محقاً . ذهب ستيف ليعمل على ترتيب مراجعة مفصلة ، في كل ليلة كان الفريق العراقي في مجلس الأمن القومي يقدم مذكرة تفصل التطورات العسكرية والسياسية في الساعات الأربع والعشرين الماضية . لم تكن الصورة التي قدموها جميلة . في يوم في أواخر الربيع طلبت من ميجان أوسوليفان Megan O'sullivan حاملة شهادة دكتوراه قضت سنة تعمل مع بول بريمر في العراق ، للبقاء بعد الاجتماع . كان لها صلات مع العديد من كبار الموظفين في الحكومة العراقية . سألتها عما كانت تسمع من بغداد . قالت : إنها جحيم ، أيها الرئيس .

في منتصف حزيران ، رتب ستيف لمجموعة خارج الخبراء لتقديم إيجاز لي عن العراق في منتجع كامب ديفيد . سأل فريد كيغان Fred Kegan وهو عالم عسكري في المعهد الأمريكي للمشاريع American Entreprise Institute إذا كان لدينا قوات كافية للسيطرة على العنف . وأوصى روبرت كبلان Robert Kaplan ، وهو صحفي متميز ، بتبني إستراتيجية ضد التمرد أكثر عدوانية . واقترح مايكل فيكرز Michael Vickers ، وهو موظف سابق في وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) ساعد المجاهدين الأفغان في الثمانينات من القرن الماضي ، دوراً أكبر للعمليات الخاصة . وأخبرني إليوت كوهين Eliot Cohen ، مؤلف كتاب (القيادة العليا The Supreme Command) ، وهو حول رؤساء الجمهورية وجنرالاتهم ، وقد قرأته بناء على اقتراح من ستيف ، بأنني أحتاج إلى الطلب من قادة الجيوش تقديم نتائج عرضه للمحاسبة . وللتزود بتصور آخر ، جاء ستيف بمقالات من عقداء وجنرال بنجمة واحدة يقودون القوات في العراق . ظهر انقسام في الرأي . بينما أيد الجنرالان كيزي وأبي زيد إستراتيجية التدريب والانسحاب ، اعتقد العديد من القريبين من القتال حاجتنا إلى مزيد من القوات في العراق» .

تعذر السيطرة على الوضع الأمني في العراق

في سعيه للقضاء على المقاومة العراقية للاحتلال الأمريكي للعراق ، لم يدخر الرئيس جورج بوش (الابن) جهداً للاستعانة بالمستشارين السياسيين والعسكريين والإعلاميين ، وقراءة الكتب التي تتناول موضوع المقاومة الوطنية . يقول في هذا الصدد : «كان الكولونيل هـ .ر . ماكماستر H.R. Mc Master أحد الذين خدعوني . قرأت كتابه عن فيتنام : «التقصير في أداء الواجب Dereliction of Duty» الذي اتهم القيادة العسكرية بعدم القيام بما يكفي لتصحيح الاستراتيجية المتبناة من الرئيس جونسون ووزير دفاعه بوب مكنمارا Bob Mc Namara . كان الكولونيل ماكماستر في سنة ٢٠٠٥ يقود لواء في شمال العراق في مدينة تلعفر طبق إستراتيجية لمكافحة التمرد ، مستعملاً قواته لطرد المتمردين والسيطرة على الأرض الجديدة التي أخذها ، وساعد في بناء اقتصاد محلي ومؤسسات سياسية . هذا المبدأ : نظف وامسك وابن ، حوّل تلعفر من معقل للتمرد إلى مدينة مسالمة نسبياً .

وهناك ممارس آخر لمكافحة التمرد هو الجنرال ديفيد بترايوس David Petraeus ، الذي قابلته أول مرة في فورت كامبل Fort Campell سنة ٢٠٠٤ . وكان قد اكتسب سمعة بأنه أذكى جنرال في الجيش وأكثرهم دينامية . كان الأول على دفعته في جامعة الولايات المتحدة العسكرية في وست بوينت West Point ، وحصل على شهادة الدكتوراه من جامعة برنستون . أصيب في سنة ١٩٩١ صدفة بطلقة في صدره خلال تمرين تدريبي ، حملته طائرة عمودية لستين ميلاً إلى المركز الطبي في جامعة فاندربلت Vanderbilt حيث أنقذت حياته على يد الطبيب بيل فريست Bill Frist ، الذي أصبح فيما بعد زعيم الجمهوريين في مجلس الشيوخ .

تولى بترايوس قيادة الفرقة (١٠١) المحمولة جواً ، في الموصل في بداية الحرب على العراق . وقد أرسل قواته لتعيش إلى جانب السكان العراقيين وحراسة الشوارع مشياً على الأقدام . أجرى بترايوس انتخابات لتشكيل مجلس لإدارة الولاية . وأنفق أموال إعادة البناء لانعاش النشاط الاقتصادي ، وفتح الحدود مع سوريا لتسهيل التجارة . كانت مقاربته كتاباً مقرراً لمكافحة التمرد . يجب كسب الشعب من أجل هزيمة العدو . نجحت مقاربته بينما كان العنف في ازدياد في معظم مناطق العراق ، وبقيت الموصل هادئة نسبياً . ولكن لما أنقصنا من عدد الجنود في الموصل عاد العنف إليها . وتكررت التجربة نفسها في تلعفر» .

بعد مراجعة التدريب لقوات الأمن العراقية ، عيّن الجنرال بترايوس في ليفنورث Leavenworth في كنساس لإعداد كتاب «مكافحة التمرد» للجيش الأمريكي . تقوم فكرة مكافحة التمرد على أن القاعدة الأمنية ضرورية قبل المكاسب السياسية التي تليها . وهذا نقيض الاستراتيجية الأمريكية المتبعة في العراق . يقول بوش : «بين جميع الأنباء السيئة سنة ٢٠٠٦ كان لنا نقطة مضيئة واحدة . ففي مطلع حزيران قامت القوات الخاصة ، بقيادة الجنرال ستانلي ماك كريستال Stanley Mc Chrystal ، بملاحقة الزرقاوي وقتله ، باعتباره قائد القاعدة في العراق . فقد أصبحنا قادرين على أن نظهر للجمهور دليلاً على التقدم منذ انتخابات كانون الأول ٢٠٠٥» .

بعد أسبوع قام الرئيس بوش (الابن) بزيارة لبغداد ، والتقى برئيس الوزراء العراقي نوري المالكي في المنطقة الخضراء ، في مبنى السفارة الأمريكية . يقول بوش عن هذه الزيارة : «قلت له : قراراتك وأعمالك ستقرر نجاحك . لن يكون من السهل ذلك ، ولكن مهما كانت مهمتك صعبة فسوف نساعدك . شكر المالكي أمريكا لتحرير بلاده ، وأكد رغبته في صداقة وثيقة . وقال : سوف نحقق النصر على الإرهاب ، لأنه نصر للديمقراطية . هناك عدد من الناس السوداويين الذين يخشون نجاحنا . من حقهم أن يقلقوا لأن نجاحنا سيزيلهم عن عروشهم . لرئيس الوزراء مسلك لطيف وصوت هادئ ، ولكني أحسست بأن لديه قسوة داخلية . لقد أعدم صدام حسين عدداً من أسرة المالكي ، ومع ذلك لم يتخل عن دوره في المعارضة . كانت شجاعته الشخصية البذرة التي أملت في تنميتها حتى يتحول إلى الزعيم القوي الذي يحتاجه العراق .

أخذني رئيس الوزراء إلى غرفة اجتماعات للقاء بوزرائه الذين ضموا شيعة وسنة وأكراداً . وعرفته على فريقي عبر فديو كونفرانس . وقد صدم مستشاري الذين لم يعرفوا أنني غادرت كامب ديفيد ، عند رؤيتي في بغداد . واندهش العراقيون لمخاطبة أقرانهم الأمريكيين للمرة الأولى في اجتماع مشترك للأمن القومي بين الولايات المتحدة والعراق .

كان إجتماعي المحوري الآخر في رحلتي هذه مع جورج كيزي ، الجنرال الجدّ الذي قضى عامين في العراق . . . أخبرني أن ٨٠٪ من العنف الطائفي حدث خلال الثلاثين ميلاً حول بغداد . ولذا فإن السيطرة على العاصمة أمر حيوي لتهدئة بقية البلاد . كان الجنرال كيزي يخطط لجهد جديد لتأمين بغداد . وأكد أن (عملية معاً

إلى الأمام) الهجومية تحاول تطبيق مقاربة (نظف وامسك وابن) التي نجحت مرة في تلعفر والموصل . رأيت تناقضاً ، فاستراتيجية (نظف وامسك وابن) تعتمد على كثافة القوات . ولكن جنرالاتنا أرادوا تخفيض موقع أقدامنا . وقد التقط شكوكي وقال : أحتاج لعمل مهمة أفضل أوضحها لك ، أجبته : افعل .

كان صيف ٢٠٠٦ أسوأ فترة في رئاستي . كنت أفكر في الحرب باستمرار . وبينما كنت متشجعاً بتصميم حكومة المالكي وبموت الزرقاوي ، كنت أخشى بعمق أن يطغى العنف على كل شيء آخر . كان عدد القتلى العراقيين بمعدل (١٢٠) قتيلاً يومياً . امتدت الحرب لأكثر من ثلاث سنوات ، وفقدنا ما يربو على (٢٥٠٠) أمريكي . قال الأمريكيون إنهم لا يوافقون على الطريقة التي أتعامل بها مع العراق . خشيت ، للمرة الأولى ، أن لا ننجح . إذا انقسم العراق طائفياً فإن مهمتنا ستدان بالإخفاق . وقد نشهد تكراراً للحالة الفيتنامية ، وخسارة مهينة للبلاد ، وضربة قاصمة لعسكريينا ، وعقبة درامية لمصالحنا . وإذا كان هناك أي شيء لنتائج هزيمتنا في العراق ، فسيكون أسوأ مما كان في فيتنام . وسوف نترك القاعدة في ملجأ آمن في بلد ذي موارد نفطية ضخمة . وسوف نشجع إيران المعادية لنا على الاستمرار في برنامجها النووي للأسلحة ، وستختفي الآمال الشعبية في المخاطرة من أجل الديمقراطية في الشرق الأوسط . وفي النهاية قد يستعمل أعداؤنا حصنهم لمهاجمتنا في بلادنا . وعلينا أن نحول دون حدوث ذلك .

اتخذت قراراً واعياً يبرر التصميم علناً . أردت أن يفهم الشعب الأمريكي أنني أومن قلبياً بقضيتنا . يحتاج العراقيون أن يعرفوا أننا لن نتخلى عنهم . ويحتاج أعداؤنا أن يعرفوا أننا عازمون على هزيمتهم . وقبل كل شيء كنت أفكر بقواتنا . حاولت تصور كيف يشعر من كان في سن (٢١) سنة على خطوط الجبهة ، أو أم جندي قلقة على ابنها أو ابنتها . وآخر شيء يودون سماعه هو أن القائد الأعلى يسأل عن مشاعره المتضاربة . وإذا كان لدي اهتمامات حول إدارة الحرب فإنني أحتاج لعمل تغييرات في السياسة ، وليس التخبط علناً» .

في ١٧ آب ٢٠٠٦ اجتمع الرئيس بوش (الابن) بفريق الأمن القومي مع الجنرال كيزي ، والجنرال أبي زيد ، والسفير خليل زاد على شاشة فيديو ، دون أن يحقق نتائج عملية إلى الأمام ، حسب تعبيره . يقول : «وصلت إلينا أنباء مشجعة ، فقد أخرجت قواتنا الإرهابيين وفرق الموت من بغداد وضواحيها ، ولكن القوات العراقية لم تستطع

الحفاظ على السيطرة . قلت : يبدو أن الوضع في تدهور . كنت بحاجة للحظة من الصمود . هل ستنجح أمريكا؟ وإذا كان كذلك فكيف؟ كيف يجيب قادتنا عن ذلك؟

أخبرني الجنرال كيزي أن باستطاعتنا النجاح بتحويل المسؤولية إلى العراقيين بصورة أسرع . وقال دون رمسفيلد نحتاج لمساعدتهم على مساعدة أنفسهم ، كانت طريقة أخرى للقول بأننا نحتاج إلى رفع أيدينا عن مقود الدراجة الهوائية . وددت أن أبعث برسالة إلى الفريق الأمني بأنني أفكر بطريقة مختلفة . قلت : يجب أن ننجح ، وإذا لم يستطع العراقيون ذلك سنفعله نحن . إذا تأرجحت الدراجة سنضع أيدينا ثانية على المقود ، علينا أن نتأكد بأن لا نفشل . أما رئيس الموظفين في البيت الأبيض جوش بولتن Josh Bolten الذي عرف إلى أين أنا متوجه ، فقد تساءل : إذا ساءت الأمور أكثر فما هي الإجراءات الجذرية التي يوصي الفريق باتخاذها؟ غادرت الاجتماع مقتنعاً بأننا سوف نطور نحن هذه الإجراءات . وفوضت ستيف هادلي بمراجعة الفريق العراقي في مجلس الأمن القومي . أردت منهم تحدي كل زعم وراء إستراتيجيتنا وخلق خيارات جديدة . وجئت حالاً لرؤيتهم باعتبارهم عصبتي الشخصية من المحاربين .

ومع نهاية السنة ، أظهرت الإيجازات عن العراق معدلاً تقريبياً مقداره ألف هجوم أسبوعياً من الإرهابيين . قرأت تقارير عن تعذيب المدنيين من قبل المتطرفين الطائفيين بالمثقب الكهربائي ، واختطاف المرضى من المستشفيات ، وتفجير المصلين خلال صلوات الجمعة . شن الجنرال كيزي عملية كبرى ثانية لاستعادة الأمن في بغداد ، هذه المرة مع المزيد من القوات العراقية للسيطرة على الأرض . فشلنا في ذلك مرة أخرى» .

تغيير الاستراتيجية العسكرية الأمريكية في العراق

إزاء عجز القوات الأمريكية المحتلة عن وقف العنف الطائفي في العراق ، والتصدي للمقاومة الوطنية العراقية ، قرر الرئيس بوش تغيير الاستراتيجية المتبعة حتى سنة ٢٠٠٦ . يقول في هذا الصدد : «قررت تغييراً في الاستراتيجية نحن بحاجة إليه . وللحصول على مصداقية لدى الشعب الأمريكي ، لا بد أن يرافقها تغيير في الأشخاص . اقترح دون رمسفيلد بأنني قد أحتاج إلى نظرة جديدة إلى العراق . كان محقاً . واحتجت إلى قادة جدد . جورج كيزي وجون أبي زيد قد مدد

لهما ، وتقرر عودتهما إلى الوطن . حان الوقت لنظرة جديدة في المواقع القيادية» .

مع اقتراب الانتخابات النصفية للكونغرس سنة ٢٠٠٦ ، كان الخطابات عن العراق حامية . وتبارى الخطباء في نقد الفكرة القائلة بالانتصار في حرب العراق . وطالبوا بسحب القوات الأمريكية من العراق . وأوصى عضو لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ جو بايدن Joe Biden بتقسيم العراق إلى ثلاثة كيانات سياسية . ولذا أجل الرئيس بوش الإعلان عن سياسته الجديدة والتغيير في الأشخاص إلى ما بعد الانتخابات . في نهاية الأسبوع الذي سبق الانتخابات التقى بوب غيتس Bob Gates في كروفورد وطلب منه أن يكون وزيراً للدفاع في التغيير الجديد ، وطلب منه أن يقترح جنرالاً لقيادة القوات الأمريكية في العراق ، وأن ينظر في ملف الجنرال ديفيد بترايوس .

في الانتخابات النصفية سنة ٢٠٠٦ فقد الحزب الجمهوري ، حزب الرئيس بوش ، الأكثرية في مجلس الكونغرس : النواب والشيوخ . وصرحت رئيسة مجلس النواب الجديدة نانسي بيلوسي Nancy Pelosi : «لقد تكلم الشعب الأمريكي . . . يجب علينا البدء بإعادة انتشار مسؤول لقواتنا خارج العراق» .

يتناول بوش في مذكراته مراجعة الاستراتيجية الأمريكية في العراق : «ركزنا على ثلاثة خيارات أولية : الأول منها كان الإسراع في وضع إستراتيجية لتدريب القوات العراقية الحالية مع إنسحاب قواتنا . وبذلك يتولى العراقيون مسؤولية متزايدة للتعامل مع العنف ، بينما نركز على مهام محدودة أكثر ، بما في ذلك اصطياد القاعدة .

والخيار الثاني هو سحب قواتنا من بغداد حتى ينطفئ العنف الطائفي . سافرت كوندي إلى العراق في تشرين الأول ٢٠٠٦ ، وعادت محبطة من المالكي والقادة الآخرين . قالت كوندي : إذا كانوا عازمين على مكافحة الحرب الطائفية ، فلماذا يجب علينا أن نترك قواتنا وسط نزاعاتهم الدموية؟

أما الخيار الثالث فهو الارتداد مرتين . قد تنقل عشرة آلاف جندي إلى العراق إضافة إلى الموجودين للقيام بحملة مكافحة المتمردين على نطاق كامل في بغداد . وبدلاً من الانسحاب من المدن ، على قواتنا دخولها والعيش مع الشعب وتطمين السكان المدنيين .

كان السؤال الجوهري : «هل كان لدى العراقيين الإدارة للنجاح؟ أعتقد أن معظم

العراقيين يؤيدون الديمقراطية . وكنت مقتنعاً أن الأمهات العراقيات ، مثل كل الأمهات ، يرون أن ينشأ أطفالهن ولديهم أمل في المستقبل . لقد قابلت طلبة وأطباء ونساء نشيطات وصحفيين عراقيين كانوا مصممين على العيش بحرية وسلام . وبعد سنة من تحرير العراق ، قابلت مجموعة من صغار رجال الأعمال يصنعون أشياء مثل الساعات والنسيج خلال عهد صدام . كانوا يشترون المواد بالدينار العراقي كعملة صعبة ، ولما انخفضت قيمة الدينار العراقي بحث صدام عن أكباش فداء ، فأمر بقطع أيديهم اليمنى» .

في أواخر تشرين الأول ٢٠٠٦ أرسل الرئيس بوش ستيف هادلي ليقابل المالكي سراً في بغداد . كان تقييم ستيف : «إما أن المالكي جاهل لما كان يجري أو أنه لا يمثل نواياه ، أو أن قدراته ليست كافية لتحويل نواياه إلى أفعال» . وقبل أن يتخذ قراراً أراد الرئيس التأكد من هذه المعلومة . في ٢٠٠٦/١١/٢٩ قام الرئيس بوش بمقابلة المالكي في عمّان . وتكوّن لديه الانطباع التالي : «لقد ولدت قيادة رئيس الوزراء العراقي لدينا إحباطاً طول الوقت . لم ينشر قوات عراقية عندما كان يعد بذلك . ولبعض أعضاء حكومته صلات مشبوهة مع إيران . ولم يعمل ما يكفي لملاحقة المتطرفين الشيعة . كان الجنرال كيزي غاضباً حقاً لأن الموظفين الطائفيين المقربين من المالكي قد عرقلوا قواتنا عن الذهاب إلى الضواحي الشيعية .

ومع وجوده في السلطة مدة ستة أشهر نضج المالكي كزعيم سياسي . لقد تحمل تهديدات بالقتل ، وانقلابات محتملة ، واستقبال العديد من وفود الكونغرس التي جاءت إلى العراق لتوبخه . وقبل لقائنا في عمان بأيام قليلة هدد مقتدى الصدر الزعيم الشيعي المتطرف بسحب مؤيديه في الحكومة ، إذا قابلني رئيس الحكومة ، ومع ذلك جاء المالكي .

قال المالكي باعتزاز : (هذه خطتي) ، وقدم لي وثيقة بختم جديد من الحكومة العراقية على الغلاف . وفي الداخل اقتراح طموح لاستعادة بغداد بالقوات العراقية . أعرف أن جيشه وشرطته ليسا مستعدين لمهمة رئيسية كهذه . المهم أن المالكي اعترف بمشكلة العنف الطائفي . وكان قد أظهر رغبة في مجابهتها .

سألته : يريد الأمريكيون أن يعرفوا إذا كانت خطتكم تسمح لنا بمكافحة القتلة السنة والشيعة . رد بقوله : لا نفرق بين الاثنيات . طلبت اللقاء برئيس الوزراء وحده . بدا المالكي مستعداً لمجابهة العنف . قررت فحص التزامه بإثارة مشروع الاندفاع

(Surge) . وقلت له : الضغط السياسي عليّ لمغادرة العراق ضخم ، ولكني أريد مقاومة ذلك الضغط إذا كنت ترغب في عمل خيارات صعبة . وواصلت : أنا راغب في الالتزام بعشرة آلاف جندي أمريكي إضافي لمساعدتك في استعادة بغداد . ولكن أحتاج إلى أن تعطيني ضمانات معينة . وبين له القائمة : عليه الالتزام بمزيد من القوات العراقية ، وعليهم المشاركة في العمليات ، لن يوجد تدخل سياسي في عملياتنا العسكرية المشتركة ، والتوقف عن منعنا من الدخول إلى الجوار الشيعي ، وعليه مجابهة الميليشيات الشيعية ، بما في ذلك جيش الصدر . ومع تحسن الأمن عليه أن يحقق تقدماً على صعيد المصالحة السياسية بين الشيعة والسنة والأكراد .

لقد أعطاني المالكي كلمته بالموافقة على كل نقطة . فكرت ، وأنا في الطائرة عائداً من الأردن ، في الخيارات الاستراتيجية الجديدة : الإسراع في تسليم العراقيين الأمن مقاربة غير قابلة للحياة . إنها تشبه إستراتيجيتنا الحالية الفاشلة . ولم أر أن الانسحاب من المدن وترك العنف مشتعلاً قرار عملي . لم أستطع الطلب من قواتنا الوقوف جانباً ومراقبة الناس الأبرياء يذبحون من قبل المتطرفين . أخشى على العراق التفكك بحيث يصبح من المتعذر توحيده .

خيار الاندفاع فيه مخاطر ذاتية : زيادة عدد قواتنا لن تجد لها مؤيداً في الوطن ، والقتال سيكون شديداً والإصابات عالية . وإذا تخلى عنا المالكي فلن نستطيع اجتثاث العنف . اعتقدت بعد رؤية المالكي أننا نستطيع الاعتماد عليه . كان الاندفاع فرصتنا الفضلى ، وربما فرصتنا الأخيرة لتحقيق أهدافنا في العراق .

خلال أسابيع من النقاش الكثيف في تشرين الثاني وكانون الأول ٢٠٠٦ وافق معظم فريق الأمن القومي على خيار الاندفاع . وكان ديك تشيني وبوب غيتس وجون بولتن وستيف هادلي والمتشددون من مجلس الأمن القومي وراء المقاربة الجديدة . كانت كوندي معهم أيضاً . . . لاتخاذ قرار بهذه الأهمية كان من الضروري الاتفاق والوحدة . فالكونغرس والصحافة سوف يستغلون أي انقسام داخل الإدارة .

وكان لا بد من إدخال هيئة الأركان المشتركة في العملية . فقد تأسست هذه الهيئة بقانون الأمن القومي سنة ١٩٤٧ . وضمت قادة كل فرع ورئيس ونائب رئيس . وهؤلاء القادة ليسوا جزءاً من سلسلة القيادة . ولهذا ليس لديهم مسؤولية مباشرة عن العمليات العسكرية . ومهمتهم الرئيسية الدفاع عن صحة القوات المسلحة وقوتها . ويعد رئيس الهيئة المستشار العسكري الرئيسي لرئيس الجمهورية . كان رئيس هيئة

الأركــان المشــتــركــة سنة ٢٠٠٦ الجنرال بيت بيـس Pete Pace وهو من مــشــاة البحرية . . . .

قررت الذهاب لرؤية هيئة الأركان المشتركة في البنتاجون للإصغاء لآرائهم شخصياً . وقبل الاجتماع بيومين جاء بيت بيس إلى المكتب البيضاوي . أخبرني أني سأسمع عدداً من الآراء من الرؤساء ، ولكنهم كانوا مستعدين لتأييد الاندفاع . وقدم ستيف أيضاً تقديراً حول عدد القوات التي يحتاجونها : خمسة ألوية حوالي (٢٠) ألف جندي .

في ٢٠٠٦/١٢/١٣ ذهبت إلى هيئة الأركان المشتركة في البنتاجون . كان الذهاب إليهم تعبيراً عن إحترامي لهم . بدأت الحديث بإعلامهم أنني جئت لسماع آرائهم وطلب نصيحتهم . . . أبدى القادة مخاوفهم من مستوى إلتزام المالكي . وشعروا بالحاجة إلى إشراك الوكالات الحكومية الأخرى في العراق . . . كان قلقهم الأكبر أن زيادة عدد القوات من شأنه أن يولد ضغطاً كبيراً على الجنود وأسرهم . فالعديد من قواتنا في العراق كانوا يخدمون دورهم الثاني أو الثالث في البلد نفسه . ولجعل الاندفاع ممكناً وجب علينا تمديد الأدوار من (١٢) إلى (١٥) شهراً . وقد يكون التأثير على التجنيد والمعنويات والتدريب والاستعداد وأسر العسكريين عميقاً» .

الخطة العسكرية الأمريكية الجديدة: الاندفاع

يقول الرئيس بوش (الابن) في مذكراته : «كانت خطتي الأولية إعلان إستراتيجية العراق الجديدة قبل أسبوع أو أسبوعين من عيد الميلاد . ولكن مع اقتراب الموعد انتهيت إلى القول نحن بحاجة إلى مزيد من الوقت . أردت من بوب غيتس الذي أقسم اليمين كوزير للدفاع في ٢٠٠٦/١٢/١٨ ، أن يزور العراق . قبل يومين من عيد الميلاد جاء بوب إلى كامب ديفيد لرؤيتي . أخبرني أنه زار المالكي الذي حسن خطته لاندفاع عراقي يتفق مع اندفاعنا . سوف يعلن المالكي حالة الطوارئ ، وينقل ثلاثة ألوية عراقية إضافية إلى بغداد ، ويعين حاكماً عسكرياً ، ويعين نائبين للقائد العسكري ، مع حرية في ملاحقة المتطرفين مهما كانت أصولهم الطائفية . وقرر بوب ، أيضاً بناء على توصيته ، تعيين قائد جديد للقوات الأمريكية في العراق هو الجنرال ديفيد بترايوس . ووافقنا على تعيين الجنرال كيزي بترقيته رئيساً لهيئة أركان الجيش .

المسألة الأخيرة الواجب حلها هي حجم الاندفاع . اقترح بعض العسكريين أن

نلتزم بلوائين إضافيين بصورة مبدئية-اندفاع صغير بحوالي عشرة آلاف جندي ، مع إمكانية إرسال حتى ثلاثة ألوية أخرى فيما بعد . نقل إلى بيت بيس أن الجنرال بترايوس والجنرال راي أوديرنو Ray Odierno ، القائد الثاني في العراق ، يريدان خمسة ألوية . . . قررت إرسال خمسة ألوية إلى بغداد وكتيبتين من مشاة البحرية إضافيتين إلى محافظة الأنبار . وقد ندمج قواتنا في التشكيلات العراقية ، بحيث نستطيع تعليم العراقيين في ميدان المعركة وإعدادهم لتحمل مزيد من المسؤولية بعد الاندفاع . وأخيراً فقد أقبل ثلاث توصيات رئيسية من قادة الأركان المشتركة . وقد تقود كوندي اندفاعاً في الموارد المدنية . وقد أحصل على ضمان رسمي من رئيس الوزراء المالكي عن حرية قواتنا في المناورة . وقد أدعو الكونغرس لزيادة حجم الجيش ومشاة البحرية إلى (١٩٠) ألف جندي .

في ٢٠٠٧/١/٤ ، أجريت اتصالاً بالمالكي عن طريق فيديو كونفرانس مأمون . قلت له : لا يرى كثير من الناس هنا أن بإمكاننا النجاح . سأضع رقبتي إذا وضعت رقبتك للرهان . بعد يومين خاطب المالكي الشعب العراقي ، وأعلن التزامه بالاندفاع . وقال : لن تقدم خطة بغداد الأمنية ملجأ آمناً للخارجين على القانون مهما كانت انتماءاتهم الطائفية والسياسية .

كان القرار شديداً ، ولكن كنت واثقاً بأنني اتخذته بالشكل الصحيح . جمعت معلومات وآراء من الشعب داخل الإدارة وخارجها . . . ووزنت كل الخيارات بعناية .

في الساعة التاسعة من مساء ٢٠٠٧/١/١٠ ، تقدمت إلى الكاميرات في مكتبة البيت الأبيض وقلت : الوضع في العراق غير مقبول للشعب الأمريكي ، وغير مقبول لدي . لقد قاتلت قواتنا في العراق بشجاعة ، وعملت كل ما طلبنا منها أن تفعله . وحيثما وجدت الأخطاء فهي من مسؤوليتي . من الواضح أننا بحاجة إلى تغيير استراتيجيتنا في العراق . . . وهكذا التزمت بأكثر من عشرة آلاف جندي إضافي أمريكي للعراق ، أكثريتهم الساحقة-خمسة ألوية-سينقلون إلى بغداد .

كانت ردة الفعل سريعة ، ومن جانب واحد . قال أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي : أنا لا أعتقد أن نشراً لعشرين ألف جندي في العراق سوف يحل المشاكل . وقال آخر : أنا لا أعتقد أن إرسال المزيد من القوات المسلحة إلى العراق هو الجواب . وقال ثالث : هذه أخطر سياسة تخبط خارجية في هذه البلاد منذ فيتنام . هذا رأي الجمهوريين . وكان اليسار أشد هجوماً . فقد توقع شيخ جديد أن الاندفاع لن

يحل العنف الطائفي هناك ، والواقع أنني أعتقد أنه سيؤدي إلى نقيض ذلك . ووصفه كاتب عمود في صحيفة Washington Post : «تصعيد مبني على الخيال في الحرب في العراق» .

وفي الوقت نفسه قدمت كوندي رايس وبوب غيتس وبيت بيس شهاداتهم في الكابتول هل في اليوم التالي للإعلان عن الاندفاع . كان توجيه الأسئلة بقسوة من الحزبين . قال عضو في الكونغرس من الديمقراطيين للجنرال بيس : هذه أحمق وأغبى خطة رأيتها أو سمعت بها في حياتي . وقال شيخ جمهوري لكوندي : لقد بحثت هذه مع الرئيس وسمعت أحلامه ، في هذه المرحلة من اللعبة لا أعتقد أن الاندفاع سيحدث . جاءت بعد ذلك كوندي لمقابلتي في البيت الأبيض وقالت : لقد واجهنا مقاومة لبيع الفكرة .

وسط هذا الشك العام تقريباً ، دافعت قلة عن الاندفاع . وأولهم الشيخ جو ليبرمان Joe Lieberman من ولاية كونيكتيكت Connecticut والشيخ ليندسي غراهام Lindsey Graham من ولاية كارولينا الجنوبية ، والشيخ جون ماك كين John Mc Cain من ولاية أريزونا .

أما أكثر المحامين إقناعاً للاندفاع فكان الجنرال بترايوس . فبصفته مؤلف كتاب (مكافحة الجيش للتمرد) كان المصدر الذي لا يمارى عن الاستراتيجية التي قادها . . . قد شهادته في أواخر كانون الثاني ٢٠٠٧ . وحصل على تأييد كاسح من مجلس الشيوخ» .

طلب الرئيس بوش بترايوس لتهنئته على هذا التأييد من مجلس الشيوخ وأكد له ثقته به ، وأنه سيصغي له متى شاء . وقال : «هذا هو ، نحن يكمل أحدنا الآخر» . في ٢٠٠٧/٢/١٠ تولى الجنرال بترايوس قيادة القوات الأمريكية في العراق . ومع تدفق قوات الاندفاع إلى العراق ، قام الجنرالان بترايوس وأوديرنو بنقل القوات الأمريكية من قواعدها في ضواحي بغداد إلى مواقع في داخل المدينة . وتولت مع القوات العراقية الحراسة في شوارعها مشياً على الأقدام . لما دخلت حصون المقاومة العراقية ردت عليها بعنف . ففقدت (٨١) جندياً في شباط ، و(٨١) جندياً في آذار ، و(١٠٤) جنود في نيسان ، و(٢٦) جندياً في أيار و(١٠١) جندياً في حزيران . كانت الإصابات مثيرة للغضب .

يقول بوش معلقاً على ذلك : «نبهني الجنرال بترايوس إلى مقياس للتقدم مثير

للاهتمام : عدد المعلومات السرية من السكان العراقيين ، كان العراقيون في الماضي يخشون العقوبة من المتمردين أو من فرق الموت للتعاون مع قواتنا . ولكن مع تحسن الوضع الأمني زاد عدد المعلومات السرية من حوالي (١٢٥٠٠) في شباط إلى (٢٥٠٠٠) في أيار ٢٠٠٧ ، وقد استعملت قواتنا والعاملون في الاستخبارات هذه المعلومات لتنظيف الشوارع من المتمردين والأسلحة . بدأت إستراتيجية مكافحة التمرد تؤتي ثمارها . وكسبنا الناس بتزويدهم بالأمن الذي يحتاجونه .

وواصلنا عملية تطهير الأبنية والإمساك بها ، بفضل الاندفاع المدني بقيادة السفير الأمريكي ريان كروكر Rayan Crocker . . . الذي يعد أفضل موظف في وزارة الخارجية من جيله . يتحدث العربية ، خدم في معظم دول الشرق الأوسط بما في ذلك العراق . نجا من الهجوم على السفارة الأمريكية في بيروت سنة ١٩٨٣ ، ونجا من جمهور غاضب نهب منزله في سوريا . وحل محل خليل زاد بترشيح من كوندي رايس . بعد أن يكيل الرئيس بوش المديح له يقول : «نال ريان احترامي بسرعة . فقد عمل باتفاق تام مع الجنرال بترايوس ، ونال ثقة العراقيين من جميع الطوائف . كان محور الاندفاع المدني الذي ضاعف عدد فرق الإعمار في المحافظات التي ضمت خبراء مدنيين وعسكريين . . .

كنت أتحدث إلى الجنرال بترايوس والسفير كروكر عبر الفيديو كونفرانس مرة في الأسبوع على الأقل . اعتقدت أن العلاقة الشخصية الوثيقة والاتصال المتكرر حاسمان في نجاح الاستراتيجية الجديدة . وكانت المحادثات تعطيني الفرصة لسماع تقارير مباشرة عن الوضع في العراق» .

واجه الرئيس بوش معارضة شديدة لسياسته في الكونغرس الأمريكي . يقول في هذا الصدد : «بعد أقل من أسبوع على وصول الجنرال بترايوس إلى العراق ، صدر قرار غير ملزم من الكونغرس : (لا يوافق الكونغرس على قرار الرئيس جورج بوش المعلن في ٢٠٠٧/١/١٠ لنقل أكثر من عشرين ألفاً من القوات المقاتلة للولايات المتحدة الإضافية إلى العراق) . وبعد يوم من العنف الشديد في نيسان ، أعلن الشيخ هاري ريد Harry Reid من ولاية نيفادا : (لقد خسرنا هذه الحرب ، والاندفاع لا يحقق شيئاً) .

في الأول من أيار ٢٠٠٧ أرسل إلى الكونغرس قانون تمويل الحرب الذي يحدد موعداً لانسحاب القوات الأمريكية من العراق في نهاية سنة ٢٠٠٧ . أغضب هذا

القانون الرئيس بوش الذي اعتبر تحديد موعد اعتباطي للانسحاب نصراً للمقاومة العراقية . ولذلك استعمل حق النقض ضد هذا القانون . ولما كانت الأكثرية للحزب الجمهوري الحاكم ، فقد وقع الرئيس بوش في ٢٠٠٧/٥/٢٥ قانوناً يمول القوات الأمريكية دون جدول زمني للانسحاب .

حركة الصحوة السنية في العراق

يقول الرئيس جورج بوش (الابن) في مذكراته إن تنظيم القاعدة سيطر على مدن محافظة الأنبار التي تعد أكبر محافظات العراق مساحة . وتمتد عبر البادية من حدود بغداد الغربية إلى حدود العراق مع سوريا والأردن والعربية السعودية . تبلغ مساحتها (٥٣) ألف ميل مربع . ومعظم سكانها من المسلمين السنة . وكانت منذ بداية الاحتلال الأمريكي معقلاً للمقاومة الوطنية وملجأ للقاعدة . تغلغلت القاعدة في القوات الأمنية ، ونشرت أيديولوجيتها بين السكان . وكما فعلت طالبان في أفغانستان ، منعت عناصر القاعدة النساء من مغادرة بيوتهن بدون مرافق ذكر ، ومنعوا الرياضة والنشاطات الترفيهية الأخرى . وهاجموا القوات الأمريكية ، وكل من يقاومهم . ومع حلول سنة ٢٠٠٦ ، أصبحت محافظة الأنبار موطنا لمعدل (٤١) هجوماً يومياً .

يقول بوش : «اكتشفت قواتنا وثيقة من القاعدة تبين سيطرتها على مديرية التربية والتعليم والخدمة الاجتماعية . . . اعتقد محققنا الاستخباري أن الأنبار أصبحت قاعدة للتخطيط لتنظيم القاعدة للهجوم على القوات الأمريكية . في آب ٢٠٠٦ كتب ضابط استخبارات لدى قوات مشاة البحرية في الأنبار تقريراً انتشر على نطاق واسع ، يستنتج فيه أن المحافظة قد خرجت عن سيطرتهم .

ثم تغير كل شيء . كان لشعب الأنبار نظرة للحياة تحت حكم القاعدة . لم يحبوا ما شاهدوه . تجمع شيوخ القبائل بدءاً من منتصف آب ٢٠٠٦ لاستعادة محافظتهم من المتطرفين . وظهرت الصحوة التي جذبت إليها آلاف المجندين .

وبعيداً عن الاندفاع ، نقلنا أربعة آلاف من مشاة البحرية إلى الأنبار إضافة إلى من فيها . وقد دعمهم شيوخ القبائل وكسبوا ثقتهم . فر العديد من مجاهدي القاعدة إلى الصحراء . وانخفض العنف في المحافظة بنسبة ٩٠٪ . وخلال أشهر استعاد شعب الأنبار الشجاع محافظتهم بدعم من قواتنا . وأصبح ملجأ القاعدة الأمن ميداناً لأكبر هزيمة لها .

في عيد العمال سنة ٢٠٠٧ ، قمت بزيارة مفاجئة للأنبار . وهبطت طائرة الرئيس في قاعدة الأسد الجوية . ونزلنا نمشي في حرارة لافحة . وتحركنا بسرعة إلى غرفة مكيفة في القاعدة . استمعت إلى إيجازات عديدة ثم قابلت مجموعة من شيوخ القبائل ، الذين بدأوا الصحوة في الأنبار . كان الشيوخ فخورين بما أنجزوا . انخفض العنف بصورة درامية ، وعادت مكاتب البلدية ومجالس المدينة للعمل . وعاد القضاة إلى عملهم ، وبمساعدة الاندفاع المدني ، أعاد مجلس محافظة الأنبار فتح بوابة بحضور (٣٥) عضواً في دورة الافتتاح . وانضم إلى الاجتماع رئيس الوزراء نوري المالكي ورئيس الجمهورية جلال الطالباني . كان يوماً استثنائياً لمشاهدة المالكي الشيعي والطالباني الكردي ، وغرفة مليئة بالشيوخ السنة يبحثون مستقبل بلدهم . ولما سأل رئيس الحكومة عما يحتاجون ، قدموا له قائمة بطلباتهم : مزيداً من المال والتجهيزات والبنية التحتية . شكا المالكي من عدم ما يكفي في موازنة الدولة لكل شيء طلبوه . ساعد الطالباني في القيام بدور الحكم في النقاش . جلست في الخلف واستمتعت بالمشهد : بدأت الديمقراطية في العمل في العراق .

شكرت الشيوخ على كرمهم وشجاعتهم في الحرب على الإرهاب . قال لي أحد الشيوخ : إذا احتجتم لنا فإن رجالي وأنا سنذهب إلى أفغانستان» .

ينتقل بوش بعد ذلك ليصف المناخ السياسي في واشنطن : «كانت واشنطن في ضجيج ، حينما وصل إليها بترايوس وكروكر في ٢٠٠٧/٩/١٠ ، ليقدما شهادتيهما أمام الكونغرس ، وتقديم توصيات حول المستقبل في العراق . هدد الديمقراطيون لعدة أشهر باستعمال الشهادة لقطع التمويل عن الحرب في العراق . وفي تموز من السنة نفسها أعلنت صحيفة New York Times أن قضية العراق خاسرة ، وطالبت بانسحاب كامل للقوات الأمريكية ، على الرغم من أن الانسحاب الفوري يؤدي إلى مزيد من التطهير الاثني والقتل الجماعي ، ونشوء حصن جديد ينشر منه الإرهابيون نشاطهم . يقول بوش :

«في صباح يوم السماع للشهادتين ، نشرت المجموعة اليسارية صفحة كاملة بعنوان «جنرال بترايوس ، أو الجنرال الخائن لنا General Petraeus or General Betray us» . كان بترايوس وكروكز رزينين ومرنين ويتمتعان بمصداقية عالية . لقد قالا الحقيقة . انخفضت أعداد القتلى من العراقيين بنسبة ٧٠٪ في بغداد ، و٤٥٪ عبر البلاد كلها . وانخفضت هجمات المتمردين إلى الثلث . وانخفضت تفجيرات

السيارات والهجمات الانتحارية بنسبة ٥٠٪ تقريباً . وانتشرت حركة الصحوة التي شهدناها في الأنبار إلى محافظة ديالا وضواحي بغداد السنية . كانت الصورة لا تخطئها العين ، والاندفاع يعمل بنجاح» .

بعد ليلتين من إدلاء بترايوس وكروكر بشهادتيهما ، خاطب الرئيس بوش الشعب الأمريكي قائلاً : «يعتقد الجنرال بترايوس ، بسبب هذا النجاح ، أننا وصلنا الآن المدى الذي نستطيع فيه الحفاظ على المكاسب الأمنية بقوات أمريكية أقل . . . المبدأ الذي يوجه قراري حول عدد القوات الأمريكية في العراق هو : العودة عند النجاح . كلما أحرزنا مزيداً من النجاح زاد عدد القوات الأمريكية العائدة إلى الوطن» .

يقول بوش : «استمر زخم الاندفاع في سنة ٢٠٠٨ . انضم في ربيع هذه السنة أكثر من (٩٠) ألف عراقي سني وشيعي إلى مجموعات المواطنين المحليين في حركة الصحوة . وقد اندمج العديد من هذه القوات التي حملت اسم «أبناء العراق» في قوات الجيش والشرطة العاملة ، التي بلغ عددها ما يربو على (٤٧٥) ألف جندي . وقد أخرجت هذه القوات المتمردين ورجال القاعدة من معاقلهم . لجأ الإرهابيون إلى استخدام الأطفال والمرضى عقلياً كقنابل انتحارية ، كاشفين عن فسادهم الأخلاقي وعن عجزهم عن التجنيد .

وكما توقع خبراء مكافحة التمرد ، تحولت المكاسب الأمنية سنة ٢٠٠٧ إلى برامج سياسية سنة ٢٠٠٨ . بعد التحرر من العنف الطائفي قرر العراقيون تشريعاً رئيسياً يتضمن قانوناً يحل وضع أعضاء حزب البعث السابقين ، وآخر لموازنة وطنية ، وقانونا يمهد الطريق لانتخابات في المحافظات .

كان القلق الأكبر في ربيع ٢٠٠٨ من وجود المتطرفين الشيعة . فبينما تحسن الوضع الأمني في معظم مناطق العراق خلال الاندفاع ، استولى المتطرفون الشيعة ، الذين لهم صلات مع إيران ، على أجزاء واسعة من البصرة ، ثاني المدن العراقية . وقد هاجمت القوات العراقية في ٢٠٠٨/٣/٢٥ المتطرفين في البصرة . وسافر رئيس الوزراء نوري المالكي إلى الجنوب للإشراف على العملية . كان مجلس الأمن القومي الأمريكي بين القلق والذهول . خشي العسكريون أن لا تكون لدى المالكي خطة واضحة تماماً . وتساءل من في السفارة الأمريكية ببغداد إذا كان لديه دعم كاف من حكومته .

كان شعوري مختلفاً ، فالمالكي قائد . وقد حثثته لمدة سنتين تقريباً على إظهار

عدم تحيزه ، فالقاتل الشيعي مذنب كالقاتل السني . قلت له ذلك مراراً . وقد واصل الآن جهده بطريقة رسمية رفيعة . لما جاء ستيف هادلي وبريت ماك غورك Bret Mc Gurk إلى المكتب البيضاوي في صباح اليوم التالي لشن المالكي هجومه ، قلت : لا تقولا لي هذا شيء سيء . . . هذه خطة حاسمة تحتاج فقط لمساعدته على النجاح . . . جلبت القوات العراقية الأمن للبصرة . نجاحها أذهل الشيعة المتطرفين ، مثل مقتدى الصدر ومسانديه الإيرانيين» .

في شهادتيهما أمام الكونغرس في نيسان ٢٠٠٨ ، أوصى بترايوس وكروكر باستمرار سحب القوات الأمريكية من العراق حتى يصل عددها إلى مستوى ما قبل الاندفاع . وقال كروكر : «في النهاية ، كيف نغادر العراق؟ وماذا نترك وراءنا سيكون أهم من كيف أتينا» . انتهت عملية الاندفاع في صيف ٢٠٠٨ . خف العنف إلى أدنى مستوى منذ السنة الأولى من الاحتلال . وقدر الرئيس بوش أن القتل الطائفي انخفض بنسبة ٩٥٪ ، وضعفت القاعدة في العراق وأصبحت هامشية ، وضعف نفوذ إيران . وانخفض موت الأمريكيين ، الذي كان معدله الشهري مئة قتيل في أسوأ مراحل الاحتلال ، إلى (٢٥) قتيلاً ثم انخفض إلى ما دون العشرة قتلى في نهاية رئاسة بوش .

لما كان تفويض الأمم المتحدة للقوات الأمريكية والدولية ينتهي بنهاية سنة ٢٠٠٨ ، فقد سعى الرئيس بوش إلى إبرام اتفاقيتين ، مع الحكومة العراقية لابقاء القوات الأمريكية في العراق ، الاتفاقية الأولى تسمى اتفاقية وضع القوات Status of Forces Agreement (SFA) . وتم التفاوض عليهما مع حكومة المالكي . وضم الفريق المفاوض الأمريكي كونداليسا رايس ، وريان كروكر ، وبريت ماكغورك ، ومستشار وزارة الخارجية ديفيد ساترفيلد David Satterfield . واستمر التفاوض شهوراً . وتم الاتفاق على سحب كامل القوات الأمريكية من العراق في نهاية سنة ٢٠١١ .

قام الرئيس بوش بزيارته الرابعة للعراق في ٢٠٠٨/١٢/١٣ لتوقيع الاتفاقيتين المذكورتين مع رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي . تم التوقيع على الاتفاقيتين في مكتب المالكي . وعقد مؤتمر صحفي في أعقاب التوقيع تم فيه قذف الصحفي العراقي منتظر الزيدي الرئيس بوش بحذائيه . وألقى القبض عليه وأخرج من القاعة ، واستمر المؤتمر الصحفي ، بينما واصل المالكي إبداء أسفه للرئيس بوش حتى تضايق الأخير ورجاه أن يتوقف عن إبداء أسفه .

في آذار ٢٠١٠ ، ذهب العراقيون ثانية إلى صناديق الاقتراع . وفي أواخر سنة ٢٠١١ غادرت القوات الأمريكية العراق . ومع أن بوش في مذكراته يعترف بأن عدد الإصابات في القوات الأمريكية قد بلغت (٣٠) ألف إصابة ، يرى في النهاية : «أن عراقاً حراً ومسالماً هو في مصلحتنا الاستراتيجية الحيوية . وبالإمكان أن يكون حليفاً في قلب الشرق الأوسط ، ومصدراً للاستقرار في المنطقة ، ومنارة أمل للمصلحين السياسيين في الجوار وحول العالم . ومثل الديمقراطيات التي ساعدنا على بنائها في ألمانيا واليابان وكوريا الجنوبية ، فإن عراقاً حراً سيجعلنا أكثر أمناً لأجيال قادمة» . بهذه الكلمات حاول بوش أن يبرر غزوه للعراق واحتلاله لمدة ثماني سنوات ونيف .

الفصل الثاني

الغزو الأمريكي- البريطاني للعراق
في مذكرات بول بريمر

بول بريمر مبعوث خاص للرئيس بوش في العراق

ألف بول بريمر Paul Bremer بالتعاون مع مالكولم ماك كونيل Malcolm Mc Connell كتاباً عن السنة التي قضاها حاكماً للعراق ، في ظل الاحتلال الأمريكي-البريطاني . وهو مذكرات تفصيلية بعنوان «سنتي في العراق : الكفاح لبناء مستقبل من الأمل : My Year in Iraq: The Struggle to Build a Future of Hope» الصادر في نيويورك ولندن وتورنتو وسدني عن دار النشر Threeshold Edition سنة ٢٠٠٦ ، ويقع الكتاب في (٤٢٠) صفحة ، وهو أشبه باليوميات .

أصدر الرئيس جورج بوش (الابن) في ٢٠٠٣/٥/٩ ، أي بعد احتلال العراق وسقوط بغداد بشهر واحد ، قراره بتعيين السفير السابق في وزارة الخارجية الأمريكية بول بريمر مبعوثه الخاص إلى العراق ، بحيث يتمتع بالسلطة التامة على موظفي الحكومة الأمريكية ونشاطات الحكومة وأموالها في العراق . كما عينه وزير الدفاع الأمريكي دونالد رمسفيلد Donald Rumsfeld رئيساً لسلطة الائتلاف المؤقتة The Coalition Provisional Authority مع تمتعه بجميع السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية في العراق . وبريمر هذا كان رئيس موظفي الدكتور هنري كيسنجر Dr.Henry Kissinger حينما كان الأخير وزيراً للخارجية الأمريكية ، وكان أيضاً سفيراً لمكافحة الإرهاب في عهد الرئيس الأمريكي رونالد ريغان Ronald Reagan . وبعد تقاعده من وزارة الخارجية الأمريكية ، عمل رئيساً لدائرة إدارة الأزمات في الشركة الأمريكية مارش وماك لينن March and Mc Lennen .

اختار بريمر ، بعد أن أبلغ بالنية لتعيينه مبعوثاً خاصاً للرئيس بوش في العراق ، من أصدقائه وزملائه الذين عملوا معه ، السفير كلايتون ماك ماناواي Clayton Mc

Manaway نائباً له ، والسفير هيوم هوران Hume Horan المستعرب ، ونائب مندوب الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة بات كندي Pat Kennedy ، وتوم كورولوغوس Tom Korologos الخبير في شؤون الكونغرس الأمريكي ، وبوب كيلي Bob Kelley من زملائه السابقين في وزارة الخارجية ، وذلك للعمل معه في العراق .

بتعيين بريمر انتهت مهمة موظف مجلس الأمن القومي الأمريكي زلماي خليل زاد Zalmay Khalilzad كمبعوث شخصي للرئيس بوش في العراق ، وانتهت مهمة اللفتنانت جنرال جاي غارنر Jay Garner الحاكم العسكري للعراق منذ احتلاله بالقوات الأمريكية والبريطانية . وصل بريمر إلى بغداد في ٢٠٠٣/٥/١٣ ، واتخذ القصر الجمهوري مقراً لسلطة الائتلاف المؤقتة ، والذي كان أيضاً مقراً لمكتب إعادة الإعمار والمعونة الإنسانية Office of Reconstruction and Humanitarian Assistance .

يقول بريمر في مذكراته إنه حينما وصل إلى بغداد كانت الكهرباء في العراق بطاقة (٣٠٠) ميغا وط ، أي أنها تكفي لمدينة صغيرة . فقد دمرت قوات الاحتلال الأمريكية والبريطانية محطات توليد الكهرباء في البلاد . كما كانت محطات معالجة المياه مدمرة ، ونظام المجاري العامة في بغداد معطلاً ، والمدارس والجامعات مغلقة ، والمياه النقية الصالحة للشرب نادرة . وكان العديد من المستشفيات والمراكز الصحية يعمل مع افتقاره للأجهزة الطبية والأدوية ، بسبب فرض الحصار الاقتصادي على العراق بين سنتي ١٩٩٠ و٢٠٠٣ ، وكانت المباني الحكومية في بغداد والمدن العراقية الأخرى قد دمرت ونهبت محتوياتها في الأيام الأولى للاحتلال . كانت وزارة النفط العراقية الوزارة الوحيدة ، التي حمتها قوات الاحتلال ، ولذا لم تتعرض للتدمير والنهب . وعلى الرغم من وجود أربعة آلاف شرطي مدرب نظرياً ، فقد كانت ترتكب الجرائم علناً في الشوارع ، وكل ما تستطيع الشرطة عمله حماية أسرها من الاعتداءات .

سعى بريمر في مذكراته إلى تشويه صورة نظام حكم البعث في العراق ، مقتفياً أثار بوش (الابن) وتوني بلير وغيرهما لتبرير احتلالهم للعراق . يقول بريمر في مذكراته : «في ٩ أيار (٢٠٠٣) ، آخر يوم من الاستعداد في البنتاغون ، أعطاني دون رمسفيلد أوامري النافذة في مذكرة . أكدت مذكرة رمسفيلد ، من بين جميع تعليماتي على مايلي : (سوف يعارض الائتلاف بفاعلية رجال صدام حسين

السابقين-حزب البعث ، وفدائيي صدام ، المقاتلين غير النظاميين الذين تصدوا لقواتنا في زحفها على بغداد ، الخ . وسوف يكون واضحاً أن الائتلاف سيزيل آثار نظام صدام» . في ذلك الصباح أراني وكيل وزارة الدفاع دوغلاس فيث Douglas Feith مسودة أمر لاجتثاث البعث من المجتمع العراقي . وقد أكد لي الأهمية السياسية للمرسوم . وقال : «علينا أن نبين لجميع العراقيين أننا جادون في بناء عراق جديد . وأن ذلك يعني أن أدوات صدام حسين للاضطهاد لا دور لها في الدولة الجديدة . ومع أنه لم ترد أية إشارة إلى الجيش النظامي ، كنت أعرف أن والت سلوكومب Walt Slocombe ، المستشار السامي لشؤون الدفاع والأمن ، قد بدأ بحث مستقبل الجيش مع فيث الآن بحيث أصبح واضحاً أن الجيش قد تفكك واختفى» .

قام بريمر بتصور المرسوم الذي يتضمن هذه التعليمات واحتفظ بصورة عنه . وكان الجنرال الأمريكي توم فرانكس Tom Franks ، قائد قوات الاحتلال ، قد اعتبر حزب البعث خارجاً على القانون في «رسالة الحرية Freedom Message» التي ألقاها في ٢٠٠٣/٤/١٦ ، وحث فيث السفير بريمر على إصدار الأمر باجتثاث البعث بأسرع وقت ممكن بعد وصوله إلى بغداد ، وعلى وجوب تنفيذ مرسوم اجتثاث البعث ، حتى لو أن تطبيقه سبب مضايقات إدارية . يقول بريمر في هذا الصدد :

«كان اهتمامي بالمستويات الأربعة العليا في عضوية الحزب التي يستثنيها المرسوم رسمياً من المشاركة في الحياة العامة . وهؤلاء هم البعثيون المخلصون الذين كانوا أداة فاعلة في القمع الصدامي ، من خلال مواقعهم في السلطة في نظام الحكم . وقدرت مخابراتنا نسبتهم في الحزب بواحد في المئة من أعضائه أو حوالي عشرين ألف شخص معظمهم من العرب السنة .

قلت لفيث : سوف أبحث توقيت إصدار المرسوم مع السفير الأمريكي في بغداد ريان كروكر Ryan Crocker ، وفريق سلطة الائتلاف المؤقتة المسؤلة عن توجيه العراق نحو الحكم الذاتي ، بعد وصولي إلى بغداد» .

حصل بريمر على مرسوم قرار اجتثاث البعث من المجتمع العراقي ، موقعاً من المعنيين في البيت الأبيض ووزارة الدفاع ووزارة الخارجية . وقد أصدرت سلطة الائتلاف المؤقتة قراراً يتضمن هذا المرسوم موقعاً من بريمر ، باعتباره أول قرار اتخذه بريمر بعد وصوله إلى بغداد .

تضمن المرسوم القضاء على بنى الحزب وإزالة قيادته من مواقع السلطة والمسؤولية

في المجتمع العراقي . ونص أيضاً على تحديد أعضاء حزب البعث الذين أزيلوا من مواقعهم وحرموا من الخدمة في المستقبل في القطاع العام . وشملوا المستويات الرسمية الأربعة المعروفة بكبار قادة الحزب . ويمكن تقدير هؤلاء الأعضاء بسلوكهم الإجرامي أو بتهديدهم للائتلاف واعتقالهم أو وضعهم تحت الاعتقال المنزلي عند الحاجة . وكان الائتلاف قد أعلن أسماء (٥٤) من قادة الحزب ، بدءاً من صدام حسين ، والإعلان عن جوائز مالية لمن يدل عليهم . ونص المرسوم على اعتبار من هم في المستويات العليا الثلاثة في الوزارات والمؤسسات الحكومية والجامعات والمعاهد والمستشفيات ، إذا كانوا أعضاء في الحزب ، يفصلون من عملهم ، على أن يكونوا أحراراً في العمل خارج المؤسسات العامة . ونص المرسوم على إزالة ومنع كل شعارات البعث ورموزه الصورية . كما نص على صلاحية مدير (رئيس) سلطة الائتلاف المؤقتة أو من يعينهم في أن يستثني من هذه التعليمات حالة بحالة .

وقع بريمر قرار اجتثاث البعث صباح ٢٠٠٣/٥/١٦ ، وبعد ظهر اليوم نفسه قابل بريمر مجموعة السبعة من القادة العراقيين وهم : الدكتور أحمد جلبي رئيس المؤتمر الوطني العراقي ، وهو شيعي المذهب ، له صلات مع وكالة الاستخبارات المركزية CIA ، وبعض أعضاء الكونغرس الأمريكي ، ووزارتي الدفاع والخارجية الأمريكية ، والدكتور إياد علاوي ، زعيم الوفاق الوطني العراقي ، وهو شيعي علماني ، طبيب ، ومنافس للجلبي ، تعاون مع وكالات استخبارية غربية وعربية عديدة ، ومسعود البرزاني ، رئيس الحزب الديمقراطي الكردي ، منافس لجلال الطالباني رئيس الاتحاد الوطني الكردستاني ، ولكل منهما ميليشيا حاربت مع قوات الائتلاف في شمال العراق ، ونصير الجادرجي ، محام سني المذهب في السبعين من عمره يقود الحزب الوطني الديمقراطي ، وهو عضو في مجلس القيادة العراقية ، والدكتور إبراهيم الجعفري ، طبيب شيعي المذهب يمثل حزب الدعوة الإسلامي ، والدكتور عادل عبد المهدي وحامد البياتي ، ويمثلان المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق الذي يرئسه عبد العزيز الحكيم .

وحضر الاجتماع ، ممثلاً عن الائتلاف ، اللفتنانت جنرال ديفيد ماك كيرنان David Mc Kiernan القائد العسكري الأمريكي في العراق ، والمبعوث البريطاني الخاص السفير جون ساورز John Sawers ، وجاي غارنر ، وريان كروكر ، وهيوم هوران ، والجنرال جون أبي زيد ، وبول بريمر .

اعتماد بريمر على المرجعيات الدينية الشيعية في العراق

بدأ بول بريمر نشاطه السياسي في العراق من منطلق ديني مذهبي . وكانت أول اتصالاته بالمراجع الدينية الشيعية . زار الحلة في ٢٠٠٣/٥/٢٢ والتقى بالشيخ فرقات القزيوني ، الذي شكر بريمر على تحرير العراق من حكم صدام ، وقال له : يجب أن يكون العراق الولاية الثالثة والخمسين في الولايات المتحدة الأمريكية . وقد أطنب بريمر في وصف المقابر الجماعية في الحلة ونسبها إلى صدام حسين وحكم البعث .

يقول بريمر في مذكراته : «في ٢٠٠٣/٥/٩ بعثت بمذكرة إلى وزير الدفاع رمسفيلد ، وأرسلت نسخة منها إلى ولفوويتز نائب وزير الدفاع ، وأخرى إلى المكتب السياسي في وزارة الدفاع والمستشار العام فيها ، لخصت فيها المحادثات التي دارت في البنتاجون بيني وبين كبار الموظفين حول المضاعفات السياسية لذوبان جيش صدام ، والنتيجة المؤقتة التي توصلنا إليها بوجوب حل جيش صدام والأجهزة الأمنية والاستخبارية كمدخل لإنشاء أجهزة أمنية جديدة . وأرفقت بالمذكرة مشروع مرسوم بشأن ذلك . وأخبرت الوزير بأنني سوف أعرض مشروع المرسوم (الأمر) على القيادة المركزية في القوات المسلحة الأمريكية في نهاية الأسبوع ، ومراجعة أية تغييرات مقترحة» .

تباحث بريمر مع موظفي وزارة الدفاع الأمريكية حول إنشاء الأجهزة الأمنية العراقية . وكان قد أكد له والت كلاي Walt Clay أنه لا توجد وحدة عسكرية عراقية سليمة الكيان في الجيش العراقي . لقد دمرت كل المباني العسكرية ، ونهبت جميع ما كان فيها ، بما في ذلك أسلاك الكهرباء والهاتف . وفي يوم الجمعة ٢٠٠٣/٥/٢٣ وقع بريمر قرار سلطة الائتلاف المؤقتة الثاني ، القاضي بحل الهيئات والمؤسسات الأمنية العراقية ، التي شملت وزارة الدفاع وجميع الوزارات المتصلة بالأمن الوطني ومكاتبها ، وكل التشكيلات العسكرية بما في ذلك الحرس الجمهوري ، والحرس الجمهوري الخاص ، وميليشيات حزب البعث وفدائيي صدام . وأنهى القرار خدمة جميع أعضاء الهيئات والتنظيمات العسكرية السابقة . وتضمن أيضاً الإعلان من الائتلاف عن إنشاء جيش عراقي جديد ، كخطوة أولى لبناء قدرة دفاع ذاتي وطنية لعراق حر تحت رقابة مدنية ، بحيث تكون قوة مهنية غير سياسية عسكرية فعالة وممثلة لجميع العراقيين» .

ولما كانت سلطة الاحتلال الأمريكية قد عينت لكل وزارة عراقية عدداً من

المستشارين ، على رأسهم مستشار سام Senior Adviser ، فقد أعلن والت سلوكومب Walt Slocombe المستشار السامي لشؤون الدفاع والأمن ، عن النية لإنشاء فرقة كاملة من الجيش الوطني العراقي تضم (١٢) ألف جندي مدربين ، بحيث يكونون جاهزين للعمل خلال سنة واحدة ، وثلاث فرق عسكرية في السنة التالية . وقال : «سوف نختار ضباطاً وضباط صف من الجيش القديم ومن الميليشيات الكردية والشيعية المعادية لصدام ، لقيادة هذه الوحدات» .

بعد إصدار القرار السابق الذكر ، اتصل بريمر بعبد العزيز الحكيم رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية ، الذي تتبعه قوات بدر البالغ عددها مئة ألف مقاتل . وطلب منه اشتراك قوات بدر في الجيش الجديد . ولما سأل الحكيم عمن يقود هذه الكتائب الجديدة من الضباط ، أجاب بريمر : أعدك يا سيد بأن يكون قائد أول كتيبة شيعياً .

صدر عن مجلس الأمن الدولي القرار رقم ١٤٨٣ في ٢٠٠٣/٥/٢٢ ، تم بموجبه رفع العقوبات التي فرضت على العراق سنة ١٩٩٠ . ودعت سلطة الائتلاف المؤقتة إلى العمل مع ممثل خاص للأمين العام للأمم المتحدة لتسهيل عملية قيام حكومة تمثيلية معترف بها دولياً في العراق ، أطلق عليها قرار مجلس الأمن الدولي «إدارة عراقية مؤقتة Interim Iraqi Administration» . ومن أجل تحقيق هذه الغاية ، التقى بريمر بالشخصيات العراقية . فبدأ بزيارة الدكتور إبراهيم الجعفري في كربلاء . وقد أكد له بريمر أن الائتلاف لن يسمح للبعثيين بالعودة إلى حكم البلاد . وبيّن له أن الأمم المتحدة تخطط لتشكيل إدارة مؤقتة للعراق . وطلب من الطائفة الشيعية التعاون في هذه الجهود .

وصل في هذه الإثناء إلى بغداد سيرجيو دو ميلو Sergio de Mello ممثلاً خاصاً للأمين العام للأمم المتحدة في العراق في ٢٠٠٣/٦/٣ وتعاون دو ميلو مع بريمر في سعيه لتوسيع مجموعة السبعة إلى نحو ثلاثين شخصاً . ودو ميلو دبلوماسي برازيلي محترف ، درس في أوروبا ، يتقن الانكليزية والفرنسية ، ويعد من المختصين في نزاعات العالم الثالث .

التقى بريمر الدكتور عدنان الباجه جي وعبد العزيز الحكيم ، اللذين أيدا مسعاه ، ولكنه واجه معارضة من الدكتور أحمد الجلبي وجلال الطالباني . في اجتماعاته مع مجموعة السبعة ، أعطاهم بريمر أسبوعين للتوصل إلى أفكار حول كيفية توسيع المجموعة لتكون أكثر تمثيلاً . والتقت المجموعة ثانية في منتصف حزيران ، وعلم بريمر

أنها فشلت فيما طلب منها . واجتمع بهم من جديد في القصر الجمهوري ، وأبلغهم بأنه يبحث عن ممثلين إضافيين عراقيين ، وأنه ينوي تعيين إدارة مؤقتة في الأسابيع القادمة ، ويفكر في سك عملية عراقية جديدة ، ويريد تشجيع إدخال خدمة الهاتف الجوال ، وإنشاء جيش عراقي جديد ، وشرطة مدربة تدريباً كافياً . وطلب نصيحتهم في هذه الأمور .

يقول بريمر في هذا الصدد : «تبين لي أن قلة منهم اعتادت على تقديم نصيحة مسوغة جيداً حول القضايا الجدية . وكان من المتعذر اتفاقهم على أية توصية حول القضايا المطروحة عليهم» . ولذا لجأ بريمر إلى فريقه السياسي الأمريكي-البريطاني ، الذي قام بجولة في البلاد بحثاً عن أشخاص مرشحين «لمجلس الحكم العراقي Iraqi Governing Council» الذي أعطاه هذا الاسم .

يذكر بريمر أن الدكتور أحمد الجلبي عاد إلى العراق في ٢٠٠٣/٦/٢٣ من واشنطن ، بعد أن قام بالاتصال بالكونغرس الأمريكي والإدارة الأمريكية ، في محاولة لإفشال خطط بريمر في العراق . وحاول إقناع مجموعة السبعة بمقاطعة مجلس الحكم . ولما التقى به بريمر رفض تشكيل مجلس الحكم واقترح إجراء انتخابات في المحافظات .

يعترف بريمر أن مجموعة السبعة لا تمثل الشعب العراقي ، وأنها مجموعة من العراقيين الذين عاشوا في المنفى . كما يرى أن عشائر العراق تبدو قليلة الأهمية ، لأن (٧٠) في المئة من سكان العراق يعيشون في المدن . كما أن شيوخ العشائر قد خفت سلطتهم عما كانت عليه قبل ثمانين سنة . ومع ذلك ما زالوا يقومون بدور مهم في الحياة الاجتماعية والسياسية في البلاد . التقى بريمر في ٢٠٠٣/٦/٢٤ مع اثني عشر شيخاً سنياً من قبيلة شمر في مقر سلطة الائتلاف المؤقتة . يقول عن هذا اللقاء : «كان لقاءً لا ينسى ، فشمر أكبر قبائل العراق ، وفيها سنة وشيعة ، ولكن قياداتها العليا سنية . جاءوا بأثوابهم الفضفاضة المعطرة . كلهم في سن ما فوق الستين سنة ، ما عدا شاب واحد هو الشيخ غازي الياور الذي كنا نفكر بجعله عضواً في مجلس الحكم ، فهو في سن الأربعين تقريباً . تعلم في أمريكا . وهو رجل أعمال ناجح مقيم في العربية السعودية . . . وقد تكلموا كثيراً باستثناء غازي الياور الذي بقي صامتاً . . . قال كبيرهم : أيها الحاكم ، أود أن أؤكد ولاء قبيلة شمر الدائم لك ولحكومتك التي حررتنا . . ولاؤنا دائم وثابت . . . وإذا قررنا أن نخونكم فإنني ألتزم

بكلمتي بأننا سنخبرك قبل ذلك بشهر» .

توجه بريمر في اليوم التالي إلى الأكراد في شمال العراق للقاء بالزعيمين جلال الطالباني ومسعود البرازاني ، وإقناعهما بالانضمام إلى مجلس الحكم . رحب الزعيمان الكرديان بتحرير العراق وحل حزب البعث والقوات المسلحة والأجهزة الأمنية ، ولكنهما لم يرغبا في الانضمام إلى مجلس الحكم . وبعد لقاء طويل مع الطالباني في السليمانية وافق على الانضمام لمجلس الحكم ، بعد أن أكد له بريمر الالتزام الأمريكي بانشاء عراق فيدرالي . ولما التقى بريمر البرازاني في منزله على قمة جبل في صلاح الدين قال الأخير : أنا أكره بغداد ، لا أحب أن أعيش فيها أو أسافر إليها . ولكن إذا أصررت سأوافق بامتعاض أن أخدم في مجلس الحكم .

قرر بريمر تشكيل مجلس الحكم قبل ٢٠٠٣/٧/١٥ ، وساعده في ذلك ، بالإضافة إلى فريقه السياسي ، عرفان صديق من وزارة الخارجية البريطانية الذي يتقن العربية . وقرر أولاً أن تكون الأكثرية في المجلس للشيعة بنسبة (٦٠) في المئة ، وتمثل المرأة ، واختيار أعضاء مؤثرين ووطنيين من السنة ، وأن تكون نسبة الأكراد فيه (٢٠) في المئة ، وهي نسبة عددهم في مجموع سكان العراق ، ولا بد من تمثيل المسيحيين والتركمان والأقليات الأخرى ، ولا بد أيضاً من تمثيل محافظات العراق الثماني عشرة ، وتجنب هيمنة الإسلاميين على الأكثرية العلمانية في البلاد ، وإدخال مجموعة السبعة في المجلس . اقترح البريطانيون تمثيل الحزب الشيوعي العراقي في المجلس ، وإختار بريمر سكرتير عام الحزب حامد ماجد موسى ، الشيعي المذهب النشيط ، واستثنى سكرتير عام الحزب السابق عزيز محمد البالغ من العمر التاسعة والسبعين . واستثنى من عضوية المجلس رئيس أساقفة الكلدان ، والشريف علي بن الحسين الذي أبدى انزعاجه من استثنائه .

افتتح بريمر مجلس الحكم العراقي في ٢٠٠٣/٧/١٣ ، وقد انتخب المجلس محمد بحر العلوم ناطقاً بلسانه لكبر سنه . وقد اتخذ المجلس قرارين هما : أولاً : إلغاء جميع أعياد حزب البعث ، وثانياً : اعتبار ٩ نيسان ، يوم سقوط بغداد تحت الاحتلال الأمريكي ، عيداً وطنياً .

لقاء بريمر بالرئيس بوش (الابن) في قطر

ذهب بريمر في ٢٠٠٣/٦/٤ إلى قاعدة العديد في قطر برفقة السفير الأمريكي

مورين كوين Maureen Quinn لمقابلة الرئيس جورج بوش (الابن) العائد من اجتماع قمة عربية-إسرائيلية في العقبة . كان الجنرال تومي فرانكس على وشك التقاعد ، وسيتولى نائبه الجنرال جون أبي زيد مكانه كقائد أعلى للقيادة المركزية في قطر . سأل الرئيس بوش بريمر عند لقائه به عن وضعه ، وطلب منه أن يرافقه إلى فندق ريتز-كارلتون Ritz-Carlton في الدوحة . قال بريمر : «دعنا نبدأ بالأمن . الوضع في بغداد يتحسن ، ولكن ما زالت هنالك مشاكل . مصادر العنف ثلاثة : اللصوص والبعثيون المستميتون ، الذين يشملون فدائيي صدام والمخابرات شبه العسكرية ، ولا يستبعد أن يكون للإيرانيين دور أيضاً . سأل الرئيس : كيف يفكر العراقيون بذلك؟ رد بريمر : بناءً على أحاديثي مع شيوخ القبائل الشيعية في الجنوب وغيرهم،وجدت أنهم لا يحبون هؤلاء الشباب من إيران . وسأل الرئيس : وكيف حال الأمن في بقية مناطق العراق؟ أجاب بريمر : علينا أن نعمل أكثر في المناطق الغربية والشمالية من بغداد حيث يسكن السنة . . . وقد اطلعت على تقارير عن عناصر وهابية سعودية تأتي إلى المنطقة . وهذا شيء مفاجئ» . وأضاف بريمر : «كانت فرقتان كاملتان من الحرس الجمهوري-نبوخذ نصر ، وعدنان-قد اتخذتا مواقعهما شمال بغداد للدفاع ضد هجوم متوقع لفرقة المشاة الرابعة الأمريكية قادمة من تركيا . لم يحدث الهجوم لأن الاتراك لم يسمحوا للائتلاف بعبور هذه القوات بلادهم . وقد قصفت هاتان الفرقتان ، ولكن معظم قواتهما انتشرت في المدن السنية ، مثل تكريت وسامراء والفلوجة وبغداد ، وكان علينا أن نلاحقهم» .

سأل بوش : كيف الوضع العام؟ أجاب بريمر : «أنا متفائل لسببين ، سيدي الرئيس ، أولاً لدى العراق موارد ممتازة ومياه وافرة ، وهو بلد خصيب بالإضافة إلى احتياطيه من النفط . والعراقيون نشيطون وشعب واسع الحيلة . . . من جهة أخرى ، من الصعب علينا فهم كيف تمزق الشعب العراقي نفسياً . فقد كان هذا الانهيار الأكثر درامية لأي نظام حكم لعدة عقود من الزمن . بقي صدام في السلطة ثلاثة أضعاف مدة هتلر . ومعظم العراقيين لا خبرة لهم بالفكر الحر . فهم يدركون بغموض فكرة الحرية ، ولكنهم ما زالوا يريدوننا أن نقول لهم ما يفعلون» . وسأل الرئيس : هل باستطاعتهم إدارة بلاد حرة؟ رد بريمر : «بعض قادة السنة في المنطقة يشكون في ذلك . فهم يقولون : كل الشيعة كذابون . سأل الرئيس : ما هو انطباعك؟ أجاب بريمر : حسناً ، أنا لا أوافق على ذلك . لقد قابلت عدداً من الشيعة الصادقين

المعتدلين ، وواثق من قدرتنا على التعامل معهم . سأل الرئيس : وماذا عن الاقتصاد؟ أجاب بريمر : مشكلتنا الأكثر إلحاحاً هي البطالة . نعتقد أنها حوالي (٥٠) في المئة ، ولكن من يعرف حقاً؟ والعراق فيه شعب شاب حوالي نصفهم تحت سن التاسعة عشرة . وهذا تركيب متفجر . . . قرأت تقريراً بأن (١٥٠) ألف متقاعد لم تدفع لهم رواتبهم . سأل الرئيس : وماذا عن تشكيل جيش عراقي وشرطة عراقية؟ أجاب بريمر : «هذه أولويتنا الأولى . ولكن الجنود القدامى غير مناسبين وغير مدربين لأعمال الشرطة . لقد وصل حديثاً مفوض شرطة مدينة نيويورك السابق برنارد كيريك Bernard Kerik كمستشار لي لشؤون الشرطة العراقية . ولديه خطة لإنشاء قوة شرطة محترفة . وسوف نبدأ بالتدريب خلال ثلاثة أسابيع . وسنبدأ بتجنيد أول كتيبة للجيش الجديد . إن إنتاج النفط بدأ ببطء . ننتج الآن (٧٠٠) ألف برميل يومياً . وسنكون قادرين على البدء بالتصدير في الأسبوع القادم من خلال أنبوب النفط التركي . وبإمكان ناقلات النفط أن تبدأ عملها في الموانئ الجنوبية» .

سأل وزير الخارجية كولن باول : ماهو أفضل سيناريو في نظرك للسنة القادمة؟ قال بريمر : «سنصدر دستوراً وسنجري انتخابات ديمقراطية خلال سنة ، ولكن سيكون من الصعب أن نسحب قواتنا في هذا المدى الزمني» . وسألت كوندي رايس : «هل بإمكان النظام الانتخابي العراقي أن يكون بداية لوصول أحزاب سياسية إلى البرلمان ، كما في بعض البلدان الأوروبية مثل ألمانيا؟ أجاب بريمر : بالتأكيد آمل ذلك . هذه طريقة لتحسين الفرص لبيئة سياسية مستقرة» .

كان بريمر يواجه مشكلة إصدار نقد جديد للعراق . فقد قدر قيمة النقد القديم بأربعة إلى خمسة مليارات دولار . وكان عليه إصدار (٢٢٠٠) طن من الأوراق النقدية الجديدة (الدينار العراقي الجديد) . في ٢٠٠٣/٧/٧ أعلن بريمر عن بدء تبديل العملة الجديدة بالعملة القديمة ولمدة ثلاثة أشهر تبدأ من ٢٠٠٣/١٠/١٥ ، وأصدر قانوناً بإنشاء بنك مركزي عراقي .

عاد بريمر إلى واشنطن في ٢٠٠٣/٧/٢٢ حيث التقى مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض ، بحضور الرئيس بوش (الابن) ، ونائبه ديك تشيني ، ووزير الدفاع دون رمسفيلد ، ووزير الخارجية كولن باول ، ومستشارة الأمن القومي كوندي رايس ، وآندي كارد ، لبحث تمويل الوجود الأمريكي في العراق حتى منتصف آب ٢٠٠٣ . طلب بريمر في هذا الاجتماع خمسة مليارات دولار كحد أدنى . وذكّر الرئيس بأن

ديون العراق قد بلغت (١٢٠) مليار دولار .

لم يكن بريمر راضياً عن أداء مجلس الحكم العراقي ، لأن عمله كان بطيئاً ، كما يقول . ويذكر في مذكراته أنه نبّه أعضاء المجلس إلى ذلك بقوله : «لا تستطيعون إدارة بلاد بخمسة وعشرين مليون نسمة بدون عمل شاق . فعمل مجلس الحكم الأسبوعي أقل من العمل اليومي لسلطة الائتلاف المؤقتة . وكان قد اتفق مع المجلس على أن يتولى رئاسة المجلس تسعة من أعضائه (خمسة من الشيعة واثنان من السنة العرب ، واثنان من الأكراد) بصورة دورية . واقترحت لجنة من المجلس برئاسة الدكتور أحمد الجلبي خمسين ألف دولار راتباً سنوياً لكل عضو في المجلس ، بينما كان راتب الوزير الشهري أربعة آلاف دولار . قال بريمر : إن موازنة المجلس السنوية أكثر من موازنة وزارة التربية التي تضم (٣٢٥) ألف موظف .

وكان مجلس الحكم قد اختار أعضاء الوزارة العراقية الجديدة المؤلفة من (١٣) وزيراً شيعياً ، وخمسة وزراء أكراد ، وخمسة وزراء سنة ، ووزير واحد آثوري ووزير تركماني ووزيرة واحدة هي نسرين بيواري كردية .

التقى بريمر لأول مرة بالوزراء الجدد في ٢٠٠٣/٩/١٦ وقد ترأس الاجتماع والى جانبه سفير بريطانيا الجديد جيرمي غرينستوك Jeremy Greenstock . هنأهم بمناصبهم ، وأثنى على شجاعتهم وعزمهم على إعادة بناء العراق . وقال لهم : «أنتم مكلفون بصنع القرارات اليومية في وزاراتكم التي تتصل بحياة كل العراقيين . ولديكم السلطة التامة في تقرير موازنات وزاراتكم واختيار موظفيكم . ولكن يجب إبلاغ المستشارين السامين من سلطة الائتلاف المؤقتة مسبقاً عن أية مبادرة للسياسة الرئيسية المقترحة» .

ظل أداء مجلس الحكم يقلق بريمر . وفي ٢٠٠٣/١٠/٢١ اتصل بالدكتور إبراهيم الجعفري ، عضو المجلس ، وقال له : يجب أن نحسن أداء مجلس الحكم . قال الجعفري : مع الاحترام ، إذا كان المجلس ضعيفاً فاللوم يقع عليك ، فأنت الذي عينت أعضاءه . ولا نستطيع أن نتوقع من المجلس العمل بمسؤولية إذا لم يتمتع بالسلطة . رد بريمر بأنه قد منح المجلس بعض الصلاحيات ، وأنه مستعد لمنحه المزيد من الصلاحيات . طلب بريمر من المجلس العمل على عقد مؤتمر دستوري بسرعة ، وأن يتعهد بإعادة تنظيم أعماله بصورة وافية ، بحيث يشكل لجاناً من أعضائه للإشراف على الوزارات القائمة . وراجع بريمر مع الجعفري فكرة إصدار دستور للبلاد . عندها

اقترح عليه الجعفري الاتصال بعلماء الحوزة في النجف ، ولا سيما الاتصال بآية الله العظمى علي السيستاني . أجاب بريمر بأنه بعث برسالة إلى السيستاني من خلال ثلاثة مبعوثين خلال الأيام العشرة الماضية ، ليؤكدوا له بأنه يريد عملية دستورية يعتبرها العراقيون شرعية . وأكد له : «نوافق على أن يكتب الدستور عراقيون . وإننا نشعر أن مجلساً دستورياً منتخباً محلياً قد يلبي الحاجة إلى الشرعية ، ولاسيما إذا شرع المندوبون بحملة شعبية واسعة إعلامية ، وأن يعرض مشروع الدستور على جميع العراقيين في استفتاء عام . ياسيد جعفري ، لقد أبلغت آية الله أنني أدرك أنه لن يتراجع عن فتواه حول الانتخابات ، ولكن قلت أيضاً بأنه ، مثلي ، لديه مسؤولية العمل من أجل عراق جديد» .

قال الجعفري إنه يحبذ رسالة بريمر للسيستاني ويود المساعدة . ولكن بريمر طلب منه ومن القيادة الشيعية إيجاد حل لمسألة الانتخابات .

بريمر في مواجهة المقاومة الوطنية العراقية للاحتلال

يقول بريمر في مذكراته إن المقاومة العراقية للاحتلال تركزت في المثلث السني ، الذي يشمل المثلث الصحراوي الواسع ، ووادي نهر الفرات غرب بغداد وشمالها ، الذي غدا ملجأ للبعثيين . وانطلقت المقاومة من بغداد والفلوجة والرمادي . وكانت قوات الائتلاف تفقد أعداداً متزايدة من المتفجرات المزروعة على جوانب الطرق أو من مصائد قنابل RPG . قتل ما يربو على أربعين جندياً من مشاة البحرية الأمريكية ، منذ أن أطاحت القوات الأمريكية تمثال صدام حسين في ساحة الفردوس في نيسان ٢٠٠٣ . وكان بعض هؤلاء الضحايا من وحدات الاحتياط والحرس الوطني الأمريكي .

اعتمدت الولايات المتحدة علناً على سوريا للقضاء على المقاومة العراقية . ولكن سوريا ، كما يقول بريمر ، «التي يحكمها حزب البعث الخاص بها بدت محصنة أمام أية ضغوط دبلوماسية أو اقتصادية لدفعها إلى التدخل العسكري المباشر . فالرئيس بشار الأسد يعرف أن هذا غير محتمل مع القوات الأمريكية المتورطة في العراق وأفغانستان .

أملت وزارة الدفاع الأمريكية أن تحل تشكيلات مقاتلة خليط من القوات الأمريكية وقوات الائتلاف محل القوات الأمريكية التي سحقت الجيش العراقي .

وكان من المقرر أن تتولى فرقة بولندية الأمن في المناطق الشيعية بين بغداد والبصرة محل فرقة مشاة البحرية الأمريكية . ولما كانت هذه الفرقة مؤلفة من بولنديين وأوكرانيين ووحدات أصغر من أمريكا الوسطى ، فإنها قد شكلت في الواقع قوة بحجم لواء أقل من ثلاثة آلاف جندي ، مسؤولة عن منطقة عمليات فرقة عسكرية . وكانت أكبر تشكيلة في جنوب العراق إلى جانب القوة البريطانية في البصرة البالغة (١١) ألف جندي .

كان الجنرال أبي زيد قد صرح بأنه إذا حلت الفرقة التي يقودها البولنديون محل القوات المقاتلة الأمريكية ، فإن وجود (٢٣) ألف جندي غير أمريكي غير كاف . وأيده في هذا الرأي بول بريمر . «غير أن وزارة الدفاع الأمريكية لم تدرك الحاجة إلى سحق التمرد البعثي والجهادي المتصاعد في وقت مبكر» على حد تعبير بريمر . وقد أجرى الأخير حواراً مع مجلس الأمن القومي في واشنطن بواسطة VTC تناول فيه الأمن في العراق . وقال بريمر : لا يكفي القول بإحلال قوات أجنبية محل قوات الجيش ومشاة البحرية . وأن هذا التبديل سوف يؤدي إلى تدهور الوضع الأمني . وكان بريمر يدرك أن رمسفيلد حريص على إعادة القوات الأمريكية من العراق إلى الوطن . ولذا أبلغ بريمر كوندي رايس أن في العراق نصف عدد الجنود الذي يحتاجه .

كان يقلق بريمر أيضاً الافتقار إلى الاستخبارات الدقيقة عن طبيعة المقاومة العراقية . وكانت محطة وكالة الاستخبارات المركزية في بغداد أكبر محطة في المنطقة ، ومديرها يتقن اللغة العربية . وكان في العراق «مجموعة المسح العراقية Iraqi Survey Group» ، وهي منظمة استخبارية بقيادة موظف في وكالة الاستخبارات المركزية ديفيد كاي David Kay والميجور جنرال كيث دايتون Keith Dayton من الجيش الأمريكي ، وتضم (١٤٠٠) مدني وعسكري ، مهمتها البحث عن أسلحة الدمار الشامل في العراق .

كلف بريمر مدير محطة وكالة الاستخبارات المركزية في بغداد بتعقب البعثيين والجهاديين ، ووضع خطة لذلك . وأعلن بريمر عن جائزة مقدارها (٢٥) مليون دولار وحماية لكل من يدلي بمعلومات عن صدام حسين وولديه وعائلته ، و(١٥) مليون دولار لكل من يدلي بمعلومات عن ولديه عدي وقصي .

ومن المشكلات التي واجهها بريمر ، تفجير أنابيب النفط العراقي إلى تركيا ، وتهريب الديزل والبنزين والكاز ، بسبب عدم وجود حماية كافية في مصافي النفط ،

وضعف الرقابة على حدود العراق .

يذكر بريمر أنه تناول طعام الغداء في منزل الدكتور إبراهيم الجعفري رئيس حزب الدعوة في ٢٠٠٣/٨/١ ، وكان آنذاك قد تولى الرئاسة الدورية لمجلس الحكم العراقي . قال له بريمر : إن مقتدى الصدر قد نشر في صحيفته أنه سجل (١٢٤) شخصاً معتبراً إياهم من الخونة . وأكد أن ضرب هؤلاء يعد عملاً وطنياً وواجباً دينياً . ومن المعروف أن مقتدى هو ابن آية الله العظمى محمد الصدر ، الزعيم الديني الشيعي الذي قتله عملاء صدام حسين سنة ١٩٩٩ . ومقتدى في العشرينات من عمره وبداية الثلاثينات . وكان قد أعلن قبل بضعة أسابيع عن عزمه على إنشاء جيش إسلامي مستقل عن الحكومة العراقية . وكان مقتدى قد اتهم بقتل آية الله العظمى عبد المجيد الخوئي في النجف في مطلع نيسان ٢٠٠٣ ، بعد عودته من المنفى بقليل . طلب بريمر من الجعفري الحد من خطر مقتدى الصدر ، بصفته زعيماً شيعياً ورئيساً لمجلس الحكم العراقي .

ضربت السفارة الأردنية الواقعة في حي الأندلس ببغداد بسيارة كبيرة مفخخة . قتل في الحادث أربعة من الحرس العراقيين وسبعة أشخاص من المارة في الشارع . يتساءل بريمر : لماذا ضرب الأردن؟ ويجيب : «يعرف الجميع أن الأردنيين ساعدونا خلال الحرب . وكان هذا رأي كلاي الذي عاد حديثاً من الأردن . أما المخابرات الأمريكية في بغداد فترى أن ضرب السفارة الأردنية أولى حملات المقاومة للمخابرات العراقية . ونسب إلى الحلبوسي الدليمي مدير المخابرات العراقية-فرع العمليات الخاصة .

يقول بريمر إن وزارة الخارجية الأمريكية خصصت (٢٥) مليون دولار لتقييم القضاء الجنائي العراقي . وقام بهذه المهمة المتعاقدون من دين كورب Dyn Corp وفي أواخر أيار ٢٠٠٣ . وفي سبيل إنشاء شرطة جديدة تمت دعوة الشرطة العراقية من عهد صدام للخدمة . وبدأ برنارد كيريك ببرنامج لإعادة تدريبهم على الأساسيات في الشرطة الحديثة ، واحترام حقوق الإنسان . كانت البداية في منتصف تموز ,٢٠٠٣ عاد إلى الخدمة ما يربو على (١٥) ألف شرطي . وخصص لهم (١٢٠) مليون دولار من خزينة الحكومة العراقية .

في تقدير كيريك ، مفوض الشرطة السابق لمدينة نيويورك ، يحتاج كل (٣٠٠) إلى (٣٥٠) شخصاً من السكان شرطياً واحداً . ولذا يحتاج العراق إلى (٦٥) ألفاً إلى

(٧٥) ألف شرطي . بلغ عدد الشرطة الذين عادوا للخدمة (٣٢) ألف شرطي عراقي ، ولكنهم من نوعية رديئة جداً حسب تقدير بريمر . فهم يفتقرون إلى تدريب حقيقي وتجهيزات حديثة ، ويجهلون تقنية الشرطة الحديثة . ويرى بريمر أن تدريب (٤٠) ألف ضابط شرطة من مستوى مرشح يحتاج إلى ست سنوات . والسبب أن جميع تجهيزات الشرطة قد دمرت وسرقت محتوياتها أثناء الاحتلال الأمريكي . اقترح كيريك أن يتم تدريب الشرطة العراقية في القاعدة الجوية في تسزار Taszar في هنغاريا ، حيث توجد المباني وقاعات الطعام وميادين الرماية . وقال إن بالإمكان تدريب (١٦) ألف شرطي سنوياً هناك . وتبلغ تكاليف السنة الأولى من التدريب (٧٥٠) مليون دولار . ومعظم هذا المبلغ سيدفع لمدربي الشرطة الدوليين . وقد كلف بريمر المفوض كيريك بالاتصال بالقاعدة الجوية الهنغارية .

ولما قرر البرلمان الهنغاري دراسة الطلب الأمريكي لتدريب الشرطة العراقية ، تخلى بريمر عن الفكرة ، واتجه إلى تدريبهم في الأردن . وبعث كلاي للتباحث مع المسؤولين الأردنيين . وتوصل إلى الاتفاق معهم على تدريب (١٥٠٠) شرطي عراقي شهرياً ، على أن يبدأ التدريب في نهاية تشرين الثاني ٢٠٠٣ . ويتضمن هذا البرنامج تدريب (٢٥) ألف ضابط محترف خلال (١٥) شهراً . وفي بداية تشرين الأول ٢٠٠٣ ، بلغ عدد المجندين من الشرطة العراقية (٥٤) ألف شرطي . وتم الاتفاق على زيادة عدد الذين سيدربون في الأردن إلى (٤٠) ألف شرطي .

يذكر بريمر في مذكراته أن العراقيين الذين اعتقلتهم القوات الأمريكية قد سجنوا في سجون تفتقر إلى الشروط الصحية المعروفة دولياً . وقد اتصل وزير الخارجية الأمريكي كولن باول ببريمر في منتصف آب ٢٠٠٣ ، وقال له إن بعض ممثلي الحكومات الأجنبية قد شكوا من أن قوات الائتلاف والشرطة العراقية تعتقل المتهمين الأبرياء دون تمييز ، وتعتقلهم في زنزانات منفردة ، وتحرمهم من اختيار محامين للدفاع عنهم ، وإن محطتي التلفزة BBC, CNN الدولية نشرتا ذلك وأذاعتاه . ويقر بريمر بذلك بقوله : «كان باول على حق ، فقد اعتقلت قواتنا آلاف المتهمين بحثاً عن البعثيين والجهاديين . وإنه حاول الافراج عن بعض المتهمين الأبرياء ، إلا أن الجنرال سانشيز كان يعارض ذلك . وحاول بريمر فتح سجن أبو غريب الواقع على بعد (٣٢) كيلومتراً غرب بغداد ، بعد أن فحصه القاضي دون كامبل Don Campbell .

وحدث انفجار في مبنى الأمم المتحدة في بغداد في ٢٠٠٣/٨/١٩ أدى إلى

تدميره ومقتل المبعوث الخاص للأمين العام للأمم المتحدة سيرجيو دو ميلو . وأدى هذا الحادث إلى انسحاب الأمم المتحدة من العراق . وفي ٢٠٠٣/٨/٢٨ ، حدث انفجار كبير في النجف أسفر عن قتل أكثر من مئة شخص ، كان منهم آية الله العظمى محمد باقر الحكيم شقيق عبد العزيز الحكيم عضو مجلس الحكم العراقي .

مقتدى الصدر يتحدى سلطات الاحتلال الأمريكي

بدأ «جيش المهدي» ، الميليشيا التابعة لمقتدى الصدر ، بشن هجمات على قوات الائتلاف المحتلة في ليلة ٢٠٠٣/١٠/١٠ ، وسمّى قوات الائتلاف «المحتلين الإرهابيين» . وتعاون الصدر مع الشيخ السني المقاوم أحمد الكبيسي . وجاءت تقارير إلى بريمر من مكاتب سلطة الائتلاف المؤقتة في كربلاء والنجف والحلة تفيد أن تمرد مقتدى الصدر ليس موجهاً ضد قوات الاحتلال ، وإنما هو تحد للقيادة الشيعية المعتدلة ، التي يمثلها آية الله العظمى علي السيستاني . حاول جيش المهدي الاستيلاء على كربلاء ، فهاجم مبنى المحافظة ومحطة التلفزة وقيادة الشرطة ، حيث نهب خمس سيارات حراسة وأسلحة وملابس شرطة . واستولى الشيخ الكاظمي ، وهو من أتباع مقتدى ، على مسجد المخيم . ولم يتورع الصدر عن تدريب الشباب من أتباعه على الأسلحة وبألبسة عسكرية قرب الأضرحة في كربلاء . كما أنشأ محكمة خاصة به ، وأعلن أنه لم يعترف بسلطة الائتلاف المؤقتة وبالائتلاف العسكري .

يقول بريمر إن السيستاني شعر بأنه مهدد من مقتدى الصدر ومن الشباب الشيعة المتطرفين . وقد أرسل مئتي رجل مسلح من أتباعه لمواجهة قوات مقتدى . وبلغ بريمر أن القوات التي أرسلها السيستاني هي من ميليشيا المجلس الأعلى للثورة الإسلامية وقوات بدر . استمرت المعارك في كربلاء والنجف عدة أيام بين جيش المهدي وخصومه ، وشاركت فيها قوات الاحتلال . وقد قتل فيها بين (٥٠) و(٦٠) شخصاً وجرح كثيرون . وتضررت العتبات المقدسة في المدينتين . وقد أبلغ بريمر الرئيس بوش وكوندي رايس بما جرى . وفي ليلة ٢٠٠٣/١٠/١٦ قتل رجال مقتدى ثلاثة أمريكيين في كربلاء . وقام جيش المهدي في البصرة والعمارة والديوانية والناصرية بزرع الفوضى والاضطراب ، واستولوا على مكاتب مجلس اللواء في مدينة الصدر ببغداد . ولما رفضت الشرطة العراقية إخراجهم من المكاتب المذكورة ، اتخذ بريمر قراراً بطرد مدير الشرطة في مدينة الصدر .

وفي اليوم نفسه رافق موفق الربيعي ، وهو طبيب خريج بريطانيا ، وعضو في مجلس الحكم العراقي ، ومحمي من الزعيم الشيعي آية الله العظمى حسين الصدر ، وفداً إلى النجف لبحث أزمة مقتدى الصدر مع السيستاني . وطلب مقابلة بريمر بعد عودته من النجف وسلمه رسالة من السيستاني . وكان الربيعي إحدى قنوات الاتصال بين بريمر والسيستاني . نقل الربيعي إلى بريمر خبراً مثيراً وهو أن الرئيس السوري بشار الأسد بعث إلى السيستاني برسالة يطلب منه إصدار فتوى بالجهاد ضد قوات الاحتلال في العراق . يقول بريمر إنه لاحظ وصول أعداد من (المتمردين والإرهابيين) قادمين من سوريا إلى العراق .

واستجابة لطلب بريمر ، أصدر مجلس الحكم العراقي والأحزاب السياسية المشاركة فيه بياناً مشتركاً يحث على الالتزام بالنظام والقانون . وسلم هذا البيان للأئمة في كربلاء والنجف للوقوف في وجه مقتدى الصدر . وفي هذه الأثناء قامت قوات الاحتلال بالدخول إلى مدينة الصدر والاستيلاء على مقر المحافظة ، واعتقلت عدداً من المشبوهين . وفي كربلاء كلفت الشرطة العراقية بالاستيلاء على المساجد تدعمها قوات الاحتلال . بدأت المعركة في كربلاء ليلة ٢٠/١٠/٢٠٠٣ وتم الاستيلاء على المدينة . وأصدر وزير الداخلية نوري بدران في اليوم التالي بياناً للشعب أوضح فيه أن ما جرى عملية عراقية بمساعدة قوات الاحتلال .

يقول بريمر : «مع ٢٤/١١/٢٠٠٣ بلغ عدد القتلى من قوات الاحتلال (٤٦) قتيلاً خلال ذلك الشهر على يد المقاومة الوطنية العراقية» . وقد أبلغه الجنرال أبي زيد أن استخباراته تقدر عدد أفراد المقاومة البعثية بحوالي خمسة آلاف مقاتل .

ظل مقتدى الصدر يشكل تهديداً وتحدياً لقوات الاحتلال . كان بريمر يسعى إلى اعتقاله وتقديمه للمحاكمة بتهمة قتل عبد المجيد الخوئي . لكن وزارة الدفاع الأمريكية رفضت ذلك ، خوفاً من إثارة الشيعة ضد قوات الاحتلال . وفي آذار ٢٠٠٤ تمكن جيش المهدي من السيطرة على مسجد الكوفة ، وألقى مقتدى الصدر خطاباً في الناس دعاهم فيه إلى مقاومة قوات الاحتلال ومجلس الحكم . وفي ١٢/٣/٢٠٠٤ هاجم جيش المهدي مدينة غجرية في محافظة القادسية قرب النجف ، وهدم بيوتها وحرق ما فيها ، واعتقل (١٨) رجلاً منها ، نقلوا إلى سجن مقتدى في النجف حيث تعرضوا للتعذيب .

طلب بريمر في ١٤/٣/٢٠٠٤ من الجنرال سانشيز أن يعتقل بعض المقربين من

مقتدى الصدر . ولكن وجود قوات دولية من الائتلاف حال دون ذلك ، لأنها لا تأتمر بالقيادة الأمريكية . وفي ٢٣ آذار ذهب بريمر إلى النجف لاستشارة ضباط سلطة الائتلاف المؤقتة هناك بشأن مقتدى الصدر . قال المسؤول في النجف لبريمر أن ستين مقاتلاً من جيش المهدي يسيطرون على مسجد المدينة . طلب بريمر إخراجهم من المسجد ، غير أن المسؤول العسكري رفض ذلك . يقول بريمر إن إمرأة اعترفت بأن رجال مقتدى اغتصبوها مرات عدة في سجنهم . اتصل بريمر بالجنرال أبي زيد يطلب منه التخلص من مقتدى الصدر .

هاجم جيش المهدي في ٢٠٠٤/٣/٢٦ ، المراكز الديمقراطية الممولة من سلطة الائتلاف المؤقتة في مدن عدة في جنوب العراق . وفي اليوم نفسه دخلت قوات الاحتلال في قتال مباشر مع جيش المهدي وميليشيا المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في المنطقة نفسها . وقف مقتدى الصدر في خطبة الجمعة وقال : «لا لليهود ، لا لإسرائيل ، لا لأمريكا» ، بعد أن وصف الائتلاف الدولي بأنه مؤامرة صهيونية-أمريكية . وامتدح هجمات ١١ أيلول ٢٠٠١ في الولايات المتحدة ، باعتبارها «معجزة ومباركة من الله» .

وقع بريمر في مأزق ، لأن واشنطن لا توافق على اعتقال الصدر . أغلقت قوات الاحتلال صحيفة الصدر التي نشرت خطبة الجمعة . وقام جمهور من الشيعة بإهانة الشرطة التي قامت بذلك . قرأ بريمر تقريراً في ٢٠٠٤/٤/٤ عن اعتقال مصطفى اليعقوبي أحد معاوني مقتدى الصدر في النجف ، وهو متهم في اغتيال آية الله العظمى عبد المجيد الخوئي . انطلقت مظاهرات في النجف ومدينة الصدر تنادي بإطلاق سراحه . وغدا الوضع معقداً وخطيراً في مدينة الصدر وجنوب العراق . اتصل سانشيز ببريمر يقول : رجال مقتدى يدورون حول قواعدنا . . . لاسيما في مدينة الصدر والنجف . ويبدو أن بإمكانهم إيقاع القوات الإسبانية واستسلامها . فقد كان البريجيدير جنرال فولجنسيو كول Fulgencio Coll القائد الإسباني في النجف يحاول التفاوض مع جيش المهدي ، بعد أن بدأ بالمطالبة بإطلاق سراح مصطفى اليعقوبي . وأصدرت القيادة الإسبانية بياناً صباح ذلك اليوم حول اعتقال اليعقوبي جاء فيه أن الإسبان لم يقوموا بذلك ، وأنه اعتقل من قبل القوات الأمريكية في بغداد بسبب قتله جندياً أمريكياً . استشاط بريمر غضباً ، وجعل وزارة الداخلية العراقية تصدر بياناً جاء فيه أن اعتقال اليعقوبي قد تم لصلته بقتل الخوئي .

وفي ذلك اليوم (٢٠٠٤/٤/٤) هاجم جيش المهدي مبنى سلطة الائتلاف المؤقتة في النجف، وامتنع الجنود الإسبان عن القتال والدفاع عنه، فازداد بريمر غيظاً. وقد قتل أمريكي واحد وجرح عديدون. اتصل بريمر بوزيرة خارجية إسبانيا آنا بلاسيو Ana Placio التي أبدت استغرابها من موقف القائد العسكري الإسباني في النجف، الذي كان موقفه واضحاً: إذا لم تطلق النار على قواته فلن يقوموا بالعدوان من أنفسهم.

اتسع نشاط جيش المهدي في جنوب العراق. فقد أطلق النار على مكتب سلطة الائتلاف المؤقتة في العمارة، واستولى على جسور عدة في الناصرية، واصطدم بالقوات الإيطالية هناك. وهاجم مكاتب سلطة الائتلاف في كركوك في شمال العراق. وقتل ثلاثة أمريكيين في مدينة الصدر.

وفي صباح اليوم التالي ٢٠٠٤/٤/٥، تدهور الوضع في الحلة. طالب مقتدى من قوات الاحتلال إطلاق سراح الأسرى من جيش المهدي، وبالرحيل عن العراق.

أوجز بريمر الوضع في حديث له مع كل من ريتش آرميتاج Rich Armitage نائب وزير الخارجية الأمريكي، وستيف هادلي Steve Hadely، وجورج تنيت وبيت بيس. وطلب من وزارة الخارجية إرسال رسالة إلى سفارتها في عواصم دول الائتلاف لإعلامها بما كان يجري في العراق، وتطلب منهم دعم القوات الأمريكية فيه.

مع إعلان أسماء أعضاء الحكومة العراقية المؤقتة في ٢٠٠٤/٦/١، التي نقلت إليها السيادة على العراق من سلطة الائتلاف المؤقتة في ٢٠٠٤/٦/٢٨، أصدرت الحكومة الجديدة قانوناً يحظر نشاط جميع الميليشيات في العراق، التي لم تدخل في الدوائر الأمنية الحكومية. وأوجدت إدارة عسكرية للإشراف على تسجيل ودمج الميليشيات والجنود القدامى في الجيش.

رواية بريمر في إلقاء القبض على صدام حسين

يسجل بول بريمر في مذكراته رواية البريجيدير جنرال بربارة فاست Barbara Fast من جهاز الاستخبارات العسكرية الأمريكية في العراق، عن كيفية إلقاء القبض على الرئيس العراقي صدام حسين. يقول في هذا الصدد: «أخبرتنا بربارة فاست أنه في صباح السبت ٢٠٠٣/١٢/١٣، ألقت قوات الائتلاف الخاصة القبض على مشتبه به خارج تكريت، في بيت أحد أقرباء صدام. وخلال التحقيق

معه قال الرجل أن باستطاعته أن يقودهم إلى شخص أهم كثيراً يختبئ قرب القرية الزراعية «الدوار» غربي نهر دجلة مباشرة على بعد (١٥) كيلومتراً جنوب شرقي المدينة . ورفض بشدة الكشف عن هذا الشخص . وبناءً على إستراتيجيتنا الجديدة في البحث ، صدقه جنودنا . خططت قوات العمليات الخاصة لمهمة تفتيش وإلقاء قبض مع فرقة المشاة الرابعة الأمريكية التي تسيطر على المنطقة .

أخذ المخبر ، حوالي الساعة الثامنة من مساء السبت ، فريقاً من قوات العمليات الخاصة إلى مجمعين زراعيين معزولين غربي الدوار . تم الفحص الأولي بجهاز رؤية ليلية عن بيوت عدة من الطين وظلال بلا أضواء أو علائم أناس . فرضت فرقة المشاة الرابعة نطاقاً من الجند والمدرعات والطائرات العمودية حول المكان . ثم دخلت القوات الخاصة لأخذ نظرة أقرب للموقع .

كان أول الأكواخ مهجوراً كما يبدو . ولكن كانت هناك علائم أشغال حديثة في المنزل الثاني ، لوجود خبز وطعام معلب على مائدة في المنزل ، وكيس يحتوي على قميص-تي . بدا كما لو أن هناك أناساً يعيشون فيه . توجد هناك صورة ، وهناك سيارة تكسي برتقالية اللون محطمة إلى جانب حظيرة للغنم خارج سور المجمع السكني . لم يجد الجنود أحداً مختبئاً في البيت أو في المجمع المسور . وكانوا على وشك المغادرة حينما نظر أحدهم إلى الأسفل ، وشاهد خطاً مستقيماً متقطعاً بغبار كثيف . وقد وضعت طوبات بشكل مستطيل . اكتشف الجندي وهو يجر قدميه برأس حذائه حبلاً قصيراً . سحب الحبل ليجد قطعة من البولسترين تغطي فتحة في الأرض . كان هذا المدخل إلى جحر العنكبوت بعمق ستة أقدام . نادى العسكر على من في الداخل للخروج من الحفرة ، ولكن لا جواب . رأى جندي نوراً يلمع في الحفرة ، واستعد لالقاء قنبلة في الداخل . ظهرت في هذه الأثناء يدان قذرتان فارغتان ورأس أشعث يتخلله الشيب . تكلم الرجل الملتحي بلغة إنكليزية جيدة وقال : أنا صدام حسين ، رئيس العراق ، أود التفاوض . وبالبحث في مكان النوم الضيق المحفور في التراب ، وجد الجنود مسدساً وحقيبة أوراق تحتوي على وثائق مثيرة . اكتشف الفريق في آخر تلك الليلة اثنين من الذين يساعدون صدام مسلحين بسلاح AK-47 ، ومعهما أيضاً أكياس تحتوي على (٧٥٠) ألف دولار من فئات المئة دولار . نقلت طائرة عمودية للقوات الخاصة صدام إلى مركز الاعتقال التابع للاستخبارات العسكرية في مطار بغداد ، حيث خضع لفحص طبي وتحقيق أولي . وقد نظف الحرس مركز الاعتقال

لاستقبال السجين الجديد .

عرضت الجنرال فاست عليّ صور السجين من قبل الاعتقال ومن بعده . أخذت أولى الصور عند وصوله إلى المطار . على الرغم من اللحية الكثة التي يتخللها الشيب ، كان الرجل واضح المعالم بأنه صدام من خلال عينيه السوداوين . كان مرهقاً ولكنه غير هيّاب . هذا هو صدام بعد أن حلق ذقنه وقص شعره . كان شاربه أسود وشعره أقصر . كان الوجه في الصورة ، بلا شك ، وجه صدام حسين .

بينت برباره أن فريق الاستخبارات الأمريكية قد جاء ، بعد ذلك ، بأربعة معتقلين مهمين قريبين من صدام لتسهيل التعرف عليه : اثنان نواب رئيس ، بمن فيهم طارق عزيز ، والثاني بعثي رفيع المستوى وسكرتير خاص له . وقد سجل رجال الاستخبارات حديث السجين مع رفاقه البعثيين . ووضعوا التسجيل خلال تحليل صوتي رقمي لمقارنة الأنماط في الحديث مع التسجيلات الأرشيفية لصدام . وقبيل الفجر حملت طائرة النقل C-17 شحنة مهمة هي أوقية من لعاب صدام لمقارنتها بال DNA من نماذج أسرة صدام ، كانت لدى محطة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA في ألمانيا» .

اقتضت خطة وزارة الدفاع الأمريكية نقل صدام إلى سفينة من الأسطول الأمريكي في الخليج ، من أجل ضمان سلامته . يقول بريمر إذا كان صدام حسين أسير حرب لدى قوات الائتلاف ، فإن معاهدة جنيف تمنعنا من عرضه في الأسر هنا أو خارج سفينة الأسطول الأمريكي في الخليج . ولكن لو وجدناه خارج البلاد ، ولم ننشر صوره كأسير لدينا فإن العديد في العراق سوف يرفضون تصديقنا بأننا اعتقلناه . لدينا الفرصة الآن لنري جميع العراقيين والعالم أن صدام حسين قد اعتقل ، وأنه ليس بالإمكان عودة نظام البعث إلى العراق .

كان مجلس الحكم العراقي قد أقر قبل أربعة أيام إنشاء المحكمة العراقية الخاصة بمحاكمة مجرمي الحرب في العراق . ورأى بريمر أن يقوم عدد من أعضاء مجلس الحكم بزيارة صدام ؛ ليؤكدوا علناً لسكان العراق بأنهم رأوه معتقلاً .

بعد ظهر يوم ٢٠٠٣/١٢/١٤ ، في مركز مؤتمرات سلطة الائتلاف المؤقتة ، امتلأت القاعة بالصحفيين العراقيين والأجانب ، وقف بريمر وقال : «لقد قبضنا عليه We got him ، ألقي القبض على صدام حسين في الساعة ٨,٣٠ من مساء يوم السبت الموافق ٢٠٠٣/١٢/١٣ ، في حفرة في بلدة الدوار على بعد (١٥) كيلومترا

جنوبي تكريت» . ووجه كلامه إلى العراقيين قائلاً : «هذا يوم عظيم في تاريخكم ، فلعقود من الزمن عانى مئات الألوف منكم على يدي هذا الرجل المتوحش . لعقود من الزمن قسّمكم صدام حسين كمواطنين بعضكم ضد بعضكم الآخر . لعقود من الزمن هددكم وهاجم جيرانكم . مضت تلك الأيام إلى الأبد . والآن جاء الوقت للتطلع نحو المستقبل ، مستقبلكم في الأمل ، مستقبل المصالحة ، مستقبل العراق ، مستقبلكم لم يكن قط مليئاً بالأمل كاليوم . الطاغية سجين . الاقتصاد يتقدم . وأمامكم مشروع الحكومة ذات السيادة خلال أشهر قليلة . باعتقال صدام حسين هناك فرصة جديدة لأعضاء النظام السابق من عسكريين ومدنيين لإنهاء معارضتهم الشديدة . دعهم يتقدمون الآن بروح المصالحة والأمل ، ويلقون أسلحتهم وينضمون إليكم لبناء العراق الجديد . حان الوقت لجميع العراقيين عرباً وأكراداً ، سنة وشيعة ومسيحيين وتركمان ؛ لبناء عراق ديمقراطي مزدهر بسلام مع نفسه ومع جيرانه» .

بعد هذا المؤتمر الصحفي ، قام الدكتور عدنان الباجه جي ، والدكتور أحمد الجلبي ، وموفق الربيعي ، والدكتور عادل عبد المهدي مع الجنرال سانشيز وسكوت كاربنتر Scott Carpenter ، نائب مساعد وزير الخارجية الأمريكي للشؤون الإنسانية ، وبريمر بزيارة صدام في مكان سري قرب مطار بغداد . عند وصولهم إلى مكان الاعتقال سأل سانشيز الجميع إن كانوا يريدون رؤية صدام على التلفزيون Monitor أو شخصياً . نظروا إلى أكبرهم سناً عدنان الباجه جي وإلى عادل عبد المهدي ، واتفقوا على رويته شخصياً . نزل الجميع إلى زنزانته ، وهي بعرض ثمانية أقدام وبطول ضعف العرض ، فيها مصباحان فلوريان مثبتان في السقف . وعلى أحد جدرانها خارطتان لمدينة بغداد وجوارها عسكريتان . وعلى الجانب الأيسر من المدخل صور للمطلوبين من قادة نظام البعث الخمسة والخمسين .

دخل أعضاء مجلس الحكم الأربعة إلى الغرفة الضيقة بينما بقي الأمريكيون في المدخل . كان صدام يلبس قميص نوم أبيض (دشداشة) وفوقها سترة شتوية ذات قلنسوة على كتفيه ، ويلبس حذاء صندلاً من البلاستيك الرخيص الثمن . كانت أظافر قدميه وسخة كما لو أنه كان يمشي في الغبار لأسابيع . وكان بجانب قدمه كرتونة من عصير البرتقال وبها قصبة زهرية اللون . ووراء صدام على الحائط صورتان رسميتان ، الأولى للرئيس بوش (الابن) والثانية لوزير الدفاع الأمريكي دون رمسفيلد . كان صدام جالساً هادئاً تماماً يراقب الزوار . وكان على يمينه جندي أمريكي

يتكلم العربية يحرسه . قال الحارس لسانشيز : لقد استيقظ قبل قليل ، ياسيدي ، وقدمت له بعض العصير . وقف الأربعة ينظرون إلى صدام . صاح موفق الربيعي : صدام حسين ، «الله يلعنك» . قالها مرتين . رد صدام : من أنت حتى تلعنني ، أنت الخائن القادم مع الأمريكيين! ثم اتجه نحو عدنان الباجه جي ، وزير الخارجية الذي نفاه صدام ، وقال : «صديقي دكتور عدنان : لماذا جئت مع الخونة؟ أنت لست منهم ، أنت منا» . ونظر إلى الجميع وقال : من الذي سيقدمني إلى هؤلاء القادة العظام للعراق الجديد؟ قالها بسخرية .

سأله عادل عبد المهدي : كيف تستطيع بيان عملية الأنفال وحلبجة؟ لماذا أعطيت الأوامر؟ قال صدام : كانوا خونة وإيرانيين . صاح الربيعي : لماذا لم تكن لديك الشجاعة للقتال أو على الأقل لمحاولة الموت؟ رفض صدام الإجابة ، وبدلاً من ذلك توجه إلى سانشيز وسأل : لو كنت مكاني هل ستحاول المقاومة؟ ثم اتجه نحو العراقيين ورد باحتقار : ماذا تعرفون عن القتال على أي حال! قال الربيعي : على الأقل ولداك قاتلا قبل أن يقتلا . قال عادل عبد المهدي : ماذا تقول الآن عن المقابر الجماعية وعن عشرات الآلاف الذين قتلتهم ودفنتهم؟ رد صدام : أعدموا؟ هل سأل أي منكم أقاربه من كان هؤلاء المجرمون؟ لصوص وخونة وإيرانيون . سأل الربيعي صدام عن العديد من البعثيين المرموقين الذين أمر صدام بقتلهم في مطلع سنة ١٩٨٠ ، وقال : لماذا فعلت ذلك؟ أجاب صدام ببرودة : هذا كلام شوارع وما خصك بذلك؟ إنهم بعثيون . وسأل عدنان الباجه جي : لماذا غزوت الكويت ، فذلك كان بداية انزلاق العراق إلى الدمار؟ ابتسم صدام بتكلف وقال : حينما أفكر بشيء أفعله ، هذه هي طريقتي . كانت بداية الحرب مبررة تماماً . ولكن كانت مأساوية بحيث إن جهود مبارك الصادقة والفرنسيين لم تحل دون القتال . وقال صدام للباجه جي : دكتور عدنان ، نحن نعرفك ، كنت وزير خارجية . ماذا تعمل مع هؤلاء الناس؟ قال الباجه جي إنه يعمل لإقامة الديمقراطية . رد صدام بأن الديمقراطية كانت في عهده . قال الباجه جي إن صدام كان حاكماً ظالماً وقاسياً ومتوحشاً . رد صدام : دكتور عدنان ، ألا تعتبر الكويت المحافظة التاسعة عشرة من العراق؟

سأل الربيعي صدام : لماذا قتلت السيد محمد الصدر سنة ١٩٩٩؟ أجاب صدام : الصدر؟ قدمي؟ وماذا عن جميع إخوة الحكم؟ لم يرد صدام . بدأ عادل عبد المهدي يعدد أسماء رجال الدين الشيعة الذين قتلوا . رد صدام : حكي شوارع . قال

الباجه جي : كيف أسأت معاملة بلادك بهذا المستوى؟ قال صدام : كنت دوماً أراعي مصلحة الشعب أولاً . انتخبت بانتخابات عادلة ، وحتى اليوم باستطاعتي الذهاب والنوم بسلام في أي مدينة في البلاد . فهل باستطاعتكم ذلك؟ خرج أحمد الجلبي غاضباً من الزنزانة وتبعه الآخرون . قال الربيعي وهو خارج : صدام حسين ، الله يلعنك ، كيف ستواجه خالقك؟ رد صدام : سوف أقابله بضمير نقي وكمؤمن . وغادر الجميع الموقع .

بحث بريمر مع مساعديه كيفية استثمار اعتقال صدام من أجل تفكيك المقاومة الوطنية العراقية للاحتلال الأمريكي-البريطاني ، وإجراء المصالحة مع السنة ، الذين سيدركون ، في نظره ، أن البعث قد مات . واستشار بريمر البريجيدير جنرال سكوت كاسل Scott Castle ، المستشار العام لسلطة الائتلاف المؤقتة حول تسليم صدام للمحكمة العراقية الخاصة . قال سكوت : يعتبر صدام أسير حرب ، وليس بالإمكان تسليمه للعراقيين قبل نهاية الحرب وتكوين حكومة عراقية ذات سيادة .

اتصل الرئيس بوش (الابن) ببريمر ، وهنأه على اعتقال صدام . وقال له إنه سيلقي خطاباً إلى الشعب الأمريكي في هذه المناسبة في الساعة (١٣٠٠) من ذلك اليوم يهنئ فيه القوات المسلحة الأمريكية ووكالة الاستخبارات المركزية على نجاحهما في إلقاء القبض على صدام .

مجازر الفلوجة والرمادي على يد قوات الاحتلال الأمريكية

يؤكد بول بريمر في مذكراته أن المقاومة الوطنية العراقية للاحتلال الأمريكي تركزت في المثلث السني ، الذي يشمل مدن الفلوجة والرمادي وبغداد . ولذا قررت قوات الاحتلال الأمريكية القضاء على هذه المقاومة بالقوة ، ولاسيما بعد أن بلغت هذه المقاومة أوجها في أواخر سنة ٢٠٠٣ وبداية سنة ٢٠٠٤ . يقول بريمر : «أخبرني الجنرال سانشيز في ١٤ شباط ٢٠٠٤ عن هجوم بالغ الاحتراف على مخفر شرطة الفلوجة ، هاجمت فيه ثلاث مجموعات المخفر في وقت واحد من اتجاهات مختلفة ، واستولت عليه وقتلت المدافعين عنه ، وأطلقت سراح (١٢) سجيناً . كانت الفلوجة في منطقة مسؤولية الفرقة العسكرية (٨٢) المحمولة جواً ، والتي لم ترد بشدة على عمليات المقاومة العراقية ، كما قال سانشيز . وربما كان ذلك لأسباب عسكرية . ويذكر سانشيز أنه نقل هذه الرسالة إلى سكان الفلوجة ، مذكراً إياهم بأن القوات

الأمريكية لم ترد عليهم بقوة في القتال الذي دار في ضواحي المدينة في تشرين الثاني ٢٠٠٣ .

يتابع بريمر حديثه عن الفلوجة بقوله : «أصبح الوضع الأمني في الفلوجة جحيماً لا يطاق . وهي مدينة معروفة بشراسة أهلها . تضم (٣٠٠) ألف نسمة ، تقع على منحنى لنهر الفرات على ملتقى طرق عدة للقوافل عبر بادية الشام توصل إلى سوريا . وقد أصبحت طريقاً مفيدة للمهربين بعد حرب الخليج (تحرير الكويت) وفرض العقوبات على العراق .

في نيسان ٢٠٠٣ تولت الفرقة (٨٢) المحمولة جواً المسؤولية عن محافظة الأنبار غربي بغداد . ولكن الفرقة لم تكن قادرة على ضبط الأمن في مدن الأنبار الكبرى مثل الفلوجة والرمادي . ومع حلول آذار ٢٠٠٤ كانت الفرقة قد طوقت المدينة وتركت لسكانها إدارة داخلها . واستمرت المقاومة تحتمي بالسكان وتهاجم القوات الأمريكية ، وتزرع الألغام على الطرق وتخزن الأسلحة في بيوتها . كان بريمر يرى أنه لا يمكن إعادة الأمن إلى الأنبار ما لم تطهر مدينة الفلوجة من عناصر المقاومة . قال ذلك للجنرالين الأمريكيين أبي زيد وسانشيز . ومن أجل هذه الغاية تم إبدال قوة حملة مشاة البحرية الأولى بقيادة اللفتننانت جنرال جيم كونوي Jim Conway بالفرقة (٨٢) المحمولة جواً . وجاءت القوة الجديدة من الكويت إلى محافظة الأنبار .

قال الجنرال كونوي لبريمر إنه لا يحبذ مقاربة الفرقة (٨٢) للمقاومة العراقية في المثلث السني ، لأنها كانت تعطي مجموعات الحراسة (٤٥) دقيقة داخل المدينة . أما هو فيريد لمشاة البحرية أن يذهبوا حيثما رغبوا وفي أي وقت . ووضع كونوي خططاً عسكرية عملية لتحقيق ذلك . وقد أعجب بها بريمر أي إعجاب .

انفجرت أزمة الفلوجة صباح الأربعاء ٢٠٠٤/٣/٣١ ، فقد وقعت قافلة صغيرة من السيارات تحمل حراساً أمنيين أمريكيين من شركة بلاكوتر Blackwater في كمين في وسط المدينة . هاجم رجال المقاومة المسلحين سيارة أمريكية بأسلحة AK-47 فاشتعلت السيارة ، وقام جمهور مهتاج من السكان بالرقص وجر جثث الأمريكيين من حطام السيارة ومزق اللحم المحترق بالجارف . وعلقت جثتان متفحمتان ممزقتان على عوارض الجسر الرئيسي في المدينة الواقع فوق النهر . قام فريق من مصوري التلفزيون بتصوير هذا المشهد . ظهرت الصور المريعة على شاشات التلفزة العربية بعد ظهر ذلك اليوم . وقد سجل شريط لذلك على شبكات التلفزة

الأمريكية . كانت هذه الصور قد أصبحت ، كما يقول بريمر ، «أيقونات لوحشية التمرد (المقاومة) ، وأظهرت عجز قوات الائتلاف في السيطرة على الفلوجة» .

يواصل بريمر حديثه بقوله : «في صباح اليوم التالي قال لي ريك سانشيز بأنه لام الجنرال كونوي لأنه لم يرسل قوات كافية إلى الفلوجة ، حالما علم مشاة البحرية بأن رجال بلاكوتر قد وقعوا في كمين . رد كونوي بأنه كان بانتظار أن تطلب الشرطة العراقية العون منه . ولما سأل بريمر سانشيز عن الخطوة التالية ، رد بقوله : «كان يجب أن نرد على هذا الهجوم الوحشي وإلا استنتج العدو أننا متخاذلون . سوف نقوم بإزالة آثار العملية التي خطط لها في أواخر العام الماضي ، وهي تطهير الفلوجة من عناصر المقاومة ، والتي أجلت لأن وزير الداخلية تلكأ في إرسال الشرطة للمساعدة في إخراج المتمردين منها» .

أبلغ سانشيز بريمر في ٢٠٠٤/٤/٢ أن قوات مؤلفة من (١٣٠٠) جندي من مشاة البحرية وفيلق الدفاع المدني وقوات الجيش العراقي الجديد قد بدأت ، قبل شروق الشمس ، بوضع حواجز على الطرق حول الفلوجة لإنشاء طوق مسلح حولها . ودخلت سيارات الهمفي مع مكبرات الصوت إلى المدينة معلنة حظر التجول من الغسق حتى الفجر ، وهددت بالسيطرة على المقاومين الذين رفضوا تسليم أسلحتهم والاستسلام . وغدا الوضع في المدينة في منتهى الخطورة .

عرض بريمر بالتفصيل المبررات لقيام مشاة البحرية الأمريكية بمجزرتهم المعدة مسبقاً لتطهير الفلوجة من رجال المقاومة الوطنية . ولم يذكر شيئاً عن تفاصيل المجزرة التي ارتكبتها القوات الأمريكية . واكتفى بذكر قتلى القوات الأمريكية . يقول في هذا الصدد : «في صباح اليوم التالي فقد مشاة البحرية أحد عشر جندياً في الرمادي» . وقد سجل تلفزيون الجزيرة المجازر التي ارتكبتها القوات الأمريكية .

يقول بريمر : «تعاون قائد الشرطة في المدينة مع المتمردين . ولم يبد جنود الدفاع المدني حراكاً إزاء العنف الأمريكي ، وترك نصف القوة من الجيش العراقي الجديد ميدان المعركة» . وكان من نتائج مجزرة الفلوجة أن قدم وزير الداخلية نوري بدران استقالته في ٢٠٠٤/٤/٨ ، وقرر أبو حاتم تجميد عضويته في مجلس الحكم ، وأعلن وزير حقوق الإنسان ، عبد الباسط استقالته فهو سني معتدل من محافظة الأنبار . وكان عدنان الباجه جي على وشك تقديم استقالته من مجلس الحكم احتجاجاً على مجزرة الفلوجة . وجاء هاشم الحساني الذي يمثل الحزب الإسلامي العراقي السني

إلى بريمر وأبلغه أن المكتب السياسي للحزب قد قرر الانسحاب من مجلس الحكم . وقال له الحساني إن غازي الياور ، ممثل عشائر السنة ، عازم على تقديم استقالته . وطالب بإيقاف فوري لإطلاق النار في الفلوجة . وقد توقف قتال المشاة البحرية الأمريكية في الفلوجة الساعة (١٢) ظهر يوم الجمعة ٢٠٠٤/٤/٨ .

سألت كوندي رايس بريمر في ٢٠٠٤/٤/٢١ عن رأيه فيما لو أصدر الرئيس بوش أمراً بهجوم شامل على الفلوجة ، رد بريمر أنه لو حدث ذلك لانهارت العملية السياسية كلياً في العراق . وجه بريمر خطاباً إلى الشعب العراقي بعنوان «اقلبوا الصفحة» في يوم الجمعة ٢٠٠٤/٤/٢٣ . دعا فيه أهل الفلوجة إلى التعاون مع السلطة العراقية الشرعية وإنهاء الأزمة . وفي محاولة منه لتخفيف أثر قانون اجتثاث البعث ، قال إن القانون يشمل واحداً في المئة من أعضاء الحزب أي القيادات العليا فيه . وقرر بريمر ووزير التربية والتعليم إعادة عشرة آلاف معلم بعثي إلى عملهم .

وفي صباح يوم ٢٠٠٤/٤/٣٠ قامت قيادة مشاة البحرية الأمريكية في الفلوجة ، بناءً على اقتراح مدير المخابرات العراقية الجديد اللواء محمد الشهواني ، بدعوة اللواء جاسم محمد صالح ، الضابط السابق في الحرس الجمهوري ، مع ثلاثة آلاف جندي عراقي ، بتولي الحراسة داخل المدينة وسحب قوات المشاة البحرية منها ، والقيام بملاحقة المقاومة الوطنية . وقد أثار هذا التعيين دهشة واستغراب الجنرال أبي زيد والسفير بريمر ، وأعضاء مجلس الحكم الشيعة . وبعد يومين ألغي هذا القرار وحل اللواء محمد عبد اللطيف محل اللواء جاسم محمد صالح في قيادة الفلوجة .

أخفى بريمر في مذكراته ما تعرض له سكان محافظة الأنبار من قتل وتعذيب وهدم لبيوتهم واعتداء على حرماتهم .

بريمر والإدارة الأمريكية في السنة الأولى من احتلال العراق

منذ الأشهر الأولى للاحتلال الأمريكي للعراق ، أبدت الإدارة الأمريكية ، بوجه عام ووزارة الدفاع بوجه خاص ، رغبة شديدة في سحب قواتها من العراق ، بسبب المقاومة الوطنية العراقية التي ألحقت بهذه القوات إصابات متواصلة منذ الأيام الأولى للاحتلال . كان بريمر على اتصال مستمر بمجلس الأمن القومي الأمريكي وبالمسؤولين في وزارة الدفاع ، ينقل إليهم أحداث العراق ومقترحاته لمواجهة ما يلاقيه من تحديات ومصاعب ، وينفذ التعليمات التي ترسل إليه .

وقد التقى بالرئيس بوش (الابن) في مطلع حزيران ٢٠٠٣ في قطر ، كما بينا سابقاً ، وبيّن له الوضع العام في العراق ، وأجاب عن أسئلة الرئيس ومرافقيه . والتقى في مؤتمر المانحين لإعادة إعمار العراق الذي عقد في مدريد في تشرين الأول ٢٠٠٣ ، بكولن باول ، وزير الخارجية ، وبحث معه إمكانية دخول قوات تركية إلى العراق للمشاركة مع قوات الائتلاف . وكان بريمر يعارض ذلك بسبب رفض الأكراد والقادة الشيعة للفكرة .

وقابل بريمر الرئيس بوش في البيت الأبيض ، ووزير الدفاع رمسفيلد ، والجنرال مايرز Myers رئيس هيئة رؤساء الأركان ، والجنرال أبي زيد وكوندي رايس ، وآندي كارد في واشنطن في ٢٠٠٣/١٠/٢٧ . وفي وزارة الدفاع أثير من جديد خيار ولفوويتز-فيث مع بريمر الذي اقترح في ٢٠٠٣/٩/٢٢ وينص على تعيين مجلس تشريعي مؤقت من قبل مجلس الحكم العراقي ، تنقل إليه السيادة في ٢٠٠٤/٤/٩ في الذكرى الأولى لسقوط بغداد . وقد عارض بريمر هذا الخيار قائلاً : ليس من المسؤولية نقل السيادة إلى هيئة عراقية غير منتخبة وبدون دستور ، لأن في ذلك مخاطرة بوقوع العراق في الفوضى أو الحرب الأهلية .

وفي اجتماع مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض ، تمت مناقشة مقاربتين سياسيتين بديلتين : خيار سلطة الائتلاف المؤقتة ، القائم على التمسك بخطة نقل السلطة إلى حكومة عراقية منتخبة تقوم على أساس دستوري ، وفق جدول زمني يتيح قيام ذلك في نهاية سنة ٢٠٠٤ . أما وزارة الدفاع فكان من رأيها نقل السلطة في أقرب وقت ممكن لحكومة عراقية ، بحجة أنها ستزيل صفة الاحتلال عن قوات الائتلاف . وقد عارض بريمر اقتراح وزارة الدفاع قائلاً : إن العراقيين سوف ينظرون إلى قواتنا كجيش احتلال ، مهما سميناها نحن ، ما دامت موجودة على أرض العراق . وقد أغاظ هذا الموقف وزير الدفاع رمسفيلد ، الذي اعتبر بريمر رجلاً شاذاً يسبح عكس التيار . وفي حديث خاص بين بريمر وآندي كارد ، شعر الأول أن واشنطن قد فشلت في سياستها في العراق ، وأنها تبحث عن كبش فداء . واقترح كارد عليه أن يتم لقاء بين بريمر والرئيس بوش ، غير أن بريمر رفض ذلك . والتقى بعد ذلك مع رايس في مكتبها بناء على طلبها . قالت له : أشاركك الرأي بشأن توتر أعصاب العسكريين . وفي اجتماع مجلس الأمن القومي برئاسة الرئيس بوش ، أصغى هذا للخيارين السياسي والعسكري في العراق . وأنهى الاجتماع بقوله : «سوف ننجح في العراق ،

على الرغم من الأوقات الصعبة التي نواجهها هناك . يجب أن لا يتسرب الشك إلى أحد . سوف نعمل الشيء الصحيح ، بغض النظر عما تقوله الصحف والخصوم السياسيون . النجاح في العراق سيغير العالم . يحتاج الشعب الأمريكي إلى عدم الشك في أننا واثقون من النتيجة . قد لا ننجح مع الزمن في الانتخابات ، وليكن ذلك» .

طلب الرئيس بوش في نهاية الاجتماع اللقاء ببريمر في الساعة الواحدة بعد الظهر في المكتب البيضاوي . جاء بريمر إلى قاعة الرياضة في الطابق الثالث ، وأحضرت له بذلة رياضة . نزل إلى الطابق الثاني بمعية الرئيس بعد (٤٥) دقيقة من الممارسة الرياضية . سأله الرئيس عن علاقته برمسفيلد وقال : ما نوع الرجل الذي يسعى للعمل معه؟ هل هو إداري يهتم بدقائق الأمور؟ قال بريمر : أحب دون ، ياسيدي ، عرفته لمدة ثلاثين سنة ومعجب به ، وأعتبره ذكياً جداً ، ولكنه يهتم بدقائق الأمور في إدارته . تفاجأ الرئيس بقول بريمر الذي واصل قوله : دون يُرهِبُ معاونيه المدنيين بحيث لم أستطع إلا نادراً الحصول على أي قرارات من أي شخص غيره . . . لدى وزارة الدفاع ميل لمعادلة الشرطي العراقي بالجندي الأمريكي . . . وهذا رأي مضلل . . . إن وزير الدفاع قد أصر على أن تخفيض عدد القوات الأمريكية في العراق شرط أساسي . وهذا ليس صحيحاً تماماً . والواقع أن تخفيض الأعداد مرتبط بحرص الجيش على تناوب الربيع المخطط له . . . لقد صدمت من تقدير الجنرال أبي زيد في اجتماع مجلس الأمن القومي بأننا هزمنا المتمردين في ثلاثة أشهر الذي يتفق مع تبديل القوات» .

سأل بوش : هل استخباراتك جيدة بما يكفي؟ أجاب بريمر : كلا يا سيدي ، هي ليست كذلك . لدينا كثيرون يبحثون عن أسلحة الدمار الشامل وليس لدينا ما يكفي للبحث عن الإرهابيين . وسأل بوش : ماذا لديك ما تقوله لي؟ رد بريمر : بصراحة أخشى أن العديد من المسعورين في البنتاغون يدفعون المادة السياسية بقصد إظهاري كرجل مغفل . نظر بوش باندهاش وقال : ماذا تعني بذلك؟ أجاب بريمر : حسناً ، في الواقع أن موقف وزارة الدفاع هو التوصية بنهاية سريعة للاحتلال . وقد رفضت ذلك بعناد . ومنذئذ أصبحت أي مشكلة هي غلطتي . قال بوش : لا تقلق من ذلك ، سوف أغطيك ، ولن نفشل في العراق . وعاد بريمر من واشنطن إلى بغداد في صباح ٢٠٠٣/١٠/٣١ .

تدخل رمسفيلد وطلب من بريمر في تشرين الثاني ٢٠٠٣ تقديم موعد إصدار دستور مؤقت للعراق إلى ٢٠٠٤/١/٣٠ بدلاً من ٢٠٠٤/٣/١٥ . ولما عرض الأمر على رايس طلبت منه القدوم إلى واشنطن وعرض اقتراحه على الرئيس في اجتماع لمجلس الأمن القومي . غادر بريمر بغداد إلى واشنطن على طائرة عسكرية مليئة بالجرحى من القوات الأمريكية . وحضر اجتماع مجلس الأمن القومي برئاسة كوندي رايس . وقد لخص بريمر خطته ، غير أن باول قال إنه لا يستطيع أن يوصي بهذه الخطة للرئيس إلا إذا كان متأكداً من أن مجلس الحكم العراقي والسيستاني سيؤيدانها . وفي اليوم التالي ذهب بريمر ورمسفليد إلى البيت الأبيض ، حيث ترأس الرئيس بوش الاجتماع . وقد عرض بريمر ورقته وهي بعنوان «من المؤقت إلى السيادة From Transition to Sovereignty» . قال الرئيس : أنا عازم على الذهاب مع مقاربة المؤتمر الحزبي والحكومة المؤقتة ، لأن في الانتخابات مخاطرة إذا أجريت قبل تموز ٢٠٠٤ . استبقى الرئيس بوش بريمر لوحده معه وسأله عن الوضع في العراق . قال بريمر : علينا أن نعالج الوضع الأمني بفاعلية ، الاستخبارات ليست جيدة . ولست مقتنعاً شخصياً بأن لدى العسكريين إستراتيجية للنصر . طلب الرئيس من بريمر تمديد إدارته للعراق ، فقبل حتى تشكيل الحكومة العراقية المؤقتة أو حتى صدور الدستور المؤقت . قال الرئيس : كلا ، يجب أن تبقى حتى تنتهي المهمة ، حتى نعيد السيادة للعراقيين .

زار الرئيس بوش بغداد في عيد الشكر سنة ٢٠٠٣ ، والتقى بالقوات المسلحة الأمريكية وبعض أعضاء مجلس الحكم العراقي . وظل بريمر على اتصال مستمر بالإدارة الأمريكية طوال نشاطه السياسي الرامي إلى إصدار دستور مؤقت للعراق ، وتأليف حكومة مؤقتة تنقل السيادة إليها من سلطات الاحتلال .

في ٢٠٠٤/١/٤ زار رئيس وزراء بريطانيا توني بلير Tony Blair البصرة والتقى به بريمر فيها . سأله بلير عن الوضع في العراق . قال بريمر : نواجه مشكلات ثلاثاً : كيف نحل مخاوف الشيعة من الانتخابات ، وكيف نصل إلى العرب السنة ، وكيف نبقي الأكراد معنا . قال بلير : دعنا نبدأ بالأصعب : الشيعة والانتخابات . قال بريمر : في رسالة السيستاني في ٢٠٠٣/١٢/١٥ قال إنه يريد فريقاً من الأمم المتحدة يأتي إلى العراق ، ويدرس المسألة خلال ثلاثين يوماً ، ويقرر أن الانتخابات لا يمكن إجراؤها في حزيران ٢٠٠٤ . فهو يبحث عن حماية لوجهه . وفي حال تحقق ذلك سوف يدعم السيستاني نظام المجالس المحلية الذي ورد في اتفاق ٢٠٠٣/١١/١٥ . وقد وجه عبد

العزيز الحكيم ، رئيس مجلس الحكم ، رسالة إلى كوفي أنان ، الأمين العام للأمم المتحدة يطلب منه معرفة إذا كان بالإمكان إجراء الانتخابات قبل ٣٠ حزيران ٢٠٠٤ . وقرر كوفي أنان اللقاء مع مجلس الحكم وسلطة الائتلاف المؤقتة في نيويورك في ٢٠٠٤/١/١٩ . أما الأكراد فيطالبون بكركوك الغنية بالنفط ويزعمون أنها مدينة كردية تقليدية ، وأن أكثرية السكان أصبحت عربية بسبب سياسة صدام في التعريب التي استمرت ثلاثين سنة . ومنذ التحرير قامت الميليشيا الكردية (البشمارقة) بإجبار العرب على مغادرة بيوتهم ومحلاتهم التجارية . لقد قاتل خمسون ألفاً من الميليشيا الكردية إلى جانب قوات الائتلاف في حرب تحرير العراق ، لذلك لم نفكر بحل البشمارقة . أما الميليشيا الشيعية فأكبرها قوات بدر التابعة للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية ، تليها ميليشيات حزب الدعوة ، والمؤتمر الوطني العراقي ، والوفاق الوطني العراقي ، وجيش المهدي التابع للزعيم الشيعي مقتدى الصدر .

جهود بريمر السياسية في إنشاء إدارة عراقية في ظل الاحتلال

كان تشكيل مجلس الحكم العراقي في ٢٠٠٣/٧/١٣ أول إنجازات بول بريمر في إنشاء إدارة عراقية متعاونة مع قوات الاحتلال الأمريكية ، غير أن المجلس لم يتمتع بسلطات وصلاحيات مهمة على أرض الواقع . فقد كان مجرد هيئة سياسية تمثل الطوائف الدينية والمذهبية والعناصر الأثنية للسكان ، كما كان يراها المحتلون الأمريكيون . وقد ضجر أعضاء المجلس من وضعهم هذا ، من خلال إظهار لا مبالاتهم بما كان يفعله بريمر وسلطة الائتلاف المؤقتة التي كان يتولى رئاستها . وفي المقابل كان بريمر يشكو من ضعف استجابة المجلس لما يطلبه منه .

يقول بريمر في مذكراته : «في منتصف تشرين الأول (٢٠٠٣) حضرت اجتماع مجلس الحكم إلى جانب رئيسه في ذلك الشهر الدكتور إياد علاوي . اقترحنا استعمال هذه الدورة لمراجعة الأشهر الثلاثة الأولى من عمل المجلس . حضر الاجتماع سبعة أعضاء والبقية كانوا ممثلين للأعضاء لا أعرفهم . تحدث في الاجتماع العضو السني من الأنبار سمير الصميدي ، الذي ذكر الجوانب الإيجابية التي قام بها مجلس الحكم ، مثل تعيين الوزراء والاعتراف الدولي به . وقال : ولكن إنجازه لم يبلغ ما كنا نأمل منه عند قيامه ، ولم نتمكن من تعيين موظفيه . كما أن حالات الغياب عن جلساته كانت للأسف كثيرة . أما العضو الشيوعي حامد ماجد موسى فقد قال :

لم تتحقق الآمال التي عقدناها قبل ثلاثة أشهر على المجلس . فالأمن في البلاد قد تدهور ، والبطالة ما زالت مشكلة . وقال محمد بحر العلوم : لقد استهلكت المشاكل الأمنية طاقة مجلسنا الحاكم . وسأل إياد علاوي بريمر إن كان يود الحديث . بدأ بريمر باقتراح بعض التحسينات على أداء المجلس ومن أهمها : أن يستوفي المجلس حاجته من الموظفين ، وتحسين إجراءاته الداخلية وقواعد عمله ، ونشر محاضر اجتماعاته .

وفي تشرين الثاني ٢٠٠٣ تزايدت الضغوط على بريمر من مجلس الحكم ومن وزارة الدفاع الأمريكية ، من أجل تسليم السيادة فوراً للعراقيين ، وحتى لمجلس الحكم ، وبدون إجراء إنتخابات عامة . عندها قرر بريمر دعوة رؤساء مجلس الحكم التسعة إلى منزله في ٢٠٠٣/١١/٦ ، وبحث معهم الموضوع دون التوصل إلى أي قرار منهم أو اتفاق حوله .

قرر بريمر بعد ذلك عرض فكرة صياغة دستور مؤقت للعراق ، من أجل السماح بنقل السيادة من سلطة الائتلاف المؤقتة المحتلة إلى العراقيين . واتصل بكوندي رايس ، مستشارة الأمن القومي ، في ٢٠٠٣/١١/٧ للحصول على موافقتها على إصدار دستور مؤقت . وكان قد اتفق مع جلال الطالباني رئيس مجلس الحكم لشهر تشرين الثاني ٢٠٠٣ على إصدار الدستور المؤقت . وناقش بريمر الموضوع مع روبرت بلاكويل Robert Blackwill ، من مجلس الأمن القومي الأمريكي ، بعد وصوله إلى بغداد في ٢٠٠٣/١١/١٠ . وحاول بريمر إقناع رمسفيلد وباول ورايس بأن يتعاون مجلس الحكم مع سلطة الائتلاف المؤقتة ومحامين عراقيين لصياغة دستور مؤقت ، على أن يتم الانتهاء من صياغته في منتصف آذار ٢٠٠٤ ، وأن تجري انتخابات عامة لجمعية وطنية انتقالية في صيف ٢٠٠٤ . ويمكن للجمعية الوطنية أن تختار حكومة وطنية ينقل إليها الائتلاف السلطة والسيادة . وفي اليوم نفسه وافق ممثلو المجلس الأعلى للثورة الإسلامية وحزب الدعوة والدكتور أحمد الجلبي الأعضاء في مجلس الحكم على المقترح .

اتصل رمسفيلد ببريمر في اليوم نفسه وطلب منه تقديم موعد إصدار الدستور إلى ٢٠٠٤/١/٣٠ بدلاً من ٢٠٠٤/٣/١٥ . وسافر بريمر إلى واشنطن وعرض المقترح على الرئيس بوش ومجلس الأمن القومي ، ونال تأييد الرئيس بوش له .

عاد بريمر إلى بغداد ، وعلم أن الدكتور عادل عبد المهدي قد سافر إلى النجف للقاء بالسيستاني في ٢٠٠٣/١١/١٣ ، بناء على طلب جلال الطالباني ، وعرض

عليه خطة بريمر فوافق عليها . والتقى بريمر مساء ٢٠٠٣/١١/١٤ رؤساء مجلس الحكم التسعة في منزله وبحث الخطة معهم . ودعي بريمر وريتشموند ظهر اليوم التالي إلى منزل جلال الطالباني لحضور اجتماع مجلس الحكم الذي أيد عشرون من أعضائه خطة بريمر . ووقع على هذا القرار الطالباني وريتشموند وبريمر ، واحتوت هذه الخطة على (١٥٣) صفحة .

يقول بريمر إن آية الله العظمى علي السيستاني غير رأيه بشأن الحكومة المؤقتة ، ورأى أن تكون منتخبة . وحاول بريمر أن يقنعه بتغيير موقفه عن طريق عماد رضا . ولكنه رفض الاعتراف بهيئة غير منتخبة لتولي السيادة على البلاد . وكان هذا ، في نظر بريمر ، مطلباً جديداً متفجراً .

في صباح اليوم التالي ، سجل بريمر ملاحظاته على إصرار السيستاني على موقفه والرضوخ له كما يلي :

١- سيعطي الانطباع بأن مجلس الحكم وسلطة الائتلاف المؤقتة يقادون من أنوفهم من قبل الشيعة .
٢- قد يكون من نتائجه الخطيرة المحتملة نظرة السنة إلى العملية بأن سلطة الائتلاف المؤقتة تعمل ما تخشاه ، وتستسلم للأكثرية الشيعية .
٣- وقد يشجع هذا الرضوخ الشيعة على مواصلة المزيد من التغييرات .
٤- وقد يثير شكوكاً حقيقية حول العجز الإداري لدى مجلس الحكم ، بعد أن اتخذ قراراً بعشرين عضواً من (٢٤) عضواً .
٥- من المشكوك فيه إجراء انتخابات ذات مصداقية معقولة في حزيران ٢٠٠٤ .
٦- وإذا أمكن إجراء هذه الانتخابات فقد تكون تحت هيمنة الجماعات الأفضل تنظيماً مثل الجماعات الإسلامية أو البعثيين .

نشرت صحيفة نيويورك تايمز New York Times في تشرين الثاني ٢٠٠٣ أن الإدارة الأمريكية المحتلة في العراق خاضعة لرغبات السيستاني والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية . سعى بريمر مع بداية كانون الأول ٢٠٠٣ إلى جعل السيستاني أكثر مرونة . فقد بعث برسالة إليه في ٢٠٠٣/١٢/٢ حملها عماد رضا ، وقبل بها السيستاني . ولكنه ما لبث أن طلب من بريمر أن تبعث الأمم المتحدة بفريق ليقدر أن جدول اتفاق ٢٠٠٣/١١/١٥ لا يتيح إجراء انتخابات في المدى الزمني الوارد فيه . وأن يقترح الفريق الأممي حلاً عملياً للمسألة . وسيوافق عليه السيستاني حماية لوجهه .

أعلن الأمين العام للأمم المتحدة ، كوفي أنان ، أن الدبلوماسي الجزائري الأخضر الإبراهيمي سيقود فريقاً من الأمم المتحدة إلى العراق لدراسة الوضع فيه . وصل الإبراهيمي إلى النجف في ٢٠٠٤/٢/١٢ لمقابلة علي السيستاني . وقال لبريمر بعد لقائه بالسيستاني إنه أقنعه باستحالة إجراء الانتخابات قبل ٢٠٠٤/٦/٣٠ . ولكنه أخبر الإبراهيمي بأنه يحبذ تعيين المجلس الحاكم لحكومة مؤقتة ، ربما لأنه يضمن أكثرية شيعية . قال له الإبراهيمي إنه يود توسيع العملية السياسية . ووافق السيستاني على بحث هذه المسألة عند عودة الإبراهيمي إلى العراق في نيسان ٢٠٠٤ .

وفي هذه الأثناء أعدت لجنة من مجلس الحكم مسودة «القانون الإداري المؤقت Temporary Administrative Law (TAL)» التي وزعها رئيس المجلس في ٢٥ شباط ٢٠٠٤ على أعضائه . واشتمل الفصل الثاني منه على ضمان الحريات الأساسية-التعبير والدين والانضمام للأحزاب السياسية والاتحادات والحق في الإضراب ، لجميع العراقيين . ونص على المساواة أمام القانون لكل المواطنين بغض النظر عن الجنس والطائفة والعرق . وأصبح للمتهم الحق في الاستشارة القانونية ومحاكمة سريعة وعلنية . وكان من المنتظر أن يقر مجلس الحكم في اليوم التالي هذا القانون الذي اعتبر دستوراً مؤقتاً ، غير أن الإسلاميين الشيعة في المجلس ذهبوا إلى النجف لاستشارة علي السيستاني حول النص ، ومدى توافقه مع الشريعة الإسلامية . ولكنهم عادوا في ٢٧ شباط دون تسوية لدور الإسلام في القانون . واستمر النقاش حول الموضوع يوم ٢٨ شباط .

بعث بريمر رسالة إلى السيستاني يؤكد له أن القانون الإداري المؤقت أفضل أمل للعراقيين ، وأن السيادة سوف تنقل إلى الحكومة العراقية في ٣٠ حزيران ٢٠٠٤ ، وأن الحكومة العراقية المنتخبة سنة ٢٠٠٥ ستكون ذات سيادة تامة وستصوغ دستوراً جديداً . ومع نهاية سنة ٢٠٠٥ ستجري انتخابات برلمانية بموجب ذلك الدستور . وذكّره بأن القانون الإداري المؤقت يحترم الإسلام ويجعله دين الدولة ، وأنه ليس من حق الحكومة تغيير أو تعديل هذا القانون في المرحلة الانتقالية . وانتهت مناقشات مجلس الحكم لمشروع القانون ، في الساعة ٤,٢٠ من صباح ٢٠٠٤/٣/١ . وكان السيستاني قد احتج على المادة الواردة في القانون التي تعطي ثلاث محافظات (كالمنطقة الكردية) حق الاعتراض (الفيتو) على الدستور الدائم ، وقال إن هذه غير

ديمقراطية . وبعد خلاف بين أعضاء مجلس الحكم صادق على القانون يوم ٢٠٠٤/٣/٨ .

مساعي بريمر لتأليف الحكومة العراقية المؤقتة

وجه بول بريمر ، حاكم العراق في ظل الاحتلال الأمريكي ، خطاباً إلى الشعب العراقي في ٢٠٠٤/٤/٢٣ جاء فيه : «بإمكانكم أن تأخذوا الطريق الذي يؤدي إلى عراق جديد ، عراق مسالم ديمقراطي ، عراق الحرية السياسية والفرص الاقتصادية ، عراق ليست الأكثرية فيه سنية أو شيعية أو عربية أو كردية أو تركمانية ، وإنما عراقية . هذا هو الطريق إلى مستقبل مشرق مليء بالأمل . أو باستطاعتكم أن تأخذوا الطريق الذي يقودكم إلى عراق الماضي المظلم ، حيث يسود العنف والخوف ، وحيث تأتي القوة من البندقية ، وحيث القوي والقاسي هو الآمن .

. . . إن آلاف المحادثات التي أجريتها معكم خلال العام الماضي جعلتني متأكداً من أن الغالبية الكبرى من العراقيين ترفض الوحشية وظلام الأيام القديمة . لقد قلتم لي إنكم تريدون عراقاً جديداً يشرف أفضل ما في ماضيكم ، ويزودكم بالحرية والمساواة وتوافر الفرص للجميع . ولكن علينا أن نعمل الكثير ما دمنا نسير في هذا الطريق .

إن الأعداء المحليين والخارجيين لمستقبلكم الزاهر يحاولون إكراهكم على أخذ الطريق ، الذي يؤدي إلى العودة إلى القوة الوحشية والانقسام والكراهية . معاً نستطيع هزيمتهم . ونحن في الائتلاف سوف نعمل من جانبنا على استعادة الأمن . ولكن يجب أن تقوموا بدوركم أيضاً . إذا لم تدافعوا عن بلادكم الحبيبة فلن تكون آمنة» .

جاء هذا الخطاب في أعقاب المجازر التي ارتكبها مشاة البحرية الأمريكية في الفلوجة والرمادي وبقية قرى محافظة الأنبار ، في محاولة لتنظيف المحافظة من المقاومة الوطنية . كما جاء بعد صدور القانون الإداري المؤقت .

نشر في هذه الأثناء تقرير الأخضر الإبراهيمي بعد زيارته الأولى للعراق . وقد أغضب التقرير الشيعة في العراق ؛ لأنه لم يكن ناقداً بما يكفي لوحشية صدام حسين . وشكوا فيه كعربي سني قومي الاتجاه . ووزع الأعضاء الشيعة في مجلس الحكم صورة للإبراهيمي يدخن سيجاراً مع صدام حسين في سالف الأيام .

واتسع هجوم الساسة الشيعة على القانون الإداري المؤقت . ووزعت نشرات على

المساجد والحسينيات في جنوب العراق تستنكر الدستور المؤقت ، وتخلق مناخاً من الشكوك حول العملية السياسية . بعث بريمر عماد رضا إلى السيستاني في ٢٠٠٤/٣/٩ ليؤكد له أنه لن تكون أية مجموعة أو فئة راضية تماماً عن القانون الإداري المؤقت ؛ لأنه يمثل تسويات . وكرر القول إن الولايات المتحدة ستعمل ما في استطاعتها لتأمين إجراء الانتخابات وفقاً لجدول القانون الإداري المؤقت ، وإن من مصلحة العراق ومصلحته شخصياً عودة الأخضر الإبراهيمي للعراق . عاد رضا في مساء اليوم نفسه بجواب السيستاني : ما زال خائب الأمل في القانون الإداري المؤقت ، وغير ملتزم بموضوع عودة الإبراهيمي . لو عاد سوف يستمع له . كما أن مجلس الحكم لم يكن راغباً في دعوة الإبراهيمي للعودة إلى العراق . سافر بريمر إلى الكوت عاصمة محافظة واسط للقاء بممثل السيستاني هناك ، وحاول إقناعه بأن القانون الإداري المؤقت هو السبيل الوحيد المتفق عليه ، الذي يؤدي إلى الديمقراطية العراقية .

وكانت كوندي رايس تحث بريمر على إقناع مجلس الحكم بدعوة الإبراهيمي . في اجتماع بريمر بالمجلس في ٢٠٠٤/٣/١٧ حذرهم من أنهم يخاطرون بالمجابهة مع الأمم المتحدة ومع الولايات المتحدة . استجاب المجلس لتحذير بريمر وأصدر كتاباً إلى الأمم المتحدة ، بدعوة الإبراهيمي لزيارة العراق .

عاد الإبراهيمي إلى بغداد وتباحث مع بريمر على تشكيل الحكومة التي ستنقل إليها السيادة من ممثلي قوات الاحتلال . كان الإبراهيمي يرى أن تتألف هذه الحكومة من تكنوقراط وليس من سياسيين ، وتغيير جميع الوزراء في الحكومة القائمة ، وعدم إدخال أعضاء مجلس الحكم العراقي في الحكومة الجديدة .

علم بريمر أن السياسيين الشيعة في مجلس الحكم يعملون مع السيستاني على تأليف حكومة جديدة ، وعرضها عليه وعلى الإبراهيمي كأمر واقع . كان بريمر يخالف الإبراهيمي الرأي في تأليف الحكومة الجديدة . فهو يرى ضرورة استشارة مجلس الحكم في تأليفها ، ولا بد من إدخال الأحزاب الرئيسية فيها ليكونوا مسؤولين عن أعمالها ، بدلاً من أن يبقوا خارجها يعرقلون أعمالها . وبعد عدة اجتماعات وافق الإبراهيمي على رأي بريمر ، الذي ركز على الحقائب الوزارية السبع : رئاسة الوزراء ، ووزارات الدفاع والداخلية والمالية والخارجية والنفط والتجارة . وتولى بريمر والإبراهيمي وروبرت وبلاكويل من مجلس الأمن القومي الأمريكي اختيار المرشحين للحقائب

السبع . واتفقوا على أن تدعو الحكومة الجديدة ، بعد نقل السيادة إليها ، إلى مؤتمر وطني استشاري يضم ألف عراقي من البلاد لتوسيع الحوار حول مستقبل العراق .

إقترح الإبراهيمي التشاور من أجل تأليف الحكومة الجديدة بينه وبين بريمر وبلاكويل ، ورئيس مجلس الحكم عز الدين سالم (ممثل الشيعة) ، ومسعود البرزاني (ممثل الأكراد) ، وغازي الياور (ممثل السنة) . وقد استضاف البرزاني الاجتماع الأول لهذه المشاورات في منزله بصلاح الدين في ٢٠٠٤/٥/١٦ . وتم الاتفاق على ضم بعض الوزراء الحاليين إلى الحكومة الجديدة وهم : هوشار زيباري وزير الخارجية ، وأيهم السامرائي وزير الكهرباء ، ونسرين بيواري وزيرة البلديات ، وآخرون من الناجحين في وزاراتهم . وكانت العقدة في اختيار رئيس للجمهورية ورئيس للوزراء مقبولين من الجميع .

كان أقوى المرشحين لمنصب رئيس الحكومة ، في نظر بريمر ، الزعيم السني الدكتور عدنان الباجه جي . أما مرشح الإبراهيمي فكان حسين الشهرستاني ، عالم الذرة الشيعي ، الذي كان رئيساً للجنة الطاقة الذرية حتى سنة ١٩٧٩ . وقد سجنه صدام حسين مدة (١١) سنة لرفضه التعاون في برنامج السلاح النووي العراقي السري . وأطلق سراحه سنة ١٩٩١ ، بعد أن هرب من سجنه عند الغزو الجوي الأمريكي للعراق . وأثناء حديث بريمر معه فاجأه بقوله إنه والسيستاني يفضلان رئيس وزراء سنياً ، لأن المهمة ستكون صعبة ، فكل من سيتولاها سيفشل ، فلندع سنياً يفشل . ودل اقتراحه وتعليقاته على أنه لا يرغب في رئاسة الحكومة .

في ٢٠٠٤/٥/١٧ قتل عز الدين سالم رئيس مجلس الحكم في تفجير مع ثلاثة من حراسه على نقطة تفتيش خارج المنطقة الخضراء في بغداد . وحل محله غازي الياور رئيساً للمجلس . بدأ بريمر يشعر أن غازي الياور مرشح ممكن للرئاسة .

اتصل بريمر في ٢٠٠٤/٥/١٩ بمجلس الأمن القومي عن طريق الفيديو كونفرانس . قال رمسفيلد : نريد رئيساً للوزراء صلباً كالصخر . وقال الرئيس بوش : علينا أن نتأكد من أن رئيس الوزراء الجديد لا يطلب منا أن نغادر العراق في اليوم التالي لنيل السيادة . رد بريمر : لا يمكن أن نكون واثقين مئة بالمئة من أي رئيس وزراء عراقي نختاره . وقال لهم بريمر إن قوات الائتلاف لا تتمتع بأية شعبية بسبب الدعاية العربية والمخاوف الأمنية .

عرض بريمر وزارة الدفاع على الدكتور إياد علاوي ، ورد بأنه لا يعمل تحت رئاسة

الشهرستاني ؛ لأنه قريب جداً من الإيرانيين . وطالب الحزبان الكرديان برئاسة الجمهورية أو رئاسة الوزراء ثمناً لبقاء كردستان جزءاً من العراق .

عقد الاجتماع الثاني بين بريمر والإبراهيمي وبلاكويل والثلاثة من مجلس الحكم في ٢٠٠٤/٥/٢٤ ، وفي اليوم التالي ، اقترح غازي الياور إياد علاوي رئيساً للوزراء ، وأيده العراقيان الآخران . وعقد بريمر اجتماعاً مع كارينا بيرلي Carina Pirelli ، خبيرة الأمم المتحدة في الانتخابات ، والإبراهيمي في ٢٦ أيار لمناقشة الانتخابات النيابية العراقية التي ستجري في كانون الثاني ٢٠٠٥ . وتم الاتفاق على اعتبار العراق دائرة انتخابية واحدة ، بسبب صعوبة تحديد الدوائر الانتخابية وقصر المدة الزمنية المتاحة .

حاول بريمر إقناع أعضاء مجلس الحكم بحل المجلس حالما تتألف الحكومة الجديدة ، في اجتماع للمجلس في ٢٠٠٤/٥/٢٦ . ووعدهم بتعيين من لم يدخل الحكومة الجديدة في المجلس الوطني الاستشاري ، الذي سيجتمع في تموز ٢٠٠٤ .

اجتمع بريمر مع الثلاثة من مجلس الحكم في ٢٠٠٤/٥/٢٧ . وتم الاتفاق على أن يكون إياد علاوي رئيساً للحكومة الجديدة . وعرض الإبراهيمي على غازي الياور سحب ترشيحه لرئاسة الجمهورية لصالح عدنان الباجه جي فقبل بذلك دون أية صعوبة . ولكن الباجه جي رفض ذلك .

أعلن الأخضر الإبراهيمي والشيخ غازي الياور والدكتور إياد علاوي في ٢٠٠٤/٦/١ أسماء أعضاء الحكومة المؤقتة الجديدة أمام الصحافة المحلية والعالمية .

وصدر قرار مجلس الأمن الدولي رقم ١٥٤٦ في ٢٠٠٤/٦/٨ بالإجماع . رحب القرار بالحكومة العراقية المؤقتة كمرحلة جديدة في تحول العراق إلى حكم ديمقراطي منتخب . وتضمن القرار تصديقاً للجدول الزمني الوارد في القانون الإداري المؤقت وانتخابات ٣١ كانون الثاني ٢٠٠٥ . وألحق بالقرار كتابان من الرئيس إياد علاوي ووزير الخارجية الأمريكي كولن باول ، يحددان دور قوات الائتلاف المتعددة الجنسية . واستلم بريمر بعد ظهر ذلك اليوم رسالة من السيستاني يعبر فيها عن رضاه عما تم .

أصبح غازي الياور رئيساً للجمهورية وإبراهيم الجعفري نائباً له . تلقى بريمر اتصالا هاتفياً من كوندي رايس تعرض عليه تقديم موعد نقل السيادة إلى الحكومة العراقية الجديدة على الموعد المقرر ٢٠٠٤/٦/٣٠ . قبل بريمر بذلك شريطة أن يبقى الأمر سراً . وقد أبلغ علاوي به فقبل أيضاً . لم يخبر بريمر البريطانيين والقادة

العسكريين الأمريكيين بموعد نقل السيادة إلا مساء اليوم السابق للاحتفال ، أي مساء ٢٠٠٤/٦/٢٧ .

في الساعة التاسعة من صباح الاثنين ٢٠٠٤/٦/٢٨ ، بعث مكتب الاتصالات الاستراتيجية في سلطة الائتلاف المؤقتة كلمة إلى وسائل الإعلام بأن رئيس الوزراء إياد علاوي وبول بريمر سيعقدان مؤتمراً صحفياً في مبنى رئاسة الحكومة الساعة العاشرة صباحاً . وكان علاوي قد دعا الرئيس غازي الياور ونائب رئيس الوزراء محمد بحر العلوم لحضور الاحتفال .

قرأ بول بريمر رسالة موقعة منه بنقل السيادة إلى الشعب العراقي وحكومته . وانتهت بالعبارة التالية : «نرحب بخطوات العراق لأخذ مكانته الحقة في المساواة والكرامة بين أمم العالم» .

غادر بريمر بعد الاحتفال المنطقة الخضراء ببغداد مخفوراً بطائرات عسكرية عمودية إلى مطار بغداد ، حيث نقلته طائرة C-130 الى الأردن ، ومنه إلى الولايات المتحدة . وبذلك انتهت مهمته في العراق .

الفصل الثالث

الغزو الأمريكي-البريطاني للعراق في مذكرات مادلين ألبرايت وريتشارد هاس

التمهيد لغزو العراق في عهد بيل كلنتون

خصصت مادلين ألبرايت Madeleine Albright في مذكراتها «السيدة الوزيرة : مذكرات Madam Secretary: A Memoir» التي أعدتها بالتعاون مع بيل وودورد Bill Woodward ، وصدرت عن دار النشر اللندنية Pan Macmillan سنة ٢٠٠٣ ، فصلاً منها بعنوان «صداع اسمه حسين Migraine Hussein» يحتوي على (١٦) صفحة من مجموع صفحات مذكراتها البالغة (٥٦٢) صفحة . ومن الجدير بالذكر أنها تولت منصبي مندوبة الولايات المتحدة ووزيرة الخارجية في عهد الرئيس بيل كلنتون (١٩٩٣-٢٠٠٠) .

تقول السيدة ألبرايت : «من بين جميع الصداعات التي ورثتها إدارة كلنتون كان صدام حسين أكثرها دواماً . قضينا ثماني سنوات كاملة نعالج قضايا تركت دون حل في نهاية حرب الخليج الفارسي سنة ١٩٩١ . لما انتهت تلك الحرب توقع الرسميون الأمريكيون أن حياة صدام حسين في السلطة قصيرة . حتى ولو لم يطح به العسكريون المهزومون أو القوى المعارضة له فإن إدارة بوش (الأب) توقعت استسلام العراق لقرارات مجلس الأمن الدولي التي تدعوه إلى الإعلان عن أسلحة الدمار الشامل والصواريخ لديه وتدميرها . . . وبدلاً من الاستسلام أرهب صدام المنافسين المحتملين له ، وأعاق برامج الأمم المتحدة للتفتيش عن الأسلحة العراقية . ولما وصلت إلى الأمم المتحدة مندوبة للولايات المتحدة سنة ١٩٩٣ ، بدأنا نتأكد كيف سيصبح العراق مشكلة عسيرة .

كنت قد تسلمت عملي ولم يمض عليه ثلاثة أشهر حينما أحبطت السلطات في الكويت محاولة اغتيال الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش (الأب) ، خلال زيارته

لها للاحتفال بذكرى حرب الخليج الثانية . بعد التحقيق ، انتهى مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) إلى أن عملاء المخابرات العراقية هم المسؤولون عن المحاولة الفاشلة . وضعنا خططاً للانتقام بقصف مقر المخابرات العراقية في بغداد» . وتذكر ألبرايت أنها زارت مندوب العراق لدى الأمم المتحدة في منزله ، وأبلغته بأن بلادها ستقصف بغداد بصواريخ كروز ؛ لأن العراق حاول اغتيال الرئيس السابق جورج بوش .

استمرت المجابهة الأمريكية مع العراق خلال سنوات إدارة كلنتون . وخلال عملها في نيويورك كانت التعليمات التي تلقتها ألبرايت «عمل كل شيء باستطاعتها عمله للإبقاء على عقوبات الأمم المتحدة ، من أجل الضغط على بغداد للكشف عن المدى الكامل لبرامج أسلحتها . ولتخفيف الوطأة على العراقيين الأبرياء ، كما تقول ألبرايت ، تمت الموافقة على خطة تسمح للعراق ببيع كميات محدودة من النفط لشراء الغذاء والأدوية . وقد رفض العراق هذا البرنامج كلياً لعدة سنوات .

تقول ألبرايت : «لبيان غطرسة صدام كشفنا عن صور جوية تبين بناء القصور والبحيرات الصناعية ومصانع الأسلحة في فترة ما بعد الحرب . وفي سنة ١٩٩٥ قمت بزيارة لعواصم أعضاء مجلس الأمن الدولي لعرض هذه الصور عليهم . ويوضح بعضها مجمعاً من القصور أكبر خمس مرات من البيت الأبيض . لما عرضت الصور على ملك عربي أبدى دهشته وقال : لماذا هذا القصر أكبر من قصري!» .

تبدي ألبرايت أسفها على حماقة ارتكبتها سنة ١٩٩٦ على شاشة المحطة التلفزيونية الأمريكية CBS لبرنامج «ستون دقيقة» . وبعد أن عرض التلفزيون صوراً لأطفال العراق الجوعى والمرضى واستنكار الموظفين العراقيين لسياسة الأمم المتحدة وبرنامج النفط مقابل الغذاء ، سألتها معدة البرنامج ليزلي ستال Lesley Stahl : «سمعنا أن نصف مليون طفل عراقي قد ماتوا نتيجة العقوبات ، وهذا يعني أكثر عدداً من الأطفال الذين ماتوا من قنبلة هيروشيما الذرية . وكما تعرفين ، هل هذا الثمن جدير به؟» أجابت ألبرايت : «أعتقد أن هذا خيار صعب جداً ، ولكن الثمن ، كما نعتقد جدير به» . وتعترف بخطأها قائلة : «كانت إجابتي غلطة مخيفة وسريعة وخرقاء وخاطئة . . . لقد وقعت في فخ ، وقلت شيئاً لم أكن أعنيه ببساطة . . . وكانت هذه أكبر غلطة ارتكبتها في حياتي الوظيفية» .

تعترف ألبرايت أنه كان من المتعذر على الرئيس كلنتون مهاجمة العراق سنة ١٩٩٨ ، بسبب معارضة أصدقائه في الخليج وحلفائه الأوروبيين ، وقيادة القوات

المسلحة الأمريكية وقادة الحزب الجمهوري . ولذا حبذ الحل الدبلوماسي .

تتحدث ألبرايت بالتفصيل عن مفتشي الأمم المتحدة عن أسلحة الدمار الشامل في العراق (UNSCOM) والعقبات والعراقيل التي واجهوها من السلطات العراقية ، وطرد العراقيين لهم غير مرة . وكان آخرها في ١٩٩٨/١٠/٣١ ، صادق الرئيس كلنتون سراً على حملة لقصف العراق بالصواريخ والطائرات تبدأ في ١٩٩٨/١١/١٤ ، وفي اليوم نفسه أبلغ العراق الأمم المتحدة باستئناف التعاون مع مفتشي الأمم المتحدة والوكالة الدولية للطاقة الذرية . عاد المفتشون إلى عملهم في العراق ، وفي ١٩٩٨/١٢/١٥ بعث رئيس فريق المفتشين ريتشارد بتلر Richard Butler بتقرير إلى مجلس الأمن الدولي يقول فيه إن العراق رفض تسليم وثائق لها صلة ببرامج أسلحته الكيمياوية والبيولوجية ، وإنه فعلاً يعرقل التفتيش .

في صباح ١٩٩٨/١٢/١٦ عقد اجتماع لمجلس الأمن القومي الأمريكي في البيت الأبيض . كان تقرير الأمم المتحدة واضحاً ، لم ينصع العراق لقراراتها . وأجمع فريق السياسة الخارجية في المجلس على تأييد توجيه ضربات جوية للعراق . وأطلقت عملية ثعلب الصحراء (Operation Desert Fox) بالتعاون مع البريطانيين بعد ظهر ذلك اليوم . دامت العملية سبعين ساعة من القصف الجوي ، اشتملت على (٦٥٠) طلعة طائرة قاذفة أو صواريخ على أهداف أمنية متنوعة . وقد أحدثت الهجمات الجوية دماراً للبنية التحتية للقيادة العسكرية العراقية . واعتقد العسكريون الأمريكيون أن هذا القصف أدى إلى تراجع في برامج إنتاج الصواريخ العراقية .

ترى ألبرايت أن عملية ثعلب الصحراء نقطة تحول في علاقات العراق مع الولايات المتحدة ومجلس الأمن الدولي . فمع غياب فريق مفتشي الأمم المتحدة وفريق الوكالة الدولية للطاقة الذرية عن العراق ، تحولت السياسة الأمريكية نحو العراق من الاحتواء إلى «مزيد من الاحتواء containment Plus» . اعتمدت فيها الولايات المتحدة على القوات العسكرية الحليفة لإبقاء العراق مقيداً واتخاذ خطوات أخرى لإضعافه . وهذا يعني التشديد على مناطق الحظر الجوي في شمال العراق وجنوبه التي تشكل (٤٠) في المئة من مساحة العراق . وبدأت الولايات المتحدة بتطوير خطط لعقوبات أذكى على العراق . واتخذت خطوات لتوحيد المعارضة العراقية وتقويتها . وتبنت سياسة «تغيير نظام الحكم» كهدف واضح للسياسة الأمريكية . ساهمت هذه السياسة في توسيع عزلة العراق ، وتشجيع المعارضة داخل البلاد وخارجها . كما

أضعفت قوة العراق العسكرية . والواقع أن هذه السياسة كانت تمهيداً لغزو العراق واحتلاله في عهد الرئيس جورج بوش (الابن) كما سنرى .

رأي ريتشارد هاس في موقف إدارة كلنتون من العراق

يرى ريتشارد هاس أن سياسة الرئيس بيل كلنتون نحو العراق لم تكن عدوانية في البداية . فقد صرح كلنتون إلى الصحفي توم فريدمان Tom Friedman في صحيفة New York Times في كانون الثاني ١٩٩٣ ، باعتباره الرئيس المنتخب ، أن الولايات المتحدة لن تعمل على إسقاط صدام حسين ، وأن العلاقات قد تتحسن حتى ولو بقي في السلطة : «بناء على الدليل بأننا نرى أن شعب العراق قد يكون أفضل لو كان لديه رئيس مختلف . ولكن وظيفتي ليست في اختيار رئيس لهم : أقول دوماً لكل إنسان : أنا معمداني ، أومن بأحاديث فراش الموت . إذا أراد (أي صدام) علاقة مختلفة مع الولايات المتحدة ومع الأمم المتحدة ، كل ما عليه أن يعمل هو أن يغير سلوكه» .

اعتمد كلنتون على اليهودي الصهيوني مارتن إنديك Martin Indyk الذي حل محل ريتشارد هاس في مجلس الأمن القومي . وقد حدد إنديك لكلنتون «سياسة الاحتواء المزدوج dual containment» لكل من العراق وإيران ، باعتبار أنهما نظامان معاديان للمصالح الأمريكية في المنطقة . وكان إنديك يرى أن الولايات المتحدة بعملها مع حلفائها في المنطقة وخارجها سوف تحتوي كليهما . وقد أكد هذا الاحتواء باعتباره القاعدة التي تقوم عليها السياسة الأمريكية في المنطقة من قبل توني ليك Tony Lake مستشار كلنتون للأمن القومي .

يرى هاس أن سياسة احتواء العراق وإيران التي انتهجتها إدارة كلنتون سياسة خاطئة ، لأنها افترضت المساواة بين الدولتين في تحديهما للولايات المتحدة في المنطقة . وتفاوتت في تطبيق هذه السياسة عليها . فبينما كان احتواء العراق عدوانياً ، وتضمن تطبيقاً منتظماً للقوة العسكرية ، اقتصر احتواء إيران على العقوبات الاقتصادية .

ولاحظ هاس أن إدارة الرئيس جورج بوش (الأب) أكدت الحد من قدرة العراق والعمل على تغيير نظام الحكم داخل العراق ، وركزت إدارة الرئيس كلنتون على الاحتواء ، بينما رفضت إدارة الرئيس بوش (الابن) احتواء العراق ، وتبنت كلياً فكرة

تغيير نظام الحكم ، وشنت حرباً على العراق من أجل ذلك . كما لاحظ أن إدارة كلنتون كانت أفعالها تناقض أقوالها بتأكيدها البعد الخارجي للاحتواء أكثر من تأكيدها تغيير النظام .

ويتحدث هاس عن فترة حكم كلنتون بقوله : «كان دوري خلال السنوات الثماني دور المراقب . غادرت البيت الأبيض في ١٩٩٣/١/٢٠ ، آخر أيام جورج بوش (الأب) في الرئاسة وأول أيام بيل كلنتون . قضيت سنوات كلنتون الثماني أعمل في خزانات الفكر العديدة في واشنطن . وكنت معظم الوقت رئيساً لبرنامج السياسة الخارجية في معهد بروكنجز Brookings Institution . وكتبت ونشرت فيه عدة كتب عن الإدارة ، واستعمال القوة العسكرية ، ودور العقوبات الاقتصادية ، والسياسة الخارجية للولايات المتحدة في عالم ما بعد الحرب الباردة . وكان اهتمامي بالعراق والمنطقة محدوداً ومقتصراً على الكتابة أو تقديم شهادات أمام الكونغرس أو كتابة التاريخ الشفوي» .

بذلت إدارة كلنتون جهوداً لتغيير نظام الحكم في العراق بالطرق السرية ، عن طريق وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) . وقد اكتشفت محاولة للانقلاب على حكم صدام حسين في آذار ١٩٩٥ ، وسحقت في مهدها . ولجأت الإدارة إلى تقوية المعارضة العراقية خارج العراق علناً . وكان من أهم التنظيمات ، التي نالت الدعم المالي والسياسي الأمريكي ، المؤتمر الوطني العراقي برئاسة الدكتور أحمد الجلبي ، والوفاق الوطني العراقي برئاسة الدكتور إياد علاوي ، والحزبان الكرديان .

وركزت إدارة كلنتون على احتواء العراق ، ودعم مفتشي الأمم المتحدة عن أسلحة الدمار الشامل ، ومتابعة العقوبات الاقتصادية والسياسية المفروضة على العراق . وسمحت في نيسان ١٩٩٥ بإصدار قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٩٨٦ المعروف بقرار «النفط مقابل الغذاء Oil for Food» الذي ساعد العراق على بيع نفط بقيمة مليار دولار كل تسعين يوماً لشراء الطعام والأدوية والحاجات المدنية الأساسية ، ويدفع الباقي لمفتشي الأمم المتحدة ، والإغاثة في المنطقة الكردية ، وتعويضات حرب تحرير الكويت . وقد أخرت الحكومة العراقية تنفيذ هذا القرار (١٨) شهراً .

وفي آب ١٩٩٥ هرب الفريق حسين كامل حسن المجيد ، صهر صدام حسين ، وزير الصناعة إلى الأردن ، مع أخيه الذي كان بدوره زوجاً لإحدى بنات صدام . وخلال أيام كشفت الحكومة العراقية عن وثائق تملأ طائرة تتعلق ببرامج الأسلحة

العراقية وخطط استعمالها .

ولما حرك العراق دباباته في اتجاه شمال العراق ، شنت الولايات المتحدة في أيلول ١٩٩٦ هجوماً بصواريخ كروز على أهداف عسكرية عراقية . ووسعت الولايات المتحدة وبريطانيا منطقة الحظر الجوي في جنوب العراق لإضعاف قدرة صدام على السيطرة على البلاد .

وفي تشرين الأول ١٩٩٧ ، نجحت إدارة كلنتون في إصدار قرار مجلس الأمن رقم (١١٣٤) الذي دعا العراق مجدداً إلى الرضوخ والتعاون التامين للإملاءات الدولية . وقد امتنعت عن التصويت ثلاث من الدول دائمة العضوية هي الصين وفرنسا وروسيا ، وكذلك فعلت مصر التي كانت عضواً في المجلس آنذاك .

قام العراق بطرد جميع المفتشين الأمريكيين العاملين في اللجنة الخاصة للأمم المتحدة بالتفتيش عن الأسلحة في العراق . وطلب من الولايات المتحدة وقف طيران جميع طائراتها من نوع U2 فوق العراق . عندها أوقفت الأمم المتحدة عملية التفتيش . وقامت بتعديل برنامج النفط مقابل الغذاء ، بزيادة كمية النفط العراقي الذي يمكن بيعه للتخفيف على الشعب العراقي . واتفق الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان Cofi Annan مع نائب رئيس وزراء العراق طارق عزيز على إعادة مفتشي الأمم المتحدة واستئناف عملهم في العراق باستثناء ثمانية مواقع رئاسية في آذار ١٩٩٨ . وما لبث العراق أن أعلن عن إنهاء كل تعاون مع المفتشين الدوليين بعد ستة أشهر ، ثم سمح لهم بالعودة في مطلع تشرين الثاني ١٩٩٨ .

وقامت إدارة كلنتون بعملية ثعلب الصحراء من ١٦ إلى ١٩٩٨/١٢/١٩ التي شملت قصف المواقع العسكرية والبنية التحتية في العراق . وعلى أثر ذلك أنهى العراق كل تعاون مع مفتشي الأمم المتحدة . غير أن فضيحة الرئيس كلنتون مع إحدى المتدربات في البيت الأبيض في كانون الأول ١٩٩٨ ، أنهت الهجمات العسكرية الأمريكية على العراق .

يقول هاس إن إدارة كلنتون كانت تحاول تجنب الضغوط الخارجية الداعية إلى تبني سياسة ترمي إلى تغيير نظام الحكم في العراق . وأهم هذه الضغوط الرسالة المؤرخة في ١٩٩٨/١/٢٦ التي وقعها (١٨) شخصية بارزة في السياسة الخارجية معظمهم من المحافظين الجدد ، والتي نشرت تحت عنوان «مشروع لقرن أمريكي جديد Project for New American Century» . وجاء في الرسالة أن «سياسة احتواء صدام

حسين قد تآكلت ، ومن المتعذر معرفة إذا كان العراق يملك أسلحة دمار شامل . الاستراتيجية الوحيدة المقبولة هي تلك التي تقضي على إمكانية أن يصبح العراق قادراً على استعمال أسلحة الدمار الشامل أو التهديد بها . وهذا يعني على المدى القريب الرغبة في القيام بعمل عسكري في وقت فشلت فيه الدبلوماسية . ويعني على المدى البعيد إزالة صدام حسين ونظام حكمه من السلطة . وهذا ما نحتاج الآن ليكون هدف السياسة الخارجية الأمريكية» .

ويذكر هاس في مذكراته أنه رفض التوقيع على هذه الرسالة حينما عرضت عليه ، لاعتقاده بأن السياسة المطلوبة لها فرص قليلة من النجاح .

مارس الكونغرس ضغطه على إدارة كلنتون فأصدر «قانون تحرير العراق Iraq Liberation Act» الذي جاء فيه «يجب أن تكون سياسة الولايات المتحدة دعم الجهود الرامية إلى إزالة نظام الحكم الذي يرئسه صدام حسين من السلطة في العراق ، وتشجيع قيام حكومة ديمقراطية تحل محل ذلك النظام» . وفوضت السلطة التشريعية بتخصيص مبلغ (٩٧) مليون دولار للدعم العسكري للمعارضة العراقية . ومع أن الرئيس كلنتون قد وقع هذا القانون في تشرين الأول ١٩٩٨ إلا أن إدارته لم تتحمس له . لقد استخف الجنرال توني زيني Toni Zinni القائد الأعلى للقيادة المركزية علناً بفكرة أن العراق ضعيف ، وأن المعارضة العراقية المنقسمة على نفسها قادرة على تحدي صدام حسين . في حديثه في نادي الصحافة القومي The National Press Club في ١٩٩٨/١٢/٢٣ ، قال ساندي بيرغر Sandy Berger إن العمل على الإطاحة بصدام عمل فاشل . وأضاف : «الوسيلة الوحيدة المؤكدة بالنسبة إلينا للإطاحة بصدام الآن هي إلزام مئات الألوف من القوات الأمريكية بالقتال على الأرض داخل العراق . لا أعتقد أن تكاليف حملة كهذه يمكن توفيرها في الوطن والخارج . ومكافأة النجاح ستكون الاحتلال العسكري للعراق لسنوات» . ولذا حبذ زيني وبيرغر سياسة الاحتواء وأكدا عليها .

بقي مفتشو الأمم المتحدة عن الأسلحة خارج العراق لمدة ثلاث سنوات ، ولم يعودوا إليه إلا في عهد إدارة الرئيس جورج بوش (الابن) في تشرين الثاني ٢٠٠٢ . ووافقت إدارة كلنتون على دفع (١٢) مليون دولار كمعونات إنسانية توزع داخل العراق من قبل المؤتمر الوطني العراقي .

يذهب هاس إلى القول إن للعقوبات وعمليات التفتيش في العراق مفعولها

القوي . ولم يكن صدام في وضع لإيذاء أحد . وكان الاحتواء فعالاً وأفضل بكثير مما توقع فارضوه . والخلاصة أنه بنهاية إدارة كلنتون لم يبد الوضع في العراق مفزعاً . وحينما استلم الرئيس المنتخب الجديد الحكم في كانون الثاني ٢٠٠١ أوجز بيل كلنتون لجورج بوش (الابن) التحديات الأمنية التي تواجه الولايات المتحدة كما يلي حسب أهميتها : أسامة بن لادن والقاعدة ، وغياب السلام في الشرق الأوسط ، والخلاف النووي بين الهند وباكستان ، وعلاقة باكستان بطالبان والقاعدة ، وكوريا الشمالية ، والعراق .

دور ريتشارد هاس في إدارة بوش (الابن)

يقول هاس في مذكراته : «لا أتذكر قط أنني تعرفت على جورج بوش (الابن) طوال رئاسة والده السنوات الأربع التي عملت فيها معه . كان أول اتصالي بترتيب من تشيز أونترماير Chase Untermeyer صديق من تكساس تعرفت إليه أثناء عملنا في إدارة بوش (الاب) . حثني تشيز على زيارة أوستن Austin واللقاء بحاكمها ، وفعلت ذلك . تحدثنا لمدة ساعتين في مقر الحاكم ، وانضم إلينا رجل لم أعرفه من قبل هو كارل روف Karl Rove . قال لي الحاكم إنه يفكر في الترشيح لرئاسة الجمهورية ، وإنه لو فعل ذلك لنجح . وقضينا الوقت نتحدث في السياسة الخارجية . كان معظم الوقت يوجه الأسئلة ويصغي . لم يرد ذكر العراق إلا حينما أثرته أنا وللحظة فقط .

أتذكر أنني خرجت من الاجتماع أفكر بأنه كان كسياسي يهتم بالتفاصيل . قدمت له نسخة من كتابي الذي صدر حديثاً بعنوان «الشريف المتردد The Reluctant Sheriff» وخلاصة ما جاء فيه أن إدارة كلنتون لم تنجز ما تستطيعه أو ما يجب إعطاؤه للوضع المطلق والنسبي للولايات المتحدة في العالم بعد الحرب الباردة . . كان بوش مرتاحاً بممارسته للسلطة ، ورئاسته منسجمة بأي معيار . . .

كانت محادثتنا التالية ، حينما قرر حاكم تكساس زيارة إسرائيل في أواخر سنة ١٩٩٨ ، في مسعى لتأييد سياسته الخارجية . تحدثنا على الهاتف لمدة نصف ساعة . قلت له ما يتوقع من أرييل شارون ، وزير خارجية إسرائيل آنذاك : جولة بطائرة عامودية للكشف عن افتقار إسرائيل للعمق الاستراتيجي ، والتوقف عند مستعمرة ، وجدال كثير حول حاجة إسرائيل إلى الاحتفاظ بالأرض التي احتلتها في حرب

سنة ١٩٦٧ . ما لم أعرفه مدى تأثير الرحلة في بوش من كل الحسابات . فقد أفضت إلى تعاطف عظيم مع إسرائيل ، وشكلت تفكيره عن الشرق الأوسط وما يجب تحقيقه في أية تسوية سلمية .

والمرة الثالثة التي رأيته فيها كانت خلال حملته الانتخابية في تكساس . كنت واحداً من خبراء السياسة الخارجية الذين دعتهم كوندي رايس ، التي كانت الأولى بين أنداد في مجموعة المستشارين . ضمت المجموعة بوب بلاكويل Bob Blackwill ، وستيف هادلي Steve Hadley ، وريتشارد أرميتاج Richard Armitage ، وريتشارد بيرل Richard Perle ، وبوب زولك Bob Zoellick ، وبول ولفوويتز Paul Wolfowitz ، ودوف زاكهايم Dove Zakheim . وقد سمت هذه المجموعة نفسها فيما بعد «البراكين The Volcanoes» . لم أنضم قط إلى الدائرة الداخلية . . . خرجت من ذلك الاجتماع غير مرتاح . لم تكن المشكلة مع المرشح للرئاسة وإنما مع مستشاريه . وذكرني بإدارة ريغان الأولى حينما كان الكثير من الأيديولوجيا وكثير من الولع بالقتال ، وإصرار على تعديل طبيعة البلدان الأخرى دون تأكيد الدبلوماسية والتعاون مع الشركاء ، وأهداف أكثر تواضعاً . كانت المجموعة من المتشددين جداً .

لم أفاجأ حينما لم تعرض علي وظيفة عالية في الإدارة الجديدة . ظننت أن هذا هو الثمن الذي دفعته لأني لم أكن جزءاً من الحملة الانتخابية للرئيس . في كانون الثاني ٢٠٠١ تلقيت اتصالاً هاتفياً من كولن باول الذي أصبح وزيراً للخارجية . بقينا أصدقاء لسنوات ، على الرغم من أننا لم ير أحدنا الآخر وجهاً لوجه خلال إدارة بوش (الأب) . عرض عليّ كولن وظيفة مدير هيئة التخطيط السياسي . كنت أقل حماسة ، لأن معظم العمل فيها يقتصر على كتابة المذكرات والخطب لوزير الخارجية . لم أقل نعم أو لا ، وإنما طلبت التفكير في العرض . بعد عدة أيام اتصلت هاتفياً بكولن وقلت له باستطاعتي أن أعمل أفضل في وظيفة عملية . قال لي إن الوظيفة التي اقترحتها شغلت . وبعد أخذ ورد قبلت عرض التخطيط السياسي دون حماسة . . . أخذت الوظيفة مع وظيفة أخرى هي سفير متجول . . . وافقت لجنة الكونغرس على تعييني في الوظيفة ، وبعدها وافق مجلس الشيوخ كله في ٢٠٠١/٥/٨» .

يرى هاس أن العقوبات التي فرضت على العراق كان ينظر إليها أنها في حالة سيئة وأصبحت في حالة أسوأ . وتعرضت لسنوات من النقد العربي والدولي ،

باعتبارها أداة تؤذي الشعب العراقي ولا تؤذي نظام الحكم . كما أن جيران العراق المباشرين (الأردن وسوريا وتركيا) يتجاهلون هذه العقوبات . فالعقوبات لا شعبية لها ، وكانت ببساطة تجارة مربحة .

يؤكد هاس أن الرد السياسي على هذا الوضع المتردي هو العقوبات الذكية ، التي آمن بها كولن باول وزير الخارجية في إدارة بوش (الابن) . واستطاع باول إقناع الرئيس بذلك وصدر قرار مجلس الأمن رقم (١٤٠٩) في أيار ٢٠٠٢ ، الذي سهل للعراق استيراد بضائع متنوعة ، وخففت من الضغوط الدولية لرفع العقوبات كلياً .

وانتقد هاس قصف الطائرات الحربية الأمريكية للعراق في ٢٠٠١/٢/١٦ رداً على إطلاق النار من الدفاعات الجوية العراقية على الطائرات الأمريكية والبريطانية ، التي تراقب منطقتي الحظر الجوي في العراق . ورأى أن هذا القصف قد أثار غضب الناس في الشرق الأوسط .

يعارض هاس سعي إدارة بوش إلى تغيير نظام الحكم بالقوة . ويرى أن سياسة الاحتواء قد تكون أكثر فاعلية . وشكك هاس في جدوى دعم المعارضة العراقية لتغيير نظام الحكم العراقي . أما بالنسبة إلى تغيير نظام الحكم فيرى هاس أن هنالك إمكانيتين لتحقيقه : «الإمكانية الأقل كلفة هي انقلاب عسكري تقوده شخصية عسكرية رفيعة المستوى . يقول هاس : «قضيت ساعات في اجتماع مع مدير وكالة الاستخبارات المركزية جورج تنيت وآخرين في الوكالة نبحث هذه الإمكانية . . . كانت المشكلة أننا لا نعرف إذا كان الانقلاب محتملاً ، وإذا كان كذلك ، إذا كان بالإمكان نجاحه . فقد كان صدام قادراً على معرفة كل محاولة من جانبنا» .

كتب هاس مذكرة إلى باول في ربيع سنة ٢٠٠١ : «الطريق المضمون الوحيد للإطاحة بنظام الحكم ووضع نظام حكم أفضل مكانه هي من خلال احتلال عسكري طويل وبناء الدولة . قد يكون هذا مكلفاً بكل المعايير ومتعذراً الحفاظ عليه سياسياً في الداخل وفي المنطقة ، في غياب سبب واضح مثل استعمال العراق لأسلحة الدمار الشامل أو غزو جديد للكويت» . يتابع هاس تقديره للوضع في العراق : «كان صدام مزعجاً ولكنه لا يشكل تهديداً معنوياً . محاولة الإطاحة به مرغوب فيها ، ولكن لا تحتاج لتصبح شغلنا الشاغل وتسيطر على السياسة الخارجية الأمريكية» .

ويقول بشأن هجمات ٢٠٠١/٩/١١ : «كانت الهجمات الإرهابية في ١١ أيلول

٢٠٠١ نقطة تحول بالنسبة إلى إدارة بوش (الابن)، وبالنسبة إلى الشعب الأمريكي والولايات المتحدة في العالم بطرق ليست مفهومة تماماً. كانت درساً قوياً ومكلفاً. فالعولمة حقيقة وليست خياراً».

يؤكد هاس أن «صدام والعراق لا تورط لهما في أحداث ١١ أيلول، ولهما علاقة محدودة مع الإرهاب. والاتصالات القليلة بين العراق والقاعدة لا قيمة لها... كان الرد الغريزي الأولي للرئيس بوش دفع الإدارة لإيجاد صلة بين صدام حسين والهجمات. وكان أول من نبه إلى ذلك بول ولفوويتز نائب وزير الدفاع الأمريكي، الذي رأى في اجتماع مجلس الأمن القومي في ٢٠٠١/٩/١٤ أن الهجوم أكبر من قدرة «القاعدة» على القيام به بنفسها، وأن على الولايات المتحدة أن تسعى وراء العراق. وردد هذا الرأي العديد من خارج الإدارة الأمريكية، وطالبوا بالهجوم على العراق والإطاحة بصدام حسين.

يعلق هاس على خطاب الرئيس بوش عن حال الاتحاد في كانون الثاني ٢٠٠٢، الذي اعتبر فيه كوريا والعراق وإيران وحلفاءها الإرهابيين محور الشر، الذي يهدد السلام في العالم بقوله: «حينما سمعت الخطاب اعتقدت أن هذا الوصف والربط الواضح بين الدول الثلاث كان خاطئاً وعنيداً، لأن كل واحدة من الدول الثلاث تطرح مشكلة مختلفة عن الأخرى، وأن جمعها كلها في جملة درامية يجعل من الصعب قيام تأييد دولي ضروري للتعامل معها».

قام هاس بزيارة لمصر والأردن وإسرائيل. وأبدت حكومة الرئيس حسني مبارك حماسة وتشجيعاً للغزو الأمريكي للعراق. وقال له أحد كبار الموظفين المصريين: «إذا هاجمتم العراق سأكون سعيداً للمشاركة على ظهر أول دبابة. ولكن قبل ذلك يجب أن تفعلوا شيئاً لتحسين وضع الفلسطينيين». وفي إسرائيل كان التركيز على الخطر الإيراني. كان هاس ضد الرأي القائل إن الحرب ضد العراق سوف تحول المنطقة إلى الأفضل، ويرى أنها ستحول المنطقة إلى الأسوأ. وقد أعد مذكرة لوزير الخارجية في كانون الأول ٢٠٠١ يحبذ فيها سياسة الاحتواء، ويرفض فكرة الذهاب إلى الحرب.

وفي نيسان ٢٠٠٢ تكونت مجموعة صغيرة من الوكالات الرسمية للبدء في التخطيط لغزو العراق برئاسة ستيف هادلي نائب مستشار الأمن القومي، وتضم مارك غروسمان Marc Grossman وكيل وزارة الخارجية للشؤون السياسية، وريتشارد آرميتاج نائب وزير الخارجية. ومع نهاية ربيع ٢٠٠٢ كان العراق الموضوع المهيمن على

مناقشات المجموعة . وظهرت أول إشارة قوية إلى شن حرب وقائية ضد العراق ، في خطاب الرئيس بوش في حزيران ، في حفل تخريج ضباط الأكاديمية العسكرية للولايات المتحدة في وست بوينت West Point .

معارضة ريتشارد هاس لغزو العراق

يذكر هاس في مذكراته أنه أجرى حديثاً مع كوندي رايس مستشارة الأمن القومي في مكتبها في مطلع تموز ٢٠٠٢ . وقال لها إنه يخشى أن يهيمن موضوع العراق على السياسة الخارجية للإدارة . وسوف يبدو أنه أصعب بكثير مما يظن ، غير أنها لم تبال بمخاوفه . وقالت له : إن الرئيس قد اتخذ قراره . عندها تراجع هاس وانتقل إلى موضوعات أخرى ، بعد أن اتضح له أن لا فائدة من مناقشة الأمور معها . خرج هاس من الاجتماع وقد فوجئ بالطريقة التي أنهت بها رايس الحديث عن العراق . عاد هاس إلى وزارة الخارجية وأثار ما حدث له مع رايس مع رئيسه ، وطلب منه أن يقابل الرئيس بوش .

بعد أيام من اجتماع هاس برايس ، جاء السير ريتشارد ديرلف Sir Richard Dearlove مدير المخابرات الخارجية البريطانية المعروفة بـ(MI-6) الى واشنطن للقاء بكبار موظفي الولايات المتحدة . وبعد أن اطلع هاس فيما بعد على المذكرة المعروفة بمذكرة داونغ ستريت Downing Street Memo التي كتبها ديفيد مانتغ David Manning ، المستشار الدبلوماسي لرئيس الوزراء البريطاني توني بلير ، أن ديرلف وجد تغيراً ملحوظاً في الموقف الأمريكي . فالعمل العسكري غدا حتمياً . فمع تموز ٢٠٠٢ توصل الرئيس بوش إلى أنه من الضروري والمرغوب فيه طرد صدام من السلطة ، وأنه مستعد لتنفيذ ذلك ، سواء حصل على موافقة الكونغرس والأمم المتحدة أم لم يحصل .

يقول هاس إن الطلقة الأولى في الحرب على العراق قد بدأت في آب ٢٠٠٢ على يد برنت سكوكروفت عند ظهوره على شاشة محطة التلفزيون CBS صباح الأحد ببرنامج «واجه الأمة Face the Nation» . وقد ظهرت خلاصته في صحيفة Wall Street Journal في ٢٠٠٢/٨/١٥ . ذهب سكوكروفت إلى أن الحرب غير ضرورية ومضللة للشعب الأمريكي . وقال إن طرد صدام سيكون عملاً مكلفاً سينجم عنه تدهور في التعاون الدولي معنا ضد الإرهاب . وخلاصة مقاله أن الحرب غير

ضرورية وخيار سيء . وكان سكوكروفت آنذاك رئيساً للمجلس الاستشاري للاستخبارات الخارجية Foreign Intellegence Advisory Board . وقد أثار المقال انزعاج الرئيس بوش ومستشارة الأمن القومي ، والعديد في إدارة بوش (الابن) . وقد رد نائب الرئيس ديك تشيني على برنت سكوكروفت في خطاب ألقاه في مقاتلي الحروب الخارجية القدماء Veterans of Foreign Wars في مدينة ناشفيل Nashville في ٢٠٠٣/٨/٢٦ . وجاء فيه : «لا بد من القول ببساطة إن صدام حسين لديه الآن أسلحة دمار شامل . لا شك أنه يكدسها لاستعمالها ضد أصدقائنا وضد حلفائنا وضدنا . ونعرف الآن أن صدام قد استأنف جهوده للحصول على الأسلحة النووية . . . والعديد منا مقتنعون أن صدام سوف يحصل على الأسلحة النووية قريباً» . كان خطاب تشيني بناء حالة لاستراتيجية الحرب الوقائية وضرورة تطبيقها على العراق .

يقول هاس إنه ناقش موضوع العراق مطولاً مع فيليب زيليكو Philip Zelikow . زميله السابق في هيئة مجلس الأمن القومي في عهد بوش (الأب) ، الذي جاءت به كوندي رايس مديراً تنفيذياً للجنة ١١ أيلول ٢٠٠١ ، وكلفته بتعديل الاستراتيجية الأمريكية نحو العراق وتبرير الحرب الوقائية ضده . وذهبت جهود هاس لإقناع زميله السابق بأن العراق لا يشكل تهديداً حتمياً للولايات المتحدة حتى تقوم بحرب وقائيه ضده . كما أن عالماً تسوده الحروب الوقائية سيكون عالماً في حرب دائمة .

يقول هاس : «في آب انقسم المشاركون في النقاش حول إذا كان من الضروري الذهاب إلى الحرب مع العراق إلى فريقين : فريق المدافعين عن الحرب يقودهم نائب الرئيس ديك تشيني وموظفوه ، والمدنيون في وزارة الدفاع ، ومستشارة الأمن القومي وموظفوها ، والمحافظون الجدد من جهة ، ومن خارج الإدارة الذين يعتقدون أن هجوم الولايات المتحدة أمر ملح ، وستنجح العملية العسكرية بسهولة ، وسوف تتدفق جميع الأشياء الجيدة في المنطقة . . . أما الفريق الثاني فكان يضم الشكاكين بمن فيهم : برنت سكوكروفت ، وعضو الكونغرس الجمهوري ديك آرمي Dick Armey ومعظم القادة الأوروبيين الذين قابلتهم . لم يروا ضرورة لعمل الولايات المتحدة ضد العراق ، واعتقدوا أن من الصعب إثبات التهديد العراقي المباشر للولايات المتحدة . وتوقعوا أن تثير هذه الحرب جميع أنواع الأمور السيئة في المنطقة والعالم ، بما في ذلك عدم الاستقرار في الدول العربية المجاورة ، والإرهاب والمشاكل الاقتصادية الناجمة عن

ارتفاع أسعار النفط . وكان هنالك فريق ثالث يضم الناس الذين يميلون نحو أي من الطرفين السابقين ، والذين هم ، لسبب أو لآخر ، يركزون على الكيف أكثر من إذا . فهم مهتمون بتهدئة الوضع الإسرائيلي-الفلسطيني ، والحصول على موافقة الأمم المتحدة ، وحشد تأييد دولي وكسب تأييد الكونغرس . ويمثل هذا الفريق وزيران سابقان للخارجية هما هنري كيسنجر وجيمس بيكر ووزير الخارجية الأمريكي آنذاك كولن باول . كنت بين الفريقين الثاني والثالث ، أشك في الحاجة إلى الذهاب للحرب في ضوء كل ما لدينا . كان تأثيري على السياسة نحو العراق محدوداً جداً . . . وفي ضوء وضعي كرئيس لهيئة التخطيط السياسي ، كان دوري محدوداً في العمل بين بين الوكالات الرسمية . كان عملي الرئيسي دعم وزير الخارجية» .

كتب هاس في نهاية آب ٢٠٠٢ مذكرة لكولن باول عن العراق ، بيّن فيها حجج الداعين إلى الحرب ، ومنها : التهديد العراقي بأسلحة الدمار الشامل ، وحالة النظام العالمي في حال تجاهل قرارات مجلس الأمن الدولي ، والمكاسب التي قد تتلو النجاح في العراق . كما أوضح حجج المعارضين للحرب ومنها : أن العراق ليس باستطاعته تهديد وصول العالم إلى النفط ، واهتزاز مصداقية الولايات المتحدة في العالم ، وأن العديد قد يستنتجون أنها قد فقدت البصيرة والأعصاب . وليس مؤكداً أن صدام قد يستعمل أو ينقل أسلحة الدمار الشامل التي يملكها ، وأن الحرب قد تحرك الإرهاب وعدم الاستقرار في المنطقة ، وإثارة المشاعر المعادية للولايات المتحدة ، وقد تكون مكلفة وتأخذ وقتاً وانتباهاً وموارد قد تكون متوافرة لأولويات أخرى في السياسة الخارجية . ومجمل رأي هاس أن تغيير نظام الحكم في العراق لا يمكن ولا يجب أن يكون السبب للذهاب إلى الحرب . وأنه سوف يضع سابقة خطيرة وباعثة على عدم الاستقرار في عالم الدول الأقوى ، التي تتدخل روتينياً في شؤون الدول الأضعف لإجراء تغييرات في أنظمة حكمها ، وقد تكون أكثر فوضى وأشد عنفاً . يجب أن يكون السبب للحرب عدم انصياع العراق لمجلس الأمن الدولي ، وعليه إرضاء المجتمع الدولي بإثبات أنه لا يملك أسلحة الدمار الشامل . إذا رفض العراق أن يفعل هذا يمكن طلب تغيير نظام الحكم ، ولكن لا بد من عرضه كوسيلة وليس كهدف في حد ذاته . وختم مذكرته بقوله : «وأخيراً يجب أن نذهب إلى الحرب فقط إذا كنا مستعدين للقيام بها ، فهي تحتاج إلى احتلال طويل الأمد ، قد يكون أكثر كلفة من وجودنا في أفغانستان» . وحذر هاس في مذكراته من ظهور فراغ أمني حالما ينتهي

القتال بالنصر وزوال نظام الحكم . واقترح الابتعاد عن إدارة النفط العراقي التي يجب أن يتولاها العراقيون حتى لا تبدو الحرب وكأن الهدف منها السيطرة عليه . ويذكر هاس أن كولن باول قرأ المذكرة وأرسل نسخاً منها إلى وزير الدفاع ومستشارة الأمن القومي والرئيس بوش ونائبه تشيني .

وبدعم من رئيس الوزراء البريطاني توني بلير ، أعطى كولن باول الضوء الأخضر لحشد ائتلاف دولي حول قرار من مجلس الأمن الدولي يتضمن مطالب من العراق عليه أن يلبيها . واغتنم الرئيس بوش خطابه السنوي في الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٠٠٢/٩/١٢ لتحدي الهيئة الدولية باتخاذ قرار بالحرب على العراق . وركز خطابه على امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل ، وعلى مزاعم العلاقة بين العراق والقاعدة ، وتبرع صدام حسين بـ(٢٥) ألف دولار لكل أسرة من أسر الذين يفجرون أنفسهم من الفلسطينيين ، دون وجود دليل على أن ذلك قد حدث فعلاً . فالمبالغة الكلامية تجاوزت الدليل .

وتعزز الزخم نحو مزيد من القوة نحو الحرب بموافقة مجلس النواب والشيوخ في ٢٠٠٢/١٠/١٠ بتفويض الرئيس بوش باستعمال القوة ضد العراق . ويعزو هاس هذا الدعم من الكونغرس إلى أحداث ٢٠٠١/٩/١١ ، وإلى تقرير التقدير الاستخباري القومي National Intelligence Estimate الذي صدر في تشرين الأول ٢٠٠٢ ، والذي قدّر أن العراق خزّن على الأقل مئة طن متري وربما خمس مئة طن متري من المواد الكيمياوية الحربية ، وأن لديه مواد بيولوجية قاتلة لا حدود لها ، وأنه قادر على إنتاجها بسرعة وتحويلها إلى سلاح .

يتساءل هاس : لماذا كانت الاستخبارات عن أسلحة العراق للدمار الشامل خاطئة؟ يعزو السبب إلى سوء تقدير متراكم من المعلومات الاستخبارية ، التي لم يجرؤ أحد على دحض تقارير الاستخبارات في الحكومة الأمريكية . وكان قرار مجلس الأمن الدولي رقم (١٤٤١) في ٢٠٠٢/١١/٨ وثيقة استثنائية ؛ لأنه أعلن أن العراق قد خرق التزاماته التي تتضمنها مجموعة من قرارات الأمم المتحدة . وأعطى العراق فرصة أخيرة للانصياع لتجريده من أسلحة الدمار الشامل ، بالتعاون مع مفتشي الأمم المتحدة . وإزاء تعرض العراق لضغط دولي كبير استجاب لطلب الأمم المتحدة بإعادة مفتشيها إلى العراق واستئناف عملهم في تشرين الثاني ٢٠٠٢ .

حرب الاختيار: الغزو الأمريكي للعراق

مع قدوم سنة ٢٠٠٣ كان العراق الموضوع المهيمن على السياسة الخارجية الأمريكية . يقول هاس إنه كتب مذكرة إلى وزير الخارجية كولن باول ، أكد فيها أنه بالرغم من كل هذا الحشد لم يعد الوقت متأخراً جداً لكي تتراجع الولايات المتحدة عن استعمال القوة . وكرر هاس حججه في مذكراته السابقة المعارضة لشن الحرب على العراق .

يرى هاس أنه بعد ١١ أيلول ٢٠٠١ ، أراد الرئيس بوش (الابن) والمقربون منه بعث رسالة إلى العالم أن الولايات المتحدة ترغب وتقدر على العمل بصورة حاسمة . ويذكر أن وزير الدفاع رونالد رمسفيلد أمر القيادة المركزية في تشرين الثاني ٢٠٠١ البدء بوضع خطة لشن حرب على العراق تعزز وجهة النظر هذه . كما أن بول ولفووتيز ، وكيل وزارة الدفاع ، كان يرى أن العراق يشكل فرصة إستراتيجية رئيسية : وكان بوش (الابن) المتسرع في الوصول إلى النتائج في السياسة وفي الأشخاص ، ميالاً لعمل ما جريء ، والقيام بأعمال كبرى تلبي نزعة العظمة فيه ، وتخدم الرغبة لديه في الابتعاد عن والده ، الذي كان يفضل التروي ويتحاشى الأمور الدرامية .

يقول هاس إنه أجرى أطول حديث له مع الرئيس بوش (الابن) على الطائرة الرئاسية في عودتها من هيلز بورو كاسل Hillsborough Castle في شمال إيرلندا إلى واشنطن ، في نيسان ٢٠٠٤» . وقد أذهلني ارتياحه الشديد من قراره الهجوم على العراق . كنا آنذاك قد أمضينا ثلاثة أسابيع من الحرب على العراق . وبدا عليه الاطمئنان مما قرره وكيف كانت تتطور الأمور . كانت ثقته حقيقية وليست تبجحاً . وقد أذهلني أيضاً كيف بدا عليه عدم القلق من جميع التعقيدات التي توقعتها أنا وآخرون في طريقنا . ومرة أخرى كان ميالاً للأمور الكبرى والدرامية ، ولم يكن على وشك السماح بشكوك الآخرين أو أن تصرفه التفاصيل عما يريد» .

يؤكد هاس إن أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١ قد «حولت الإدارة الأمريكية إلى مطرقة تبحث عن مسمار . وكان العراق هو المسمار» . وكان خطاب بوش عن حال الاتحاد في كانون الثاني ٢٠٠٣ محاولة من الرئيس لتعزيز حالة الحرب على العراق ، وقبل ذلك بأيام أمر بتشكيل «مكتب إعادة الإعمار والمعونة الإنسانية «Office of Reconstruction and Humanitarian Assistance (ORHA)» ، وتولت وزارة الدفاع الإشراف على العراق بعد زوال صدام .

بدأ التفكير في مجلس الأمن الدولي فيما يجب عمله في العراق في نهاية كانون الثاني ٢٠٠٣ برئاسة فرنسا ، تحت عنوان «مراجعة الحرب على الإرهاب» . وكانت فرنسا وألمانيا تواجهان معارضة قوية داخلية للحرب على العراق وعداءً لإدارة بوش (الابن) . كان خطاب كولن باول في مجلس الأمن ، في نظر هاس ، «الطخة في حياته السياسية» . لم يكن لمجلس الأمن القومي دور في صياغة الخطاب وعرضه على الاستخبارات للمصادقة عليه ، وإنما صيغ الخطاب في مكتب نائب الرئيس (ديك تشيني) الذي قدم ورقة من (٤٨) صفحة لم يرها أو يدققها أحد . كانت وثيقة مليئة بالأخطاء والاتهامات التي لا أساس لها عن دعم العراق للإرهاب وامتلاكه أسلحة الدمار الشامل . هذا رأي هاس في الوثيقة التي رفضها باول وطلب وثيقة تتضمن معلومات من مصادر متعددة وذات سجل محترم . لقد حل التقدير الاستخباري القومي الجديد محل النص الصادر عن مكتب نائب الرئيس كأساس للخطاب . وكانت المعلومات الواردة في الخطاب عن العراق خاطئة .

إن عدم إرضاء العراق لمفتشي الأمم المتحدة لم يشكل حالة تستدعي الحرب بالنسبة إلى كل من فرنسا وروسيا والصين ، مما أدى إلى عزلة الولايات المتحدة وبريطانيا في مجلس الأمن . وكانت إدارة بوش محبطة من مجلس الأمن ، لأنها وافقت على اللجوء إليه بناء على رغبة توني بلير ، ولأن معظم موظفي هذه الإدارة يرون أن لديهم كل السلطة التي يحتاجونها لمعارضة اللجوء إلى الأمم المتحدة ، التي ينظرون إليها بالشك وحتى بالعداء .

يطرح هاس سؤالاً مهماً : «كثيراً ما سألني الناس لماذا لم أستقل عند غزو العراق . وسألوني عن هذين السؤالين بقوله : لقد فكرت ملياً في ذلك . وكتبت حتى حول السؤال : متى هو الوقت المناسب للاستقالة؟ لو وضعنا جانباً الأسباب الشخصية (الصحة والمال والأسرة الخ) أعتقد أن هناك سببين سياسيين للاستقالة . في الحالة الأولى حينما تكون الاستقالة مضمونة هي حينما لا يوافق شخص بصورة أساسية على قضية رئيسية . . . وفي حالة العراق ، مع أنها تشكل بوضوح قضية رئيسية ، ومع أني لم أوافق على سياسة الولايات المتحدة فإن خلافي لم يكن أساسياً . لقد وصفت فيما سبق موقفي بأنه ٦٠/٤٠ ضد الذهاب إلى الحرب على العراق . ولا تستطيع أية منظمة أن تعمل إذا غادرها موظفوها كل مرة خالفوها بنسبة ٦٠/٤٠ . ولو عرفت آنذاك ما أعرفه الآن بأن العراق لا يمتلك أسلحة الدمار الشامل

لكان قراري ٩٠/١٠ ضد الحرب ، وفي هذه الحالة قد أغادر» .

غادر هاس وزارة الخارجية في مطلع سنة ٢٠٠٣ حينما عرض عليه منصب رئيس مجلس العلاقات الخارجية Council on Foreign Relations .

يذكر هاس أن (١٥٠) ألف مقاتل أمريكي شارك في غزو العراق ، أي ثلث عدد القوات الأمريكية التي شاركت في حرب تحرير الكويت ، والسبب الحالة المتردية للقوات المسلحة العراقية ، والتفوق الأمريكي في التكنولوجيا العسكرية .

يعتبر هاس حل الجيش العراقي وعدم إنشاء جيش جديد من قبل حاكم العراق بول بريمر Paul Bremer من الأخطاء الكبرى التي ارتكبتها الإدارة الأمريكية في العراق . كما يعد عدم استخدام العديد من أعضاء حزب البعث من أسباب تردي الوضع في العراق . ويقول «إن القوات الأمريكية في العراق تفتقر إلى الأعداد والأوامر والتدريب والتنظيم للتعامل مع النهب الواسع النطاق . وكان الجانب السياسي في العراق أسوأ ، وجهود زال خليل زاد Zal Khalilzad الذي أصبح سفير الولايات المتحدة في العراق ، للقيام بعملية سياسية شرعية تمثيلية ، في ضوء ما تم في أفغانستان ، انتهت إلى لا شيء . والانقسام بين العراقيين المنفيين وأولئك الذين تحملوا حكم صدام وطغيانه كبير جداً . فقد أظهر عراقيو المنفى تشدداً وجموداً ، وكانوا طائفيين أكثر من الذين بقوا في البلاد . ولدى الأخيرين خبرة في التعايش مع الآخرين . وخلال أسابيع تبين لدى واشنطن أن مهمة جاي غارنر قد فشلت» .

ويرى هاس أن بول بريمر ، الذي طبق سياسة اجتثاث البعث قد استبعد العناصر السنية الكفوءة ، واعتمد على أحمد الجلبي الذي استغل سلطته لخدمة أجندته الخاصة . كان بريمر ومن معه يطبقون سياسة أملتها عليهم واشنطن . يقول هاس : «لعل أوضح دليل على ذلك ما تم في لقاء نهاية سنة ٢٠٠٣ بين كوندي رايس ، مستشارة الأمن القومي ، وكولن باول وزير الخارجية ، ودونالد رمسفيلد وزير الدفاع . طلبت رايس من رمسفيلد أن يأمر بريمر حول مسألة سياسية ، أجاب رمسفيلد بأنه لا يستطيع ذلك لأن بريمر يعمل لصالح البيت الأبيض» .

ويذهب هاس إلى أنه «من الخطأ الاعتراف بفكرة الاحتلال وممارسة سلطاته ، لأنها فكرة مضللة وغير ضرورية . وكان من الواجب أن تقوم الولايات المتحدة بتفويض العراقيين بالسلطة منذ البداية . فالمنفيون ، وعلى رأسهم الجلبي ، يفتقرون إلى الخبرة العسكرية . وهم طائفيون ، يهتمون بمعاقبة السنة أكثر من اهتمامهم بقيام نظام حكم

ناجح» . ومع أن العراق قد حصل على سيادته في تموز ٢٠٠٤ ، إلا أن هذه السيادة ، في نظر هاس ، اسمية في الواقع ، لأن السلطات السياسية والعسكرية الأمريكية هي المسيطرة على الوضع الداخلي . «صحيح أن عمليتي انتخاب قد تمتا واستفتاءً دستورياً قد أجري ، ولكن ذلك لم يترجم إلى تحسن في الوضع الأمني . وتصدع حكم الأكثرية الشيعية الذي أنشئ . وكان من شأنه تعزيز الهويات الطائفية التي ساهمت في الحرب الأهلية التي ألحقت الدمار بالبلاد» .

يواصل هاس تحليله للوضع في واشنطن بقوله : «ساد المناقشات في واشنطن طعم ديني حول ما كان يدور في داخل العراق من حرب أهلية . ولا ينكر أن الحرب على الأرض في العراق قد أثارت حرباً سياسية في داخل الولايات المتحدة . ففي نهاية سنة ٢٠٠٥ وبداية سنة ٢٠٠٦ كانت إدارة بوش تفقد السيطرة على المسرحين . لم تسعف نفسها بنشر وثيقة من مجلس الأمن القومي في تشرين الثاني ٢٠٠٥ بعنوان «الاستراتيجية القومية للنصر في العراق National Strategy for Victory in Iraq» . من المتعذر قراءة النص دون الاستنتاج بأن لا صلة له بحقيقة العراق . وكان تشكيل مجموعة لدراسة العراق من الحزبين Bipartisan Iraq Study Group في آذار ٢٠٠٦ قد هدأ النقاش في الإدارة . وقد رفض الرئيس العديد من توصيات هذه المجموعة ، ولا سيما حينما اقترحت في كانون الأول ٢٠٠٦ تخفيض أعداد القوات الأمريكية في العراق . ومع صيف وخريف ٢٠٠٦ أصبح واضحاً ، حتى لدى أنصار الحرب داخل الإدارة ، بأن سياسة الولايات المتحدة فاشلة ، وأن العراق على شفا السقوط في حرب أهلية . والأسوأ من ذلك أن حرباً أهلية في العراق قد تفضي إلى حرب في المنطقة ، كما حدث في لبنان الذي جر جيرانه إلى التدخل في الحرب الأهلية» .

يقدّر هاس أن احتلال العراق قد أسفر عن قتل أربعة آلاف جندي أمريكي ، وجرح ما يربو على عشرين ألف جندي أمريكي . وأنفقت الولايات المتحدة ترليون دولار على غزو العراق واحتلاله . أما العراق فقد خسر عشرة آلاف قتيل ، وفر منه ما بين أربعة وخمسة ملايين مواطن هم الآن لاجئون في الأقطار المجاورة ، وفي داخل العراق نفسه . كما أن هذا الغزو أدى إلى انتشار الإرهاب في البلاد . وكان من نتائج هذا الاحتلال أن حققت إيران وإسرائيل مكاسب إستراتيجية مهمة ، وأصيبت مصداقية الولايات المتحدة بضربة شديدة ، وتعززت الفكرة القائلة بأن الولايات

المتحدة تشكل تهديداً للسلم العالمي . وأضعفت حرب العراق الموقف الأمريكي من إيران وسوريا .

لقد أبرزت هذه الحرب ، في تقدير هاس ، خطورة التقارير الاستخبارية وخطورة المحللين الاستخباريين في التأثير على متخذي القرارات في الإدارة الأمريكية .

الفصل الرابع

الغزو الأمريكي-البريطاني للعراق في مذكرات جورج تينيت

مبررات الحرب على العراق في نظر جورج تينيت

يتناول جورج تنيت George Tenet ، مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية Central Intelligence Agency (C.I.A) بين سنتي ١٩٩٧و ٢٠٠٤ ، في مذكراته «في عين العاصفة : سنواتي في وكالة الاستخبارات المركزية «At the Center of the Storm: My Years at the CIA» التي أصدرها بالتعاون مع بيل هارلو Bill Harlowعن دار النشر Harper Collins في نيويورك سنة ٢٠٠٧ ، الغزو الأمريكي على العراق واحتلاله . ويخصص له (٢٦٥)صفحة من مجموع صفحاتها البالغة (٨٣٢) صفحة . وهو يحمل شهادة بكالوريوس في العلوم السياسية من جامعة جورجتاون ، معهد الخدمة الخارجية School of Foreign Service، والماجستير من معهد الشؤون الدولية School of International Affairs في جامعة كولومبيا . وقد عين عضواً في هيئة التدريس في جامعة جورجتاون سنة ٢٠٠٤ .

يقول تينيت في مذكراته أن اهتمامه الرئيسي ، كمدير لوكالة الاستخبارات المركزية منذ بداية عمله كان مركزاً على الإرهاب حتى ٢٠٠١/٩/١١ . ولكنه يؤكد من جهة أخرى أن العديد من كبار الموظفين في إدارة بوش (الابن) كانوا منشغلين بكثافة بالعراق منذ الأيام الأولى . وقبيل الاحتفال بتسلم بوش رئاسة الدولة ، طلب ديك تشيني من وزير الدفاع المغادر وليم كوهين William Cohen تقديم إيجاز للرئيس الجديد عن العراق والخيارات المطروحة . ومنذ البداية كان نائب الرئيس (ديك تشيني) يميل إلى الاهتمام بأعمال وكالة الاستخبارات المركزية .

يذكر تينيت أنه في منتصف سنة ٢٠٠٢ جاءت إليه يوماً جامي ميسيك Jami Miscik المحللة الكبيرة في وكالة الاستخبارات المركزية ، تشكو من أن

العديد من صناع السياسة ، ولا سيما سكوتر ليبي Scooter Libby وبول ولفووتيز Paul Wolfowitz ، غير راضين عن أجوبتنا عن مزاعم علاقة العراق بالقاعدة . وقال لها أن تبلغ المحللين من زملائها بأن لا يهتموا بهذا الأمر . ويؤكد تينيت أن التركيز على العراق من قبل كبار الموظفين بوش سبق مجيء الإدارة الجديدة . فقد كان بول ولفوويتز ودوغ فيث Doug Faith وريتشارد بيرل Richard Perle من بين (١٨) شخصاً وقعوا رسالة علنية من مجموعة «المشروع الجديد للقرن الأمريكي الجديد The New Project for the New American Century» تدعو إلى الإطاحة بصدام حسين . والوعد الأمريكي بتغيير نظام الحكم في العراق ظل القاعدة منذ منتصف ولاية بيل كلنتون الثانية حتى غزت القوات الأمريكية البلاد في آذار ٢٠٠٣ . ففي أعقاب العمل السري الفاشل سنة ١٩٩٦ ، صدر قانون تحرير العراق Iraq Liberation Act عن الكونغرس سنة ١٩٩٨ . وخصص لوزارة الخارجية مئة مليون دولار لدعم المعارضة العراقية من أجل هذا الهدف .

يشير تينيت أيضاً إلى أنه في آب ٢٠٠١ تولت مجموعة عمليات العراق Iraq Operation Group في مديرية العمليات في وكالة الاستخبارات المركزية التخطيط لأعمال سرية داخل العراق . وتوصل الرئيس الجديد للمجموعة ، من خلال مراجعته لعملياتنا السرية السابقة ، أن صدام لم يكن بالإمكان إزالته عن طريق العمل السري وحده ، وأن حلاً سريعاً وسهلاً ورخيصاً لتغيير نظام الحكم في العراق لن يحدث . وكان تينيت يؤيد هذا الرأي .

يرى تينيت أن أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١ قد غيرت كل شيء ، وهو في هذا يتفق مع ريتشارد هاس وعدد من القادة الأمريكيين . وأن العديدين في إدارة بوش (الابن) خلقوا صلة نفسية بين الفشل في العمل الحاسم ضد القاعدة ، والخطر الذي تشكله برامج العراق لأسلحة الدمار الشامل . وكانت حجة هذا الفريق : «لن نتمكن من تحمل المفاجأة ثانية . وفي حال العراق ، إذا تآكلت العقوبات ولم يعمل شيء فقد نستيقظ يوماً لنجد أن صدام يمتلك سلاحاً نووياً . وعند ذلك تصبح قدرتنا على التعامل معه متخذة شكلاً مختلفاً تماماً» .

يؤكد تينيت أنه لم يحدث نقاش جدي داخل الإدارة حول حقيقة التهديد العراقي ؛ أو حول الاحتواء والتخطيط لتغيير نظام الحكم علناً أو بالسر . ويذكر أيضاً أن أحد كبار الضباط العسكريين أخبره أنه التقى بدوغ فيث على طائرة نقل لسلاح

الجو الأمريكي يوم ٢٠٠١/٩/١١ في طريقها من بريطانيا إلى الولايات المتحدة ، وقال له فيث إن القاعدة مسؤولة عن الهجمات ، وأن لا بد من القيام بحملة واسعة ضدها بدءاً من أفغانستان والاتجاه فوراً إلى بغداد . وخلال الاجتماعات لمجلس الأمن القومي ، ركز بول ولفوويتز على إدخال صدام حسين في أي رد فعل من الولايات المتحدة ، مؤكداً علاقة العراق بالإرهاب . ويذكر تينيت أنه في اجتماع ضمه مع الرئيس ونائبه ووزير الدفاع دونالد رمسفيلد أخذ تصويت غير رسمي : هل ندخل العراق في خطط رد فعلنا الفوري ، اقترع أربعة ضد صفر ، وامتنع رمسفيلد عن التصويت .

يقول تينيت : «لقد أخبرني أحد كبار الخبراء في الوكالة حديثاً عن اجتماع كان له في البيت الأبيض بعد أيام قليلة من ١١ أيلول . أخبره موظف كبير في مجلس الأمن القومي أن الإدارة تريد التخلص من صدام . قال محللنا : إذا أردتم ملاحقة صدام لتسوية أحقاد قديمة فأنتم ضيوفي . ولكن لا تقولوا لنا إن له صلة بـ ٩/١١/ أو بالإرهاب ، لأنه لا يوجد دليل يؤيد ذلك . عليكم البحث عن سبب أفضل» .

كان يذكر في اجتماعات «لجنة النواب Deputies Committee» وغيرها من المجموعات ، أن قراراً رئاسياً بالذهاب إلى الحرب يلمح له دوماً بتعابير افتراضية من مجلس الأمن القومي . ولم تناقش في هذه الاجتماعات المسائل المركزية مثل : هل من الحكمة الذهاب للحرب؟ هل هي الأمر الصحيح الواجب عمله؟ وأي تأثير سيكون لقوة أمريكية ضخمة محتلة في بلد عربي؟ وأي نوع من الاستراتيجية السياسية ستكون ضرورية لتجعل المجتمع العراقي يلتئم في عالم ما بعد صدام ، ويعظم فرص نجاحنا؟ كيف سينظر إلى وجود مئات الألوف من قوات الولايات المتحدة ، وإمكانية قيام حكومة عراقية موالية للغرب في إيران؟ وماذا يمكن أن تفعل إيران رداً على ذلك؟

يقول تينيت : «خلال السنوات القليلة الماضية ، سألت أناساً عديدين كانوا في وظائف عليا في وكالة الاستخبارات المركزية آنذاك : متى علمتم بصورة مؤكدة بأننا ذاهبون إلى الحرب في العراق؟ كانت الإجابات واضحة . أولئك الداخلون في حشد الدعم للجهد العسكري للولايات المتحدة لديهم الشعور من بداية إدارة بوش أن الحرب حتمية . وعلى العموم فإن المحللين الذين تحدثت إليهم أولئك ، الذين يتابعون برامج أسلحة صدام أو الذين يفحصون احتمالات وجود صلات بين العراق

والقاعدة ، قد جاؤا متأخرين جداً إلى الاستنتاج بأننا ذاهبون إلى الحرب» .

يؤكد تينيت أن نظيره في بريطانيا رئيس (MI-6) السير ريتشارد ديرلف Sir Richard Dearlove قد أكد له أن لا علاقة بين العراق ومنظمة القاعدة . ويؤكد أيضاً أن خطاب نائب الرئيس ديك تشيني في قدامى المحاربين ، الذي ألقاه في ٢٠٠٢/٨/٢٦ ، كان مفاجئاً له ولكبار الموظفين في الوكالة ؛ لأنه لم يرسل إليهم للتدقيق ، ولأنه تجاوز ما يؤيد تحليلهم الاستخباري .

يذكر تينيت أيضاً أن وثيقة صادرة عن وكالة الاستخبارات المركزية بعنوان «العاصفة التامة : التخطيط للنتائج السلبية لغزو العراق The Perfect Storm: Planning for Negative Consequences of Invading Iraq» قدمت في اجتماع مجلس الأمن القومي ، الذي عقد في كامب ديفيد في ٢٠٠٢/٩/٦ ، تضمنت الورقة أسوأ سيناريو لجهد الولايات المتحدة لتغيير نظام الحكم في العراق . وجاء فيها : «ستواجه الولايات المتحدة نتائج سلبية في العراق والمنطقة وخارجها ، والتي قد تشمل :

- فوضى وانقساماً في أراضي العراق .
- عدم استقرار في أنظمة الحكم في الدول العربية الرئيسية .
- اندفاعاً في الإرهاب العالمي ضد مصالح الولايات المتحدة يشعله عداء إسلامي عميق للولايات المتحدة .
- اضطراباً شديداً في التزود بالنفط وتوترات شديدة في حلف الأطلسي» .

وعقد اجتماع آخر في البيت الأبيض في ٢٠٠٢/٩/١٤ حضره الموظفون من الصنف الثاني في مجلس الأمن القومي ، ووزارة الخارجية ، ووزارة الدفاع ، ووكالة الاستخبارات المركزية . وكان عنوان جدول الأعمال «لماذا العراق الآن؟» في هذا الاجتماع قال بوب والبول Bob Walpole ، ضابط الاستخبارات القومية لستيف هادلي ، رئيس الاجتماع ، إنه سوف لا يستعمل أسلحة الدمار الشامل لتبرير الحرب على العراق .

أسلحة الدمار الشامل المبرر العلني للحرب على العراق

يقول تينيت : «لم تذهب الولايات المتحدة إلى الحرب على العراق بسبب أسلحة الدمار الشامل ، في نظري . أشك حتى بأنه السبب الرئيسي ، ومع ذلك فقد

كان الوجه الرسمي لها» . ويرى تينيت أن قادة البلاد قد قرروا الذهاب إلى الحرب بسبب عدد من المعتقدات : الحسابات الجيوإستراتيجية الأوسع ، والأيديولوجيا ، والنظرة غير المتماسكة للإدارة القائلة إن التحول الديمقراطي في الشرق الأوسط ، من خلال تغيير نظام الحكم في العراق ، جدير بالثمن . أما أسلحة الدمار الشامل فكانت ، كما نقل عن بول ولفوويتز في Vanity Fair في أيار ٢٠٠٣ ، شيئاً تم الاتفاق عليه لأنه المسألة الوحيدة التي يمكن اتفاق كل واحد عليها .

يروي تينيت إنه في مطلع أيلول ٢٠٠٢ بعد تفويض الكونغرس الرئيس بوش (الابن) باستعمال القوة ضد العراق ، وقعت وكالة الاستخبارات المركزية تحت ضغط شديد من أعضاء لجنة الانتقاء في مجلس الشيوخ حول الاستخبارات ، لإصدار تقدير مكتوب لبرامج أسلحة الدمار الشامل في العراق . وأرادوا تقديراً استخبارياً قومياً للمساعدة في المناقشات الخاصة بتفويض الرئيس . والقصد من تقديرات الاستخبارات القومية تزويد كبار صانعي السياسة بإجماع من الهيئات الاستخبارية الأمريكية حول موضوع معين ، وعرض وجهات نظراً أمنية مخالفة وبديلة . ويحتاج إعداد التقدير الاستخباري القومي عدة أشهر ، وتتولى تدقيقه وكالة الاستخبارات المركزية (C.I.A) ، ووكالة الدفاع الاستخبارية Defense Intelligence Agency (DIA) ، ووكالة الأمن القومي National Security Agency ، ووزارة الطاقة Department of Energy ، والوكالة الجغرافية القومية للاستخبارات National Geographical Intelligence Agency ووكالات أخرى .

وكانت تينيت يرى أن لا ضرورة للتقدير المذكور . ويقول إنهم لم يعملوا تقديراً استخبارياً قومياً خاصاً بأسلحة الدمار الشامل طوال عدد من السنين . ولكنهم كانوا يقدمون عروضاً تحليلية وتقديرات أخرى تتناول برامج أسلحة العراق ، في إطار تقييمات أوسع للصواريخ البالستية والأسلحة الكيمياوية والبيولوجية .

تلقى تينيت رسالة من الشيخ ريتشارد دوربين Richard Durbin من ولاية إلينوي في ٢٠٠٢/٩/٩ ، وأخرى من الشيخ بوب غراهام Bob Graham رئيس لجنة الانتقاء الاستخباري في مجلس الشيوخ يطلبان إصدار تقدير استخباري قومي عن حالة برامج العراق في تطوير أسلحة الدمار الشامل ، وحالة القوات المسلحة العراقية واستعدادها ورغبتها في القتال ، وآثار هجوم تقوده الولايات المتحدة على العراق على جيرانه ، ورد صدام حسين المحتمل على حملة عسكرية من الولايات المتحدة

لإحداث تغيير في نظام الحكم في العراق .

يقول تينيت إنه قبل بإعداد التقدير بتذمر ، وأمر هيئة مجلس الاستخبارات القومي البدء بمشروع سريع لاعداد تقدير استخباري قومي عن «حالة برامج العراق لأسلحة الدمار الشامل» . وكان القصد من هذا التقدير الإجابة عن سؤالين هما : هل يمتلك العراق أسلحة نووية؟ وإذا كان لا يمتلكها متى سيحصل عليها؟ واختصرت المدة الزمنية اللازمة لاعداد التقدير ، وهي من ستة إلى عشرة أشهر ، إلى أقل من ثلاثة أسابيع . وتولى الإشراف على إعداد التقدير بوب والبول ضابط الاستخبارات القومية المسؤول عن البرامج الاستراتيجية . وتم إنجاز التقدير على عجل في ٢٠٠٢/٩/٢٣ ، وأرسلت مسودته إلى الوكالات الاستخبارية للمراجعة . والتقى ممثلو الوكالات المذكورة بتنيت في ٢٠٠٢/١٠/١ لمناقشة الوثيقة النهائية والموافقة عليها .

يذكر تينيت أن الاستخبارات الأمريكية اكتشفت في مطلع ٢٠٠١ أن العراق كان يحاول الحصول على أنابيب ألمنيوم بقوة ستين ألفاً مصنعة لغايات الشد الاستثنائي . وبعد فحصها في المختبر الوطني في أوك رديج Oak Ridge National Laboratory تبين أن الأنابيب ملائمة للاستعمال النووي أكثر من أي استعمال آخر . ونفى ممثل «المركز القومي للاستخبارات الأرضية في جيش الولايات المتحدة U.S. Army`s National Ground Intellignece Center» أن يكون القصد من هذه الأنابيب إنتاج الصواريخ ، مما عزز الاعتقاد بأنها لأغراض نووية .

تضمن التقدير هذه النقطة . وتضمن أيضاً محاولات العراق الحصول على الكعكة الصفراء من النيجر ، كما جاء في ورقة مؤرخة في أيلول ٢٠٠٢ صادرة عن وكالة الدفاع للاستخبارات ، وأن لدى العراق (٥٥٠) طناً منها ، وهي كافية لإنتاج قنبلة نووية . وجاء في التقدير أن العراق قد يستطيع إنتاج سلاح نووي بين سنتي ٢٠٠٧ و٢٠٠٩ . وإذا استطاع الحصول على مواد قابلة للانشطار فقد يتم الإنتاج في مدى سنة واحدة . وأكد التقدير امتلاك العراق للأسلحة الكيمياوية والبيولوجية .

يحاول تينيت في مذكراته التقليل من أهمية هذا التقرير الاستخباري القومي في اتخاذ القرار بالذهاب إلى الحرب . ويقول في هذا الصدد : «إن قراءة متأنية للتقدير الاستخباري القومي تعطي انطباعاً أكثر دقة للتعليقات أكثر مما يعتقد الناس . فعبارة (لا نعرف) ظهرت ثلاثين مرة عبر صفحاته التسعين ، وعبارة (نعرف) ظهرت ثلاث مرات فيه . ولسوء الحظ لم نكن حذرين في الأحكام الرئيسية في صفحات الإيجاز

(الملخص) الخمس في مقدمة الوثيقة . كتبت الأحكام الرئيسية ، ولا سيما بشأن الأسلحة الكيمياوية والبيولوجية بلغة ذات طابع توكيدي أو جازم ، وبعثت شعوراً بالجزم لا وجود له في بقية الوثيقة» .

ويتهم تينيت الوكالات الاستخبارية الأمريكية الأخرى بعدم التدقيق في صحة المعلومات التي كانت ترد إليها ، ويضرب أمثلة على ذلك .

أرسل التقدير الاستخباري القومي مساء ٢٠٠٢/١٠/١ إلى الكونغرس . وناقشته في صباح اليوم التالي لجنة انتقاء الشيوخ للاستخبارات في جلسة مغلقة . وضغط الكونغرس على تينيت لإصدار كتاب أبيض علني لإقناع الرأي العام الأمريكي والعالمي بمبررات الحرب على العراق . وصدر الكتاب الأبيض ، الذي كان أكثر توكيداً للمساعي العراقية لإنتاج أسلحة الدمار الشامل من التقدير الاستخباري القومي .

يتناول تينيت علاقة العراق مع منظمة القاعدة وغيرها من الحركات الإرهابية . ويذكر اتصالات جرت بين العراق والقاعدة أثناء وجود إبن لادن في السودان ، ولجوء أبو مصعب الزرقاوي إلى العراق ، وظهور نحو (١٢) ناشطاً إسلامياً مصرياً في بغداد في ربيع وصيف ٢٠٠٢ ، وتدريب العديد من الإرهابيين على الأسلحة الكيمياوية والبيولوجية . ويؤكد في الوقت نفسه عدم وجود سلطة أو إدارة أو رقابة عراقية على أي من الأعمال الإرهابية التي نفذتها القاعدة .

يؤكد تينيت أن بول ولفوويتز كان مقتنعاً بعلاقة العراق بأحداث ٢٠٠١/٩/١١ فقد كتب تعريفاً بكتاب لوري ميلوري Laurie Mylorie بعنوان «دراسة في الانتقام : حرب صدام حسين التي لم تنته على أمريكا Study of Revenge: Saddam Hussein`s Unfinished War Against America» الصادر سنة ٢٠٠٠ ، ما يلي : «يناقش هذا الكتاب بقوة أن مرتكب الهجوم على مركز التجارة العالمي سنة ١٩٩٣ كان في الواقع عميلاً للمخابرات العراقية» .

يرى تينيت أن نائب الرئيس ديك تشيني وبول ولفوويتز وسكوتر ليبي كانوا مندفعين إلى الإسراع بشن الحرب على العراق ، ويبحثون عن مبررات لها . وكانوا يناقشون محللي وكالة الاستخبارات المركزية بأدق التفاصيل . ويذكر أن وكالته أصدرت ورقة في ٢٠٠٢/٦/٢١ بعنوان : «العراق والقاعدة : تفسير علاقة غامضة Iraq and Al-Qa`ida: Interpreting A Murky Relationship» . لقد بينت الورقة عدم وجود إشارات مقنعة لعلاقة بين العراق والقاعدة في مجال العمليات الإرهابية .

وحول علاقة العراق بالإرهاب تشكلت لجنة مشتركة من وزارة الدفاع ومن وكالة الاستخبارات المركزية في آب ٢٠٠٢ لدراسة هذا الموضوع . وكان فيها من وزارة الدفاع دوغ فيث وريتشارد هافر Richard Haver ونائب الأميرال جيك جاكوبي Jake Jacoby رئيس وكالة الدفاع للاستخبارات ، وعدد من مكتب فيث . ومن وكالة الاستخبارات المركزية بن بونك Ben Bonk نائب رئيس مركز مكافحة الإرهاب Counterterrorism Center ، والعديد من المحللين الاستخباريين . كان فريق فيث مصراً على وجود علاقة ناضجة بين العراق وتنظيم القاعدة ، بينما كان فريق وكالة الاستخبارات المركزية لا يرى دليلاً على ذلك .

وأعدت الوكالة تقريراً آخر عن الموضوع نفسه في أيلول ٢٠٠٢ ، ثم تمت مراجعته في كانون الأول ٢٠٠٢ وقدم إلى البيت الأبيض بعنوان «الدعم العراقي للإرهاب Iraq Support of Terrorism» . فما كان من كبار موظفي البيت الأبيض إلا أن طالبوا بإعادة النظر فيه أو سحبه . وجاء في التقرير الذي نشر في ٢٠٠٣/١/٢٨ أن العراق كان ملجأ آمناً وجرت اتصالات بينه وبين بعض الإرهابيين ، لكن هذه المعلومات لا يمكن أن تترجم إلى علاقة . فالزرقاوي وصل إلى بغداد للعلاج الطبي في آيار ٢٠٠٢ تحت اسم مختلف . وتعاون مع تنظيم «أنصار الإسلام» الكردي في شمال شرقي العراق في منطقة خارج سيطرة الحكومة العراقية . وقد استقر في هذه المنطقة نحو مئتي ناشط من القاعدة ، وتدرب بعضهم على استعمال السموم . وظهر في بغداد نحو اثني عشر من متطرفي القاعدة ، كان منهم ثروت شحاته ويوسف درديري المصريان المخططان البارزان في عمليات «الجهاد الإسلامي» .

وسرد تينيت قصة لقاء محمد عطا ، أحد مختطفي الطائرات في ١١ أيلول ٢٠٠١ ، بأحمد خليل العاني ، عضو المخابرات العراقية في براغ قبل أشهر من الهجوم سنة ٢٠٠١ . وكرست وكالة الاستخبارات المركزية جهوداً استثنائية للكشف عن حقيقة اللقاء وما تم فيه . ولم تستطع إيجاد أي دليل مقنع على أن اللقاء قد تم . وكان ديك تشيني يؤكد ، على الرغم من ذلك ، أن اللقاء قد تم فعلاً . وتأكد للوكالة في سنة ٢٠٠٦ أن الرجل الذي التقى برجل المخابرات العراقي في براغ ليس محمد عطا . ويؤكد تينيت أن موضوع العلاقة بين العراق والقاعدة استمر حتى بعد خروج صدام من السلطة ، وجيء بوثائق عراقية تبين هذه العلاقة ، ولكن بعد فحصها تبين أنها مزورة .

تينيت يدافع عن وكالة الاستخبارات المركزية

يعترف تينيت أنه في لقاء في البيت الأبيض في ٢٠٠٢/١٢/٢١ ، حضره الرئيس بوش (الابن) ، ونائبه ديك تشيني ، وكوندي رايس ، وأندي كارد Andy Card قدم جون ماكلولين إيجازاً أكد فيه امتلاك العراق لأسلحة كيمياوية وبيولوجية ، وأنه يعمل على إنتاج أسلحة نووية . وهذه المعلومة ، كما يقول تينيت ، كان يؤمن بها كل جهاز استخباري غربي . وينفي تينيت عن نفسه تهمة ممالأته للرئيس بوش في أقواله وتقاريره لغزو العراق .

ولما بدأ الوضع في العراق يتردى في خريف ٢٠٠٣ تحت الاحتلال الأمريكي ، وضعت الإدارة الأمريكية اللوم على جورج تينيت ووكالة الاستخبارات المركزية ، واتهمتها بأنها أوقعتها في ورطة . يحاول تينيت الرد على هذه التهمة ورفع اللوم عن نفسه وعن وكالته .

يتناول تينيت موضوع المهندس الكيمياوي العراقي ، الذي جاء إلى مخيم اللاجئين الألماني سنة ١٩٩٨ ، وحصل على بطاقة هجرة إلى ألمانيا ، بعد موافقته على التعاون مع الاستخبارات الألمانية الاتحادية Bundes Nachrichten Dienst . في فصل خاص في مذكراته تحت عنوان «نقل القضية إلى الجمهور» . ومن الجدير بالذكر أن الاستخبارات الألمانية أعطته اسماً رمزياً هو (Curve Ball) . وهو الذي أبلغ هذه الاستخبارات أن لدى صدام مختبراً لإنتاج الأسلحة البيولوجية في شاحنة متنقلة . وقد تبين فيما بعد أن معلوماته هذه غير صحيحة .

ويذكر تينيت أنه أبلغ إدارة بوش أن نمط الحرب في العراق سيكون مختلفاً عما كان عليه في أفغانستان . وكان قد أخبر نائب الرئيس تشيني أن ليس باستطاعة وكالة الاستخبارات المركزية الإطاحة بصدام . ولذا كان دور هذه الوكالة في العراق تزويد العسكريين بالمعلومات عن مواقع قوات العدو ، وقدرتها وتقييم البيئة السياسية ، وتنسيق جهود الشبكات المحلية للمؤيدين الذين مهدوا الطريق للتقدم العسكري للولايات المتحدة ، والقيام بعمليات تخريب وما شابه ذلك . وهذا دور تقليدي للاستخبارات ولكنه لم يكن سهلاً .

كان أول عمل قامت به الوكالة في شباط ٢٠٠٢ إرسال فرق اتصال إلى شمال العراق من ضباطها أقاموا بين الأكراد . وفي مطلع تموز بدأوا بتجنيد العملاء وإنشاء شبكة من الأفراد ورجال القبائل الراغبين في العمل . وكلف هؤلاء بالقيام بأعمال

عدوانية لتحدي نظام الحكم بتخريب السكك الحديدية ، وقطع عقد الاتصالات ، والهجوم على مقرات حزب البعث . انطلق نشاطهم من شمال العراق إلى حدود البلاد المجاورة جنوباً وغرباً . وأعطى العسكريون الأمريكيون معلومات وافية عن اتصالات الوكالة داخل العراق ، وعرفت القوات الخاصة الأمريكية بالأفراد المتعاونين معها داخل العراق ، الذين وعدوا بإقناع الوحدات العسكرية العراقية بالانشقاق ، حالما تبدأ الحرب البرية ، إما بالانتقال إلى جانب القوات الأمريكية أو بالاستسلام . على أن الخيار الأول لم يكن جذاباً للقوات العراقية . واستطاع ضباط الوكالة إيصال هذه الرسالة إلى وحدات الجيش العراقي . وكان المطلوب أن تقوم الوحدات العسكرية العراقية بإلقاء سلاحها والعودة إلى منازلها . وشرعت القوات العسكرية الأمريكية بإسقاط منشورات من الطائرات تحمل هذه الرسالة .

يقول تينيت : «لقد زرت ضباط وكالة الاستخبارات المركزية في قواعد سرية في صحراء غرب العراق وجنوبه قبيل الحرب . أنشئت هذه القواعد في وسط أمكنة مجهولة ، من أجل تدريب الشبكات القبلية العراقية وتجهيزها ، بحيث يستطيع أفرادها العودة لدخول بلدهم للقيام بعمليات المراقبة والتخريب ، وإرسال المعلومات إلى العسكريين الأمريكيين . كان الضباط الذين قابلتهم يعيشون في خيام لعدة أشهر يعدون للحرب ، وكانوا متحمسين لبدئها . كان العديد منهم شباناً ، وقلة منهم كانوا مبتدئين يقومون بواجبهم لأول مرة . . . كان القصد من زيارتي رفع معنوياتهم وجعلهم يعرفون أنني فخور جداً بهم ، وواثق من قدرتهم على مجابهة أي تحد» .

يشيد تينيت بأحد العملاء العراقيين هو الجنرال محمد عبد الله الشهواني ، الذي جندته الوكالة سنة ١٩٩١ . وأصبح بسرعة مفتاحاً لتطوير شبكة قوية للوكالة داخل العراق . وساعد الوكالة على الاتصال بشيوخ القبائل ورجال الدين في الأشهر التي سبقت غزو العراق . وساعد الشهواني خلال الحرب في إنشاء وقيادة مجموعة شبه عسكرية عراقية ممولة من الوكالة عرفت باسم «العقارب The Scorpions» . وتألفت هذه المجموعة من جنوده في الجيش النظامي العراقي ، الذين أسروا في حرب تحرير الكويت .

ومع اقتراب موعد الغزو انتقل الضابط المعين من الوكالة من الدوحة إلى بغداد ، حيث جلس إلى جانب الجنرال تومي فرانكس Tommy Franks ، القائد الأعلى للقيادة المركزية الأمريكية . وتحدث تينيت بالتفصيل عن المعلومة الاستخبارية من

شمال العراق عن وجود صدام حسين في مزارع الدورة ، التي دفعت القيادة الأمريكية إلى تقديم غزو العراق على أمل اصطياد رئيس النظام العراقي ، وضرب المزارع بأربعين صاروخ كروز .

يروي تينيت بالتفصيل الممل قصة الدكتور أحمد الجلبي مع وكالة الاستخبارات المركزية والإدارة الأمريكية . فهو من أسرة ثرية عراقية غادرت العراق سنة ١٩٥٨ ، حينما كان أحمد فتى ، على أثر انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨ الذي أطاح بالنظام الملكي في العراق . ونشأ أحمد في بريطانيا والولايات المتحدة . يؤكد تينيت أن ليس لأحمد أتباع في العراق ، ولكن له أصدقاء كثر في دوائر الحكومة الأمريكية . ويعتبره رجلاً بارعاً وساحراً ومتحدثاً . حكم عليه في أواخر الثمانينات من القرن العشرين غيابياً في فضيحة بنكية في الأردن . وتولى إنشاء المؤتمر الوطني العراقي بمساعدة وكالة الاستخبارات المركزية ، التي اكتشفت فيما بعد أنه عميل لا يعتمد عليه . وأقام صداقات متينة مع ديك تشيني نائب الرئيس بوش (الابن) ، وبول ولفوويتز ودوغ فيث .

أنشأ أحمد الجلبي «قوة الحرية العراقية Iraqi Freedom Force» في مطلع خريف ٢٠٠٢ في أوروبا ، التي لم يزد عددها على (٧٧) شخصاً مدربين تدريباً سيئاً . يقول تينيت : «في يوم الجمعة ٢٠٠٣/٤/٥ صدمت حينما علمت أن العسكريين الأمريكيين قد نقلوا جواً إلى جنوب العراق مئات من أفراد قوة الحرية العراقية يقودهم أحمد الجلبي . كنت أنتظر اجتماع لجنة الكبار في مجلس الأمن القومي ، حينما أخبرني أحدهم ببساطة أن الجلبي قد نزل في الناصرية على بعد (٢٣٠) كيلومتراً من بغداد . لم أعرف الحكمة من إدخال سرية الجلبي في الحرب الدائرة . . . كان الجلبي يضغط على كبار جنرالات القيادة المركزية لنقله ومؤيديه إلى منطقة الحرب ، لمنح نفسه الشرعية ، ولكن كبار قادة القيادة المركزية رفضوا طلبه في ليلة ٢٠٠٣/٤/٤ . وحينما استيقظوا صباح ٤/٥ وجدوا أن أوامرهم تم تجاوزها من قبل بول ولفوويتز في البنتاغون . وهكذا استطاع الجلبي الوصول إلى الناصرية . وبقي السؤال : من أين جاء بهذه القوة؟ وفقاً للروايات الصحفية فإن قوات الجلبي ال (٧٧) فرداً أصبح عددها فجأة بالمئات من المقاتلين . علمنا فيما بعد أنه دفع أموالاً لأفراد من قوات بدر السابقين لزيادة العدد . (وقوات بدر تألفت من الجنود الشيعة الذين انشقوا على الجيش العراقي أثناء الحرب الإيرانية-العراقية في الثمانينات . وعملت في إيران

كميليشيا بتمويل ودعم من طهران) . وكقوة مقاتلة برهنت قوة الحرية العراقية على عجزها . وتحول بعض أفرادها إلى ميليشيات للجلبي تستولي على السيارات وأموال الناس» .

يستغرب تينيت أن يسعى ممثلو نائب الرئيس وموظفو البنتاغون إلى جعل الجلبي مسؤولاً عن عراق ما بعد الغزو الأمريكي . واتخذ هذا المسعى شكل اقتراح لتشكيل حكومة عراقية في المنفى تتولى إدارة العراق عند سقوط بغداد . وظل اسم الجلبي يدور في أذهان قادة البنتاغون المدنيين يتردد وعلى ألسنتهم بعد احتلال العراق . يقول تينيت : «كان رأيي أن الجلبي لن يحقق نجاحاً ، وكنت على حق . في الانتخابات البرلمانية التي أجريت لم يحصل حزبه على أصوات ولا على مقاعد» .

يواصل تينيت حديثه عن أحمد الجلبي فيقول : «خلال إلقاء الرئيس بوش خطابه عن حال الاتحاد في ٢٠/١/٢٠٠٤ أعطي الجلبي مقعد شرف بجانب سيدة الولايات المتحدة الأولى . وفي آذار ٢٠٠٤ ظهر على شاشة محطة CBS (ستون دقيقة) يلوم استخبارات الولايات المتحدة ، لأنها لم تفعل ما يكفي للتدقيق في المعلومات الخاطئة التي كان يوزعها تنظيمه السياسي» . وقد اعترف بول ولفوويتز ، عندما سأله الرئيس بوش عن الجلبي بقوله : «للجلبي علاقة مع وكالة الدفاع للاستخبارات ، ويزودها بمعلومات تنقذ حياة الأمريكيين . وبإمكان وكالة الاستخبارات المركزية أن تؤكد ذلك» . نظر الرئيس إلى تينيت وروب ريتشر Rob Richer فقال الأخير : «لا أعرف شيئاً عن هذه المعلومات ، سيدي الرئيس» نظر الرئيس إلى كوندي رايس وقال : «أريد أن تقطعوا المال عن الجلبي» . وفي اجتماع لاحق برئاسة رايس أكدت أن وكالة الدفاع للاستخبارات كانت تدفع للمؤتمر الوطني العراقي (٣٥٠) ألف دولار شهرياً مقابل خدماته في بغداد .

يقول تينيت : «نحن نعرف أن ميليشيا المؤتمر الوطني العراقي وضعت يدها على عشرات الآلاف من وثائق نظام حكم صدام وسربتها إلى الحكومة الأمريكية . ولكن ليس واضحاً لي ماذا كان يحصل البنتاغون مقابل أمواله التي يدفعها للجلبي . ومع ذلك فإن أمر الرئيس بقطع الأموال عن الجلبي قد تم تجاهله .

في هذا الوقت تقريباً تلقينا معلومات موثوقة أن الجلبي كان يزود الإيرانيين بمعلومات سرية حساسة . كان يجب أن تكون هذه القشة الأخيرة ، ولكن لا يوجد شيء نهائي مع الجلبي . . . وأخيراً انتهى الاتصال بين المؤتمر الوطني العراقي ووكالة

الدفاع للاستخبارات في أيار ٢٠٠٤ . . . في الانتخابات النيابية التي أجريت في كانون الأول ٢٠٠٥ حصل حزب الجلبي على (٠,٥) بالمئة من أصوات الناخبين ، وعلى مقعد نيابي واحد» .

البحث عن أسلحة الدمار الشامل في العراق تحت الاحتلال

يقول تينيت إنه في وقت ما في نهاية أيار ٢٠٠٣ «كنت مع الرئيس بوش (الابن) في المكتب البيضاوي ، حينما وصف لي اجتماعاً له مع جيري بريمر (Paul) Jerry Bremer والجنرال تومي فرانكس . قال الرئيس إنه سألهما : من كان منهما مكلفاً بالبحث عن أسلحة الدمار الشامل . وأردف : «ذهبا» وأشار بسبابتيه يميناً ويساراً . فأشر كل منهما إلى الآخر . وقال الرئيس : هذه ليست علامة جيدة . . . أنت الآن المكلف يا جورج» .

لما كانت وزارة الدفاع هي المسؤولة عن احتلال العراق وإدارته ، فقد كان يسعدها أن تتولى وكالة الاستخبارات المركزية مسؤولية البحث عن أسلحة الدمار الشامل . وهذه مهمة معقدة من الناحية اللوجستية . تم التفاوض بين الوزارة والوكالة ، والاتفاق على أن يعمل مع فريق الوزارة مستشار من الوكالة في «مجموعة مسح العراق Iraq Survey Group» التي يتولى رئاستها جنرال بنجمتين متصل مباشرة بوزارة الدفاع .

في العراق ، كما يقول تينيت ، (١٣٠) موقعاً معروفاً لتخزين الذخيرة . اثنان منها يعادلان تقريباً مربع مانهاتان في نيويورك . ألحق بمجموعة مسح العراق (١٤٠٠) موظف معظمهم أمريكيون ، وبعضهم بريطانيون وأستراليون . بينهم ما بين مئة ومئتين من المختصين المدربين على جمع المعلومات الخاصة بأسلحة الدمار الشامل . وفي أثناء ذلك كان العراقيون قد أتلفوا السجلات وأية إثباتات محتملة . لقد أخذها اللصوص ومجموعات أخرى مثل المؤتمر الوطني العراقي .

وأثناء عملية تنظيم البحث عن هذه الأسلحة ، زار المقر العام لوكالة الاستخبارات المركزية ديفيد كاي David Kay لقراءة ورقة في مجلس الاستخبارات القومي . وكان كاي أحد مفتشي الأمم المتحدة عاد تواً من العراق . وقال إنه وجد شاحنة قرب الموصل في أواخر نيسان مثل مصنع أسلحة بيولوجية متنقل ، في حديث له مع محطة التلفزة الأمريكية NBC في ٢٠٠٣/٥/١١ ، وبعد أن فتش كاي

الشاحنة وشرح للصحفي كيف تعمل ، قال إنه متأكد شخصياً أنه لا يمكن استعمالها لغير هذا الغرض . وكرر هذا القول في حديثه إلى محطة التلفزة الأمريكية CNN في ٢٠٠٣/٦/٨ ، عين كاي مستشاراً لتينيت في ٢٠٠٣/٦/١١ وتوجه إلى العراق بعد بضعة أسابيع بعد أن قدم له إيجازاً في واشنطن .

يقول تينيت : «كانت تعليماتنا لكاي بسيطة : ابحث عن الحقيقة . ووعدناه بالموارد التي يحتاجها وعدم التدخل من جانبنا» . بوصوله إلى العراق أنشأ كاي ورشة داخل المنطقة الخضراء المحروسة بكثافة في وسط بغداد . وبموجب الاتفاق مع كاي قلصت وزارة الدفاع ووكالة الاستخبارات المركزية الاتصالات بفريق كاي إلى مؤتمر فيديو واحد أسبوعياً ، مع تبادل الرسائل الإلكترونية ، لمنحه الحرية في العمل . وبعد ثلاثة أشهر من وصوله إلى العراق عاد كاي إلى الولايات المتحدة ليقدم تقريراً مؤقتاً للكونغرس . في شهادة كاي أمام الكونغرس في ٢٠٠٣/١٠/٢ بيّن كيف أن العراق ضلل عن قصد مفتشي الأمم المتحدة قبل الحرب ، وأن مجموعة مسح العراق قد اكتشفت الدليل على نية صدام حسين لتطوير أسلحة الدمار الشامل . وأبلغ كاي الصحفيين أن البحث للتوصل إلى نتائج نهائية قد يستغرق من ستة إلى تسعة أشهر إضافية .

اكتشف كاي (١٢) فعالية لها صلة ببرنامج أسلحة الدمار الشامل ، وكميات كبيرة من التجهيزات . وتحدث عن وجود شبكة سرية من المختبرات والمنازل الآمنة كانت تديرها المخابرات العراقية السابقة . وقد احتوت هذه المختبرات تجهيزات لمواصلة البحث في الأسلحة الكيمياوية والبيولوجية . وعلى الصعيد النووي ، وجدت وثائق وتجهيزات تستعمل لاستئناف تخصيب اليورانيوم بواسطة فصل النظائر بطريقة الطرد المركزي أو بالطريقة الإلكترونية المغناطيسية ، مخفية خارج بيوت أحد علماء العراق وأماكن أخرى . ووجدت مجموعة مسح العراق خططاً ومخططات متقدمة لإنتاج الصواريخ بعيدة المدى إلى ألف كيلومتر ، بينما حددت الأمم المتحدة مدى هذه الصواريخ ب (١٥٠) كيلومتراً . وكشفت المجموعة نفسها دليلاً على محاولات عراقية سرية بين نهاية سنة ١٩٩٩ وسنة ٢٠٠٢ للحصول على تكنولوجيا كورية شمالية للصواريخ البالستية .

يقول تينيت : «بوجه عام كانت شهادة كاي صورة للخداع والرياء من قبل رجل قدير على الأفعال الرهيبة» . عاد بعد قليل إلى بغداد ليستأنف بحثه عن الأسلحة .

وكان الوضع الأمني قد تدهور كثيراً . فقد أدى عمل انتحاري في ٢٠٠٣/١٠/٩ إلى انقلاب سيارته وقتل تسعة من شرطة بغداد وجرح (٤٥) منهم . وأدى انفجار ثان بعد ثلاثة أيام خارج فندق بغداد إلى قتل ثمانية من موظفي الائتلاف الدولي . وفي ٢٠٠٣/١٠/٢٧ ، في أول يوم من شهر رمضان ، أدت أربع هجمات انتحارية منسقة على ثلاثة مخافر شرطة في بغداد والهلال الأحمر العراقي إلى قتل (٤٣) شخصاً ، وجرح ما يربو على مئتين . وبعد ستة أيام قتل (١٦) جندياً أمريكياً وجرح (٢١) عندما أسقطت طائرة عمودية أمريكية . فقد كان تشرين الثاني ٢٠٠٣ أكثر الأشهر دموية بقتل (٧٥) موظفاً وجندياً أمريكياً .

كان جنرالات القيادة المركزية يحاولون معرفة من أين تأتي هذه الهجمات ، والبحث عن الوسائل لإيقافها . واتجهت أنظارهم نحو مجموعة المسح العراقي علها تساعد في إيقاف النزيف . ولكن ديفيد كاي رفض طلبهم . وأصبح مع الزمن صعب المراس ، وادعى أنه لم يحصل على الذي يحتاجه للقيام بمهمته . يقول تينيت : «لو كان كاي ضابطاً نظامياً في وكالة الاستخبارات المركزية لفصلته من قيادته وأعدته إلى بيته . في ٢٠٠٣/١١/١٩ ، بعد شهر ونصف الشهر من حديثه إلى وسائل الإعلام ، بأنه يحتاج إلى ما بين ستة وتسعة أشهر لإنجاز مهمته ، علم تينيت أنه يخطط لترك عمله ذلك اليوم . ولما اتصل به أكد له الإشاعة . ولم يقدم أي تفسير أو مبرر لرغبته في التخلي عن وظيفته . وفي ٢٠٠٤/١/٢٣ قبلت استقالة كاي وعين تشارلز دويلفير Charles Duelfer محله . ومن الجدير بالذكر أن ديفيد كاي صرح في اليوم نفسه لمراسل وكالة رويترز Reuters البريطانية أنه لا توجد في العراق أسلحة دمار شامل . وأكد هذا القول في شهادته أمام مجلس الشيوخ في ٢٠٠٤/١/٢٨ ، وشن هجوماً على جورج تينيت . واصل دويلفير والفريق الذي يرأسه عملهم في البحث عن أسلحة الدمار الشامل . وقدم تقريراً من ألف صفحة عن عمليات التفتيش التي قاموا بها ، والتي انتهت إلى أن العراق لم يمتلك كميات مخزنة من الأسلحة الكيمياوية والبيولوجية والنووية حينما قامت الولايات المتحدة بغزوها له في آذار ٢٠٠٣ .

يعقد تينيت مقارنة بين حالة العراق حين زاره لأول مرة في الأسبوع الثالث من أيار ٢٠٠٣ ، وحالته الأمنية المتردية حين زاره في المرة الثانية في شباط ٢٠٠٤ . ويعزو هذا التدهور إلى سلسلة من القرارات التي اتخذتها الإدارة الأمريكية في العراق . لم

يكن واضحاً قبل الحرب على العراق خطط إعادة إعماره ، ولا كيفية إدارته ، وما هو دور العراقيين في تقرير مستقبلهم السياسي . حدث اختلاف شديد بين وزارة الدفاع من جهة ووزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية من جهة أخرى ، حول كيفية إدارة العراق . وقد حسم الأمر الرئيس بوش (الابن) بإصداره الأمر رقم (٢٤) ، الذي أعطى وزارة الدفاع الملكية الشاملة والتامة لعراق ما بعد الحرب . رجل البنتاغون المسؤول الأول عن عراق ما بعد الحرب كان الجنرال المتقاعد جاي غارنر Jay Garner ، الذي عين قبل بدء الغزو ببضعة أشهر . وصل غارنر إلى العراق في ١٨ نيسان ٢٠٠٣ رئيساً لمكتب «إعادة الإعمار والمعونة الإنسانية» ، الذي اتخذ أحد قصور صدام حسين المهجورة مقراً له . واكتشف غارنر أنه بدون اتصالات كافية ، ويفتقر إلى من يتكلمون العربية في إدارته ، مثلما يفتقر إلى فهم الشعب العراقي . لديه مسؤولية بدون سلطة ووضع سيء في ترد متواصل .

يقول تينيت إن وكالة الاستخبارات المركزية حاولت مساعدة غارنر . وحاول ضباطها في العراق التعاون مع القيادات العراقية البعثية من الصف الثاني ، غير أن غارنر وزال خليل زاد رفضا ذلك بأمر من وزارة الدفاع المتأثرة جداً بأفكار ومخططات أحمد الجلبي .

تم التخلي عن غارنر وخليل زاد بسبب فشلهما ، وعين السفير بول بريمر (Jerry) Paul Bremer بدلاً منهما في ٢٠٠٣/٥/٦ ، وأعطيت إدارته اسم «سلطة الائتلاف المؤقتة The Coalition Provisional Authority» التي أقدمت على قرارين خطيرين اتخذا في واشنطن قبل وصول بريمر إلى العراق ، وهما قرار اجتثاث البعث وقرار حل الجيش العراقي وجميع الأجهزة الأمنية العراقية . ينكر تينيت أن يكون له ولوكالة الاستخبارات المركزية دور في قرار اجتثاث البعث ، ويعده قراراً غبياً . فهو يرى أن العديد من البعثيين تكنوقراط من النوع الذي يحتاجه العراق فوراً حال انتهاء القتال في البلاد ، وأن اجتثاث البعثيين قد ولد استياء قطاع واسع من الشعب العراقي وغضبه من الإدارة العسكرية الأمريكية . ويؤكد تينيت أن ضباط الوكالة في العراق نصحوا بريمر أن لا يقدم على هذه الخطوة ، وبينوا له أخطارها على الوضع الداخلي في العراق . وبعد صدور القرار أغلق العديد من المدارس بسبب فصل المعلمين من وظائفهم لانتمائهم لحزب البعث ، وحرم أربعون ألفاً من المعلمين من العمل في البلاد ، بسبب انتمائهم لحزب البعث . وكانت النتيجة اقتناع قدامى البعثيين

بالانضمام إلى المقاومة الوطنية للاحتلال . وحاولت وكالة الاستخبارات المركزية إقناع بريمر بالتخلي عن قرار اجتثاث البعث ، غير أن دوغ فيث ، وكيل وزارة الدفاع ، رفض ذلك مدعياً أن ذلك «يقلب المبرر الأخلاقي للحرب» .

أما قرار حل الجيش الذي اتخذه بريمر في ٢٠٠٣/٥/٢٣ ، الذي نص على عدم عودة أي ضابط عراقي تتجاوز رتبته رتبة عقيد إلى الجيش الجديد ، فكان ضربة قاصمة ، في نظر تينيت ، لطائفة السنة في العراق ، وأدى إلى عزل ما يربو على خمس السكان . يذكر تينيت أن جاي غارنر ، الذي كان ما يزال في العراق عند صدور هذا القرار ، جاء إلى بريمر مع رئيس محطة وكالة الاستخبارات المركزية وأخبراه أن حل الجيش حماقة . وكان رد بريمر أن الجيش حل نفسه . كما أن القرار اتخذ بموافقة دونالد رمسفيلد وزير الدفاع . وهذا ما دفع العديد من ضباط الجيش المنحل إلى اللحاق بمقاومة الاحتلال .

وكانت حجة وزارة الدفاع الأمريكية ، بعد انتشار العنف المتسارع في العراق ، أن هذا العنف يبرهن على الحكمة من اجتثاث البعث وحل الجيش .

الاحتلال يبعث الطائفية ويثير الحرب الأهلية في العراق

يقول تينيت : «الحركات التي كانت تقوم بها الحكومة الأمريكية أقامت حواجز بين مختلف فئات المجتمع العراقي . قال صديق عراقي لتشارلز ويلفير ، بأن العراقيين لم يعتادوا على التفكير بأنفسهم في الماضي على أنهم شيعة أو سنة . ولكن الطريقة التي طبقنا بها الديمقراطية أدت بالناس إلى الاعتقاد بأنهم يستحقون قطعة من الكعكة ، بناء على عضويتهم في مجموعة معينة . . . القرارات التي اتخذناها استهدفت تجزئة العراق وليس توحيده» .

كان الخلاف واضحاً بين وزارة الدفاع التي تشرف على إدارة العراق المحتل ، ووكالة الاستخبارات المركزية . وفي إحدى زياراته للعراق ، قال بول ولفوويتز لرئيس محطة الوكالة هناك : «أنتم لا تفهمون سياسة حكومة الولايات المتحدة ، وإذا لم تفهموا السياسة فمن الصعب عليكم جمع المعلومات الاستخبارية ، التي تساعد على نجاح هذه السياسة» . يعقب تينيت على هذا القول : «كان رأياً استفزازياً يغطي حقيقة كبرى . ففي حالات عديدة لم نع ما كانت تحاول حكومتنا عمله . الشيء الوحيد الذي نحن متأكدون منه أن تحذيراتنا كانت تقع على آذان صماء» .

ويذكر تينيت أنه حاول إنشاء مصلحة استخبارات عراقية ؛ لأن أية حكومة تنوي حماية شعبها تحتاج إلى منظمة للحصول على المعلومات المتعلقة بالأمن الداخلي والتهديدات الخارجية . . ولكنه واجه مقاومة قوية وفورية من وزارة الدفاع . وإزاء إلحاح المدير العام للوكالة ونائبه على ضرورة إنشاء هذه المصلحة ، كانت حجة كوندي رايس في رفضها : «كيف أعرف أنكم ، أيها الشباب ، لا تذهبون إلى إنشاء KGB أخرى؟» مشيرة إلى جهاز الاستخبارات في الاتحاد السوفياتي . يرى تينيت أن جواب رايس هذا يدل على عقلية صناع السياسة في إدارة بوش (الابن) ، الذين يرفضون التعامل مع أي شخص غير مقبول سياسياً لديهم .

وبعد فوات الوقت ، وحصول المتمردين والمنشقين العراقيين على قدم ثابتة ، بدأت الإدارة الأمريكية بانشاء مصلحة استخبارات عراقية مؤلفة من المجموعات الاثنية والدينية والعشائرية في البلاد ، واختير الجنرال محمد الشهواني لادارتها ، واستمر مديراً لها حتى مطلع سنة ٢٠٠٧ .

يعزو تينيت نمو المقاومة العراقية للاحتلال واتساع انتشارها ، إلى تأخر القوات المحتلة الأمريكية في حماية خطوطها ، وإلى خلقها فراغاً ملأته المقاومة الوطنية ، وإلى رفضها الإفادة من الموارد المحلية التي تستطيع تزويدها بالمعلومات الاستخبارية عن نشاط المقاومة ، وإلى إغلاق عينيها كي لا ترى ما يتصاعد أمامها . ولما ساء الوضع الأمني في العراق ، بدأ ضباط وكالة الاستخبارات المركزية بإرسال برقيات إلى المركز سموها «ذئاب الأرض Aard Wolves» ولكن بريمر لم يعترف بخطورة الوضع الأمني المتردي ، وأن ما يرد في تقارير وكالة الاستخبارات المركزية هو محاولة للتقليل من جهود الإدارة في العراق . واتهم مدير محطة الوكالة في بغداد بأنه «انهزامي Defeatist» .

يرى تينيت أن التمرد العربي السني في العراق ، الذي بدأ يظهر بوضوح في صيف وخريف ٢٠٠٣ ، مشكلة سياسية أكثر منها مشكلة عسكرية . وساهم في اتساعها البطالة بين الشباب . واقترح تينيت ثلاثة إجراءات لمقاومة التمرد السني : إعادة النظر في قرار اجتثاث البعث ، واستعادة جزء من الجيش المحلول ، وتقديم المعونة الاقتصادية لوضع المال بسرعة في أيدي العراقيين . ولكن إدارة الاحتلال لم تأخذ بهذه المقترحات . وأيدت وزارة الخارجية مقترحات تينيت .

عقد اجتماع في البيت الأبيض في ٢٠٠٣/١١/١١ لسماع إيجاز من وكالة

الاستخبارات المركزية عن الوضع في العراق ، برئاسة الرئيس بوش ، وحضور وزيري الدفاع والخارجية ومستشارة الأمن القومي وستيف هادلي وريتشارد آرميتاج وبول ولفوويتز ، ومن الوكالة جورج تينيت وجون كاكلوين وروب ريتشر وبوب غرنيير Bob Grenier مدير محطة الوكالة في بغداد ، وثلاثة من المحللين الاستخباريين . قال الرئيس إنه يريد معرفة حقيقة الوضع في العراق . بدأ أحد محللي الوكالة بشرح عن الوضع في العراق والتمرد القائم فيه ، ودخول تنظيم القاعدة إلى العراق . وقدم مقترحات لمواجهة التمرد وتردي الوضع الأمني . وتضمن الإيجاز نقداً لسياسة بريمر الذي حضر الاجتماع . بعد انتهاء الإيجاز توجه الرئيس إلى بريمر وقال : «ماذا تقول يا بريمر؟» قال بريمر إنه حاول التعرف على قادة العرب السنة فلم يجد أحداً . وردد أن الجيش حل نفسه ولم يعد . أما اجتثاث البعث الذي أثر على موقف السنة فقد تحمس له الشيعة ورفضوا العودة عنه . وذهب إلى القول : لا يمكن عمل أي شيء سوى الاستمرار في خط السير الراهن .

اتصل ضباط وكالة الاستخبارات المركزية بالقادة العرب السنة ، وبأعداد كبيرة من جنرالات الجيش العراقي المنحل ، لكسبهم وإدخالهم في الحكومة العراقية المؤقتة ، غير أن بريمر أفشل جهودهم . واتصل جورج تينيت بالدكتور إياد علاوي لإقناعه بالمشاركة في هذه الحكومة المقترحة مما أثار غضب بريمر ، الذي طلب من مدير محطة الوكالة في بغداد الابتعاد عن علاوي . وتولى علاوي رئاسة الحكومة العراقية في حزيران ٢٠٠٤ .

يرى تينيت أن الإدارة الأمريكية في العراق قد أخطأت في إعادة بناء الجيش العراقي ، إذ بدأت ببناء الجيش على مستوى كتيبة . فالجيوش تبنى من الأعلى إلى الأدنى . تبدأ بتشكيل هيئة فرقة ثم تبنى بعد ذلك هيئات الألوية والكتائب وما يليها من الوحدات العسكرية . يقول الجنرال العراقي محمد الشهواني : «لم تكن الولايات المتحدة تبني جيشاً ، وإنما كانت تدرب سلسلة من الميليشيات بدون لوجستيات محلية أو دعم ، وبدون قيادة محترمة أعلى من مستوى كتيبة . ولا وجود لقيادة وسيطرة عراقية» . واقترح على الأمريكيين إنشاء خمس فرق من الجيش العراقي ، يتلوه تدخل القوات الأمريكية للقيام بالتدريب على مستوى فرقة . وكان الرئيس إياد علاوي عازماً على فعل هذا . ولما جاءت بعثة من وزارة الدفاع الأمريكية برئاسة بول ولفوويتز إلى بغداد واستمعت إلى رأي علاوي ، رفضت اقتراحه بأدب .

أثار تينيت في نهاية مذكراته قصة حصول العراق على الكعكة الصفراء من اليورانيوم من النيجر بشيء كثير من التفاصيل . وتناول الضغوط التي مورست عليه للاعتراف بمسؤوليته عما جاء في خطاب الرئيس بوش (الابن) في سنسناتي في تشرين الأول ٢٠٠٢ . وقد أحدث هذا الاعتراف ضجة إعلامية واسعة بعد صدوره في ٢٠٠٣/٧/١٢ .

وفي صباح يوم ٢٠٠٣/٧/٢٣ ذهب تينيت إلى البيت الأبيض ومعه نسخ من مذكرتين من وكالة الاستخبارات المركزية أرسلتهما بتاريخ تشرين الأول ٢٠٠٢ إلى البيت الأبيض ، تتضمنان الطلب بحذف ذكر الكعكة الصفراء في خطاب الرئيس السالف الذكر . قدم تينيت النسختين إلى ستيف هادلي ، فلما قرأهما شحب وجهه . وقدم نسختين منهما أيضاً إلى أندي كارد Andy Card . وبعد ظهر ذلك اليوم ، اعترف البيت الأبيض بأن وكالة الاستخبارات المركزية أبلغت الكونغرس بأن قصة الكعكة الصفراء قد اختلفت فيها مع الاستخبارات البريطانية .

وعلى أثر ذلك ، قرر جورج تينيت الاستقالة من منصبه مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية التي قدمها في ٢٠٠٤/٧/١١ .

الفصل الخامس

الغزو الأمريكي-البريطاني للعراق
في مذكرات جاك أوكونيل

صدام حسين: صديق أم عدو لأمريكا؟

يخصص جاك أوكونيل Jack O'Connell في مذكراته «مستشار الملك: مذكرات حرب وتجسس ودبلوماسية في الشرق الأوسط. Kings Counsel: A Memoir of War, Espionage, and Diplomacy in the Middle East» التي أعدها مع فيرنون لوب Vernon Loeb وصدرت عن دار النشر W.W. Norton and Co في نيويورك ولندن سنة ٢٠١١، فصلا بهذا العنوان، يتناول فيه تطور العلاقات العراقية الأمريكية منذ بداية الثمانينات في القرن العشرين حتى الغزو الأمريكي للعراق. يقول أوكونيل: «كانت المشكلة الفلسطينية المصدر الرئيسي للعنف وعدم الاستقرار في الشرق الأوسط، منذ الأربعينات في القرن العشرين، بما في ذلك ست حروب (١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣ و١٩٨٢ و٢٠٠٦) وأربعون سنة من الاحتلال العسكري البغيض دون حل. والمصدر الرئيسي الثاني للعنف وعدم الاستقرار في المنطقة المشكلة العراقية. مع أن مشكلة العراق ليست قديمة ولم تدم طويلاً، واشتملت على ثلاث حروب (الإيرانية ١٩٨٠-١٩٨٨، والائتلاف ١٩٩١، والاحتلال الأمريكي (٢٠٠٣) وسبع سنوات من الاحتلال العسكري، فبينهما تشابه كبير. مصر عبد الناصر وعراق صدام فرضا ما تصورته إسرائيل تهديداً لوجودها لا بد من تدميره. لقد أذعنت الولايات المتحدة سراً لتدمير إسرائيل لمصر عبد الناصر، وانتهت بالقيام بالعمل القذر لصالح إسرائيل في العراق-وحتى لو كان البلدان والزعيمان لم يهددا الولايات المتحدة. ومن المفارقة أن كليهما كانا يطالبان بعلاقات ودية مع الولايات المتحدة.

من الصعب تذكر متى كانت الولايات المتحدة مهتمة بإقامة علاقات ودية مع

العراق . ولكن أعتقد أنها حدثت مبكراً في عهد ريغان ، حينما كانت إعادة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين هدفاً لوزارة الخارجية الأمريكية . أتذكر اجتماعاً حضرته في وزارة الخارجية في تشرين الأول ١٩٨٣ مع ريتشارد مورفي Richard Murphy لبحث بعض المسائل الأردنية التي لا أهمية تاريخية لها . خدمنا معاً في عمان في الستينات من القرن العشرين . لما انتهينا من بحث المسائل الأردنية ، استند مورفي إلى الخلف وقال : إن الموضوع الأهم في جدول أعماله الذي يحبطه هو إعادة العلاقات الدبلوماسية مع العراق ، التي قطعها العراق خلال حرب ١٩٦٧ . كان محتاراً ، لأن الدولتين تريدان استعادة العلاقات الدبلوماسية الطبيعية ، ولكنهما كانتا تتحدثان مع بعضهما دون أن يحدث شيء منذ سنة تقريباً . وكمساعد لوزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا ، كنت تحت ضغط من البيت الأبيض لتقديم إجابة عما تم . أخبرته أنني لست مؤهلاً لمساعدته في ذلك .

عدت إلى مكتبي لمقابلة صديق وزبون من نيويورك . كان رجل أعمال عربياً أمريكياً لشركته أعمال كبيرة في سوريا والعراق ، ويتقن العربية ، وعلى معرفة عميقة بقادة الدولتين . وكان أيضاً ملماً واسعاً بالأوضاع السياسية في الشرق الأوسط ، حيث مازال العديد من أفراد أسرته يقيمون . وفي وقت ما زود معاوني صدام حسين بمعلومات سرية عن خطة لاغتيال صدام في رحلة إلى سوريا ، حينما كان لاجئاً سياسياً في مصر قبل وصوله إلى السلطة . لم ينس صدام ما فعله في العراق لما أبعد حزب البعث عن السلطة سنة ١٩٦٣ ، وغادر قادته البلاد ، قدم أحد زبائني من أصدقاء البعث باعطائه ملفاتهم الرسمية لحفظها . وعاد البعثيون إلى السلطة سنة ١٩٦٨ .

أخبرت صديقي بالمحادثة التي جرت بيني وبين مورفي . قال : إن الولايات المتحدة لم تتصرف بالمسألة بصورة ملائمة . إعادة العلاقات مع الولايات لمتحدة هي بقرار من صدام وحده . كان صدام رجلاً معتزاً بنفسه . وإعادة العلاقات تفترض أن يكتب الرئيس الأمريكي رسالة شخصية لصدام يطلب منه عودة العلاقات . ويجب أن تقدم إليه بواسطة موظف أمريكي رفيع المستوى . وهذا ما حدث ، فدونالد رمسفيلد ، مبعوث الرئيس ريغان الخاص للشرق الأوسط ، تقرر زيارته للمنطقة في الشهر التالي في تشرين الثاني ، نيابة عن الرئيس ، دون أن يكون العراق على جدول زيارته . سألت : إذا كان رمسفيلد الرجل المناسب ، فأجاب : إنه الرجل المناسب تماماً .

بعد حوالي عشرة أيام ، عاد صديقي من فرنسا وزارني في مكتبي . سمع سفير العراق قصة صديقي ، وفوراً وبحضوره اتصل هاتفياً بوزير خارجية العراق طارق عزيز في بغداد . قال عزيز إنه سيكون في الصين طوال معظم جولة رمسفيلد ، ولكن إذا كان رمسفيلد قد جاء حاملاً رسالة من الرئيس ريغان إلى صدام ، فان عزيز سيعود من الصين قبل نهاية زيارته بيوم واحد ، وسيقيم على شرفه عشاء تلك الليلة ، ويأخذه لمقابلة صدام في صباح اليوم التالي . وقال بأن النتيجة ستكون إيجابية .

طلبت من صديقي أن يلخص لي نوع الرسالة التي يجب على الرئيس توقيعها ، وأن آخذها معي عند زيارتي لمورفي في اليوم نفسه . قال مورفي الضمان كاف . وقع الرئيس الرسالة ، وأضاف رمسفيلد بغداد إلى جدول جولته . وعاد طارق عزيز مبكراً ، وأقام حفل عشاء . وفي اليوم التالي ١٩٨٣/١٢/٢٠ ، صافح صدام رمسفيلد ، ووافق على إعادة العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة .

كشف عن ملاحظات وزارة الخارجية الأمريكية السرية على الاجتماع سنة ١٩٩٤ . جاء فيها : خلال اجتماع دام تسعين دقيقة مع رمسفيلد ، أبدى صدام حسين سروراً واضحاً من رسالة الرئيس ومن زيارة رمسفيلد . وأزال في ملاحظاته التي أبداها ، أية عقبات باقية في طريق استئناف العلاقات الدبلوماسية . . . وجاء في الملاحظات حول الاجتماع (بالإضافة إلى التوسع في رأيه في العلاقات العراقية-الأمريكية ، قال صدام : إن العراق شعر أيضاً أن عدم القدرة على إقامة علاقات ليست على مستوى دبلوماسي كامل أمر غير طبيعي) . ومن المثير للاهتمام أن الرئيس ريغان استعمل اقتباساً مباشراً من تصريح رمسفيلد إلى وزير الخارجية العراقي في مساء اليوم السابق ، حينما قال : «إن نشأة جيل كامل من العراقيين والأمريكيين دون أن يفهم أحدهما الآخر له مضاعفات سلبية وقد يؤدي إلى تشوشات» .

بينما كانت العلاقات الأمريكية-العراقية قد استؤنفت رسمياً بعد التفاوض في تشرين الثاني ١٩٨٤ ، فإن ملاحظة رمسفيلد حول غياب الإتصال يؤدي إلى سوء تفاهم ومضاعفات سلبية وتشوشات ، تبدو بياناً تنبؤياً لابعاد ملحمية .

توقف رمسفيلد في الأردن في طريقه إلى العراق . وقابل الملك حسين بعد اجتماعه بصديقي ديك فيتس ، الموظف في وزارة الخارجية الأمريكية ، الذي سلم برقية الرئيس كارتر إلى مناحم بيغن بصفته نائب السفير الأمريكي في تل أبيب ،

وهو الآن السفير الأمريكي في الأردن . في حديثه مع الملك ومع فيتس ، عرض رمسفيلد نقاطاً أكثر من الحديث عن استئناف العلاقات الدبلوماسية . وأكثرها مثاراً للخلاف كان نيته في الاقتراح على صدام حسين مد خط أنابيب نفط بين العراق والميناء الأردني العقبة مع فرع إلى حيفا في إسرائيل . ما زال لدى رمسفيلد طموحات رئاسية حول هذه النقطة . وبدا أنه يستمتع برحلته كفرصة لتلميع سمعته كوزن ثقيل في السياسة الخارجية . اقترحت شركة بكتل Bechtel Corporation بناء الأنبوب النفطي الذي يقدم وعداً كبيراً للعراقيين ، الذين كانوا قلقين من قطع الإيرانيين لصادراتهم النفطية عبر الخليج ، والأردنيين الذين كانوا يعتمدون على حسنات السعوديين . كانت إسرائيل الذبابة الكبرى في المرهم دوماً . فهل يقبل الإسرائيليون بمد أنبوب النفط؟ لقد أبدى صدام هذا الخوف من الإسرائيليين في محادثاته مع رمسفيلد ، وقال : إنه سعيد بأن تعود حكومة الولايات المتحدة الآن إلى اقتراح الأنبوب النفطي . ولكن الإسرائيليين في هذه النقطة كانوا موافقين أيضاً لوجود مقترح فرع حيفا . لقد كان كبار الشخصيات في الطائفة اليهودية الأمريكية يعملون بقوة في واشنطن ، من أجل خط الأنابيب والفرع الذي كان من أسباب اهتمام رمسفيلد به .

قيل في ذلك الوقت إن بغداد كانت على الطريق إلى القدس . وهذا يعني أنه ما لم يدخل العراقيون ، ولهم باع طويل في المنطقة ، في عملية السلام ، فلن تكون هناك عملية سلام البتة . وبالطبع ، كان الملك حسين ، إلى جانب المنافع المالية الواضحة مهتماً بأنبوب النفط كوسيلة لمساعدة حليفه صدام حسين ، وإنهاء العزلة العراقية ، والإثبات للغرب أن بإمكانه أن يكون شريكاً اقتصادياً قيماً .

ولكن ديك فيتس كان يعرف أن الملك حسين يعارض بشدة فرع حيفا المقترح ، لأنه يشعر أن العراقيين سينظر إليهم بأنهم يصبون ثروات الشرق الأوسط في إسرائيل . وقد أبلغ رمسفيلد بأنه لا يستطيع تأييد الفكرة .

بعد شهر من جولة رمسفيلد في الشرق الأوسط ، تلقى صديقي العربي الذي رتب زيارة رمسفيلد ، رسالة من معاون لصدام لمقابلته في جنيف . كان واضحاً من الرسالة أن صدام قد أعجب بأن صديقي قد نظم رسالة الرئيس ورحلة رمسفيلد ، وهكذا يجب أن يكون قناة خلفية للرئيس .

جاء في رسالة صدام الجوابية إلى الرئيس ريغان بأنه يود العمل عن كثب مع

الولايات المتحدة في الشرق الأوسط . وكان يرحب بدعوته لزيارة رسمية لواشنطن لبحث التحالف معها . وإذا كانت الزيارة الرسمية ليست عملية آنذاك ، فقد كان صدام ميالاً لمقابلة الرئيس ريغان في أي مكان في العالم . يضاف إلى ذلك أن صدام اقترح إقامة قناة اتصال سرية بينه وبين الرئيس الأمريكي . مسألة واحدة كان صدام مهتماً بها هي بحث الحرب القائمة آنذاك بينه وبين إيران .

نقل صديقي كل هذا إليّ عند عودته من جنيف ، وطلب نصيحتي في من يجب أن يستلم رسالة صدام . فكرت أنه لما كنت أتمتع بثقة وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) ، وهي على علم بصدق صديقي ، فيجب أن تقابل موظفاً كبيراً فيها أعرفه جيداً ، وقد نترك للوكالة أن تنصح الرئيس ، والعودة إليّ وصديقي عند الحاجة .

بعد أسبوعين جاء موظفان من الوكالة إلى مكتب صديقي في نيويورك ، وطلبا منه التعرف على المبعوث العراقي لتجنيده للعمل مع الوكالة . ولكن صديقي رفض ذلك . ولا يوجد أي دليل على أن طلب صدام قد وصل إلى الرئيس أو غادر الوكالة . . . كانت هذه أول الفرص الضائعة العديدة في تعامل الولايات المتحدة مع العراق .

صدام حسين في نظر أوكونيل

يتناول جاك أوكونيل في مذكراته علاقة الملك حسين ، عاهل الأردن ، بالرئيس العراقي صدام حسين . ويرى أن الملك حسين كان يعتقد ، بخلاف شقيقه الأمير حسن ، أن صدام رجل موثوق . وأن الأمير حسن حاول ، لسنوات ، إقناع الملك بالابتعاد عن الزعيم العراقي . وقد وصف نايجل أشتون Nigel Ashton ، أحد كتاب سيرة الملك حسين من معهد لندن للاقتصاد والعلوم السياسية ، ثقة الملك بصدام بقوله : «ربما كانت أكبر سوء تقدير مسلكي في عهده ، وواحدة كان عليه أن يدفع ثمناً سياسياً غالياً لها» . أنا لست متأكداً تماماً أن الأمر كذلك بهذه البساطة . أولاً : اتجه الملك بسياسته الخارجية نحو العراق لأسباب أمنية إقليمية في أواخر السبعينات من القرن العشرين ، بعد أن أخرجت إسرائيل ومصر والولايات المتحدة الأردن من عملية كامب ديفيد . واعتمد الأردن على العراق في تزويده بنفط رخيص مثلما اعتمد عليه في التجارة ، وخاصة في تقديم خدمة الوساطة بتزويد العراق بالأسلحة

من خلال ميناء العقبة ، أثناء الحرب العراقية-الإيرانية . ولا شك في أن صدام كان يحترم الملك حسين . أما عواطف الملك الحارة نحو العراق فقد تكون جذورها أسرية حتى مقتل ابن عمه فيصل الثاني سنة ١٩٥٨ ، حينما كان العراق جزءاً من الاتحاد العربي (الهاشمي) . لما زار الملك حسين بغداد أخذه صدام حسين لزيارة قبر فيصل الثاني ، حيث وضع الزهور على قبر الملك الراحل ، الذي أطيح بانقلاب عسكري سنة ١٩٥٨ . وكان الملك قد أخبرني بذلك ، وكان ممتناً لأنه سمح له بذلك . قال الملك : «كان الجميع يعرفون أننا ذاهبون إلى هناك . جرى عرض عسكري محدود لي ، وضعت الزهور على القبر ، وقرأت الفاتحة وحييت القبر» .

ومرة أخرى ، حينما كان صدام على وشك قتل إبنه عدي لأنه قتل أحد خدمه ، طلبت زوجة صدام الملك حسين في عمان ، وقالت : صدام عازم على قتل ابننا ، أرجوك القدوم إلى بغداد . أخذ الملك حسين طائرة وذهب إلى بغداد ، وتحدث إلى صدام عن قتل ابنه . لا يعرف أحد عن هذه الحادثة . غادر الملك من تلقاء نفسه دون أن يأخذ أحداً معه ، ولم يعلن عن زيارته هذه . ولذا كانت العلاقة بينهما أكثر من رسمية . كان لذلك تأثيره في صدام . وكانت زوجة الأخير تعرف ذلك ، والملك يعرف ذلك أيضاً .

بهذه المقدرة والموهبة لم يرغب الملك في الذهاب معه إلى الحرب ، واعتقد أن دوره يجب أن يقتصر على السعي إلى السلام . كان يشرح له الأمور بطريقة لا يستطيعها إلا قلة من الناس . وكان صدام يصغي إليه . ولم يجلس الملك معي قط لبحث صدام كشخص . أعتقد أنه كان يرى ضعفه ولم يعتبره صديقاً شخصياً . كان يراه شخصية رسمية له معها علاقة ودية . لم يكن لدى كل منهما الكثير ضد الأخر . لم يحاول الملك الإطاحة به ولم يدعم أي معارض لصدام . كان الملك حسين بحاجة لنفط العراق ولمساعدة صدام . كان كل منهما يدعم الأخر ، ولم يكن بينهما تشابه في صفاتهما . وكما قلت كان شقيق الملك الأمير حسن لا يوافقه . كان لدى حسن رأي تقليدي بأن صدام طاغية قاتل . ولكن العلاقة ظلت قائمة وأنموذجاً لاعتقاد الملك بإمكانية الحصول على شيء ، جيد مهما كان شريكه صعباً . وأظهر القدرة نفسها مع عرفات عبر السنين . كان الملك هو الذي أعاد مصر إلى الصف العربي بعد إقامة مصر سلاماً منفرداً مع إسرائيل ، مع أنه كان أكثر الرؤساء العرب الذين لحق بهم أذى هذا السلام . وهكذا قام بأشياء كثيرة بدت مخالفة لمصلحته .

ولكن للهدف المشترك : دعنا نوحد العرب ، دعنا ننسى الماضي ونحقق السلام .

في نهاية الثمانينات ، كان صدام معروفاً جيداً بتقديم المساعدة لكل من له اهتمام بذلك . وكان قاسياً مع معارضيه العراقيين . ولكنه استطاع أن يحافظ على كيان متماسك يضم ديانات متعددة وسكاناً متعددي الاثنيات ، وهو أمر لم يكن ممكناً إلا في ظل حاكم قوي . كان صدام قائداً علمانياً يعارض الدولة الدينية . وقد أدمى إيران في حرب ضد الأصولية الإسلامية . أراد أن يحتل مكانة الشاه كرجل أمريكا في الشرق الأوسط وإقامة شراكة مع شركات الولايات المتحدة الكبرى .

أشار اجتماعه مع رمسفيلد سنة ١٩٨٣ بالتأكيد إلى ذلك . وتابع جهوده من أجل ذلك عبر صديقي العربي لإقامة علاقة عملية مع الرئيس ريغان . ولكن لدي مصدر آخر موثوق أخبرني أن صدام كان مستميتاً في إقامة علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة .

يعتمد أوكونيل رواية اللواء عبود حسن (سالم) رجل الاستخبارات العراقي الذي لجأ إلى الأردن ، والذي بدأ حياته طياراً في سلاح الجو العراقي وكان عضواً في حزب البعث . ولما قام عبد الكريم قاسم بانقلابه الدموي ضد الأسرة الهاشمية سنة ١٩٥٨ ، بدأ بتطهير أجهزة الدولة والجيش من البعثيين ، هرب صدام وآخرون إلى مصر سنة ١٩٥٩ ، وحصلوا على اللجوء السياسي ضيوفاً على الحكومة المصرية لمدة سنتين تقريباً . طار عبود بطائرة ميغ من العراق إلى القاهرة ، حيث انضم إلى صدام والبعثيين الآخرين . وأقام عبود وصدام في غرفة واحدة خلال لجوئهما حتى عودة العراقيين إلى العراق بعد الإطاحة بقاسم . كان عبود يعرف الكثير عن صدام . لجأ إلى الأردن ، وبدأ حياة جديدة تحت وصاية الملك حسين الشخصية ، كرئيس للاستخبارات العسكرية وقائد لسلاح الجو الأردني .

لم يقطع عبود صلته بصدام ، وان يتفق معي في أفكاره عن صدام : قاس وفخور وبراغماتي . مارس صدام العدالة البدائية بإعدام أعدائه دون تردد . ولكنه كان وطنياً عراقياً . قال عبود : لا اهتمام له بالأصولية الإسلامية . والأهم وصف عبود لصدام دوماً بأنه معجب بأمريكا . أخبرني عبود مراراً أن صدام قد يعقد صفقة مع الولايات المتحدة في أي وقت ، وأن بإمكانه ترتيب قناة سرية مع صدام .

بعد قرار مجلس الأمن الدولي رقم (٥٩٨) الذي أنهى الحرب العراقية-الإيرانية في آب ١٩٨٨ ، اعتقد صدام ان الولايات المتحدة والغرب والدول العربية السنية في

الشرق مدينة له بالفضل لمعارضة ثورة الخميني الشيعية ، التي كانت عازمة على نشر ثورتها الأصولية الدينية في العالم العربي . لم ترغب الولايات المتحدة في انتشار ثورة آية الله الخميني ، ولذلك دعمت صدام بالاستخبارات ، من خلال الأقمار الصناعية والأسلحة الخاصة خلال الحرب . والواقع أن الولايات المتحدة والدول العربية مدينة لصدام . في خلاف ما بعد الحرب حول المال الذي أقرضه بعض الدول العربية للعراق للاستمرار في الحرب ، اعتقد صدام أن الديون يجب تحويلها إلى هدايا . فالدول الدائنة بما فيها الكويت نظرت للأمر بصورة مختلفة .

حالما انتهت الحرب ، رأى البعض في إسرائيل في صدام تهديداً لوجودها . وهذا هو السبب ، في رأيي ، الذي دفع الولايات المتحدة إلى تبني وجهة نظر إسرائيل وتجاهل أو رفض توسلات صدام . بانتهاء الحرب العراقية-الإيرانية بدأت تظهر مقالات بالهجوم على العراق في الصحافة العالمية سنة ١٩٨٨ : بأن نصر صدام جعله التهديد الرئيسي للسلام في المنطقة . أثار صدام ، في زيارة للأردن بعد الحرب بقليل ، الموضوع مع الملك حسين . قال صدام إنه محتار . وسأل الملك إذا كانت الولايات المتحدة وراء هذه الحملة . وأخبرت أن مكتباً في البنتاجون كان مدركاً للحملة ضد صدام ، وبحث فيها ونشر دراسة غير سرية حول الموضوع ، مؤكداً وجود مصادر يهودية في الولايات المتحدة وراءها ، وبعد أسبوعين من نشر الدراسة سحبت من التوزيع ولم تظهر بعد ذلك . حاولت الحصول على نسخة منها وفشلت في ذلك .

بحلول ربيع ١٩٩٠ ، دخل صدام الميال للقتال والمولع به ، في حرب كلامية مع الولايات المتحدة وإسرائيل . قال : إن سفن الأسطول الأمريكي في الخليج تهديد للعراق ، وهدد إسرائيل بضربها بالأسلحة الكيمياوية إذا شنت قوات الدفاع الإسرائيلية أي نوع من الهجوم على العراق . والواضح أنه كان يشير إلى قصف قوات الدفاع الإسرائيلية للمفاعل النووي العراقي أوزيراك Osirak سنة ١٩٨١ . ولكن أخطر توتر في المنطقة ، الذي لم يؤخذ مأخذاً جدياً بما يكفي ، كان شكاوى صدام من الكويت التي بدأت مع اعتقاده أن الكويت ودولاً عربية أخرى لم تعف العراق من ديونها عليه أثناء حربه مع إيران . اتهم صدام الكويتيين بزيادة حصتهم في منظمة الدول المصدرة للنفط (OPEC) لتخفيض سعر النفط ، وسلب النفط العراقي من خلال سحبه ، وإقامة مخافر شرطة ومنشآت عسكرية ومزارع على الأرض العراقية على طول الحدود مع العراق .

في هذه النقطة لا يوجد أدنى شك لدى أي فريق بأن شكاوى صدام كانت مشروعة .

اجتماع صدام حسين والسفيرة غلاسبي

يلقي جاك أوكونيل أضواء ساطعة على الموقف الأمريكي من النزاع العراقي-الكويتي لم يسبقه أحد من الساسة والعسكريين الأمريكيين إليه . يقول أوكونيل : «وأخيراً استيقظت الولايات المتحدة على حقيقة أن التوترات كانت تتطور بخطورة ، وأنها كانت بحاجة لوساطة . أرسلت وزارة الخارجية برقية موقعة من وزير الخارجية جيمس بيكر James A. Baker III حول موقف الولايات المتحدة من اندلاع النار العراقية-الكويتية ، قدمتها صديقتي أبريل غلاسبي April Glaspie التي دربتها في منتصف الستينات ، حينما وصلت إلى السفارة الأمريكية في عمان ، كأول موظفة امرأة في السلك السياسي الأمريكي في الشرق الأوسط . والآن بعد خمس وعشرين سنة ، بعد جولات في الكويت وستوكهولم وبيروت والقاهرة ولندن ونيويورك ودمشق ، أصبحت سفيرة في العراق ، أول امرأة ترأس سفارة في المنطقة . جاء في البرقية ما يلي :

«بينما لا نتخذ موقفاً من ترسيم الحدود المثار من العراق بخصوص الكويت أو من أي نزاعات ثنائية أخرى ، فالبيانات العراقية تشير إلى نية لحل الخلافات القائمة باستعمال القوة ، وهذه مقاربة مناقضة لمبادئ ميثاق الأمم المتحدة» .

دعيت غلاسبي إلى اللقاء بصدام في ٢٥ تموز (١٩٩٠) . الطريقة التي أدارت بها الاجتماع ، وعمل الحكومة الرسمي تجاه صدام قبل غزوه الكويت في الثاني من آب ، مازالا موضوع خلاف منذئذ . وقد نظر فيه الكونغرس وحقق فيه الصحفيون ودرسه المؤرخون .

قابلت غلاسبي صدام ، باعتباره رجلاً يعيش بالسيف ، كما قالت للجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب الأمريكي في السنة التالية . ولكنها قابلته أيضاً كرجل باستطاعة الولايات المتحدة التفاوض معه . والرسالة التي سلمتها متناقضة في صياغتها الإنكليزية ، وكذلك كان حالها في الترجمة العربية . والواقع أنها قالت إن المشكلة هي بين العراق والكويت ، وبإمكان الولايات المتحدة أن تتعامل مع الكويتيين على أساس ثنائي . بعد تسلمه برقية بيكر المتناقضة تصور صدام أنه تلقى ضوءاً

أخضر لمعالجة شكواه . قالت غلاسبي في البرقيات السرية التي بعثت بها إلى واشنطن ، وسمح بالاطلاع عليها فيما بعد ، عن صدام : (تأكيده بأنه يريد تسوية سلمية صادقة بالتأكيد . فالعراقيون ملّوا الحرب) . ولكنها أضافت بأنها (بيّنت له بأننا لن نقبل عذراً لتسوية النزاعات بغير الوسائل السلمية) . قال ناقدوها إنها اتخذت موقفاً ضعيفاً ومتساهلاً مع صدام . وهي تهمة أنكرتها فيما بعد في شهادتها أمام الكونغرس . وعلى أي حال ، يجب أن لا تلام على سوء تقدير صدام . وكما كشفت الأحداث ، فإن حجتها بأن صدام رغب في حل سلمي للأزمة قد تم تأييده-إذا كانت الولايات المتحدة راغبة في التفاوض على شروط منها : سحب قوات صدام من الكويت .

في الإدارك المتأخر لما حدث ، لا شك أن اتصالات إدارة بوش (الأب) بصدام لم تكن منسجمة ، وكانت بالتأكيد مضطربة . بعد اجتماع غلاسبي بصدام بثلاثة أيام ، أرسل الرئيس بوش رسالة لصدام من ثلاث فقرات ، اعتقد بعض موظفي وزارة الدفاع الأمريكية أنها كانت ضعيفة جداً ، وحاولوا إيقافها دون نجاح . وجاء فيها :

«سررت حينما علمت بالاتفاق بين العراق والكويت على البدء بمفاوضات جدّة لإيجاد حل سلمي للتوترات الراهنة بينكم . لكل من الولايات المتحدة والعراق مصلحة قوية في الحفاظ على السلام والاستقرار في الشرق الأوسط . ولهذا السبب نعتقد بأن الخلافات من الأفضل حلها بالوسائل السلمية وليس بالتهديد باستعمال القوة العسكرية أو الحرب .

أرحب أيضاً بتصريحكم بأن العراق يرغب في الصداقة ، وليس في المواجهة ، مع الولايات المتحدة . دعني أؤكد لك ، كما فعلت سفيرتي والشيخ روبرت دول Robert Dole وغيرهما بأن إدارتي مستمرة في رغبتها في إقامة علاقات أفضل مع العراق . وسنواصل دعم أصدقائنا الآخرين في المنطقة الذين لنا معهم صلات متينة طويلة الأمد . ولا نجد تناقضاً ضرورياً بين هذين الهدفين .

وكما تعرف ، ما زال لدينا مخاوف أساسية حول سياسات ونشاطات عراقية معينة ، وسوف نستمر باثارة هذه المخاوف معكم بروح الصداقة والصراحة ، كما فعلنا في الماضي ، من أجل تحقيق تفاهم أفضل لمصالحكم ونواياكم ولضمان أن تفهموا اهتماماتنا . اتفق كلياً بأنه يجب على حكومتينا الحفاظ على قنوات الاتصال مفتوحة بيننا لتجنب سوء التفاهم ، ومن أجل بناء أساس دائم لتحسين علاقاتنا» .

بعد أيام شن صدام هجوماً علي الكويت في ٢ آب ، بإرسال أربع فرق من حرسه الجمهوري عبر الحدود . وأعلن حالاً ان دولة الكويت أصبحت المحافظة التاسعة عشرة في العراق . وخلال أسابيع اختفت رغبة الإدارة الأمريكية في التفاوض لإنهاء الاحتلال . لم يعد يكفي سوى إخراج القوات العراقية بالقوة العسكرية . لا شك أن أبريل غلاسبي أصبحت كبش فداء لفشل الإدارة الأمريكية . كانت في لندن في طريق عودتها إلى الولايات المتحدة حينما غزا صدام الكويت . لم تعد إلى السفارة في بغداد ، مع أنها احتفظت بلقب سفيرة لحوالي سنة واحدة .

كانت تشعر بالمرارة تجاه الطريقة التي عوملت بها ، ولكنها لم تفصح عن ذلك علناً . كانت امرأة نبيلة في موقفها وجندية جيدة لم تبد شكوى . لم يكن لديها شهود . كانت هكذا ببساطة . ولم يكن لدى إدارة بوش أي أسلوب لتوجيه اللوم إليها للفشل في تحذير صدام ، وهو مالم تفعله بوضوح . وأخيراً عينتها وزارة الخارجية قنصلاً عاماً في جوهانسبورغ ، حيث أحيلت على التقاعد أثناء عملها هذا .

هاتفتها حين صدر كتاب ريتشارد هاس Richard Haas . «حرب الضرورة ، حرب الاختيار : مذكرات حربي العراق War of Necessity, War of Choice: A Memoir of Two Iraq Wars» سنة ٢٠٠٩ ، لأنبهها بأن أحداث تموز وآب ١٩٩٠ من المحتمل عودتها ثانية في الأخبار . أرسلت إليها الكتاب وأخبرتها أنني لست متأكداً إذا كانت ترغب في الحديث إليّ حول أي شيء من هذا . ولكن يبدو أن لا شيء من هذا يقلقها . قالت لي : «لا يوجد شيء لم أقله لك يا جاك» . حكم هاس في الكتاب على إنجاز أبريل وإنجاز إدارة بوش التي خدم فيها كمستشار سام في هيئة مجلس الأمن القومي يبدو عادلاً في تقدير الأمور المتأخر .

انتقدت كل من السفيرة غلاسبي والإدارة الأمريكية لأنهما لم يعملا ما يكفي لإقناع صدام بعدم الهجوم . لا أعتقد أنه في تلك الظروف كان بإمكاننا أن نفعل أكثر مما فعلنا ، أو أن أي شيء كان بإمكاننا فعله أن يحدث فرقاً . كان صدام قارئاً انتقائياً للتاريخ . ومن الواضح منذ لقائه بغلاسبي في ٢٥ تموز أنه قد رأى الولايات المتحدة ناعمة الموقف . كان ذلك الدرس الذي تعلمناه من فيتنام ، وأحدث منه وأقرب إليه الانسحاب من لبنان سنة ١٩٨٤ ، بعد قصف مشاة البحرية هناك في السنة السابقة . وللتأكد من ذلك فإن تصريحات العديد من موظفي الإدارة بأنه ليس لدينا التزام تحالفي رسمي مع الكويت كانت ، لسوء الحظ ، قد عززت هذه الانطباعات . وكنا كلنا

تقريباً على خطأ في إسقاط احتمال غزو صدام للكويت . يبقى ، في مناسبات عدة ، كانت الولايات المتحدة تعلن التزامها نحو أصدقائها ، وبقيت قوات الولايات المتحدة في المنطقة لتأكيد هذا الالتزام . لم يكن بإمكان السفيرة أو أي شخص آخر أن يهدد صدام بمصداقية وبمستوى ردة فعل من وزن ما فعلته الولايات المتحدة والعالم في حرب الخليج . من المهم أن نتذكر قلة احترام صدام لزملائه العرب . فقد استبعد بالتأكيد احتمال اجتماعهم حول الكويت المكروهة على نطاق واسع ، والوقوف في وجهه . ما زلت أتذكر القاعدة الصغيرة التي احتفظ بها بوب غيتس على مكتبه والعبارة المكتوبة عليها : (الوسيلة المثلى لتحقيق المفاجأة الاستراتيجية التامة هي القيام بعمل أحمق أو مناقض كلياً لمصلحتك الذاتية) .

تحالف أحمد الجلبي والمحافظين الجدد في الإدارة الأمريكية

حاول جاك أوكونيل في مذكراته عرض أهداف المحافظين الجدد في إدارة الرئيس بوش (الابن) في الشرق الأوسط بعامة وفي العراق بخاصة . يقول في هذا الصدد : «في الحرب العراقية الثانية كان المحافظون الجدد في المواقع الرئيسية في السلطة . لم يكن بإمكانهم إملاء السياسة فحسب ، وإنما كان بإمكانهم تغليفها بآرائهم العقائدية . لم يكن هدفهم في العراق التخلص من صدام فحسب ، وإن كان ذلك متطلباً سابقاً ، وإنما تحويل العراق إلى قاعدة ديمقراطية تحت الهيمنة الأمريكية ، باستطاعتها نشر الديمقراطية في المنطقة . لم أصدق بول ولفوويتز Paul Wolfowitz ، نائب وزير الدفاع الأمريكي ، وأحد قادة المحافظين الجدد ، حينما تكلم قبل الحرب عن نشر الديمقراطية في الشرق الأوسط . فهو والآخرون من المحافظين الجدد لا يعرفون عما كانوا يتحدثون ، واتصالهم الوحيد بالشرق الأوسط كان مع إسرائيل . لم يكن لأي منهم أي اتصال حقيقي أو ذي معنى مع العالم العربي .

لم يكن جورج بوش (الابن) وديك تشيني من المحافظين الجدد . كان تعاملهم السياسي مع أرييل شارون بما عرف بالحرب على الإرهاب التي استغلوها لبسط سلطة الرئيس وتمديد عهده . ولكن متابعة بوش-تشيني للحرب على الإرهاب ، ورغبة المحافظين الجدد في نشر الديمقراطية في الشرق الأوسط ، اشتملت على القضاء على صدام . والحل لكليهما قدمه أحمد الجلبي ، الذي بدون مشاركته ما كان لحرب الخليج الثانية أن تقوم . فهو ابن رجل أعمال شيعي ثري في العراق ، غادر البلاد بعد

سقوط نظام الحكم الهاشمي . تخرج من معهد ماساشوستس للتكنولوجيا (MIT) Massachusetts Institute of Technology بمرتبة الشرف . وأنشأ بنك البترا في الأردن في السبعينات . وكان بنكه متساهلاً في منح القروض للمتنفذين ، ولا يقيم علاقات مصرفية مع أولئك الذين يتعاملون مع العراق ، بسبب كراهيته لصدام حسين . في منتصف سنة ١٩٨٩ ، اتهم الجلبي بالاختلاس ، بعد أن قرر فاحصو الحسابات أن الودائع في بنك البترا ، ثالث بنك في البلاد ، مفقودة . هرب الجلبي من الأردن لتجنب الاعتقال ولجأ إلى إنكلترا . وكان يوزع وقته بين بيوته في لندن وواشنطن . حوكم وأدين سنة ١٩٩٢ من قبل محكمة عسكرية أردنية غيابياً ، وصدر حكم عليه بالحبس (٢٢) سنة .

سمعت عن الجلبي في الأردن ، ولكنني تعرفت عليه في واشنطن من خلال ديك فيتس ، الذي كان يعرفه جيداً من سنوات خدمته سفيراً في عمان ، واعتبره صديقاً جيداً . لما التقينا لأول مرة في أواخر التسعينات ، قال الجلبي إنه يعرف أنني كنت رئيس محطة وكالة الاستخبارات المركزية سابقاً ، وأراد أن يعرف إذا كان باستطاعتي مساعدته في إصلاح علاقاته مع الوكالة التي طردته . جاء قرار الفصل في آذار ١٩٩٥ ، حينما كان الجلبي رئيساً للمؤتمر الوطني العراقي المقيم في لندن . كما كان وراء مؤامرة للهجوم على القوات العسكرية العراقية من قاعدة يسيطر عليها الأكراد في شمال العراق . وعشية الهجوم الذي خطط له موظفو وكالة الاستخبارات المركزية ، تراجع موظفو الوكالة في المقر الرئيسي وأخبروا الجلبي بأنهم سحبوا دعم الوكالة للهجوم .

في أيلول التالي ، هاجم الجيش العراقي قاعدة المؤتمر الوطني العراقي وأنزلوها تاركين ضباط وكالة الاستخبارات المركزية والآلاف من مؤيدي المعارضة العراقية يفرون إلى تركيا . اتصلت بقسم الشرق الأدنى في وكالة الاستخبارات المركزية لأعرف علاقتهم السيئة مع الجلبي . تبين لي بسرعة أن الأمور كانت أسوأ مما تصورت . أخبروني أن الجلبي كان على القائمة السوداء ومحروقاً . واعتقدوا أنه رجل مخادع ، وكان سيئاً ومتورطاً في عدة أكاذيب بحيث لا يمكن الثقة به . لم يرد على هذه التهم . أعتقد أن ذلك كان آخر لهاث له وراء الوكالة . ثم طلب مني خدمة أخرى . كان يتلقى دفعات مالية من وزارة الخارجية الأمريكية بموجب قانون تحرير العراق Iraq Liberation Act ، الذي صدر عن الكونغرس في أيلول ١٩٩٨ بدعم من

إدارة كلنتون . وقد خصصت (٩٧) مليون دولار مساعدات دعم أساسية للمؤتمر الوطني العراقي برئاسة الجلبي ، وحوالي ست مجموعات معارضة عراقية . قال الجلبي إن وزارة الخارجية كانت تمتنع باستمرار عن دفع الدفعات له بدون سبب . فهل باستطاعتي تسهيل الدفعات؟ قلت : أشك في ذلك . وتبين لي أنني لا أستطيع ذلك .

ولما أخبرته بذلك قال : ظن أنه بإمكانه أن يتجاوز وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية . وجدت ذلك غريباً : أجنبي بمفرده وبدون أية أوراق اعتماد خاصة يتحدى وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية . الشخص الوحيد الذي كان فوق هاتين المؤسستين هو رئيس الجمهورية . قلت له : هل ستذهب للرئيس؟ قال : كلا وإنما سأذهب إلى الكونغرس . قانون تحرير العراق يحظى بدعم الحزبين مع رئيس الأكثرية في مجلس الشيوخ ترنت لوت Trenet Lott الجمهوري من ولاية مسيسيبي ، الذي يتولى المهمة . أيد بول ولفوويتز الذي ينتظر دوره في إدارة جمهورية جديدة ، فكرة قيام تمرد عراقي يطيح بصدام بدعم من العسكريين في الولايات المتحدة . وقع ولفوويتز والمحافظون الجدد في حب الجلبي . قال لهم كل شيء أحبوا أن يسمعوه : إسقاط صدام سيكون في غاية السهولة . وسوف يستقبل العراقيون القوات الأمريكية بالأحضان والأزهار . وبذل الجلبي جهداً كبيراً لتزويد المحافظين الجدد بالمعلومات المرغوب فيها ، وقدم لهم مصادر استخبارية زودتهم بمعلومات تبين فيما بعد أنها كاذبة .

لم تقتصر اتصالات الجلبي في الإدارة الأمريكية على المحافظين الجدد . حينما كنت مرة أتناول طعام الغداء معه في مقر الكونغرس Captiol Hill بالقرب من مكتبه في واشنطن ، غادر قبل أن ينهي الغداء ، لأن نائب الرئيس ديك تشيني جاء ليأخذه لمقابلة الرئيس في البيت الأبيض ، مهما كانت أجندة ديك تشيني فقد كان للجلبي أجندته الخاصة به-أن يكون رئيساً لوزارة العراق . مرة أخرى كان الهدف المشترك لهما القضاء على صدام حسين . طبعاً ليس للجلبي قاعدة شعبية في العراق لينجح في الانتخابات النيابية ، ولا يستطيع كسب عدد من النواب يجعله رئيساً للوزراء . وليس باستطاعة المحافظين من السياسيين المقبولين من التوجه السياسي نفسه ، في الانتخابات . ولكن هذه مجرد تفاصيل يمكن أن تثير السخرية في بغداد فيما بعد .

قبل الحرب وأثناءها وبعدها ، قابلت الجلبي مراراً في واشنطن ولندن . في معظم

هذه الاجتماعات كان يرافقني ديك فيتس . بدا أن الجلبي يستمتع بها . كان منفتحاً في الحديث عن خططه ونشاطاته . وحاول إقناعنا بقيمة ما كان يفعله ، وسعى إلى نيل موافقتنا . وبينما كانت لدي شكوك في صدقه ، لم أشك في سحره وقدرته على الإقناع . كان لكل شيء بقوله أو يخطط له ثماره . وكانت توقعاته دقيقة جداً . ومع أنه لم يتول قط وظيفة رفيعة المستوى ، لا يجاريه أحد في مكائده من وراء ستار .

لتمهيد الطريق لرئاسة الحكومة العراقية ، قال : عليه أن يدمر بنية السلطة القائمة في العراق ، المكونة من صدام حسين والجيش العراقي وحزب البعث . كان ذرائعياً في إزالة هذه القوى الثلاث . في اجتماع في لندن في طريق عودته إلى العراق ، قال لنا إنه عائد للعراق لضمان حل الجيش . كان سؤالنا أن ذلك يعني زوال القوة الوحيدة القادرة على حفظ القانون والنظام . قال : إن الجيش قد سبق وحل نفسه . عاد الجنود إلى بيوتهم ونهبت ثكناتهم . في الواقع أن المبعوث الذي يدير نشاطات الحكومة الأمريكية في بغداد ، بعد غزو العراق مباشرة بول بريمر Paul Bremer أبلغ الرئيس بوش في أيار عن خططه لحل الجيش العراقي . كان حل الجيش خطأً واضحاً اعترف به فيما بعد .

قال الجلبي إن له مؤيدين في إسرائيل وفي إيران . قال لنا إن أحد أعماله الأولى حينما يتولى السلطة سيكون الاعتراف بدولة إسرائيل . قال إنه يريد زيارة إيران ، غير أن الولايات المتحدة عارضت ذلك . في سنة ٢٠٠٤ قال ضباط الاستخبارات في الولايات المتحدة ، أن الجلبي أبلغ الاستخبارات الإيرانية أن الأمريكيين قد فكوا الشيفرة الإيرانية ، وكان باستطاعته قراءة الرسائل التي تبعث بها إيران عبر العالم . أنكر الجلبي هذه التهمة ، واستأجر محامين في واشنطن سألوا وزارة العدل من أفشى بالتهم التي وجهت إليه . وظهرت من جديد معلومات عن صلة محتملة للجلبي مع إيران في مطلع سنة ٢٠١٠ ، حين قال قائد القوات الأمريكية في العراق الجنرال ريموند أوديرنو Raymond Odierno في مجموعة من المفكرين إن الجلبي كان متأثراً بشكل واضح بإيران ، ولدى الولايات المتحدة المعلومات الاستخبارية التي تثبت ذلك .

وفي وقت آخر تناول الجلبي في محادثاتنا عدداً من المسائل . قلت له إنه قد استخدم من قبل المحافظين الجدد المؤيدين لإسرائيل لخدمة أغراضهم . قال مبتسماً ببرارة وسخرية إن الأمر عكس ذلك ، هو الذي استخدمهم وهو يرى أن المحافظين الجدد

من اليهود الذين تعامل معهم أناس طيبون . والإثبات أنه لم يكن عميلاً إسرائيلياً ، أكد أن الموساد ، جهاز الاستخبارات الإسرائيلية ، كان ضده ، دون أن يذكر تفسيراً لذلك . وحقيقة الأمر هي أن الجلبي كان أذكى من الأمريكيين الذين تعامل معهم ، ودامت العلاقة بينهما لأن الفريقين كانا يخدم كل منهما مصالح الآخر . كان الجلبي رجلاً طموحاً له جدول أعماله الخاص به بغض النظر عن النتيجة» .

يعطي أوكونيل أهمية كبيرة لأحمد الجلبي ، ويعتقد أن دوره في إقناع الإدارة الأمريكية برئاسة جورج بوش (الابن) بغزو العراق ، وتدمير المؤسسات العراقية ، ولا سيما الجيش والأجهزة الأمنية ، واجتثاث حزب البعث ، كان كبيراً .

الفصل السادس

الغزو الأمريكي-البريطاني للعراق
في مذكرات توني بلير

محاولة توني بلير الدفاع عن موقفه من غزو العراق

في مذكرات توني بلير Tony Blair ، رئيس الوزراء البريطاني السابق ، وعنوانها : «رحلة : حياتي السياسية A Journey: My Political Life» الصادرة في نيويورك وتورنتو عن دار النشر Alfred A.knopf سنة ٢٠١٠ ، البالغ عدد صفحاتها (٧٠٠) صفحة ، حديث عن غزو العراق واحتلاله يمتد على مئة وخمس صفحات . كانت هذه الصفحات في معظمها دفاعاً عن موقفه المؤيد لغزو العراق واحتلاله ، ورداً على خصومه السياسيين ومعارضي الحرب في المملكة المتحدة وأوروبا ، ومحاولة يائسة لتبرير الغزو والاحتلال .

يبـدأ بلير حديثه عن غزو العراق بقوله : «بينما كنت أفكر في كيفية الإجابة عـن السـؤال الـذي وجه إلي في نهـاية شـهـادتي أمام لجنة تحقيق تشيلكوت Chilcot Inquiry في الحرب العراقية في كانون الثاني ٢٠١٠ ، شعرت بالمرض وبمزيج من الغضب والكرب . كان السؤال : هل تأسف على شيء؟ لم يكن هذا سؤالاً يسأل أو يجاب عنه في تأمل هادئ للروح ، وليس شيئاً يمكن وزنه واعتباره وتفسيره بتفكير عميق ووضوح ثاقب أو حتى بأمانة سهلة . كان سؤالاً عنواناً ، ويحتاج إلى جواب عنوان . إذا أجبت بنعم فإنني أعرف النتيجة : (بلير يعتذر عن الحرب) و(أخيراً قال آسف . . .) اختر بينهما ، وسيكون الانطباع نفسه . سوف يبتهج الذين عارضوا الحرب ، وسوف يرتعب أولئك الذين أيدوا الحرب ، متصورين أن تأييدهم وفي بعض الحالات تضحياتهم كانت عبثاً . وإذا كان الجواب (لا) ، تبدو كما لو كنت أعجمَ قاسي الفؤاد وغير ميال للمعاناة أو ربما أسوأ من ذلك ، ومقاوماً عنيداً ليس بسبب القوة وإنما لأنك لا تعرف عمل أي شيء .

قلت سأتحمل المسؤولية وقبول قراري وتجنب العنوان الذي قد يخونني . ومهما يكن كان ذلك جواباً ناقصاً . والغضب لوضعي في تحقيق من المفروض أن يكون حول الدروس التي تعلمناها من الحرب . ولكنه تحول إلى محاكمة قضائية ، وحتى حول حسن النية أمام بعض أسر الذين سقطوا في الحرب ، والذين أردت الاتصال بهم . ولكن لو عرفوا أنني فعلت ذلك فإن معانقتهم سيساء إستعمالها ويساء تفسيرها . ولكن الغضب كان أنانياً ومبتذلاً نسبياً على أي حال وعابراً .

أما الكرب فيبقى . والجزء الرئيسي منه ليس أنانياً ، بعضه نعم ومؤكد . فهل يفترضون حقاً أنني لا أهتم ولا أشعر ولا آسف مع كل عرق ينبض من وجودي بخسارة أولئك الذين ماتوا؟ ليس الجنود البريطانيون وحدهم وإنما أولئك من الأمم الأخرى والغالبية بالطبع من الأمريكيين ، وكذلك اليابانيين والهولنديين والدنماركيين والاستونيين والاسبان والإيطاليين وجميع المشاركين في ائتلافنا ، والعراقيين أنفسهم وليس فقط الذين ماتوا على يد قواتنا في الحرب ، والذين فشلنا في الحيلولة دون موتهم ، والدبلوماسيين أمثال سيرجيو فييرا دو ميلو Sergio Vieira de Mello ، الذين أعطوا حياتهم لقضية لم يدافعوا عنها ، والإصابات العشوائية لأهواء الحرب مثل كين بيجلي Ken Bigley والحرس الخاص الذين أخذوا رهائن مع بيتر مور Peter Moore .

إن عدم المبالاة بذلك يعد ضلالاً لا إنسانياً وعاطفياً . ولكن لم يكن ذلك الاتهام سبب الكرب . فالكرب ينشأ من شعور بالحزن لا يمكن وصفه بالحديث أو بطعنة الشفقة التي تشعر بها عند سماع أنباء مأساوية . فالدموع ، على كثرتها ، لا تحتويها . أشعر بالأسف اليائس نحوهم ، آسف على حياتهم التي قصفت ، وآسف للعائلات التي فقدت أفرادها ، وأصبح الأسوأ الخلاف على لماذا مات أحبابهم ، وآسف للانتقاء غير العادل لاختيار محبيهم للموت . لماذا كان عليهم أن يفقدوا ابنهم أو أزواجهن أو أسرهم في ذلك الوقت ، وفي ذلك المكان في تلك المرحلة أو المهمة والموعد؟

السبب له صلة بقراري . والفرص التي لا تحصى تجمعت لفقدان كل حياة . وينشأ الكرب من ضرورة العمل والالتزام والشعور ولكن من أجل العمل . لقد تجاوزت الآن مجرد التعبير عن الشفقة . أشعر ان كلمات التعزية والتعاطف غير كافية تماماً . لقد ماتوا وأنا صانع القرار في ظروف أدت إلى موتهم ، وما زلت حياً . استعملت كلمة (المسؤولية) مع أنها غير كاملة عن قصد» .

بعد هذا التأبين الدرامي الفلسفي لضحايا غزو العراق واحتلاله ، يعود بلير ليقول حول مسؤوليته في هذا الغزو والاحتلال : «لا أستطيع إبداء الأسف على قرار الذهاب إلى الحرب للسبب الذي سأعطيه . باستطاعتي القول إنني لم أفكر بالكابوس الذي انفتح . وهذا أيضاً جزء من المسؤولية . ولكن فكرة المسؤولية لا تدل على عبء معفى وإنما على عبء مستمر . قد يبدو الأسف مرتبطاً بالماضي . أما المسؤولية فلها توترها في الحاضر والمستقبل .

وحتى خارج السلطة ، أقوم الآن بدور مختلف كلياً . ما زلت مرتبطاً بالكفاح نفسه الذي أدى إلى ظهور الأحداث التي سوف أصفها . حينما أقول إنني أفكر بالعراق وبأفغانستان وبنتائجهما وضحاياهما كل يوم من حياتي فذلك صحيح . ولكن أكثر من ذلك ، أستعمل ذلك التفكير لإعادة الالتزام بمعنى لا هدف لعمل لم يكتمل بعد . لا أستطيع بأي تعبير عن الأسف أن أعيد الحياة إلى الموتى . ولكن باستطاعتي تكريس جزء كبير من حياتي الباقية لذلك الكفاح الأوسع ، ومحاولة شحنه بالمعنى والهدف والعزم ، والإبقاء على مسؤوليتي كاملة تعمل بطريقة صغيرة أو كبيرة . لا أستطيع القول أسف بالكلمات ، وإنما باستطاعتي الأمل في أن أفتدي شيئاً من مأساة الموت بأعمال حياتي التي ما زالت مستمرة» .

في هذه المقدمة التأبينية الفلسفية ، يحاول بلير تحديد مسؤوليته في إشراك بريطانيا في غزو العراق واحتلاله . وينتقل منها لمناقشة المسألة العراقية قبل الدخول في تفاصيل علاقته بالرئيس جورج بوش (الابن) ، وتصميمهما على احتلال العراق وتدميره .

يقول بلير في تحليله لمواقف مختلف القوى السياسية والاجتماعية البريطانية : «المزعج في مناقشة المسألة العراقية هو أن الناس ، على العموم ، توقفوا عن الإصغاء لبعضهم بعضاً . هناك عدد من الملتزمين بين الجمهور أكبر مما يظن بوجه عام . وفي تجربتي الشعب مقابل اللاعبين السياسيين والمعلقين والمتمسكين بآرائهم والمعجبين بالسياسيين ، ولديهم تقدير فطري لعملية اتخاذ القرار المعقدة . إنهم يتوصلون إلى رأي بالغريزة ، وهم مستعدون لتغييره من وقت لآخر . إنهم يفهمون القيادة كعمل صعب . ولديهم عملية للتعليل مختلفة عما لدى السياسيين . . . في هذه الأيام لا يفكرون في العراق كثيراً . ولكن إذا فعلوا يبقون بشكل معقول منفتحين للاقتناع .

ولا ينطبق هذا على أولئك الذين يشعرون بقوة ولديهم اهتمام جدي بذلك .

آراؤهم مكونة ، ولديهم الحكمة التقليدية لاسيما بين التقدميين ، وقد تصلبت حتى غدت كالغرانيت . وهي آراء سلبية . يقولون إن جميع القرارات التي اتخذتها خاطئة ، وحتى تلك التي اختلف أقرب اصدقائي معي حولها . لم يختلفوا ببساطة معي ، ولكن وجدوا من الصعب فهمها . فصديقي القديم جيف غالوب Geoff Gallop اعتاد عدم مخالفتي الرأي وإنما يقول : لا أفهم لماذا فعلت ذلك يا توني؟ يعرف العديد من المؤيدين لي بأنني فعلتها لدوافع صحيحة ، ولكنهم ما زالوا يعتبرونها (لطخة) في سجل رائع . وبالطبع أولئك الذين لا يؤيدونني يعتبرونها برهاناً على النذالة .

أفهم تماماً لماذا يتبنى أناس هذا الرأي . الهدف المعلن للحرب هو تنفيذ قرارات الأمم المتحدة بشأن أسلحة صدام للدمار الشامل ، ولم نجد هذه الأسلحة بعد أن سيطرنا على البلاد . واعتقدنا بوجود برنامج فاعل لأسلحة الدمار الشامل ولم يكن كذلك . بعد إزالة صدام في أيار ٢٠٠٣ حدث تدمير دموي وفوضى . لو وجدنا أسلحة دمار شامل فعلاً فإن النظرة ستكون مختلفة . ولو أنهينا الحرب في أيار ٢٠٠٣ ، وكان ما بعد الحرب مثل ما حدث في كوسوفو ، فإن النقاش سيكون بعيداً وأكاديمياً . ولكن الحرب العراقية بدأت تفكك مبرر الحرب .

هذا سبب واحد ومفهوم تماماً لحكمة تقليدية . ولكن هناك سبباً آخر . السياسات تعمل اليوم بالرجوع إلى نماذج الرأي العام Paradigms of Opinion المكونة ، والتي تتصلب بسرعة ثم تصبح عملياً غير قابلة للتحدي . لدى الناس قليل من الوقت للتأمل والاعتبار ، توزن القضايا بسرعة وبقليل من العناية . وتصدر الأحكام بسرعة وقسوة ، بحيث يتم تحاشي عملية طوعية أطول . وحالما تتكون هذه الأحكام تكتب قصص لتعزيزها . والقصص المناقضة يتم تجاهلها حتى يتم تحدي الأحكام واقعياً واعتبارها وهمية . التوازن فكرة غريبة في عالم اليوم . إنه يحتاج لآراء مؤكدة بسرعة . لهذه الأغراض كانت مهمتي متواضعة! ليس لإقناع القارئ بصواب الفكرة ، ولكن لمجرد إقناع الناس بأن فكرة كهذه يمكن تحقيقها . إنها لفتح الذهن ، غالباً ما فكرت : ربما كنت على خطأ . أطلب منك أن تفكر باحتمال أن أكون على حق» .

يناقش بلير تقارير الاستخبارات الغربية حول امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل ، في محاولة لإقناع القارئ بالخدعة التي وقع فيها هو والرئيس بوش أو بالخدعة التي أوقعا شعبيهما فيها : «معلومات الاستخبارات عن صدام وأسلحة

الدمار الشامل تبين أنها غير صحيحة . قيل-حتى إنني قلت-إن هذه أصبحت هكذا أحجية . لماذا يجب على صدام أن يبقي المفتشين خارج العراق لمدة طويلة إذا لم يكن لديه شيء يخبئه؟ وحتى لما سمح لهم بالدخول لماذا وضع العراقيل أمامهم؟ ولماذا جلب الحرب لبلاده لحماية أية أسطورة؟» هذه الأسئلة التي يطرحها بلير وبوش في مذكراتهما الجواب عليها سهل وبسيط ، لأن العراقيين أدركوا من سلوك المفتشين وأسئلتهم وحركاتهم أنهم يبحثون عن أمور أخرى ليست أسلحة الدمار الشامل . وكان معظمهم يعملون جواسيس للولايات المتحدة الأمريكية . كما اعترف بذلك الرئيس بوش (الابن) في مذكراته .

بلير يؤكد اتهام العراق بإنتاج أسلحة الدمار الشامل

يعود بلير في مذكراته إلى الحديث عن لجنة تحقيق تشيلكوت فيقول : «لما أعدت النظر في المعلومات الخاصة بأهداف لجنة تحقيق تشيلكوت ، أعدت قراءة التقرير النهائي لمجموعة مسح العراق Iraq Survey Group Report لسنة ٢٠٠٤ . وأخذت وقتاً أكثر للتأمل في فحواه . وتم تجميعه من قبل الفريق الأمريكي-البريطاني برئاسة الدكتور ديفيد كاي David Kay ثم بعد ذلك من قبل تشارلز دولفير Charles Duelfer لكشف الحقيقة عن صدام وأسلحة الدمار الشامل . وقد نشر التقرير على مرحلتين : الأولى حين كان ديفيد كاي رئيساً للفريق ، وانتهى سنة ٢٠٠٣ إلى أن صدام ليس لديه برنامج فعال لأسلحة الدمار الشامل . وقد احتل عناوين الأخبار ، وأدى إلى الرأي القائل بأن معلومات الاستخبارات مزورة ببساطة ، وأن صدام كان مذعناً بوضوح لقرارات مجلس الأمن الدولي ، وأن الحرب لا مسوغ لها . وقد أهملت التحذيرات التي أدخلها الدكتور كاي إلى حد كبير ، بما في ذلك تأكيده أن صدام كان تهديداً محتملاً أكبر مما نعرف عنه . وهي ملاحظة اعتبرت في وقتها دون تفسير في ضوء الموجودات الأولية .

لم ينشر التقرير الثاني الذي أعده تشارلز دولفير حتى أيلول ٢٠٠٤ . ونال اهتماماً أقل مع أنه احتوى تحليلاً كاملاً . وتحت ضغط تحديات الوقت في العراق لم أتمكن من استيعابه تماماً . وبعد بضع سنوات نشر تشارلز دولفير كتابه الذي وصف فيه بالتفصيل تجميع التقرير . ولأغراض لجنة تحقيق تشيلكوت درست التقريرين ، فاتضح لي ما لم يكن واضحاً من قبل .

لقد نظمت مجموعة مسح العراق بقيادة دولفير مقابلات مع الشخصيات الرئيسية في نظام الحكم العراقي، وأعلى مساعدي صدام. وفي عملية استثنائية دامت بضعة أشهر، قام عميل مكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكية (F.B.I) جورج بيرو George Piro بتأمين لقاءات مع صدام نفسه. وقد كشف الفريق عن أشرطة تسجيلات لاجتماعات صدام مع كبار الموظفين، الذين بحث معهم مشروع أسلحة الدمار الشامل. ظهرت القصة الحقيقية التي تستحق القراءة. بعد فرض العقوبات على العراق، أصبح نظام حكم صدام مقيداً بشدة. وغدا القيد أقسى حينما أذيع ما كشفه صهر صدام عن الاهتمام المتواصل بتطوير أسلحة الدمار الشامل للعالم سنة ١٩٩٦.

اتخذ صدام قراراً تكتيكياً، وأصبحت سياسة صدام منذ منتصف التسعينات التخلص من العقوبات بأي ثمن. أغلق برنامج أسلحة الدمار الشامل الفعال. وقد وزعت المواد التي لم يدمرها مفتشو الأمم المتحدة سنة ١٩٩١. وكان صدام يعرف أن ليس باستطاعته المغامرة بإنتاج أسلحة الدمار الشامل ومحاولة إخفائها. وعلى أي حال، فقد أبقى على اعتقاده بالأهمية الاستراتيجية لأسلحة الدمار الشامل، لنظام حكمه ولبقائه. واعتقد أن استعمال السلاح الكيمياوي حيوي لصد الجنود الإيرانيين الممتلئين حماسة دينية، حينما كانوا يلقون بأنفسهم في موجات ضد القوات العراقية في الحرب العراقية-الإيرانية. واعتقد أن استعمالها فقط يعوض التفوق العددي للقوات الإيرانية. وقصف الأكراد بالغازات السامة، موجهاً ضربة عسكرية وأخرى نفسية لآمالهم في تحدي صدام. وهكذا لعبت هذه الأسلحة دوراً محورياً في قمع التمرد الداخلي. عرف صدام أن إيران كانت قد حصلت على سلاح نووي، وأن لدى إسرائيل هذه الأسلحة. ولذلك فإن حصوله على القدرة النووية يخدم هدفه الأساسي: أن يكون القوة المهيمنة في العالم العربي.

ولذا أخفى حقيقة أو أزال أي دليل على برنامج فعال لسلاح نووي أو كيمياوي أو بيولوجي. ومهما يكن، فإن ما كشفته مجموعة مسح العراق هو أن ذلك كان مجرد قرار تكتيكي لوضع برنامج كهذا معطلاً، وليس قراراً استراتيجياً للتخلي عنه نهائياً. واستنتجت مجموعة مسح العراق ما يلي:

(أراد صدام حسين إعادة بناء قدرة العراق على إنتاج أسلحة الدمار الشامل-التي دمرت سنة ١٩٩١-بعد إزالة العقوبات وبناء الاقتصاد العراقي. ولكن من المحتمل،

بمزيج مختلف من القدرات الموجودة سابقاً . أمل صدام بتطوير قدرة نووية -بصورة إضافية ، بغض النظر عن الضغط الدولي والمخاطر الاقتصادية الناجمة عن ذلك- ولكنه قصد التركيز على الصاروخ البالستي والقدرات الحربية الكيمياوية التكتيكية) .

يقول بلير إن هذه الخلاصة عن الأسلحة النووية قد عززها عملياً تقرير بتلر Butler في تموز ٢٠٠٤ ، مع أنه كان قد كتب قبل التقرير الكامل لمجموعة مسح العراق في أيلول ٢٠٠٤ . وخلص تقرير بتلر إلى ما يلي :

(نتيجة لمراجعتنا ، وآخذين في الحسبان الاثبات الذي وجدته مجموعة مسح العراق واستجواب الموظفين العراقيين ، توصلنا إلى الاستنتاج أنه قبل الحرب كان لدى نظام الحكم في العراق النية لاستئناف متابعة برامج الأسلحة المحظورة ، بما في ذلك ، عند الإمكانية ، برنامج الأسلحة النووية ، عند تخفيف أنظمة تفتيش الأمم المتحدة وزوال العقوبات أو رفعها) .

ويواصل بلير سرده لقصة الطموح الاستراتيجي العراقي ، مؤكداً أنه وفرق التفتيش التابعة للأمم المتحدة على حق . يقول في هذا الصدد : «ومتابعة لهذا الطموح الاستراتيجي ، أبقى صدام على العلماء والفنيين الضروريين لإعادة بناء هذا البرنامج . واستورد سلعاً للاستعمالين متجاوزاً العقوبات . وحافظ على المختبرات مغلقة على مفتشي الأمم المتحدة ، بحيث يمكن بسرعة إعادة تشغيلها ، لأغراض أسلحة الدمار الشامل . وقد مولت هذه النشاطات باستعمال غير مشروع لبرنامج النفط مقابل الغذاء ، الذي بموجبه سمح بشراء الغذاء والأدوية ببعض عائدات النفط .

وبناء على معلومات كبار الموظفين العراقيين الذين استجوبتهم مجموعة مسح العراق ، احتفظت مصالح الاستخبارات العراقية بين سنتي ١٩٩١ و٢٠٠٣ بمجموعة من المختبرات السرية غير المعلن عنها ، للبحث ولفحص مختلف المواد الكيمياوية والسموم . وذهبت إلى القول : ليس لدى مجموعة مسح العراق دليل على أن مصلحة استخبارات العراق وعلماء مديرية علم الجريمة (MI-6) تنتج أسلحة كيمياوية وأسلحة بيولوجية في هذه المختبرات . وعلى أي حال ، تشير المصادر إلى أن MI-6 كانت تخطط لإنتاج مواد عديدة للأسلحة الكيمياوية ، بما في ذلك سلفور الخردل . ونتروجين الخردل ، والسارين .

ولم يعلن العراق عن وجود هذه المختبرات وعملها والغرض منها للأمم المتحدة . ظهر هذا في المقابلات التي قامت بها مجموعة مسح العراق ، التي كانت بالطبع ، النقطة التي تمسك بها هانس بليكس في تفتيشه بين تشرين الثاني ٢٠٠٢ وآذار ٢٠٠٣ . . وهكذا فإن الحقائق الصحيحة مختلفة عن تلك التي اعتقدنا أنها صحيحة في آذار ٢٠٠٣ .

والخطر الذي أبديناه سنة ٢٠٠٣ كان واضحاً جداً ، لو أن المفتشين بقيادة بليكس لم يحصلوا على المقابلات لربما توصلوا إلى الاستنتاج خطأً بأن صدام قد تخلى عن طموحاته في إنتاج أسلحة الدمار الشامل ، ورفعت عنه العقوبات ، وربما كان من الصعب جداً ممارسة الضغط على نظام حكم تبين أنه نظيف . وعندها سيكون لدى صدام النية والمعرفة الفنية ، ومع ارتفاع أسعار النفط قوة شرائية هائلة» . يعقب بلير على هذا العرض بقوله : «نقطتي هنا ليس للإقناع بأننا كنا على حق في إزالة حكم صدام ، وإنما فقط لجعل أولئك الذين ينتمون إلى الحكمة التقليدية أن يتوقفوا قليلاً ويفكروا . لا أزعم أن هذه الأطروحة لا تقبل الجدل ، وبأننا لو فشلنا في العمل سنة ٢٠٠٣ لبرز صدام أقوى ومنافساً لإيران في مجال أسلحة الدمار الشامل ، وفي دعم الإرهاب في المنطقة . .»

يحاول بلير أن يبرر الغزو والاحتلال بالتخلص من صدام حسين ، ويتساءل : «هل العراق أفضل الآن مما كان عليه في عهد صدام؟» ويجيب : «يوجد حقيقة جواب واحد ذي معنى : طبعاً . أفضل تقدير لأولئك الذين ماتوا تحت حكم صدام هو التالي :

- في الحرب العراقية-الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨) من (٦٠٠) ألف إلى (١,١) مليون مجمل الموتى من الطرفين (المصدر : Anthony Cordesman, The Lessons of Modern Wars, Vol.2.p.3) .
- حملة الأنفال ضد الأكراد ١٩٨٨ حوالي مئة ألف قتيل كردي بالاضافة إلى أعداد المصابين والمهاجرين (المصدر : Human Rights Watch, Genocide in Iraq, 2003) .
- غزو الكويت سنة ١٩٩١ (حرب الخليج) (٧٥) ألف قتيل (المصدر : Milton Leitenberg, Deaths in Wars and Conflicts in the 20th Century, Peace Studies Program) .

- حملات الانتقام ضد الشيعة سنة ١٩٩١ (٥٠) ألف قتيل (المصدر : Milton Leitenberg) .

- مجموع من قتل من السياسيين عبر السنين (١٠٠) ألف أو أكثر (المصدر : Human Rights Watch, Justice Needed for Iraqi Government Crimes, December 2002) .

يذكر بلير عن أحوال العراق في عهد صدام : «مع وصول صدام إلى السلطة سنة ١٩٧٩ ، كان العراق أغنى من البرتغال أو ماليزيا . ومع سنة ٢٠٠٣ كان ٦٠٪ من سكان العراق يعتمد على المعونة الغذائية ، وملايين منهم في المنفى . إن إحصائية أخرى تخبرنا كيف كان عراق صدام . بلغ عدد الموتى من الأطفال تحت سن الخامسة ، حسب مصدر الأمم المتحدة سنة ٢٠٠٢ (١٣٠) في الألف ، إنه رقم أسوأ مما كان عليه في الكونغو . ومع ٢٠٠٧ إنخفض هذا الرقم إلى (٤٠) في الألف نتيجة إدخال برامج التغذية والحصانة (مع الاحتلال الأمريكي-البريطاني) .

آراء بلير في الحكام والشعوب العربية

يرد توني بلير في مذكراته على مؤيديه الذين انتقدوه بلطف ، واعتبروا مشاركته في غزو العراق واحتلاله «غلطة ارتكبها عن حسن نية» ، وعلى أصدقائه المعادين للحرب الذي يتهمونه بالعناد ، وعلى الأخرين الذين يعتبرونه مخادعاً ، ويقول : «افتحو عقولكم» . . . دعنا نعود إلى سنوات ٢٠٠١-٢٠٠٣ . هناك أسلوبان لوصف ما حدث : أحدهما بالرجوع إلى علم نفس صنع القرار ، والثاني بالعودة إلى تسلسل الأحداث . سأبدأ بطبيعة القرار . أولاً : ربما باعتماد الأسلوب الأول يجب التخلي عن نظرية المؤامرة كجزء من القصة . لم تكن هناك كذبة كبرى عن أسلحة الدمار الشامل . بإمكانكم فحص المعلومات الاستخبارية التي تلقيتها على شبكات الحكومة العنكبوتية المختلفة . تقارير لجنة الاستخبارات المشتركة The Joint Intelligence Committee نشرت عبر السنين ، وكلها تقول ببرنامج كيمياوي وبيولوجي نشيط . كان هناك أولئك الذين في مجتمع الاستخبارات الدولي تجادلوا في مدى هذا البرنامج ، ولكن لم يجادل أحد في وجوده . وصدر قرار مجلس الأمن الدولي رقم (١٤٤١) في تشرين الثاني ٢٠٠٢ بالإجماع» .

ثم عاد بلير للتذكير بطبيعة نظام حكم صدام الاستبدادية : «أكتب هذا ليس

لتسويغ حرب ٢٠٠٣ ، وإنما لنتذكر شعوراً خزنّاه في أعماق ذاكرتنا ، كيف كان العراق في ظل حكم صدام . كانت حكومته داخلياً مصدراً لوحشية مرعبة وقمع شديد ، وخارجياً سبباً لعدم الاستقرار والنزاع . بعض هذه الصفات نجدها في تقارير من سنة ١٩٩٩ . كان وضع حقوق الإنسان في العراق في تدهور ، وكان قمع الحقوق المدنية والسياسية مستمراً دون هوادة . . . ويبقى أن هذا النظام كان تهديداً للأمن والسلام في المنطقة . . .

النقطة هي أنه بينما ولا واحد من هذه الأمور يبرر الحرب ، فإنه من الحماقة التمسك بفكرة أن بوش أشّر بقلم على الأطلس وقرر بوضوح الذهاب إلى الحرب . صحيح أن ما حدث في حرب الخليج ، حينما اتخذ القرار بعدم الذهاب إلى بغداد بعد طرد العراقيين من الكويت ، أثر في تفكير الولايات المتحدة» .

ويرد بلير على القائلين بأن النفط كان من دوافع غزو العراق بقوله : «في الحقيقة لو كان النفط هدفنا ، فقد كان بإمكاننا عقد صفقة مع صدام ، وعندها سيكون على إستعداد لإعطاء المزيد مقابل رفع العقوبات والتهديد بالتفتيش» . كما يرد على القائلين بأن ٢٠٠١/٩/١١ كان وراء غزو العراق بقوله : «أنا لا أقول ذلك . صحيح أن البعض في الإدارة الأمريكية اعتقد بوجود صلة بين القاعدة والعراق . وصحيح أيضاً بوجود استخبارات قوية بأن صدام سمح للقاعدة بدخول العراق في منتصف سنة ٢٠٠٢ ، وأنه كان مستعداً لدعم الإرهاب ، كما فعل بدفع المال لعائلات الانتحاريين الفلسطينيين ، غير أن التقرير للتهديد لم يكن مبنياً على تمويل صدام للإرهاب أو للجماعات الإرهابية» .

يرى بلير أن حادثة ١١ أيلول ٢٠٠١ «كانت إعلان حرب شاملة لهدف بدافع ديني ، ولذلك كان نوعاً مختلفاً عن أي شيء واجهه العالم من قبل» . ولكن هذه الحادثة أثارت قلق العالم الغربي من استعمال أسلحة الدمار الشامل وانتشارها ، وانتقال هذه الأسلحة إلى أيدي الجماعات الإرهابية .

يبين بلير خطأ القائلين إن سياسة الولايات المتحدة كانت منذ ١٩٩٨ تهدف إلى تغيير نظام الحكم في العراق ، بينما كانت سياسة بريطانيا تقوم على علاقة العراق بأسلحة الدمار الشامل . ويقول : «لذلك يقال إننا كنا على طرفي نقيض . والواقع أن المملكة المتحدة جرّت إلى الوقوف إلى جانب الولايات المتحدة» . ويرى أن قانون تحرير العراق Iraq Liberation Act الصادر سنة ١٩٩٨ مرتبط بامتلاك العراق لأسلحة

الدمار الشامل وعدم إذعانه لقرارات الأمم المتحدة .

يذهب بلير إلى احتمال تحالف الأنظمة العربية المتطرفة المعادية للغرب مع الجماعات الإرهابية الإسلامية ؛ لأنها تجتمع على كراهية الغرب وثقافته وقيمه وحداثته . ويرى أيضاً أن الأنظمة الحاكمة العربية الصديقة للغرب لا تسيطر على مجتمعاتها المعادية للغرب بوجه عام ، والرافضة للتحديث . وهذه أحكام لا أساس لها في الواقع ، ولا تدل على فهم سليم للواقع العربي ولتطلعات الشعوب والمجتمعات العربية .

وتظهر هذ النظرة السطحية في تفكير بلير عند تناوله موقف الحكام العرب من إسرائيل ، وموقف شعوبهم منها . فيقول : «يريد القادة السلام من حيث الأساس . . . وبينما أرادوا في وقت ما استعمال القضية الفلسطينية . يريدون الآن حلها ، وإزالتها من طريقهم ومن جدول أعمالهم» . ويرى أن الحكام العرب «قد يكرهون إسرائيل ولكنهم لا يخشونها ، أما إيران فالموقف منها مختلف يتسم بالأسف» .

أما النظرة الشعبية إلى إسرائيل فمختلفة . يقول بلير : «إن قراءة خاطفة للصحف المحلية العربية قد تشير إلى أن إسرائيل مكروهة على مستوى الشارع وبين المعلقين المثقفين . لقد أصبحت وسيلة لصرف النظر عن المطالبة بالتغيير في الداخل» .

يرى بلير أن المنطقة العربية «بحاجة إلى تغيير جذري ، وهذا التغيير له طابع مختلف» . يقول بلير : «في الثمانينات من القرن العشرين سلحنا صدام ، مثلما سلحنا المجاهدين في أفغانستان ، وذلك من أجل أن نقاوم إيران من جهة والاتحاد السوفياتي من جهة أخرى . كانت حركة تكتيكية ولكنها غلطة إستراتيجية . هذه المرة سنجلب الديمقراطية والحرية . سوف نسلم السلطة للشعب . وسوف نساعدهم لبناء مستقبل أفضل . لن نجلب مجموعة من السادة المختلفين ، ولكن سنجلب الفرصة لاختيار سادة كما فعل شعبنا معنا . . . لدينا القوة العسكرية لأمريكا ، حتى لا نقول قوة بريطانيا وغيرها» . وفي دعوة تبشيرية للتعاون مع الغرب يقول بلير : «دع قيم الديمقراطية تمتد جذورها ، دع التنمية الممولة من الغرب تساعد الشعب على الازدهار ، وتدخل إلى القلوب في العالم العربي ، ليروا فوائد المقاربة الحديثة في العمل والمتعة والحياة . وسوف تنهار الصورة عن الغرب كأعداء وكفار ، ويصبح لا معنى لها» .

يعزو بلير العنف والقتل في العراق ، في ظل الاحتلال الأمريكي-البريطاني ،

إلى تنظيم القاعدة وإيران . «ومع ضعف إرادتنا قويت إرادتهما» . «إن إزالة صدام قدمت فرصة للقوى الإرهابية والمعادية للديمقراطية لبث الاضطراب في البلاد ، وسبّب حرباً دموية» .

يقول بلير : «المشكلة هي أن العدو الذي نقاتله في العراق وأفغانستان قد اكتشف وجهاً مهماً جداً من النفسية الغربية الحديثة : نريد أن تكون معاركنا قصيرة وناجحة . إذا تحولت إلى معارك دامية طويلة وغير مؤكدة تضعف إرادتنا . وبخاصة خسارة جنودنا تضعف معنوياتنا ، وتبعث الإحباط فينا . وبدلاً من إثارة مشاعر الغضب أو التصميم أو حتى الانتقام ، فإنها تثير شعوراً بالألم لا تستحقه لمعركة كبيرة جداً وثقيلة جداً وحاملة جداً للحزن» .

في وصفه للمقاومة الوطنية العراقية للاحتلال الأمريكي-البريطاني يقول بلير : «والحقيقة هي أنه كان في العراق حربان : واحدة قصيرة نسبياً بهدف إزالة صدام ، وواحدة طويلة للتخلص في فترة ما بعد الحرب من طاعون الإرهاب المسبب لعدم الاستقرار . في هذه الحرب الثانية سقطت أعداد رهيبة من الإصابات بين المدنيين المسلمين العراقيين الأبرياء ، وجنود الولايات المتحدة وبريطانيا والحلفاء . . . لم تكن هذه الحرب كحرب السويس ، حينما حاولت بريطانيا وفرنسا الإطاحة بناصر سنة ١٩٥٦ ، ضد رغبة أمريكا ، وفشلتا في ذلك ، ولم تكن كحرب فيتنام التي كانت معركة ضد تمرد أصيل ، وإن لم تنل دعماً عاماً في البلاد التي انتصر فيها المتمردون» .

يذكر بلير النتائج التي ترتبت على العقوبات التي فرضت على العراق وعلى احتلاله ، فيقول : «في مطلع ٢٠٠٣ بدأت ليبيا مفاوضاتها للتخلص من برامجها النووية والكيمياوية ، وقدمتها ودمرتها فعلياً . وفي تشرين الأول ٢٠٠٣ عادت إيران ، التي صدمت في البداية من عمل الولايات المتحدة ، إلى التفاوض حول برنامجها النووي للمرة الأولى منذ آب ٢٠٠٢ . وعادت كوريا الشمالية إلى المفاوضات السداسية التي طلبها الرئيس بوش . وتوقفت نشاطات عالم الذرة الباكستاني عبد القاهر خان . وانسحب ناشرو ومونو مواد أسلحة الدمار الشامل إلى جحورهم» .

أثر هجمات ١١ أيلول ٢٠٠١ في السياسة الأمريكية والبريطانية نحو العراق

يرى توني بلير أن أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ قد غيّرت من الحالة العقلية في الولايات المتحدة تغييراً جذرياً وأساسياً . فقد أدركت القيادات الأمريكية

أن المتطرفين الإسلاميين قد أعلنوا الحرب على الولايات المتحدة . وتغيرت نظرة الإدارة الأمريكية نحو العالم ، وتكونت نظرة جديدة . وغدت الإدارة الأمريكية تعتبر الدول التي أوت الإرهابيين أو ساعدتهم أعداء محتملين لها ، وكذلك الدول التي تسعى إلى إنتاج أسلحة الدمار الشامل . كما تصورت احتمال التقاء المجموعتين : الإرهابيين والدول الشريرة التي تطور أسلحة نووية وكيمياوية وبيولوجية . في اجتماع الدول الكبرى الثماني سنة ٢٠٠٢ تم الاتفاق على تخصيص مليارات الدولارات لحماية أو إزالة أماكن أسلحة الدمار الشامل في دول الاتحاد السوفياتي سابقاً . ووافقت هذه الدول على الالتزام بإصدار تشريعات شاملة ضد الإرهاب ، وشددت على مكافحة تبييض الأموال التي قد ترتبط بالتجارة بأسلحة الدمار الشامل أو بالإرهاب ، وهزيمة أية مجموعات متطرفة تثير التطرف .

ويروي بلير في أول لقاء له مع الرئيس بوش (الابن) ، ما دار بينهما حول العراق : «في الاجتماع الأول مع جورج بوش في شباط ٢٠٠٢ في منتجع كامب ديفيد أثير موضوع العراق في إطار قرار العقوبات الجديد الذي وصفته سابقاً . ولكن لم يكن هناك شعور بالإلحاح . كان جورج قد بدأ ببناء قاعدة يمينية قوية في الولايات المتحدة قادرة على مساعدته لانتخابه مرتين . وركزت خاصة على التعليم وإصلاح الضرائب . كنا على اتفاق جيد . . . وتبقى الحقيقة أنه محافظ وأنا تقدمي . لم توجد قضايا اجتماعية عديدة نتفق عليها» .

ويتابع بلير حديثه عن العراق فيقول : «منذ قصف بغداد في كانون الأول ١٩٩٨ ، كان النشاط الدبلوماسي والعسكري المتقطع مستهدفاً صدام ، دون تحقيق كثير من النجاح . وبعد إعادة انتخابي في حزيران ٢٠٠١ ، كان هنالك نقاش دائم بين الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والفرنسيين والألمان والروس حول نظام العقوبات الجديد ، الذي جعل صدام يعيد مفتشي الأمم المتحدة إلى العراق . كان هنالك اهتمام دائم بمصالح روسيا التجارية . ولما بحثت وفلاديمير العقوبات في تموز ٢٠٠١ في قمة الدول الثماني في جنوا ، قال مازحاً إنه مؤيد لها شريطة أن نعوضه بثمانية مليارات دولار ، وهي ديون روسيا على العراق .

كان لدى الولايات المتحدة خطط لتكرار تجربة ١٩٩٨ ، إذا رفض صدام الانصياع . ولكن الإطار كله ، من ناحية مبدأية ، كان ضغطاً دبلوماسياً ثابتاً وغير ملح ، مع أني كنت أشد المدافعين عن العمل القوي ، ولم أكن أفكر بإزاحة صدام

بالقوة . . . في آب ٢٠٠١ أبلغنا القادة العسكريون الأمريكيون والبريطانيون ، الذين يحرسون المناطق المحظورة الطيران في جنوب العراق ، أن التهديد لطائرات الائتلاف قد ازداد بصورة ملموسة . وفي نهاية آب كانت طائرات F-16 الأمريكية تعمل فوق البصرة ، دون أن تذكرها نشرات الأخبار .

مع الهجوم على نيويورك وواشنطن في ١١ أيلول ٢٠٠١ ، تغير كل شيء . وكما أوضحت سابقاً ، تغيرت فجأة طبيعة التهديد الأمني من مستوى متدن إلى مستوى ذي أهمية فائقة ، من تهديد يمكن التعامل معه في وقته إلى تهديد ملح ومباشر وضاغط ومهين .

فجأة انقلب الموقف الأمريكي . كان صدام يذكرنا بمعارك الماضي ، لقد هزمناه وتركناه في موقعه لسخط العديدين . ولكن لم ينظر إليه كتهديد . ولم نشعر أن التهديد المباشر زاد ، ولكن دخل في اعتقاد الأمريكيين أن الهجوم كان مذعراً وخطيراً في مضامينه ، وبأنه لا بد من إعادة صياغة العالم . والبلاد التي كانت حكوماتها مكروهة ، ومتسامحاً معها ، أصبحت بين عشية وضحاها أعداء محتملين ، لا بد من مجابهتها ، وتغيير الموقف منها أو تغيير حكامها . وفوق ذلك كله ، كان هنالك شعور بالطوارئ . في هذا الوقت كان العجز عن العمل يعد عملاً بنتيجته ، وهذه النتيجة قد تكون عكسية . وفي تلك اللحظة لم يكن الخوف من حكم التاريخ الخوف الذي جاء بالعمل وإنما بعدم العمل . كيف أن تغيير العالم غدا تحدياً شديداً لا بد من الاستجابة له أو عدم الاستجابة أو شله بعدم القرار ، واعتبار المخاطر العظمى ذات الهامش الواسع .

كان السؤال المباشر : كيف التعامل مع ابن لادن والقاعدة وطالبان؟ كان واضحاً أن الولايات المتحدة مرنة في المسائل الأوسع للتعامل مع أسلحة الدمار الشامل . أصدر الرئيس بوش في تشرين الثاني ٢٠٠١ تحذيراً عاماً لتلك الحكومات التي تطور أسلحة الدمار الشامل وللعراق خاصة ، لإعادة المتفتشين التابعين للأمم المتحدة . وقد ذكّرت مجموعة من الحزبين في مجلس الشيوخ الأمريكي جورج بوش برسالة شديدة اللهجة في مطلع كانون الأول ٢٠٠١ ودعته لإزالة صدام من السلطة ، مؤكدة أن سياسة الولايات المتحدة هي تغيير النظام في العراق .

في كانون الثاني ٢٠٠٢ ، وتحت الضغط ، بدأ صدام بعملية استئناف التفاوض مع الأمم المتحدة حول مفتشي الأسلحة . وكان إذعانه لقرارات الأمم المتحدة في حده

الأدنى» . يضع بلير جدولاً بقرارات مجلس الأمن الدولي التي لم يذعن لها العراق ، وهي القرارات ٦٦١ لسنة ١٩٩٠ و٦٨٦ و ٦٦٩ و٦٨٨ و٧٠٧ و٧١٥ لسنة ١٩٩١ و٩٤٩ لسنة ١٩٩٤ و١٠٥١ لسنة ١٩٩٦ و١٢٨٤ لسنة ١٩٩٩ . يقول بلير إن موقف الولايات المتحدة انقلب رأساً على عقب . كان العراق على جدول أعمال الإدارة الأمريكية . وهناك موقف مسبق يقوم على الاعتقاد بأن صدام رجل لا يمكن تصحيحه . وكان هناك تأكيد بأنه يعمل على تطوير أسلحة الدمار الشامل ، وأن العالم سيغدو أفضل بدون وجوده في السلطة . كل هذا مؤكد . ولكن يحتاج إلى طريق طويل لاتخاذ القرار بذلك . يرى بلير أن صدام لو عمل ما عمله القذافي في ليبيا بالإعلان عن تدمير برامجه لتطوير أسلحة الدمار الشامل لحلت المشكلة . ولو فتح أبواب بلاده لمفتشي الأمم المتحدة وأدان هجمات ١١ أيلول ، وبيّن أنه فهم قواعد اللعبة ، لوجد عقلاً منفتحاً لدى الأمريكيين والدول الغربية الأخرى .

يؤكد بلير أن قرار مجابهة صدام دخل في ذهن القيادة الأمريكية من ١١ أيلول ٢٠٠١ ، ويقول : «أنا أعرف لأني كنت أتحدث إلى جورج بوش خلال ذلك» . ويرد على القائلين بالإعداد العسكري الأمريكي المسبق لغزو العراق : «طبعاً تشير الناس الآن إلى حقيقة وجود تخطيط عسكري ، وأن الدبلوماسية كانت مجرد عرض مظهري كلها . هكذا تخطيط كان لا بد منه ، وهو صحيح ، ليس لأن الحرب كانت حتمية ، ولكن لأنها كانت خياراً ، وذلك الخيار لا بد من التخطيط له» .

يواصل بلير حديثه عن تغيير نظام الحكم في العراق : «المرة الأولى التي تناولناه بالطريقة المناسبة ، كان في زيارتي لكروفورد ، حيث مزرعة جورج بوش في تكساس في نيسان ٢٠٠٢ . . . في هذا اللقاء تحدد موقفي بأن إزاحة صدام ستقدم للعالم بعامة والشعب العراقي بخاصة خدمة . ومع أني أعرف أن تغيير النظام قد لا يكون سياستنا ، فقد نظرت إلى التغيير بحماسة وليس برعب . في خطابي في شيكاغو سنة ١٩٩٩ أعلنت المبدأ الجديد «مسؤولية الحماية ، responsibility to protect» ، أي أن أي حكومة لا تستطيع أن تكون مطلقة الحرية في قمع مواطنيها واتخاذ موقف وحشي منهم . وقد نفذتها في كوسوفو وسيراليون .

بسبب المصاعب التي يقتضيها عمل كهذا ، ولأن الحرب يجب أن تكون الملجأ الأخير وليس الأول ، توصلت إلى استنتاج أكيد بأن باستطاعتنا عملها فقط على أساس عدم الرضوخ لقرارات الأمم المتحدة . مع أن صدام كان طاغية ، لم يكن

بالإمكان إزالته بالاستناد إلى ذلك المبدأ فقط» .

رد بلير على ما قاله السفير البريطاني في واشنطن عن أن بلير عزم على تأييد أمريكا أثناء لقائه ببوش في كروفورد ، بقوله : «وفي وقت لاحق ، جاءت أسطورة أخرى تحت الأضواء ، مبنية على ملاحظة للسفير البريطاني آنذاك لدى الولايات المتحدة السير كريستوفر ماير Sir Christopher Meyer . فقد زعم أنه في كروفورد وعدت بالدم بأن أدعم أمريكا ، ووقعت لتغيير نظام الحكم في العراق . ثم تحدثت عنه في خطاب تكساس في اليوم التالي . والواقع أنه لم يكن حاضراً في الاجتماع مع بوش ، ولم يكن حتى في المبنى نفسه ، ولم أقدم أي التزام . والواقع أنني أكدت ضرورة اتباع سبيل الأمم المتحدة . وخطابي في تكساس كان منسجماً مع تصريحاتي الرسمية الأخرى . ولكنها الأسطورة ، حالما تولد تصبح الحقيقة . وعلى أي حال كنت واضحاً حول شيئين : الأول أن على صدام الرضوخ لقرارات الأمم المتحدة ، وأن سنوات العناد وعدم التعاون لا بد أن تنتهي . والثاني أن على بريطانيا أن تبقى جنباً إلى جنب مع أمريكا . وهذه ليست سياسة فجة أو بدون تفكير كما تبدو ، ولا تعني أننا ضحينا بمصالحنا لصالح الولايات المتحدة ، أو أننا عقدنا صفقة ثانوية خارجة عن سياستنا الخارجية . إنها تعني أن التحالف بين دولتين مصلحة إستراتيجية حيوية ، وفيما يتعلق بي ، رصيد إستراتيجي لبريطانيا» .

تبرير بلير لتعاونه مع جورج بوش في غزو العراق

حاول توني بلير في مذكراته أن يبرر تعاونه مع الولايات المتحدة الأمريكية في غزو العراق واحتلاله ، بالتأكيد على أن الخطر الذي تواجهه الولايات المتحدة خطر على بريطانيا في الوقت نفسه ، وعلى العلاقة الخاصة بين الدولتين باعتبارهما حليفتين . يقول في هذا الصدد : «اعتبرنا الهجمات على الولايات المتحدة هجمات علينا . واتخذنا موقفاً يجعلنا حقاً في حرب معاً بمصالح مشتركة لتحقيق حصيلة ناجحة . واعتقدت آنذاك ، كما أعتقد الآن ، أن ليس باستطاعة الولايات المتحدة أن تتحمل خسارة هذه المعركة ، وأن مهمتنا كحليف يواجه تهديداً مشتركاً هي أن يكون معها في وقت الحاجة . أعرف أن هذا كله قد يبدو سخيفاً ، أو حتى كما يريده بعضهم ، خادعاً للنفس في نطاق تأثيرنا على صناعة القرار في الولايات المتحدة . كنت مدركاً جيداً أن الولايات المتحدة ستتخذ في النهاية قراراتها وفقاً لمصالحها .

ولكن كنت أدرك أيضاً أنه في العالم الذي يتشكل حولنا ، سوف تواجه بريطانيا وأوروبا مستقبلاً مشكوكاً فيه بدون أمريكا . ودعنا نكون واضحين ، ما كان بالإمكان هزيمة الشيوعية بدون أمريكا . وتحالفنا مع الولايات المتحدة مهم . تجربتي في الحاجة إلى بيل كلنتون للعمل في كوسوفو ، وما فعله ، هي التي أنقذت البلقان . وقد أظهرت أن لدينا أسباباً حديثة وليست تاريخية لمعرفة حاجتنا لأمريكا . وهكذا لما احتاجوا إلينا ، هل كان بإمكاننا أن نرفض أو في الحالة الأسوأ أن نأمل بأن ينجحوا دون مشاركتنا؟ فكرت وشعرت بوزن التحالف وبتاريخه ، ليس بصورة ضاغطة ، ولكن بإصرار وبشعور بالواجب وبضرورة العمل ، وبدعوة لأن أكون بجانبهم ، وليس بعيداً عنهم ، حينما يشعرون بالخطر .

في المؤتمر الصحفي في مكتبة مدرسة كروفورد ، حيث كان علما الولايات المتحدة والمملكة المتحدة خلفنا ، وجهنا رسالة قوية ، أساسها : غيِّر الموقف من مفتشي أسلحة الدمار الشامل أو واجه مشروع تغيير نظام الحكم . وخلف الأبواب المغلقة كان حديثنا ، على أي حال ، أكثر انسجاماً . اشتركنا في التحليل حول طبيعة حكم صدام وخطره على الأمن ، وأيضاً على المشكلة الأوسع للمنطقة . كان اهتمامي آنذاك وبعده وضع مسألة صدام في الإطار الأوسع للشرق الأوسط كمنطقة في تحول . وحتى آنذاك رأيت المسائل الميئوس منها ، بوضوح أكثر من اليوم ، كجزء من الصورة نفسها . لذلك اقتربت من جورج بوش من أجل عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية . فبالنسبة إلي كان هذا عنصر القوة الناعمة الذي يعادل عنصر القوة الخشنة الذي كان ضرورياً ، إذا كان لا بد من إزالة صدام» .

يواصل بلير حديثه عن القوة الناعمة : «في أعقاب انتفاضة سنة ٢٠٠٠ ، تلت أحداث مرعبة انغمس فيها الفلسطينيون بهجمات إرهابية ، وانتقام إسرائيلي قاس نجم عنه ثقل الاحتلال المتزايد الواسع . كانت العملية قريبة من الاختراق ، أو هكذا بدت في نهاية إدارة كلنتون ، التي كانت في حالة شلل شامل . وكان إصلاحها أو إعادتها إلى الطريق الصحيح ، في نظري ، أمراً حاسماً لخلق ظروف تتخذ فيها تدابير أقسى وأشد بدون تمرد في الشارع العربي ، وغضب في العالم الإسلامي . بعد ستة أشهر من جريمة ١١ أيلول بلغت شهية العمل في الاندفاع والحماسة لأي نوع من المجابهة العسكرية حدها الأدنى» .

يعود بلير للربط بين أسلحة الدمار الشامل وتغيير نظام الحكم في العراق : «قبل

أيام من المغادرة إلى كروفورد ، كان لي لقاء في تشكرز مع كبار ضباط الجيش . لم يكن الاجتماع إعداداً للقاء كروفورد ، وإنما لبحث المسائل الأساسية لما قد ينتج عن العمل العسكري . ودار نقاش حول إذا كان هدفنا مركزاً على أسلحة الدمار الشامل أو على تغيير نظام الحكم . أكدت لهم أن الاثنين مرتبطان أحدهما بالآخر ، وأنه من الصعب في هذا الوقت القول إن طبيعة تهديد أسلحة الدمار الشامل في العراق قد تغيرت بشكل واضح في السنوات الأخيرة القليلة . كان تقييم المخاطر هو الذي تغيّر .

في هذا اللقاء قدم الإيجاز رئيس هيئة الدفاع الجديد الأميرال السير مارك بويس Sir Mark Boyce ، وهو من طاقم الغواصات وقائد سابق للأسطول الملكي ، والجنرال السير أنتوني بيغوت Sir Anthony Pigott . وقد حذرا من أن تكون معركة دامية تأخذ وقتاً طويلاً لإزاحة صدام . كانت الولايات المتحدة منشغلة في إعداد تخطيط مبدأي . ولكن كان من الصعب معرفة إلى أي مدى سيذهبون في ذلك . احتجنا إلى متابعة التخطيط وأن نكون جزءاً منه . بالطبع وكالعادة واجهنا معضلة : إذا كنا جزءاً من التخطيط ، فعلينا أن نكون مبدئياً منفتحين لنكون جزءاً من العمل . ولأني باستطاعتي أن أرى أن هذا قد ينتهي بعزل صدام حسين بالقوة ، عزمت على أن أكون جزءاً من التخطيط . من نيسان (٢٠٠٢) أصبحنا قريبين من الانغماس في المراحل الأولى من التفكير الأمريكي .

لا شيء من هذا كان يعني أن الحرب مؤكدة . ولم تكن جزءاً من التفاعل بيني وبين جورج (بوش) خلال تلك الأشهر ، وحتى تشرين الثاني كان ينتابنا قلق حاد ، لأن ما كنا نخطط للممكن كان في الحقل الإعلامي حرباً حتمية . تمكنا من التوصل لآراء متينة : على صدام الإذعان لقرارات الأمم المتحدة ويسمح للمتفشين بالعودة إلى العراق ، لن يسمح له بالتهرب ، فإذعانه يجب أن يكون شاملاً ، وإذا رفض سنكون في وضع قادرين فيه على إزالته . وهكذا فإن الدبلوماسية والتخطيط العسكري اتخذ كل منهما مسيرته منفصلاً عن الآخر ، ولكن كانا يلتقيان ببساطة في نقاط معينة . . . عدنا من كروفورد بالطائرة مع تفكير حازم بالعمل . أدليت بتصريح عن عملية السلام في الشرق الأوسط ، في أعقاب التزام جورج نحوي بإعادة الالتزام بها» .

يواصل بلير حديثه عن الحرب : «لم يكن مفاجئاً أن يشعر الناس بأننا ذاهبون إلى الحرب في العراق . في اجتماع عقد قبل العطلة الصيفية في أواخر تموز ، بيّن

مايك بويس بأنه يعتقد أن الولايات المتحدة قررت الحرب إلا إذا حصل تغير في موقف صدام . ووصف جيف هون Geoff Hoon وزير الدفاع آنذاك الخيارات : البداية المتطورة أي الحشد البطيء ، أو البداية السريعة أي التحرك السريع . وإلى أين تتحرك القوات . كان المفضل آنذاك أن يبدأ الغزو على العراق من شماله . وهكذا كان من المستحيل أن لا نقرأ التقارير عن الاجتماعات في هذه الأثناء ، دون الزعم بأن قراراً قد اتخذ . ولكن هنا الفرق بين الناس ومتخذ القرار النهائي . علمت آنذاك أن جورج (بوش) لم يتخذ قراراً بعد . ولكنه استنتج ، كما قلت ، إطاراً فكرياً كانت الفكرة المحورية فيه أن على صدام أن يذعن كلياً وأن يجرد نفسه من السلاح . ولكن لم يتخذ موقفاً نهائياً من الطريقة التي سينتهجها .

في أواخر تموز أرسلت إلى جورج مذكرة شخصية أخرى سرية ، بادئاً بفكرة الذهاب في طريق الأمم المتحدة ، والتأكيد مرة أخرى على عملية سلام الشرق الأوسط . غادر ديفيد مانغ David Maning المستشار في رئاسة الوزراء للشؤون الخارجية إلى واشنطن ، وبحث الأمر مع كوندوليزا رايس Condolizza Rice مستشارة الأمن القومي في الولايات المتحدة . وأتبعت ذلك مباشرة باتصال هاتفي .

كان النقاش حاداً داخل الإدارة الأمريكية حول اللجوء إلى الأمم المتحدة . اتفقنا على اللقاء بعد عطلة الصيف . فكرت مع الفريق المقرب مني في مختلف نواحي التحدي . إذا كان لا بد من الحرب ، كيف نقوم بها بأقل سفك للدماء؟ كان هذا هو السؤال العسكري . وإذا قمنا بها فكيف نزيد من الائتلاف؟ هذا يتعلق بالأمم المتحدة . وكيف نقوم بالحرب دون إثارة تنديد بنا في الشرق الأوسط؟ كان ذلك السؤال العربي .

حينما عدت من الاجازة عقدت مؤتمراً صحفياً في ساجفيلد Sadgefield ، كانت إتجاهاتي واضحة . كنت مقرراً أن أكون متشدداً جداً . علينا التعامل مع صدام حسين ، وأن نوجه إلى العالم رسالة فجة وبسيطة حول أسلحة الدمار الشامل . وقد اتخذ قرار مصيري آخر في ذلك الوقت . أراد الناس ، وهم على حق ، رؤية دليل على أسلحة الدمار الشامل لدى صدام . كان الدليل في المعلومات الاستخبارية . ليس عملياً ، لأسباب واضحة ، الكشف عن هذه المعلومات . قررنا أن نفعلها . وقد أعربت عن أسفي مراراً بعد ذلك على هذا القرار . و(الملف) كما كان يدعى أصبح فيما بعد موضوع اتهامات وإدانات مؤذية جداً . والحقيقة أننا فعلناها لأننا لم نر سبيلاً

لرفضها ، في ضوء الصخب الذي صاحبها . إن طبيعتها التي لا سابقة ، لها كانت على أي حال جزءاً من المشكلة . كان المعارضون والمؤيدون للعمل ضد صدام يحثوننا على مشاركة الجمهور في المعلومات الاستخبارية التي لدينا .

شيئان يجب قولهما في مراجعة الملف : أولاً خلافاً للحكمة المتأخرة ، كان الملف آنذاك (أيلول ٢٠٠٢) شيئاً مملاً ولا يحتوي أي جديد . وادعاء الخمس والأربعين دقيقة سيء السمعة ، الذي أخذته بعض وسائل الإعلام آنذاك ، والذي لم أذكره قط في المستقبل ، هو اقتباس من ملف الحكومة في ٢٢ أيلول الذي جاء فيه أن العراق بإمكانه استعمال أسلحة الدمار الشامل خلال (٤٥) دقيقة . ولم أتناوله في النقاش الحاسم في البرلمان في ٢٠٠٣/٣/١٨ الذي انتهى بالتفويض باللجوء إلى العمل العسكري . ولذلك فان الفكرة القائلة بأننا ذهبنا إلى الحرب بسبب هذا الادعاء هي محض خيال .

ثانياً ربما كان من الأفضل نشر تقارير لجنة الاستخبارات المشتركة المبنية على مواد أولية . ناقشنا هذا ، ولكن مصلحة الاستخبارات شعرت بأن هذا خرق فاضح للتقاليد المرعية . ولكن لو فعلنا ذلك لتجنبنا الكثير من الأذى والمزاعم التي لا أساس لها عن الكذب الوارد في المعلومات الاستخبارية . . . والواقع أن المعلومات الاستخبارية قالت إن صدام قد اتخذ إجراءات لإخفاء برنامجه ، بما في ذلك فك بعض التجهيزات وتخزينها . والانطباع العام لدى الاستخبارات هو أنه لم يتخل عن برنامجه وإنما كان يخفيه عن المفتشين . وقد أبلغت شخصياً بهذه المعلومة الاستخبارية ، التي أكدت برنامجه لأسلحة الدمار الشامل . . . والحقيقة أننا صدقنا دون أي شك قطعاً ، أن لدى صدام برنامج أسلحة دمار شامل فعالاً . في ضوء تاريخه صدقنا ذلك لعدة أسباب . لم تكن هناك نية للخداع . . . إن تقرير مجموعة أمن العراق (ISG) ، كما أشرت سابقاً ، يوضح لماذا كنا على خطأ ، وما تبقى صحيح أيضاً .

بلير يحاول إقناع بوش باللجوء إلى الأمم المتحدة للتفويض بغزو العراق

يذكر توني بلير في مذكراته أنه عاد في ٢٠٠٢/٩/٧ إلى كامب ديفيد للقاء بجورج بوش ، من أجل إقناع الأخير باللجوء إلى الأمم المتحدة ، للحصول على تفويض من مجلس الأمن الدولي بغزو العراق . يقول في هذا الصدد : «لم يكن هذا من

السهل إقناع بوش به ، فالإطار السياسي الأمريكي كان مناقضاً كلياً لإطارنا . ولم تقم الأمم المتحدة بدور في هذا المجال . كان الاجتماع متوتراً إلى حد ما ، مع أنني كنت وجورج على اتفاق مزاجي جيد . وفي النهاية التقينا وحدنا وجهاً لوجه ، وحصلت على موافقته ليس محاباة ولكن لأنني أعتقد أساساً أنه تقبل الفكرة بأن هذه في مجملها أسهل ، إذا كان وراءنا ائتلاف من الدول ، قلت إنني خشيت حقاً نتائج العمل الأمريكي المنفرد أو العمل الأمريكي-البريطاني المشترك . كتبت إليه مذكرة قبل بداية الاجتماع عن مخاوفي ، وقلت إن عدم توقع النتيجة يعني أن ائتلافاً فكرة حكيمة . علينا أن نسعى من أجل السلام حتى ولو ذهبنا فعلاً إلى الحرب . هذه ليست كحرب كوسوفو أو حتى أفغانستان ، ستكون أعنف» .

يقول بلير : «حالما أعلن جورج أنه يحبذ الذهاب إلى الأمم المتحدة ، شعرت بالارتياح . كان ديك تشيني موجوداً لبعض الوقت . وقال إنه يعارض الدخول في طريق الأمم المتحدة . فقد كان متشدداً على الدوام . كان ديك موضوعاً لنظرية المؤامرة ، التي من المتعذر عملياً إجراء مناقشة عقلانية حولها . وهو ، في نظر اليساريين ، شخصية غير معقدة ومصدر للاشمئزاز . كان رأيي فيه مختلفاً عن رأي معظم الناس . أعتقد أنه لديه بصيرة مركزية جديرة بأن تؤخذ جدياً . إنه يؤمن إيماناً عميقاً بأن الولايات المتحدة في حالة حرب حقيقية مع الإرهابيين ودول الشر التي تدعمهم . وهذه مستمدة من أيديولوجيا موجهة تشكل تهديداً لأمريكا . وأن الطريقة الوحيدة لهزيمتهم هي الانطلاق بأقصى قوة أمريكا ، بهدف تدمير الايديولوجيا وإتاحة المجال للديمقراطية لتزدهر بدلاً منها . ويود ديك تطبيق هذا على العراق وسوريا وإيران ، والتعامل مع جميع وكلائهم-حزب الله وحماس الخ . . . وبعبارة أخرى هو يعتقد بوجوب تجديد العالم ، وأن يتم ذلك بعد ١١ أيلول بالقوة وبإلحاح . كان من أنصار استعمال القوة الخشنة : لا إذا ، ولا لكن ، ولا ربما ، نحن نلاحقكم ، تغيروا أو سيتغيرون .

بالطبع أرعب هذا الموقف الناس وأثار رفضهم . وكما هو واضح مما كتبت ، لم أعتقد أن ذلك تعصب بل حكمة تقليدية . إنها صراع واحد . لدى عدونا أيديولوجيا تهددنا . الجواب النهائي للرد عليها هو نشر الديمقراطية والحرية . . . كانت مشكلتي مع الطريقة التي وضعها فيها وأراد أن يعملها . لأ ني أرى أن أسلوب عملها ناقص ؛ لأن الحرب كان مبنية بصورة مهلهلة حول أيديولوجيا . فالحرب لا بد من شنها

وكسبها على مستوى الأفكار ، وقد لا تكون مقبولة لدينا ، ولكن هي مقبولة لدى أولئك الذين سقطوا أو قد يسقطون ضحايا لتلك الأيديولوجيا . وبعبارة أخرى لن تكون فقط إستراتيجية القوة الخشنة . وعليها أن تشمل أكثر من القوة العسكرية . وعليها أن تدمج الشعوب في الشرق الأوسط والعالم الإسلامي ، وأن تقيم تحالفات داخل ذلك العالم .

ولذلك حينما يتعلق الأمر بحقوق الإنسان وقضايا السجناء ، علينا أن نبرز بأعمالنا قوة أفكارنا البديلة . . . مع نهاية أيلول أصبح لدنيا التزام واضح بإصدار قرار جديد من الأمم المتحدة . وكان هذا يتفق مع اهتمامات المحامي العام بيتر غولدسميث Peter Goldsmith حول مشروعية العمل بدون قرار» .

يعود بلير ليؤكد ضرورة التحالف مع الولايات المتحدة بقوله : «أؤكد مرة أخرى ليس السبب العمل في أفغانستان والعراق أو أي مكان آخر ، وإنما تحالفنا مع الولايات المتحدة أعطى بريطانيا مكانة مهمة . وأولئك الذين يعتقدون أن قربنا من أمريكا يشكل مشكلة لنا في بقية أنحاء العالم ، لم يبتعدوا كثيراً من الهدف . وعلى نقيض ذلك ، فقد أعطانا هذا القرب وسيلة لزيادة القوة والنفوذ . ومن السخافة القول إن الولايات المتحدة أفقدتنا مكانتنا في العالم . العكس هو الصحيح . وهذا صحيح حتى في الشرق الأوسط وفي الصين والهند» .

ويتناول ثانية موضوع المفتشين التابعين للأمم المتحدة عن أسلحة الدمار الشامل فيقول : «نوقش مشروع قرار مجلس الأمن الدولي حسب الأصول وصدر في تشرين الثاني ٢٠٠٢ . وبعد ذلك بقليل سمح العراق للمفتشين عن الأسلحة بقيادة هانز بليكس بالعودة إلى العراق . كان هانز رجلاً غريباً . كان ذكياً وقديراً وأحببته ، ولكن مشكلته انه شعر بثقل السياسات على التفتيش . كان ذلك طبيعياً جداً ، ولكن في الحقيقة كان بحاجة إلى إنجاز مهمته . إذا كان صدام قد أذعن للقرار حسناً ، وإذا لم يذعن فحسناً أيضاً . كان هذا تقديره . ولكن كانت مهمتنا معالجة النتائج . بدلاً من ذلك ، قال في البداية إن صدام ليس مذعناً ، ولكن لما استطاع رؤية نتيجة عدم الإذعان انتقل إلى الموقف القائل بأن صدام قد يذعن . ولم يكن واضحاً إذا كانت الحقائق قد تغيّرت أو تقديره للمضاعفات السياسية قد تغير . واستمر يقول : عليَّ أن أقرر الحرب أو السلام . وواصلت القول له : لا تخبرنا تقديرك الأمين . وعلى أي حال ، من العدالة القول إنه كان في وضع مستحيل إلى حد ما . ولكنه ساعد كثيراً

في آخر محاولة لحل المسألة سلمياً ، كما سأروي ذلك .

في نهاية سنة ٢٠٠٢ كان عسكريونا ، إلى جانب العسكريين في الولايات المتحدة ، أمام خيارات ما زالت تحت النقاش . كان هنالك ثلاثة خيارات لتدخلنا المحتمل . أحدها كان مجرد دعم لوجستي ، والثاني كان تدخلاً جوياً وبحرياً وقوات خاصة ، والثالث كان هجوماً برياً ، أي بمشاركة القوات البرية البريطانية داخل العراق . كان مايك بويس واضحاً ، بأن الحد الأقصى للمشاركة البريطانية هو في الخيار الثالث . وقال قد يواجه مشكلة حقيقية مع الجيش إذا لم يدخل بشكل تام . وإن تدخلاً كهذا سوف يعطينا نفوذاً أكبر في تشكيل التفكير الأمريكي . وكان هذا رأيي أيضاً .

دخلت السنة الجديدة (٢٠٠٣) ، ودخل معها شعور لدينا بأن المرحلة النهائية قد اقتربت . كان المفتشون داخل العراق . وكان أول تقرير لبليكس في منتصف كانون الثاني واضحاً : صدام لم يذعن لقرار مجلس الأمن . ومن المتوقع وصول تقرير آخر بعد شهر . صدر قرار مجلس الأمن في تشرين الثاني ٢٠٠٢ ، ولم يرد فيه شيء عن الحاجة إلى قرار آخر قبل أي عمل عسكري . وكان هنالك نقاش قانوني حول ضرورة صدور قرار آخر . كان المحامي العام بيتر غولد سميث قلقاً حول ذلك . أصبح الروس سلبيين ، وكان من الممكن جداً أن يرفض قرار آخر باستعمال حق النقض» .

يصف بلير موقفه في بريطانيا داخل حزبه وداخل البرلمان كما يلي : «كنت ما زلت أعتقد أن بالإمكان الحصول على قرار ثان من مجلس الأمن الدولي . كان جورج (بوش) عنيداً ، ويصر على أن لا حاجة لقراره جديد . حذرني جاك سترو Jack Straw وآخرون أنه بدون قرار من مجلس الأمن ، قد لا أستمر في الحكم بتصويت في مجلس العموم .

كنت منعزلاً سياسياً تماماً . وكانت الولايات المتحدة ، من جهة ثانية ، غاضبة على الموضوع ، ووافقت مبدئياً على ضغطهم . كان صدام تهديداً ، ولن يتعاون كلياً مع المجتمع الدولي . . . كنت غريزياً معهم . تحالفنا معهم . وقد قمت بالتزام بعد ١١ أيلول بأن أكون جنباً إلى جنب معهم . وكنت مصمماً على الوفاء بذلك . ومن جهة أخرى ، كانت عزلتي داخل الوزارة وداخل نواب حزب العمال وقسم كبير من وسائل الإعلام والرأي العام ، واسعة . ويعتريني القلق ليس بسبب احتمال استقالتي ، ولكن لأن الكثير كان على الرهان : الحرب والسلام ، ومكافحة الإرهاب ، ومستقبل تحالفنا

الثمين ، وسمعة البلاد وقواتها المسلحة . وفوق كل هذا حياة الناس .

وكما فكرت ملياً في كانون الأول ٢٠٠٢ ، وأخذت إجازة شتوية قصيرة في كانون الثاني ٢٠٠٣ ، حاولت أن أعمل الصحيح . وكنت قد تجاوزت النفعية والحسابات السياسية والفحص الشخصي لأفكاري . عرفت أن هذه قد تكون نهايتي سياسياً . وددت فقط أن أعرف ما هو الشيء الصحيح؟ باستطاعتي رؤية ذلك الآن ، وفي أعقاب تقرير بليكس الأول ، أنه يمنع شيئاً ما غير متوقع وهو احتمال الحرب ، باستطاعتنا اختيار ما كنت واثقاً منه . الخيار الأول كان قد وضع في الذهن . كان جورج (بوش) قد أعطاني بانتظام فرصة أخذه والبقاء خارج الحرب ، والدخول فقط في أعقابها . كان لدينا العديد من الحلفاء آنذاك . ثلاث عشرة دولة من (٢٥) دولة في الاتحاد الأوروبي كانت إلى جانبنا . والائتلاف قد بلغ نحو ثلاثين دولة . ولكن العديد كان قد اختار سبيل تجنب القتال .

قبيل الاحتفال بعيد الميلاد سنة ٢٠٠٢ ، جلست في الصالة الطويلة Long Gallery في تشكرز وفكرت ملياً : بماذا أعتقد حقاً؟ بأن صدام على وشك أن يهاجم بريطانيا أو الولايات المتحدة؟ كلا . إنه كان أكبر تهديداً ، بأسلحة الدمار الشامل ، من إيران أو كوريا الشمالية أو ليبيا؟ كلا حقاً ، مع أنه الزعيم الوحيد الذي استعملها . يبقى وحده الآن مع هذه التفتيشات التي انتهت كما انتهت سابقاتها . إنه قد يهدد استقرار المنطقة؟ محتمل جداً . وقد يستنزف مواد أسلحة الدمار الشامل أو يزود إرهابيين بها؟ نعم . أستطيع أن أراه يفعل ذلك . وهل من الأفضل لشعبه أن يتخلص منه؟ بالتأكيد . وهل يمكن تحقيق ذلك بدون حرب دموية طويلة؟ من المتعذر التأكد من ذلك . هل أحتاج مزيداً من الوقت؟ نعم ، ولكن ليتاح لي تجريب كل أسلوب لعمل ذلك . وليس لأنني أعتقد أن طبيعة نظام حكمه ستتغير . وهل عراق جديد سيساعد في بناء شرق أوسط جديد؟ أعتقد أن ذلك ممكن . . . وهل ندخل الحرب أو نخرج منها؟ ندخلها ، هكذا استنتجت . وإذا دخلناها فمن الأفضل كلياً وليس جزئياً . وكنت ما أزال أعتقد بإمكانية تجنب الحرب . وكنت ما أزال أعتقد ببدائل أخرى دبلوماسية أو بانقلاب عسكري .

لو أنك أخبرتني آنذاك أننا لن نجد أسلحة دمار شامل بعد القضاء على صدام ، وأنه بعد إزالته ستحصل حرب مدتها ست سنوات ، كما تعاملنا بقسوة مع الإرهابيين ، وألحقنا الأذى بالشعب العراقي ، فهل سيكون قراري مختلفاً؟ أسأل

نفسي هذا السؤال يومياً . لقد أريقت دماء كثيرة . وفقد العديد أرواحهم أو تعرضو للأذى الوحشي . نعم لقد ظهر الآن عراق جديد ، وأخيراً هناك مؤشرات للأمل ، ولكن بأي ثمن؟ . . . في شباط ٢٠٠٣ سار مليون شخص في لندن متظاهرين ضد الحرب . وهي مظاهرة لم يسبق لها مثيل بهذا العدد . إنها تذكرني بعزلتي ومسؤوليتي عن القرار الذي كنت على وشك اتخاذه» .

بلير وأسلحة الدمار الشامل في العراق

يرى توني بلير في مذكراته أن الأسابيع التي تم فيها الحشد للعمل العسكري الذي انطلق في ١٩ آذار ٢٠٠٣ ، كانت الأصعب في السنوات العشر التي قضاها رئيساً لوزراء بريطانيا . ففي أثناء تلك الأسابيع ، عاد المفتشون التابعون للأمم المتحدة إلى العراق ، وكتبوا تقاريرهم حول أسلحة الدمار الشامل . ويعترف بلير بأنها لم تكن تقارير حاسمة . ولكنه يحاول تسويغ قرار الحرب الذي اتخذه بقوله : «كان تقرير بليكس في ٢٠٠٣/١/٢٧ أول تقرير رسمي للمفتشين . قال بليكس في إيجازه الشفوي لمجلس الأمن في ٢٠٠٣/١/٩ إن العديد من القضايا المعلقة لم تحل بالبيان العراقي الصادر في كانون الأول ٢٠٠٢ ، والمعلومات التي طلبها المفتشون لم تأت بعد . في ٢٧ كانون الثاني أوضح المفتشون ، أنه وفق شروط عملية التفتيش ، انفتح العراق نوعا ما . ولكن قرار تشرين الثاني ٢٠٠٢ الصادر عن مجلس الأمن الدولي ، دعا إلى التعاون من قبل صدام وأن يكون «فورياً وبلا شروط وفعالاً» . هذا التقديم مهم لأنه يقدم إطاراً ضرورياً لفهم القرار الذي اتخذته وآخرون . يقول بليكس ما يلي :

(القرار (٦٨٧) لسنة ١٩٩١ مثل القرارات التالية التي سأشير إليها ، يحتاج إلى تعاون العراق ، ولكن ذلك كان ممتنعاً أو يقدم بتذمر . بخلاف جنوب أفريقيا التي قررت بنفسها إزالة أسلحتها النووية ، ورحبت بالتفتيش كوسيلة لخلق الثقة في نزع سلاحها ، لا يبدو العراق أنه توصل إلى قبول حقيقي -حتى اليوم- لنزع السلاح المطلوب منه ، والذي يحتاج إلى تنفيذه لكسب ثقة العالم وليعيش بسلام) .

ثم ذهب بليكس بعد ذلك ليصف بالتفصيل فهمه الحالي للبرامج المتعددة . ومن الجدير قراءة هذا ؛ «لأنه يعطي نظرة فاحصة على صعوبة التعامل مع نظام حكم صدام حسين» .

يتناول بلير في مذكراته تفاصيل ما لدى العراق من أسلحة كيمياوية وبيولوجية

وصواريخ بالستية . يذكر أن العراق قد أعلن بأنه ينتج فقط غاز الأعصاب (vx) على مستوى تجريبي ، أي أن لديه أطناناً قليلة منه . وهو غاز شديد السمية . وأكد العراق أنه لم يصنع كسلاح ، وأن الكمية القليله منه الباقية بعد حرب تحرير الكويت قد دمرت من جانب واحد في صيف ١٩٩١ . يذكر بلير أن لدى مفتشي الأمم المتحدة معلومة تناقض ما ادعاه العراق . فهناك مؤشرات لديهم بأن الغاز قد صنع كسلاح . وأن المواد الأولية التي يصنع منها مفقودة فأين مصيرها؟ ادعى العراق أنها فقدت أثناء القصف الجوي والصاروخي الأمريكي-البريطاني في حرب تحرير الكويت . ويذكر بلير اكتشاف وثيقة في ملفات سلاح الجو العراقي تشير إلى أن (١٣) ألف قنبلة كيمياوية قصف بها سلاح الجو العراقي إيران بين سنتي ١٩٨٣و ١٩٨٨ ، بينما أعلن العراق أنه استهلك (١٩٥٠٠) قنبلة كيمياوية خلال هذه الفترة . والفرق هو (٦٥٠٠) قنبلة ، كمية الغاز فيها تقدر بنحو ألف طن . إن اكتشاف عدد من رؤوس صواريخ كيمياوية عيار (١٢٢) ملم في خندق في مخزن على بعد (١٧٠) كيلومتراً جنوب غربي بغداد ، تحدثت عنه وسائل الإعلام مطولاً ، دليل على تهرب العراق من مسؤوليته . غير أن العراق يقول إنه تم إهمال هذه الرؤوس سنة ١٩٩١ بعد أن خزنت خلال حرب الخليج .

يعود بلير إلى مسألة جراثيم الأنثراكس Anthrax . ويذكر أن العراق قد أعلن في مناسبات سابقة أنه أنتج (٨٥٠٠) ليتر من هذا السلاح الحربي البيولوجي ، وأنه دمرها في صيف ١٩٩١ . ويقول بلير : هناك مؤشرات قوية على أن العراق أنتج من الأنثراكس أكثر مما أعلن ، وأنه تم الاحتفاظ ببعض هذا الإنتاج بعد الإعلان عن إتلافه ، وأن المفتشين يطلبون دليلاً مقنعاً على أنه أتلف فعلاً سنة ١٩٩١ .

كما أن العراق لم يعلن عن (٦٥٠) كيلوغرام من وسيلة نمو البكتيريا التي استوردها من هيئة أموريم Amorim Panel في شباط ١٩٩٩ . وأن هذه الكمية تكفي لإنتاج خمسة آلاف لتر من الأنثراكس المركز .

أما الصواريخ ، فقد أعلن العراق عن استهلاك عدد من صواريخ سكود كأهداف لتطوير نظام دفاعي مضاد للصواريخ البالستية ، خلال الثمانينات من القرن العشرين . ولم يبلغ عن استهلاك هذه الصواريخ . يتبين لدى بلير مشروعان عراقيان لتطوير الصواريخ هما : تطوير صاروخ بوقود سائل يسمى «الصمود-٢» ، وصاروخ بوقود صلب يسمى «الفاتح» . وقد جرب الصاروخان إلى مدى يتجاوز المدى المسموح به (١٥٠)

كيلومتراً . بلغ مدى الصاروخ «الصمود-٢» (١٨٣) كيلومتراً ، و«الفاتح» (١٦١) كيلومتراً . وقد بلغ قطر الأول (٧٦٠) ميلمترا ، في حين أن رئيس المفتشين حدد قطره بـ (٦٠٠) ميلمتر في تشرين الثاني ١٩٩٧ .

ويضاف إلى هذه الصواريخ استيراد العراق ل (٣٨٠) قاذفة يمكن استعمالها لصواريخ (الصمود-٢) . ووجد المفتشون في منزل أحد العلماء العراقيين صندوقاً يحتوي على ثلاثة آلاف صفحة من الوثائق يتعلق الكثير منها بتخصيب اليورانيوم بالليزر .

طلبت لجنة التفتيش على أسلحة الدمار الشامل التابعة للأمم المتحدة قائمة بأربع مئة إسم من العلماء والفنيين العراقيين لمقابلتهم وسؤالهم عن برامج العراق في إنتاج هذه الأسلحة .

بعد هذا العرض المفصل لما لدى العراق من أسلحة كيمياوية وبيولوجية وصواريخ بالستية ، ينتقل بلير إلى مشروعية غزو العراق . يرى بلير أن قرار مجلس الأمن الدولي رقم (٦٧٨) لسنة ١٩٩٠ ، الذي فوض الدول الأعضاء باستعمال القوة لإخراج القوات العراقية من الكويت ، كان القاعدة القانونية للعمل العسكري ضد العراق بين سنتي ١٩٩٣و ١٩٩٨ ، وأن هذا القرار ظل ساري المفعول حتى سنة ٢٠٠٢ ، وجاء قرار مجلس الأمن الدولي رقم (١٤٤١) الصادر في تشرين الثاني ٢٠٠٢ ليؤكد أن العراق خرق قرارات الأمم المتحدة السابقة ، وأعطاه فرصة أخيرة للإذعان ، ودعاه إلى السماح للمفتشين التابعين للأمم المتحدة بالعودة إلى العراق فوراً ودون شروط . وبناء على ذلك ، رأى بعض الدول الكبرى والمعارضون للحرب ، ضرورة استصدار قرار جديد من مجلس الأمن الدولي لاستعمال القوة ضد العراق . ودار جدل واسع حول ذلك . فقد رأى أنصار الحرب أن عدم إذعان العراق لقرار مجلس الأمن الدولي رقم ٦٧٨ ، وللقرار ١٤٤١ ، كاف لجعل العمل العسكري ضد العراق قانونياً . ودار نقاش محموم داخل الجهاز القانوني في وزارة الخارجية البريطانية ودائرة النائب العام . وأخيراً وافق النائب العام البريطاني على أن العمل العسكري قانوني ، شريطة أن يكون واضحاً أن صدام لم يذعن إذعاناً كاملاً لقرارات مجلس الأمن الدولي .

يقول بلير : «وعلى أي حال فسياسياً ، ولوضع المسألة في إطارها القانوني ، فإن قراراً ثانياً كان مرغوباً فيه ، وفوق الكل سيوحد المجتمع الدولي . وفي شباط ٢٠٠٣

اتسع الخلاف في المجتمع الدولي . انقسمت أوروبا إلى قسمين متساويين . فقد كانت ثلاث عشرة دولة مؤيدة للعمل العسكري ضد العراق . وكانت عشر من الدول الجديدة التي انضمت إلى الاتحاد الأوروبي مؤيدة بقوة للموقف الأمريكي . وقد أسيء إليها من قبل جاك شيراك بسبب ذلك . ولكن مصطلح أوروبا القديمة (الذي استعمله جورج بوش والإعلام الأمريكي) مقابل أوروبا الجديدة ، كان مضللاً . فإيطاليا وإسبانيا أيدتا العمل العسكري ، وانضم إليهما حلفاء الولايات المتحدة خارج أوروبا ، مثل اليابان وكوريا الجنوبية . إضافة إلى دعم ثابت وحازم بقيادة جون هوارد John Howard . ولكن الرأي العام في العديد من الدول المؤيدة تقليدياً للولايات المتحدة مثل تركيا ، كان معارضاً بشدة للحرب . وقررت كندا أنها لا تستطيع الدعم بدون قرار جديد من الأمم المتحدة ، وكذلك فعلت المكسيك . . . اعتقد المعارضون للحرب أنها سوف تؤذي العلاقات بين الغرب والإسلام .

بالنسبة إليّ بقي خياري نفسه . وافقت على التحليل الأساسي للولايات المتحدة بأن صدام تهديد لنا . كنت أعتقد أنه وحش . أما الخروج على الشراكة الأمريكية في ظروف كهذه ، حينما كان حلفاء أمريكا يلتفون حولها ، يعد دماراً كبيراً طويل الأمد لتلك العلاقة» .

يصف بلير وضعه قبيل غزو العراق بهذه العبارات : «كان الضغط على كل واحد حولي لا يحتمل . وكنت في رئاسة الوزراء مثل الميت الذي أعيد للحياة : آكل الوجبات بذهول ، ولا أسمع الأسئلة التي يوجهها إلي أطفالي . أحاول جعل حياتي العائلية عادية ، مع إدراك كل منهم بحدة أن الوضع غير طبيعي ، وليس بسبب تصرفي على الأقل ، فقد أكرهت نفسي في مناسبات على الراحة والتوقف عن العمل ، ولكن القضية كانت مثل ألم راجف مستمر لا يزول ولا يدعني أنساه للحظة ، لم يتوقف عن تذكيري بضرورة التعامل معه . . .

في يوم المظاهرة الكبرى في لندن-١٥ شباط ٢٠٠٣- كان من المفروض أن ألقي خطاباً في المؤتمر الربيعي لحزب العمال الاسكتلندي في غلاسكو . لم أنم جيداً ، كنت أفكر في الحجج التي تدور في رأسي ، ولكني كنت مصمماً على قول رأيي ، مهما كانت مشاعرهم حول الحقيقة الشنيعة للحرب . يجب أن لا يكون بمقدور الناس أن يختبئوا عن الحقيقة المروعة لاستمرار صدام في السلطة» .

بلير يعتبر تشويه صورة صدام حسين مبرراً قوياً لغزو العراق

يصف توني بلير في مذكراته مؤتمر فرع حزب العمال في سكوتلندا في شباط ٢٠٠٣ : «كان مركز المؤتمر في غلاسكو مليئاً برجال الأمن . وكان المحتجون في الخارج بكل قوة . استمع لخطابي أعضاء الحزب باحترام . كان الناس عملياً مهتمين بالجدل . ولما جئت إلى قلب الخطاب ، وصفت الحال بهذه العبارات : «القضية الأخلاقية ضد الحرب لها جواب أخلاقي . إنها قضية أخلاقية لإزاحة صدام . هي ليست السبب لعملنا . وذلك يجب أن يكون وفقاً لتفويض الأمم المتحدة بشأن أسلحة الدمار الشامل . ولكنها بصراحة السبب ، وإذا كان من الواجب علينا أن نعمل فيجب أن نعمل هكذا بضمير نقي .

نعم ، هنالك نتائج للحرب . إذا أزلنا صدام بالقوة سيموت الناس ، وبعضهم سيكون بريئاً . وعلينا العيش مع نتائج أعمالنا ، حتى تلك غير المقصودة . ولكن هنالك أيضاً نتائج لوقف الحرب ، لو أخذت تلك النصيحة ولم أصر على نزع السلاح . نعم لن تكون هنالك حرب ، ولكن سيبقى صدام . سيقول العديد من الناس الذين يتظاهرون بأنهم يكرهون صدام ، ولكن النتائج المترتبة على الأخذ بنصيحتهم هي بقاؤه في السلطة في العراق ، يحكم الشعب العراقي . في بلد كان في سنة ١٩٧٨ ، أي في السنة السابقة لتوليه السلطة ، أغنى من ماليزيا أو البرتغال . في بلد يموت اليوم (١٣٠) من كل ألف طفل من أطفال العراق قبل سن الخامسة- و(٧٠) بالمئة من هذه الوفيات سببها الإسهال والتهابات الجهاز التنفسي ، التي يمكن تجنبها بسهولة . وحيث ثلث الأطفال تقريباً المولودين في وسط العراق وجنوبه لديهم سوء تغذية ، و(٦٠) بالمئة من الشعب يعتمدون على المساعدة الغذائية ، ونصف السكان في المناطق الريفية ليس لديهم ماء نقي .

وحيث يعيش عشرات الآلاف من السجناء السياسيين ، كل سنة وحتى الآن ، في ظروف مروعة في سجون صدام ، ويعدمون بصورة روتينية . وحيث ذبح ما يربو على (١٥٠) ألف مسلم شيعي في جنوب العراق ، ومسلمين أكراد في شماله ، خلال السنوات الخمس عشرة الماضية ، مع حوالي أربعة ملايين عراقي يعيشون في المنفى حول العالم ، بمن فيهم (٣٥٠) ألفاً هم الآن في بريطانيا .

هذا ليس نظام حكم مع أسلحة دمار شامل غير خطير . هذا نظام حكم يتناقض مع كل مبدأ أو قيمة يؤمن بها أي من سياسيينا . لن توجد مظاهرات لضحايا صدام ،

ولا احتجاجات على آلاف الأطفال الذين ماتوا كل سنة دون ضرورة في ظل حكمه . ولا غضب حتى على غرف التعذيب التي ستبقى إذا ترك في السلطة» .

كانت تلك الأيام ، كما يصفها بلير ، دوامة من النشاط الدبلوماسي : خطابات ومؤتمرات صحفية ومحادثات هاتفية . وكان جورج بوش واضحاً : أمريكا ذاهبة لازالة صدام حسين . كل قوة أمريكا في قواتها المسلحة التي تجمعت حول العراق . والمفارقة ، كما قال بلير لصديقه بوش ، أن النوايا الأمريكية غدت أكثر وضوحاً ، بينما تحول موقف صدام إلى مزيد من التعاون مع مفتشي الأمم المتحدة عن أسلحة الدمار الشامل . وقد انعكس هذا في تقرير بليكس في ٢٠٠٣/٢/١٤ الذي أشار إلى مزيد من الاذعان . ولكنه إذعان ما زال يحتاج إلى التطابق مع متطلب قرار الأمم المتحدة الصادر قبل ذلك بثلاثة أشهر . وفي تقرير بليكس الصادر في ٢٠٠٣/٣/٧ أشار إلى أن تعاون العراق مع المفتشين في ازدياد .

ويصف بلير الرأي العام المعادي للحرب في أوروبا . كان الرأي العام في معظم الدول الأوروبية معادياً بشدة للحرب . ففي إسبانيا أخبر رئيس وزرائها خوزيه ماريا أزنار صديقه بلير أن (٤) بالمئة فقط من الإسبان يؤيدون العمل العسكري . كان المقربون من بلير مثل جاك سترو وهيلاري كوفمان Hilary Coffman وسالي مورغان Sally Morgan ينصحونه بإصدار قرار من مجلس الأمن الدولي للتفويض بالعمل العسكري ضد العراق . وفي مجلس الوزراء البريطاني يقول بلير : «كانت اجتماعات مجلس الوزراء منتظمة ، وفي مجملها مؤيدة لي . كان روبين كوك Robin Cook مناوراً للخروج . وقد فعل ذلك بشفافية ودون سوء نية . يقول بلير أيضاً إن العمل العسكري ضد العراق كان متفقاً عليه في مجلس العموم . وكان قادة المعارضة تقدم إليهم إيجازات عن الوضع السياسي والعسكري ، وكان رؤساء الاستخبارات والقادة العسكريون تحت تصرفهم» .

وتصرف قادة المعارضة بنزاهة وبلطف . كان تشارلز كندي Charles Kennedy ضد الحرب بوضوح ، ولكنه تصرف بطريقة ودية ومعقولة مع بلير . كان بلير بحاجة لأصوات نواب حزب المحافظين في مجلس العموم . وقد حصل على وعد منهم بتأييد الحرب . في يوم الأربعاء ٢٠٠٣/٣/١٥ ، لما أصدرت فرنسا وألمانيا وروسيا بياناً مشتركاً أعلنت انفصالها عن الولايات المتحدة وعارضت الحرب على العراق ، جاء جاك سترو إلى بلير وقال له : «إذا ذهبت يوم الأربعاء القادم مع بوش بدون قرار ثان من مجلس

الأمن ، فإن نظام الحكم الوحيد الذي سيتغير هو في هذه الغرفة» .

تعقدت الأمور بعد أن أعلن الرئيس الروسي فلاديمير بوتين Vladimir Putin في ٢٠٠٣/٣/٧ أنه سوف يستعمل حق النقض لإفشال قرار ثان من مجلس الأمن الدولي يفوض باستعمال القوة ضد العراق .

توصل بلير بين ٧ و٢٠٠٣/٣/١٤ إلى فكرة جديدة ، وذلك بوضع وثيقة مع مفتشي الأمم المتحدة في العراق تحدد المطالب التي يجب أن يقدمها العراق خلال سبعة أيام ، وإلا تلا ذلك العمل العسكري . وكان عليه أن يقنع الرئيس بوش بها . كان العسكريون الأمريكيون يرون أن التأخير سوف يعطي العراق وقتاً ، وهذا يعني مزيداً من الخسارة في الأرواح . ومع ذلك فقد شعر بلير أن فكرته قمينة بالمحاولة . فوجه مذكرة إلى جورج بوش ، ثم تحدث معه على الهاتف فوافق عليها بتذمر . وحصل على الوثيقة التي أعدها فريق المفتشين بقيادة هانز بليكس . قرر بلير وجود جدولة الاختبارات السبعة في صباح يوم الخميس ٢٠٠٣/٣/١٣ . رفضت فرنسا هذه الجدولة ، وأدلى جاك شيراك ببيان قوي قال فيه : إنه لن يؤيد عملاً عسكرياً ضد العراق مهما كانت الظروف . ورفض وزير خارجية فرنسا دومينيك دو فيلبان Dominique de Villepin الاختبارات كما هي . وبذلك أصبح الطريق إلى الأمم المتحدة مغلقاً أمام بريطانيا والولايات المتحدة .

وفي ٢٠٠٣/٣/٧ قدم النائب العام البريطاني بيتر جولا سميث رأيه النهائي في شرعية الذهاب إلى الحرب ، بعد أن زار واشنطن وقابل النائب العام في الإدارة الأمريكية . وقد أثنى عليه بلير ثناءً كثيراً .

يروي بلير بعد ذلك الخطوات التالية نحو الحرب : «كان من المقرر أن نلتقي جورج (بوش) وأنا في جزر الأزور في ١٦ آذار ، من أجل إلزام إسبانيا والبرتغال اللتين كانتا مؤيدتين للحرب ، واللتين كان رئيسا الوزراء فيهما تحت ضغط من العداء البرلماني والرأي العام . كان واضحاً الآن أن العمل حتمي ، ومانع لمغادرة صدام العراق بصورة طوعية . وافق جورج على توجيه إنذار إليه لمغادرة البلاد ، ولم يكن هناك أي توقع لذلك . على أي حال كان كل من ألاستر كامبل Alistair Campbell وجوناثان باول Jonathan Powell وديفيدماننغ David Manning من فريق بلير ، يعملون بجد مع فريق بوش وكوندوليزا رايس ، بخاصة لوضع البيان المناسب بالصيغة المناسبة . . . في ١١ آذار اقترح دونالد رمسفيلد في مؤتمر صحفي أنه بسبب السياسة الداخلية في

بريطانيا لا يجب أن تكون جزءاً من العمل العسكري الأول . ظن بعضهم أنه يحاول إثارة الوضع في بريطانيا . كان واضحاً بالنسبة إلي أنها مجرد صيحة . كان في الواقع يحاول المساعدة . ولكنه لم يساعدنا . كان العسكريون في ذلك الوقت مصممين تماماً على أن نكون جزءاً من العمل العسكري منذ البداية ، وأبدوا استياءهم من أن نكون في المرتبة الثانية .

جاء روبن كوك وقال الآن أصبح واضحاً أن قراراً ثانياً مستحيل ، وأنه سوف يستقيل . وبروح ودية تماماً رتبنا بيانات الاستقالة . أدركت أهمية القرار الثاني في إطار البقاء السياسي وما يتصل به . . . ولكن سواء حصلنا على قرار ثان أو لم نحصل ، فقد اعتمدنا أساساً على السياسات في فرنسا وروسيا وحسابهما ، هو حيث توجد مصالحهما السياسية . لقد عملنا في كوسوفو بدون تفويض من الأمم المتحدة . وكان من المشكوك فيه أن نحصل على اتفاق في مجلس الأمن الدولي حول البوسنة أو رواندا . لم أفكر قط في موضوع سيراليون» .

خطاب بلير لتبرير غزو العراق

يصف توني في مذكراته بشيء من التفصيل رحلته إلى جزر الأزور للاجتماع بالرئيس الأمريكي جورج بوش (الابن) ، ورئيسي وزراء إسبانيا والبرتغال في ٢٠٠٣/٣/١٦ كان الاجتماع في القاعدة الجوية لاخيس Lajes الواقعة في إحدى هذه الجزر . يقول عن بوش : «كان جورج راضياً عن تبني الخط القائل إننا متجهون إلى التعلق بأي أمل أخير للسلام . . . كررنا الحجج الرئيسية . كان جورج هادئاً تماماً . ظن أننا سنوجه رسالة واضحة تماماً إلى العالم لا صلة لها بأسلحة الدمار الشامل ، وأننا قادمون لملاحقتكم . وكان مركزاً ، أكثر مني ، على احتمال حصول المجموعات الإرهابية على مواد أسلحة الدمار الشامل . وقال : (أنا لست ذاهباً لأكون الرئيس الذي تحدث هذه الأمور تحت بصره ، أنا أحب بلادي ، وهؤلاء الناس يهددونها بكراهيتهم لنا) .

من السهل السخرية من سذاجة نظرة جورج بوش للعالم . فبعضها يبدو مانوياً . وهذه السذاجة ولدت من تحليل مباشر جداً من الصعب مناقشته . مع كل أخطائها والمحددات الطبيعية في كل كيان يحتوي النشر ، فأمريكا بلاد عظيمة وحرة . هناك أشياء كثيرة تقال عن الولايات المتحدة التي أجدها لا تقاس بالطريقة التي نفكر بها

نحن الأوروبيين نحو الأشياء : الأسلحة وعقوبة الإعدام ونظام السجون ، وما يبدو عدم مبالاة نحو الفقر في المدن مثلاً . ولكن الكثير من الأمريكيين لا يوافقون أيضاً على هذه الأشياء» .

يرد بلير على القائلين بغزو العراق إنه عمل عدواني أحمق بقوله : «كلا ، لا نؤيد ذلك . لا تستطيع ، في ضوء التاريخ ، أن تسمي صدام هدفاً أحمق ، . . . وكما قلت في خطابي في غلاسكو : إذا كنا على خطأ فقد أزلنا طاغية» .

وعن حالته بعد اجتماع جزر الأزور يقول : «عرفت أنه سبق السيف العذل . كنت أدرك عزلتي وقبضتي غير الثابتة على السلطة ، وأن زبدة الفكرة اعتمادي الكلي على أشياء صحيحة وليست خاطئة . وأكثر من ذلك ، هذه هي المرة الأولى التي ألتزم فيها بإرسال قوات برية لإسقاط نظام حكم نكون فيه مشاركاً صغيراً ، حيث لا نكون مسؤولين عن كل الترتيبات . صحيح أن القوات البريطانية موجودة على الأرض ، ولكن العمل الأولي كان حملة جوية . هذه المرة سنقاتل قوات صدام التي دخلت حربين ، وستدافع هذه القوات عن مكانتها الممتازة في العراق» .

يحاول بلير استدرار عطف القارئ بقوله : «حملقت من شباك طائرة الخطوط الجوية البريطانية (BA) التي أستأجرناها لرحلة يوم واحد ، ونظرت إلى ساحل الأزور وهو يختفي في الأفق البعيد . أعرف أن أرواحاً ستزهق ، أو تتغير نتيجة القرار . كنت هادئاً جداً ، ولكنني هادئ لأن مصيري قد تقرر الآن مع مصير آخرين لا يحصون . كنت أعمل ما اعتقدت أنه صحيح . ولكن كنت أتمنى أن لا أفعله .

عدنا وعقدنا اجتماعاً طارئاً لمجلس الوزراء يوم الاثنين . كان روبين كوك قد استقال ولذا لم يحضره . أخذت كل واحد من خلال النقاش ثانية . وأخيراً حصلت على التزام جورج بوش بخارطة الطريق ، التي كانت ذات أهمية بالغة لعملية سلام الشرق الأوسط . فقد تضمنت إطاراً بصورة أساسية ، كما ما تزال اليوم ، للخطوات نحو السلام . لقد قاومها الإسرائيليون ، وكان موقف الولايات المتحدة في أفضل حالات الفتور ، ولكنه كان كتاباً مقدساً بالنسبة إلى الفلسطينيين والعالم العربي والاتحاد الأوروبي . وبعد أخذ وشد ونقاش ، حصلنا على توقيع الولايات المتحدة عليها ، وحتى حصلنا على التزام خاص نحوها في الإنذار الذي وجهته الولايات المتحدة لصدام .

باستثناء كلير شورت Clare Short كان المجلس مؤيداً لي . كان جميع الناس

المخلصين قد ألقوا بثقلهم معي . . . ثم جاء يوم ٨ آذار والنقاش في مجلس العموم . كان إنذار بوش (للعراق) ، مع حساب كل تغيراتنا ، متوازناً وليس عدوانياً ، وداعماً بقوة للشعب العراقي ، وحاسماً بالنسبة إلي ، لأنه دخل في لعبة عملية سلام الشرق الأوسط . اشتغلت على خطابي-أهم خطاب أعددته-متأخراً تلك الليلة وصباح الثلاثاء . في أوقات كهذه كرست ذهني للكتابة» .

اقتبس بلير الفقرات التالية من خطابه في مجلس العموم في مذكراته :

«دعني أخبر المجلس ما أعرفه . أعرف أن هناك بعض الدول أو المجموعات داخلها ، تنشر أسلحة الدمار الشامل وتتاجر بها ، وخاصة تكنولوجيا الأسلحة النووية . وأعرف أن هناك شركات وأفراداً وبعض العلماء السابقين في برامج الأسلحة النووية يبيعون أجهزتهم أو خبرتهم . وأعرف أن هناك العديد من البلدان-معظمها دكتاتورية بأنظمة حكم قمعية جداً-تحاول مستقتلة الحصول على الأسلحة الكيمياوية أو الأسلحة البيولوجية أو القدرة على الأسلحة النووية بخاصة . بعض هذه البلدان على مسافة قصيرة من الحصول على سلاح نووي مستخدم . هذا النشاط لم يضعف وإنما في ازدياد .

نحن جميعاً نعرف أن هناك مجموعات إرهابية تعمل الآن في معظم البلاد الرئيسية في السنتين الماضيتين فقط ، عانت نحو عشرين دولة من الرعب الإرهابي الخطير ، مات فيها آلاف الناس ، باستثناء ١١ أيلول . هدف هذا الإرهاب ليس العنف فقط وإنما إنتاج الإرهاب . إنه يبدأ بإلهاب وتقسيم وإنتاج آثار مأساوية حول العالم ، وإنه يسمم فرص التقدم السياسي-في الشرق الأوسط ، وفي كشمير والشيشان وأفريقيا . نعم لإزالة طالبان ، وتوجيه ضربة لهم ، لكنهم لم يختفوا .

لهذين التهديدين بالطبع دوافع مختلفة وأصول متباينة ، ولكنهما يشتركان في نظرة أساسية واحدة : إنهما يحتقران الحرية والديمقراطية والتسامح ، التي تعد الصفة المميزة لطريقتنا في الحياة . أقبل تماماً حالياً أن العلاقة بين الاثنين فضفاضة ولكنها تشتد . واحتمال اللقاء بينهما-من جماعات إرهابية تمتلك أسلحة دمار شامل ، أو حتى ما يسمى قنبلة إشعاعية قذرة ، هي الآن في تقديري خطر حقيقي على بريطانيا وعلى أمنها القومي .

دعوني أبيّن الأخطار . ثلاثة كيلوغرامات من غاز (VX) من قاذف صاروخ تلوث ٠,٢٥ كيلومتر مربع من مدينة . ملايين العيارات الملوثة يحتويها لتر واحد من

الانثراكس، وعشرة آلاف لتر لا إحصاء لها . ما حدث في ١١ أيلول (٢٠٠١) قد غيّر نفسية أمريكا-هذا واضح-ولكن كان من الواجب أن يغير نفسية العالم .

بالطبع ليس العراق الجزء الوحيد من هذا التهديد . ولم يسبق لي أن قلت هذا . ولكنه الامتحان، إذا كان علينا معاملة التهديد بجدية . في مواجهة هذا لا بد للعالم من أن يتحد . ويجب أن تكون الأمم المتحدة بؤرة الدبلوماسية والعمل العسكري . هذا ما قاله القرار (١٤٤١) . هذه هي الصفقة . وأقول ببساطة للمجلس إن خرقه الآن وتحقيق الأهداف وليس الوسائل قد يسبب دماراً أكثر على المدى البعيد للأمم المتحدة من أي مسلك وحيد آخر قد نسلكه . أما العودة إلى التراخي الذي كان خلال الاثنتي عشرة سنة الماضية، والحديث والمناقشة والجدال دون العمل، وإعلان إرادتنا دون أن ننفذها، والاستمرار بلغة قوية ولكن بنوايا ضعيفة، فهو أسوأ مسلك متخيل . إذا سلكنا ذلك المسلك، وحينما يعود التهديد من العراق أو من أي مكان آخر، من سيصدقنا أنذاك؟ وما هو الثمن لمصداقيتنا مع الطاغية التالي؟» .

وحول انقسام أوروبا بين مؤيد للولايات المتحدة ومعارض لها والشلل الذي أصاب الأمم المتحدة نتيجة لذلك، وخاصة بسبب موقف فرنسا وروسيا وألمانيا، قال بلير في خطابه هذا : «في قلب ذلك الانقسام فكرة عالم فيه أقطاب متنافسة على القوة . فهناك الولايات المتحدة وحلفاؤها من ناحية، وفرنسا وألمانيا وروسيا وحلفاؤها من ناحية أخرى . لا أعتقد أن جميع هذه الدول تنوي التوصل إلى هذه النتيجة . ولكن هذا ما يواجهنا الآن . أعتقد أن مثل هذه الرؤية مضللة وخطرة جداً على عالمنا . وأعرف لماذا تظهر . هنالك تذمر من هيمنة الولايات المتحدة، وهناك خوف من تفردها . يتساءل الناس : هل تصغي الولايات المتحدة لنا ولاهتماماتنا؟ وهناك ربما افتقار للفهم الكامل لاهتمامات الولايات المتحدة بعد ١١ أيلول . أعرف كل هذا، ولكن أسلوب التعامل معه ليس المنافسة وإنما المشاركة . الشركاء ليسوا خدماً وليسوا منافسين أيضاً . ما وجب على أوروبا قوله في أيلول الماضي للولايات المتحدة هو هذا : وجب عليها أن تقول بصوت واحد : نحن نفهم قلقك الاستراتيجي من الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل، وسوف نساعدك على مجابهتهما . ونعني ما نقول في أي قرار للأمم المتحدة نصدره وسوف ندعمه بالعمل إذا رفض صدام نزع سلاحه طوعاً . ومهما يكن، يجب على أوروبا في المقابل أن تقول : نطلب شيئين منك : على الولايات المتحدة اختيار سبيل للأمم المتحدة، وأن تعترف بالأهمية الكبرى الأساسية

لاستئناف عملية السلام في الشرق الأوسط التي نتمسك بها» .

ولتبرير تغيير نظام الحكم في العراق ، قال بلير في خطابه هذا الذي سبق العدوان على العراق بيوم واحد :

«لم أقدم قط تغيير نظام الحكم كتبرير للعمل (العسكري) . علينا العمل وفقاً لما جاء في القرار (١٤٤١)-هذا هو قاعدتنا القانونية . وهو السبب لما أقول بصراحة : إذا عملنا فيجب أن نعمل هكذا بضمير نقي وقلب قوي . أقبل كلياً أن أولئك الذين يعارضون مسلك العمل هذا يشاركون في ازدرائي لصدام . فمن لا يستطيع ذلك؟

إن وحشية القمع-الموت ومعسكرات التعذيب والسجون البربرية للمعارضين السياسيين ، والضرب الروتيني لكل إنسان مشكوك في ولائه لهم ولأسرهم-موثق جداً . في الأسبوع الماضي شتم أشخاص صدام فربطوا إلى عمود كهرباء في شارع ببغداد ، وقطعت ألسنتهم ، ثم شوهت أجسادهم ، وتركوا ينزفون دماً حتى الموت ، كتحذير للآخرين . أتذكر قبل بضعة أسابيع في حديث مع عراقية في المنفى ، قلت لها : إنني أفهم كم مروعاً العيش تحت حكم صدام . وأجابت : ولكنك لا تعرف ولا تستطيع أن تعرف كيف تعيش في رعب دائم . هي على حق . نحن نعتبر حريتنا أمراً مفروغاً منه . ولكن تصوروا ما يجب أن تكون عليه عندما لا تستطيع الكلام أو الحديث أو المناقشة أو حتى السؤال في مجتمع تعيش فيه . أن ترى الأصدقاء والأسر تعتقل دون أن تجرؤ على الشكوى ، ومعاناة الإهانة والعجز عن إبداء الشجاعة في وجه إرهاب لا يرحم . هكذا يعيش الشعب العراقي . ترك صدام في السلطة والحقيقة الفاضحة هي كيف سيستمرون في العيش بالإكراه» .

حصل بلير على موافقة مجلس العموم بـ (٤١٢) صوتاً مقابل (١٤٩) صوتاً ، على المشاركة في غزو العراق ، الذي بدأ في اليوم التالي ٢٠٠٣/٣/١٩ .

بيان بلير في مجلس العموم حول الدور العسكري البريطاني في احتلال العراق

يعترف توني بلير في مذكراته بأثر المعارضين في الرأي العام البريطاني لغزو العراق ووسائل الإعلام البريطانية والأوروبية عليه ، باعتباره صاحب القرار الأول في هذه المغامرة ، كما كان لهم تأثيرهم على المراحل المتأخرة من احتلال العراق . ويعترف أيضاً بأن التخطيط الأمريكي-البريطاني لما بعد الغزو في العراق غير واف . أما الدروس التي تعلمها الأمريكيون والبريطانيون من هذه الحرب ، فيرى بلير أنها وردت

فـــي تقـريـــر المفتـش العـام الأمـريكي المختـصر في سنة ٢٠٠٩ ، وفي تقـرير راند Rand Report في السنة نفسها .

يقول بلير في مذكراته حول هذا الموضوع : «كانت الحملة العسكرية على العراق ناجحة بشكل باهر . أما الحملة المدنية لإعادة الإعمار فلم تكن كذلك . ولكن تحليل ما كان خطأ يمكن تلافيه وما كان غير متوقع وغير قابل للتوقع من التحديات ، وتأثير كل منها ، صعب حتى الآن . ونحن في بريطانيا ، كان بإمكاننا أن نعمل أفضل مما فعلنا ، وبصراحة كانت خططنا في المنطقة التي كنا مسؤولين عنها ملائمة ، وكنا في كل حدث نتقدم بسرعة ونصلح كل عيب» .

يرى بلير أن أهم ما كان يخشاه محتلو العراق إنتشار المجاعة في البلاد ، بسبب اعتماد السكان على كوبونات الطعام . كما يعترف بأن تخطيطهم لم يكن جيداً . كما كانوا يخشون استعمال الجيش العراقي الأسلحة الكيمياوية والبيولوجية في مقاومته للقوات الغازية . وهذا لم يحدث مثلما لم تحدث المجاعة أيضاً . وثالث ما كان يخشاه المحتلون إشعال النار في حقول النفط العراقية . ويزعم بلير أن حقول النفط كانت ملغومة فعلاً ، مما يدل على عزم السلطات العراقية على تفجيرها .

جاء في بيان حكومة بلير أمام مجلس العموم في ٢٠٠٣/٣/٢٤ ما يلي : «نحن في اليوم الرابع من هذه الحرب . ويجدر إعادة التذكير بأهدافنا المركزية . وهي : إزاحة صدام عن السلطة ، وضمان نزع أسلحة العراق الكيمياوية والبيولوجية والنووية . ولكن بتحقيق هذين الهدفين التزمنا أيضاً باعتبارات أخرى . نود تنفيذ هذه الحملة بطريقة تقلل من معاناة الشعب العراقي إلى الحد الأدنى ، وهو الذي تعرض لوحشية صدام ، والحفاظ على ثروة البلاد من أجل الرخاء المستقبلي للشعب . وليس لجعل هذه الحرب غزواً بل تحريراً للعراق . ولهذا السبب ، لم نقم ، كما توقع بعضهم ، بقصف كثيف أول الأمر يتلوه زحف بري . وبدلاً من ذلك ، بدأت القوات البرية عملياتها منذ البداية ، وحمت المنشآت النفطية ، وكسبت رصيداً إستراتيجياً بالمحافظة عليها والحيلولة دون تدميرها . كانت الحملة الجوية واضحة الأهداف بدقة . بالطبع لا بد من إصابات بين المدنيين ، وعملنا ما في وسعنا لجعل هذه الإصابات في حدها الأدنى . ولم نقصف محطات ضخ المياه والكهرباء . أما الأهداف فكانت : البنية التحتية ، والقيادة والسيطرة لدى نظام حكم صدام . وبذلنا جهوداً واسعة لتأمين خطوط التزود بالمعونة الإنسانية ، مع أن وجود الألغام كان يعرقلنا .

وفي المقابل فإن طبيعة نظام حكم صدام قد اتضحت كلياً ببساطة في أعماله . فقد لغمت الثروة النفطية وبأعماق بعيدة . ولولا أننا ضربنا بسرعة لاحترقت ثروة العراق . وتم عرض الأسرى في تحد للاتفاقات الدولية كلها . وقد أعدم من جرؤ على نقد نظام الحكم العراقي .

والأن دعوني أعطي المجلس بعض التفاصيل ، إذا سمحتم لي عن الحملة العسكرية في الجنوب ، كان هدفنا تأمين حماية المنشآت النفطية الرئيسية في شبه جزيرة الفاو ، والاستيلاء على ميناء أم قصر ، الميناء العراقي الوحيد إلى العالم الخارجي ، وجعل البصرة المدينة الثانية في العراق ، غير قادرة ، كقاعدة للعمليات العسكرية من قبل صدام ضد قوات الائتلاف . وفي الغرب في الصحراء ، كان هدفنا حماية الشعب في المنطقة الكردية المستقلة ذاتياً ، وحماية حقول النفط الشمالية ، والوصول إلى بغداد بأسرع ما يمكن ، وبذلك نجعل نهاية نظام الحكم أقرب .

آمل أن يفهم المجلس أن هناك حداً لما كيف أقوله عن تفاصيل عملياتنا ، وبخاصة تلك المتعلقة بالقوات الخاصة . ولكن مع هذا التحذير ، فقد استولت القوات البريطانية والأمريكية على الفاو حالياً ، وحقول النفط الجنوبية تحت سيطرة الائتلاف . وميناء أم قصر ، على الرغم من جيوب المقاومة ، تحت سيطرة الحلفاء . ولكن الطريق المائي الضروري للمعونة الإنسانية قد يغلق بالألغام ، ونحتاج لبضعة أيام لتنظيفه . والبصرة محاصرة ، وليس بالإمكان استعمالها كقاعدة عراقية . ولكن في البصرة جيوب للأجهزة الأمنية المخلصة لصدام ، والتي تقاوم بشراسة وتم احتواؤها ، ولكن ما زالت قادرة على إلحاق إصابات بقواتنا . ولهذا فنحن نتقدم بحذر شديد . وأصبحت الصحراء الغربية آمنة . وحصلت في الشمال هجمات جوية على أهداف عراقية في الموصل وكركوك وتكريت . نحن على اتصال دائم مع الحكومة التركية والسلطات الكردية للحث على الهدوء .

هاجمت الحملة الجوية المنشآت العسكرية العراقية ، ومراكز نظام حكم صدام ، ومراكز القيادة والسيطرة . ونفذت خمسة آلاف طلعة جوية . واستسلم آلاف الجنود العراقيين ، وغادر مثلهم ساحة القتال ، بعد أن تفككت وحداتهم العسكرية . ولكن مازال أولئك الأقرب إلى صدام يقاومون ويقاتلون بقوة . فهم النخبة الذين يكرههم السكان المحليون ، وفيهم القليل من الخسائر . وهناك أيام صعبة قادمة ، ولكن الاستراتيجية الغربية وتوقيتها ينفذان وفقاً للخطة» .

بعد هذا العرض التفصيلي للعمليات العسكرية ، التي قامت بها القوات البريطانية في العراق حتى يوم ٢٠٠٣/٣/٢٤ ، يعود بلير للحديث عن الوضع الدولي الذي نوقش في اجتماع المجلس الأوروبي ، الذي عقد في بروكسل في ٢٠٠٣/٣/٢١ ، يقول بلير : «كان هدفي إقناع الولايات المتحدة أنه حالما يتوقف القتال في العراق يجب وضع العملية السياسية تحت إدارة الأمم المتحدة . وبإمكانها أن تشرف على الانتخابات . وقد تكون لديها السلطة الرسمية لاتخاذ القرار ، حتى لو بقيت السلطة الفعلية في أيدي الولايات المتحدة . وبإمكاننا حينئذ أن نقول : حسناً ، اختلفنا جميعاً على الاطاحة بصدام ، ولكن ذهب الآن صدام ، دعنا نوافق جميعاً على الاهتمام بالعراق مستقراً وصديقاً ومحكوماً جيداً .

في هذا الصدد ، سار المجلس أفضل مما كان متوقعاً . وافق على الحاجة إلى عائدات نفطية توضع في صندوق لدى الأمم المتحدة من أجل الشعب العراقي . ووافق على وجوب إعطاء الأمم المتحدة تفويضاً قوياً لما بعد الحرب في العراق ، وأن الحكومة الانتقالية العراقية يجب أن تكون بوجه عام ممثلة لجميع قطاعات الرأي العام العراقي . . .

كان من الأصعب إقناع الولايات المتحدة بهذه الأفكار . كان كولن باول وزير الخارجية ، من المحبذين جداً لها كما كنت أنا . أما ديك تشيني ودونالد رمسفيلد والعديد في الإدارة الأمريكية ، فكانوا يرون أن بيروقراطية الأمم المتحدة سوف تعقد الأمور . ولذا كان لا بد من إقناع جورج بوش . كان من المقرر أن نجتمع في ٢٧ آذار . وكتبت إليه مذكرة تفصيلية توضح لماذا يجب أن تتدخل الأمم المتحدة . وأكدت مرة أخرى الأهمية الأساسية لعملية السلام في الشرق الأوسط . لما التقينا في كامب ديفيد تفحصنا المذكرة بالتفصيل سطراً سطراً . ولما درس المذكرة بعناية كان واضحاً أنه سوف ينتهي بالعودة إلى الأمم المتحدة . كان ذلك جيداً . ولكن الحقيقة أنها كانت صراعاً يبين طبيعة المشكلة .

كان الاعتقاد الأمريكي أن الأمم المتحدة لا تفسح المجال . وكان إعتقادي أن عليك بناء ائتلاف للفوز ، والأمم المتحدة أسهل قياداً لمثل هذا الائتلاف . هذه ببساطة ليست مسألة شن حرب وإنما هي حرب عصابات وليست حرباً تقليدية . لقد حوربت حروب عصابات من قبل . مع التكنولوجيا الحديثة والأخبار الحديثة والاتصالات الحديثة ، تتم لعبة الحرب الحقيقية في غرف جلوس الناس عبر العالم . إنها مشهد يراه

المشاهدون ، والعدسات التي يرون من خلالها هي قبل كل شيء عنصر حيوي في الربح والخسارة . بالطبع كان الرأي العام يلعب دوراً مهماً في الحرب . ولكن الآن توجد وسائل إعلام خفية مع قوات الجبهة الأمامية . وكل واحد يقدم تعليقاً سريعاً . وفيلم الأخبار الجماعية ليس أعظم الآن ، لأنه من طبيعة مختلفة تماماً عما كان في الماضي . . . والمسألة هي أن التأثير البصري للحرب الحقيقية يتفوق على التحليل والنص والتفسير . وتغدو للحرب قصتها الخاصة بها لأن الصور تصدم الإنسان بقوة . . .

كان من الصعب بيع فكرة إشراف الأمم المتحدة على العراق لجورج بوش ، وأصعب حتى مع ديك تشيني . وتوصلنا في النهاية إلى اتفاق مبدئي بوجوب دخول الأمم المتحدة . حاولت إصلاح الأمور بالذهاب من كامب ديفيد مباشرة إلى نيويورك ، لمقابلة كوفي أنان الذي كان شخصياً معارضاً للعمل العسكري . لقد رأى في الاقتراح عودة لروح الأمم المتحدة . وكان ممتناً لأنني قمت بهذا الجهد لأراه وأتشاور معه .

في ضوء ما بدا نقداً عادياً لاستبعاد الأمم المتحدة ، ولأنه زود كلير شورت وزيرة التنمية الدولية ، بالسبب المزعوم لاستقالتها بعد بضعة أسابيع . ومن الجدير بالإشارة إلى أنه منذ البداية أوضح كوفي أنان أنه لا يسعى وراء دور القائد للأمم المتحدة ، وإنما أراد أن تكون الأمم المتحدة في قلب الأحداث . ولكنه رأى أن لا سبيل للأمم المتحدة أن تتولى أي دور قبل أن تستقر البلاد . وما أراده دوراً مركزياً أو دوراً حيوياً . . . وهذا ما حصل عليه» .

جهود بلير الدبلوماسية لمساندة الاحتلال الأمريكي للعراق

يواصل توني بلير في مذكراته وصف العمليات العسكرية التي قامت بها القوات الغازية البريطانية والأمريكية في شهري آذار ونيسان ٢٠٠٣ ، فيقول : «لقد قامت القوات الأمريكية والبريطانية بعملها بإعجاب . مر شهران من ١٩ آذار حتى نهاية حكم صدام . والواقع أنه في ١٤ نيسان قلت في بيان أمام مجلس العموم : مع أن الحرب لم تنته بعد ، فقد انهار نظام الحكم . كانت حملة عسكرية استثنائية نفذت جيداً وبمدة قصيرة . لخصت ما حققناه كما يلي : قسم كبير من جنوب العراق تحت السيطرة البريطانية . والغرب مضمون ، وفي مدينته الرئيسية القائم خف القتال . وفي الشمال إنسحبت القوات الكردية من كركوك والموصل ، تاركة القوات الأمريكية

تسيطر ، فهي في تكريت وحولها . وتواجه بعض المقاومة . ولكن انهارت قوات صدام في جميع أنحاء العراق . والكثير من القتال الباقي ، ولا سيما في بغداد نفسها ، نفذته قوات أجنبية غير نظامية . وفي بغداد نفسها ما زال الأمريكيون مسيطرين على معظم المدينة وليس عليها كلها .

وكما هو واضح ، المشكلة الآن هي الفوضى التي تلت انهيار نظام الحكم . بعض الفوضى لا بد منها . وهي تحدث في أي وضع حيث توجد دولة بوليسية وحشية أرهبت سكانها لثلاثين سنة ، انهارت فجأة . وبعض النهب موجه نحو أهداف خاصة لنظام الحكم ، بما في ذلك المستشفيات التي كانت مخصصة لاستعمال نظام الحكم . ولكنه وضع خطير ونحتاج إلى عمل ملح لوضعه تحت السيطرة . تظهر البصرة أن المشاكل الأولية يمكن التغلب عليها . وأنا فخور بالدور الذي قامت به القوات البريطانية بقيادة الميجور جنرال روبين بريمز Robin Brims في البصرة . لقد تعرفت القوات البريطانية على الفنيين والإداريين العراقيين . ومعهم استعدنا العديد من المصالح الرئيسية . ومعظم العيادات الصحية تعمل الآن . لقد زودت القوات البريطانية مستشفى البصرة العام بالأوكسجين ، وتقدم الدعم الطبي حيثما تستطيع . وبدأ حوالي ألفي شرطي عملهم في المدينة . وبدأت دوريات الحراسة المشتركة في ١٣ نيسان . وتوقف النهب في المدن المحيطة أو خف . وأعيد تأسيس دوريات الحراسة المحلية ، ويجري التعاون مع مجالس المدينة بصورة جيدة .

والإصابات في الجانب البريطاني في هذه العملية العسكرية كانت ، لحسن الحظ خفيفة-أقل من ثلاثين وفاة» .

يعترف بلير ، من جهة أخرى ، بفشل الجهود الأمريكية في إعادة إعمار العراق ، ويصف عمل «مكتب إعادة الإعمار والمعونة الإنسانية Office of Reconstruction and Humanitarian Assistance (ORHA)» بالفوضى . وهو يعزو هذا الفشل إلى العنف السائد في العراق ، في ظل الاحتلال الأمريكي-البريطاني . ويفخر بكون جنوب العراق هادئاً طوال سنة ٢٠٠٣ بسبب وجود القوات البريطانية وعشرين ألف جندي من الدول الأخرى المشاركة في الغزو .

يلوم بلير أجهزة المخابرات البريطانية والأمريكية ؛ لأنها لم تحذر من سماح العراق لتنظيم القاعدة بالعمل في أراضيه في مطلع سنة ٢٠٠٣ ، كما أنها لم تبلغ عن تكتيك القيادة العراقية بعدم مقاتلة القوات الأمريكية والبريطانية لتفوقها عليها ، وترك البلاد

تقع تحت سيطرتها وايقاعها في الفوضى . يقول بلير : «كانت الأمور هادئة حتى في بغداد في ٢٧-٢٨ نيسان ٢٠٠٣ . واستطاع الجنرال جاي غارنر Jay Garner ، رئيس مكتب إعادة الإعمار والمعونة الإنسانية ، عقد اجتماع سياسي ضم ما يربو على مئتي مندوب عراقي وممثلين لدول الائتلاف . وفي نهاية حزيران أنشئ أول مجلس سياسي جديد في البصرة . وقبل ذلك ، زرت شخصياً البصرة في ٢٩ أيار . كانت القوات البريطانية مدهشة . رأيت القوات في قصر الرئاسة ثم في ميناء أم قصر . وكان الميناء قد نظف من الألغام ، وبدأ الاستعداد لإعادة فتحه . كانت قدرته على الاستيعاب ضخمة . وقبل أن أترك الحكم سنة ٢٠٠٧ ألقيت خطاباً في الإمارات العربية المتحدة قلت فيه : إن البصرة يمكن أن تكون مثل دبي أو أبو ظبي ، سخر منه كثيرون . .

زرت مدرسة مؤثثة حديثاً من قبل القوات البريطانية . كانت البصرة هادئة ومسالمة نسبياً . وفي بغداد أطيح بتمثال صدام من قاعدته ، وتحطم قطعاً صغيرة وسط الفرح . كان لحظة عظيمة . وبغباء قدمت مقابلة لصحيفة صن Sun البريطانية . وجررت إلى ملاحظة حول فقدان وظيفتي بسبب الحرب . ومع نهاية أيار ، فقد نحو (٥٠٠) جندي من قوات الائتلاف ، أكثر من (٤٠٠) منهم أمريكيون . وقتل نحو (٨) آلاف عراقي من المقاتلين في معظمهم» .

ويحاول بلير تفسير موقف روسيا المعارض للاحتلال الأمريكي البريطاني للعراق . ففي أثناء زيارته لروسيا في نهاية نيسان ٢٠٠٣ ، دخل في نقاش مع فلاديمير بوتين ، الذي كان قد شن هجوماً لاذعاً على بريطانيا في مؤتمر صحفي ، معتبراً البريطانيين وكلاء للولايات المتحدة . يقول بلير : «على مائدة العشاء جرى بيننا حديث متوتر وحام . . . قال بوتين : افترض أننا هاجمنا جورجيا ، التي هي قاعدة للارهاب ضد روسيا ، ماذا عساك أن تقول إذا استولينا على جورجيا؟ ومع ذلك يعتقد الأمريكيون أن باستطاعتهم أن يفعلوا ما يريدون لأي شعب . وكان الشيشان مثال آخر ، ومع ذلك فإنني عملياً أيدت قمع الإرهاب هناك .

تبيّن لي بعد ذلك عمق مشاعره بأن روسيا قد تم تجاهلها من قبل الولايات المتحدة ، كما تبين لي تصميمه على أن على الولايات المتحدة أن تدرك عملياً أنها غلطة ارتكبتها . والصعوبة هي أنني شبه وافقت معه على خطأ الانفراد (الأمريكي) . كان فيها عجرفة .

احترمت بوتين على صراحته ، على الرغم من اختلافنا ، وأبقينا خطوط الاتصال

مفتوحة بيننا . ولكن الفرصة لإقامة شراكة حقيقية قوية أمريكية-روسية قد فاتت» .

وحول التعاون البريطاني مع الأمريكيين في العراق في عهد وزارته ، يقول : «لما قابلت جيري بريمر Jerry Bremer الذي تولى حديثاً رئاسة مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية ، الذي أصبح سلطة الائتلاف المؤقتة Coalition Provisional Authority ، قلت له يجب أن لا يتردد في طلب أي شيء يحتاجه منا ، ونصحته باستعمال التكتيك نفسه مع إدارته . قلت له : لا تتراجع ، إذا احتجته اطلبه ، سوف أدعمك وسوف يدعمك رئيسك أيضاً . وشعرت أنه قدير وملتزم .

بعد تلك المحادثة ، ضاعفت جهودنا للمساعدة ، ليس في حقل العمليات في البصرة ، وإنما بمقدار ما نفعل لدعم الولايات المتحدة في بقية العراق . كانت الزيارة دعوة لليقظة الحقيقية . ومع أن باستطاعتي رؤية الكثير مما تم عمله ، فقد كان باستطاعتي أيضاً أن أرى أننا كنا في خطر انتصارنا في الحرب وخسارة السلام . توقعات الشعب كانت كبيرة ، وتعقيدات الحياة القبلية والدينية كانت ظاهرة . كان ذلك تحدياً كبيراً ، ولا سبب ، مهما كان ، للرضا الذاتي .

عند عودتي ، دعوت الوزراء الرئيسيين معاً وأعطيتهم سلسلة من التعليمات لمساعدة الولايات المتحدة على أسس أفضل . واعتقدنا أنهم سيعنون بوسط العراق ونحن بالجنوب . وتبيّن لي بعد الزيارة أنه مالم ينجحوا سنفشل . وأرسلت جون ساورز John Sawers ، مستشاري السابق للسياسة الخارجية إلى بغداد ، وجاء بالاستنتاج الذي توصلت إليه : تحتاج العملية الأمريكية إلى دعم قوي . وبعثت بمذكرة قوية إلى جورج بوش وتحدثنا هاتفياً .

لحسن الحظ ، أصدر مجلس الأمن الدولي بالإجماع قراره رقم (١٤٨٣) في ٢٢ أيار ٢٠٠٣ ، الذي أعطى الأمم المتحدة دوراً رئيسياً في جميع جوانب التطورات في العراق . وقد أعادنا إلى الأسلوب المتعدد الأطراف . دافعت بقوة عن تعيين مفوض للأمم المتحدة على مستوى رفيع في بغداد . وبعد محادثات وافق كوفي أنان ، وبحث مني اختيار سيرجيو فييرا دو ميلو Sergio Vieira de Mello المندوب السامي لحقوق الإنسان ، وهو رجل بسجل حافل وخبرة من الطراز الأول» .

في مطلع تموز ٢٠٠٣ ، عقد مجلس الحكم الانتقالي في العراق أول اجتماعاته ، ضم (٢٥) عضواً ، (١٣) منهم شيعة و(١١) سنة ، ومسيحي واحد . وتم اختياره بعد مشاورات . وقد اعتبره أول خطوة لاستعادة العراق سيادته» .

بلير يقلل من أهمية ما أذيع عن عمليات التعذيب في أبو غريب

حاول توني بلير في مذكراته تفسير المقاومة الوطنية العراقية للاحتلال الأمريكي-البريطاني بصورة تتفق ومزاعمه الأخلاقية . يقول في هذا الصدد : «القضية هي أننا وأكثرية الشعب العراقي أردنا الشيء نفسه : إخراج صدام ومساعدة البلاد للوقوف على قدميها ، ثم خروجنا من البلاد وقيام حكومة تمثيلية جديدة . أما الفكرة القائلة إن ما حدث كان نتيجة حتمية لإزاحة صدام فليست صحيحة تماماً . لم تحدث انتفاضة شعبية للدفاع عن صدام . ولم يظهر غضب عارم على الغزو . كان في البداية شعور بالارتياح والأمل .

نعم ، كان بإمكان مكتب إعادة الاعمار والمعونة الإنسانية أن يعمل أفضل في خطط إعادة الإعمار ، ولكن المشكلة ليست فيه . لدينا مال كاف وجهد وناس لإعادة إعمار العراق في مدى سنة بعد انتهاء الحرب . وما جرى هو تدهور في الوضع الأمني . كان ذلك جزءاً من عمل عناصر عراقية من تلقاء نفسها . وهي مجموعات قبلية ودينية وإجرامية قررت إجهاض الديمقراطية الوليدة والاستيلاء على السلطة . ولكن البعد الإضافي الحاسم الذي حوّل الوضع الصعب إلى فوضى تقريباً ، كان اتصال هذه الفئات المتمردة بتنظيم القاعدة من جهة ، وبإيران من جهة أخرى .

وفي أثناء ذلك ، اكتشف الإرهابيون أمرين : إذا سببوا الرعب للعراقيين العاديين ، وبخاصة باستعمال القنابل الانتحارية ، فإن اللوم سيقع على الائتلاف والحكومة العراقية وليس عليهم . وبالنسبة إلى الائتلاف فإن المستوى المؤلم للدول المشاركة بفقدان جنودها كان متدنياً جداً . وإذا تجاوز هذا المستوى فإن الائتلاف سيفقد الثقة-وليس القوات نفسها-وإنما الجمهور في الوطن . وبعبارة أخرى ، إذا استطاع الإرهابيون نشر الفوضى ، فالخوف الناجم وتدهور الأمن سيصبحان مؤشراً إلى أن المهمة قد فشلت ، وأن التجربة الديمقراطية أخطأت في توجهها ، وأن العودة إلى الأساليب القديمة هي السبيل الوحيد المفتوح للعراق .

وبدلاً من الشجاعة في مواجهة أعمال الشر الإرهابية ، كانت ردة الفعل الشك والوهم بما كان يجري . فمن جهة قد يدرك الناس أن الإرهابيين كانوا الوحيدين الذين يجب قتالهم ، ولكن من جهة أخرى ، مع توالي السيارات المفخخة وموت الجنود ليس في المعارك وإنما في هجمات المتمردين . وحقيقة الأشلاء تمحو التحليلات حول لماذا كنا هناك ، ولماذا نعطيها أهمية . لقد أزالت الدماء الجارية الأمل وجلبت اليأس» .

في ٢٠٠٣/٦/٢٤ قتل ستة من ضباط الشرطة العسكرية البريطانية في مدينة المجار الكبير جنوب العمارة في محافظة ميسان . وفي ٢٠٠٣/٨/١٩ انفجرت سيارة مفخخة أمام مقر الأمم المتحدة في بغداد ، وقتلت عشرين من موظفي الأمم المتحدة ، بمن فيهم المفوض سيرجيو دو ميلو . ينسب بلير هذه الأعمال الإرهابية إلى أبو مصعب الزرقاوي ، المسؤول عن تنظيم القاعدة في العراق . كان من نتيجة الهجوم على مقر الأمم المتحدة سحب موظفيها فوراً من العراق ، ولم يعودوا إليه إلا بعد سنوات عدة . وحتى نهاية النصف الأول من سنة ٢٠٠٤ لم يتجاوز عدد الهجمات الانتحارية الثلاثين ، حسب معلومات توني بلير . ولكن هذا العدد ارتفع في النصف الأول من سنة ٢٠٠٥ إلى مئتي هجوم . ويؤكد بلير أن المقاومة السنية اتصلت بتنظيم القاعدة في منتصف سنة ٢٠٠٥ ، بينما بدأت الميليشيات الشيعية المدعومة من إيران عملها في جنوب العراق . ثم بدأت الهجمات الشيعية على السنة . وفقدت إسبانيا وإيطاليا عدداً من جنودها المحتلين . وبدأت دعوات شعبية في البلدين لسحب قواتهما من العراق ، فاستجابت حكومتاهما لهذه الدعوات .

وفي نيسان ٢٠٠٤ نشرت صور من سجن أبو غريب في العراق ، تظهر الجنود الأمريكيين يرتكبون الفظائع مع السجناء العراقيين . يحاول بلير التقليل من أهميتها بالقول : «لا شك أنها حوادث استثنائية ، وقد عوقب المعتدون ، ولكن الإساءة كانت عامة . بالنسبة إلى معارضي الاحتلال كانت الصور منحة من السماء لتشويه سمعة الولايات المتحدة ، واستعملت قناة الجزيرة الفضائية وغيرها في العالم العربي ، هذه الصور كرمز للمواقف الأمريكية من المسلمين .

وصدرت مزاعم مماثلة ضد الجنود البريطانيين . وقد بذلت ما في وسعي لحماية الجنود ، ولكن كان ذلك صعباً . وشعر الضباط القانونيون أنهم تحت ضغط شديد من أجل العقاب . كان وقتاً مقززاً للنفس . بالطبع مثل هذه المعاملة لا مبرر لها مطلقاً وتحتاج للعقاب . ولكن ليس من العدالة أن تطغى أفعال منعزلة من السلوك السيء على العمل المدهش الذي كان يقوم به الجنود البريطانيون لمساعدة العراق وشعبه .

وعلى أي حال ، كان هذا كله من أجل إلهاب المشاعر المعادية للغرب على شبكة الانترنت الخاصة بالجهاديين ، وحتى في وسائل الإعلام الرئيسية . ولا أعتقد أنه صدر رأي احتجاج خارج العراق على الهجمات الانتحارية ، وحقيقة أن التمرد كان يهدف إلى عرقلة العراقيين في حكم أنفسهم .

كان الشعار : أنتم غزوتم ، وهذا خياركم ، والآن هذه قذارتكم ، اذهبوا ونظفوها .
كان هذا مفهوماً تماماً وقد تشعر بتبريرها . ولكنها تتجاهل بعداً واحداً مهماً : أن سبب المأزق زوار العراق من القوات الخارجية : القاعدة والإسلام المجاهد ، الذين كنا نقاتلهم في كل مكان . ومحاربتهم في العراق لم يكن تحولاً عن المعركة الحقيقية . لقد أصبحت جزءاً منها» .

بعد هذا التفسير الخاص ببلير ، الذي يتجاهل الاحتلال العسكري وحق الشعب العراقي في مقاومته ، مثل كل الشعوب الواقعة تحت الاحتلال ، والذي يخرج الشعب العراقي عما يجري على أرضه ، ويعزو المقاومة إلى قوى خارجية دخلت إلى العراق وقاومت المحتلين الأمريكيين وحلفاءهم . يقول في هذا الصدد : «قدّر قائد القاعدة في العراق أن آلاف القنابل الانتحارية انفجرت بنجاح في العراق بين سنتي ٢٠٠٣و ٢٠٠٦ . حجتي بسيطة جداً : أخرج هؤلاء من المعادلة ستكون المهمة الأمنية مختلفة جداً : قاسية ولكن يمكن تدبرها» .

يواصل بلير تحليله بقوله : «ولتعميق النزاع ، فجرت القاعدة مسجد سامراء أهم الأماكن المقدسة عند الشيعة في العراق في شباط ٢٠٠٦ . كان تطوراً مدمراً . إنه يعني أن القاعدة ترغب في إثارة العنف الطائفي . دعا مجتهدو الشيعة الأعلون إلى ضبط النفس والهدوء . ولكن أنموذجاً قد تكوّن . تشكلت مجموعة ميليشيا شيعية في داخل القوات الرسمية وخارجها ، ونفذت عمليات انتقامية وحشية ضد السنة . كان هذا ما تقصده القاعدة . بعض القنابل الانتحارية كانت من العراقيين ، ولكن العديد لم يكن منهم وإنما جاؤوا من الخارج بعضهم نساء ، وحتى نساء حوامل .

حتى مطلع سنة ٢٠٠٤ بقي جنوب العراق هادئاً نسبياً . كانت هنالك حوادث منعزلة ، وكان تدمير البنية التحتية في تزايد ، ولكن الوضع تحت السيطرة . وعلى أي حال فإن مقتدى الصدر رجل الدين الشيعي المتطرف وله صلة بإيران ، كان يقود المعارضة الشيعية ضد الاحتلال البريطاني ويحشد للدعم . وكان يدعو علناً ويحرض على العنف .

في كانون الثاني ٢٠٠٤ زرت البصرة وأكاديمية الشرطة الجديدة التي أنشأناها في الزبير . كانت مؤسسة جيدة . وكنا حتى تلك الفترة واثقين من إخلاص الشرطة الذين ندربهم . أخذ الوضع يتحسن في البصرة . ولكن مع نهاية سنة ٢٠٠٤ ، أصبح واضحاً أن بعض القوى الشيعية في العراق وفي إيران أخذت تنظر إلى التقدم

السياسي في الجنوب بحذر وغضب . على الرغم من نشاط القاعدة والعناصر البعثية في التمرد ، كان العراق حقيقة يتقدم . أجريت انتخابات برلمانية وعلى مستوى المحافظات . وكان من الصعب على الشعب ممارسة حقوقه الديمقراطية . . . في ذلك الوقت كان التصويت على أسس دينية وقبلية . وكانت هنالك مؤشرات على قدرتهم على القيام بالمهمة . وأخذت أموال النفط ، على الرغم من الهجمات الإرهابية على وسائل إنتاجه ، بالتدفق» .

يتناول بلير نشاط المقاومة العراقية للقوات البريطانية المحتلة سنة ٢٠٠٤ ، ويذكر أن أول حادث انتحاري ضد هذه القوات كان في حزيران ٢٠٠٤ . ويرى أن مصدرها إيران ، باعتبارها هي التي تتولى تدريب الميليشيات الشيعية وتسليحها ، وأن سنة ٢٠٠٧ شهدت أعلى نسبة ضحايا بين القوات البريطانية في العراق . يقول بلير إنه في أواخر سنة ٢٠٠٦ ، كان هنالك شعور قوي وحاد في القيادة العليا للجيش البريطاني «بأننا قد عملنا كل ما في وسعنا في البصرة . ودخلنا في الواقع في حالة مصالحة مؤقتة مع الحاكم والميليشيات هناك . وتحسنت الحالة الاقتصادية للشعب ، دون أن يتحسن الوضع الأمني . وكان السؤال : هل وجودنا استفزاز أم دعم للسكان؟ كان هناك رأي متزايد بأن وجودنا استفزاز» .

زار بلير البصرة في كانون الأول ٢٠٠٦ ، وكانت المدينة قد سقطت في أيدي الميليشيات . وجد أن القائد البريطاني فيها الميجور جنرال ريتشارد شيريف Richard Shireff مصمم على استعادة البصرة من الميليشيات . ولكن رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي ، فضل أن تقوم الفرقة العاشرة من الجيش العراقي بالتعاون مع القوات البريطانية بالمهمة . وهذا ما حدث .

بلير يقول: حل الجيش العراقي واجتثاث البعث سبب الفوضى في العراق

يتحدث توني بلير بشيء من الإسهاب في مذكراته عن الجهود البريطانية والأمريكية للقضاء على المقاومة الوطنية العراقية . ويذكر أن القوات العسكرية العراقية والقوات الأمريكية شنت ، بدعم بريطاني ، أوسع وأنجح عملية أمنية في البصرة في آذار ٢٠٠٨ ، وهي العملية التي حملت اسم «مهمة الفرسان» ، وأسفرت عن إخراج الميليشيات المدعومة من إيران من المدينة . ويثني بلير على القوات البريطانية ، ويقول إنها قامت بدور بطولي وحيوي ولا يمكن تعويضه في استقرار الجنوب .

أما في بقية العراق فكانت القصة أكثر دموية . فقد زادت هجمات القنابل الانتحارية ، وساءت حالة الأمن ، بحيث أصبح من المتعذر على المدنيين الأجانب مساعدة العراق . ويشيد بلير «بأداء الجيش الأمريكي المتميز» وبإخلاصه وشجاعته وذكائه .

ويذكر بلير أنه وافق على وضع لواء بلاك وتش Black Watch ، وهو من قوات النخبة في الجيش البريطاني ، في مهمة لمساعدة القوات الأمريكية في «عملية دوغوود Operation Dogwood» في شمال بابل في تشرين الثاني ٢٠٠٤ . ويؤكد أن حملة العراق منيت بالفشل في منتصف سنة ٢٠٠٦ . فقد كان العراقيون يشكون ويقولون إن الأمريكيين والبريطانيين فشلوا في توفير الأمن في العراق . وظهرت مقالات في الصحف تقارن الوضع في ظل الاحتلال الأمريكي-البريطاني بما كان عليه تحت حكم صدام حسين . جاء في تقرير Iraq Body Count أن عدد القتلى من العراقيين في سنة ٢٠٠٦ قد بلغ نحو (٢٨) ألف قتيل ، وقتل مثلهم في سنة ٢٠٠٧ . ويرى بلير أن هؤلاء هم ضحايا العنف الطائفي ، ولم يقتلوا على يد القوات الأمريكية والبريطانية .

يثني بلير على قرار الرئيس الأمريكي جورج بوش (الابن) بإبدال بوب غيتس Bob Gates بدونالد رمسفيلد في تشرين الثاني ٢٠٠٦ ، ويشيد بقرار بوش بزيادة عدد القوات الأمريكية ، وباستراتيجية الاندفاع The Surge Strategy في العراق التي بدأت في أواخر سنة ٢٠٠٧ ، والتي حققت النتائج المرجوة منها . وهو جهد شاركت فيه القوات البريطانية بقيادة الميجور جنرال غريم لامب Graeme Lamb ، وقوات الأمن العراقية . يذكر بلير أن أعداد القتلى من العراقيين قلّت سنة ٢٠٠٨ ، فبلغت (٩٠٠٠) قتيل ، وانخفض هذا العدد سنة ٢٠٠٩ إلى (٤٠٠٠) قتيل ، ومع أيار ٢٠١٠ بلغ (٨٩٠) قتيلاً .

ويرى بلير أن حل الجيش العراقي وإصدار قرار اجتثاث البعث ساهما في تدهور الوضع الأمني وانتشار الفوضى في البلاد . ويبرر حل الجيش بقوله «والحقيقة أن الجيش ذاب واختفى» . أما أعضاء حزب البعث ، البالغ عددهم مليونين ، فقد تم طرد (٢٥) ألفاً من وظائفهم . ويرى بلير أن هذا القرار أقل حدة من برنامج اجتثاث الحزب النازي في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية . ويرى بلير أن حل الجيش واجتثاث البعث «كان بالإمكان بل ومن الواجب أن يتما بأسلوب مختلف» . ويتساءل : أية

دروس يمكن أن أستخلصها من احتلال العراق؟ فيجيب :

«أولاً : فلنفترض الأسوأ . اعتقدنا أن لدى العراق إدارة مدنية فاعلة ، وأن البنية الأساسية الرئيسية للحكم متينة وقديرة وتامة . ولكنها لم تكن كذلك . لقد دمر صدام البلاد كلها . كانت السيطرة تمارس الخوف والقوة . هي هكذا : فاشلة ، بأية طريقة متصورة ، بما في ذلك الأمن . سنكون في المستقبل مستعدين لحكومة ظل في طور التكوين مستعدة للعمل ، كما عملنا لإنشائها سنة ٢٠٠٤ ، والمعروفة حالياً بوحدة الاستقرار Stabilization Unit ، وهي هيئة دولية داخل الوزارة ، هدفها دعم الدول الخارجة من الحروب . . .

سنكون في وضع بناة الدول . وعلينا قبول تلك المسؤولية والاعتراف بها ، والتخطيط لها منذ البداية . كانت تلك فشلاً بالنسبة للعراق .

ثانياً : احتجنا لبناء قدرة محلية من السكان الأصليين للأمن بأسرع ما يمكن . وللحق بدأ هذا في العراق فوراً تقريباً . فالشرطة والأكاديميات ومراكز التدريب أنشئت في منتصف سنة ٢٠٠٣ . أما إنشاء جيش عراقي فكان تحدياً من نوع مختلف في أهميته . إنه يحتاج إلى وقت . وكما تشير مذكراتي التي بعثت بها إلى الرئيس بوش في أيار وحزيران ٢٠٠٤ ، كلف الجنرال بيترايوس بمهمة عملية «عرقنة» الأمن التي كانت ممتازة . ووضعت خطة لبناء جيش عراقي من العدم . إنه يحتاج إلى تدريب وضباط صف ووحدات مساندة وتجهيزات ومشروعية . ويحتاج كل هذا في ظروف يجب أن تكون بمراقبة دائمة لعدم الولاء أو التسلل .

صدر في حزيران ٢٠٠٤ قرار من الأمم المتحدة يمنح قوات الأمن العراقية السلطة التي تحتاجها ، وتضمن جدولاً زمنياً لتسلم السلطة . مع تشرين الثاني ٢٠٠٤ كنت قادراً على إرسال مذكرة تقول يبدو أن خطة بيترايوس كانت ناجحة ، ولكن مع نهاية السنة وكثافة الهجمات الإرهابية ، عدت ثانية إلى الموضوع وقلت إننا بحاجة إلى تحسين خطة «العرقنة» والإسراع في تطبيقها .

كانت الانتخابات في كانون الثاني ٢٠٠٥ لحظة حاسمة واضحة . انحرف التمرد نحو إيقافها . كان إياد علاوي ، رئيس الوزراء ، محبطاً بشدة ، لعجزه عن توفير الأمن الذي يحتاجه شعبه . وقعت شيكاً بـ(١٢٠) مليون دولار للقوات العراقية في الجنوب . ومنذئذ بعد أن خلف علاوي إبراهيم الجعفري ، ثم خلف الأخير نوري المالكي ، كنت في حالة حوار دائم مع الولايات المتحدة ومع رجالي ، حول كيفية

تحسين قدرات القوات العراقية بسرعة . والحقيقة أننا كنا بحاجة إلى مزيد من الوقت . مع حلول سنة ٢٠٠٧ كانوا جاهزين أو على الأقل في المراحل الأولى من القدرة المناسبة . وبمعنى أن الاندفاع العسكري كان سينجح إذا تزامن مع قدرة الحد الأدنى . بالعودة إلى الوراء سنة ٢٠٠٦ بخاصة ، صدمت من الضغط المتواصل والمفصل لتحسين خطة أسرع وأكثر فاعلية .

كان الموضوع الثاني المتجسد في جدول أعمال الاجتماعات هو الحاجة إلى الاتصال بالسنة . هذا هو الدرس الثالث : يجب على السياسة أن تصاحب الأمن وإعادة الإعمار . تعرض السنّة لعدم الاستقرار من خلال فقدانهم مكانتهم في السلطة كلها ، مع أنهم أقلية بين السكان . واحتاجوا لوقت لإدراك أننا لا نريد إبدال دكتاتورية شيعية بدكتاتورية سنية ، من البداية أعطينا الاتصال أولوية . غير أن بقايا جماعة صدام والقاعدة استغلوا مخاوف السنة بمهارة . وخلال العملية السياسية ، على الرغم من جهودنا ، كان لديهم شعور ثابت بالعزلة . وعرفنا أيضاً أن بعض الحركات الإرهابية كانت ممولة من قبل أثرياء من خارج العراق يخشون قوة الشيعة . ولما بدأ الشيعة بالانتقام ازداد شعور السنّة بالحرب الطائفية . وبدأ الناس خلال سنة ٢٠٠٦ يرون أن العراق يخوض حرباً أهلية . واقترح بعضهم تقسيم البلاد باعتباره الحل الوحيد .

في النهاية ، مع تعب المناطق السنّية من القتال المتواصل الذي جاءت به القاعدة ، بدأ السّنة يبحثون عن مخرج . وخلال سنتي ٢٠٠٧و ٢٠٠٨ ، وبمشاركة قوية من الميجور جنرال لامب ، عقدوا صفقات مع القوات المتعددة الجنسيات والحكومة العراقية . وانقلبوا على القاعدة التي سببت لهم الكثير من المتاعب والأحزان . وتم ذلك مع انطلاق عملية الاندفاع العسكرية ؛ فتحول اتجاه السنة . وكانت القوات الأمنية العراقية قد أضعفت القاعدة ، وانفض الناس من حولها .

وأظهر المالكي في أعماله ضد أتباع الصدر ، أنه مستعد لقتال المعارضين من الشيعة والسنة على حد سواء . وأظهر التقدم في الدستور ، مع كل مشاكله المتوقعة ، خلال سنة ٢٠٠٩ ، مدى هشاشة كل ما بقي . واستعاد العراقيون تفاؤلهم سنة ٢٠٠٨ .

كان لقائي الأخير مع المالكي في أواخر سنة ٢٠٠٦ . كان ما زال مكروهاً داخلياً . فقد اعتبره بعضهم طائفياً . لما التقيت به وجهاً لوجه ، ضغطت عليه ، وبينت

له الحاجة الملحة ليس لمجرد القول وإنما للعمل ، باعتباره يحكم كل العراق ، وليس شيعة العراق . رد بلغة بسيطة ، وقال : إن بعض المتمردين من رجال صدام ، الذين لا يقبلون بالمصالحة ، لا بد من سحقهم . وإنه تلقى من مقتدى الصدر ما يكفيه ، ولن يتسامح مع رجاله . لم أصدقه آنذاك .

كنت على خطأ . فقد قام بتجريد جماعة الصدر من أسلحتهم . وفي انتخابات سنة ٢٠١٠ ترأس المالكي وعلاوي قائمتين تجاوزتا الحدود الطائفية . واستمر الرئيس جلال الطالباني يقوم بدور محوري توحيدي» .

وخلاصة القول ، يعتبر توني بلير غزو العراق واحتلاله والصراع الذي دام تسع سنوات ونيف بين قوات الاحتلال والمقاومة العراقية ، جزءاً من حرب أوسع تشمل العالم كله ضد الإرهاب الإسلامي . ويطالب كل دولة غربية بإنفاق المليارات كل سنة لحماية سكانها من هذا الإرهاب .

الغزو الأمريكي-البريطاني للعراق

من خلال قراءتنا لمذكرات سبعة من الساسة ورجال الاستخبارات الغربيين عن الغزو الأمريكي-البريطاني للعراق، يتضح لنا اتجاهان بارزان في تبرير هذا الغزو، وفي تحليل الوضع الإقليمي والدولي، وفي تفسير المقاومة الوطنية العراقية للاحتلال، والموقف من إدارة الاحتلال للبلاد. يمثل الاتجاه الأول القادة الذين قاموا بالغزو ودافعوا عنه، وأبرزهم الرئيس الأمريكي جورج بوش (الابن) وحليفه رئيس الوزراء البريطاني توني بلير، ووزيرة الخارجية السابقة مادلين ألبرايت، وبول بريمر ثاني حاكم للعراق في ظل الاحتلال. أجمع هؤلاء على أن المبرر لغزو العراق إنتاج العراق لأسلحة الدمار الشامل، ولاسيما الأسلحة الكيمياوية والبيولوجية، ومحاولات إنتاج السلاح النووي، وأصر هذا الفريق على وجود علاقة بين العراق ومنظمة القاعدة وغيرها من المنظمات الإرهابية والإسلامية، وتبرعات العراق بدفع (٢٥) ألف دولار لكل أسرة يشارك أحد أبنائها في العمليات الانتحارية في فلسطين المحتلة، وتهديد العراق لإسرائيل. ولما تعذر على لجان المفتشين من الأمم المتحدة عن أسلحة الدمار الشامل إيجاد دليل على وجودها قبل الغزو وبعده في العراق، اعتبر هذا الفريق الحكم الفردي المستبد، الذي كان يمارسه صدام حسين، خطراً على أمن الولايات المتحدة وعلى أمن الغرب والعالم كله، ومبرراً كافياً لغزو العراق والإطاحة بنظام الحكم فيه. ونفى هذا الفريق أن تكون الرغبة في السيطرة على نفط العراق من دوافع غزو العراق واحتلاله.

أما الاتجاه الثاني فيمثله جورج تينيت وريتشارد هاس وجاك أوكونيل، ويرى هذا الفريق أن الشك في وجود أسلحة الدمار الشامل في العراق، وحتى افتراض وجودها، ليس مبرراً كافياً لإعلان الحرب على العراق. وأكد هذا الفريق عدم وجود علاقة عملية بين العراق وتنظيم القاعدة والمنظمات الإرهابية الإسلامية الأخرى. ونفى هذا الفريق أيضاً مزاعم الفريق الأول وأنصاره في الإدارة الأمريكية، بوجود أية

علاقة بين العراق ومدبري أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١ . وذهب هذا الفريق إلى أن التفكير بغزو العراق يعود إلى آخر أيام إدارة بيل كلنتون ، التي أصدرت قانون تحرير العراق سنة ١٩٩٨ . كما أن إدارة الرئيس جورج بوش (الابن) جاءت وهي تحمل فكرة الغزو ، واتضح هذا لدى نائب الرئيس ديك تشيني ، ووزير الدفاع دونالد رمسفيلد ، والمحافظين الجدد في إدارة بوش (الابن) . وبدأت وزارة الدفاع بوضع الخطط لغزو العراق واحتلاله بعد استلام هذه الإدارة السلطة بثلاثة أشهر . وهذا ما أكده جورج تينيت ، المدير العام لوكالة الاستخبارات المركزية بين سنتي ١٩٩٧و ٢٠٠٤ ، وريتشارد هاس الموظف الكبير في وزارة الخارجية الأمريكية في إدارة بوش (الابن) .

حاول الفريق الأول إخفاء الأخطاء التي ارتكبتها الإدارة الأمريكية في إدارة العراق في ظل الاحتلال ، وحاول تفسير المقاومة الوطنية العراقية تفسيراً خالياً من العقلانية والمنطق . فبعضهم عزاه إلى دخول تنظيم القاعدة إلى العراق في عهد صدام حسين ، والى تدخل إيران في شؤون العراق ، مثلما عزاه بعضهم الآخر إلى بقايا حزب البعث العربي الاشتراكي وفدائيي صدام ، وفقدان الطائفة السنية لسلطتها ونفوذها اللذين كانت تتمتع بهما في عهد صدام حسين . وأكد هذا الفريق أن الشعب العراقي رحب بالاحتلال واعتبره تحريراً له من استبداد صدام وظلمه . وأشاد هذا الفريق بموقف الطائفة الشيعية المؤيد للاحتلال ، وتعاون المراجع الدينية لديها وعلى رأسها آية الله العظمى علي السيستاني . وقد أبرز بول بريمر هذا الدور في مذكراته بجلاء . وأنكر هذا الفريق من الساسة الغربيين الدور الذي قامت به إدارة الاحتلال ، في إثارة النعرات الطائفية بدعم العراقيين في المنفى ، الذين جاءت بهم قوات الغزو والاحتلال ، وعلى رأسهم أحمد الجلبي الذي حظي بدعم ومساندة وزارة الدفاع الأمريكية التي تولت إدارة العراق في ظل الاحتلال . وأجمع رجال الاستخبارات الأمريكية على أن هؤلاء العراقيين جاؤوا يحملون الرغبة في الانتقام من السنة بعامة ومن البعثيين بخاصة . ولا عجب أن يتولى أحمد الجلبي رئاسة لجنة اجتثاث البعث .

ويبالغ الفريق الأول في الإنجازات والمكاسب التي حققها الاحتلال للشعب العراقي ، عن طريق «مكتب إعادة الإعمار والمعونة الإنسانية» ، الذي تحول بعد بضعة أشهر إلى «سلطة الائتلاف المؤقتة» . ويعتبر هذا الفريق نقل السيادة إلى حكومة عراقية مؤقتة في حزيران ٢٠٠٤ إنجازاً عظيماً . والواقع أن هذه الحكومة كانت مجرد

صورة ، والحكم الحقيقي في يد قائد القوات الأمريكية المحتلة والسفارة الأمريكية في بغداد ، بين سنتي ٢٠٠٣ و٢٠١١ . وظل العراق خاضعاً للعقوبات التي فرضت عليه منذ غزو العراق للكويت سنة ١٩٩٠ ، بموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة . وسيطر الأمريكيون على نفطه وعلى مقدراته السياسية والاقتصادية .

أما الفريق الثاني فقد أبرز الأخطاء التي ارتكبتها إدارة بوش (الابن) في احتلال العراق . وكان أول هذه الأخطاء تولي وزارة الدفاع إدارة العراق . ويرى هذا الفريق أنه كان من الواجب تولي الأمم المتحدة هذه المهمة ، بالتعاون مع ممثلي الشعب العراقي ، أو إشراك العراقيين منذ البداية في إدارة بلادهم بالاعتماد على التكنوقراط ، ولو كانوا من المنتمين إلى حزب البعث . وكان أكبر الأخطاء تعيين جاي غارنر الجنرال المتقاعد حاكماً للعراق مع السفير الأمريكي زال خليل زاد ، اللذين برهنا على فشلهما وعجزهما عن إدارة البلاد خلال الشهرين الأولين من الاحتلال . فما كان من إدارة بوش إلا أن ارتكبت الخطأ الثاني بتعيين بول (جيري) بريمر مكانهما . وكان بريمر ينفذ تعليمات وزارة الدفاع في واشنطن . وكان أكبر الأخطاء التي ارتكبها أو نفذها بريمر ، إصدار قرار اجتثاث البعث ، وقرار حل القوات المسلحة والقوات الأمنية العراقية ، والتردد في إنشاء جيش عراقي جديد وقوات أمنية وجهاز للمخابرات العامة العراقية .

لقد أدى هذان القراران ، كما يذكر ريتشارد هاس وجورج تينيت وجاك أكونيل ، إلى تدهور الوضع الأمني ، والتحاق عشرات الآلاف من البعثيين وضباط وضباط صف القوات العسكرية العراقية بالمقاومة الوطنية للاحتلال . وأسفرت معاملة سلطات الاحتلال الأمريكية للسكان ، على أساس طائفي ، إلى إثارة النعرات الطائفية والاثنية والدينية والعشائرية . وساهمت في انطلاق الحرب الأهلية في العراق منذ بداية الاحتلال وحتى اليوم . وأدى دستور العراق الذي صيغ في ظل الاحتلال وبمشاركة من إدارة الاحتلال ، إلى ترسيخ الانقسامات الاثنية والدينية والطائفية في البلاد ، وتمزيق لحمة الشعب العراقي .

وحاولت وزارة الدفاع الأمريكية التنصل من مسؤولياتها ومن الأخطاء التي ارتكبتها في العراق ، وتحميلها لوكالة الاستخبارات المركزية ، كما بيّن ذلك جورج تينيت في مذكراته . والواقع أن فشل الإدارة الأمريكية في العراق ، كان له نتائجه داخل الولايات المتحدة نفسها ، في الكونغرس وفي وسائل الإعلام التي ما انفكت

تهاجم الرئيس بوش (الابن) ونائبه ديك تشيني ، ووزير الدفاع دون رمسفيلد ، ومستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس .

والواقع أن احتلال العراق قد أثر سلبياً على المنطقة العربية بأسرها ، وعلى جميع الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وما زالت المنطقة تعاني منه حتى اليوم .

المصادر

1- Albright, Madeleine with Bill Woodward, *Madam Secretary: A Memoir*, London; Pan Macmillan, 2003.

2- Attali, Jacques, *Verbatim*, Tome 1, 1981-1986, Paris, Librairie Arthème Fayard, 1993.

Tome 2, 1986-1988, Paris, Librairie Arthème Fayard, 1995.

3- Baker, III, James A. with Thomas Defrank, *The Politics of Diplomacy: Revolution, War and Peace*, New York, G.P. Putnam`s Sons, 1995.

4- Billiere, General Sir Peter de la, *Looking for Trouble: SAS to Gulf Command. The Autobiography*, London, Harper Collins Publishers, 1995.

5- Blair, Tony, *A Journey: My Political Life*, New York, Toronto, Alfred A. Knopf, 2010.

6- Bremer, L. Paul with Malcolm McConnell, *My Year in Iraq: The Struggle to Build a Future of Hope*, New York, London, Threshold Editions, 2006.

7- Bush, George W., *Decision Points*, New York, Crown Publishers, 2010.

8- Cheney, Dick, with Liz Cheney, *In My Time: A Personal and Poitical Memoir*, New York, London, Tomoto, Sydney, New Delhi, Threshold Editions, 2011.

9- Chevènement, Jean-Pierre, *Une certaine idée de la République m'amené à*.; Paris, Editions Ablin Michel, 1992.

10- Haass, Richard N., *War of Necessity, War of Choice, A Memoir of Two Iraqi Wars*, New York, London, Toronto, Sydney, Simon and Schuster Paperbacks, 2010.

11- Heath, Edward, *The Course of My Life: My Autobiography*, London, Hodder and Stoughton, 1998.

12- Hurd, Douglas, *Memoirs*, London, Little Brown, 2003.

13- Major, John, *The Autobiography*, London, Harper Collins Publishers, 1999.

14- Nixon, Richard, *Seize the Moment, America's Challenge in a One-Superpower World*, New York, London, Toronto, Sydney, Tokyo, Singapore. Simon and Schuster, 1992.

15- O'Connell, Jack, with Vernon Loeb, King's Counsel: *a Memoir of War, Espionage and Diplomacy in the Middle East*, New York, London, W.W. Norton and Co., 2011.

16- Powell, Colin, with Joseph E. Persico, *My American Journey*, New York, Ballantine Books, 1996.

17- Schwarzkopf, Général H. Norman, avec la collaboration de Peter Petre, *Mémoires*, Traduit de l'anglais Par Pierre Girard, Edith Ochs et Frank Straschitz, Paris Librairie Plon, 1992.

18- Tenet, George with Bill Harlow, *At the Center of the Storm: My Years at the CIA*, New York, Harper Collins Publishers, 2007.

19- Thatcher, Margaret, *The Downing Street Years*, London, Harper Collins Publishers, 1993.

GULF WARS IN THE MEMOIRS OF WESTERN POLITICAL AND MILITARY LEADERS

حروب الخليج في مذكّرات الساسة والعسكريّين الغربيّين

إذا استثنينا الانتفاضات الثوريّة العربيّة والحراك السياسيّ الّذي رافقها، مطالبًا بالتغيير والإصلاح الشاملين، منذ نهاية 2010 حتّى اليوم، فإنّ حروب الخليج الثلاث: الحرب العراقيّة - الإيرانيّة (1980- 1988)، وغزو العراق للكويت (1990- 1991)، والاحتلال الأمريكيّ - البريطانيّ للعراق (2003- 2011)، تعدّ من أهمّ الأحداث الّتي شهدها الوطن العربيّ في العقود الزمنيّة الثلاثة الأخيرة. وقد شدّت هذه الحروب الساسة والعسكريّين ورجال الفكر والصحافة في البلاد العربيّة والغرب، واختلف هؤلاء، مثلما اختلف الناس جميعًا في مواقفهم من هذه الحروب، وفي تحليلهم لأسبابها وبيان النتائج الّتي أسفرت عنها.

صدرت أبحاث ومؤلّفات كثيرة عن هذه الحروب، أثناءها أو في أعقابها؛ وصدرت، في أوقات لاحقة مذكّرات الساسة والعسكريّين الغربيّين الّذين شاركوا في هذه الحروب، وجمعت منها تسعة عشر كتاباً لشخصيّات أمريكيّة وبريطانيّة وفرنسيّة ، رأيت ، بعد قراءاتها ، أن ألخّص ما فيها من مواقف وأفكار وآراء للقارئ العربيّ؛ وحرصت على عرض ما فيها بأمانة ودقّة ، واقتباس بعض نصوصها لتقديم صورة واضحة وصادقة عنها .

◆ من المقدّمة

ISBN 978-614-419-153-8

9 786144 191538